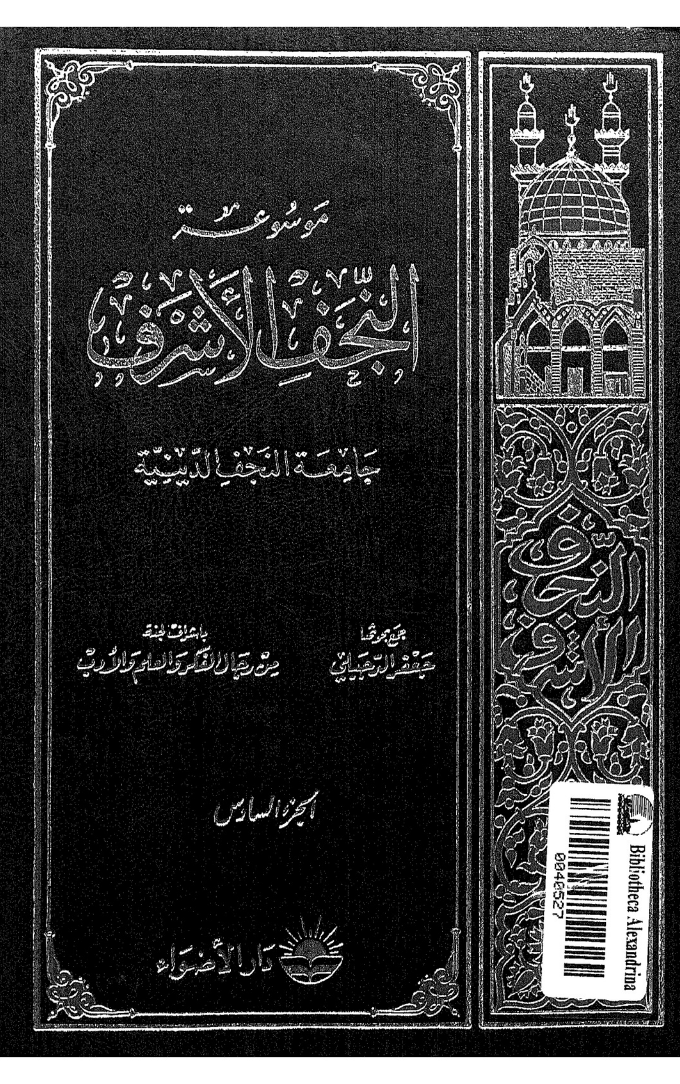
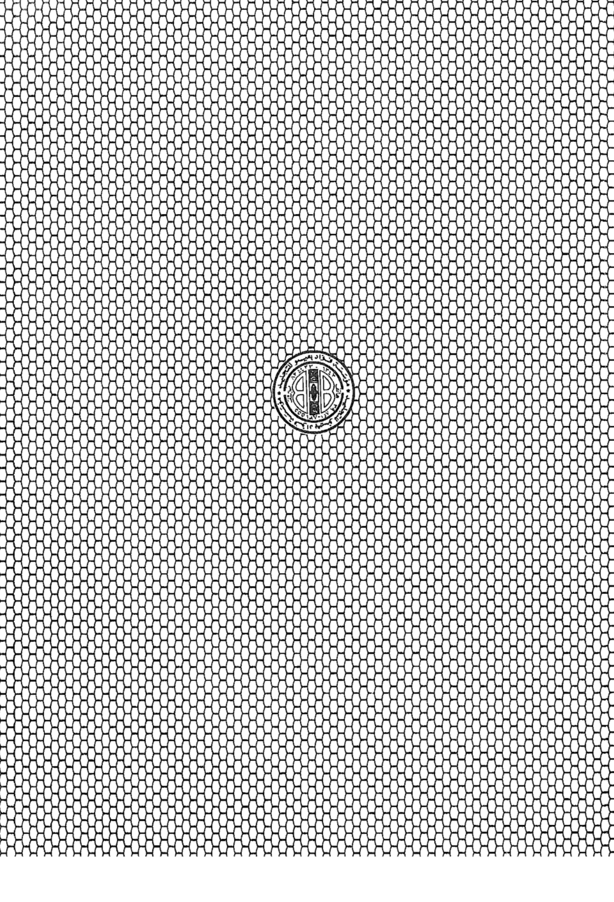
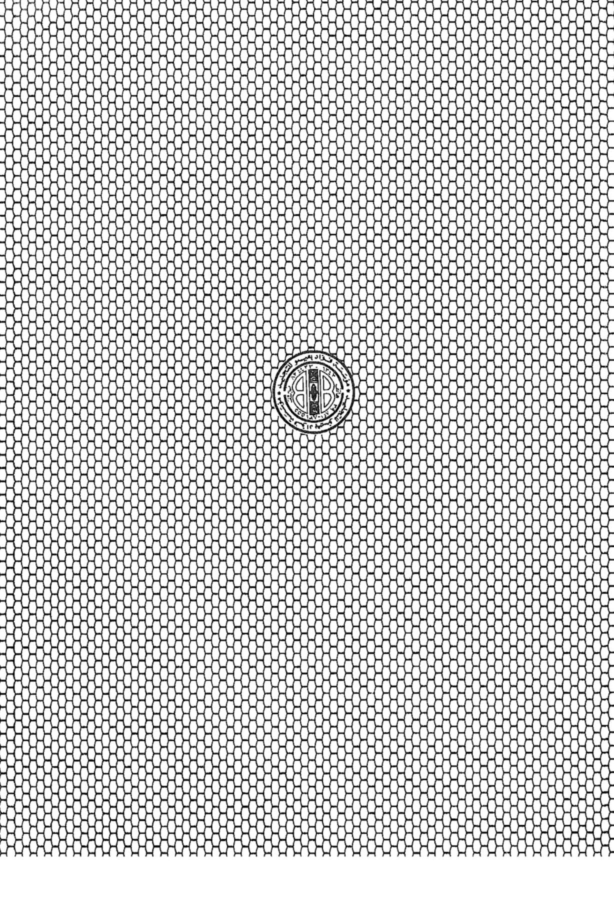

موسوعة
النجف الأشرف
جامعة النجف الدينية
جمع وتحقيق
جعفر الدجيلي
بإشراف لجنة
من رجال الفكر والعلم والأدب
الجزء السادس
دار الأضواء
النجف الأشرف
Bibliotheca Alexandrina
0040527







جامعة النجف الدينية

جمع بحوثها
جعفر الدجيلي

بإشراف
لجنة من رجال الفكر والعلم والأدب

الجزء السادس



الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب / ٢٥/٤٠ غبيري فاكس / ٦٠١٠١٩
تلكس / ٢٣٤٠٧ هادي - بيروت - لبنان

تقريض

بقلم سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الفقيه

المواضيع التي احتوتها موسوعة النجف الأشرف كانت خيالاً يعيش في نفوس المفكرين جيلاً بعد جيل، فإذا انطوى جيل منهم بقي هذا الخيال حلماً يعيش مع الآخرين، ولم يزل هذا الحلم باقياً لأنه يستحق الحياة.

ولم يكتب له الخروج إلى الوجود، لأن الإحاطة بالموضوع الواحد منها فوق قدرة الفرد، بل أكثر مما يستطيع الأفراد.

وأما الإحاطة بجميعها فإنه مجهود عظيم كان يرهب المفكرين لأنهم يعلمون أنه يحتاج جمهوراً من أرباب الفكر والعلم والأقلام، ويحتاج أيضاً لجمع المصادر المتفرقة في الأقطار، المطبوعة منها والمخطوطة، عربية كانت أو غير عربية، سواء أكان بالشراء أو الاستعارة أو الاستجداء، والأصعب من ذلك الحصول على الكتيبات الصغيرة التي لا يعتني بها أرباب المكتبات والتي هي في طريق الاندثار والزوال.

ولا ريب أن هذا العمل محتاج إلى ميزانية ضخمة كما هو واضح.

ومما يلفت الأنظار ولادة هذا المشروع في هذه الأيام وقد برز منه إلى الوجود البداية الضخمة التي تبشر بالوصول إلى النهاية، لأن الخطوة الأولى هي أصعب شيء في المسيرة، فقد برز منه خمس مجلدات ضخمة (والمجلد السادس بين يديك) في أقل من أربع سنوات، ويكفي أن يطلع القارىء على مجلد منها (ليجد نفسه مشدوداً لقراءته) فإن قراءته تشده إلى قراءة بقية الكتاب، وبعد ذلك يؤمن بأنه

كتاب قيم وبأنه يستحق البقاء وبأنه لا يستغني عنه مكتبة من المكاتب العامة أو مكاتب هواة الكتب، مضافاً إلى أن الشيعة في أقطار الدنيا يتشوقون إلى النجف الأشرف وإلى الحديث عنها وعن ماضيها وحاضرها، فإنهم إذا قرأوا هذا الكتاب رأوا أنفسهم كأنهم يعيشون في النجف الأشرف مع الأجيال السابقة وكأن الأجيال السابقة والنجف القديمة تعيش معهم.

وها هنا سؤال أو أسئلة تطرح نفسها، من هو الذي قام بهذا المشروع العظيم؟ وكيف تمكن من جمع المصادر؟ ومن هو الذي موّله؟ وهل هو واحد أو آحاد؟

أجل إنه الحاج محمد جعفر الدجيلي النجفي، وإذا أردت أن أحدثك عنه، حدثتك عن رجل يعيش في السوق تاجراً من المتفوقين في التجارة، ويعيش بين العلماء كأنه واحد منهم ومخلص للعلم والعلماء، ويعيش بين الساسة ورجال الحكم كأنه مسؤول كبير في الدولة، ومخلص للحكم والحكام، ثم كتب عليه التهجير من النجف الأشرف إلى لبنان بسبب الأحداث الأخيرة، والهجرة النبوية هي التي فتحت الطريق للإسلام، ومثلها كل هجرة.

ثم قضى معظم وقته في زيارة العلماء وأرباب المكاتب والتحدث في الموضوع، فجمع حوله من أرباب الفكر والأقلام المتفوقة عدداً لا بأس به، ولم يأل جهداً في استحضار أقل مصدر من المصادر، ولا يفوتني أن أقول إنه كانت مكتبته في النجف من أعظم المكاتب، ولا أجد مهجة للتحدث عنه أكثر من ذلك.

وإني أبشره بإثنتين، وأنصحه بواحدة، أبشره بأن الكتاب الآن بدأ بالنمو السريع وبأنه يشق طريقه لنفسه بنفسه وأنصحه بأن يغدق على أعوانه من أرباب الفكر والأقلام ليزدادوا عزيمةً ونشاطاً.

الشيخ محمد تقي الفقيه

صور- ١٩٩٥/١/٨م
الموافق ٧ شعبان المعظم ١٤١٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤسس

نقدم الجزء السادس من موسوعة النجف الأشرف التي كانت حلماً خلال سنوات قبل سنة ١٩٩٠، وكنت أشك بأنَّ في استطاعتي إصدار أجزاء من هذه الموسوعة، وصرت ألجأ إلى الدعاء، فدعوت الله أن يمنَّ عليَّ بالتوفيق لأصدر ولو مجلدين فحسب، واستجاب الله سبحانه وتعالى دعائي المنطلق من الصميم.

ففي سنة ١٩٩٣ صدرت الأجزاء الثلاثة الأولى، وفي سنة ١٩٩٤ صدر الجزءان: الرابع والخامس.

ولكم كنت أتمنى أن تصدر هذه الأجزاء بأسلوب أرقى، وصياغة جديدة، لكن محاولاتي باءت بالفشل، وذلك لأن هذا الأمر يحتاج إلى أعوان لديهم القدرات الكبيرة، ويتمتعون بالإخلاص للعلم، وهؤلاء موجودون في النجف الأشرف، ولسوء الحظ فإن المواصلات وسبل الاتصال متعسرة.

أحمد الله تعالى على فضله وأشكره على ما أعطى داعياً ربي سبحانه وتعالى أن يوفق أولادي ـ سلمهم الله ـ لإكمال هذا المشروع.

ولا بد أن أسجل شكري لجميع الأعلام الأفاضل الذين ساعدونا بكتابة الأبحاث، والذين تفضلوا علينا بقراءة الأجزاء، وإعطاء ملاحظاتهم التي سندونها في الطبعة القادمة إن شاء الله.

ونشكره تعالى على توفيقه فلقد كان الإقبال المتزايد على الموسوعة في

مختلف البلاد العربية والإسلامية مما يثير إعجابنا، حيث لم يكن هذا في حسابنا حين أقدمنا على الطباعة، وكان غرضنا إعطاء صورة جلية عن مدينة النجف الأشرف.

نكرر رجاءنا من الأفاضل قارئي هذا الكتاب إعطاءنا ملاحظاتهم وتنبيهنا للأخطاء ليتسنى لنا التخلص منها في طبعاتنا القادمة وعلى الله الاتكال ومنه العون.

جعفر هادي الدجيلي
٧ ربيع الثاني ١٤١٥هـ
١٢ أيلول ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم
تقديم

بقلم الدكتور محمودالبستاني

يشكل التراث الاجتماعي «للأمة» أي أمةٍ مفتاحاً لشخصيتها العامة، بحيث تتقوم من خلالها إيجاباً أو سلباً، ويكتسب هذا التراث قيمته الإيجابية ـ بشكل عام ـ بقدر ارتباطه بمبادىء السماء في المجتمعات الإسلامية، وبقدر انصبابه في النزعة الإنسانية في المجتمعات غير الإسلامية.

وهناك منحنيات متنوعة لتقويم التراث إيجابياً، منها: امتداده الزماني، أي بقدر عمره، فبقدر ما تمتد به السنين يكتسب قيمته الخاصة

ومنها: البعد المكاني أيضاً، أي يكتسب بعداً آخر من الأهمية عندما يحتويه مكان مقترن بالقدسية.

ومنها: بعده الثقافي أو الفكري، فإذا حددنا مصطلح «الثقافة» بكونها تعني دلالتها الخاصة بالنشاط العلمي (دون تحديدها العام الذي يعني مطلقاً الأفكار والعادات والتقاليد والأعراف) حينئذ فإن البعد الثقافي يظل ـ في الواقع ـ هو المعلم يكتسب قيمته الأشد نصوعاً بصفة أن النشاط العلمي يتطلب أدوات فنية لا تتطلبها أبعاد التراث الآخر أي العادات والتقاليد والأعراف. إلخ...

وفي ضوء هذه الحقائق الأربع، أي: (١) انتساب التراث الاجتماعي إلى مبادىء الله تعالىٰ. (٢) بروز البعد العلمي منه. (٣) امتداده الزماني. (٤) اقترانه بالقدسية المكانية... في ضوء الحقائق المذكورة، نجد أن «الحورة العلمية في

النجف» تحتل أهمية «متميزة» من تراث الأمة أو المجتمع الإسلامي لا تضارعها أشكال التراث الاجتماعي الأخرى، فالنجف (مكان مقدس) بصفته مرقداً للإمام علي (ع) ونشاطه الحوزي يمتد «زمانياً» إلى ألف سنة وهو زمان من النادر أن تحتفظ المجتمعات بتراثه، وهوية نشاطه هي: النشاط العلمي المتمثل في الفقه وأدواته، والعقائد، والأخلاق، وسائر ما يتصل بالثقافة الإسلامية، مضافاً إلى كون هذه جميعاً تنسب إلى مبادىء الله تعالىٰ. فإذا أضفنا إلى ذلك كله عدم تحجيم هذا التراث، بل تسربه إلى خارج المجتمع النجفي، بصفة أن الحوزة العلمية في النجف هي مركز إشعاع لسائر المجتمعات الإسلامية.

ثم إذا جمعنا إلى هذه الأبعاد التراثية أبعاداً تراثيةً أخرى تتصل بالحركات الاجتماعية والإصلاحية التي عرفتها الحوزة العلمية مثل إسهامها في الحركات التحررية وغيرها، حينئذٍ يتحدد لنا مدى أهمية الحوزة العلمية في النجف.

من هنا، فإن موسوعة النجف الأشرف حينما تقدم إلى القارىء الكريم ما يخص «الحوزة العلمية» أو ما يعرف بجامعة النجف الدينية بدءاً من نشوئها مرور بالأدوار التي شهدتها، وانتهاء بمادتها الدراسية... فأساليبها... فمدارسها، ثم بمرجعيتها وعلمائها.. إلخ... حينما نقدم ذلك عندئذٍ نتبيَّن مدىٰ أهمية تراثها الثقافي الضخم وهو أمر متروك إلى القارىء في وقوفه على البحوث المفصلة التي تتناول الجوانب المشار إليها في (الموسوعة المذكورة).

محمود البستاني

بيروت في ٢٥ صفر ١٤١٤هـ

١٣ آب ١٩٩٣م

بين علي (ع) .. والنجف!

بقلم: الشيخ محمد جواد الفقيه

بسم الله الرحمن الرحيم

النجف، أو ظهر الكوفة، أيام علي (ع) كانت أرضاً قاحلةً لا شيء فيها سوى مقابرٍ وبقايا أطلالٍ عفا عليها الزمان.

وهي مع ذلك، كانت مهوى عليّ (ع) في حياته، وأمنيته أن يدفن فيها بعد مماته، فلطالما كان يخاطب تلك البقعة ويقول:

«ما أحسن منظرك، وأطيب قعرك! اللهم اجعل قبري بها. . .»[١].

يخاطبها بهذه الكلمات وكأنه قد انطوى على سرّ لا يعجزه بيانه، إلا أنه قد يعجز سامعيه حين يكونون أقصر فهماً من أن يدركوا ما أراد! فهذا هو ديدن عليّ «ع» في إدراكه كنه الحقائق، وتلك هي مشكلة رعيّته التي لم تدرك قيمة عليّ في حياتها.

«النجف أول بقعةٍ عبد الله فيها. .»[٢] «ووادي السلام. . وإنها البقعة من جنة عدن. .»[٣].

بهذا حدّث علي «ع» سامعيه، وكأنه يكشف لهم بعضاً من تلك الأسرار التي انطوى عليها فيما يخص «النجف» أو «ظهر الكوفة» كما كانوا يسمونها أولاً،

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ص١٠٠/ ص٢٣٢.

(٢) نفس المرجع. (٣) نفس المرجع ص٢٣٤.

وكأنه أيضاً كان بكلماته تلك يدعو الناس إلى سكناها أو الإقامة فيها، أو زيارتها على الأقل، أو أن تكون مثوىً لأجسادهم بعد الممات.. فهي البقعة من جنة عدن..!

لقد كانت النجف في البداية منتجعاً روحياً لأمير المؤمنين وسيد المسلمين، يهوي إليها حينما تتراكم على قلبه هموم الحكم وهموم الرعيّة، فيقصدها كما يقصد الحبيب حبيبه، يقصدها وحده حيث يجد في أريج تربتها ما لا يجده في النجي الصفي، فيفضي إليها بأسراره!!

لقد كان يفترش تلك الأرض مصوباً نظره نحو السماء، مغرقاً في تأملاته، ثم ما يلبث أن يتمتم بشفتيه وكأنه يقرأ شيئاً ما يلوح أمامه من عالم الغيب!.

لقد كان تعلقه بتلك الأرض يوحي بأن لها شأناً عظيماً، فلقد كان يحبها كما كانت تحبّهُ. وكان يهوى المكوث فيها وكأن بينه وبينها سرّاً ما... بل أسراراً.. «فكان إذا أراد الخلوة بنفسه أتىٰ إلى طرف الغري...»[1].

ولعل ذلك يرجع إلى سرّ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أفضى به إليه ذات يوم حين كان يحدثه ـ وهو في المدينة ـ عن بعض بقاع الأرض التي شرّفها الله فقال له:

«ثم أرض كوفان فشرفها بقبرك يا علي!

فقال علي ـ متعجباً ـ: يا رسول الله، أقبرُ بكوفان العراق؟!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم يا علي، تقبر بظاهرها قتلاً بين الغريين والذكوات البيض..!!»[2].

كما سمع منه أيضاً صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يحشر من ظهرها ـ يعني ظهر الكوفة ـ سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» مما حدا بعلي (ع) إلى شراء تلك الأرض، فقد ورد في بعض الأحاديث عن آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنه اشترى ما بين الخورنق وإلى الحيرة، إلى الكوفة من

---

(١) المرجع السابق/٢٣٣. (٢) موسوعة العتبات المقدسة للخليلي قسم النجف ١/٦٨.

الدهاقين بأربعين ألف درهم، وأشهد على شرائه».

فقيل له: يا أمير المؤمنين، تشتري هذا بهذا المال، وليس تنبت خمطاً؟!*.

فقال عليه السلام: سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كوفان، يرد أولها على آخرها، يحشر من ظهرها سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب»، واشتهيت أن يحشروا في ملكي[1].

ولذلك رأينا التأريخ يحدثنا عنه عليه السلام أنه أوصى بنيه حين حضرته الوفاة بقوله: (إذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخويّ هود وصالح)[2].

إذن، كان بينه وبين النجف علاقة حميمة، وصلة وثيقة يشدانه إليها، فكان يقصدها للاختلاء فيها بنفسه، يقصدها وحده، ولكن الصفوة من أصحابه لم يكونوا لتفوتهم تلك الفرصة بالتشرف معه. فكانوا يتبعونه دون علم منه لأنهم كانوا يهابونه فلا يجدون الجرأة في أنفسهم للدخول معه في أمرٍ يخصه، ولأنهم يدركون أن نفس عليّ أكثر ما تفيض سماحةً في ساعات الخلوة والصفاء، فكانوا يغتنمون الفرصة في اللحاق به، وعليّ (ع) أكرم من أن يردهم عن ذلك!

حدث الأصبغ بن نباتة فقال: «خرج أمير المؤمنين (ع) إلى ظهر الكوفة فلحقناه، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، فقد مُلئت الجوانح مني علماً! كنت إذا سألتُ أعطيتُ، وإذا سكتُّ ابتديت... ثم مسح على بطنه فقال: أعلاه علمٌ. وأسفله ثفل*»[3].

ثم مرّ حتى أتى الغريين، فلحقناه وهو مستلقٍ على الأرض بجسده ليس تحته ثوب، فقال له قنبر: يا أمير المؤمنين، ألا أبسط تحتك ثوبي؟ قال: لا، هل

---

(1) نفس المرجع.
(2) نفس المرجع.
(3) البحار ١٠٠/ ٢٣٤ - ٢٣٥.
* الثفل: السافل من كل شيء، وقوله (ع): إذا سألت: أي إذا سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقوله: إذا سكتُّ ابتديت، أي يبدأه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتعليم.

هي إلا تربة مؤمنٍ ومن أحمّتُهُ في مجلسه؟[١].

فقال الأصبغ: تربة المؤمن قد عرفناها، كانت أو تكون، فما من أحمّتُهُ في مجلسه؟

فقال (ع): «يابن نُباتة! لو كشف لكم لألفيتم أرواح المؤمنين في هذه حلقاً حلقاً يتزاورون ويتحدثون، إن في هذا الظهر روح كل مؤمن.. الحديث»[٢].

وعن حبّة العرني، قال: «خرجت مع أمير المؤمنين (ع) إلى الظهر (ظهر الكوفة) فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب الأقوام، فقمت بقيامه حتى أعييت، ثم جلست حتى مللت! ثم قمت وجمعت ردائي فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام، ثم طرحت الرداء ليجلس عليه، فقال:

يا حبّة، إن هو إلا محادثة مؤمنٍ أو مؤانسته.

قال، قلت: يا أمير المؤمنين، وإنهم لكذلك؟

قال: نعم، لو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً محتسبين يتحادثون.

فقلت: أجسام أم أرواح؟

فقال: أرواح، وما من مؤمنٍ يموت في بقعةٍ من بقاع الأرض إلا قيل لروحه الحقي بوادي السلام، وإنها لبقعة من جنة عدن».

لقد أدرك علي عليه السلام بثاقب بصيرته، وبما وهبه الله من العلم قيمة تلك الأرض ومكانتها وعرف أسرارها، فكشف لنا بعضاً من ذلك، وقد ظهرت بعض أسرارها فيما بعد كما ظهرت قيمتها، وها هي اليوم تكبر وتكبر...!!

محمد جواد الفقيه

١٩٩٢/٧/٣٠

---

(١) أحمّته، من الحامّة، وهم الخاصة، وحامّة الرجل أقرباؤه.

(٢) البحار ١٠٠/٢٣٤ ـ ٢٣٥.

كليات العلوم الدينية في النجف الأشرف (العراق)
(نموذج للدراسة الجامعية الحرة)(*)

بقلم الدكتور فاضل الجمالي[1]

إن مدينة النجف في العراق تحوي مرقد الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) رابع الخلفاء الراشدين والإمام الأول للشيعة الاثني عشرية. إنها تُعدّ من البلاد الإسلامية المقدسة، فهي تحتل الدرجة الرابعة بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. يأتي إليها المسلمون (الشيعة خاصة) للزيارة من كل أنحاء المعمورة. ويأتون إليها بموتاهم ليُدفنوا فيها ذلك إذا كانوا من الموسرين.

(*) هذا المقال هو تعريب النص الأصلي للمحاضرة التي ألقاها الدكتور الجمالي في المجلس الثقافي البريطاني في بغداد عام ١٩٥٧، وقد تفضل بإرسال هذه المقالة ضمن كتاب مرسل إلى مؤسس الموسوعة الحاج جعفر الدجيلي.

(١) ولد الدكتور فاضل الجمالي في مدينة الكاظمية ـ العراق ـ سنة ١٩٠٣ ـ تخرج من دار المعلمين الابتدائية في بغداد ـ درس العلوم الدينية والعربية في مدرسة الإمام الخالصي في الكاظمية[1] ـ تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت. ثم نال الماجستير من كلية العلوم بجامعة «كولومبيا» ثم دكتور فلسفة، منح وسام الخدمة الممتازة في التعليم من جامعة «كولومبيا» ثم شغل منصب مدير عام للتربية والتعليم في العراق لمدة تزيد على العشر سنوات وفي سنة ١٩٤٧، عين مديراً عاماً لوزارة الخارجية العراقية ثم وزيراً للخارجية ثمان مرات، ثم انتخب رئيساً للمجلس النيابي مرتين. ومن بعدها رئيساً للوزراء مرتين. ساهم في مؤتمرات عدة بصفة رئيس وفد عدة مرات.

حكم عليه بالإعدام في عام ١٩٥٨ ثم استبدل الحكم إلى السجن، ثم أفرج عنه سنة ١٩٦١.
قدم إلى تونس عام ١٩٦٢ للتدريس في جامعتها، ولا زال فيها إلى اليوم عالماً كاتباً محاضراً في الشؤون التربوية والعربية الإسلامية. بلغت مؤلفاته ثلاثين كتاباً.

---

(١) وليس غريباً عليه الدخول في مدارس العلوم الدينية فإن أباه الشيخ عباس الجمالي (رحمه الله) قد زاول طلب العلوم الدينية في النجف الأشرف في مدرسة الأخوند حوالي عشرين سنة.

إن مدينة النجف تبعد ثلاثة أميال عن «الكوفة» التي تقع على نهر الفرات والتي تحوي الجامع الذي صلى فيه الإمام علي بن أبي طالب. إن النجف والكوفة متقاربتان مترابطتان، فيمكن اعتبار الكوفة ميناءً للنجف على نهر الفرات واعتبار النجف ميناءً للكوفة على الصحراء.

والكوفة كانت العاصمة الإسلامية الأولى في العراق واشتهرت بمدرستها في «علم النحو» فكانت تنافس مدرسة البصرة في هذا العلم. ثم إن النجف أصبحت أعظم مركز للدراسة الدينية للشيعة الاثني عشرية فيمكن مقارنة الدراسة فيها بالدراسة في الأزهر (القاهرة) أو الزيتونة (تونس) أو القرويين (فاس).

إن الدراسة الدينية المعمقة لها أهمية خاصة عند الشيعة الاثني عشرية وذلك لضرورة تجديد الاجتهاد في الحياة الدينية عند المسلمين الشيعة.

والاجتهاد يتطلب درجة عالية من العالميّة في الشؤون الدينية بحيث يتمكن المجتهد من استنباط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والمطلوب أن تتطور الأحكام بتطور الأزمان وعلى المسلم الشيعي (إذا لم يكن هو نفسه مجتهداً) أن يتبع أحكام مجتهد ما زال على قيد الحياة. فإذا مات المجتهد ماتت معه أحكامه إلا ما يتبناه منها أحد المجتهدين الأحياء. أما المسلم السني فيتبع عادة أحكام أحد الأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل (رضي الله عنهم). فالمذهب السني لا يفرض اجتهاداً متجدداً بينما المذهب الشيعي يتطلب (نظرياً على الأقل) درجة عالية من الدراسة وتفكيراً دينياً أصيلاً وتحليلاً كاملاً وفحصاً دقيقاً للتعاليم الإسلامية في كل عصر لبلوغ درجة الاجتهاد.

إن النجف تعتبر المركز الرئيسي للدراسة الدينية للمسلمين الشيعة في العالم. هناك مدارس دينية في كربلاء والكاظمية وسامراء (في العراق) ومدارس مهمة في «قم» في إيران ولكنها لا تنافس النجف في أهميتها. فالنجف هي المدينة التي يقصدها طلاب العلوم الدينية الشيعة من كل الجهات، وهي تصدّر للعالم الشيعي العلماء والقضاة والمعلمين في الشؤون الدينية: وقد صدق الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي (رحمه الله) حين وصف النجف بقوله:

وواردات بلدتي جنائز وصادرات بلدتي عمائم

كان في النجف يوم زرتها سنة ١٩٥٧ نحو الـ ٢٤ كلية دينية تدعى «مدرسة» أشهرها: مدرسة البروجردي، مدرسة السيد كاظم اليزدي، مدرسة الآخوند (ملا كاظم) مدرسة الهندي، مدرسة قوام، مدرسة الصّدر، مدرسة الأحمدية، مدرسة كاشف الغطاء، مدرسة المهدية... إلخ.

يدرس في هذه الكليات ويسكن فيها نحو الألفي طالب يمثلون قوميات متعددة. أكبر عدد هو من إيران، وهناك عراقيون وباكستانيون هنود وكشميريون. وأفغانيون ولبنانيون، وتبتيون، وطلاب من الخليج: البحرين والحسا والقطيف.

ونسجل فيما يلي عدد طلاب النجف الدارسين في الكليات الدينية (ديسمبر) سنة ١٩٥٧:

إيران (٨٩٦) العراق (٣٢٦) الباكستان (٣٢٤) أفغانستان (٢٧٠) الهند وتيبت وكشمير (٧١) سورية ولبنان (٤٧) الحسا والقطيف والبحرين (٢٠).

إن الأرقام تتغير وفق المواسم والظروف ذلك لأن الحضور (كما سنرى فيما بعد) ليس إلزامياً.

لقد درست العديد من نظم التعليم الجامعي في الغرب فقمت بزيارة جامعات ألمانيّة وبريطانيّة وفرنسيّة ومن ضمن ما زرت جامعتي أكسفورد و كمبرج وأن دراستي الجامعية كانت في جامعات أمريكية.

ليس في كل ما زرت وشاهدت من جامعات (بما في ذلك الجامعات الألمانية) التي تفخر بحريتها «الفرايهات» ما يضاهي مدارس النجف في حريتها واستقلالها وفي ترسيخ المادة العلمية في ذهن الطالب وتكوين شخصيته وترك الأثر العميق في حياته، كما سنلمس ذلك فيما يأتي من بحوث حول «أسلوب الدراسة في النجف» والله الموفق.

هذا الكتاب تفضل به الدكتور الجمالي إلى مؤسس الموسوعة «الحاج جعفر الدجيلي».

بسم الله تعالى

أخي المفضال الأستاذ جعفر الدجيلي حفظه المولى

تحية أخوية عاطرة. وبعد أعتذر عن تقصيري الدائم
في المراسلة بسبب كثرة مشاغلي وتقدمي في السن
والحمد لله. أرجو أن تكونوا والأهل في صحة وصفاء
وأن يوفقكم الله في كل أعمالكم الخيرة.
فيما يتعلق بمحاضرتي عن النجف الأشرف أقول أن
النص الذي عندكم مختصر. فالأصل أوسع وها أنا
أرسل إليكم تعريب النص الأصلي لمحاضرة في بغداد
التي ألقيتها سنة ١٩٥٧ في المجلس الثقافي البريطاني
ثم نقلتها إلى العربية. أرقام الطلاب تختلف
باختلاف المواسم. حين كنت في النجف حصلت
على الأرقام من المسؤول عن تسجيل الطلاب.
ومن بعض الطلاب المطلعين وقد علمت أن
الإحصاء الدقيق غير متوفر.
لدي العديد من الكتب معدة للنشر للمرة
الأولى ولدي تسعة كتب لإعادة النشر

فمن الكتب الجديدة مثلاً: "ثمرة واقعية مجردة إلى التربية الإسلامية" و"العربية بين حماتها وغزاتها" ومن الكتب التي يعاد طبعها لنفادها: "دعوة إلى الإسلام" وهو رسائل لولدي عباس من السجن و"الخطر الصهيوني" ونحو ثمانية مغربية

فأرغب الاطلاع على ما لديكم في النشر

كما أكون شاكراً لو زودتموني بعنوان الأخ الأستاذ حسن الجبلي. مع أنني شاكر لكم زادكم ومائدتكم الكريمة للعمل الصالح

وأطيب التمنيات والله يحفظكم ويرعاكم

المخلص

د. محمد فاضل الجمالي

في ٢٢ شعبان ١٤١٤هـ

٣ شباط ١٩٩٤م

النجف الأشرف
الجامعة العلمية الاسلامية
قديماً وحديثاً

* تأسيسها ونشأتها.
* تطورها.
* أدوارها.
* أسلوب الدراسة ونظام الحلقات.

الفصل الأول
النجف ونشوء الحركة العلمية فيها
قبل وبعد الطوسي

بقلم: الشيخ محمد جواد الفقيه

الحمد لله، وصلى الله على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

النجف، رابعة المدن الإسلامية المقدسة، بعد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس الشريف... ما في أرضها شيء يوحي بالحياة!

رملٌ.. وحرّ.. وجفاف..

فكيف تحولت الأرض الرمضاء إلى مدينةٍ غنّاء؟ ومن حوّل الجفاف إلى ينبوع ثرّ من العطاء في كل المجالات؟[1].

مدينة النجف التي اكتسبت قدسيتها وشرفها من قدسية وشرف أمير المؤمنين وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين ثوى في تربتها، فباركها وطيبها وطهّرها. «إلى جانب قدسيتها تميزت النجف بأثرها الواسع في تأريخ الفكر الإسلامي والعربي وشدتها علاقات إيمانية ثقافية إلى جميع مناطق الدنيا» فاستحقت بذلك أن تكون إحدى القمم الشامخة في دنيا الإسلام، ومن أعلى مناراته الدينية والفكرية.

ولا غرو ولا عجب، فهي المنطلق الفريد لعلوم النبي صلى الله عليه وآله

---

(1) الدكتو كاظم مكي/ في مقدمة لكتاب (النجف ـ جامعتها ودورها القيادي) علي البهادلي ص٩ـ ١٠.

وسلم وأهل بيته عليهم السلام وأئمة المسلمين.

لكن، مما يؤسف له حتى اليوم أن بعض مناطق الإسلام لا تعرف هذه الحقائق أو لا تعترف بها.

إن من يكتب عن تأريخ النجف يشعر وكأنه يكتب عن كل الناس ويتوجه إلى العالم، حتى لكأن خصوصيات هذه المدينة تخص كل البشر، وتفاصيلها تهمُّ كل العالمين، ففي سكانها نماذج من كل سكان الأرض، وفي حياتها الاجتماعية ومواسمها الدينية والثقافية، وطريقة بنائها وسلوك أهلها وأنماط حياتهم تتفاعل مع تراثات البشرية في بوتقةٍ واحدة، ليكون تراث واحد مميز وواقع جديد، هو: النجف.. وكفى[1].

لقد اكتسبت هذه المدينة المقدسة كياناً خاصاً يميزها عن سائر الحواضر والمدن في عالمنا الإسلامي، ذلك لأنها كانت ولا تزال مصدر عطاءٍ ديني وعلمي وفكري، وخزيناً نادراً لشطرٍ كبير من تراثنا العربي والإسلامي سيما المتمثل منه بعلوم الفقه، والأصول، والحديث، والفلسفة، مضافاً إلى التراث الأدبي العام والثقافي الشامل.

لقد جاهد أولئك الأفذاذ، وأجهدوا أنفسهم، لا سيما الأوائل منهم، فصبروا على جشوبة العيش في تلك المدينة التي كانت تفتقر لكثيرٍ من متطلبات الحياة بما في ذلك «مياه الشفة»، كما صبروا في وجه الحملات العسكرية والضغوطات السياسية التي كانت تستهدفهم ومدينتهم في فتراتٍ مختلفة ومن جهات عدة، وأكبر شاهدٍ على ذلك سورها «سور النجف» الذي **لا زالت بقاياه ماثلةً حتى اليوم للعيان تحكي قصص الصمود والتحدي!**

نعم، صبروا ولا يزالون صابرين في سبيل الحفاظ على ذلك الخزين من التراث الفكري الإسلامي والعربي من أجل إيصاله إلى الأجيال، المعاصرة منها والآتية.

---

(١) الدكتور كاظم مكي/ في مقدمة لكتاب (النجف ـ جامعتها ودورها القيادي) علي البهادلي ص٩ـ ١٠.

النجف.. رغم الكوارث والنكبات التي مرت بها، بقيت صامدةً، وظل قلبها الكبير نابضاً بالحياة، مما يبرهن على مدى حيويتها ومناعتها وقوتها، الدينية منها والفكرية.

ولا غرابة في ذلك، فهي مدينة علي عليه السلام باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث ورد في الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

لذلك كله ولارتباط النجف الوثيق بالفكر الإسلامي الذي انبثقت منه الحضارة الإسلامية، فإن قيمتها الحضارية والفكرية والدينية سوف تستمر وتزداد وتكبر.

نشوء الحركة العلمية في النجف

ومن أجل أن نصل إلى تحديدٍ تأريخي لبدء الحياة العلمية لهذه المدينة وتطورها فيما بعد إلى «جامعةٍ علميةٍ واسعة العطاء» علينا أن نستعرض تأريخها العلمي لننتهي إلى ما نصبو إليه مستعينين على ذلك بما قدمه الباحثون والمؤرخون وأهل الاختصاص في هذا المجال.

والمؤرخون وإن لم يذكروا شيئاً عن نشوء الحركة العلمية في النجف وتحديدها بالضبط على نحو النص الصريح، إلا أن ذلك لا يمنعنا من الاستفادة من بعض الوقائع والحوادث المتصلة بالنجف أو بزائريها فيما نحن بصدد إثباته الآن.

فمن البديهي والمؤكد أن عهد الشيخ الطوسي كان عهد نهضة فكرية علمية في النجف بل كان عصره بشكل عام كذلك، ولكن السؤال الذي يُثار هو: كيف كانت النجف قبل عصر الشيخ الطوسي؟؟

مكانة النجف العلمية
قبل هجرة الشيخ الطوسي إليها

إن طبيعة البحث الموسوعي تقتضي الإحاطة التامة والاستقصاء الشامل

للموضوع الذي يتناوله الباحث، وهذا ما يلزمنا فعلاً فيما نحن فيه نظراً لكونه واحداً من البحوث التي تتناولها موسوعة «النجف الأشرف».

إن من الممكن أن نختصر هذا الموضوع بأسطر، أو بصفحات! لكن ذلك سوف يُخرجنا عمّا نحن فيه ويسلب عن بحثنا صفة «الموسوعية» فلذا وجب علينا أن نتوسع قدر الإمكان في هذا الموضوع ضمن حدود الإفادة والابتعاد عن التكرار الممل.

والسؤال المطروح هو التالي: ما هي المكانة العلمية للنجف الأشرف قبل هجرة الطوسي إليها، وكيف كانت؟؟

وللإجابة على هذا السؤال لا بد لنا من حصر الآراء حوله، ومن ثم مناقشتها وهي تتلخص في أربعة آراء.

الرأي الأول: «أن النجف كانت قاحلة علمياً، وعند هجرة الشيخ الطوسي إليها أوجد فيها حركة علمية»[1].

وهذا الرأي يعتبر ضعيفاً ولا يستند إلى قاعدة، وذلك لأمرين:

الأول: أن سيرة المسلمين الثقافية انطلقت من المساجد، فالمسجد هو مصدر الثقافة كما هو مصدر العبادة، فهو القاعدة والمنطلق لكلا الأمرين معاً منذ انتقال المسلمين من دور الدعوة إلى تأسيس الدولة وقيامهم بعمارة أول مسجد في المدينة.

لقد غرب عن بال هؤلاء أن المساجد في مدن المسلمين وقُراهم كانت إلى عهدٍ قريب مدارس ومنتديات فكرية يرتادها المسلمون على اختلاف طبقاتهم ليتزودوا فيها بما يثري أرواحهم من طرق العبادة، وعقولهم بالتعلم والتعليم بالخوض في ميادين الفقه والتفسير والحديث، وهذا أمرٌ وجداني لا يسع أحداً إنكاره.

من هنا، فإن مرقد الإمام علي (عليه السلام) من أوضح مصاديق المسجدية

(١) موسوعة العتبات المقدسة ق النجف م٧ ص١١ الدكتور محمد بحر العلوم.

إن لم نقل إن النجف بشكل عام كانت بطبيعة الحال تحتوي على بعض المساجد التي تقام فيها العبادة والحلقات التثقيفية الدينية، فنفي الحركة العلمية المطلقة عن هذه البلدة قبل وفود الشيخ الطوسي إليها رأي غير مقبول بتاتاً.

الثاني: النصوص التأريخية الصريحة في وجود فقهاء قبل الطوسي بسبعين سنة أو أكثر، وهي التالية:

أ ـ أورد السيد ابن طاوس (وهو من المختصين بتأريخ النجف) بأن عضد الدولة البويهي زار المشهد العلوي الطاهر عام ٣٧١هـ وتصدق وأعطى الناس على اختلاف طبقاتهم، وكان نصيب الفقراء والفقهاء ثلاثة آلاف درهم.

ب ـ وجود علماء نسبوا إلى النجف قبل عهد الطوسي، ومنهم:

١ ـ أحمد بن عبدالله الغروي، يروي عن أبان بن عثمان من أصحاب الإمام الصادق (ع).

٢ ـ شرف الدين بن علي النجفي، وصفه الشيخ الطوسي بقوله: «كان صالحاً فاضلاً».

٣ ـ عبدالله بن أحمد بن شهريار أبو طاهر، كان معاصراً للشيخ المفيد، يروي عنه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، والنجاشي في كتاب الإمامة.

٤ ـ أحمد به شهريار أبو نصر الخازن للحضرة الغروية، كان من رجال العلم وحملة الحديث معاصراً للشيخ الطوسي.

٥ ـ النقابة في النجف، وهذا المركز أقرب إلى الروحي منه إلى السياسي، سيما النقابة الهامة التي من شروطها كون النقيب عالماً من أهل الاجتهاد ليصح حكمه وينفذ قضاؤه[1].

---

(١) لكي نعرف أن النقابة هل هي منصب ديني أو زمني علينا أن نعرف معناها، فنقول: النقابة: مصدر نقب، ونقيب القوم كالكفيل والضمين، ينقب عن الأسرار ومكنون الاضمار، وإنما قيل نقيب، لأنه يعلم دخيلة أمر القوم، ويعرف الطريق إلى معرفة أمورهم.. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾* وفي الخبر: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد جعل ليلة العقبة كل واحد من الجماعة الذين بايعوه نقيباً على قومه وجماعته ليأخذوا عليهم الإسلام، =

....

= ويعرفونهم شـرائطه. يعني رئيساً متقدماً عليهم، وكانوا اثني عشر نقيباً كلهم من الأنصار (١).
على هذا الأساس نفهم أن النقابة بمجملها تعني الرئاسة على فئةٍ معينةٍ مع تحمل المسؤولية تجاه ما يصدر منهم من مخالفات للقوانين المرعية.

«نقابة الأشراف»(٢)

وهي خاصة، وعامة.

النقابة الخاصة: أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامة حد، فلا يكون العلم معتبراً في شروطها، ويلزمه في النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقاً.

١ ـ حفظ أنسابهم من داخلٍ فيها وليس هو منها، أو خارجٍ عنها وهو منها، حتى يكون النسب محفوظاً.

٢ ـ تمييز بطونهم ومعرفة أنسابهم حتى لا يخفى عليهم منهم بنو أب، ولا يتداخل نسب في نسب، ويثبتهم في ديوانه.

٣ ـ معرفة من ولد منهم من ذكر أو أنثى، ومعرفة من مات منهم من ذكرٍ أو أنثى فيثبته ومعرفة من مات منهم فيذكره حتى لا يضيع نسب المولود إن لم يشتبه، ولا يدعي نسب الميت غيره إن لم يذكره.

٤ ـ أن يأخذهم من الآداب بما يضاهي شرف أنسابهم وكرم محتدهم، لتكون حشمتهم في النفوس موقورة، وحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم محفوظة.

٥ ـ أن ينزههم عن المكاسب الدنيئة، ويمنعهم من المطالب الخبيثة، حتى لا يستقل منهم متبذل ولا ينضام منهم متذلل.

٦ ـ أن يكفهم عن ارتكاب المآثم ويمنعهم من انتهاك المحارم ليكونوا على الدين الذي نصره أغير، وللمنكر الذي أزالوه أنكر، حتى لا ينطق بذمهم لسان، ولا يشنأهم إنسان.

٧ ـ أن يمنعهم من التسلط على العامة لشرفهم، والتشطط عليهم لنسبهم، فيدعوهم ذلك إلى المقت والبغض، ويبعثهم على المناكرة والبعد، ويندبهم إلى استعطاف القلوب وتآلف النفوس.

٨ ـ أن يكون عوناً لهم في استيفاء الحقوق حتى لا يضعفوا عنها، وعوناً عليهم في أخذ الحقوق منهم حتى لا يمنعوا منها.

٩ ـ أن ينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم العامة في سهم ذوي القربىٰ في الفيء والغنيمة التي لا يخص به أحد حتى يقسم بينهم بحسب ما أوجبه الله لهم.

١٠ ـ أن يمنع أياماهم أن يتزوجن إلا من الأكفاء لشرفهن على سائر النساء صيانةً لأنسابهن، وتعظيماً لحرمتهن، أن يزوجهن غير الولاة، أو ينكحن غير الكفاة.

١١ ـ أن يُقوّم ذوي الهفوات منهم أما سوى الحدود بما لا يبلغ به حدّاً ولا ينهر به دماً ويقيل ذا الهيئة منهم عثرته، ويغفر بعد الوعظ زلته.

١٢ ـ مراعاة أوقافهم بحفظ أصولها وتنمية فروعها.

---

(١) مجمع البحرين ـ مادة نقب، ومختار الصحاح ص٦٧٤.

(٢) لاحظ الغدير م ٤ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧. =

بعد هذا كله لا يمكننا نفي الحركة العلمية في النجف قبل الطوسي، وبذلك يتضح بطلان القول إنها كانت «قاحلةً علمياً قبل الشيخ الطوسي..».

ومن هنا انبثق رأي قوي مدعوم بالأدلة التي ذكرناها وهو:

الرأي الثاني: القائل بوجود حركة علمية ذات جذور عميقة تأريخياً، نجهل امتدادها ولكن لا يمكننا إنكار حقيقة وجودها، وما ذكرناه آنفاً فيه الكفاية لإثبات ذلك.

وقول السيد محمد باقر الصدر قدس سره «إن مؤرخي هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف لم يشيروا إطلاقاً إلى أن تلامذته في بغداد قد رافقوه أو التحقوا به فور هجرته»[1] إلخ... هذا القول يؤيد ما أردنا إثباته!

فمن أين كان لديه ذلك العدد من الطلاب في النجف بعد استقراره فيها؟؟

لا شك ـ في هذا الحال ـ أن قسماً منهم كان موجوداً في النجف إن لم نقل جلّهم، وهذا يعني أن الجو العلمي كان سائداً فيها، لكن الشيخ الطوسي طوّره، ونظّمه وحوّل المدينة ذلك الوقت إلى حاضرةٍ علمية تشد إليها الرحال من كل حدب وصوب.

الرأي الثالث: وجود حركة علمية منظمة من حيث مناهج الدرس وترتيب الحلقات الفكرية وتوزيع الرواتب الشهرية على الأساتذة، والطلاب كما في بغداد على عهد الشريف المرتضى والشيخ المفيد... وإلخ.. ولكن مجيء الشيخ الطوسي زاد في زخم تلك الحركة وتوسيعها وتثبيتها، وأن الشيخ المفيد نفسه هو

= النقابة العامة

١ ـ الحكم بينهم فيما تنازعوا فيه.
٢ ـ الولاية على أيتامهم فيما ملكوه.
٣ ـ إقامة الحدود عليهم فيما ارتكبوه.
٤ ـ تزويج الأيامى اللاتي لا يتعين أولياؤهن، أو قد تعينوا فعضلوهن.
٥ ـ إيقاع الحجر على من عته منهم أو سفِه، وفكه إذا أفاق أو رشد، فيصير بهذه الخمسة عام النقابة، فيعتبر حينئذٍ في صحة نقابته وعقد ولايته أن يكون عالماً من أهل الاجتهاد ليصح حكمه وينفذ قضاؤه.. إلى آخر ما في كتاب الأحكام السلطانية ص٨٢ ـ ٨٦.

(١) المعالم الجديدة ص٦٤.

الذي أسس هذه الحركة الثقافية الدينية، وذلك، عندما انتقل إلى النجف من بغداد، أو (عند نفيه منها ـ على حد تعبير بعض المترجمين ـ) من قبل السلطة المسؤولة، وذلك بسبب ما حصل هناك من الاختلافات والثورات الطائفية فاختار الشيخ النجف الأشرف!

بل يذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيقول: «إن انتقال الشيخ المفيد إلى النجف كان برغبةٍ من البويهيين الذين يؤيدون المذهب الشيعي، ولقد حدثتنا المصادر: بأن في أيام عضد الدولة نشطت الحركة العلمية في بغداد وغيرها، وكان نصيب النجف الأشرف كبيراً، فقد كان يرغب في تأسيس حركة مناهضة للحركة العلمية في بغداد بدافع العقيدة، ولذا أخذ يبذل الأموال الطائلة في تشييد مرقد الإمام علي (ع) والاهتمام بالعلماء الذين فيها»[1].

إن هذا الرأي بمجمله مرفوض لأنه لا يستند إلى أيّة أدلة، وذلك، لأن الباحث المؤرخ لا يمكن أن يبني آراءه على الاحتمالات والتخرصات، فالتأريخ ليس قصيدةً شعرية من وحي الافتراض، ولا نظرية علمية خاضعة للتجربة، بل هو واقع مرسوم يستفاد من النصوص المتكفلة بذلك، أو من الآثار الحسية التي يمكن أن يستنتج منها شيء ما.

فأي فتنةٍ طائفيةٍ كانت على عهد المفيد؟؟ ولو كانت، فلماذا لم يهاجر معه تلامذته كالمرتضى وغيره.

وأي نفي هذا الذي يتحدث عنه صاحب النص الآنف؟؟ والشيخ المفيد كان قبلة أنظار المسلمين في بغداد ذلك الوقت، وقد اجتمع عليه الكل سنة وشيعة.

ومن الذي ينفيه؟؟ البويهيون الذين كانوا يكنون له كل مشاعر التقديس والاحترام؟؟ لقد كان عضد الدولة (يحترم الشيخ المفيد إلى حدّ كان يحمله على زيارته في داره). بل كان يزوره ويعوده إذا مرض! على حدّ تعبير ابن حجر[2].

---

(١) موسوعة العتبات ج٧ ق النجف ص١٥ ـ ١٦.

(٢) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ٥/٣٦٨.

والطريف في الأمر أنا لم نعثر على نصّ يقول: إن الشيخ المفيد قد زار النجف، فضلاً عن أنه هاجر إليها واستقر بها، ولو حصل ذلك لدوّنه المؤرخون، لأنه لم يكن إنساناً عادياً، بل كان من عظماء عصره.

الرأي الرابع: إن المساجد بشكل عام ـ كما قدمنا ـ كانت المنطلق الوحيد لنشر الثقافة، وقد عرف منها تأريخياً، مسجد المدينة، ومسجد الكوفة، ومسجد البصرة، ولم تعرف النجف قبل الطوسي بأنها كانت بهذه المثابة، نعم لا يخلو الأمر من وجود حركة ثقافية محدودة، ووجود بعض رجال العلم فيها، وهذا لا يعني أنها جامعة علمية دينية.

لذا يمكن القول إن الشيخ الطوسي هو المؤسس للنجف الأشرف كجامعة على غرار مسجد الكوفة والبصرة، إضافة إلى أنه وضع مناهج معينة للدرس مع الإنفاق الشهري على الأساتذة والتلاميذ.

ونظراً للإفاضة في البحث الذي تتطلبه منا هذه الموسوعة، فإننا نثبت هنا ما جاء في كتاب «**حديث الجامعة النجفية**»[1] للمرحوم الشيخ محمد رضا شمس حيث قال:

يحسن بنا قبل الشروع في حديث النجف اليوم وحياتها العلمية والدينية والثقافية. أن نتطلع من شرفة التاريخ على ماضي النجف للتعرف على مؤسس جامعتها العلمية. وأول واضع لحجرها الأساسي ـ في معنى من معاني الجامعة، أو في معناها البسيط ـ.

وهذه ناحية مهمة. لها صلة بحاضرنا وبالنجف اليوم. صلة قوية يتكفل ببيانها هذا الافتتاح.

ومن دواعي الأسف أن أهمل البحث عنها علمائنا القدماء وطلاب النجف أمس. كما أهملوا غيرها مما يتعلق بأمهم الحنون التي غذتهم العلم والدين والأدب...

(١) وقد كتبه رحمه الله قبل أربعين سنة من هذا التأريخ. المطبعة العلمية ـ النجف ١٩٥٣م ١٣٧٣هـ.

ولجماعة من العلماء المتأخرين آراء ـ سوف نذكرها ـ[١] تخالف ما نذهب إليه من إرجاع تأسيس الجامعة النجفية إلى عهد الإمام علي (ع) الذي هو أول من شيد ركنها الأساسي. ووضع حجرها الذهبي.

وستأتي حجة هذا الرأي والدليل عليه. وتفنيد الرأي الآخر والرد عليه.

وحدة النجف والكوفة

ومن الأدلة التي أقمناها على هذا الرأي ـ من جملة أدلة كثيرة ذكرناها في سياق هذا الحديث ـ ما يدل من التاريخ والحديث على وحدة النجف والكوفة ـ والذي يوهم الفرق استقلال كل منهما بتاريخ واسم خاص ـ إذ الكوفة لم تزل عامرة حتى القرن الثامن الهجري أي بعد اتصال الكوفة بالنجف «والنجف بالكوفة» وقبل أن تبدأ الأولى بالتقهقر العمراني والخراب. والثانية بالتقدم والعمران[٢].

ومن كلمات المؤرخين قولهم: إن الجامع الشريف كان في قلب مدينة الكوفة، وعليه فتدخل النجف فيها لقربها منها إذا أضفنا إلى ذلك سعة الكوفة وكبرها في ذلك العصر[٣].

وجاء في التاريخ وفي كثرة من الأحاديث بالنسبة لتعيين قبر الإمام علي (ع) أنه بالكوفة[٤].

إلى غير هذا وذاك مما يستدل به على الوحدة بين المدينتين (النجف

---

(١) ذهب جمع من العلماء منهم السيد الصدر العاملي. وشيخنا آغا بزرك ومؤلف ماضي النجف. إلى أن مؤسس الجامعة النجفية هو الحبر الكبير الشيخ الطوسي. وأرجع بعض تأسيسها إلى الإمام الشيخ المفيد واحتمل ثالث على أنها أسست على عهد الصفويين في العراق.
وما ذهبنا إليه هو المصحح عند كل من اطلع عليه مضافاً إلى الحجج والتقريبات التي ذكرناها في الأصل.

(٢) نص عبارة المؤرخ البراقي في تاريخه للكوفة ص٤٥٦.

(٣) راجع فصل حدود الكوفة وتخطيطها ص١١٠ و١١١ من تاريخ الكوفة.

(٤) من تلك الأحاديث ما روي ص ١٩ من كتاب (فرحة الغري) لابن طاووس في باب تعيين قبر علي (ع) أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله قال أأقبر بكوفان العراق؟ قال نعم.

والكوفة) وأن لا فرق بين هذه وتلك ـ إلا بالاسم ـ وأن الكوفة ما بدأت بالتقهقر والنجف بالتقدم إلا بعد أن اتصلتا وكلفت الأولى الثانية برعاية المدرسة الدينية وحفظ حوزتها العلمية. التي بذر نواتها الإمام علي بن أبي طالب (ع).

وربما استدل أيضاً ـ على الوحدة المدعاة ـ بالخرائط القديمة للكوفة. كالخارطة التي وضعها المستشرق الإفرنسي المعروف المسيو (ماسنيون) عن الكوفة في القرن الثاني الهجري[١].

ورغم الأميال التي تفرق بين النجف والكوفة اليوم لا تهدد وحدتها بل هي على شرفة الزوال أيضاً..

علوم وفنون

وأحسب أن هذا الدليل ـ أو هذا التقريب ـ وحده غير كاف في إثبات ما ندعيه إلا إذا أضفنا إلى ذلك لمحتين ـ تتميماً للبحث ـ:

لمحة تبين المدى البعيد الذي وصلت إليه العلوم الإسلامية والفنون العربية في الكوفة.

ولمحة أخرى تبين الأثر الكبير الذي تركه الإمام علي (ع) وخلفه الأئمة عليهم السلام في الكوفة من المحبين والموالين والتلاميذ والعلماء والفنون والعلوم.

أما الأولى فبعد أن استقر المسلمون في الكوفة ولا سيما في العصر الأموي اشتهرت بالعلوم الإسلامية من الحديث والفقه والتفسير والفنون العربية من العروض والصرف والنحو الذي أسسه الإمام علي (ع)[٢].

---

(١) الأستاذ (ماسنيون) الذي زار جزيرة العرب وبلاد المسلمين وتعرف على أهلها وكتب عنها مقالات ومؤلفات منها تاريخ الكوفة ومن أظرف آرائه المضحكة قوله (إن قبر الإمام علي (ع) في الهند) وقد تصدت الصحف الإسلامية لرده في وقته، وخارطته التي أشرنا إليها منشورة في مقدمة تاريخ الكوفة للبراقي.

(٢) يكاد الإجماع يغلق باب الريب في نسبة تأسيس علم النحو إلى علي أمير المؤمنين (ع) وممن نقل ذلك من المؤرخين الكبار ابن حجر في الإصابة وابن قتيبة في المعارف والأزهري في=

وكانت الكوفة في ذلك العصر موئل العلم والأدب. وملتقى العلماء والشعراء والأدباء. كانوا يزدحمون في المساجد والنوادي والبيوت وكان فيها حلقات للمناشدة والمفاخرة ومجالس للمذاكرة والمناقشة هي كسوق (عكاظ) في الجاهلية. حتى أخرجت مئات من النحويين واللغويين والمحدثين والمفسرين والأدباء والشعراء الشهيرين[1].

ومن لم يسمع بأبي الطيب المتنبي ودعبل الخزاعي والأصمعي والخليل بن أحمد والسكيت بن زيد الأسدي والكسائي وجابر بن حيان الذي يقول عنه الأستاذ (بزتيلو) الفرنسي صاحب كتاب «تاريخ الكيمياء في القرون الوسطى» إن اسمه ينزل في تاريخ الكيمياء بمنزلة اسم ارسططاليس في تاريخ المنطق».

ولهذا العالم المفكر «ابن حيان» مؤلفات كثيرة منها «رسائل جعفر الصادق» في خمسمائة رسالة طبعت في أوروبا. وفيها صرح بتلمذته على الإمام الصادق (ع) وأخذ الكيمياء عنه وفي ذلك يقول بعضهم:

حكمة أورثناها جابر عن إمام صادق القول وفي
لوصي طاب في تربته فهو كالمسك تراب (النجف)

مدرسة علوية

والناحية الأخرى التي لمحنا إليها تكميلاً للتقريب السابق وتمهيداً للبحث الآتي هي أن الكوفة كانت على الرغم من اختلاف نزعاتها وكثرة أحزابها معروفة بالعلوية والتشيع ـ حتى إذا أراد أحد أن يقول إنه شيعي قال كوفي كما قال أبو

= تهذيب اللغة وابن سيده في المحكم وابن خلكان في الوفيات إلى كثير غيرهم. وبعد هذا لا ينبغي أن نعير أسماعنا إلى كلام ينبعث عن مصر في إبداء الريب والتشكك في صدق هذه النسبة إلى الإمام (ع).

(١) ولعل كثرة هذه المجالس الأدبية في الكوفة وانكباب أهلها عليها من جملة العوامل الكبرى لإخفاق جيش الإمام علي (ع) في صفين ـ وقد شعر الإمام (ع) بهذا لذلك راح مقرعاً أصحابه في إحدى خطبه البليغة قائلاً: «تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار تربت أيديكم نسيتم الحرب واستعدادها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها». وقال أيضاً: «لوددت أن معاوية صارفني فيكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ منكم عشرة وأعطاني رجلاً منهم».

تمام الذي ولد بالشام المعروفة في ذلك الوقت بالأموية ومع ذلك فهو كوفي مذهباً وهذا معنى قوله:

وكوفي ديني على أن منصبي   شآم ونجري إذا ذكر النجر

وقد دخلها الإمام علي (ع) بعد وقعة الجمل ونزل أول ما نزل ـ في جامع الكوفة ـ لا في القصور كغيره من الولاة ـ فأخذه مصلى له ومعبداً ومدرسة يدرس ويخطب ويقضي فيه بين الناس.

وقد تخرج من هذه «المدرسة العلوية» الكبرى أمثال أبي الأسود الدؤلي وعبدالله بن عباس «حبر الأمة» الذي يقول عن أستاذه «بقيت ليلة كاملة مع أبي الحسن علي (ع) وهو يشرح لي «بسم الله الرحمن الرحيم».

وقد قام بعد علي أمير المؤمنين (ع) في التعهد بمدرسته العلوية أولاده وأحفاده عليهم السلام حتى جاء دور الإمام الصادق (ع) ـ الذي كان في أيام أبي العباس السفاح ـ وقد فسح له الزمان فرصة استطاع فيها أن يدرس ويحاضر ويفيد أكثر من غيره من الأئمة عليهم السلام.

وعلى قلة استيطان الإمام الصادق (ع) بالكوفة فقد تخرج عليه علماء كثيرون. حتى ألف الحافظ أبو العباس بن عقدة الهمداني الكوفي كتاباً في أسماء الرجال الذين رووا الحديث عن الإمام الصادق (ع) فذكر ترجمة أربعة آلاف شيخ.

ويقول الحسن بن علي الوشا البجلي [إني أدركت في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق (ع)].

والنتيجة من هذا النقل أو صلته بهذا البحث يتضح في اللائحة التالية:

تلامذة وموالون

وإذا عرفنا من اللمحة الأولى «علوم وفنون» سعة العلوم الإسلامية «في الكوفة» وشهرتها بالفنون الأدبية استنتجنا منه «أو اتضح منه» ما قلناه قبل عن جامعة الكوفة ومدرستها العلمية والأدبية ـ التي خلفتها النجف الأشرف في ذلك ـ

وهي وإن لم تكن كمدارس هذا العصر أو جامعاته لكنها متحدة معها في الروح أو الأثر.

ويتضح لنا من اللمحة الثانية (مدرسة علوية) الوقوف على طريق ذي شعبتين كل منهما توصلنا إلى الهدف الذي نحوم حوله وما نحن بصدده.

شعبة توقفنا على القول بأن الكوفة مركز تلامذة علي (ع) ومقر تلامذة أولاده وأحفاده... وهذا القول الذي نحصل منه أن هؤلاء التلاميذ لا بد أنهم كانوا يترددون على قبر علي (ع) بعد وفاته ويبقون عنده أياماً وليالي يدرسون ويتذاكرون ـ كما كان تلامذة أرسطو يأتون قبره بعد وفاته يتذاكرون ويدرسون عنده. لأن قبره يبعثهم على الجد والنشاط فكأنما هو بينهم وإلى جنبهم ـ كما يدل على هذا أحاديث. يأتي بعضها في محله.

والشعبة الأخرى ـ التي يتضمنها الموضوع السابق «مدرسة علوية» التي تعطينا أن الكوفة كانت عاصمة شيعة علي (ع) ومركز محبيه ومواليه فلا بد أن هؤلاء الذين والوه وأحاطوا به في حياته أن يثبتوا على الولاء ويحيطوا بقبره بعد وفاته حباً به وخوفاً عليه من النبش والتمثيل به من قبل الأعداء وخشية عليه من الضياع أيضاً.

فيبعد أن يترك الأئمة عليهم السلام ويدع المحبون علياً عليه السلام من الصحابة والتابعين قبر ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أرض بغير مجاور له ولا محافظ عليه مهما بلغت السياسة من الضغط والشدة على أنه في محيط مواليه. وبين قوم عرفوا بالتشيع والحب له. وكان فيهم الأمراء وذوو السلطة القوية.

فيتضح من الشعبة الأولى قدم الدراسة في النجف ومن الشعبة الثانية قدم المجاورة فيها التي صاحبتها الدراسة العلمية.

البناية الأولى

وإذا كانت البناية الأولى على القبر هي السبب الأول في جذب الناس إليه والداعي لمجاورة العلماء له ـ وأنها النواة الأولى لإيجاد روح علمية ـ حباً

بـالشخصية الإسـلامية الـدفينة هنـاك. فباستـطاعتنا أن نثبت من التـأريخ أن بنـاية الرشيد «في سنة ١٨٠هـ» ليست الأولى «كما يـظهر من كـلام الأستاذ[١] الـدخيلي نقلاً عن «نزهة القلوب» بل كان قبلها بنايات عديدة[٢] كما حدثنا التاريخ عن بناية داود بن علي المتـوفى سنة «١٣٣هـ» وحـدثنـا في روايـة عن صفـوان قـال: قلت للإمام الصـادق (ع) يا سيـدي أتأذن لي أن أخبـر أصحابنـا من أهل الكـوفة بـه؟ فقـال: نعم. فأعـطاني الدراهم وأصلحت القبـر». وكانت هـذه قبل عهـد الرشيـد بزمان.

ومما يدل على أن الدراسة كانت مصاحبة للمجاورة ما حدثنا به التـأريخ أن محمد بن زيد العلوي الداعي الصغير ـ صاحب طبرستـان المتوفى ٢٨٧هـ ـ بنى ـ في النجف الأشرف ـ قبة وحائطاً وحصناً فيه سبعون طاقاً.

فهـذه الاطاقـات في هذه البنيـة هي كالـزوايا في البنـاية الأولى التي أنشئت بعـدها على عهـد البويهيين ـ كمـا عبر عنهـا ابن بطوطـة ـ، وهذه الـزوايا، وتلك الاطـاقـات هي كـالغـرف والأواويين المـوجـودة اليـوم التي هي كمـدرسـة تصلح لسكنى الطلاب ومركز دراستهم.

ولعل البنايتين المتقدمتين، كانتا كهذه وتلك ذات أطاقات وزوايا أو أواوين، وغرف ـ كما تسمى اليوم ـ.

النقابة النجفية

وإذا كانت النقابة المعروفـة في نظام الـدول الإسلاميـة أمس. من دعائمهـا وشروطها العلم وإقامة الحـدود. والحكم بين العلويين وحل خصـوماتهم والـدفاع عنهم. فإن النجف الأشرف أخـذت حظاً وافـراً من هذه النقـابة ورئـاستها الجليلة ومنصبها السامي العظيم.

كمـا حدثنـا التأريـخ الإسلامي بـذلك عن رجـال كثيرين «تـولوا النقـابة في النجف» أمثال شمس الدين أبو القاسم وناصر الدين مطهر بن رضي الدين محمـد

---

(١) في مقال له عن جامع النجف نشر في مجلة الرسالة المصرية س٦ فراجع.
(٢) راجع فصل عمارات القبر من كتاب مدينة النجف (ج١).

الحسن والسيد شريف الدين محمد المعروف بابن السدرة الذي سافر إلى النجف سنة ٣٠٨هـ حتى توفي فيها.

إلى غير هؤلاء من النقباء الطالبيين والعلماء العلويين الذين تولوا نقابة الأشراف في النجف الأشرف منذ القرن الأول، أو الثاني للهجرة حتى آخر عهد للنقابة[1].

وهذا البحث التأريخي فيه دلالة على قدم مجاورة العلويين لقبر الإمام علي (ع) مضافاً إلى قدم العلم والعلماء في النجف الأشرف.

شاعر قديم يقول

ومما يدل على قدم العلم والعلماء. وقدم مجاورتهم. وسكنى العلويين لقبر الإمام علي (ع) قول شاعر قديم يعرف بأبي عبدالله الحسيني البغدادي الشيعي المشهور بابن الحجاج ـ الذي كان في عصر السيدين (الرضي والمرتضى) والمتوفى سنة ٣٩١هـ ـ حيث يقول: (عندما زار النجف) من قصيدة مطلعها[2]:

يا صاحب القبة البيضا على (النجف) من زار قبرك واستشفى لديك شفي

إلى أن يقول ـ وفيه الشاهد ـ:

وقل سلام من الله السلام على أهل السلام وأهل العلم والشرف

وأهل السلام (في البيت) بمعنى أهل وادي السلام، وهم الأموات في مقبرة النجف الكبرى ـ التي تعد أول مقبرة إسلامية. وثاني مقبرة في العالم. إذا عدت مقبرة (الفاتيكان) بإيطاليا الأولى ـ.

وأهل العلم والشرف الذين عناهم الشاعر هم العلماء المجاورون لقبر الإمام (ع). الذين ليس لهم غرض من تلك المجاورة إلا العلم والدين كأكثر سكان النجف والمجاورين لها اليوم.

(١) راجع تأريخ الكوفة للبراقي النجفي فصل (نقباء الأشراف في الكوفة) ص١٩٩.
(٢) راجع القصيدة وترجمة صاحبها في الكنى والألقاب ج١ ـ ص٢٤٦.

كلمات لمؤرخين

وهـذه كلمـات المؤرخين تشهـد على سبق العلم وقـدم الـدراسة وسكنى العلماء ومجاورة العلويين في النجف الأشرف أمس.

فهذا «ابن الأثير» يحدثنا في تأريخه أن دراسة العلم في النجف بدأت منـذ القرن الثالث الهجـري، وبلغت أوج عظمتهـا في عهد عضـد الدولـة أحد الملوك البـويهيين حيث أطلق الصـلات لأهـل العلم ورجـال الـدين المقيمين في الغـري وغيرهم من ذوي الفاقة[١].

وهذا «ابن طاوس» يروي لنا في فـرحته عن يحيى بن عليـان الخازن بـالقبر الكريم أنه وجد بخط ابن البرسي المجاور بمشهد الغري على ظهر كتاب بخطه. قال توجه عضد الـدولة عـام ٣٧١هـ إلى المشهد الشـريف الغروي. وزار الحـرم المقدس. فكان مما فرقه على العلويين ألف وسبعمائة درهم لكل فـرد منهم أحـد وعشرون درهماً ـ وعلى المجاورين خمسمائة ألف درهم. وعلى المترددين مثلها. وعلى النـاحـة ـ الـذين ينـوحـون على الحسين (ع) ـ ألف درهم. وعلى الفقـراء والفقهاء ثلاثة آلاف درهم[٢].

وربمـا يقال إن من هـذه الكمية المـالية الأخيـرة للفقهاء ثـلاثة آلاف درهم التي تقـابل كميـة وافرة بـالدينـار العراقي ـ نعـرف كمية العلمـاء أو كثـرة الفقهـاء الموجودين في النجف الأشرف حوالي هذا التاريخ ٣٧١هـ.

ومن وجودهم حوالي هـذا التاريـخ نعرف أيضـاً أنهم سبقوه بمـدة طويلة إذ يبعد عادة مجيئهم دفعة واحدة بل كان ذلك بالتسلسل والتدريج.

وهذه الكلمات، وغيرها من عبارات المؤرخين توضح لنا الفكـرة التي نحوم حولها، وتوقفنا على الحقيقة التي فتشنا عنهـا التي اهتدى إليهـا قوم، وضـل عنها آخرون.

(١) تاريخ ابن الأثير ج٨ ص٣٣٤.
(٢) ابن طاوس في فرحة الغري ص ١١٤.

رأي في الموضوع

ومع كل هذه الأدلة ـ أو هـذه الصفحات البيضـاء التي تبرز لنـا فكرة نـراها بجميع حواسنـا مع هـذا ـ نرى هنـاك من المؤرخين من يصر على إرجـاع تأسيس الجامعة النجفية إلى الإمام الحبر الشيخ الطوسي المتوفى ٤٦١هـ نظراً إلى أنه لم يعرف أحد من العلماء الكبار ممن تخـرج من النجف قبل هجـرة الشيخ الـطوسي إليها ـ بمعنى من التخرج ـ.

وعلى فرض وجود فرد أو أفراد. فهؤلاء لم يكونوا إلا رواة تلقـوا الدراسـة في النجف على الطريقة المعروفة قديماً. وهو مجرد حفظ الأخبار. وروايتها ـ وما ينـاسب ذلك ـ ولا يـطلق باصـطلاح اليوم على مثـل هذا أنـه علم ولا أن رجـالـه علمـاء بخلاف طـريقة الشيـخ الطوسي التي هي طـريقة الأصـوليين والدراسـة في النجف اليوم.

ولا أدري ما الذي يـدفع هـذا المؤرخ إلى تضييق العلم وتحديـده. مع أن اختلاف طريقة الدراسـة. ونوع العلم في مكـان لا يوجب أن يكـون حداً انتهـائياً للأول وابتدائياً للثاني.

ولو فرضنا أن الدراسة وطريقتها تغيرت في النجف «كمـا هو المؤمـل حسب تطور العصر. وحـاجة النـاس» لا نقول بتـأسيس جديـد أو جامعـة جديـدة ووجود أمثال أبي طالب بن أحمد بن شهريار «العالم المحدث الذي يروي عنه أبـو جعفر الطبري والنجاشي في النجف الأشرف قبل هجرة الشيـخ الطوسي إليهـا. ويعرف كثيـراً غيره ممن راجـع كتب التراجم والـرجال» كـاف في الرد على هـذا المؤرخ وتفنيد قوله.

رأيان آخران

وهناك رأيان آخران لكاتبين جليلين «نـذكرهمـا توسعـة في البحث وإشباعـاً للموضوع وتحريراً للفكر وإن لم يكونا كالأول في القوة والمتانة».

أحـد ذينك الـرأيين ما ذهب إليـه بعض[1] أن مؤسس الجامعـة النجفية هـو

(١) العلامة محمد باقر كمره في مقدمة المجلد الثاني من خصال الصدوق المطبـوع باللغـة الفارسيـة في إيران ص٦١.

الإمـام الكبير الشيـخ المفيد «صـاحب المؤلفات الكثيـرة وأستاذ الشيـخ الطوسي، والمتوفى سنة ٤٣١هـ» وأنه أول من أسس هيئة علمية في النجف الأشرف عنـدما انتقل إليها من بغداد. أو نفي منها «كمـا عبر الكـاتب» بسبب ما حصـل هناك من الاختلافات والثـورات فانتقـل إلى النجف حيث قلة الضوضـاء وفراغ البـال ليقوم بتأليف كتبه والرد على العامة الذي عرف به.

ولكن التاريخ لم يحدثنا عن انتقال هذا الرجل العظيم أو نفيه ولا أن عصره عصـر ثورات وحـروب بل كـان عصراً يسـوده الهـدوء والسـلام لا حـرب فيـه ولا اختلاف كما يعرف ذلك كل من درس عصر الشيخ المفيد.

وكيف نجيز هذا النفي على الشيخ المفيد هـذا الرجـل العظيم المكـرم من ملوك عصره ملوك الدولة البويهية الشيعية وخاصة من عضد الدولـة الذي هـو أحد تلامذته والمتصلين به والـذي عـرف عنه من إكـرام العلماء ومـدهم بالمـال وجب العلم والفضيلة.

لهذا يستبعد هذا الرأي مع أنه لا دليل عليه.

والرأي الآخر ما ذهب إليه أو احتمله بعض[1] وهو تأسيس الجامعة النجفيـة على عهـد الصفويين أو الـدولة الشيعيـة الصفويـة في العراق في القـرن العـاشـر للهجرة.

وهذا الرأي وإن كان يظهـره ويقر بـه آثار الصفـويين في العراق وخـدماتهم للعتبات المقدسة ومد الطلاب في النجف بالأموال وبناء المدارس والمساجـد لهم فيهد، ولكنه لا يقتضي تأسيس الجامعة منهم، وعلى عهدهم.

وهذا الرأي والاحتمال واهٍ لا ينبغي أن ننظر فيه أكثر من لمحة خاطفة، وأنه حدس وتخمين لا مستند له ولا دليل عليه. وحسبه مـا تقدم من الأدلـة والبيانـات الحسية على قدم العلم والدراسة في النجف وسبقهما عهد الصفويين في العراق.

---

(١) المرحوم الشيـخ محسن شرارة العـاملي في مقال لـه عن جامعـة النجف منشور في م ـ ١٦ ـ من مجلة العرفان العاملية.

خلاصة ما تقدم

فيتلخص من جميع ما تقدم «وما سيأتي[١] أن الجامعة النجفية أقدم جامعة إسلامية وأول «أكاديمية» دينية وأسبق معهد روحي عربي[٢].

وأن جامعة النجف الأشرف أقدم[٣] من جامع الأزهر الشريف في مصر. وقم المعصومة في إيران.

وأن مؤسسها الأول هو علي بن أبي طالب (ع) الذي شيد ركنها الأساسي ووضع حجرها العلمي الذهبي.

(وبعد) فإن نسبة تأسيس الجامعة النجفية إلى الإمام علي (ع) وإن كان يفاجيء بعض؟!. برأي بكر ونظرية جديدة لم يسبق لها بهذا التصريح والتأكيد والبحث والتوسع، ولكن حداثة الموضوع. وقلة البحث عنه وعدم التوجه له وسطوة السياسة في ذلك العصر، كان ـ كل ذلك ـ سبباً لطمس هذه الناحية من

---

(١) وسنعود للموضوع بصورة أخرى في الدور الأول من فصل «أدوار الجامعة النجفية» الآتي قريباً.

(٢) ويمكن لنا أن نقول إن مدرسة النجف أقدم مدرسة في العالم لأن فريد وجدي يقول في دائرة المعارف إنه «أي الأزهر، أقدم مدرسة في العالم بعد مدرسة بولونيا في إيطاليا فقد تقدمته بأكثر من أربعة سنين مع أن بولونيا تأسست سنة «١١١٩م» وجامع الأزهر شيد سنة «٣٥٩هـ» ومدرسة النجف تأسست حوالي سنة «٢٥٠هـ» إذا اعتبرنا بناية الداعي الصغير هي المؤسسة الأولى للصحن الشريف، ومدرسته العلمية.
ومما لا شك فيه أن الأزهر عندما أسس من الدولة الفاطمية الشيعية لم يؤسس على كل شكل منظم كما هو اليوم ـ كما ذكر ذلك من كتب ـ عن الأزهر ـ ولعل جامعة بولونيا كانت كذلك لأن النظام في الجامعات واسمها من مخترعات العصر الحديث.

(٣) قال الأستاذ الزيات في مجلته (الرسالة) المصرية ـ م ـ ٩ص (٥٠١) وإنما وصف النجف بالأشرف منافسة للأزهر الشريف ففي النجف معهد ديني يسير على أسلوب الأزهر في أكثر شؤونه وإن لم يستطع مسايرة الأزهر في الانطباع بطابع الزمان والرابطة العلمية والأدبية بالنجف لها لون خاص.
فأدباؤها في حكم المنعزلين عن أدباء الموصل والبصرة وبغداد ولهم في إنشاد الشعر طريقة لا يعرفها من سكان العراق غير النجفيين وهي طريقة تقوم على قواعد الترنيم وعلى مثلها كان الشيخ سعيد الوصفي ينشد الشعر في دروسه بالأزهر الشريف، ونحن لا نريد التعليق على هذه الكلمة فإن النجف ليس لها ذنب إلا أنها موالية لأهل البيت وقد ألفنا أن نرى حملات شديدة نتلقاها من بعض الكتاب المصريين أمثال أحمد أمين لذلك نمر على هذه الكلمة الصغيرة مر الكرام.

التأريخ وموضع مفاجأة واستغراب والشيخ علي الشرقي في مجلة (لغة العرب س٤) والأستاذ الدخيلي في مجلة (الرسالة س٦) وغيرهما وإن سبقوا بذلك. ولكن ليس بهذا التصريح والتأكيد بحيث يصح نسبة الرأي إليهم - كما يتضح لمن راجع كلماتهم -.

وترتفع شبهة كبرى عن هذا الرأي عندما نعرف المعنى المقصود من الجامعة - في دورها الأول -؟ نريد بالجامعة معناها البسيط أو اللغوي وهو الاجتماع للدرس والتعليم بحسب ذلك العصر وطريقته على نحو تردد الإمام علي (ع) وأولاده ومحبيهم إلى موضع قبر علي (ع) وبقائهم عنده أياماً وليالي بذكر القرآن والتفسير والحديث الشريف، وبهذا المعنى صح نسبة تأسيس الجامعة النجفية إلى الإمام علي (ع) والتأريخ الإسلامي يشهد له ويؤيده كما تقدم - ويأتي أيضاً -.

وقد توسع بعض الفضلاء[1] في هذا الموضوع، فتطرّق لكلا الرأيين، الرأي الذي يثبت وجود حركة علمية قبل الطوسي، والرأي النافي لذلك، وعرض أدلة كلا الفريقين ثم ناقش الرأي الأول وأكّد الثاني، فقال:

«ولا تتبين معالم صورة واضحةٍ للحركة العلمية والنشاط الفكري الديني في النجف الأشرف - يعني قبل الشيخ الطوسي - حيث توجد نظريتان:

الأولى: أن الحركة العلمية الدينية قد انطلقت في النجف الأشرف قبل مجيء الشيخ الطوسي إليها بأعوامٍ كثيرة، وأن طلاب العلوم الدينية قد اجتمعوا في النجف وأسسوا الجامعة العلمية الدينية منذ الأيام الأولى من رفع الحواجز والعقبات عن طريق الشيعة لزيارة قبر علي عليه السلام ووفود الناس إليها للمجاورة، وكان التحاق الشيخ الطوسي عام ٤٤٨هـ ١٠٢٧م بمثابة إضافة بدرٍ منير إلى النجوم المضيئة في أفق النجف الفكري والعلمي.

ثانيها: إن شيخ الطائفة هو المؤسس للحوزة العلمية الدينية في النجف

---

(١) العلامة السيد محمد الغروي/ مجلة الثقافة الإسلامية عدد ٢٨ من صفحة ١٥٧ إلى ١٦٨ كانون الأول ١٩٨٩ - ١٩٩٠م.

الأشرف وأنه الإنسان الأول الذي جاور القبر وغرس شجرة العلوم الإسلامية في تلك البقعة المباركة، وأن النجف الأشرف كانت مدينة للزيارة والعبادة والسكنى طمعاً في ثواب مجاورة قبر علي عليه السلام، ولم تكن ذات طابع علمي وفكري قبل وصول الشيخ الطوسي رحمه الله إليها عام ٤٤٨هـ ١٠٢٧م وإنما انطلقت النجف في المجالات الفكرية والعلمية بفضل هذا الرجل العظيم الوافد عليها.

هذا، علماً بأن أصحاب النظريتين يتفقان على أن محمد بن الحسن الطوسي قد غيّر المعالم العلمية والفكرية، وبعث بروح جديدة، وأوجد نهضةً علمية لم تعهد من قبل في النجف الأشرف بعد لجوئه إليها عند اندلاع الفتنة بين الشيعة والسنة في بغداد، وعندما نشبت المعركة بين البويهيين الشيعة والسلاجقة السنة، وبعد إحراق مكتبته العامرة بالكتب القيمة، وكرسيه الذي كان يرقاه ليدرس علم الكلام.

وقد استدل كل واحدٍ من الفريقين على مختاره بأدلةٍ وبراهين مع إبداء ملاحظاته ومناقشاته على الأدلة المعروضة من قبل خصمه.

وإليك عرضاً بسيطاً لهذه البراهين المقدمة من الفريقين مع ذكر مناقشتها إن كانت هناك ملاحظة ومناقشة لتلك الأدلة.

أدلة الفريق الأول:

استدل هذا الفريق الذي يرتأي بأن الحركة العلمية الدينية كانت دائبة قبل وصول الشيخ الطوسي إلى النجف عام ٤٤٨هـ ١٠٢٧م بالأدلة التالية[١]:

الدليل الأول:

النقابة في النجف الأشرف، وهذا المركز أقرب إلى الروحي منه إلى الزمني، وذكرت الكتب المختصة أن عدداً من الأعلام تولوا نقابة المشهد العلوي، منهم: السيد شريف الدين محمد المعروف بابن السدرة، أقام في النجف عام ٣٠٨هـ ٨٨٧م حتى توفي فيه. وكذلك ناصر الدين مطهّر بن رضي

---

(١) ذكرت هذه الأدلة في موسوعة العتبات المقدسة م٧ ص١١.

الدين محمد بن الحسين، وقد تولى نقابة المشهدين العلوي والحسيني[1].

وحيث إن النجف أصبحت مدينة مقدسة لاحتوائها على قبر علي عليه السلام جُعلت النقابة لأولاد الزهراء عليها السلام، وبما أن المركز الروحي العلمي أفضل وأشرف، تعين أن يكون نقيب الأشراف من العلماء المنتسبين إلى علي والزهراء عليهما السلام.

مناقشة الدليل الأول:

إن النقابة من دون ريب من المناصب الرفيعة بعد مقام الخلافة، وأن النقيب مقدم على رجال الدولة بأسرهم حتى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام.

لقد عهد الخلفاء العباسيون إلى نقيب الأشراف إمرة الحاج وديوان المظالم واستمر هذا التكريم حتى حلول أيام العثمانيين، ولم نعثر في التأريخ أن عالماً فاضلاً قد تصدى لهذا المركز الرفيع حتى ندعي بأن العلماء في النجف قد تصدوا للنقابة، وأن النجف قد أهّلتهم من الناحية العلمية لهذا المنصب.

ولعل المقصود من قولهم: (وهذا المركز أقرب إلى الروحي من غيره) هو العدالة والورع والتقى، لا العلم والبحث والتحقيق، لأن هذا المنصب يحتاج إلى العدل والإنصاف تجاه الناس، دون العلم والفقه والتحقيق.

يقول الرحالة ابن بطوطة: ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق، ومكانه عنده مكين، ومنزلته رفيعة، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره، وله الأعلام والأطبال، وتضرب الطبلخانة عند بابه مساءً وصباحاً، وإليه حكم هذه المدينة، ولا والي بها سواه ولا مغرم للسلطان ولا لغيره، وكان النقيب في عهد دخولي إليها، نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي، نسبةً إلى بلدة آوة من عراق العجم، أهلها رافضة.

وكانت قبله جماعة يلي كل واحدٍ منهم قبل صاحبه، منهم: جلال الدين بن الفقيه. ومنهم: قوام الدين بن طاوس، ومنهم: ناصر الدين مطهر ابن الشريف

---

(١) ن. م ص١٣.

الصالح شمس الدين محمد الأوهري من عراق العجم، وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملكها، ومنهم: أبو غرّة بن سالم بن مهني بن جمّاز بن سيحة الحسيني المدني[١].

ولا نعثر في قائمة هؤلاء النقباء ولا في غيرها على نقيب عالم حتى نقول بأن النقيب في النجف الأشرف يكون من سلالة الزهراء من العلماء والفقهاء، وأنهم يبلغون المستوى السامي من العلم والفضل في النجف الأشرف منذ قديم الأيام وقبل مجيء الشيخ الطوسي إليها حسب دعوى صاحب النظرية الأولى.

الدليل الثاني:

ورد ذكرٌ لبعض البيوتات العلمية التي لمعت في النجف في القرن الرابع والخامس، كآل شهريار، وآل الطحّال وغيرهما، وقد جمعت هذه البيوت بين الفضيلة العلمية وخدمة الروضة الحيدرية[٢] وهذا دليل على أن النجف قد شغلت بالحوزة العلمية في القرن الرابع قبل وصول شيخ الطائفة الطوسي إليها.

مناقشة الدليل الثاني:

إن آل شهريار من الأسر العلمية العريقة في النجف الأشرف، ولكنها كانت في أوائل القرن الخامس. يقول الشيخ باقر آل محبوبة: (عُرفت آل شهريار بالنجف واشتهرت في أوائل القرن الخامس الهجري على عهد شيخ الطائفة الشيخ الطوسي)[٣].

ويقول صاحب طبقات أعلام الشيعة: أحمد بن شهريار الخازن أبو النصر، والد أبي عبدالله محمد بن أحمد بن شهريار الخازن للحضرة الغروية والراوي عن الطوسي[٤]. ولم يعرف أحدٌ منهم قبل الشيخ الطوسي بالفضل والعلم والرواية.

وكذلك آل طحّال، فقد قيل إنهم من الأسر العلمية القديمة في النجف

(١) عن موسوعة العتبات المقدسة م٧ ق١ ص١٧٥.
(٢) نفس المرجع ق ٢ ص١٣.
(٣) ماضي النجف وحاضرها ج٢ ص٣٩٩.
(٤) النابس في القرن الخامس ص ١٦.

الأشرف، يقول الشيخ باقر آل محبوبة: (آل طحّال من الأُسر العلمية القديمة في القرن الرابع، عرفت في النجف في ذلك العصر)[١].

ثم يستمر في ترجمة حياة الشيخ حسن بن محمد بن الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن طحّال المقدادي ويقول: (كان من خدّام الحضرة العلوية وخزانها، اشترك مع والده في نقل الكرامة التي وقعت في نوبتها في سنة ٥٧٥هـ، ونقل هو كرامات وقعت في عصره من العتبة العلوية في سنة ٥٨٤هـ وفي سنة ٥٨٧هـ)[٢].

ويقول محبوبة في ترجمة الشيخ الأمين (الإمام العالم أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن طحال المقدادي) هو أشهر رجال هذه الأسرة وأبعدهم صيتاً وأكثرهم روايةً، وأغزرهم علماً، ثم يضيف قائلاً: المقدادي المجاور بمشهد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام من أكابر علمائنا من مشايخ ابن شهراشوب[٣].

فلا يوجد شاهدٌ موثوق يُعتمد عليه لإثبات احتواء النجف الأشرف على مركز علمي ديني قبل وصول الشيخ الطوسي إليها، خاصةً وأن أشهر شخصية علمية من أسرة آل شهريار وآل طحّال هما: أحمد بن شهريار، والشيخ الأمين الحسين بن أحمد بن محمد، في حين أن أحمد بن شهريار قد روى عن الشيخ الطوسي[٤] وأن الشيخ الأمين الحسين بن أحمد بن علي بن طحّال يكون من مشايخ محمد بن علي بن شهراشوب في عام ٥٣٩هـ[٥] والفترة المقررة في علم الرجال بين طبقةٍ وطبقةٍ أخرى هي أربعون عاماً، فيكون الحسين بن أحمد طحّال متأخراً عن الشيخ الطوسي.

ولو فرضنا أن المتصدين للخزانة العلوية من الأسرتين كانوا من العلماء

(١) ماضي النجف وحاضرها ج٢ ص٤٢٣.
(٢) ماضي النجف وحاضرها ٢/٤٢٤.
(٣) نفس المصدر ٤٢٤.
(٤) النابس في القرن الخامس ص ١٦.
(٥) ماضي النجف وحاضرها ج٢ ص٤٢٥.

والأفاضل والمحدثين لما كان ذلك دليلاً على وجود دراسات علمية دينية في النجف الأشرف قد تعلموا فيها وتخرجوا منها إذ يمكن أنهم بلغوا المستوى العلمي الرفيع في جامعة الكوفة أو بغداد أو جامعةٍ دينيةٍ أخرى.

الدليل الثالث:

إن الشاعر أبو عبدالله الحسين بن أحمد المعروف (بابن الحجاج) عندما زار النجف الأشرف في أواخر القرن الرابع الهجري، أنشد قصيدة قال فيها:

يا صاحب العقبة البيضا على النجف ... من زار قبرك واستشفى لديه شفي

وفيها:

وقل سلامٌ من الله السّلام على ... أهل السلام وأهل العلم والشرف[1]

ويقال إن أهل العلم هم العلماء والمحدثون الذين كانوا في النجف الأشرف قبل الشيخ الطوسي فالشاعر يخاطبهم.

مناقشة الدليل الثالث:

إن الحسين بن أحمد المعروف بابن الحجاج المتوفى عام ٣٩١هـ ٧٩٠م من الشعراء العراقيين المعروفين الذي أنشد قصائد كثيرة في الجدّ والهزل. كما نظم قصائد في مدح أهل البيت عليهم السلام ومنها هذه القصيدة التي جاء فيها:

إذا وصلت إلى أبواب قُبّته ... تأمل الباب تلقا وجهه وقِفِ

وقل سلام من الله السلام على ... أهل السلام وأهل العلم والشرفِ

إني أتيتك يا مولاي من بلدي ... مستمسكاً من حبال الحق بالطرف[2]

ومن سياق هذه الأبيات نعرف أن الشاعر يخاطب صاحب القبة الإمام علي عليه السلام وهو أهل السلام والشرف والعلم والجود والكرم، ولا يخاطب أهل النجف وسكنتها من الناس.

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة م٧ ص١٥.

(٢) أعيان الشيعة المجلد الخامس ص ٤٣٣.

الدليل الرابع:

علماء نسبوا إلى النجف قبل عهد الشيخ الطوسي، منهم:

أ - أحمد بن عبدالله الغروي، يروي عن أبان بن عثمان من أصحاب الإمام الصادق (ع) وهو من المنتسبين إلى الغري الذي هو النجف[1] ومن الواضح أن من يروي عن أبان بن عثمان، يكون في أواخر القرن الثاني أو بداية القرن الثالث، في حين أن الشيخ الطوسي قد ولد في أواخر القرن الثالث، فيكون عبدالله الغروي من العلماء والمحدثين النجفيين قبل الشيخ الطوسي.

ب - شرف الدين بن علي النجفي، وقد وصفه الشيخ الطوسي بقوله: كان صالحاً فاضلاً[2]. وتوصيف الشيخ الطوسي لشرف الدين النجفي بالفضل والصلاح دليلٌ على أن مدينة النجف كانت تحتوي على علماء وأصحاب فضل قبل حلوله منها عام ٤٤٨هـ.

جـ - أبو طاهر عبدالله بن أحمد بن شهريار، كان معاصراً للشيخ المفيد الذي يروي عنه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري والنجاشي في كتاب الإمامة[3]. ويعد الشيخ المفيد من مشايخ الشيخ الطوسي فيكون عبدالله بن أحمد بن شهريار المعاصر للشيخ المفيد في طبقةٍ متقدمة على الشيخ الطوسي.

د - أحمد بن شهريار أبو نصر الخازن للحضرة الغروية، كان من رجال العلم وحملة الحديث معاصراً للشيخ الطوسي[4].

وكما تقدم منا في مناقشة الدليل الثاني أن آل شهريار من الأسر العلمية العريقة في النجف الأشرف، وهي التي تشرفت بسدانة وخدمة الروضة الحيدرية، وكان عبدالله معاصراً للشيخ المفيد الذي مات عام ٤١٣هـ ٩٩٢م. كما أن أحمد بن شهريار كان معاصراً للشيخ الطوسي وهما من العلماء الرواة في النجف

(١) و(٢) موسوعة العتبات المقدسة م٧ ق٢ ص١٤.
(٣) ن. م. ص١٤.
(٤) موسوعة العتبات م٧ ق٢ ص١٤.

قبل مجيء شيخ الطائفة إليها، وهذا دليل على احتضان النجف للعلم والعلماء قبل النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة.

مناقشة الدليل الرابع:

إن العلماء المنتمين إلى النجف الأشرف حسب زعم المستدل هم:

أ ـ أحمد بن عبدالله الغروي، نسبة إلى الغري.
ولكن عندما نرجع إلى معجم رجال الحديث نرى أن: أحمد بن عبدالله القروي (بالقاف) يقول السيد الخوئي: (أحمد بن عبدالله القروي، روى عن أبان بن عثمان، وروى عنه الحسين بن سعيد)[١].

ب ـ شرف الدين بن علي النجفي الذي وصفه الشيخ الطوسي بالفضل والصلاح، ولكن يقول السيد الخوئي بأن الناعت له بالفضيلة والصلاح إنما هو الشيخ الحر العاملي لا الشيخ الطوسي: (شرف الدين بن علي النجفي، كان فاضلاً محدثاً صالحاً، له كتاب الآيات الباهرة في فضل العترة الطاهرة)[٢].

وعليه لا دليل على أن شرف الدين بن علي كان سابقاً على الشيخ الطوسي.

جـ، د ـ عبدالله بن أحمد بن شهريار وأحمد بن شهريار وهما من أسرة آل شهريار، وهي أسرة عريقة علمية في النجف الأشرف.

ولكن، قد تقدم الحديث في هذه الأسرة الكريمة عند المناقشة للدليل الثاني، وأثبتنا:

أولاً: أن التأريخ لم يُدلِ بشاهدٍ موثوق يثبت بأن أشخاصاً من هذه الأسرة العلمية قد سبقوا الشيخ الطوسي في تشييد الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

وثانياً: أن تمتع أفراد من هذه الأسرة الكريمة بالعلم لا يشهد بأن هؤلاء

(١) معجم رجال الحديث. المجلد الثاني ص١٤١.
(٢) نفس المرجع م٩ ص١٦.

العلماء قد بلغوا مستوىً رفيعاً من العلم في جامعة النجف الأشرف الدينية.

الدليل الخامس:

ذكر السيد ابن طاوس غياث الدين عبدالكريم بن أحمد، أن فناخسرو الملقب بعضد الدولة الذي هو وزير الطائع لله أبي الفضل عبدالكريم العباسي، عندما قام بزيارة المشهد العلوي الطاهر عام ٣٧١هـ، تصدق وأعطى الناس على اختلاف طبقاتهم وكان نصيب الفقراء والفقهاء ثلاثة آلاف درهم[١] فتوزيع المال على الفقهاء دليل على تواجدهم في النجف الأشرف قبل حضور الشيخ الطوسي بأكثر من نصف قرن.

مناقشة الدليل الخامس:

إن عضد الدولة من البويهيين الشيعة المحبين لأهل البيت والفقهاء والمحدثين السائرين على نهجهم والملتزمين لمذهبهم، وكان يبذل على الفقراء والعلماء الأموال الطائلة. يقول الدكتور حسين أمين في عضد الدولة: (وكان ينفق كل جمعة عشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل، ويصرف كل سنة ثلاثة آلاف دينار ثمن أحذية للحفاة من الحجاج، وعشرين ألف درهم كل شهر لتكفين موتى الفقراء، واستحدث ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء، إلى أن قال: وكان يحب العلم والعلماء ويجري الأرزاق على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسّابين والأدباء، والحسّاب والمهندسين، وأفرد لأهل الاختصاص من العلماء والحكماء موضعاً يقرب من مجلسه)[٢].

ومن كان عطاؤه هكذا كيف نقول بأنه يزور النجف وينفق على فقرائها وفقهائها ثلاثة آلاف درهم.

والظاهر أن المقصود من الفقهاء في النجف، العلماء الذين كانوا يتصدون للأمور الدينية في المجتمع من إقامة صلاة الجماعة، وإجراء عقد النكاح،

---

(١) فرحة الغري ص١١٣ ـ ١١٤ على ما في المجلد السابع من موسوعة العتبات ص١١.
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج٢ ص٤٩٦.

والتحكيم بين الناس لفضّ خصوماتهم بعد المراجعة إليهم والإصلاح بينهم، لا الفقهاء الكبار والأساتذة العظام.

بل نستطيع أن نقول: إن قلة الإنفاق على الفقراء والفقهاء خير دليل على وجود عددٍ قليل من العلماء الذين كانوا في النجف لتصريف الشؤون الدينية، ولا يعقل أن تكون حوزة علمية دينية في النجف الأشرف عندما زارها عضد الدولة البويهي ويوزع ثلاثة آلاف درهم ـ هذا المبلغ الضئيل ـ على الفقراء والفقهاء معاً.

الدليل السادس:

صدور إجازات لنقل الحديث من عالمٍ لآخر في النجف الأشرف، أو سماع الحديث من عالم في المشهد العلوي، وذلك:

أولاً: أن محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق قد سمع من شيخه محمد بن علي بن الفضل الكوفي عام ٣٥٤هـ في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام وهو في طريقه إلى الحج[١].

ثانياً: قال النجاشي[٢] في ترجمة الحسين بن أحمد بن المغيرة (أبو عبدالله البوشنجي) كان عراقياً مضطرب المذهب، وكان ثقةً فيما يرويه، له كتاب «عمل السلطان» أجازنا بروايته أبو عبدالله بن الخمري (اسمه الحسين بن جعفر بن محمد المخزومي المعروف بابن (الخمري الكوفي) الشيخ الصالح في مشهد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام سنة أربعمائة عنه[٣].

فسماع الشيخ الصدوق للحديث والرواية عام ٣٥٤هـ عن شيخه محمد بن علي بن الفضل الكوفي في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام، وصدور الإجازة من الحسين بن جعفر المخزومي المعروف بابن الخمري للحسين بن أحمد بن المغيرة

(١) موسوعة العتبات المقدسة م٧ ص١٢.
(٢) هو أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي صاحب كتاب «رجال النجاشي» ولد عام ٣٧٢ وتوفي عام ٤٥٠هـ.
(٣) رجال النجاشي، ترجمة حسين بن أحمد بن المغيرة.

عام ٤٠٠هـ في مشهد علي عليه السلام خير دليل على أن الحوزة الدينية كانت قائمةً، والعلماء كانوا يتداولون الأبحاث والدراسات قبل ولادة الشيخ الطوسي حيث ولد عام ٣٨٥هـ ٩٦٤م وقبل أن يحط رحله في بغداد عام ٤٤٨هـ.

مناقشة الدليل السادس:

إن إجازة أبي عبدالله المعروف بابن الخمري للنجاشي في رواية كتاب (عمل السلطان) لحسين بن أحمد بن المغيرة في مشهد أمير المؤمنين سنة ٤٠٠هـ، واستماع الشيخ الصدوق لما نقله شيخه محمد بن علي بن الفضل الكوفي سنة ٣٥٤هـ من الأحاديث والروايات في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام لا تدلّان على وجود مركز علمي نشيط في النجف الأشرف قبل دخول الشيخ الطوسي إليها، لأن مجرد الاستحصال على إجازة نقل الروايات في مقام، أو الاستماع للروايات عن شيخ في الحديث والفقه، لا يكون شاهداً على أن البلد الذي يتمّ اللقاء العلمي أو الاستماع للحديث فيه يحتوي على مركز علمي.

ونحن نعثر في علم الرجال وترجمة حياة العلماء والمحدثين على شخصيات علمية التقت بشخصيات مرموقة في الحديث والفقه، وتبادلوا الروايات والأحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، أو استجاز أحدهم الآخر لنقل كتاب أو أحاديث، مع أن ذلك المكان الملتقى ليس بمحل للنشاط العلمي والفكري والروائي، وإليك أمثلةً على ذلك:

أولاً: أن إبراهيم بن عمروس الهمداني - من مشايخ أبي الحسن علي بن بابويه والد الصدوق والمتوفى عام ٣٢٩هـ - يروي عنه بهمدان[1].

ثانياً: أن محمد بن علي بن بابويه القمي قد كتب إجازةً لفضل بن الفضل بن العباس بهمدان عام ٣٥٤هـ ٩٣٣م[2].

مع أن مدينة همدان لم تكن آنذاك مدينة العلم والعلماء رغم أنها حظيت بوكلاء نواب الإمام المهدي (عج) حيث إن القاسم بن محمد بن علي بن إبراهيم

---

(١) نوابغ الرواة في رابعة المئات ص٤.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٧.

الهمداني وكيل الناحية المقدسة بهمدان بعد وفاة والده محمد الوكيل للناحية المقدسة بعد وفاة والده علي بن إبراهيم الهمداني الذي كان أيضاً الوكيل للناحية[١].

ثالثاً: يكون الحسين بن محمد الأشنائي الرازي العدل من مشايخ الصدوق، وقد قرأ عليه ببلخ[٢] ولم نعهد في التأريخ بأن مدينة بلخ كانت مقراً لجامعةٍ دينية أيام الصدوق المتوفى عام ٣٨١هـ ٩٦٠م.

رابعاً: أن جعفر بن محمد بن إبراهيم قد روى عن أبي الحسين بحلب[٣] ولم تقم شواهد تاريخية تحدثنا عن وجود مجمع علمي ديني في حلب في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه جعفر بن محمد بن إبراهيم.

خامساً: أن المحقق الحلي صاحب الشرائع، قد أجاز البعض في النجف أيام ازدهار العلم في الحلة، وفتوره وخموله في النجف[٤] فهل نستطيع أن نعتبر المحقق من سكان النجف الأشرف.

وهكذا نقول بأن النجف الأشرف لم تتمتع بالحركة العلمية قبل الشيخ الطوسي رغم حصول الإجازة والرواية في مشهد إمامنا علي بن أبي طالب عليه السلام.

تعم، إن مدينة النجف الأشرف تعد من المدن المقدسة التي تقصد من كل صوب وحدب لزيارة مرقد إمام المتقين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وخاصةً أن العلماء العارفين لمقام الولاية يسعون في كل مناسبة لزيارة المشهد العلوي.

كما أنها مدينة يستحب الدفن فيها لمجاورة قبر وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكان العلماء يوصون أولادهم وتلامذتهم أن ينقلوا جثمانهم إلى النجف إذا وافتهم المنية.

(١) أعيان الشيعة م٩ ص١٦٠.
(٢) نوابغ الرواة في رابعة المئات ص٤.
(٣) نفس المصدر ص٧٣.
(٤) أعيان الشيعة م٩ ص١٦.

فبهذه المناسبة أو تلك، كان العلماء القادمون من الأمصار المختلفة يلتقون ويتحدثون ويتبادلون إجازات نقل الأحاديث، ويستمعون إلى الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام.

وإليك أمثلةً من العلماء الذين قدموا إلى النجف الأشرف للزيارة، أو أوصوا أولادهم بنقل جثمانهم للموارة والدفن فيها.

أ ـ هبة الله بن أحمد بن محمد أبو نصر الكاتب، وكان هذا الرجل كثير الزيارات، وآخر زيارة حضرها معنا ـ يقول النجاشي ـ يوم الغدير سنة ٤٠٠هـ ٩٧٩م[١].

ب ـ عبدالله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع أبو العباس الحميري شيخ القميين ووجههم، صاحب قرب الإسناد والتوقيعات، قدم الكوفة في نيف وتسعين ومائتين (٢٩٢هـ ١١١٨م) كما في رجال النحاشي أيضاً، والظاهر أن قدومه كان لزيارة الأمير (ع)[٢].

جـ ـ محمد بن أحمد بن داود، مات سنة ٣٦٨هـ وأوصى بنقل جثمانه إلى النجف[٣].

د ـ علي بن محمد بن عبيد بن زبير الكوفي، مات ببغداد ٣٤٨هـ ـ ٩٢٧م ودفن في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام.

ولقد ورد في ترجمة حياة علي بن عثمان بن خطاب كتب عنه أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام من المصريين والشاميين والبغداديين وغيرهم ممن حضر موسم مكة سنة ٣٠٩هـ ٨٨٨م أيام المقتدر[٤].

فنستخلص من كل هذه الدلائل والشواهد، بأن لقاءات العلماء ونقل بعضهم عن آخر، وإجازة بعضهم لآخر في حضرة علي عليه السلام لا يكون

---

(١) رجال النجاشي ج٢ ص٤٠٩.
(٢) طبقات أعلام الشيعة.
(٣) أعيان الشيعة م٩ ص٦٥.
(٤) طبقات أعلام الشيعة.

دليلاً وشاهداً على وجود مركز علمي وحوزة دينية للدرس والبحث قبل حضور الشيخ الطوسي فيها عام ٤٤٨هـ هرباً من فتن بغداد والنزاعات الطائفية التي أدت إلى إحراق مكتبته وكرسي درسه.

واستدل أيضاً على أن الشيخ أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي هو المؤسس الأول للحوزة العلمية الدينية في النجف الأشرف، والباعث للنهضة الفكرية والعلمية في هذه البلدة المقدسة بالأدلة التالية:

الدليل الأول:

إن الحركة الفكرية والعلمية كانت ناشطةً على قدمٍ وساق في الكوفة في القرن الثاني والثالث والرابع الهجري، وإن خف النشاط العلمي قليلاً بعد ظهور علماء كبار مثل علي بن الحسين بن موسى بن بابويه ـ توفي ٣٢٩هـ ـ وعلي بن إبراهيم القمي ومحمد بن يعقوب الكليني وجعفر بن محمد بن قولويه ٢٨٥ ـ ٣٦٨هـ في مدينتي قم والري في أواسط القرن الثالث وحتى القرن الرابع، ولكن الكوفة كانت مجمع العلماء والمحدثين، حيث إن طلبة العلوم الدينية والأحاديث النبوية كانوا يقصدونها لتلقي العلم والحديث وإجازة نقل الروايات من رجال الكوفة.

ومن الصعوبة جداً أن تتاح الفرصة وتلتئم الظروف لتأسيس مركز علمي في النجف، وهي على مقربةٍ من الكوفة وعلى ظهرها، وخاصةً أن إنشاء مركز علمي يحتاج في بدء الأحوال عالماً كبيراً ذا شهرةٍ واسعة يتبنى التأسيس للجامعة العلمية.

وبهذا نستدل أن شيخ الطائفة وفد إلى النجف الأشرف وأصبح نبراساً فيها، وبدأت الدراسة والنشاط الفكري في هذه المدينة المقدسة.

الدليل الثاني:

إن الأوضاع السياسية الحاكمة آنذاك في القرن الثاني والثالث والرابع لا تسمح بظهور النجف الأشرف في المجال العلمي والفكري، لأن الخلفاء الأمويين، ومن بعدهم الخلفاء العباسيون، كانوا يحاربون علياً عليه السلام وأولاده المعصومين، وكانوا يوجهون الناس بأساليب مختلفة وأنفسهم حتى ينسى الناس دور

علي عليه السلام في الإسلام.

ومواقف معاوية من الإمام علي عليه السلام والحسن السبط، وموقف يزيد بن معاوية من الإمام الحسين عليه السلام، وموقف مروان بن الحكم وولده عبدالملك، والوليد وسليمان من سبّ علي عليه السلام على المنابر، ثم تتبُّع السفاح والمنصور ومن تلاهم من الخلفاء العباسيين للعلويين والبحث عنهم تحت كل حجر ومدر، وقتلهم، كل ذلك دليل على أن السياسة الأموية، والعباسية، كانت قائمة على أساس طمس معالم علي عليه السلام والحيلولة دون ظهوره.

ومن هذا المنطلق لم يسمح الحكّام الساسة للمدينة التي تحتضن علياً عليه السلام أن تصبح مركزاً علمياً حيّاً في المجتمع الإسلامي، لأنه سيبعث على إحياء مآثر علي عليه السلام وفضائله ودوره في الإسلام.

وأما في أواسط القرن الخامس، فقد فرض الواقع الشيعي نفسه في العراق بواسطة عظمائه من رجال العلم، مثل الشيخ الطوسي والسيد المرتضى والشيخ المفيد و. . .

ومن خلال ازدياد عدد الشيعة وحكومة البويهيين وعوامل أخرى سمحت بانتعاش النجف الأشرف علمياً وفكرياً بعد مجيء الشيخ الطوسي إليها.

الدليل الثالث:

ما ذكره الشهيد السيد محمد باقر الصدر في مقدمة كتابه (المعالم الجديدة)[1] «إن مؤرخي هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف لم يشيروا إطلاقاً إلى أن تلامذة الشيخ الطوسي في بغداد رافقوه أو التحقوا به فور هجرته إلى النجف». . وذلك أن التلاميذ كانوا يعرفون سلفاً بأن النجف مدينة الزيارة ودفن الموتىٰ، وليس بمدينة العلم والدراسات الإسلامية، ولهذا لم يصحبوه، ولو كانت النجف مدينة العلم والحديث لرافقوا الأستاذ إليها.

(١) المعالم الجديدة للأصول ص٦٤.

الدليل الرابع:

إن الشيخ الطوسي رحمه الله قد مارس عمله العلمي في مهجره من دون أن يجد حوزةً علمية رفيعة سامية في العلم والتحقيق تستطيع أن تتفاعل مع أفكاره العلمية المبدعة، وفرق كبير بين المبدع الذي يمارس إبداعه العلمي داخل نطاق الحوزة ويتفاعل معها باستمرار وتواكب الحوزة إبداعه بوعي وتفتح، وبين المبدع الذي يمارس إبداعه خارج نطاقها وبعيداً عنها[١].

ويستشهد السيد الشهيد الصدر على هذا الرأي ـ من عدم تفاعل المحيط في النجف مع الشيخ الطوسي ـ أنه سبب الركود الظاهري للعلم وانسداد باب الاجتهاد بعد الشيخ الطوسي، حيث مرّت مئة عام حتى بلغت الحوزة الفتية إلى ذلك المستوى الراقي في العلم الذي ساعده على التفاعل مع أفكار الشيخ الطوسي المبدعة ومناقشته والقفز فوقه.

الدليل الخامس:

إن الحسن ابن الشيخ الطوسي المعروف بأبي علي، قد تزعم الحوزة العلمية في النجف الأشرف بعد وفاة أبيه رغم صغر سنّه، حيث إنه من المظنون أن ابن الشيخ الطوسي قد عاش بعد وفاة أبيه قرابة سبعين عاماً، فهذه الزعامة الفتية للابن (بالرغم من كونه من تلامذته المتأخرين في أغلب الظن) يكشف عن المستوى العلمي العام لهذه الحوزة[٢] إذ لو لم تكن الحوزة فتيّةً وكانت قديمةً، لتزعمها شخص آخر متقدم في العمر والعلم[٣].

خلاصة البحث

وخلاصة القول، فإن النجف قد بدأت تأريخها كمدينةٍ مقدسة منذ أن كشف لأول مرة عن قبر الإمام علي (ع) عام ١٧٠هـ ٧٦٨م والذي كان غير معروف سوى لأقرب أصحابه.

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق ص٦٥.

(٣) إلى هنا انتهى كلام «الغروي» في مجلة الثقافة الإسلامية.

أما تأريخها كمدينةٍ علمية، وكجامعةٍ للدراسات الإسلامية في مجالات الفقه، وأصول الفقه والفلسفة الإسلامية، وتفسير القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وما يتصل بذلك من قضايا العقيدة الإسلامية، وشؤون الفكر الإسلامي، فذلك يعود إلى التأريخ الذي هاجر فيه إليها من بغداد الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي عام ٤٤٨هـ ١٠٥٦م.

وهناك من يذهب إلى أن الشيخ الطوسي لم يوجد العلم في النجف بعد أن كان معدوماً فيها، وأن كل ما أتى به لا يقتضي أكثر من أن يسجل له التأريخ أنه: صاحب عهدٍ جديد ودورٍ خاص، ازدهر العلم في عصره، كما كان في عصر عضد الدولة، على حدّ سواء في كثرة الطلاب وقوة العلم.

ولتأييد وجهة نظره، ينقل صاحب هذا الرأي ما ورد في الجزء الثامن من الكامل لابن الأثير ص٣٣٤ من أن دراسة العلم في النجف بدأت منذ القرن الثالث الهجري وبلغت أوج عظمتها في عهد عضد الدولة ـ أحد الملوك البويهيين ـ حيث أطلق الصلات لرجال العلم والدين، المقيمين في الغري وغيرهم من ذوي الفاقة، لكن «تركزت هذه الدراسات بعد هجرة الشيخ الطوسي»[1].

بعد هذا كله، فإنا لا نستطيع أن نخفي كل هذا، كما لا نقبل كل ذاك، وإنما المرجح أن نذهب إلى حدّ وسط، وهو: أن النجف قبل هجرة الشيخ الطوسي في سنة ٤٤٩هـ كانت فيها جذور علمية، وتضم بعض رجالات الفضل والعلم، اتخذوا من النجف الأشرف ـ بعد ظهور القبر فيه ـ مقرّاً لهم.

ويدعم رأينا هذا شيخنا آغا بزرك الطهراني، إذ يقول: إنني أذهب إلى القول بأن النجف كانت مأوىً للعلماء، ونادياً للمعارف قبل هجرة الشيخ إليها، وأن هذا الموضع المقدس أصبح ملجأً للشيعة منذ أنشئت فيه العمارة الأولى على مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، لكن حيث لم تأمن الشيعة على نفوسها من تحكمات الأمويين والعباسيين ولم يستطيعوا بث علومهم ورواياتهم، كان الفقهاء والمحدثون لا يتجاهرون بشيءٍ مما عندهم وكانوا مبدّدين حتى عصر الشيخ

---

(١) النجف/ جامعتها ودورها القيادي ص٢٧ ـ ٢٩ الأستاذ علي البهادلي.

الطوسي وإلى أيامه، وبعد هجرته انتظم الوضع الدراسي وتشكلت الحلقات، كما لا يخفى على من راجع (آمالي الشيخ الطوسي) الذي كان يمليه على تلامذته.

وكذلك يرى الدكتور مصطفى جواد: بأن في النجف أعلاماً بثوا العلم قبل الشيخ الطوسي ويصعب التصديق بأن الشيخ أول من جعل النجف مركزاً علمياً[1].

* * *

إلى هنا نكون قد قدمنا للمتلقي صورة إجمالية كافية عن مكانة النجف العلمية قبل هجرة الشيخ الطوسي إليها.

ونبدأ الآن بمتابعة البحوث التي تتصل بموضوعنا (الجامعة النجفية) فنتحدث أولاً عن السبب في هجرة الطوسي إلى النجف وما ترتب عليها من الآثار.

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة ٧ ق النجف، ص٢١ ـ ٢٢.

السبب في هجرة الطوسي إلى النجف
وما ترتب عليها من الآثار

نشأة الجامعة النجفية

إن من المؤسف حقاً أن يمتد الصراع بين الشيعة والسنة في بعض العصور الإسلامية من صراع فكري عقائدي إلى مواجهة عسكرية مسلحة تدعمها الهمجية التي لا تعرف المبادىء والقيم، وهذا يرجع في الحقيقة إلى صلافة بعض الحكام الذين اتخذوا مناصبهم وسيلة للتسلط والحكم الاستبدادي والإمساك برقاب الشعوب المسلمة، إذ إنهم يعلمون مسبقاً بأن أسس العدل في الميزان الإسلامي القرآني لا تسمح لهم ولا لأمثالهم بالوصول إلى تلك المناصب.

ومن أولئك الحكام: السلجوقيون الذين مثلوا دور الظلم والاستبداد في عصرهم فأثاروا الفتن بين المسلمين وفي مقدمهم «طغرلبك»، الذي قاد الفتنة الطائفية الهوجاء في بغداد بنفسه وذلك في سنة ٤٤٩هـ.

«ولم تكن هذه العاصفة وليدة تلك الأيام، وإنما بلغت ذروتها في هذا العهد، وخاصة عندما قطعت الخطبة للقائم العباسي ببغداد وخُطب للمستنصر الفاطمي على منابر بغداد والعراق كله، فكتب القائم بأمر الله إلى «طغرلبك» السلجوقي في الباطن يستنهضه إلى المسير نحو العراق، وكان بنواحي خراسان، فدخلها سنة ٤٤٧هـ»[1]. وتقوض حكم البويهيين بدخوله، وتوليه الحكم من قبل القائم العباسي.

فمنذ وروده إلى بغداد أخذ يشن حملة شعواء على الشيعة، ويقسو عليهم وقد

---

(١) النجوم الزاهرة: ٥٦ ـ ٥.

عزّ على هذا السفاح الأهوج أن يزدهر المذهب الجعفري، وينتشر فقرر أن يعمل جاداً في بعث التفرقة الطائفية بين المسلمين، أو في الحقيقة يؤجج لهيبها من جديد، فالمصادر التاريخية تؤكد وقوع الحوادث الدامية بين الشيعة والسنة، وقد استمرت من عام ٤٤١هـ إلى دخول طغرلبك ٤٤٧هـ فهي مثلاً بين شدة وضعف.

حتى إذا بلغت سنة ٤٤٨هـ قال ابن تغري بردي «وفيها أقيم الأذان» في مشهد موسى بن جعفر. ومساجد الكرخ بـ «الصلاة خير من النوم» على رغم أنف الشيعة وأزيل ما كانوا يقولونه في الأذان من «حي على خير العمل»[1].

واشتد هذا الجو المتأزم بالطائفية على مرور الأيام، وانقلب إلى حوادث دامية، فقد ذكر لنا ابن الجوزي[2] صورة من هذه الحوادث في سنة ٤٤٨هـ فيقول:

«وفي هذه السنة أقيم الأذان في المشهد بمقابر قريش، ومشهد العقبة ومساجد الكرخ بـ «الصلاة خير من النوم» وأزيل ما كانوا يستعملونه في الأذان «حي على خير العمل» ودخل إلى الكرخ (وهو معقل الشيعة) منشدو أهل السنة من باب البصرة فأنشدوا الأشعار في مدح الصحابة، وتقدم رئيس الرؤساء إلى ابن النسوي بقتل أبي عبدالله الجلاب (شيخ البزازين) بباب الطاق لما كان يتظاهر به من الغلو في الرفض فقتل وصلب على باب دكانه»[3].

وإذاً فالفتنة الطائفية بلغت ذروتها، ولم يسلم منها كل شيعي سكن بغداد وكان نصيب الشيخ الطوسي منها كبيراً باعتباره الشخصية الشيعية الأولى، وعلمهم المبرز، فقد «كبست دار أبي جعفر الطوسي (ويصفه ابن الجوزي بـ (متكلم الشيعة). بالكرخ. وأخذ ما وجد من دفاتره، وكرسياً كان يجلس عليه للكلام، وأخرج إلى الكرخ، وأضيف إليه ثلاث سناجق بيض ـ وهو اللواء ـ، كان الزوار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم، إذا قصدوا زيارة الكوفة، فأحرق الجميع.

(١) النجوم الزاهرة: ٥٩ ـ ٥.

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد البكري الحنبلي، المعروف بابن الجوزي: فاضل متتبع، صنف في فنون عديدة، كان رأس الأذكياء، توفي ببغداد عام ٥٩٧هـ.
(الكنى والألقاب: ٣٤٢٢ ـ ١).

(٣) المنتظم: لابن الجوزي: ١٧٢ ـ ٨ طبع حيدرآباد.

وهرب أبو جعفر الطوسي، ونهبت داره. . .»[١].

أما ابن حجر العسقلاني[٢]: فيوضح السبب الذي دعا إلى هذا الهجوم المعاكس على شيخ الطائفة بعد أن كان معززاً مكرماً، بحيث يبلغ الأمر به أن تحرق كتبه، وتنهب داره، ويحدث ما حدث، ويقول: «قال ابن النجار[٣]: أحرقت كتب الطوسي عدة نوب بمحضر من الناس في رحبة جامع النصر، واستتر هو خوفاً على نفسه، بسبب ما يظهر من (انتقاص السلف). . .»[٤].

ولعلنا وضعنا أصابعنا على الأسباب الرئيسية لهذه الحوادث الدامية من خلال ما عرضناه من نصوص تاريخية توضح لنا معالم المشكلة، والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من المسلمين. بفعل تلك الطائفية الرعناء، والتعصب المخزي الأعمى الفظيع.

الشيخ الطوسي يهاجر إلى النجف:

ومن جراء هذه الحوادث المؤلمة، والخطر المحدق، اختار الشيخ الطوسي - رحمه الله - النجف مقراً له، ومركزاً لحركته العلمية.

فالنجف الأشرف تمتعت بميزات خاصة فُضلت على بقية المدن العراقية، فهي تضم مرقد إمام العلم والفضيلة، أمير المؤمنين عليه السلام، وفيها تربة قابلة للنمو العلمي وذلك لوجود بعض الأعلام الذين سبقوا شيخنا الرائد من اتخاذ النجف مركزاً لهم.

بالإضافة إلى أن النجف تتكىء على الكوفة، وهذه المدينة علويّة في ذاتها

---

(١) المنتظم: ١٧٢ و١٧٩ - ٨.

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، أبو الفضل، شيخ الحديث، من كبار المجتهدين على مذهب الشافعي، له مصنفات مشهورة، توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ.
(الكنى والألقاب: ٢٥٧ - ١).

(٣) محب الدين محمد بن محمود بن الحسن البغدادي، تلميذ ابن الجوزي المعروف بابن النجار، صاحب كتاب (الكمال في معرفة الرجال) وتذييل تاريخ بغداد في ثلاثين مجلداً توفي سنة ٦٤٣هـ.
(الكنى والألقاب: ٤٣٠ - ٣).

(٤) لسان الميزان - لابن حجر: ١٣٥ - ٥ طبع حيدرآباد.

وهي وإن وقفت في فترة ضد آل البيت عليهم السلام، إلا أنها عادت إلى رشدها بعد زمان، وأصبحت موئلاً للشيعة، ومركزاً للتوابين، ومنطلقاً للثورات العلوية.

وإذا كان هذا الجانب متوفراً في مدينة الإمام علي (ع)، فلا بد أن يكون هو المفضل لدى الشيخ الجليل، الذي اضطرته المشاكل الطائفية، وحوادثها الدامية إلى أن يصمم على ترك بغداد.

وانتقل إلى النجف الأشرف عام ٤٤٩هـ، وحط رحله فيها، ومن الطبيعي أن يظهر دور جديد في حياته العلمية. خاصة إذا لاحظنا أنه عند هجرته إلى مدينة النجف قد انصرف عن كثير من المشاغل، وانصرافه انصرافاً كاملاً إلى البحث الأمر الذي ساعده كل المساعدة على إنجاز دوره العلمي العظيم، الذي ارتفع به إلى مستوى المؤسسين[١].

ودبت في النجف حركة علمية نشيطة بفضل شيخنا الرائد، وتوطدت أركانها بمرور الزمن، حتى برزت مظاهر الحياة العلمية المرتبة واضحة للعيان. وأصبحت الجامعة تضم عدداً من طلاب المعرفة لا يستهان بهم، وأخذت تتكاثر يوماً بعد يوم»[٢].

بين حوزتين علميتين:

ولقد ذكرت كتب الرجال أن تلامذة الشيخ الطوسي بلغوا من الشيعة فقط ثلاثمائة، أما من السنة فلا يحصى[٣].

وهذا العدد الذي تكاد المصادر تجمع عليه نراها عند تعداد أسمائهم لا تصل بهم إلى أكثر من ستة وثلاثين اسماً.

ولا بد أن نتساءل عن هذا العدد من الطلاب والمحصلين، هل هم من أركان حوزته العلمية في بغداد، وقد انتقلوا معه إلى النجف، أو أنهم نشؤوا في النجف،

(١) المعالم الجديدة ـ للسيد محمد باقر الصدر: ٦٣ طبع النجف.
(٢) هذا النص أخذ من موسوعة العتبات المقدسة في النجف من ص ٢٨ إلى ٣٢ الدكتور محمد بحر العلوم.
(٣) مقدمة تفسير التبيان، ورجال الطوسي، وتلخيص الشافي.

ونمت الحوزة بهم على عهده بالتدريج، بحيث برز فيها العنصر المشهدي ـ نسبة إلى المشهد العلوي ـ[١].

ورجحت بعض المصادر الأصولية: أن الشيخ عند هجرته إلى النجف انفصل عن حوزته التي أسسها ببغداد، وأنشأ في مهجره النجف حوزة جديدة. وتستند في دعواها إلى عدة مبررات. نلخصها بما يلي:

أولاً ـ أن مؤرخي هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف لم يشيروا إطلاقاً إلى أنّ تلامذة الشيخ في بغداد رافقوه، أو التحقوا به فور هجرته إلى النجف.

ثانياً ـ أن قائمة تلامذة الشيخ التي يذكرها مؤرخوه نجد أنهم لم يشيروا إلى مكان التلمذة إلا بالنسبة إلى شخصين جاء النص على أنهما تلمذا على الشيخ في النجف، وهما الحسين بن المظفر بن علي الحمداني[٢]، والحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه القمي[٣].

ثالثاً ـ ومما يعزز احتمال حداثة الحوزة الدور الذي أداه ابن الشيخ المعروف بأبي علي[٤]، فقد تزعم الحوزة بعد أبيه. ومن المظنون أنه كان في دور الطفولة أو أوائل الشباب حين هجرة والده، ذلك لانعدام تأريخ ولادته، ووفاته، ولكن الثابت

---

(١) المعالم الجديدة: ٦٤.

(٢) الحسين بن المظفر بن علي الحمداني ـ وفي نسخة الهمداني ـ نزيل قزوين، لقبه الشيخ منتجب الدين بالشيخ الإمام محيي الدين، وكناه بأبي عبدالله وقال: إنه ثقة وجه كبير قرأ على الشيخ الكبير الموفق أبي جعفر الطوسي جميع تصانيفه مدة ثلاثين سنة بالغري على ساكنها السلام مصنف مشهور ذكرت له المصادر عدة كتب.
(رجال المامقاني: ٣٤٥ ـ ١). الدراسة وتاريخها في النجف (٣).

(٣) الحسن بن الحسين بن الحسن بن بابويه القمي، نزيل الري المعروف بحسكا. ثقة موجه، قرأ على شيخنا الطوسي بالغري، كما قرأ على الشيخين سلار بن عبدالعزيز وابن البراج جميع تصانيفهما، وله مؤلفات عديدة.
(رجال المامقاني: ٢٧٣ ـ ١).

(٤) أبو علي الطوسي: الحسن بن محمد بن الحسن: فقيه، ثقة، قرأ على والده جميع تصانيفه، قال ابن حجر في (لسان الميزان: ٢٥٠ ـ ٢)، وهو في نفسه صدوق، مات في حدود الخمسمائة وكان متديناً كافاً عن السب) لقب بـ (المفيد الثاني) توفي في النجف سنة ٥١٥هـ تقريباً ودفن مع أبيه عند رجليه. قيل: إن كتاب (الأمالي) المنسوب لأبيه المطبوع هو له.
(تلخيص الشافي ـ المقدمة: ٤٥).

ناريخياً أنه كان حياً في سنة ٥١٥هـ، أي أنه عاش بعد هجرة الشيخ قرابة سبعين عاماً، ويذكر عن تحصيله أنه كان شريكاً في الدرس عند أبيه مع الحسن بن الحسين القمي، الذي أرجح كونه من الطبقة المتأخرة، كما يقال عنه إن أباه أجازه سنة ٤٥٥هـ، أي قبل وفاته بخمسين سنة، وهو يتفق مع حداثة تحصيله.

فإذا عرفنا أنه خلف أباه في التدريس والزعامة العلمية للحوزة في النجف، بالرغم من كونه من تلامذته المتأخرين في أغلب الظن استطعنا أن نقدر المستوى العلمي العام لهذه الحوزة، ويتضاعف الاحتمال في كونها حديثة التكون.

والصورة التي تكتمل لدينا على هذا الأساس هي: أن الشيخ الطوسي بهجرته إلى النجف انفصل عن حوزته الأساسية في بغداد، وأنشأ حوزة جديدة حوله في النجف، وتفرغ في مهجره للبحث وتنمية العلم[1].

وإذا عدنا فألقينا نظرة على هذا النص الذي يذكره المؤرخون بأن تلامذة الشيخ من الشيعة بلغوا ثلاثمائة، ومن السنة ما لا يحصى كثرة، فمن المؤسف جداً أن هذا العدد الكبير من التلاميذ لم يصل لنا من أسمائهم إلا ما يربو على الثلاثين وأن الشيخ منتجب الدين بن بابويه القمي[2] والمتوفى بعد عصر الشيخ بقليل، لم يستطع الوقوف على أسمائهم، فلم يذكر منهم في كتابه الفهرست، المطبوع في آخر البحار إلا ستة وعشرين اسماً، وزاد عليهم العلامة السيد محمد مهدي بحر العلوم[3] في (الفوائد الرجالية) أربعة. فتمت عدتهم ٣٠، وهؤلاء معروفون ذكرتهم مقدمات كتب الشيخ المطبوعة.

---

(١) المعالم الجديدة: ٦٤ ـ ٦٥ بتلخيص.

(٢) علي ابن الشيخ أبي القاسم عبيد الله بن أبي محمد الحسن الملقب بحسكا الرازي المنتهي نسبه إلى ابن بابويه القمي. قال الحر العاملي: كان فاضلاً عالماً ثقة صدوقاً محدثاً حافظاً راوية علامة، ولد سنة ٥٠٤، وتوفي سنة ٥٨٥هـ.
(الكنى والألقاب: ١٨١ ـ ١٨٢ ـ ٣).

(٣) السيد محمد مهدي ابن السيد مرتضى ابن السيد عبدالكريم ابن السيد مراد، المنتهي نسبه إلى السيد إبراهيم الملقب بـ «طباطبا» الذي ينتهي إلى الحسن السبط عليه السلام، كان من الشخصيات العلمية المشهورة والمعروفة بالتقوى والعلم والزعامة. ولد بكربلاء سنة ١١١٥هـ، وتوفي ١٢١٢هـ ودفن في مقبرته الخاصة في مسجد الشيخ الطوسي بالنجف الأشرف.
(الكنى والألقاب: ٦٠ ـ ٦٤ ـ ١).

وأضاف شيخنا آغا بزرك الطهراني لهذا الثبت أسماء ستة، فأصبح العدد ستة وثلاثين، وقال بعد ذلك: «وهؤلاء ستة وثلاثون عالماً من تلاميذ الشيخ الطوسي المعروفين.».

وإن كنا لا نستطيع القطع بأن هذه المجموعة من التلاميذ تمثل بحق الحوزة النجفية أو البغدادية.

ولا شك أن الحوزة العلمية التي أسسها الشيخ الطوسي في النجف الأشرف كانت فتحاً كبيراً، وفي الوقت نفسه كانت نواة للجامعة العلمية التي عاشت الأجيال.

ولكنها في الوقت نفسه لم تتمكن أن ترقى إلى مستوى التفاعل المبدع مع التطور الذي أنجزه الشيخ الطوسي في الفكر العلمي، وذلك لحداثة هذه الحوزة. وإن كانت هذه الهجرة إلى النجف قد هيأت له الفرصة للقيام بدوره العلمي العظيم لما اتاحت له من تفرغ تام لهذه الناحية المهمة.

وكان لا بد لهذه الحوزة الفتية أن يمر عليها زمان حتى تصل إلى مستوى من التفاعل العلمي والنضج الفكري لقبول أفكار الشيخ وآرائه العلمية، وتواكب إبداعه بوعي وتفتح[1].

ومن هذا التاريخ تدخل النجف المرحلة العلمية المنتظمة، وتستمر بين شدة وضعف، فتقطع أشواطاً بعيدة في مسيرتها الجامعية، وهي تسجل لمؤسسها دور القيادة والزعامة بكل تقدير وإكبار[2].

* * *

بعد أن أوضحنا سبب هجرة الطوسي إلى النجف وما واكبها من نشاط علمي، يجدر بنا حينئذ أن نتحدث عن معالم الحوزة العلمية وهذا ما نتركه لمؤلف كتاب الحوزة العلمية.

---

(١) المعالم الجديدة: ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) نفس المرجع.

معالم الحوزة العلمية في النجف[1]
الحوزة العلميّة: مصطلحها.. نشوءها.. مكوناتها.. أهميتها

لا تكمن الصعوبة في الحديث عن (الحوزة العلمية) في أنها مصطلح لم نجد ـ بتركيبته التي أوردناها ـ أثراً له في المصادر العلمية فحسب، بل وفي ندرة، أو قل: انعدام المراجع الحديثة أيضاً. وإن وجدنا من تلك المراجع شيئاً يتناول الحوزة العلمية، فهو إنما يتناولها تناولاً عمودياً، يراد به تعزيز وجهة نظر معينة، دون إخضاع الحوزة العلمية لدراسة أفقية تأتي على معالمها بالبيان والتحليل، أو حتى النقد والتقويم.

من هنا تأتي صعوبة التصدي لبحث في هذا المجال، كون المعلومات المتعلقة به مبعثرة هنا وهناك، إنما قد ترد عرضاً في ترجمة شاعر، أو فقيه، أو سياسي، له رابطة ما من قريب أو من بعيد بالحوزة العلمية، أو قد تأتي في عرض ترجمة بلد ما لسبب أو لآخر. وحتى مثل تلك المعلومات، إنما ترد لا لبيان معالم الحوزة العلمية، أو دراسة بعض جوانبها بقدر ما يراد من ذلك إضفاء طابع علمي على هذه المدينة أو تلك. أو بيان دور ذلك السياسي، أو الفقيه، أو الشاعر، في حوزة معينة، وفي تاريخ معين. . .

بيد أن ذلك ـ وإن كان في مجمله يُشكِّل صعوبة معينة ـ ربَّما كان حافزاً، ودافعاً مغرياً لباحث يتلمَّس طريقه لطرق موضوع بكر. . . يجمع فيه ذلك الشتات من المعلومات المتناثرة عن الحوزة العلمية ليخرج منها بفكرة واضحة ومؤلف

(١) الحوزة العلمية في النجف للأستاذ علي البهادلي.

متواضع لا زال مكانه شاغراً في رفاف المكتبة الإسلامية والعربية وليعرِّف من خلال ذلك كله بالحوزة العلمية، إحدى قلاع الفكر لدى المسلمين. عبر حملات (التتريك)[١]، وموجات (الفرنجة)[٢] التي اجتاحت بلاد المسلمين وعقولهم في حقبة طويلة مُرَّة من التاريخ.

بعد هذا نتساءل ـ قبل أن ندخل في صميم البحث ـ عن المعنى الذي نريده حين نطلق لفظ (الحوزة) و(الحوزة العلمية). ونتساءل أيضاً عن مصدر هذا المصطلح وماذا يقصد به لغة، واصطلاحاً، وكذلك نحاول التثبُّت من وروده في القرآن الكريم ومن عدمه.

تعريف الحوزة

أ ـ الحوزة لغةً:

لكي نصل إلى تحديد واضح لما تعنيه (الحوزة) فلا بد من تحديد جذر الكلمة، والمادة الأصلية التي تدرج تحت عنوانها ـ عادةً ـ في كتب اللغويين.

إن جذر كلمة (حوزة) في اللغة هو الفعل (حاز: ح، ا، ز). وحازَ حَوْزاً وحِيازة واْحْتِيازاً: يراد به الشيء إذا ضَمَّه، وجَمَعَهُ، أو إذا حصل عليه. والحَوْز: الموضع إذا أُقيم حواليه سدّ أو حاجز. ومن هنا فإن حَوْز الدار: ما انضم إليها من المرافق والمنافع[٣].

فإذا ما أخذنا كل تلك المعاني بعين الاعتبار، فإن الحوزة تكون بالمعنى اللغوي العام هي: الناحية. ولذلك يقال إن حوزة المملكة، ما بين تخومها.

على أننا نسمع إطلاق كلمة الحَيْز، والحَيِّز، ويراد بهما المكان، فالمعنى هنا مأخوذ من الحَوْز «الجَمع». يقال هذا في حَيِّز التواتر، أي جهته ومكانه[٤].

وهكذا فالحوزة بمفهومها اللغوي العام هي: المكان المحدَّد بتحديد مّا.

---

(١) التتريك: كالتعريب، يطلق إذا ما أريد محاولة إضفاء الطابع التركي على الحياة أو على سلوك الإنسان.

(٢) الفرنجة: كناية عن التغرب نسبة إلى العالم الغربي.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة (حوز)، ٣٤٢/٥.

(٤) نفسه.

وتطلق (الحويزة) إذا ما أُريد تصغير الحوزة. على أن (الحويزة) حين تُطلق اليوم يتبادر الذهن إلى تلك المدينة الواقعة «في الحوز الأعظم شرق دجلة»[١] نُسِب تخطيطها إلى سابور ذي الأكتاف[٢]. ويقطن تلك المدينة غالبية من العرب. ومنطقة الحويزة هي اليوم ضمن أرض الجمهورية الإسلامية في إيران. وينطقها الإيرانيون (الهويزة) بإبدال الحاء هاءً. شأنهم في ذلك شأن كل غير الناطقين بالضاد.

ب ـ الحوزة في القرآن الكريم:

بمراجعة الآيات القرآنية الكريمة لم نعثر على مصطلح (الحوزة) جذراً، واشتقاقاً. باستثناء ما ورد ضمن قوله ـ تقدَّست أسماؤه ـ:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[٣].

فـ (متحيزاً) هنا جاءت بمعنى مُنْحازاً[٤]، وتحديداً تعني: منحازاً إلى جماعة من المسلمين يستعين بها[٥] وإذا ما انحاز الإنسان فإنه انضمَّ...

خلاصة ما تقدم من حديث عن معنى الحوزة، من خلال ما عرضناه من كتب اللغة والقرآن الكريم، يتضح: أن الحوزة بمعناها اللغوي العام هي المكان الذي ينضم الناس فيه إلىٰ بعضهم البعض.

جـ ـ الحوزة في الاصطلاح:

للحوزة في الاصطلاح عدة تعريفات، اختلفت فيها الألفاظ، وإن كانت تلتقي في مجملها لتقدم إطاراً عاماً لمفهوم الحوزة العلمية. نعرض إلى ما أمكننا الوقوف عليه من تعريفات، ومن ثم نحاول استخلاص تعريف من مجموع ما نقدمه

(١) خورشيد وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، ٨/١٥٣.
ياقوت: معجم البلدان، ٢/٣١٩.
(٢) ياقوت: معجم البلدان، ٢/٣١٩.
(٣) سورة الأنفال، الآية ١٥ ـ ١٦.
(٤) شبّر: تفسير القرآن الكريم، ١٩٢.
(٥) نفسه.

من تعريفات، ليعكس الصورة الأقرب والأوضح فيما نعنيه من مصطلح الحوزة. بعد أن نكون قد تناولنا التعريفات تلك بالنقد والدراسة والنظر. ولذا فستكون العناوين الجانبية التي تدخل تحت عنوان الحوزة في الاصطلاح هي:

١ ـ عرض التعاريف.
٢ ـ نقد التعاريف.
٣ ـ التعريف المختار.

نحاول هنا الوقوف عند كلّ عنوان من هذه العناوين: ـ

١ ـ عرض التعاريف:

أ ـ ورد في كتاب «لمحات عن خراسان» أن «الحوزة العلمية هي مصطلح يطلق على الدراسات الإسلامية لبحث وجهة نظر الإسلام في كافة مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية، والاجتماعية، والعبادية. وتشكل على مرّ الزمن فريق[1] من الباحثين والدارسين جل اهتمامهم هو البحث في مراكز علمية خاصة بهم. هذه المراكز العلمية التي تختص بالدراسات الإسلامية يُطلق عليها اصطلاح الحوزات العلمية الدينية»[2].

ب ـ تعريف الشيخ حسن طراد: إن «الحوزة اصطلاح حديث يراد به المؤسسة العلمية التي تقام لغاية الدراسات العلمية الشرعية، التي تمكّن الطالب من معرفة الأحكام الشرعية في مختلف مجالات حياته العلمية». ولا يبعد أن يكون المعنى مأخوذاً من المدلول اللغوي وهو (الحَوْز)، وكأنه مكان معنوي (يحوز) مجموعة من الطلاب»[3].

جـ ـ تعريف الشيخ محمد جعفر شمس الدين: الحوزة هي: «مجمع علمي يحوي عدداً من طلاب العلوم الدينية، مع ما يستلزمه هذا العدد من هيكلية تدريسية

---

(١) هكذا وردت في النص المقتبس مرفوعة، ويفترض أن تكون منصوبة لأنها مفعول به للفعل تشكل والفاعل هنا ضمير مستتر تقديره (هي) يعود على الحوزة.

(٢) خليل: الإمام محسن الطباطبائي الحكيم، ٥٤ (مخطوط) ـ (نقلاً عن) لمحات عن خراسان ص:٧، إصدار مركز إحياء التراث الإسلامي. إيران.

(٣) طراد: مقابلة شخصية في بيروت بتاريخ ١١٣ شعبان ١٤١١هـ/ ١٨ شباط ١٩٩١م.

من أساتذة متخصصين في المواد التي تدرس ضمن هذا المجمع التعليمي، وهيئة إشراف تضمن سير هذا المجمع من النواحي العلمية، والمسلكية، والتنظيمية»[١].

د ـ ما ورد من تعريف لأحد أبناء النجف في هامش ضمن بحث عن أحد علماء النجف من أن: «الحوزة العلمية تسمية عربية، فالحوزة لغةً هي المكان، أو الناحية التي إذا ما خُصِّصت للدرس والتحصيل جاز أن تُسمّى حوزة علمية. وتبعاً للأصل اللغوي فإن الحوزة يمكن أن تُخصَص لمختلف أوجه النشاط الإنساني، إلّا أنها ارتبطت بلغة علماء الدين بتلقّي العلم، حتى بات مفهوماً تلقائياً: أن الحوزة لا بدَّ أن تكون علمية»[٢].

هـ ـ «إن الحوزة هي بمثابة مجمع ثقافي دراسي، ضمن منطقة معينة تتّسع وتضيق حسب الظروف السياسية أو الاجتماعية المحلية المحيطة بها»[٣].

و ـ «الحوزة العلمية هي التعبير المتعارف بين الذين ينتسبون إلى المراكز الدينية الرئيسية كالنجف، وقم، والأزهر. التي صارت مشهورة تاريخياً على أنها المدارس الكبرى التي تضم الألوف من المدرِّسين والعلماء الذين يعتنون بالتدريس والتلقين والرعاية لطلاب العلوم الدينية الذين بعد دراستهم في تلك المراكز والحواضر الكبرى للعلم الديني يعودون إلى بلدانهم ليكونوا مبلغين ومبشرين بالإسلام.

فالحوزة العلمية بناء على هذا هي جامعة غير رسمية (بمعنى غير مرخَّص لها قانوناً)، حسب مفهوم الدولة في عصرنا. وإنما تحمل رخصتها من خلال كونها الوسيلة الأهم عبر التاريخ الإسلامي في حفظ الإسلام ضد كل حملات التشكيك والتوهين»[٤].

---

(١) زيتون: الحوزات العلمية في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت، ٣١.

(٢) البهادلي: الإمام المجاهد الشيخ محمد جواد الجزائري. مجلة الموسم (الهند) ع/٨، مج/٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٣) خشيش: الحوزات العلمية في جبل عامل (جزين، وجباع)، ١٠٣.

(٤) المقداد: جواب خطّي عن سؤال للمؤلّف، بتاريخ ١٥ شعبان ١٤١١هـ/ الأول من آذار ١٩٩١م.

ز ـ «الحوزة هي معهد في بلد أو قرية أو مدينة يسكنها جمهرة من أهل العلم والفضل، يديرون فيها حلقات التدريس المنعقدة من طلاب المعرفة المتعدِّدي المواطن عادة»[1].

٢ ـ نقد التعاريف:

إذا كان الغرض من التعريف ـ أي تعريف ـ تفهيم المُعَرَّف (بفتح الراء) وتمييزه عما عداه[2]، فإن من أحد الشروط الخمسة اللازمة في التعريف هي أن يكون المُعَرِّف (بكسر الراء) مانعاً جامعاً[3].

نقد التعريف (أ):

فالذي يلاحَظ على التعريف (أ) أنه عرَّف الحوزة بالدراسة. إذ قال: الحوزة مصطلح يُطلَق على الدراسات. . . إلخ، وهو تعريف بأحد لوازم الحوزة. إذ تشكِّل الدراسة أحد مصاديق الحوزة. أو قل: أحد أركانها. فلا يجوز ـ والحال هذه ـ أن نعرِّف الكل ببعض أجزائه. رغم أن صاحب هذا التعريف أردف ـ وكأنه يستدرك على نفسه ـ فقال: «وتُشكِّل على مرِّ الزمن فريقاً من الباحثين». ففي ضوء التعريف: ولكي يكون فريق من الباحثين لا بدَّ من وجود حوزة، وحتى يمكن إطلاق مصطلح الحوزة لا بدَّ من وجود فريق من الباحثين. وهو دور، لا يرتضيه في أي تعريف علماءُ المنطق.

وليس ذلك ما نلاحظه على التعريف (أ) فحسب بل إذا ما تذكرنا أن من

---

(١) عطوي: الحوزات العلمية في فكر الإمام الخميني، مجلة المنطلق (بيروت) ع/٥٧ محرّم ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

(٢) المظفر: المنطق، ١/٩٥.

(٣) أما بقية شروط التعريف، بالإضافة إلى كون المعرِّف مانعاً جامعاً، فهي:
١ ـ أن يكون المعرِّف أجلى وأعْرف عند المخاطب من المعرَّف.
٢ ـ أن يكون المعرِّف عين المعرَّف، كتعريف الحركة بالانتقال والإنسان بالبشر.
٣ ـ أن يكون خالياً من الدور كتعريف الشمس بأنه كوكب يطلع بالنهار، والنهار لا يُعرَف إلا بالشمس.
٤ ـ أن تكون الألفاظ المستعملة في التعريف ناصعة واضحة لا إبهام فيها.
انظر: المظفر: م. س، ١/٩٥ ـ ٩٨.

شروط التعريف أن يكون جامعاً مانعاً فإن التعريف المذكور، لا يمنع من دخول المؤسسات الجامعية المتخصصة بالدراسات الإسلامية، أو بما يصطلح عليه وفق العرف الجامعي الحديث «بكليات الشريعة» مع أننا ندرك بجلاء ووضوح: أن الحوزات غير كليات الشريعة، وإن شَكَّلَت المواد الدراسية في كليهما أحد أهم الجوامع المشتركة فيما بينهما.

نقد التعريف (ب):

مع أن هذا التعريف أصاب حين أعطى مصطلح الحوزة صفة الحداثة، إلا أنه صوَّر الحوزة العلمية بـ (المؤسسة العلمية) المتخصِّصة بدراسة العلوم الشرعية، فمع أنه يرد عليه ما أوردناه على التعريف الأول من إمكانية أن يشمل كليات الشريعة الإسلامية في الجامعات الحديثة اليوم، فإنه في الوقت نفسه يرد عليه قصر نشاط الحوزة وأهدافها في تمكين الطالب من معرفة الأحكام الشرعية، دون إعطاء الحوزة صفة لبعض ممارستها في ميادين الحياة العامة، إن في المجالات السياسية أو الفكرية، أو الاجتماعية، وبالتالي الأدوار القيادية للحوزة.

نقد التعريف (ج):

تظل ملاحظتنا في أن أغلب التعاريف التي أوردناها للحوزة، تصوِّر الحوزة وكأنّها (مؤسسة تعليمية). بحيث يتراءى لمن لا يعرف الحوزة عن كثب وكأنها مدرسة أو معهد أو كلية لدراسة علوم الشريعة بالمعنى المعروف لدى طلبة الجامعات الحديثة. والحال إن الحوزة غير هذا.

ثم إن هذا التعريف يفترض وجود «هيئة إشراف تضمن سير هذا المجمع من النواحي العلمية والمسلكية، والتنظيمية»، وإن كان ذلك ينطبق على الحوزات المنظّمة في لبنان ومصر، فإن الأمر لا ينطبق على حوزة علمية عريقة كحوزة النجف التي لم تقم على ذلك، وإنما ظلت أمورها تسير تلقائياً دون تنظيم أو هيئة إشراف أو ما شاكل، دون أن يعني ذلك إقرارنا لمثل تلك الفوضى في نظام الدراسة في الحوزة العلمية بالنجف.

وإذا ما أضفنا لهاتين النقطتين اللتين تردان على تعريف الشيخ شمس الدين،

نقطة ثالثة هي: أن الشمولية في تعريفه يمكن أن تشمل ما اصطلح عليه بكليات اللاهوت لدى النصارى إذ عبَّر التعريف بـ (العلوم الدينية) التي لا يمكن ـ في حدود التعريف ـ قصرها على العلوم الإسلامية. إذ هناك علوم دينية استوحاها أصحابها من التوراة والإنجيل المُحَرَّفين، والتي لا يمكن أن نعدَّها بحال من جملة ما يتعلَّمه طلاب الحوزات العلمية.

نقد التعريف (د):

هذا التعريف لم يصل إلى العمق بل تناول مصطلح الحوزة وأَلْبَسَه حُلَّته العربية لكأنه يرد على من يعتبر الحوزة مصطلحاً غير عربي، ومن ثُمَّ جعل المصطلح شاملاً لمختلف أوجه النشاط الإنساني بعد أن ربط بأصل المعنى اللغوي للحوزة وهو المكان. ورغم ذلك كله، فإن التعريف يكون أقرب إلى المفهوم اللغوي، وإلى أصل التسمية منه إلى التعبير عن واقع الحوزة وما تدل عليه حاضراً.

نقد التعريف (هـ):

لو استغنينا عن كلمة (الحوزة) التي جاءت في التعريف، وأبدلناها باسم أيَّة رابطة أدبية، أو منتدى ثقافي، بل أبدلناها باسم أية ثانوية من ثانويات العالم، لظل التعريف مترابطاً متماسكاً. مما يعني: أن التعريف حين يُعرِّف الحوزة بأنها مجمع ثقافي ضمن منطقة معينة... إلخ فإنما هو يعبِّر بهذا التعريف لا عن الحوزة وإنما عن كل مؤسَّسة تعليميَّة، دون أن يوحي لنا التعريف بأية خصوصيَّة للحوزة، ودون أن يعبِّر عن أي من معالمها وأركانها وركائزها، وطابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها من معاهد العلم، وأماكن الدراسة.

ويظل في إدراجنا له ضمن التعاريف الواردة عن الحوزة تجاوز عن كونه ورد في رسالة جامعية[1] عن حوزتين ساهمتا بأدوار فاعلة في المجالات الثقافية والأدبية والفكرية في جبل عامل.

---

(١) الرسالة من إعداد الطالبة انتصار خشيش بعنوان: الحوزات العلمية في جبل عامل.
نالت عليها درجة (الدبلوم) في الدراسات المعمَّقة في علم اجتماع التربية من معهد العلوم الاجتماعية (الفرع الأول) بالجامعة اللبنانية عام (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

نقد التعريف (و):

لعل أول ما يواجهنا في نقد هذا التعريف أنه طويل شيئاً ما، فكلما كان التعريف مختصراً اختصاراً غير مخل بشمولية المعنى كان أفضل. وإذا تتبعنا مفردات التعريف فسنتوقف حتماً ـ كما توقفنا عند غيره ـ عند تعبير (العلوم الدينية)، إذ قلنا إن هذا الاستعمال غير دقيق لإمكانية شمول المعاهد الدينية غير الإسلامية ككليات اللاهوت لدى النصارى، مع تسجيل أمر مهمّ هو عدم رضانا بهذا الفصل بين العلوم، لتُسمّىٰ بعضها علوم دينية وكأن هناك علوماً غير دينية . .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: فقد خلص صاحب هذا التعريف إلى أن الحوزة هي «جامعة غير رسمية» مع أننا ندرك أن الاعتراف الرسمي بالحوزة لا يُخرجها عن كونها (حوزة)، ولا يغيِّر من مفهوم الحوزة. نعم يمكن القول هنا: إن الاعتراف الرسمي يحد من فاعلية الحوزة نوعاً ما، دون أن يمسّ ذلك اصطلاحها وتسميتها.

نقد التعريف (ز):

هذا التعريف يُقصِر الحوزة فيما يرتبط بحلقات التدريس أولاً. ولا يُشَمّ منه اختصاص الحوزة بعلوم الشريعة كالفقه وأصول الفقه ثانياً. ودون أن يعطينا فكرة عن أهداف الحوزة والتي من أبرزها إعداد الطالب لمرحلة الاجتهاد، التي تكاد تكون الهم الأكبر لكافة الحوزويين طلاباً كانوا، أم أساتذة أم مراجع . . .

٣ ـ التعريف المختار:

مع ما أوردناه من ملاحظات على كل تعريف من التعاريف التي عرضناها سابقاً، فإن الشيء الأهم الذي نورده هنا هو إغفالها لمسألتين مهمتين من المسائل المرتبطة بالحوزة، هاتان المسألتان هما:

١ ـ خط الاجتهاد الذي تتبنّاه الحوزة العلمية، والذي يشكِّل الهدف الأبرز في أهداف الحوزة العلميَّة، إذ تتحد المناهج مع العناصر الحوزوية البشرية لصياغة الإنسان المجتهد في علوم الشريعة الإسلامية، حيث يواصل ـ بموجب بلوغه مرحلة الاجتهاد ـ مسألة تولّي استنباط الأحكام الشرعية،

وتبليغها لأفراد الأمة.

٢ ـ خط التبليغ، فمَن ليس له القدرة الكافية لبلوغ مرحلة الاجتهاد من طلاب الحوزة العلمية، فإن عليه مسؤولية لا تقل أهمية عن السعي لبلوغ مرحلة الاجتهاد، وهي مهمة التبليغ التي قد تكون بواسطة المحاضرات أو الندوات، أو تأليف الكتب ونشرها وقد تكون بواسطة ارتقاء المنبر الحسيني في أيام شهري رمضان ومحرّم. كل ذلك وغيره هو خط التبليغ الذي أخذت الحوزة على عاتقها القيام به، وقد قامت به عبر فترة طويلة من التاريخ خير قيام.

ولهذا فقد ابتكرت تعريفاً يجمع هاتين المسألتين، ويتجنّب كافة الملاحظات التي أوردناها على ما سبق من تعاريف. وهذا التعريف، هو:

«الحوزة العلمية: كيان علمي وبشريّ يؤهِّل للاجتهاد في علوم الشريعة الإسلامية، ويتحمَّل مسؤولية تبليغ الأمة، وقيادتها».

نشوء الحوزة العلمية(*)

الحوزة بمفهومها الدراسي التبليغي إنما نشأت مع إشعاعة فجر الإسلام، حين كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي دار الأرقم بالذات يجمع من حوله المصدِّقين برسالته ليزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة[1]، وإذ ضاق المسجد بالمتعلّمين، وتنزيهاً للمسجد من أن يكون محلاً لما شهدته حلقات الدرس، والتدريس - عصرئذ - من جدال، ومناظرات كلاميّة، عُمل على تخصيص مكان خاص بالدراسة، قد يكون بيت الأستاذ، وقد يكون ضمن دار للعلم مجاورة للمسجد، ومن ثم لتتطوّر تدريجياً فتأخذ لنفسها كياناً مميَّزاً له خصائصه وسماته «لتخرج عن مجرد كونها حلقة درس حول شخص، لتصبح ظاهرة ثقافية وسياسية ذات أثر بالغ»[2]. إن في المجتمع، أو في أفراده وفي شؤونهم العامة.

قد اقترن ظهور الحوزات العلمية وازدهارها في العالم الإسلامي بمجاورة قبور المعصومين[3]، والأولياء. حيث تقام الحوزة بجوار تلك القبور على اختلاف في السبب الدافع لذلك. ولعلّ السبب الأبرز هو ما يصاحب وجود قبر معصوم أو ولي من زيارات الناس وتردّدهم عليه، وحبس الأوقاف على المرقد وعلى المحتاجين المجاورين له. ولمثل تلك الأمور مجتمعة أو متفرقة مردود إيجابي لا

(*) الحوزة العلمية في النجف.

(١) تناولنا هـذه النقطة بشيء من التفصيل في مدخل هذه الرسالة الذي عنوناه (ظهور المدارس الإسلامية في العالم الإسلامي).

(٢) عطوي: الحوزات العلمية في فكر الإمام الخميني. مجلة المنطلق (بيروت) ع/٥٧ محرم ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(٣) حين نُطلق المعصومين فإننا نعني بها وقف ما تدل عليه في الاعتقاد الإمامي من عصمة جميع الأنبياء بالإضافة إلى الأئمة الاثني عشر من آل بيت الرسول (عليهم السلام).

يُستهان به، لعلّه يتمثل فيما يتمثّل بسهولة الاتصال بزوّار تلك المراقد، ووعظهم وإرشادهم وبالتالي توجيههم، ومن ثمّ ليتمثّل في استفادة المراكز العلمية المجاورة للمرقد، وطلاّبها من أوقاف المرقد ممّا يعني وجود مورد مالي يدعم وجود واستمرارية هذه الحوزة أو تلك، وبالضرورة يؤمّن لطلابها وأساتذتها مورداً كافياً من العيش يساعدهم على التفرّغ لطلب العلم، والاستمرارية فيه والإخلاص له.

وإذا كنّا نأخذ الحوزات العلمية الشيعية مثالاً على مجاورتها لقبور المعصومين والأولياء، فالحوزة العلمية في النجف إنّما أقيمت بجوار مرقد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) والحوزة العلمية في كربلاء إنما قامت بجوار مرقد سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهكذا قل في الحوزة العلمية في سامراء[1] التي أقيمت قريباً من ضريحي الإمام علي الهادي والإمام الحسن العسكري (عليهما السلام) والأمر نفسه بشأن الحوزة العلمية في مدينة قُم[2] حيث أُقيمت في كنف السيدة فاطمة[3] أخت الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام).

ولئن تناولنا بالعرض تلك الحوزات مثالاً، فإن الأمر لا يختلف كثيراً عن الحوزات الإسلامية غير الشيعية، فقد كانت حلقات الدرس عامرة بالمدينة المنورة

---

(١) يقول ياقوت:
سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرق دجلة، وبها قبر الإمام علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر وابنه الحسن بن علي العسكريين، وبها غاب المنتظر في (زعم) الشيعة الإمامية، وبها قبور الخلفاء الواثق والمتوكل وابنه المنتصر وأخيه المعتز والمهتدي والمعتمد بن المتوكل. ياقوت: معجم البلدان، ٣/١٧٣ - ١٧٨.

(٢) قُم: هي إحدى مدن محافظة طهران، لم تُفصّل عنها إلاّ سنة «١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م». تقع على بُعد (١٤٧كلم). جنوب العاصمة طهران. فتح المدينة أبو موسىٰ الأشعري في خلافة عمر بن الخطّاب. أبرز معالم المدينة وجود ما يقارب الستة عشر مرقداً لأبناء أئمة آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. والمدينة اليوم تضم أكبر حوزة عامية، ومنها انطلقت الثورة الإسلامية في إيران سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٣) في سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م. قَدِمت فاطمة إلى قُم في الطريق إلى زيارة أخيها الإمام علي الرضا (عليه السلام) في خراسان، إلاّ أن مرضها الشديد منعها، فبقيت في قُم حتى توفيت في السنة ذاتها.

بجوار بركات القبر النبوي الشريف، وازدهرت الدراسة في الأزهر الشريف بمصر، بجوار مقام السيدة زينب (عليها السلام)[١]، وبجوار المكان الذي يقال: إن رأس الحسين بن علي (عليهما السلام) دُفِن فيه. كما شهدت مدينة طشقند[٢] حركة علمية زاهرة بجوار مقام الإمام البخاري[٣].

وإذا ما تجاوزنا مسألة مجاورة الحوزة العلمية لقبور المعصومين والأولياء، فإن من الضروري أن نشير إلى أن من أهم شروط بقاء الحوزة العلمية معطاءة مزدهرة هو وجود الشخصيات العلمية التي تثري الحركة الفكرية وحركة الدرس والتدريس داخل الحوزة. فلا نمو للحوزة إلا بنمو طلابها، وتقدّمهم، ولا يحصل مثل ذلك النمو والتقدّم إلا بوجود علماء أكفاء، أو عالم كبير على الأقل.

والحوزة العلمية في النجف ـ كمثال ـ إنما ازدهرت فيها حلقات الدرس والتدريس بفضل شخصية الشيخ الطوسي، وإنما بقيت على مستواها المتقدم عبر فترة طويلة من التاريخ فبسبب وجود النوابغ والشخصيات العلمية الذين حافظوا على القمّة الفكرية التي رفع الشيخ الطوسي الحوزة إليها. وسنرى في ما يأتي من حديث في الباب الرابع أن الحركة تتراوح بين مد وجزر بسبب هجرة العلماء من النجف، أو قدومهم إليها.

وإذا كان مقام المعصوم أو الولي أحد أسباب قيام حوزة علمية ما، أو قل أحد العوامل المساعدة في قيام حوزة ما، فإن لشخصية العالم الكبير الدور الأهم والأكبر، الذي لا يمكن تغافله وتجاهله ـ كما سبق ـ بل حتى مع عدم وجود المراقد

---

(١) هناك جدل تاريخي حول (زينب) صاحبة ذلك المقام. بين قائل إنها بنت الإمام علي (عليه السلام) وقائل إنها زينب ابنة الإمام الحسن (عليه السلام). للاستزادة والإلمام بتفاصيل هذا الموضوع انظر:
مجلة الموسم، ع/٤، مج/١، (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م) (عدد خاص بالسيدة زينب).

(٢) طشقند: مدينة إسلامية، حالياً هي عاصمة لجمهورية أوزبكستان السوفياتية.

(٣) البخاري: هو محمد بن إسماعيل الجعفي (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ/ ٨١٠ ـ ٨٧٠م) محدِّث، حافظ، فقيه، مؤرّخ، وُلِد في بُخارى وتوفي في سمرقند، من أشهر كتبه: الجامع الصحيح والجامع الكبير، والمُسند الكبير، والتاريخ في تراجم رجال الإسناد والحديث.

في بلد ما، فإن من الممكن أن يبرز هذا البلد، أو تلك القرية مقترناً بوجود حوزة علمية فيه كنتيجة لتوطّن أحد العلماء الكبار هناك.

ولعلنا نجد في قيام حوزتين كبيرتين في مدينتي جِزّين وجباع بجبل عامل حيث استوطن الأولى الشهيد الأول، وفي الثانية حيث استوطن الشهيد الثاني، خير ما يمكن أن يكون دليلاً[1].

ومع ما للشخصية العلمية الكبيرة من دور وخصوصية في ازدهار، أو قيام حوزة ما، فإن «خصوصية المكان تساهم مباشرة في الكثير من شؤون الحوزة العلمية والسياسية والتبليغية، كما تساهم مباشرة في تحديد مدى قدرة الحوزة على النمو والتطّور، وإذا أخذنا الوضع السياسي الصعب الذي عاشته المناطق الشيعية خلافاً لمناطق السنة، رأينا أن مواطن الحوزات وظرفها السياسي قد ساعد بعض الحوزات على النهوض بدور سياسي لا بأس به مقابل حوزات أخرى حافظت على دورها العلمي بشق الأنفس...»[2].

أما في ما يخص ظهور أول حوزة علمية، فمع أننا أرجعنا ذلك إلى عصر فجر الإسلام حيث كانت حلقات الدرس في المسجد وفي بيوت الصحابة، إلا أن هناك من يرى أن «أول حوزة علمية في تاريخ المسلمين هي حوزة الكوفة التي أنشأها الإمام الصادق (عليه السلام) والتي كانت تضم أربعة آلاف طالب»[3]، دون أن نقف على مصدر تاريخي في المصادر التي بين أيدينا يؤيد هذا الرأي... في ما يرتئيه من أولية حوزة الإمام الصادق (عليه السلام)..

---

(١) لمزيد من الاطلاع على ما يتعلق بحوزتي جزين وجباع، يراجع:
خشيش: الحوزات العلمية في جبل عامل.

(٢) عطوي: الحوزات العلميّة في فكر الإمام الخميني، مجلة المنطلق (بيروت)، ع/٥٧ محرم ١٤١٠هـ/آب ١٩٨٩م.

(٣) شمس الدين: دور الحوزات الدينية في عملية التغيير. ع/ مزدوج ٤٤ ـ ٤٥ ذي القعدة، ذي الحجة ١٤٠٨هـ/ تموز ـ آب ١٩٨٨م.

مكونات الحوزة العلمية(*)

وفق ما تقدم من تعريف للحوزة، ووفق ما عرضنا لفكرة نشوء نظام الحلقات في الدراسة يمكننا القول: إن مكوّنات الحوزة العلمية، وعناصرها الأساسية، يمكن أن نحدّدها في دعامتين أساسيتين:

الأولى: الدعامة البشرية، أو قل العنصر البشري، ويشمل:

أ - الفقيه المرجع المجتهد.

ب - الأساتذة العلماء.

جـ - الطلاب[1].

الثانية: وسائل الاتصال:

أ - المناهج الدراسية.

ب - المنبر الحسيني.

وللوقوف مليّاً عند هاتين الدعامتين، يجدر بنا تناول المفردات التي تدخل تحت العنوانين الكبيرين هنا، وفق ما انتهجناه من عرض وتبويب.

الدعامة الأولى:

وحديثنا فيها سيكون عن:

أ - الفقيه المرجع المجتهد.

ب - الأساتذة العلماء.

جـ - الطلاب.

(*) الحوزة العلمية في النجف.

(1) انظر المصدر السابق نفسه، إذ اعتبر أن مكونات الحوزة العلمية قائمة على العنصر البشري ليس إلّا.

أ ـ الفقيه المرجع المجتهد:

هناك اصطلاح تعرفه وتتداوله حلقات الدرس والتدريس في الحوزة العلمية، وهو اصطلاح (المرجعية) و(المرجع) والمرجع هو الذي يعود الناس إليه مأخوذ من المعنى اللغوي للمرجعية الذي يعني بمفهومه اللغوي العام محل الرجوع والعودة. إلا أنه في اصطلاح رجال الحوزة العلمية يعني ذلك «المركز القيادي الأعلى الذي يتولّى شؤون المسلمين في أمور الدنيا والدين ويسمّى ذلك المرجع إماماً، ومَرْجِعاً دينياً»[١].

إذن فالمرجع هو رأس الهرم في الكيان الحوزي، يؤول إليه المقلِّدون[٢] في أحكام دينهم ودنياهم، والمَرْجِع هذا هو الذي يتبوَّأ رأس المركز القيادي الديني بالفتيا والتدريس. تُسَلَّم إليه الحقوق الشرعية من أخماس وزكوات ممن تُستحق عليهم، ومن ثم ليقوم هو بتوزيعها على طلاب العلم، وعلى المحتاجين، وعلى المشاريع الخيرية، بالإضافة إلى قيامه بواجبه كقائد للأمة، يتّصل بالناس في كل بقاع العالم من خلال من يختارهم من الوكلاء والمبلغين الذين يرتبطون بالمرجعية بشكل أو بآخر.

ويقوم الفقيه المرجع المجتهد ـ بالإضافة إلى ما ذُكر ـ بالإشراف على سير الدراسة ضمن نطاق الحوزة العلمية. وهو الذي يتخرَّج على يديه ـ عادةً ـ الفقهاء المجتهدون، إذ إن من أبرز مهام الفقيه المرجع المجتهد هو: إلقاء المحاضرات في مادتي الفقه وأصول الفقه، وكذلك المحاضرات في مادة تفسير القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، لا من خلال كتاب معيَّن، وإنما يطرح ـ عادةً ـ مسألة معينة على طلابه، ثم يستعرض فيها آراء من سبقه أو عاصره من العلماء الذين تناولوا تلك المسألة، وبعد ذلك يعقّب على كل الآراء ليخلص إلى

---

(١) البهادلي: كيف وماذا يعني المرجع الأعلى لدى المسلمين الشيعة؟ جريدة السفير (بيروت) ع/٥٨٦٦، س/١٨، ٩ شوال ١٤١١هـ/ ٢٣ نيسان ١٩٩١م.

(٢) في اعتقاد الإمامية: أن كل من لم يبلغ رتبة الاجتهاد، يجب عليه تقليد أعلم وأفقه وأورع المجتهدين، هذا في فروع الدين، أمّا في أصول الدين وهي لدى الإمامية خمسة: التوحيد، النبوة، العدل، الإمامة، المعاد. فلا يجوز فيها التقليد، وإنما يجب الاعتقاد بها بالتأمل والتفكر.

وللتوسع يراجع الصدر: الفتاوىٰ الواضحة، ٨٨ ـ ٩٢. والمظفر: عقائد الإمامية، ٦٧.

الرأي الذي يتبنّاه هو ـ وفق ما أدّى إليه اجتهاده ـ مستنداً إلى دليل شرعي أو علمي واضح. وهذه الحلقات الدراسية التي يدرس فيها المرجع يُطلق عليها اسم «البحث الخارج»[١].

أما كيف يتم وصول شخص ما إلى مركز المرجعية، فذلك ما سوف نعرضه مفصلاً في الباب الثالث من هذه الدراسة[٢].

يبقى السؤال عن كيفية تبليغ المرجع ومقلّديه ما يصدره من فتاوى، أو كيفية وصول المقلِّد إلى مرجعه مع ما نعرف أن بين المرجع والمقلِّد مسافة كبيرة هي المسافة بين النجف والهند، أو بين النجف وبلاد التبت في الصين؟.

وتتضح الصورة حين نعرف أن كل مجتهد يُصدِر مجموعة آرائه واجتهاداته وفتاواه بين دفتي كتاب يُطلَق عليه في الاصطلاح الحوزوي (الرسالة العلمية)، هذه الرسالة تحتوي عادة على المسائل التي يبتلي فيها المقلِّدون في حياتهم (العملية).

والرسائل العملية عنصر جامد بحاجة إلى عنصر متحرك، ينقلها... يشرحها يربط المقلِّدين بها. ذلك هو الطالب والأستاذ الحوزوي، فأولئك هم أجنحة المرجع وأياديه العاملة، ولسانه الناطق، والذين قد يصبح بعضهم فيما بعد مرجعاً.

ب ـ الأساتذة العلماء:

ليس من شهادة معينة تُشترَط في من يتصدى لمهمة التدريس ضمن نطاق الحوزة العلمية، وليس من عمر معيَّن، أو أية شروط أخرى كل ما في الأمر، أن تتوافر في المتصدّي للتدريس القابلية العلمية، والقدرة البيانية، اللتان تخوّلانه القيام بتلك المهمة المباركة، والطريقة المتبَّعة في أغلب الحوزات العلمية، ومنها

---

(١) إنما أطلق على بحث المرجع الأعلى (البحث الخارج) لأن الدراسة فيه تتم خارج نطاق الكتب التي يعتمدها الأستاذ في تحضير مادته.

(٢) انظر الدراسة المختصرة عن كيفية انتخاب المرجع الأعلى لدى الإمامية لـ: علي البهادلي في جريدة السفير، م.س.

الحوزة العلمية في النجف ـ موضوع دراستنا هذه ـ، هي نبوغ الطالب في أثناء درس أستاذه، ومثابرته على الدرس والتحصيل حضوراً، وتفهُّماً، ومذاكرةً، ونقداً. وإذ يبرز مثل ذلك الطالب، تجد أن هناك من يتوجَّه إليه ممّن هم أدنىٰ منه علماً، لتلقّي دروسهم عليه، دون أن يحكم المسألة قرار من جهة رسمية، ودون أن يحكمها مثل ذلك القرار حتى من هذه الجهة أو تلك في الحوزة العلمية، فالعلم، والقدرة العلمية، لا تُدرك بقرار. . . ولا تُفرض بسلطان. . . اللهم إلا سلطان العلم نفسه، وإلا سلطان البيان السليم، والقدرة العلمية نفسيهما.

وإذا نبغ هذا أو ذاك كأستاذ متمكِّن من المادة التي تصدّى لتدريسها فإن متلقّي الدرس لديه «قد يكون واحداً، وقد يكون أكثر، وذلك لأن الدراسة في الحوزة العلمية انفرادية»[١].

وكثيراً ما نجد الطالب أستاذاً في الحوزة العلمية بالنجف في الوقت ذاته الذي يتلقى فيه العلم، إذ يتصدى لتدريس الكتب التي انتهى من دراستها فأتقنها، بينما يظل مواصلاً دراسته. حيث يشكّل بلوغ مرحلة (البحث الخارج). أهم أهداف العمليّة التربويّة العلميَّة للحوزة إذ يرعى المجتهد الأعلى حلقات (البحث الخارج)، وفي مثل تلك الحلقات يتم إعداد الحضور ـ الطلّاب ـ فيه لمرحلة الاجتهاد، فطبيعة ذلك الدرس (البحث) تنشِّط الفكر، وتهيِّىء الطالب وتدرّبه على إبداء وجهة نظره في المسائل العديدة التي تطرح في البحث. إن في مجال الدراسة الفقهية، أو الأصولية، أو الدراسات القرآنية.

. . . وتظل مسألة إعداد الطالب لمرحلة الاجتهاد من أبرز المهام التي تضطلع بها الحوزة العلمية، إن في النجف، أو غيرها من المدن، نظراً إلى عدم ركود حركة الاجتهاد لدى علماء الإمامية، ونظراً إلى الاعتقاد الإمامي بعدم جواز الرجوع في التقليد إلى الأموات[٢]، بخلاف بقية المذاهب الإسلامية ـ وخاصة

---

(١) العاملي: جامعة النجف في عصرها الحاضر، ١٠٥.

(٢) يكاد يجمع علماء الإمامية على عدم جواز الابتداء بتقليد الميت، نعم يجوز البقاء على تقليد الميت إذا كان الميت أعلم من كل المجتهدين الأحياء الموجودين بالفعل، وحتى في مثل هذه الحالة لا يحق للمكلف أن يستمر هكذا في تقليده للميت بصورة اعتباطية، وإنما يسوغ له =

الأربعة المشهورة منها ـ حيث ألزمت أتباعها بالرجوع إلى فتاوى أحد أئمة تلك المذاهب، إذ نقل عن الشيخ تقي الدين بن الصلاح قوله: «إن التقليد يتعيَّن للأئمة الأربعة، دون غيرهم»[1] ولمثل تلك الدعوى للوقوف عند تقليد الأئمة الأربعة دوافع ومسوِّغات ستكون موضوع حديثنا في الفصل الثالث من هذا الباب حين نتناول موضوع (الاجتهاد ودوره في ازدهار الحركة الفكرية في الحوزة العلمية).

وما دمنا بصدد الحديث عن الأساتذة العلماء، فمن المهم أن نشير إلى أن ما جرت العادة عليه في الحوزات العلمية الكبرى، ومنها حوزة النجف هي: أن من يُطلب إليه تدريس هذه المادة أو تلك فإنه إن كانت لديه فرصة من الوقت لم يسعه التخلّف بوجه. لا لأن هناك سلطة زمنية تضغط عليه، بل لأن طبيعة النجف مبنية على هذا النهج، فهو باستجابته يلبّي دعوة الواجب الديني فقط، ويشعر بالغبطة والسرور، دون أن يتقاضى أي أجر على التدريس، ولهذا الامتناع عن أخذ الراتب على التدريس عمقاً، وبعداً اعتقادياً في ذهنية الأستاذ الحوزوي فطلب العلم واجب شرعي كفائي، ونشر العلم واجب شرعي كفائي[2] أيضاً، استفاده الفقهاء والمفسرون من قوله تعالىٰ: **﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون﴾**[3].

= الاستمرار بعد أن يتعرف على الأعلم من المجتهدين الأحياء، ويرجع إليه في التقليد في مسألة البقاء على تقليد الميت من عدمه، فيسمح له بالاستمرار على العمل بفتاوى المرجع الميت وإذا لم يصنع ذلك، واستمر على تقليد الميت بصورة اعتباطية كان كمن يعمل بدون تقليد. للتوسع انظر: الصدر: الفتاوى الواضحة، ١١٠،
والخوئي: منهاج الصالحين، ١/٩.
واليزدي: العروة الوثقى ١/١٠.
(والنص للسيد الصدر بتصرف محدود).

(١) موسى: أحكام العبادات، ١٥.

(٢) معنى (كفائي) هنا أن مثل هذا الواجب إذا قام به من به الكفاية سقط عن الآخرين، ويقابله مصطلح الواجب العيني الذي يتعلق بالمكلّفين كلهم: كما إذا أفتى المرجع المجتهد بالنفير العام للجهاد، فإن الواجب يتعلق بجميع المكلّفين.

(٣) التوبة/١٢٢.

ولكن كيف يؤمّن الأستاذ الحوزوي معيشته، ما دام لا يتسلّم الأجر على التعليم؟. إن مثل ذلك السؤال مشروع وملح. وفي مورد الإجابة عن تساؤل كهذا نقول: إن مراجع التقليد في الحوزة العلمية. يضمنون للأستاذ ما يكفي متطلباته الحياتية الضرورية، لا بعنوان الأجر على التدريس، وإنما باعتباره مستحقاً فيتكفّله بيت مال المسلمين، وهكذا شأن الطالب، بل شأن أي محتاج من المسلمين.

ولعلّ من عاش قريباً من جوّ الحوزة العلمية يدرك أن العديد من طلبة الحوزة العلمية وأساتذتها، وحوزة النجف بشكل أخص، كانوا ولا يزالون مثالاً للزهد والقناعة والمنعة بصورة من الصعب بمكان أن تجد لها مثيلاً في كافة بلاد المسلمين[١] حتى أن الكثير من المقرَّبين لهؤلاء ـ سواء كانوا من ذويهم أو ممن يشاركهم الدرس والتدريس ـ لا يعرفون شيئاً عن فقرهم وحاجتهم، لَكَأنَّهم هم المعنيون بقوله تعالىٰ:

﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف**﴾[٢].

جـ ـ الطلاب:

.. والطلاب في الحوزة العلمية هم العنصر البشري الذي يشكل الرقم الأكبر، والقاعدة الأوسع، والحوزة العلمية في هذا شأنها شأن كل المؤسسات التعليمية الحديثة والقديمة على السواء، حيث تتمثل في الطلاب القاعدة العريضة في الغالب.

وهنا يبرز سؤال لا بدَّ من الإجابة عنه، وهو: ما هي شروط الانتساب للحوزات العلمية، ولحوزة النجف بالذات؟ وبتعبير آخر: ماذا يُطلَب من المتقدِّم للحوزة ليكون أحد طلابها؟.

وفي معرض الإجابة عن تساؤل كهذا نقرر: «أن الانتساب [للحوزة العلمية في النجف] ليس له قيد، ولا شرط، ومثله الخروج منها»[٣].

---

(١) سنعرض لبعض من صور الزهد لدى الطالب والأستاذ والمرجع في الحوزة العلمية في النجف، بعد الانتهاء من الحديث عن الطالب.

(٢) البقرة/٢٧٣.

(٣) العاملي: جامعة النجف في عصرها الحاضر، ١٤١.

وإذا كان ذلك ميزة يفتخر بها البعض لما تمثّله من حرية، فإن وجهها السلبي لهو أسوأ بكثير مما وجده البعض فيها من إيجابيات، إذ قد يكون القادم للحوزة «ممن أغلقت أبواب الحياة بوجههم فوجد أوسعها باب العلم فقصده»[١]. وبذلك فإن أمثال هؤلاء الطلّاب يشكّلون بكل تأكيد عبئاً ثقيلاً على الحوزة، أو قد يكون ـ وقد فقدت الضوابط والقيود في قبول الطلاب ـ ممن ترسلهم هذه الجهة، أو تلك، وفق مآرب معينة، وبالتالي ليكون مثل هذا النموذج من الطلاب وبالاً على المجتمع، قبل أن يكون عبئاً ثقيلاً على الحوزة.

وإذ أشرنا من قبل إلى قضية المورد المالي للأستاذ في الحوزة، فإن المرجع الأعلى يخصّص عادة الرواتب الشهرية لطلبة العلم، بالإضافة إلى توفير السكن المجاني للعزّاب منهم في المدارس الكثيرة التي تنتشر في النجف[٢]، بما يشبه نظام الرعاية السكنية في الأقسام الداخلية التي تتبنّاه بعض جامعات العالم اليوم.

ماذا عن جنسية الطالب الحوزوي في النجف يا ترى؟

أجل: ليس هناك من قيد أو شرط يرتبط بموضوع الجنسية، وفي النجف نماذج عديدة من جنسيات متآلفة متجانسة، وليس غريباً مثل ذلك التآلف ما دام طلب العلم هو الجامع المشترك. على أنه من المؤسف أن نسجّل هنا ندرة العنصر العربي، والعراقي بشكل أخص في الحوزة العلمية في النجف، لأسباب لا مجال لبسط الحديث فيها الآن.

وتظل أعداد المنضوين تحت لواء الحوزة العلمية في النجف أساتذةً وطلاباً خاضعة للظروف السياسية المحيطة بالبلد نفسه، وبطبيعة نظام الحكم، والسلطة السياسية في البلد. بين مدّ وجزر، وبين زيادة ونقصان.

فإذا ما تركت الحوزة العلمية وشأنها نجد أعداد القادمين إليها في ازدياد

(١) شمس الدين: دور الحوزات الدينية في عملية التغيير ع/مزدوج ٤٤ ـ ٤٥ ذي القعدة، ذي الحجة ١٤٠٨هـ/ تموز ـ آب ١٩٨٨م.

(٢) انظر أسماء وأعداد مدارس الحوزة العلمية في النجف في: محبوبة: ماضي النجف وحاضرها ١/٤٠.

كما حصل قبل الاحتلال البريطاني البغيض للعراق[1]، وكما حصل في عهد مرجعية السيد أبي الحسن الأصفهاني[2]، وفي ما بعد منتصف عهد مرجعية السيد محسن الحكيم[3].

أما حين يُضَيَّق على الحوزة وطلابها، ويُضيّق عليها في مواردها المالية، فإن ذلك ينعكس دون شك سلباً على حركة القادمين إليها لطلب العلم، ولنا في فترة الدراسة هذه ما يؤيّد ذلك كما في عهد حكومة السعدون[4]، حيث «قام عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م بنفي بعض علماء الحوزة» إلى خارج البلاد، وكما حصل في آخر سني مرجعية السيد محسن الحكيم حيث قامت السلطات بحملة تسفير وترحيل جُلّ طلّاب الحوزة العلمية في النجف من غير العرب أما العرب فقد شملتهم حملات التضييق وملاحقة أجهزة المخابرات، شأنهم في ذلك شأن العراقيين الذين لوحقوا بالإضافة إلى ذلك بمسألة إلغاء قرار العفو عن التجنيد الإجباري الذي كان من قبل يستثني طلبة العلوم الدينية في النجف كما في غيرها من الحوزات العلمية في العراق.

ومسألة الترحيل خارج العراق بالنسبة لغير العرب، ومسألة إخضاع الطالب الحوزوي العراقي لقانون التجنيد الإجباري، بالإضافة إلى التضييق المخابراتي على من بقي بعيداً لا تطاله سلطة الترحيل والتجنيد. هذه المسائل الثلاث تعتبر من أكبر الضربات التي أثرت سلباً على طلاب الحوزة. بحيث عادت الحوزة

---

(١) عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، قدّره بعض الباحثين بأكثر من عشرة آلاف طالب.

(٢) ما بين الأعوام: (١٣٤٠هـ - ١٣٦٥هـ/١٩٢١م ؛ ١٩٤٥م)، حيث تمتد مرجعية السيد أبي الحسن.

(٣) تمتد مرجعية السيد محسن الحكيم من وفاة السيد أبي الحسن الأصفهاني عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م حتى وفاته عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، لذا فيمكن أن نعتبر الفترة من عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م حتى ١٣٩٩هـ/١٩٦٨م هي فترة ما بعد منتصف عهد مرجعيته.

(٤) عبد المحسن السعدون: وُلد في الناصرية جنوبي العراق، تعلم في مدرسة العشائر بالأستانة ثم في المدرسة الحربية إذ تخرج ضابطاً في الجيش العثماني، عاد للعراق خلال الحرب العالمية الأولى، وتقلد بعد الحرب وزارة الداخلية ثم كان رئيساً لمجلس الوزراء أربع مرات من (١٣٤١هـ - ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٢م - ١٩٢٩م) انتهت بانتحاره برصاصة أطلقها على نفسه. كانت ولادته سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م).

العلمية اليوم قائمة على عدد من الطلاب لا يتجاوز على أحسن التقادير (٥٠٠) خمسمائة عنصر، وفي اعتقادي أن وجود المرجع الديني الأعلى للمسلمين الإمامية في النجف سماحة السيد أبي القاسم الخوئي هو الذي حافظ على هذا العدد الضئيل، بعد أن كان عدد الطلاب لا يقل عن عشرة آلاف طالب. . . !

علماً بأن ازدياد عدد طلاب الحوزة العلمية في النجف كان مما يشغل بال السلطات في غير بلد، فجهاز المخابرات الإيرانية في زمن الشاه محمد رضا بهلوي ـ على سبيل المثال ـ اعتبر الزيادة التي حصلت في عهد مرجعية السيد الحكيم مصدر قلق له، واعتبر أن الزيادة في المخصّصات الشهرية للطلاب هي السبب المباشر في ذلك، ومما جاء في التقرير الذي خُصّص للحديث عن حوزة (قُم):

«بعد بدء شهرية آية الله الحكيم ازداد عدد الطلاب بنسبة ٢٥٪ عن السابق، حتى وصل الأمر إلى عدم وجود أي فراغ في المدارس الدينية في قم. وإن هذه الشهرية التي خصّصها الإمام الحكيم لطلاب الحوزة العلمية في قُم. تعتبر عاملاً مهمّاً لتقوية ودعم الحوزة وزيادة عدد الدارسين فيها».

وحين يتضاءل عدد طلاب الحوزة العلمية في النجف، بسبب تضييق السلطات السياسية الحاكمة، فإن كثيراً من الطلاب ينتقلون بطبيعة الحال إلى مراكز علمية حوزوية أخرى، وهنا نشير إلى ما سبق أن أشرنا إليه من ازدهار الحوزة العلمية في قُم بعد التضييق على النجف وحوزتها فيما بعد سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. وكذلك ظهور تجمّعات حوزوية ـ إذا جاز هذا التعبير ـ في لبنان انتهجت الخط الفكري للنجف، واعتمدت مناهج الحوزة العلمية في النجف نفسها، وإن كانت قد أدخلت شيئاً من (الحداثة) في بعض الجوانب الإدارية التي كانت وما تزال تفتقدها النجف. ولا غرابة في انتهاج خط الحوزة العلمية في النجف من قبل هذه الحوزات الفتية، كون القائمين عليها من إداريين وأساتذة في معظمهم من طلبة العلم في النجف، الذين هجروها بعد التضييق عليها.

صور مشرقة من زهد الحوزويين:

وإذ نكون قد أتينا على نهاية الحديث عن العنصر البشري الذي يضمّه الكيان الحوزوي، فلا ضير علينا أن نختم حديثنا ذلك بعرض الصور المشرقة من زهد المَرجِع، والأستاذ، والطالب في الحوزة العلمية في النجف.

ولعلّ القصة التي لا زالت عالقة في ذهني منذ ما يقارب العشرين سنة، والتي حفظتها عن بعض حلقات الدراسة في الحوزة العلمية في النجف، هي قصة ذلك الشيخ المُسنّ الذي كان يتّخذ غرفة من غرف إحدى المدارس سكناً له، في وقت يشتد الطلب، ويتزاحم الطلاب للحصول على الرعاية السكنية التي تمنحها الحوزة مجاناً.

يخرج الشيخ من غرفته ليرى طالباً في باحة المدرسة يجلس القرفصاء من شدة البرد، سأله عن سبب جلوسه في ساحة المدرسة مع شدة برودة الجو، فأجابه: بأن ناظر المدرسة قد سمح له بالسكن في المدرسة، إذا ما كان هناك ثمّة غرفة خالية، أو طالباً من المقيمين بالمدرسة يوافق على إيوائه معه في غرفته. وهنا فكّر الشيخ بضمّه إليه في السكن، لكنه اشترط عليه شرطاً أساسياً وهو أن لا يُحدِّث بكل ما يراه في الغرفة من أفعال الشيخ. . . !

. . وتمضي الأيام والشيخ يغادر غرفته فجراً ليعود بُعيد صلاة الظهر، فيفك صُرّة تحتوي الخبز اليابس، وينقعها بالماء، ويتقاسمها وضيفه.

وذات نهار، بينما كان الشيخ كعادته في طلب العلم، جلس الطالب (الضيف) قريباً من حوض الماء الذي يتوسّط المدرسة، فجاء أحد أثرياء البلد، ودخل المدرسة ليتوضأ من ماء ذلك الحوض، فرقّ قلبه لمنظر ذلك الطالب، فعاد لبيته ليُحْضِر له طبقاً من الأرز والدجاج وشيئاً من المقبّلات.

وإذ تسلّمها ذلك الطالب، فكّر في انتظار الشيخ ليردّ له بعض معروفه بدعوته للمشاركة في تلك الوجبة الشهية من الطعام. ولكن ماذا حصل بالضبط بعد ذلك؟

طلب الشيخ من الطالب مغادرة الغرفة فوراً، لأنه لم يف بتعهده. فنفى أن

يكون قد أباح أيّ سر من أسرار الشيخ. . لكن الشيخ ردّ عليه بما مضمونه: بأن مجرد جلوسك في باحة المدرسة شاحب اللون، هو إعلام بما أنا عليه من الجوع والفاقة. . فقد مضت ـ والكلام للشيخ المُسِن ـ عليّ سنون طويلة وأنا على هذه الحالة دون أن يدري أحد!!!.

وقصة أخرى عن الشيخ راضي نصّار العبسي[1]، الذي دخل عليه أحد مراجع النجف عصرئذ، وكانت له صحبة وروابط أكيدة معه، إذ دخل ذلك المرجع على الشيخ في داره في شهر رمضان وقت الإفطار على حين غفلة، فوجده يفطر على خبز و(كرّاث)[2]، فخرج منه ذلك المرجع مسرعاً، وجمع له من جماعة من أهل الثروة من زوّار بلادهم مقداراً من المال، وجاء به إليه، فتأذّى الشيخ من ذلك وقال له: إني لم آكل ذلك من حاجة ثم قلب (بادية)[3] بقربة فأراه ما تحتها من المال الكثير، وقال: إنّما فعلت ذلك زهداً ولكي أرغم نفسي عن شهواتها[4].

وماذا عن الشيخ الأنصاري[5] ما دمنا نتحدث عن الصور المشرقة؟

والشيخ الأنصاري هو الذي «انتهت إليه رئاسة الإمامية على الإطلاق سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م وأطبقت الشيعة الإمامية على تقليده في شرق الأرض وغربها إلا نادراً»[6]، ورغم هذه المكانة، ورغم ما يجبى له من أموال الخمس والزكاة

---

(١) هو أحد علماء النجف، توفي في النجف ودُفِن فيها سنة (١٢٣٠هـ/١٨١٤م) ترجم له الشيخ حرز الدين فقال: عالم تقي زاهد عابد من شيوخ النجف وأدبائها، وكان زهده وورعه أشهر من علمه، له مصنف بعنوان (شهداء الطف) انظر: حرز الدين: معارف الرجال، ٣١٤/١ ـ ٣١٥.

(٢) الكرّاث: نبات يكثر في أسواق العراق، وبسبب كثرته فإن ثمنه زهيد جداً. له فوائد صحية جَمّة.

(٣) البادية يقصد بها الكاتب هنا: الإناء من نحاس توضع فيه وجبة الطعام من الطبيخ عادة.

(٤) حرز الدين: م. س، ٣١٥/١.

(٥) الشيخ الأنصاري: هو مرتضى ابن الشيخ محمد أمين التستري الأنصاري النجفي، وُلِد في دزفول سنة (١٢١٤هـ/١٧٩٩م)، وهاجر للنجف لطلب العلم، كان فقيهاً أصولياً متبحّراً في الأصول، من أهم كتبه: المكاسب في الفقه، والرسائل في الأصول. وقد أصبحت كتبه ومصنفاته مدار حركة التدريس في المراحل العليا من الدراسة الحوزوية منذ حياته حتى اليوم. توفي في النجف ودُفن فيها سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م.
انظر: حرز الدين: معارف الرجال، ٣٩٩/٢ ـ ٤٠٤.

(٦) حرز الدين. م. س، ٤٠٢/٢.

فقد «كان يعيش عيشة الفقراء، ويبسط البذل على الفقراء والمحتاجين سرّاً، وقال لـه بعض أصحابـه: إنك مُبـالِغ في إيصـال الحقوق إلى أهلهـا فأجـابه: ليس لي فخر، ولا كرامة، إذ من شأن كل عامي وسوقة أن يؤدّي الأمانات إلى أهلهـا وهذه حقوق الفقراء أمانة عندي»[1].

وللشيخ الأنصاري أكثر من ذلك إذ «حَدّث بعض تلاميذه أنه كـان يأنف من التناول من حقوق الفقراء في شيء مع كونه مصداقاً، وكان أقل ما يُجلَب إليه من الحقوق في كل سنة عشرون ألف توماناً[2] ـ في زمان قلّة النقـد ـ ومع هـذا توفي فقيراً، وقام بنفقـة عيالـه ومصرف فـاتحته ستـة أيام رجـل نجفيّ من أهل المجـد والشرف والدين»[3].

وفي بعض تعـداد تركتـه في وصيته قـال الشيخ الأنصـاري: «القِـدْر وقف، والرقعة لنا»[4].

ولا نريد الاسترسال في سرد القصص عن زهد وورع علمـاء وطلبة الحـوزة العلميـة في النجف. فهذا السيـد هاشم الحَـطّاب[5]، وحكايتـه المعبّرة مـع نادر شاه[6]، فحين «قدم نادر شاه زائراً مرقد الإمام علي أميـر المؤمنين (عليه السـلام) في النجف، وزار العلمـاء في بيوتهم جـاء إلى دار السيد الحَـطّاب، وكان السيـد جالساً على حصيرة في ذلك الوقت زهداً منه وتواضعاً. فقال له السلطان: أنا نادر شـاه ألا أمر تـأمرني بـه فأنجـزه وأنا بـذلك فخـور فـأجـابـه: نعم.. احبس عني البعوض، فإنه لا يذرني أنام في الليل، فقال له المـلك: سلني مـالاً ينفعك فإني

---

(١) نفسه.
(٢) التومان: عملة إيرانية.
(٣) حرز الدين: م. س، ٤٠٢/٢.
(٤) نفسه، ٤٠٣/٢.
(٥) هو هاشم ابن السيد محمد ابن السيد عوّاد الكبير، وُلِد ونشأ وتوفي في النجف، كان عالماً فاضلاً تقياً زاهداً ورعاً متعظاً، توفي سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م، ودُفِن في داره بمنطقة الحويش بالنجف. انظر ترجمته في: حرز الدين: معارف الرجال، ٢٤٩/٣ ـ ٢٥٦.
(٦) نادر شاه: وُلِد في مشهد بإيران سنة (١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م)، وتوفي في فتح آباد سنـة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م أحد ملوك إيران الصفويين، فتح آسيا الوسطى، وقسماً من هندستان حتى دهلي، تـوفي حين قتله أحد قوّاده.

أقدر على ذلك، فأجابه السيد إني أسأله ممّن يقدر على كل شيء، ثم قام السلطان، ولم يسأله شيئاً»[١].

وفي قصة أخرى للسيد هاشم الحطّاب مع نادر شاه مضمونها أن الأخير «دخل النجف بجيش يزيد على الألفي جندي، وجعلوا معسكرهم خارج سور البلد، وصارت الجنود تدخل البلد زمراً.. زمراً بكثرة فحصل الأذى منهم إلى بعض النجفيين بالتعدّي عليهم، وشكوا عند العالم المقدّس السيد الحطّاب، فقصد الشاه إلى مخيَّمه راكباً على حمار له، وأعلمه بذلك، فخرج الأمر: أن لا يؤذي العسكرُ العرب، وأكرم الشاهُ السيِّدَ، وأمر له بمال جزيل، فأخذ السيد يلكُزُه بعصاه، ويقول له: هذا المال لي أو لحماري؟ فإن كان لي فأنا غنيّ عنه، عندي قوت يومي. وإن كان لحماري فهو أغنى منّي لأنه مكفول المؤنة. خُذْه لا حاجة لي به، وقام»[٢].

يضيف صاحب الرواية فيقول: «فقال السلطان لأصحابه: ما أزهد هذا الرجل»[٣].

وإذ نسوق تلك القصص عن زهد الطالب والأستاذ والعالم في الحوزة العلمية في النجف فَلِأنّا نلاحظ هذه الأيام بعض المنتمين للحوزة والمتزيين بزيّها، تركوا مهمتهم الأساسية في طلب العلم، وتبليغ أحكام الله، وراحوا يركضون وراء المناصب والمنافع المادية والألقاب، وتهافتوا على حطام الدنيا. وهُم بذلك لا يخدعون إلاّ أنفسهم. والأولى بهم، إن لم يستطيعوا تقويم سلوكهم، ترك هذا السلك لأهله، والتفرُّغ بعد ذلك لطلب الدنيا واللهاث وراء حطامها...

أهمية الحوزة العلمية في الأمة:

تنبع أهمية وضرورة وجود الحوزة في جسم الأمة، في ذلك العمق التاريخي المقترن بمسيرة الحوزة العلمية منذ إشراقة فجر الرسالة الإسلامية حتى

---

(١) حرز الدين: معارف الرجال، ٣/٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٢) حرز الدين: م. س، ٢/٢٥١.
(٣) ن.

اليوم. هذا أولاً، وفي هذه المساحة الجغرافية العريضة التي تنتشر فوقها الحوزة العلمية، فتضيء جوانبها، وتبدّد ظلمات الجهل فيها، ثانياً، وما ذلك الأثر ليكون إلّا بفضل الطليعة المباركة التي تخرّجها الحوزة العلمية من آلاف العلماء، والفقهاء المجتهدين، وكذلك المبلغين، الذين ساهموا بشكل فاعل وعبر حقبات طويلة من التاريخ، وفي بقعة واسعة من أرض المسلمين في نشر معارف وعلوم الدين، مضحِّين بأوقاتهم، وأموالهم ومِدادهم، وفي أحوال كثيرة بدمائهم الزّكية، وبذل الأنفس.

وهنا يحضرني قول للسيد الخميني من كلمة طويلة وجّهها لطلبة الحوزة العلمية بمناسبة صدور كتاب «الآيات الشيطانية» للمرتد سلمان رشدي. يقول السيد الخميني: «لا شك في أن الحوزات العلمية، والعلماء الملتزمين، كانوا طيلة تاريخ الإسلام والتشيع أهم قواعد الإسلام الحصينة في مواجهة الحملات والانحرافات والأفهام الملتوية، لقد بذل علماء الإسلام الكبار جهدهم في كل مراحل عمرهم لنشر مسائل الحلال والحرام كما هي ودون أدنى تدخّل فيها أو تصرّف.

لو أن الفقهاء لم يكونوا... ما كنّا نعلم أي علوم كانت تُقَدَّم اليوم إلى الناس باسم علوم القرآن والإسلام وأهل البيت (عليهم السلام)»[1].

يضيف السيد الخميني موضّحاً دور العلماء الذين تُخَرِّجهم الحوزات العلمية في حفظ علوم القرآن وفي حفظ السنة النبوية، فيقول: «..لم يكن من السهل جَمْع علوم القرآن، وآثار النبي الأعظم وأحاديثه وسنّة المعصومين وسِيرهم (عليهم السلام)، وتبويب ذلك وتنقيحه في الظروف التي كانت الإمكانات فيها قليلة جداً.. وكان السلاطين والظلمة يبذلون كل ما في وسعهم لمحو آثار الرسالة»[2].

ولكن ألم تكن هناك وسيلة لحفظ علوم الشريعة الإسلامية غير هذه الطريقة

---

(١) الخميني: كلمة بمناسبة صدور كتاب (الآيات الشيطانية) بتاريخ ١٦ رجب ١٤٠٩هـ/٢٢ شباط ١٩٨٩م ص٥.

(٢) نفسه.

من التفقه؟ وبغير قيام الحوزات العلمية؟.. يجيب السيد الخميني عن ذلك فيقول:

«ولا أتصور طريقة أفضل من طريقة علماء السلف للتحقيق المعمَّق الشامل في العلوم الإسلامية. وتاريخ أكثر من ألف سنة من التحقيق لعلماء الإسلام، شاهد على دعوانا في مجال تعهّد غرسة الإسلام المقدَّسة بالرعاية»(١).

وإذا كنا نلاحظ التركيز من قبل السيد الخميني في حديثه على العلماء، فإنّما لأنّ الحوزة «إذا ازدهرت فبالعلماء الذين يسمون بها في مراتب الرفعة، وإذا تراجعت وانحطّت فبفعل الزمن وعادياته التي تأتي على هؤلاء العلماء موتاً أو تشريداً، فيأفل نجم حوزة في مكان، ليرتفع في مكان آخر، وربما بنحو أكثر سطوعاً. وهي سنّة الله في أرضه ولن تجد لسنة الله تبديلاً»(٢).

والحديث عن أهمية الحوزة العلمية في الأمة يقتضي بالضرورة الحديث عن مناهج الحوزة العلمية وتوضيح الصورة التي تعكسها عن أهميّة الكيان الحوزوي في جسم الأمة فالتركيز على اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، وتعريب المسلمين القادمين إلى تلك الحوزة من الصين، ومنغوليا، وأزبكستان، وأفغانستان، والهند وتركيا، وإيران. ومثل هؤلاء الطلّاب من غير العرب يعودون إلى بلادهم وهم علماء نحو وصرف، وبلاغة كما هم علماء دين. وغير خفي، ما لمثل ذلك من أهمية في نشر اللغة العربية، وعلوم القرآن. إذ بمجرد أن يعود أولئك الطلاب المغتربون إلى بلادهم فإنما يعودون وهم يشعرون بشيء غير قليل من الفخر والزهو لأنهم يعرفون العربية، ويقرؤون القرآن، ويفهمون كتب التاريخ الإسلامي والعربي، بلغتها العربية وقد ينقلون ذلك لأبنائهم في تلك البلدان الأجنبية، كما هي حالة المتعلِّمين العرب الآن في الجامعات الأوروبية.

وإذا ما علمنا أن اللغة العربية لم تلقَ من الإعراض والإهمال في تاريخها

---

(١) الخميني: كلمة بمناسبة صدور كتاب (الآيات الشيطانية).

(٢) عطوي: الحوزات العلمية في فكر الإمام الخميني ع/٥٧ محرّم ١٤١٠هـ/ آب ١٩٨٩م مجلة المنطلق (بيروت).

الطويل، ما لاقته من القرون المتأخِّرة قبل (ما أُطلِق عليه) عصر النهضة، عرفنا بعض ما أسدته الحوزة العلمية في النجف إلى لغة القرآن الكريم.

«ولَئِن ناضلت جامعة الأزهر القاهرية ضدّ العامية والإنكليزية، وحَمَت جامعة الزيتونة في المغرب اللغة العربية من هجمة البربرية، والفرنسية والإيطالية فجامعة النجف حرست العربية من غزو بضع عشرة لغة استطاعت أن تجتاح العاصمة بغداد ثم الموصل والبصرة»[1].

ولأن حديثنا هو عن الحوزة العلمية في النجف فإننا نحبّ إعطاء فكرة عن الحالة التعليمية السائدة قبيل الحرب العالمية الأولى في العراق. فـ«المدارس الرشيدية (التي تعادل الدراسة المتوسطة اليوم) لم تكن لتضم أكثر من (٣٦٠) ثلاثمائة وستين طالباً في جميع أنحاء العراق موزَّعين على عشر مدارس»[2]. في حين أن الحوزة العلمية في النجف وحدها في ذلك العصر كانت تضم ما يقارب من عشرة آلاف طالب[3]. والفرق بين العشرة آلاف وبين الـ(٣٦٠)، فرق كبير، ويستوقف الباحث حتماً.

إذا وضعنا كل تلك الحقائق نصب أعيننا: أدركنا ـ جليّاً ـ أهمية الحوزة العلمية في رفع المستوى الفكري والعلمي والحضاري للأُمَّة في عصور التجهيل، وأدركنا كم للحوزة من دور فاعل في الحفاظ على التراث العلمي للأمّة الإسلامية. مع أني أرجو أن لا يُفهَم بتخصيص النجف بالحديث هنا، تجاهل أو إغفال دور غيرها من المدارس، أبداً، لن يكون ذلك. وكيف يكون ذلك ونحن نعرف: «أن مساجد ومدارس فاس والقيروان والزيتونة والأزهر [كما النجف]، كانت في أوج عطائها التربوي والفكري والسياسي في عهد الاستعمار المباشر للأقطار القائمة فيها. وقادت فكرياً وعملياً المقاومات الشعبية للوجود الاستعماري، الذي عجز أن ينال منها أو من مكانتها عند الجماهير»[4].

(١) نصر الله: النجف الحضارية، مجلة الغدير (بيروت)، ع/٢، شعبان ١٤٠٢هـ/ ك٢ ١٩٨١م.
(٢) العلوي: الشيعة والدولة القومية في العراق، ٢٧٨.
(٣) المظفر: تاريخ الشيعة، ١٠٣.
(٤) المهاجر: إشكالية التربية والتعليم في دار الإسلام، مجلة المنطلق (بيروت) ع/٤٣، رمضان ١٤٠٨هـ/ أيار ١٩٨٨م.

استقلالية الحوزة العلمية في النجف(*)
عن السلطة السياسيّة

يعالج هذا الفصل عناوين جانبية عديدة هي:

١ ـ توضيح مفردات عنوان الفصل.
٢ ـ استقلالية المناهج الدراسية.
٣ ـ استقلالية الطالب الحوزوي.
٤ ـ استقلالية الأساتذة العلماء.
٥ ـ استقلالية المرجعية الدينية العليا.
٦ ـ الاستقلالية في جانبيها الفكري والمادي.

١ ـ توضيح مفردات العنوان:

يشتمل عنوان هذا الفصل بالإضافة إلى مصطلح (الحوزة العلمية) الذي أوضحناه مفصلاً في الفصل الأول من الباب الثاني، يشتمل هذا العنوان على مصطلحين لا مندوحة لنا عن تعريفها، وإيضاح المقصود عند استخدامها في صفحات هذا الكتاب.

هذان المصطلحان هما: أ ـ الاستقلالية. ب ـ السلطة السياسية.

ويبقى حرف الجر (عن) مستغنياً عن الشرح والتعريف، لمثل المهتمّين ببحث كهذا البحث. فماذا يعني هذان المصطلحان يا ترى؟

أ ـ مفهوم الاستقلالية: ـ لعل الاستقلالية مشتقّة من الفعل (اسْتَقَلَّ) الذي يأتي في أحد دلائله اللّغويّة بمعنى: التفرّد. والمصدر (الاستقلال)[1]، فاستقلت

(*) الحوزة العلمية في النجف.

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (قل).

البلاد، إذا ما انفردت بحكم نفسها. واسم الفاعل (المُستَقِلّ). يقال: هو مُسْتَقِلّ بنفسه، أي ضابط أمره، وبلاد مستَقِلَّة، أي تحكم نفسها بنفسها.

ب ـ **السلطة السياسية**: يمكن أن تُعرَّف السلطة السياسية بأنها: (هيئة منظمة تتولى حكم أفراد الأمة، والإشراف عليهم، ورعاية مصالحهم، وإدارة الإقليم وحمايته وتنظيم استغلال ثرواته»[1]

وفق ما قدمناه من تعريف وتوضيح لمصطلحَي الاستقلالية، والسلطة السياسية، يكون من اليسير علينا أن ندخل في صميم موضوع استقلالية الحوزة العلمية في النجف عن السلطة السياسيّة.

أجل: بقيت الحوزة العلمية لدى علماء الإمامية بجميع مكوّناتها من فقيه مرجع مجتهد، وأساتذة علماء، وطلاب، ومناهج دراسية، وأنظمة مالية، بقيت مستقلّة منذ نشأتها حتى اليوم عن السلطات السياسية المتعاقبة على الحكم، إن في العراق، أو في الدول المجاورة للعراق، وستبقى هكذا (إن شاء الله تعالىٰ)، بفعل الضوابط المتينة التي تؤطّر عمل وسير الحركة العلمية، وهذا ما يجعلها «حُرَّة في حركتها، متحرّرة من أيّة وصاية أو أيّ ارتباط مشبوه، قد يؤدّي إلى مسلكية معينة تحرف الحكم الشرعي عن طريقه وتحوّله إلىٰ سلك ليس فيه روح»[2].

٢ ـ استقلالية المناهج الدراسية:

إن المناهج الدراسية للحوزة العلمية في النجف ـ وحتى في غير النجف ـ يتم اختيارها من قبل أساتذة متخصصين، بل قد يتم اختيارها من قبل طلاب الحوزة أنفسهم، فليس في الحوزة العلمية إلزام لهذا الأستاذ بوجوب اعتماد الكتاب الفلاني في هذه المادة أو تلك للتدريس. كما ليس هناك إلزام للطالب بدراسة هذا الكتاب الفلاني أو ذاك، وعلى سبيل المثال: فلو أخذنا مادة (البلاغة) كمنهج دراسي حوزوي، فإن الطالب في النجف مُلزَم بتكوين ثقافة عن

---

(١) بسيوني: النظم السياسية، ٣٣ (بتصرف).
(٢) شمس الدين: دور الحوزات الدينية في عمليّة التغيير. مجلة المنطلق (بيروت) ع/٤٤ ـ ٤٥ ذي القعدة ـ ذي الحجة ـ ١٤٠٨هـ/ تموز ـ آب ١٩٨٨م.

هـذه المادة، تُعينه على فهم حلقات الدرس العالية في التفسير وفي الحديث والفقه وأصوله. وليس مُهمّاً بعد ذلك في أن يكون مصدر هذه المادة كتاب (المُطَوَّل) للتفتازاني، أو أن يكون كتاب (جواهر البلاغة) للهاشمي، أو يكون الجزء الثاني من (النحو الواضح) للجارم.

وقد يكون لا هذا... ولا ذاك، إذ قد يختار الطلبة فيما بينهم، أو بمشاركة من اختاروه لتدريس المادة، كتاباً آخر، أو تلفيق الموضوعات من هذا المصدر أو ذاك.

نعم: هناك كتب جرى العرف الحوزوي على تداولها كمواد دراسية أساسية في الحوزة العلمية، فيما تظل المادة العلمية الرصينة هي التي تفرض نفسها في وسط الحلقات الدراسية في نطاق الحوزة العلمية في النجف.

.. وفق الصورة التي قدمناها، فإن السلطة السياسية لا شأن لها أبداً في مثل تلك المناهج.

وإذا كانت السلطة تتدخَّل، أو تحاول التدخُّل في توجيه طالب ما، ليكون أحد طلاب الحوزة العلمية في النجف.

وإذا كانت السلطة قد حاولت غير مرة الولوج إلى الشأن المادي للحوزة؛ فإنّ المناهج ظَلَّت بعيدة عن كل محاولة تَدَخّل من تلك السلطات. ولعلّي أجد السبب الأهم في هذا المجال هو في محافظة الحوزة العلمية في النجف ـ خصوصاً ـ عبر تاريخها الطويل على عمقها الفكري، وخاصة في مَجالَي الفقه وأصوله، مع اعتماد مبدأ الاجتهاد كأحد أهداف الطالب الحوزوي، وبملاحظة هذا الأمر، نعرف وندرك بسهولة بأنه لا يتأتّى (لعالِم السلطة) مهما أُوتي من حظوة، ومهما بذلت وجهدت السلطة لتلميع صورته أن يرتقي إلى مستوى الكتب الحوزوية في عمق فكرتها، ودقّة مبانيها، وتفريع مسائلها، لتكون كتبه ـ إذا ما استطاع ـ بديلاً عن الكتب المألوفة.

والمدهش حقاً: أن تاريخ الحوزات العلمية لم يعرف تسلّلاً لكتاب أرادت السلطة السياسية إقراره منهجاً دراسياً، مع ما نعرفه من أن الكتاب الحوزوي، لا

يتم إقراره بموجب مرسوم، أو قرار حوزوي صادر من هذا المرجع أو ذاك. وليس في مثل هذه الأمور أية إجراءات إدارية أو تنظيميَّة معيَّنة. بل إن الأمر لا يعدو تعارفاً، واتفاقاً ضمنيّاً من مجموعة صغيرة من الطلاب وأستاذهم ـ كما أسلفنا ـ على الدراسة في كتاب ما ليكون ذلك الكتاب بمرور الأيام هو المتداول بين أعداد كبيرة قد تتجاوز الآلاف من طلاب الحوزة العلمية.

على أن ما نحب أن نكرّر الإشارة إليه لتأكيده في الأذهان: أن المادة العلمية التي تضمّها دفتا الكتاب، هي التي تفرض استمرار تداوله، كما قد تفرض الإعراض عنه إلى كتاب آخر.

. . . إن استقلالية المادة الدراسية الحوزوية عن وصاية السلطة السياسية، وتوجيهاتها لأمر يشكِّل دعامة أساسية من دعائم استقلالية الحوزة العلمية في النجف، بحيث يعمِّق وجودها ويركِّز دورها في قيادة الأمة، بالإضافة إلى ما يمكن أن يشكِّل وجهاً يعكس نزاهة الفكر الحوزوي، ويساهم بالتالي بشكل فاعل في إعداد شخصية قيادية، وفق مناهج إسلامية نقية من الشوائب، غير متأثرة بهذا التيار السياسي غير الإسلامي، أو بذاك، بل غير متأثرة بالمناهج الفكرية الاستعمارية التي تسللت إلى المناهج الدراسية في بلاد المسلمين كما تسلّلت إلى عقول المسلمين أنفسهم، إنْ قَبْلَ دخول جيوش المستعمِر بلادنا أو في أثناء الاحتلال، أو بعده وهو ما يتضح لنا شرُّه المستطير يوماً بعد آخر، بل وعدنا نتجرَّع غصصه دون أن نقوى على فعل شيء.

من هنا فإن نقاء المنهج الحوزوي، واستقلاليته، إنما يشكّل ضمانة ضرورية وأساسية، ومهمة جداً لاستمرار خط الدعوة إلى الله، مجردة عن أهواء السلطات السياسية المتعاقبة هنا وهناك، ومنَزَّهَة عن كل ما هو بعيد عن تشريعات الإسلام وتوجيهاته.

٣ ـ استقلالية الطالب الحوزوي:

الطالب في الحوزة العلميَّة في النجف ـ وفي غير النجف ـ هو العنصر البشري الذي يشكِّل الرقم الصعب ـ كما يقولون ـ، وهو العنصر الذي يشكّل

القاعدة الأساسية في الهرم البشري كما أوضحنا ذلك. فمن يتوجّه للحوزة العلمية في النجف بنيّة الانضواء تحت لوائها فليس لغير سلطة علماء الحوزة أيّ صلة في قبوله، أو رفضه، أو في أيّ شأن آخر من شؤونه، بل وحتى في ما سمّيناه بسلطة علماء الحوزة تجاوزاً. ليست هناك سلطة مباشرة. إنما يظل علماء الحوزة العلمية هم الذين يتولّون مسألة توجيهه، وهم الذين يلحِقونه في السكن الداخلي المجاني - إذا كان محتاجاً للرعاية السكنية - ورجال الحوزة هم الذين يدفعون له المرتب الشهري، وفق تقدير - من قبلهم أيضاً - لحاجته ولِما يكفيه لوازم حياته الضرورية. وبطبيعة الحال فإن هذه الأموال لم تكن لتؤخذ من السلطة السياسية، أو من ميزانية (الأوقاف الرسمية)، بل تُدْفَع ممّا تَجَمَّع لدى المرجع الأعلى من أموال الحقوق الشرعية، كالخمس والزكاة وغيرهما.

. . ونسير مع الطالب حتى يقارب مرحلة الاجتهاد، لنرصد من خلال ذلك استقلالية الطالب الحوزوي عن السلطة السياسية، فحين يصل الطالب في الحوزة العلمية لمرحلة الاجتهاد، فإن العرف الحوزوي يقتضي أن يُمنح ما يُعَبَّر عنه في الحوزة بـ (الإجازة) . والإجازة هذه هي كالشهادة في العرف الجامعي الحديث. ولا يَمْنَح (الإجازة) في الحوزة إلاّ المجتهدون الكبار من مراجع الحوزة العلمية، حيث تتم وفق تقاليد حوزوية عريقة، وبعد اقتناع تام من قبل مانِح الإجازة، وثقته بطالب الإجازة، أو المُسْتَجِيز.

ومن المفيد أن نشير إلى أن الإجازة - والتي قد تكون بنقل الفتوى أو تدريس كتاب أو تجاوز مرحلة علميّة وإجازات الاجتهاد كذلك - من غير الممكن أن تُمْنَح إلاّ لذوي القابلية العلمية والفكرية، وإلاّ لأصحاب الاستعداد الكامل على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأساسية وهي: الكتاب والسنة.

وإذا كان ذلك كلّه يتم باستقلالية تامة عن السلطة السياسية، فإن الإجازة التي تمنحها الحوزة العلمية لأي طالب فيه لا تُلْزِم الدولة بشيء، بمعنى: أن حامل الإجازة الحوزوية لا يتمتع بأية حقوق لدى السلطة السياسية نتيجة حمله إجازة الاجتهاد الحوزوية. حيث إن السلطة السياسية لم تكن لتعترف بخريجي الحوزة العلمية.

ومع تأكيدنا على استقلالية الحوزة العلمية في منح شهادات الاجتهاد لطلابها عن السلطة السياسية، نشير إلى خطر تولّي السلطة السياسية منح الشهادات، وفي العلوم الإسلامية بالذات، وما يرافق ذلك من محاولة كسب أنصاف المتعلّمين ليكونوا أبواقاً للسلطة، ووعّاظاً للسلاطين. مع ما نعرف من أن «منح الشهادة والإجازة لغير مستحقّيها يشكّل ظلماً من قبل المانح، وخيانة للدين والمسلمين، لأن الممنوح سوف يكون خطراً على الرسالة السماويّة، وضرراً. لأنّه بمظهره الديني وبشهادته التي يعرضها والتي تدفع الناس إلى الثقة به، وهذه الثقة قد يستخدمها ـ كما هو المعروف عند فقهاء السلاطين وعلماء القصور ـ لبلوغ أغراضه وغاياته الشخصية من جهة، ويجتهد من جهة أخرى بما ليس به علم.

وهكذا: فإن الطالب وهو يستشعر بالاستقلالية عن السلطة السياسية، ورجالها استقلاليةً في مورده المالي، وفي مناهجه التعليمية، وفي سكنه، وبالتالي في حصوله على الشهادة، لن يجد ضرورة، ولن يجد دافعاً أبداً نحو محاباة السلطة السياسية أو التأثّر ببعض توجيهاتها. نعم حيث يستشعر بانضوائه تحت لواء القيادة العالِمِيّة في الحوزة العلمية، سوف يجد نفسه مدفوعاً نحو تحقيق عناصر النجاح في طالب العلم الحوزوي من علم وورع، وتقوى. بما ينعكس إيجابياً ويقوّي أركان الحوزة العلمية. وبالذات رأس الهرم فيها أعني به: المرجعية الدينية فيها ولتتمثّل تلك القوّة في نفوذ دور المرجعية الدينية القيادي في الأمة.

٤ ـ استقلالية الأساتذة العلماء:

قبل كل شيء أخال أن لا أحد يختلف معي في أن الإنسان مجبول على حب وتقدير واحترام من يتكفّل له بمعيشته. ودون حديث عن استثناءات، فإن الصفة العامة هي أن المُستَخدَم للقيام بأية وظيفة إنما يراعي قدر جهده رضى وقبول الجهة التي استخدمته، بالدعاية لها، وتجميل صورتها حيناً، والحرص على رضاها وعدم فعل ما يغضبها حيناً آخر، على تفاوت في المسألة بين هذا وذاك في قوّة اندفاعه، أو حجم تخوّفه.

والأستاذ، أحد مصاديق المستخدمين. وخطورة دوره تكمن في أن مثل هذا

الأستاذ ـ دون قصر الحديث عن الأستاذ الحوزوي ـ في كل المراحل التعليمية يظلّ يمثِّل الموجّه الأهم والأخطر لعقول الناشئة، فهو الباني لمعارفها، وأفكارها. وتبعيّته لجهة ما، تعني بالضرورة جرّه لمجموعة كبيرة من الطلاّب نحو تلك الجهة، اللهم إلاّ أُولئك النابهين من الذين يستطيعون تمييز الحق من الباطل، ولا أخال أن عدد هؤلاء يتجاوز أصابع اليد من بين مجموعة عديدها الألف في غير زمان ومكان.

إن رفض الأستاذ في مدارس الدولة لأيّ توجيهات سياسية وحزبية للسلطة قد يكون سبباً من أسباب حرمانه من وظيفته، أو سبباً لقطع راتبه الذي قد يكون مورده الوحيد، وهي مشكلة تواجه أغلب مستخدمي السلطة.

أما الأستاذ في الحوزة العلمية، فلا يرتبط بأية جهة سياسياً، أو مالياً، حيث إن الأستاذ شأنه شأن الطالب يتسلّم الحقوق الشرعية من مركز المرجعية الدينية «لا بعنوان الأجر على التدريس، وإنّما باعتباره مُستَحِقّاً فيتكفّله بيت مال المسلمين»[1]. كما يتكفَّل غيره من المستحقّين.

إن هذه الاستقلالية للأستاذ في الحوزة العلمية تعطيه القوة الجُوّانية لقول الحق من جانب، والإخلاص للعلم وللشريعة ومبادئها من جانب آخر، وما يعكسه ذلك بالتالي من تأثير عميق في توجيه الطالب توجيهاً سليماً بعيداً عن توجّهات السلطة السياسية وبعيداً عن هيمنتها، أو تلويحها ببعض العقوبات الإدارية، أو بسياط الفصل من الوظيفة، أو قطع الراتب. وغير ذلك من الأساليب الضاغطة باتجاه استقطاب الفكر العام وتوجيهه نحو خدمة السلطة السياسية القائمة. بغض النظر عن مدى مواءمة هذا الفكر للمبادىء الإسلامية، أو مخالفته لها.

وحيث أشرنا إلى خطورة الارتباط الإداري والمالي لمستخدَم السلطة، فإنّ ما لا يجوز تغافله هو أهمية تكامل استقلالية الأستاذ والمنهج والطالب في الحوزة

(١) البهادلي: النجف جامعتها ودورها القيادي، ٤٦.

العلمية. ليشكّل هذا المجموع قوةً، ودوراً فاعلاً يمثّل الوجه الأنصع من معالم الحوزة العلمية ـ أيّ حوزة ـ، وحوزة النجف موضوع دراستنا هذه بالذات...

٥ ـ استقلالية المرجعية الدينية العليا[1]:

وسيأتي البحث عنها في محله.

---

(١) نحيل القارىء في الحديث عن المرجعية واستقلاليتها وسائر شؤونها إلى المجلد الخاص من هذه الموسوعة.

الفصل الثاني
أدوار جامعة النجف

في خلال هذه المسيرة الطويلة ـ والتي تكاد تدق أبواب الألف عام ـ تمر هذه الجامعة بأدوار يمكننا أن نحصرها بثلاثة أدوار مهمة نعرضها بإيجاز.



الدور الأول لجامعة النجف

ويبدأ هذا الـدور بانتقـال الشيخ الـطوسي ـ رحمه الله ـ إلى النجف، حيت وجد في هذه التـربة الـطيبة قـابلية تـامة للغـرس والاستثمار، فـأسس هيئة علميـة منظمة ذات حلقـات، ونظمـاً خاصـة من حيث التدريس، وقـد ظهر أثـر ذلك في كتابه المسمى (أمالي الشيخ الطوسي) الذي كان يمليه على تلامذته[1].

وكان من ألمع ما يذكر في هذا الصدد تنسيقه للدراسة العلمية في أقسـامها الثلاثة: الفقـه، والحديث، والأصـول. فقد وضـع في هذه العلوم مؤلفـات كانت موضع اهتمام الأعلام المبرزين من الفقهاء والأصوليين.

ففي نطاق الفقه كـان كتاب (المبسـوط)[2] يمثل مـدى «التطور العـظيم في البحث الفقهي على صعيـد التطبيق بـالشكل الـذي يوازي التـطور الأصولي على صعيد النظريات».

وكـانت «مساهمـة الشيخ في الأصـول ـ مثلاً ـ مجـرد استمـرار للخط وإنمـا كانت تعبر عن تطور جديد كجزء من تطور شامل في التفكير الفقهي العلمي لـه. أتيـح لهذا الفقيـه الرائـد أن يحققه. فكـان كتاب (العـدة)[3] تعبيـراً عن الجـانب الأصولي من التطور»[4].

---

(١) نقل شيخنا آغا بزرك في الذريعة: ٣٦٥ ـ ١: «إن للشيخ الطوسي كتـاباً اسمـه (اختبار الـرجال) أمـلاه الشيخ على تـلاميذه في المشهـد الغروي، وكـان بدء إمـلائه يـوم الثلاثـاء ٢٦ صفر سنة ٤٥٦هـ».

(٢) تم طبع هذا الكتاب في إيران ١٢٧١هـ.

(٣) طبع الكتاب في بمبى سنة ١٣١٢هـ ثم في إيران ١٣١٤.

(٤) المعالم الجديدة: ٥٦.

وإلى جانب هذين العملين، قام الشيخ الطوسي بعمل مهم وعلى مستوى واسع النطاق في جمع الأحاديث المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وذلك بـ «دمج المجاميع الصغيرة في موسوعات كبيرة، فما انتهى ذلك حتى حصل الفكر العلمي الإمامي على مصادر أربعة موسعة للحديث»[١]

وكان نصيب الشيخ الطوسي من هذه الأصول أصلين كبيرين هما: كتاب (التهذيب)، وكتاب (الاستبصار) في أربع مجلدات[٢].

ولم يكن هذا كل تراث الشيخ الطوسي - رحمه الله - فإلى جانب التراث الأصولي والفقهي الضخم خلف تراثاً رائعاً في التفسير، فقد وضع (التبيان)[٣] في عشرة مجلدات، وكان هذا النتاج الكبير يعرب عن مستوى واسع وعميق كما يدل على إحاطة وشمول في آفاق المعرفة. وقد كانت الحاجة ملحة لهذا الجانب لافتقار المكتبة الإمامية إليه، ولذا اعتبر ظهور هذه الموسوعة التفسيرية إلى حيز الإمكان فتحاً كبيراً.

وفي علم الرجال، وتحقيق درجاتهم العلمية، وجمع الشتات عنهم وتميز طبقاتهم من عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما بعد عهد الأئمة عليهم السلام وضع (كتاب الرجال)[٤]. وقد سد هذا الكتاب فراغاً في مجال الجرح والتعديل وتميز طبقات الأعلام والمحدثين، وأصبح مصدراً أولاً للمشتغلين في هذا الحقل.

وفي ذكر أصحاب الكتب والأصول، خلف للمكتبة الإسلامية كتابه (الفهرست)[٥] وهو يحتوي على تسعمائة اسم من أسماء المصنفين وهو - في

(١) المعالم الجديدة: ٥٦.

(٢) طبع هذان الكتابان عدة طبعات في النجف وإيران وآخرها تم صفهما وفهرستهما في بيروت - دار الأضواء.

(٣) طبع هذا الكتاب في إيران والنجف، وأخيرا على نفقة مكتبة الشيخ أحمد القصيري في النجف الأشرف عشرة أجزاء.

(٤) طبع هذا الكتاب بمطبعة الحيدرية بالنجف عام ١٣٨١هـ، وبتحقيق السيد محمد صادق آل بحر العلوم.

(٥) طبع عدة مرات: في ليدن، وكلكته في الهند عام ١٢٧١هـ، وفي المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ثلاث طبعات.

الحقيقة ـ من الآثار الثمينة الخالدة، وقد أصبح موضع اعتماد علماء الإمامية وغيرهم في هذا المضمار، لأنه ضبط لتاريخ العلوم عند الشيعة حتى تاريخ تأليفه.

وإلى هذا الصف العلمي أضاف في مجموعة مؤلفاته القيمة ما كتبه في أصول العقائد، ومعرفة الله تعالى، وصفاته، وتوحيده، وعدله، والنبوة، والإمامة وكل ما يعود الإخلال به بالضرر على ما حصل له من المعرفة. مثل كتاب (الاقتصاد)[١] في أصول العقائد، وكتاب (تلخيص الشافي)[٢] و(المفصح في الإمامة)[٣] وكتاب (الغيبة)[٤] في إمامة الحجة المهدي محمد بن الحسن العسكري عليهما السلام.

بالإضافة إلى المؤلفات الأخرى، وفي مواضيع مختلفة، كلها تدل على اطلاع شيخنا الرائد في آفاق المعرفة، ولقد أحصتها بعض المصادر فبلغت ٤٧ مؤلفاً في جوانب متعددة[٥].

وإذا اعتبر الشيخ الطوسي ـ رحمه الله ـ في مجموع مؤلفاته المتنوعة موسوعياً، فهو من جانب آخر يعتبر مختصاً بالفقه والأصول. ولم يكن تصنيفه في الفقه المتمثل في كتابه (المبسوط) ثم، في الحديث (التهذيب والاستبصار)، ثم في الفقه المقارن ككتاب (الخلاف)[٦] إلى غيرها من مؤلفاته الفقهية، إلا مثلاً للتطور العظيم الذي نهجه الشيخ في بحثه الفقهي.

ولقد عرض في بحوثه الفقهية منهج الفقهاء من الشيعة القدماء الذين مثلوا المرحلة البدائية من التفكير الفقهي، وهو ما يمكن أن نطلق عليها اسم منهج الاخباريين، الذين يجمدون على أخذ الأحكام من الأحاديث، والروايات، واتباع

(١) ما زال الكتاب مخطوطاً.
(٢) طبع الكتاب في إيران وأخيراً في النجف الأشرف مطبعة الآداب بتحقيق السيد حسين بحر العلوم وعناية مكتبة العلمين في النجف الأشرف.
(٣) ما زال مخطوطاً.
(٤) طبع في إيران بتبريز عام ١٣٢٣ ـ ١٣٢٤هـ.
(٥) مقدمات تفسير التبيان: ف ـ أو، رجال الشيخ: ٤٩ ـ ١١٢، تلخيص الشافي: ٢٩ ـ ٣٨.
(٦) طبع في إيران مرتين.

النصوص، وانصرافهم عن التفريع، والتوسع في التطبيق، كما في كتابي (التهذيب والاستبصار).

كما عرض منهج الفقهاء الشيعة الأصوليين الذين يفكرون بذهنية أصولية ويمارسون التفريع الفقهي في نطاق واسع، وذلك في كتاب (المبسوط).

والحقيقة أن «الفارق الكيفي بين اتجاهات العلم التي انطلقت من هذا التطور الجديد واتجاهاته قبل ذلك يسمح لنا باعتبار الشيخ الطوسي حداً فاصلاً بين عصرين من عصور العلم، بين العصر العلمي التمهيدي، والعصر العلمي الكامل. فقد وضع هذا الشيخ الرائد حدّاً للعصر التمهيدي، وبدأ به عصر العلم الذي أصبح فيه الفقه والأصول علماً له دقته، وصناعته، وذهنيته العلمية الخاصة»[1].

وبعد هذا فقد استمر شيخنا الرائد في جهاده العلمي، والعمل الدائب في تنظيم الوضع الدراسي، حتى خطا على عهده الشريف خطوات سريعة بحيث أصبحت الحوزة العلمية الفتية في النجف تربو على المئات من رواد الفضيلة والعلم، والطلبة الناشئين، والمؤلفة ـ على حد رأي بعض المصادر ـ[2] من أولاده، وبعض أصحابه، ومجاوري القبر الشريف، وأبناء البلاد القريبة منها كالحلة ونحوها، ونمت الحوزة على عهده بالتدريج، وبرز فيها العنصر المشهدي ـ نسبة إلى المشهد العلوي ـ والعنصر الحلي، وتسرب التيار العلمي منها إلى الحلة.

بعد الشيخ الطوسي:

وفي عام ٤٦١هـ لبى الشيخ الطوسي ـ باني مجد الجامعة النجفية ـ نداء ربه، وقد منيت الجامعة بخسارة كبيرة، ولكن نموها العلمي لم يقف بوفاة الرائد الكبير بل تحدثنا المصادر: بأن ولده الحسن بن محمد بن الحسن المعروف بأبي علي الطوسي قام بدور كبير في إدارة دفة الجامعة، وزعامة حوزتها.

(١ و٢) المعالم الجديدة: ٥٦ ـ ٥٧ و٦٤.

وكان أبو علي من أبرز تلامذة والده شيخ الطائفة، وأكثر قابلية من سائر تلامذة الشيخ لتحمل أعباء المسؤولية لإدارة شؤون الجامعة، واستمرار الحركة العلمية فيها زماناً ليس بالقصير، وهي تؤدي عملها العلمي بصورة امتدادية للشيخ الرائد.

وقد وصفته المصادر بعبارات الإجلال والتكريم، مما تدل على مكانته الكبيرة في الجامعة النجفية، فمثلاً يقول ابن حجر: «ثم صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي رضي الله عنه، وهو في نفسه صدوق، مات في حدود الخمسمائة، وكان متديناً، كافاً عن السب»[1].

وتحدث عنه الشيخ آغا بزرك فقال: «وقد خلف أباه على العلم والعمل وتقدم على العلماء في النجف، وكانت الرحلة، والمعول عليه في التدريس والفتيا، وإلقاء الحديث وغير ذلك، وكان من مشاهير رجال العلم، وكبار رواة الحديث، وثقاتهم، وقد بلغ من علو الشأن، وسمو المكانة أن لقب بـ«المفيد الثاني»[2].

وإلى جانب ما أفاد من والده شيخ الطائفة من الناحية العلمية كذلك عدّ من مشايخه: أبو الحسن محمد بن الحسين المعروف بابن الصقال. وحمزة أبو يعلى سلار بن عبدالعزيز، وغيرهم.

كما أنه كان شريكاً في الدرس مع الشيخ أبي الوفاء عبدالجبار بن عبدالله بن علي الرازي، والشيخ أبي محمد الحسن بن الحسين بن بابويه القمي، والشيخ أبي عبدالله محمد بن هبة الله الوراق الطرابلسي، عند قراءة كتاب «التبيان» على والده الشيخ الطوسي.

وقد تخرج عليه كثير من حملة العلم والحديث من الفريقين، وحاز المرجعية عند الطائفتين، لذلك كثرت الروايات عنه، وانتهت الطرق إليه، وقد ذكر مترجموه كثيراً من تلامذته، فقد ذكر الشيخ منتجب الدين بن بابويه أربعة

(١) لسان الميزان: ٣٥٠ ـ ٢.
(٢) تفسير التبيان: المقدمة ـ أف وار.

عشر رجلاً، وأضاف الشيخ آغا بزرك الطهراني ستة عشر شخصاً، كما ذكر ابن حجر العسقلاني في (لسان الميزان) ثلاثة أشخاص من العامة، فيكون المجموع أربعة وثلاثين شخصاً[1].

وفي طليعة هذه المجموعة:

١ ـ علي بن شهراشوب المازندراني السروي، والد صاحب (المناقب) و(المعالم).

٢ ـ الشيخ الفقيه الصالح أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن علي بن طحال المقدادي.

٣ ـ المؤلف الفقيه الثقة عماد الدين محمد بن أبي القاسم بن علي الطبري الآملي الكجي.

٤ ـ الشيخ الفاضل أبو طالب حمزة بن محمد بن أحمد بن شهريار الخازن.

٥ ـ أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي صاحب تفسير (مجمع البيان).

٦ ـ الشيخ محمد بن منصور الحلي الشهير بابن إدريس، قال في (الرياض): على المشهور من أن ابن إدريس يروي عن أبي علي هذا تارة بلا واسطة، وتارة مع الواسطة.

٧ ـ أبو علي محمد بن الفضل الطبرسي.

والذين ذكرهم ابن حجر العسقلاني هم:

٨ ـ أبو الفضل بن عطاف.

٩ ـ محمد بن محمد النسفي.

١٠ ـ هبة الله السقطي.

ولم يكن ذكر هؤلاء من بين المجموعة الكبيرة من تلامذة أبي علي الطوسي إلا لغرض إعطاء نماذج عن المستوى الفكري لطلاب هذه الشخصية.

---

(١) نفس المصدر: ـ أر ـ أت.

وقد ترك أثراً قيماً علمياً هو (شرح النهاية) وهو شرح لكتاب والده النهاية في الفقه.

وتوفي الشيخ أبو علي بعد سنة ٥١٥هـ، فقد كان حياً في هذا التاريخ كما يظهر في مواضع من أسانيد كتاب (بشارة المصطفى).

وما إن انتقل الشيخ أبو علي إلى رحمة ربه، حتى تقدم ولده أبو نصر محمد بن أبي علي الحسن بن أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي. إلى تزعم الجامعة النجفية، وكان أهلاً لهذا التزعم. فقد نقل عنه الشيخ آغا بزرك الطهراني قائلاً: «كان الشيخ أبو نصر محمد من أعاظم العلماء، وأكابر الفقهاء، وأفاضل الحجج وأثبات الرواة وثقاتهم، فقد قام مقام والده في النجف، وانتقلت إليه الرياسة والمرجعية، وتقاطر عليه طلاب العلم من شتى النواحي»[1].

وقال ابن العماد الحنبلي في حوادث سنة ٥٤٠ «.. وفيها توفي أبو الحسن محمد بن الحسن أبي علي بن أبي جعفر الطوسي، شيخ الشيعة، وعالمهم، وابن شيخهم وعالمهم رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب إلى العراق، وحملوا إليه، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد، وأثنى عليه السمعاني، وقال العماد الطبري: لو جازت على غير الأنبياء صلاة صليت عليه»[2].

ثم في هذه الفترة قام الأعلام من أسرة آل الخازن في دعم الجامعة النجفية، حتى انتهى الدور إلى الموفق الخازن، علي بن حمزة بن محمد بن أحمد بن شهريار، ووصفته المصادر بأنه «أشهر خزنة الحرم العلوي، ضم إلى سدانة الحرم السبق في العلوم الدينية وكانت الرحلة إليه سنة ٥٧٢ حين كثر أهل العلم، ورواد الحديث، وكان المعول عليه في إدارة رحى العلم بعد شيخ الطائفة الشيخ الطوسي ـ قدس سره ـ وهو العاقد لحلقات الحديث والمتكفل بإلقائه، وكان عالماً فاضلاً، وكان من رجال القرن السادس»[3].

---

(١) تفسير التبيان ـ المقدمة: أخ.
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ١٢٦ ـ ١٢٧ ـ ٤ طبع مصر.
(٣) ماضي النجف وحاضرها: ٤٠٥ ـ ٢.

واستمرت الجامعة النجفية في حركتها العلمية من بعد الشيخ الرائد شيخ الطائفة حتى أطل عهد ابن إدريس، وقد طغى موج الحركة العلمية في الحلة ونشطت إلى حد كبير.

وكان عهد هذا المجدد إيذاناً بانتقال الحركة العلمية إلى الحلة، وقد تكاملت عناصر هذا الانتقال في أوائل القرن السابع الهجري.

بين الطوسي وابن إدريس

ومحمد بن أحمد بن إدريس الحلي، من مشايخ الفقهاء في الحلة، وسبط الشيخ الطوسي، توفي سنة ٥٩٨هـ.

وصفه ابن داود[١]: بأنه شيخ الفقهاء بالحلة متقناً في العلوم[٢]. كما وصفه الحر العاملي[٣]: «وقد أثنى عليه علماؤنا المتأخرون، واعتمدوا على كتابه، وعلى ما رواه في آخره من كتب المتقدمين وأصولهم»[٤].

وقالت بعض المصادر: «. . .وكان فقيهاً أصولياً بحتاً، ومجتهداً صرفاً، وهو أول من فتح باب الطعن على الشيخ (الطوسي)، وإلا فكل من كان في عصر الشيخ أو من بعده، إنما كان يحذو حذوه غالباً إلى أن انتهت النوبة إليه»[٥].

وهذه الفقرة تلقي لنا ضوءاً على ما قام به هذا الشيخ المجدد بالنسبة لآراء الشيخ الطوسي وأفكاره، التي كادت تسيطر على الجامعة العلمية في النجف طيلة

---

(١) تقي الدين الحسن بن علي بن داود الحلي: وصفته المصادر بالشيخ العالم الفاضل الجليل الفقيه المتبحر صاحب كتاب الرجال المعروف، تلمذ على السيد أحمد بن طاوس، والمحقق الحلي، ولد ٦٤٧هـ.
(الكنى والألقاب: ٢٧٧ ـ ١).

(٢) رجال ابن داود: ٤٩٨ طبع إيران.

(٣) محمد بن الحسن بن علي المشغري: شيخ المحدثين، وأفضل المتبحرين العالم الفقيه النبيه المحدث المتبحر الورع الثقة الجليل، صاحب المصنفات المفيدة، ولد عام ١٠٣٣هـ وتوفي ١١٠٤ ودفن في خراسان.
(الكنى والألقاب: ١٦٠ ـ ٢).

(٤) أمل الآمل: ٦٠ طبع إيران.

(٥) روضات الجنات ـ الخوانساري: ٥٩٨ طبع إيران.

مائة عام أو أكثر، وتعيقها عن التجديد، والتفاعل الفكري.

فإننا نجد بعض المصادر ترى أن المائة عام التي عاشتها الحوزة العلمية بعد الشيخ المؤسس، وإلى حد ما كان عامل التقليد فيها واضحاً جلياً ومن جراء ذلك تحملت الجامعة أعباء الوراثة العلمية، وفي خلالها كانت هالة من التقديس والاحترام تحوط آراء وأفكار الشيخ الطوسي الرائد. بحيث كان من الصعب على أحد أن ينالها بالاعتراض والنقاش، أو يخضعها للتمحيص والتدقيق. وحتى أن أكثر الفقهاء الذين نشؤوا بعد الشيخ كانوا يتبعونه في الفتوى تقليداً له لكثرة اعتقادهم فيه، وحسن ظنهم به[١].

وقد وضح الحمصي[٢] ـ وهو ممن عاصر تلك الفترة ـ هذه الحقيقة بقوله: «ولم يبق للإمامية مفت على التحقيق، بل كلهم حاك»[٣].

والحقيقة أننا على رغم ما نجده في بعض المصادر بأن الفترة التي تلت وفاة الشيخ الطوسي من أنشط العهود بالنسبة للحركة العلمية في الجامعة النجفية، وأن الوضع الدراسي قد بلغ أوجه وشدة عنفوانه في عصر أبي علي الطوسي، وولده أبي نصر، وابن شهريار.

ولكن في الوقت نفسه لم تتمكن المصادر من إعطائنا صورة واضحة من ملامح هذه الفترة بما يتعلق بازدهار الحركة الفكرية في الجامعة النجفية، وتكاد تكون مظلمة، والركود العلمي فيها أقرب إلى الواقع من غيره.

بالإضافة إلى أن المصادر تحجم عن ذكر وضعية الحركة العلمية في النجف بعد ابن شهريار الخازن، وفي نفس الوقت نرى نجم ابن إدريس قد لمع في الحلة وبرز بعنف على مسرح النقد لآراء الشيخ الرائد، وكان هذا البروز الدفعي الجريء قد حول الأنظار إلى الحركة العلمية التي تدور رحاها في الحلة،

---

(١) المعالم الجديدة: ٦٦.

(٢) سديد الدين محمود بن علي بن الحسن الحمصي الرازي، من أكابر علماء الإمامية، وصف بأنه علامة زمانه في الأصوليين من القرن السادس الهجري.
(الكنى والألقاب: ١٧٥ ـ ٢).

(٣) المعالم الجديدة: ٦٦ ـ ٦٧.

وحتى تكاملت عناصر الانتقال في عهد المحقق الحلي[١]، وذلك في أوائل القرن السابع عشر الهجري.

«وهذه الحقيقة بالرغم من تأكيد جملة من علمائنا لها تدعو إلى التساؤل والاستغراب، لأن الحركة الثورية التي قام بها الشيخ في دنيا الفقه والأصول، والمنجزات العظيمة التي حققها في هذه المجالات كان من المفروض والمترقب أن تكون قوة دافعة للعلم، وأن تفتح لمن يخلف الشيخ من العلماء آفاقاً رحيبة للإبداع والتجديد ومواصلة السير في الطريق الذي بدأه الشيخ. فكيف ولم تأخذ أفكاره وتجديداته مفعولها الطبيعي في الدفع والإغراء بمواصلة السير!»[٢].

وتشير بعض المصادر الأصولية إلى عدة أسباب من المحتمل أن تفسر الموقف، نلخصها بما يلي:

١ - أن الشيخ الطوسي بهجرته إلى النجف انفصل عن حوزته الأساسية وأنشأ حوزة جديدة حوله في النجف، وتفرغ في مهجره للبحث وتنمية العلم، وكان من الطبيعي أن لا ترقى الحوزة العلمية إلى مستوى التفاعل المبدع مع التطور الذي أنجزه الشيخ الطوسي في الفكر العلمي لحداثتها، ولهذا لم يتسرب الإبداع الفقهي العلمي من الشيخ إلى تلك الحوزة التي كان ينتج ويبدع بعيداً عنها، ولكي يتحقق ذلك التفاعل الفكري الخلاق كان لا بد أن يشتد ساعد الحوزة الفتية حتى تصل إلى المستوى من التفاعل من الناحية العلمية فسادت فترة ركود ظاهري بانتظار بلوغ الحوزة الفتية إلى ذلك المستوى.

٢ - أسند جماعة من العلماء ذلك الركود إلى ما حظي به الشيخ من تقدير عظيم في نفوس تلامذته رفعه في أنظارهم عن مستوى النقد، وجعل من آرائه ونظرياته شيئاً مقدساً لا يمكن أن ينال باعتراض، أو يخضع لتمحيص.

---

(١) أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد الحلي: وصفه ابن داود فقال: المحقق المدقق واحد عصره، كان ألسن أهل زمانه، وأقومهم بالحجة، وأسرعهم استحضاراً ولد سنة ٦٠٢، وتوفي عام ٦٧٦هـ ودفن بالنجف.
(رجال ابن داود: ٨٣ والكنى والألقاب: ١٣٣ - ١٣٥ - ٣).
الدراسة وتاريخها في النجف (٤).

(٢) المعالم الجديدة: ٦٢ - ٦٣.

وقد بلغ من استفحال تلك النزعة التقديسية في نفوس الأصحاب أنّا نجد فيهم من يتحدث عن رؤيا لأمير المؤمنين (ع) شهد فيها الإمام بصحة كل ما ذكره الشيخ الطوسي في كتابه الفقهي «النهاية»!! وهو يشهد عن مدى تغلغل النفوذ الفكري الروحي للشيخ في أعماق نفوسهم.

٣ ـ والسبب الأخير يمكن أن يستنتج من حقيقتين تاريخيتين:

إحداهما: أن نمو الفكر العلمي والأصولي لدى الشيعة لم يكن منفصلاً عن العوامل الخارجية التي كانت تساعد على تنمية الفكر والبحث العلمي، ومن تلك العوامل عامل الفكر السني، لأن البحث الأصولي في النطاق السني، ونمو هذا البحث وفقاً لأصول المذهب السني كان حافزاً باستمرار للمفكرين من فقهاء الإمامية لدراسة تلك البحوث في الإطار الإمامي، ووضع النظريات التي تتفق معه في كل ما يثيره البحث السني من مسائل ومشاكل، والاعتراض على الحلول المقترحة لها من قبل الآخرين.

ثانيتهما: أن التفكير الأصولي السني كان قد بدأ ينضب في القرن الخامس والسادس ويستنفد قدرته على التجديد، ويتجه إلى التقليد والاجترار حتى أدى ذلك إلى سد باب الاجتهاد رسمياً.

وإذا جمعنا بين هاتين الحقيقتين، وعرفنا أن التفكير الأصولي السني الذي يشكل عامل إثارة للتفكير الأصولي الشيعي، كان قد أخذ بالانكماش، ومني بالعقم، استطعنا أن نستنتج بأن التفكير العلمي لدى فقهائنا الإمامية قد فقد أحد المثيرات المحركة له. الأمر الذي يمكن أن نعتبره عاملاً مساعداً في توقف النمو العلمي»[1].

وكيفما كان فإن ابن دريس فتح باب النقاش على مصراعيه، وحمل بكل ما أوتي من مقدرة علمية على آراء جده لأمه الشيخ الطوسي وبكل عنف. وكان ذلك سبباً لحملة شديدة عليه من قبل بعض الاعلام أمثال العلامة الحلي[2] الذي

(١) المعالم الجديدة: ٦٢ ـ ٦٩ بتصرف.

(٢) جمال الدين أبو منصور الحسن بن سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر الحلي، انتهت إليه =

وصمه بأنه شاب مترف عفا الله عنه. ونقده غيره نقداً لاذعاً، كما رمي بقلة الأدب.

ومع هذا فإن الحملات القاسية التي شنها ابن إدريس على آراء الشيخ الرائد «كانت بداية خروج الفكر العلمي عن دور التوقف النسبي على يد هذا الفقيه المبدع، إذ بث في الفكر العلمي روحاً جديدة، وكان كتابه الفقهي «السرائر»(١) إيذاناً ببلوغ الفكر العلمي في مدرسة الشيخ إلى مستوى التفاعل مع أفكار الشيخ ونقدها وتمحيصها».

من النجف إلى الحلة:

ولكن بوادر النشاط العلمي، أو التفتح الذهني للتفاعل مع آراء الشيخ بدت تبرز بأجلى مظاهرها في أوائل القرن السابع الهجري، وخاصة على مسرح التفكير الحلي، والذي عبر عن اتساع كبير في الذهنية العلمية التي يتمتع بها الحليون في تلك الفترة، ويمكن أن تكون طليعتها متجلية في الشيخ ابن إدريس، ثم المحقق الحلي، ثم العلامة الحلي. وأمثالهم الكثيرين ممن حملوا راية العلم في الحلة، وأسسوا لها مجداً شامخاً.

وإذا كان عهد ابن إدريس إيذاناً بانتقال الحركة العلمية إلى الحلة، ففي عهد المحقق الحلي انتقل المركز العلمي إلى الحلة تماماً، وأصبح مجلس المحقق ـ كما تحدده بعض المصادر ـ يضم قرابة أربعمائة مجتهد(٢).

واستمر التأجج العلمي ينير آفاق مدينة ابن إدريس طوال قرون ثلاثة، ودام حتى أواخر القرن العاشر الهجري، فقد عادت المركزية العلمية إلى النجف، وبقيت في الحلة حركة علمية بسيطة مفتقرة إلى شيء من الدفع والتوسع.

= رئاسة الإمامية في المعقول والمنقول والفروع والأصول، صنف في كل علم كتباً، فكان أعظم العلماء شأناً ولد سنة ٦٤٨، قرأ على المحقق الحلي، كما قرأ على المحقق الطوسي، وصار سبباً لتشيع السلطان محمد الملقب بشاه خدابنده، توفي ٧٢٦هـ ودفن في النجف.
(الكنى والألقاب: ٤٤٢ ـ ٤٤٤ ـ ٣).

(١) طبع هذا الكتاب في إيران.

(٢) رجال الطوسي ـ المقدمة: ١٩.

وفي خلال هذه المدة ضمت الحلة بيوتات كبيرة علمية، وأعلاماً فذة عـرفوا بالفضيلة والاجتهاد، أمثال: آل إدريس، وآل شيخ ورّام، وآل فهد، وآل طـاوس آل نما، وبني سعيد، وبني المطير، وبني معية وغيرهم من البيوتات العلمية[١].

ويعترضنا هنا سؤال وهو:

ـ عند انتقال المركز العلمي من النجف إلى الحلة، ففي خلال هذه الفتـرة هل بقيت النجف خالية من حركة علمية، وقاحلة من أعلام فضلاء؟

والجواب: أن ثمة حركة علمية بقيت فيها. ودليلنا على ذلك:

١ ـ أن الفاضل الرضي الاستراباـدي[٢] ألف كتابـه شرح الكـافية في هـذه الفترة من النجف حينما أشار هو في كتابه المذكور بأنه من بركات الحضرة العلوية المقدسة وذلك عام ٦٨٣هـ[٣].

٢ ـ تحدث ابن بطوطة[٤] ـ ضمن زيارته للنجف خلال عام ٧٢٧هـ ـ عن مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ـ على حد تعبيره ـ[٥].

٣ ـ في هذه الفترة بنيت مدارس ثلاث لطلاب العلم والمهاجرين في النجف.

الأولى: بنـاها السلطان محمـد خدابنـده، أو ابنه أبـو سعيد[٦]. في القـرن الثامن.

---

(١) مقدمات: تفسير التبيان، ورجال الطوسي، وتلخيص الشافي.

(٢) محمد بن الحسن الرضي، الفاضل الأسترابادي، نجم الأئمة، وصفته المصادر بالعـالم الفاضـل المحقق المـدقق، من أعلام النحـو، سكن النجف، وتوفي فيهـا عام ٦٨٦هـ. لـه كتـاب شـرح الكافية لابن الحاجب.
(بغية الوعاة: ٥٦٧ ـ ١ وروضات الجنات: ٢٨٦).

(٣) شرح الكافية.

(٤) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله الطنجي، كان سياحاً كثير الأسفـار، وكان معـاصراً لفخـر المحققين ابن العلامة الحلي، توفي بمراكش سنة ٧٦٩هـ.
(الكنى والألقاب: ٢٢٢ ـ ١).

(٥) رحلة ابن بطوطة: ١٠٩ ـ ١.

(٦) السلطان محمـد خدابنـده بن أرغوان ملك العـراق وخراسـان، وعراق العجم، وآذربيجان جاوز الثلاثين من العمر، قالت المصادر: بـأنه كـان سنياً ثم لعبت بعقله الإمـامية فتـرفض وكان حسن=

الثانية: بناها المقداد السيوري[١] في القرن التاسع.
الثالثة: بناها الشيخ ملا عبدالله[٢] في القرن العاشر.

ولو كانت النجف خالية من حركة علمية في هذه الفترة، لما شيدت فيها هذه المدارس العلمية.

كما أن المصادر الرجالية: تؤكد على وجود طبقة من الأعلام في النجف ضمن فترة الانتقال. نعرض عن ذكرهم لضيق المقام.

وأن هؤلاء تعهدوا الجامعة النجفية في خلال هذه الفترة في إدارة دفتها وإن كانت الزعامة العلمية كانت قد انتقلت إلى الحلة.

وفي صدد تحديد الأسباب التي دعت إلى انتقال الحركة العلمية وزعامتها إلى الحلة، ذكرت بعض المصادر ما يلي:

١ ـ لما أصاب طلاب العلم وعلماءها من الأذى لقلة المياه في النجف.

٢ ـ هجوم الأعراب المتكرر على النجف، حيث ذاق النجفيون آنذاك الأمرين من هؤلاء الأعراب.

٣ ـ غلاء النجف.

٤ ـ انتقال زعيم الحركة العلمية العلامة الشيخ ابن إدريس صاحب السرائر إلى الحلة، لأنه كان حلياً»[٣].

= الإسلام، وابنه أبو سعيد علاء الدين بهادرخان ممن ملك العراق أيضاً راجع ترجمتهما في (تاريخ العراق بين الاحتلالين: عباس العزاوي: ٤٤٢ ـ ٤٤٧ و٥١٦ ـ ١).

(١) الشيخ شرف الدين أبو عبدالله، مقداد بن عبدالله بن محمد بن الحسين بن محمد السيوري الحلي الأسدي. من تلاميذ الشيخ الشهيد محمد بن مكي، توفي عام ٨٢٦هـ ودفن بمقابر المشهد المقدس الغروي، له مؤلفات عديدة.
(مقدمة كنز العرفان: للشيخ آغا بزرك الطهراني: طبع النجف).

(٢) المولى عبدالله بن شهاب الدين حسين اليزدي الشاه أبادي الفاضل العالم الفقيه المنطقي الجامع الكامل، وصفته المصادر بأنه علامة زمانه لم يدانه أحد في العلم والورع، توفي في أواخر دولة السلطان شاه طهماسب الصفوي في سنة ٩٨١هـ. (روضات الجنات: ٣٥٨).

(٣) الدراسة في النجف ـ أحمد مجيد عيسى ـ مجلة البيان: السنة الثانية ص٧٣٢.

إن هـذه الأسباب قـد تكون وجيهـة من جهة، ولكنهـا من جهة أخـرى قـد يعـوزها الـدليل فمثـلاً لم يتأكـد لدينـا أن ابن إدريس كـان من طـلاب الجـامعـة النجفية، ثم انتقل إلى الحلة بعدها، والظاهر أن ثقافته العلمية حلية صـرفة. نعم ذكرت المصادر أنه روى عن أبي علي الطوسي، أو ولده أبي نصر، وأن جده لأمه الشيخ الطوسي، لكن المصادر لم تذكر لنا أنه تلمذ في المدرسة النجفية.

ولم نقتنـع بـأن الأسبـاب التي دعت إلى انتقـال الحـوزة العلميـة هي هـذه النقاط التي تقدمت، إنما الذي يصلح للاعتقاد هو أن الحلة نبغ فيهـا ابن إدريس وأضرابه، وكانت من قبله تدار فيهـا حركـة علمية، وعنـد ظهور ابن إدريس مـوج الحـركـة ووجـه الأنـظار إليـه بحمـلاتـه القـاسيـة على شيـخ الـطائفـة الـطوسي، والمشتغلون يتبعـون المبرزَ في عصـره وقد حقق ابن إدريس هـذه التبعية بنبـوغـه ولهذا أثر على حركة الجامعة النجفية وإن لم يشلها تماماً.

الدور الثاني للجامعة النجفية

ويمكن أن يكون النصف الأخير من القرن العاشر الهجري هو العهد الذي استعادت فيه النجف مركزها العلمي، بعد أن فازت الحلة بزعامة المركز العلمي مدة ثلاثة قرون.

ولقد حددت بعض المصادر زمن عودة الحياة العلمية بعهد المقدس الأردبيلي[1]، يقول السيد حسن الصدر في هذا الصدد: «ثم عادت الرحلة إلى النجف في زمن المقدس الأردبيلي، فقوي ذلك، واشتد الناس إليه من أطراف البلاد، وصارت من أعظم مراكز العلم»[2].

ونقلت بعض المصادر: أن السبب في عودة الهيئة العلمية إلى النجف «أن سحبت المياه إليها، واهتم بإيصالها كثير من السلاطين والعلماء وغيرهم. فقد قام الصاحب عطاء الملك بن محمد الجويني سنة ٦٧٦هـ[3] بحفر نهر

---

(١) المولى أحمد بن محمد الأردبيلي: قال السيد نعمة الله الجزائري: كان له من العلم رتبة قاصية، ومن الزهد والتقوى والورع درجة قصوى، وكان من سكان حرم مولانا أمير المؤمنين (ع)، مؤلف كبير، ومحقق عظيم، توفي عام ٩٩٣، ودفن بالنجف.
(مستدرك الوسائل ـ الشيخ ميرزا حسين النوري: ٣٩٢ ـ ٣ طبع إيران).

(٢) مجموعة السلاسل الذهبية ـ للسيد محمد صادق بحر العلوم. بحث (مراكز العلم للشيعة ـ للسيد حسن الصدر في آخر تكملة أمل الآمل). ص٥٨٥.

(٣) الصاحب عطاء الملك: علاء الدين بن بهاء الدين محمد، تقلد الوزارة في أيام هلاكو خان وأيام الملك العادل أبي أقاخان بن هلاكو خان، كان له السطوة والطول في الدولة، وكان فاضلاً مدحه الشاعر محمد بن علي العريضي فقال:

ولأنت وابن أبيك قد شيدتما ... وبنوكما بيتاً فويق الفرقد
يبقى على مر الزمان وما دهى ... بيت يقل ذراه ستة أعمد

التاجية[١] ثم جاء بعده الشاه إسماعيل الأول[٢] إلى النجف فأمر بحفر نهر الشاه سنة ٩٦٤هـ، وتلاه الشاه طهماسب الصفوي[٣]، فأمر بحفر الطهماسية[٤] نسبة إليه سنة ٩٨٠هـ، ثم حفر الشاه عباس عند وفوده إلى النجف نهر المكرية[٥] سنة ١٠٣٢هـ. هذا بالإضافة إلى الاحتياطات التي عملت «كبناء الأسوار» لتقليل أثر الأعراب التخريبي، وإلى ما قامت به الحكومة من الأعمال لغرض تقليل ذلك،

= كان مولده سنة ٦٢٣هـ وتوفي عام ٦٨٣هـ.
(تحفة المعالم ـ للمرحوم السيد جعفر بحر العلوم: ٢٩١ ـ ١ طبع النجف، وتاريخ الكوفة: ١٩٢ هامش (١)).

(١) نهر التاجية: مأخوذ من الفرات ويصل إلى مسجد الكوفة، ثم ينتهي إلى النجف بـذل الصاحب عطاء الملك ما يزيد على مائة ألف دينار ذهب، وأوصل الماء إلى النجف عام ٦٧٦هـ. وإنما سمي بالتاجية لأن تاج الدين علي ابن أمير الدين من فضلاء عصر علاء الدين كان المباشر له، فاشتهر باسمه.
راجع (تاريخ الكوفة: ١٩١ ـ ١٩٥ وتحفة المعالم: ١٩١: ١٩٣ ـ ١ وماضي النجف: ١٨٦ ـ ١٩١ ـ ١).

(٢) هو أول ملوك الصفوية وموطد دولتها، ولد في رجب سنة ٨٩٢هـ، وقد تسنم الملك عام ٩٠٦هـ، وفي عام ٩١٤ دخل بغداد بعد أن فر واليها حينذاك باريك بيك إلى الشام، وملك العراق، وكان يكرم علماء الشيعة ويخدم الروضات والعتبات المقدسة، توفي بتبريز سنة ٩٣٠ وقيل سنة ٩٣١. ومدة ملكه ٢٤ سنة.
(راجع تحفة المعالم: ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ـ ١ وماضي النجف: ١٩١ ـ ١).

(٣) الشاه طهماسب الأول ابن الشاه إسماعيل الأول. ولد يوم الأربعاء عام ١٩١٩هـ، في قرية شهاب آباد من أعمال أصفهان وملك تسع عشرة سنة، وكان جلوسه على سرير الملك سنة ٩٣٠هـ، وتوفي سنة ٩٨٤هـ.
(تاريخ الكوفة: ١٩٥هـ٢).

(٤) قال البراقي: عندما جاء الشاه طهماسب الصفوي إلى النجف في حدود عام ٩٨٠هـ أمر بحفر نهر من الفرات إلى النجف غير أنه لم يوفق إلى ذلك فقد وصل إلى مكان معروف (بالنمرود) ووقف العمل فيه فنسب إلى طهماسب وصحف بعد ذلك فسمي (طهمازية).
(راجع تاريخ الكوفة: ١٩٥ ـ ١٩٦ وماضي النجف وحاضرها: ١٩٢ ـ ١).

(٥) نهر المكرية: وقد سماه البراقي بـ(نهر الشاه). عند زيارة الشاه عباس الأول ابن الشاه محمد خدابنده المولود في عام ٩٧٩ والمتوفى عام ١٠٣٧هـ، إلى النجف لزيارة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام سنة ١٠٣٢ أمر بتنظيف النهر الذي حفره الشاه إسماعيل الأول من الفرات سنة زيارته مرقد جده علي عليه السلام عام ٩١٤، حيث طم في زمن محاصرة الروم أرض النجف أيام السلطان سليم، فحفر وعمر حتى جرى الماء فيه ودخل مسجد الكوفة.
(تاريخ الكوفة: ١٩٥ ـ ١٩٦، ماضي النجف ١٩٣ ـ ١).

أو إبادته، وكان هذا الانتقال في بحر القرن التاسع بعد أن لبثت في الحلة ما يقارب ثلاثة قرون»[١].

وليس من البعيد أن يكون عامل توفير المياه والأمن في النجف سبباً لعودة الحياة العلمية في الجامعة النجفية بعد أن رحلت عنها ثلاثة قرون.

ولكن الذي يخال لنا هو أن الدوافع الرئيسية لبعث الحياة الفكرية أو تنشيطها في هذه الجامعة يعود إلى عامل سياسي وطائفي دفع إلى بعث الحركة العلمية في النجف.

ذلك أن السلطة الجلائرية، والإيلخانية ـ والتي حكمتا بغداد زماناً ليس بالقصير ـ كانتا على قصد في إحياء الحركة العلمية في الجامعة النجفية وجعلها قوة دفاعية للشيعة، ومركزاً مهماً يقابل بغداد.

ففي بغداد حركة علمية سنية تدار من قبل السلطة الحاكمة حينذاك في العهد العباسي، ذات عروق وأصالة، والسلطتان المتقدمتا الذكر هما القوة المقابلة للخلافة، كما كان الأمر في عهد البويهيين.

ولهذا كان لهاتين السلطتين أثر في دعم جامعة النجف، واهتمامهم بها كمصدر للإشعاع العلمي المعبر عن علم أهل البيت عليهم السلام.

وذهبت بعض المصادر إلى أن المدة التي عاشتها الجامعة النجفية في دورها الثاني هو من عام ٧٥٠ ـ ١١٥٠هـ. غير أن الدلائل تشير إلى أن العهد بدأ في عهد المقدس الأدربيلي الذي هو في القرن العاشر. وحتى نهاية القرن الثاني عشر حيث انتقلت إلى كربلاء ـ كما سيمر علينا ـ.

المظاهر العلمية لهذا العهد:

أما المظاهر العلمية لهذا العهد فتتلخص بما يلي:

أولاً ـ استمرار النمو العلمي في مجالاته: الفقهي والأصولي:

(١) الدراسة في النجف ـ مجلة البيان س٢ ص٧٣٢.

ففي البحث الفقهي تمثل بكتاب «مدارك الأحكام»[١] للسيد محمد بن علي الموسوي[٢] وقد جاء هذا الكتاب في شرح شرائع الإسلام في ثلاث مجلدات فرغ منه سنة ٩٩٨هـ، وهو من أحسن الكتب الاستدلالية.

وفي البحث الأصولي تمثل بكتاب «المعالم» الذي وضعه جمال الدين الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني[٣]، وقد وصفته الكتب المختصة: «بأنه مثل المستوى العالي لعلم الأصول في عصره بتعبير سهل، وتنظيم جديد، الأمر الذي جعل لهذا الكتاب شأناً كبيراً في عالم البحوث الأصولية، وحتى أصبح كتاباً دراسياً في هذا العلم تناوله المعلقون بالتعليق والتوضيح والنقد»[٤]. وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات في إيران.

وأهم تلك التعاليق على المعالم هو كتاب «هدايةُ المسترشدين» للشيخ محمد تقي الأصفهاني الذي بحث كتاب المعالم في مؤلف يعادله بأكثر من عشر مرات.

وأصبح هذان الكتابان من الكتب الدراسية في الجامعة النجفية، ولم تكن حصيلة هذا الدور هذين الكتابين في مجال البحث الفقهي والأصولي فحسب. فهناك عدد كبير من الكتب التي وضعت في هذين المجالين لا يتسع المقام لذكرها.

---

(١) طبع الكتاب في إيران.

(٢) السيد محمد بن علي بن الحسين بن أبي الحسن الموسوي الجبعي صاحب المدارك: «كان فاضلاً متبحراً ماهراً محققاً مدققاً زاهداً عابداً ورعاً فقيهاً محدثاً كاملاً جامعاً للفنون والعلوم جليل القدر، عظيم المنزلة، له مؤلفات عديدة من رجال القرن العاشر الهجري. توفي ١٠٠٩هـ.
(الكنى والألقاب: ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ـ ٢).

(٣) الشيخ جمال الدين، أبو منصور الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني، أمره في العلم والفقه والتبحر والتحقيق أشهر من أن يذكر، ولد ٩٥٩ بجبع ـ لبنان، تلمذ على يد جماعة من أهل الفضل والعلم، وقصد النجف، وتلمذ على المقدس الأردبيلي، ثم عاد إلى جبع وتوفي فيها عام ١٠١١هـ.
(الكنى والألقاب: ٣٥٤ ـ ٣٥٨ ـ ٢).

(٤) المعالم الجديدة: ٧٦.

ثانياً ـ وفي هذا الدور برز نشاط فكري عميق، ونتاج علمي قيم نذكر منه:

في المنطق ـ ألف الملا عبدالله النجفي كتاباً اسمه «الحاشية» وأصبح من الكتب الدراسية في الجامعة في علم المنطق. وقد طبع الكتاب عدة طبعات.

في فقه القرآن والحديث ـ ألف الشيخ فخرالدين الطريحي[١] كتاباً اسمه «مجمع البحرين» وقد طبع عدة طبعات في إيران.

في آيات الأحكام ـ ألف الشيخ أحمد بن إسماعيل الجزائري[٢] كتاباً اسمه «آيات الأحكام» طبع في إيران.

في التفسير ـ ألف الشيخ أبو الحسن الفتوني العاملي النجفي[٣] كتاباً اسمه «مرآة الأنوار» طبع في إيران.

وفي العقائد والإمامة ـ ألف الشيخ المتقدم الذكر كتاباً أسماه (ضياء العالمين) يقع في ثلاثة أجزاء ضخام لم يكتب أوسع منه في هذا البحث. توجد نسخة بخطه الكريم في مكتبة آل الجواهري، لا زال مخطوطاً.

في علم الرجال ـ ألف الشيخ حسن بن العباس بن الشيخ محمد علي

---

(١) الشيخ فخر الدين بن محمد علي بن أحمد بن علي بن أحمد بن طريح النجفي الرماحي. وصفه الشيخ القمي بـ(العالم الفاضل المحدث الورع الزاهد العابد الفقيه الشاعر الجليل) قالوا: كان أعبد أهل زمانه وأورعهم، توفي بالرماحية سنة ١٠٨٥ وله عدة مصنفات.
(الكنى والألقاب: ٣ ـ ٤١٣ ـ ٢).

(٢) الشيخ أحمد بن إسماعيل ابن الشيخ عبد النبي ابن الشيخ سعد الجزائري الغروي من مشاهير العلماء، حاز شهرة واسعة في التحقيق والتدقيق، له آثار علمية عديدة في الفقه توفي سنة ١١٥١هـ.
(ماضي النجف وحاضرها: ٨١ ـ ٨٤ ـ ٢).

(٣) الشيخ أبو الحسن ابن الشيخ محمد طاهر ابن الشيخ عبد الحميد. المنتهي نسبه إلى عبد الحميد الفتوني النباطي العاملي النجفي، ولد بأصفهان وعاش بها، ثم هاجر إلى النجف، وصفه الميرزا النوري بـ«أفقه المحدثين وأكمل الربانيين الشريف العدل أفضل أهل عصره، وأطولهم باعاً له آثار عديدة منها بالإضافة إلى ما تقدم كتاب (الفوائد الغروية) في أصول الدين وأصول الفقه، وكتاب (الأنساب، ويعرف بلب الألباب) وغيرها توفي عام ١١٣٨هـ».
(ماضي النجف وحاضرها ٤٣ ـ ٤٩ ـ ٣).

البلاغي[١] كتاباً اسمه «تنقيح المقال في علم الرجال»[٢].

بالإضافة إلى كثير من الكتب الأدبية. وهذه الثروة الفكرية المتنوعة كان لها أكبر الأثر في بلورة الذهنية في الجامعة النجفية في هذا الدور.

الحركة الإخبارية ومظاهرها:

ثالثاً ـ الحركة الإخبارية:

ظهرت في أوائل القرن الحادي عشر على يد المرحوم الميرزا محمد أمين الأسترابادي[٣]، واستفحل أمر هذه الحركة بعده، وبخاصة في أواخر القرن الحادي عشر، وخلال القرن الثاني عشر الهجري.

وكان أثر هذه الحركة «أن صدمت علم الأصول، وعارضت نموه، وعرضته لحملة قوية» جمدته زماناً، وإن لم يتوقف نهائياً، وكان على الجامعة النجفية باعتبارها المركز العلمي العام للشيعة أن تتلقى هذه الصدمة بكل صبر.

ولا بد أن نتساءل عن طبيعة هذه الحركة وبواعثها:

وبالرغم من أن المحدث الأسترابادي كان هو رائد الحركة الاخبارية فقد

---

(١) الشيخ حسن ابن الشيخ عباس ابن الشيخ محمد علي بن محمد البلاغي. كان من أكابر العلماء ومن مشاهير أهل الفضل مجتهداً محققاً رجالياً له اطلاع في أكثر العلوم الدينية، طويل الباع في الحديث واسع الخبرة بالفقه والأصول. من أهل التقوى والورع. له مؤلفات عدة. ومن رجال القرن الحادي عشر الهجري.
(ماضي النجف وحاضرها: ٦٧ ـ ٦٩ ـ ٢).

(٢) ذكر الشيخ جعفر محبوبة في (ماضي النجف وحاضرها: ٦٨ ـ ٢ هامش ٢) ما يلي: تنقيح المقال «كتاب في الأصول، وفي مقدمته ترجم جماعة لم يذكرهم الأسترابادي في رجاله الكبير. رأيت نسخة منه في قم عند السيد شهاب الدين النجفي النسابة». كما نقل في ص٦٨ بأن صاحب الروضات نقل عنه، وفيه حواش كثيرة ذات فوائد رجالية».

(٣) المولى الميرزا محمد الأسترابادي الأخباري: أجازه كل من الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني صاحب المعالم، والسيد محمد صاحب المدارك، حيث استفاد منهما في النجف الأشرف انتقل إلى المدينة ومكة وبقي فيها، وأسس الحركة الأخبارية، وتوفي فيها عام: ١٠٣٣هـ وقيل ١٠٢٦هـ.
(روضات الجنات: ٣٣ ـ ٣٩).

حاول أن يرجع بتاريخ هذه الحركة إلى عصر الأئمة وأن يثبت لها جذوراً عميقة في تاريخ الفقه الإمامي لكي تكتسب طابعاً من الشرعية والاحترام. فهو يقول: إن الاتجاه الإخباري كان هو الاتجاه السائد بين فقهاء الإمامية إلى عصر الكليني والصدوق وغيرهما. من ممثلي هذا الاتجاه، ولم يتزعزع هذا الاتجاه إلا في أواخر القرن الرابع وبعده حين بدأ جماعة من علماء الإمامية ينحرفون عن الخط الاخباري، ويعتمدون على العقل في استنباطهم ويربطون البحث الفقهي بعلم الأصول تأثراً بالطريقة السنية في الاستنباط ثم أخذ هذا الانحراف بالتوسع والانتشار.

إن البواعث النفسية التي دفعت الإخباريين وعلى رأسهم المحدث الأسترابادي إلى مقاومة علم الأصول ساعدت على نجاح هذه المقاومة نذكر منها ما يلي:

١ ـ عدم استيعاب ذهنية الأخباريين لفكرة العناصر المشتركة في عملية الاستنباط، فقد جعلهم ذلك يتخيلون أن ربط الاستنباط بالعناصر المشتركة والقواعد الأصولية يؤدي إلى الابتعاد عن النصوص الشرعية والتقليل من أهميتها.

٢ ـ سبق السنة تاريخياً إلى البحث الأصولي، والتصنيف الموسع فيه، فقد أكسب هذا علم الأصول إطاراً سنياً في نظر هؤلاء الثائرين عليه، فأخذوا ينظرون إليه بوصفه نتاجاً للمذهب السني.

٣ ـ ومما أكد في ذهن هؤلاء الإطار السني لعلم الأصول أن ابن الجنيد ـ وهو من رواد الاجتهاد، وواضعي بذور علم الأصول في الفقه الإمامي ـ كان يتفق مع أكثر المذاهب الفقهية السنية في القول بالقياس.

٤ ـ وساعد على إيمان الاخباريين بالإطار السني لعلم الأصول تسرب اصطلاحات من البحث الأصولي السني إلى الأصوليين الإماميين وقبولهم بها بعد تطويرها، وإعطائها المدلول الذي يتفق مع وجهة النظر الإمامية، ومثال ذلك كلمة «الاجتهاد» إذ أخذها علماؤنا الإماميون من الفقه السني وطوروا معناها، فتراءى للأخباريين الذين لم يدركوا التحول الجوهري في مدلول

المصطلح أن علم الأصول عند أصحابنا يتبنى نفس الاتجاهات العامة في الفكر العلمي السني، ولهذا شجبوا الاجتهاد، وعارضوا في جوازه المحققين من أصحابه.

٥ ـ وكان الدور الذي يلعبه العقل في علم الأصول مثيراً آخر للأخباريين على هذا العلم نتيجة لاتجاههم ضد الأخذ بالعقل.

٦ ـ ولعل أنجح الأساليب التي اتخذها المحدث الأسترابادي وأصحابه لإثارة الرأي العام الشيعي ضد علم الأصول هو استغلال حداثة علم الأصول لضربه، فهو علم لم ينشأ في النطاق الإمامي إلا بعد الغيبة، وهذا يعني أن أصحاب الأئمة وفقهاء مدرستهم مضوا بدون علم أصول، ولم يكونوا بحاجة إليه. وما دام فقهاء تلامذة الأئمة ـ من قبيل زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، ومحمد بن أبي عمير، ويونس بن عبدالرحمٰن وغيرهم ـ كانوا في غنى عن علم الأصول في فقههم، فلا ضرورة للتورط فيما لم يتورطوا فيه، ولا معنى للقول بتوقف الاستنباط والفقه على علم الأصول[1].

وإذا كانت البواعث للحملات التي شنها الاخباريون قد أوجزت هنا بما تقدم، فما هي طبيعة الحركة الاخبارية؟.

فالاخبارية تقول بمنع الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وتعمل بالأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن أهل بيته، وترى أن ما في كتب الأخبار المعروفة الأربعة[2] عند الشيعة قطعي السند، أو موثوق بصدوره، فلا حاجة إلى البحث عن سندها، كما ترى عدم الحاجة إلى تعلم أصول الفقه، وتسقط من أدلته دليل الإجماع، ودليل العقل، وتقتصر على القرآن، والخبر، فلذلك عرفت بالاخبارية أو الاخباريين، وترى جواز تقليد الفقيه الميت ابتداءً خلافاً للأصولية، وغيرها من الفوارق الثابتة بينهما.

ولقد حصرت بعض المصادر الفروق بين الأصوليين والاخباريين في أربعين

---

(١) المعالم الجديدة؛ ٧٦ ـ ٨١ بتصرف.

(٢) الكتب الأربعة المشار إليها: الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه ـ للشيخ الصدوق، والتهذيب والاستبصار ـ للشيخ الطوسي. وكل هذه الكتب مطبوعة.

فرقاً، وقالت مصادر أخرى: إن المهم منها تسعة وعشرون، وإن البقية ترجع إليها وهي: أن الأصوليين يقولون:

١ - إن المجتهدين يوجبون الاجتهاد عيناً أو تخييراً، والاخباريون يحرمونه ويوجبون الأخذ بالرواية عن المعصوم عليه السلام.

٢ - يقول الأصوليون إن الأدلة عندنا أربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل، والاخباريون لا يقولون إلا بالأولين، بل بعضهم يقتصر على الثاني.

٣ - إنهم يجوزون العمل بالظنون في نفس الحكم الشرعي، والاخباريون لا يعولون إلا على العلم إلا أن العلم عندهم قطعي واقعي، وعادي أصلي وهو ما وصل عن المعصوم عليه السلام ثابتاً، ولم يجز فيه الخطأ عادة.

٤ - إنهم ينوعون الأحاديث إلى الأربعة المشهورة، والاخباريون إلى صحيح وضعيف.

٥ - إنهم يفسرون الأربعة بما ذكروه، والاخباريون يفسرون الصحيح بالمحفوف بالقرائن التي توجب العلم بالصدور عن المعصوم عليه السلام، والضعيف بما عدا ذلك.

٦ - إنهم يحصرون الرعية حينئذ في صنفين: مجتهد، ومقلد، والاخباريون يقولون الرعية كلها مقلدة للمعصوم عليه السلام، ولا يجوز لهم الرجوع إلى المجتهد بغير حديث صحيح صريح.

٧ - إنهم يوجبون تحصيل الاجتهاد في زمان غيبة الإمام عليه السلام والأخذ عن المعصوم عليه السلام في زمن حضوره، والإخباريون يوجبون الأخذ عنه مطلقاً وإن كان بالواسطة.

٨ - إنهم لا يجوزون لأحد الفتيا ولا سائر الأمور الحسبية إلا مع الاجتهاد، والاخباريون يجوزونها للرواة عن المعصومين عليهم السلام المطلعين على أحكامهم.

٩ - إنهم يقولون: إن المجتهد المطلق عالم بجميع أحكام الدين بالملكة، والاخباريون يقولون: لا عالم بجميع أحكام الله إلا المعصوم عليه السلام.

١٠ - إنهم يشترطون في درجة الاستنباط علوماً شتى أهمها عندهم علم أصول الفقه، والاخباريون لا يشترطون إلا المعرفة باصطلاحات أهل بيت العصمة عليهم السلام مع معرفة كون الخبر غير معارض بمثله، ولا يجوزون الرجوع إلى الأصول المأخوذة عن كتب العامة.

١١ - إنهم يعملون في مقام الترجيح بين الأخبار المتعارضة بكل ما أوجب الظن الاجتهادي، والاخباريون لا يعملون إلا بالمرجحات المنصوصة عن الأئمة عليهم السلام.

١٢ - إنهم يعملون بجميع ظواهر الألفاظ المظنونة الدالة عندهم من الكتاب والسنة، وبالعمومات والإطلاقات المستفادة منهما بحكم المظنة مثل عموم ﴿أوفوا بالعقود﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام». وأمثال ذلك فيجعلونها قواعد كلية يرجعون إليها في موارد الشكوك. والاخباريون لا يعملون إلا بما هو مقطوع الدلالة عندهم من الآيات المحكمة، والأحاديث الصريحة غير المشتبهة حالها وإن كانت من جملة العمومات.

١٣ - إن الغالب منهم يقولون بقاعدة التسامح في أدلة السنن والكراهة والاخباريون لا يفرقون بين الأحكام الخمسة.

١٤ - إن أغلبهم لا يجوزون تقليد الميت، ولكن الاخباريين يجوزونه.

١٥ - إنهم يجوزون الأخذ بظاهر الكتاب، بل يرجحونه على ظاهر الخبر والاخباريون لا يجوزون الأخذ إلا بما ورد تفسيره عنهم عليهم السلام.

١٦ - إنهم يعتقدون بكون المجتهد مثاباً وإن أخطأ، والاخباريون يقولون: بل هو مأثوم مطلقاً إذا حكم في شيء بغير خبر صحيح صريح.

١٧ - إنهم يعملون بأصالة الإباحة أو البراءة فيما لا نص فيه، والاخباريون يأخذون بطريقة الاحتياط.

١٨ - إنهم لا يجوزون أخذ العقائد من القرآن وأخبار الآحاد بخلاف الأحكام الفرعية. والاخباريون يقولون بعكس ذلك.

١٩ ـ إنهم يجوزون الاختلاف في الأحكام الاجتهادية. ولا يخطئون من يقول بخلاف الواقع في المسائل الفرعية، والاخباريون لا يجوزون ذلك ويفسقون من قال بالخلاف، وإن وافق اعتقاده بمقتضى اجتهاده.

٢٠ ـ إنهم لا يجوزون الرجوع إلى غير المعصوم عليه السلام فيما خفي نصه والاخباريون يجوزون طلب الحديث ولو من عامي.

٢١ ـ إنهم لا يجوزون المصير إلى القول الشاذ الذي لا قائل به، وإن كان عليه دليل واضح، والاخباريون يتبعون الدليل دون القائل.

٢٢ ـ إنهم لا يطلقون الثقة إلا على الإمامي العادل الضابط، والأخباريون يكتفون في الوثاقة بالمأمونية من الكذب.

٢٣ ـ إنهم يقولون بوجوب إطاعة المجتهد مثل الإمام عليه السلام، والأخباريون لا يوجبونها.

٢٤ ـ إنهم يرجحون الدليل بأصالة البراءة، بخلاف الأخباريين.

٢٥ ـ إن أكثرهم يجوزون العمل بالإجماع المنقول ولو كان في كلمات المتأخرين من الفقهاء بل ومن غيرهم إذا كان موثقاً. بخلاف الأخباريين.

٢٦ ـ إنهم لا يلتفتون في الإجماع المحقق إلى مخالفة معلوم النسب، والأخباريون لا يفرقون بين معلوم النسب ومجهوله ويقولون بعدم تحقق مثل ذلك فالاتفاق الذي نقطع بدخول قول المعصوم عليه السلام فيه، فلا حجية للإجماع عندهم مطلقاً.

٢٧ ـ إنهم لا يعتقدون بصحة الكتب الأربعة: (الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والاستبصار، والتهذيب) لأن فيها الصحيح والموثق والحسن، والضعيف. بخلاف الأخباريين فإنهم يرون أنّ جميع ما فيها صحيح.

٢٨ ـ إنهم يجوزون العمل بالاستصحاب مطلقاً، والأخباريون لا يجوزونه إلا فيما دلت عليه النصوص.

٢٩ ـ إنهم لا يجوزون تأخير البيان عن وقت الحاجة لقبحه، والأخباريون

بعضهم يجوزه مثل الفاضل الأسترابادي في الفوائد المدنية المطبوع[١].

وكانت هذه الحركة إحدى مظاهر هذا الدور، ولقد أخذت مأخذها عند الفريقين: الأصوليين منهم، والأخباريين بحيث انتقلت إلى دور المناظرات العلمية، والطعن على الفريق الآخر، وكانت حصيلة هذا الصراع الفكري بين الأصوليين والأخباريين مجموعة من التآليف القيمة، والموسوعات الضخمة في الفقه والأصول وغيرهما من جوانب المعرفة المختصة بها جامعة النجف. وكان لها في اتجاه الدرس وتطويره شأن مشهود.

مركز الجامعة في نهاية هذا الدور:

ورغم هذا كله فالجامعة النجفية استمرت في أداء رسالتها، حتى أواخر القرن الحادي عشر للهجرة فقد قلت الهجرة إليها، ووفود الطلاب، وما إن أطل القرن الثاني عشر حتى بدت فيه مظاهر الضمور، ثم ما كادت تمر عليها فترة حتى انتقلت منها إلى كربلاء.

ولو حاولنا أن نتقصى الأسباب التي دعت لهذا الانتقال، فنرى أن بعض المصادر تعزوها إلى سببين خارجيين، وبعض المصادر ترجعها إلى ثلاثة أسباب داخلية، وهي:

الأسباب الخارجية:

أولاً ـ تصادم المملكتين الصفوية، والعثمانية، والصراع الدامي، وخاصة في العراق مما ترك الناس في انكماش شديد عن الهجرة إلى العراق.

ثانياً ـ ضغط الدولة العثمانية على العلماء ورجال الدين بعد استيلائهم على العراق، على العكس مما كان عليه الصفويون من تقدير العلم، واحترام رجاله[٢].

---

(١) دليل القضاء الشرعي ـ للسيد محمد صادق بحر العلوم: ٢٢ ـ ٢٦ ـ ٣ طبع النجف.

(٢) حديث الجامعة النجفية: ٣١.

أما الأسباب الداخلية:

١ ـ ما أصاب النجفيين من الوباء الذي انتشر آنذاك.

٢ ـ ما أصاب النجفيين من الأذى بسبب حادثة المشعشعين[(١)]، وهجومهم على النجف.

٣ ـ انتقال زعيم الحركة العلمية الشيخ أحمد بن فهد الحلي[(٢)] إلى كربلاء[(٣)].

هذه العوامل المتعددة الخارجية منها، والداخلية هي التي سببت انتقال المركز العلمي إلى كربلاء، ورغم هذا كله فإن النجف لم تعدم فيها الحركة العلمية، وإنما بقيت تواكب حركتها رغم أن الزعامة العلمية قد انتقلت إلى كربلاء.

---

(١) جاء في كتاب (العرب والعراق ـ للشيخ علي الشرقي: ١٤٣ طبع بغداد) ما يلي: «في سنة ٨٥٨هـ، اعتزم المولى علي بن محمد المشعشع على تدويخ العراق وانتزاعه من يد المغول فهاجم واسطاً وقاومه أهلها ثم احتلوها» وبعد أن تم له ذلك رحل إلى الحلة حيث قتل رجالها، وأحرق المدينة، ونقل أموالها إلى البصرة ثم رحل إلى المشهد الغروي والحائري. تقول الرواية: ففتحوا له الأبواب ودخل فأخذ ما تبقى من القناديل والسيوف، ورونق المشاهد جميعها من الطوس والأعقاب الفضية والستور والزوالي، وغير ذلك، ودخل بالفرس إلى داخل الضريح وأمر بكسر الصندوق وإحراقه فكسر، وأحرق وقتل أهل المشهدين من السادات وغيرهم ببيوتهم. عن تاريخ الغياثي.
ونقل ابن شدقم في تحفة الأزهار: ١١٥ ـ ٣ «بأن المولى علياً كان غالي المذهب سافر إلى العراق وأحرق الحجر الدائر على قبة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وجعل القبة مطبخاً للطعام إلى مضي ستة أشهر».
وللسيد شبر حديث طويل في رد هذا الادعاء راجع:
(تاريخ الشعشعين: ٥٣ ـ ٥٧ طبع النجف).

(٢) أحمد بن محمد بن فهد الحلي الأسدي أبو العباس: الزاهد العالم العابد الصالح الورع صاحب المقامات العالية، والمصنفات الفائقة، يروي عن المقداد السيوري، والشيخ علي بن الخازن الفقيه وغيرهما، ولد سنة ٧٥٧، وتوفي عام ٨٤١ ودفن في جوار أبي عبدالله الحسين بكربلاء قرب خيمكاه، ومزاره معروف.
(الكنى والألقاب: ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ـ ١).

(٣) الدراسة في النجف: مجلة البيان: س٢ ص٧٣٢.

من النجف إلى كربلاء:

وكيفما كانت الأسباب والدواعي في نقل الحركة العلمية إلى كربلاء من عام ١١٥٠هـ إلى ١٢١٢هـ فقد كانت الحركة العلمية فيها قد نضجت، وقد تجلى هذا النضج والتعميق في مدرسة الأستاذ الوحيد البهبهاني[1] الأصولية وكذلك برز في نتاج العلامة الشيخ يوسف البحراني[2] الفقهي، والذي ظهر في كتابه الحدائق الذي يقع في عدة مجلدات وطبع عدة طبعات.

غير أن مدرسة الوحيد البهبهاني قد «افتتحت عصراً جديداً في تاريخ العلم، والتي أكسبت الفكر العلمي في العصر الثاني الاستعداد للانتقال إلى عصر ثالث»[3].

وعاشت المدرسة قرابة السبعين عاماً وهي تكاد تفتح آفاقاً جديدة في الكيان العلمي الكربلائي، كان له صدى حافل بالإكبار والتقدير.

ومن الجدير أن نستمع إلى مصدر يحدثنا عن أثر هذه المدرسة العلمية ومدى ما نالته من اتساع في القابليات الفكرية الرائعة، يقول المصدر:

«وقد قدر للاتجاه الأخباري في القرن الثاني عشر أن يتخذ من كربلاء نقطة ارتكاز له، وبهذا عاصر ولادة مدرسة جديدة في الفقه والأصول، نشأت في كربلاء أيضاً على يد رائدها المجدد الكبير محمد باقر البهبهاني المتوفى سنة

---

(١) المولى محمد باقر بن محمد أكمل الأصبهاني البهبهاني، ولد سنة ١١١٨هـ، في أصفهان، وقطن برهة في بهبهان، ثم انتقل إلى كربلاء، ونشر العلم هناك. صنف ما يقرب من ستين كتاباً، وكان رئيس الحركة العلمية في كربلاء في وقته توفي سنة ١٢٠٨هـ، ودفن في الرواق الحسيني.
(روضات الجنات: ١٢٤ ـ ١٢٥).

(٢) يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صالح بن أحمد بن عصفور البحراني وصفته المصادر: بالعالم، الفاضل، المتبحر، الماهر، المتتبع، المحدث، الورع، العابد من أجلة المشايخ المعاصرين ولد في قرية الدراز إحدى قرى البحرين سنة ١١٠٧هـ، ثم انتقل إلى كرمان ثم في شيراز وبعدها انتقل إلى العتبات المقدسة، حيث حط رحاله في كربلاء مدرساً وعالماً حتى توفي فيها عام ١١٨٧هـ ودفن في الحائر الحسيني قريباً من الشهداء.
(روضات الجنات: ٧٤١ ـ ٧٤٢).

(٣) المعالم الجديدة: ٨٤ ـ ٨٥.

١٢٠٦هـ، وقد نصبت هذه المدرسة الجديدة نفسها لمقاومة الحركة الأخبارية، وتأييد علم الأصول، حتى تضاءل الاتجاه الاخباري، وقد قامت هذه المدرسة إلى دعم ذلك بتنمية الفكر العلمي، والارتفاع بعلم الأصول إلى مستوى أعلى، حتى أن بالإمكان القول بأن ظهور هذه المدرسة وجهودها المتضافرة التي بذلها البهبهاني وتلامذة مدرسته المحققون الكبار قد كان حداً فاصلاً بين عصرين من تاريخ الفكر العلمي في الفقه والأصول.

وقد يكون هذا الدور الإيجابي الذي قامت به هذه المدرسة فافتتحت بذلك عصراً جديداً في تاريخ العلم متأثراً بعدة عوامل:

١ ـ عامل رد الفعل الذي أوجدته الحركة الاخبارية، وبخاصة حين جمعها مكان واحد ككربلاء بالحوزة الأصولية، الأمر الذي يؤدي بطبيعته إلى شدة الاحتكاك وتضاعف رد الفعل.

٢ ـ إن الحاجة إلى وضع موسوعات جديدة في الحديث كانت قد أشبعت ولم يبق بعد وضع الوسائل، والوافي، والبحار[1] إلا أن يواصل العلم نشاطه الفكري مستفيداً من تلك الموسوعات في عمليات الاستنباط.

٣ ـ إن الاتجاه الفلسفي في التفكير الذي كان السيد حسين الخوانساري المتوفى ١٠٩٨هـ قد وضع إحدى بذوره الأساسية زود الفكر العلمي بطاقة جديدة للنمو، وفتح مجالاً جديداً للإبداع، وكانت مدرسة البهبهاني هي الوارثة لهذا الاتجاه.

٤ ـ عامل المكان: فإن مدرسة الوحيد البهبهاني، نشأت على مقربة من المركز الرئيسي للحوزة ـ وهو النجف ـ فكان قربها المكاني هذا من المركز سبباً لاستمرارها ومواصلة وجودها عبر طبقات متعاقبة من الأساتذة والتلامذة، الأمر الذي جعل بإمكانها أن تضاعف خبرتها باستمرار، وتضيف خبرة طبقة من رجالاتها إلى خبرة الطبقة التي سبقتها، حتى استطاعت أن تقفز بالعلم قفزة كبيرة وتعطيه ملامح عصر جديد. وبهذا كانت مدرسة البهبهاني تمتاز عن المدارس

(١) هذه الكتب الثلاثة طبعت في إيران.

العديدة التي كانت تقوم هنا وهناك بعيداً عن المركز وتتلاشى بموت رائدها»[١].

أما بصدد الكشف عن حصيلة هذه الفترة العلمية في كربلاء فيكفي أن نشير إلى:

١ ـ كتاب الحدائق ـ للمرحوم الشيخ يوسف البحراني وقد وقع الكتاب في عدة مجلدات، وتحدثت عنه المصادر المختصة بأنه كتاب جليل لم يصنف مثله جمع فيه جميع الأقوال والأخبار الواردة عن الأئمة الأطهار، إلا أنه طاب ثراه لميله إلى الاخبارية كان قليل التعلق بالاستدلال بالأدلة الأصولية التي هي أمهات الأحكام الفقهية، وعمد الأدلة الشرعية[٢].

٢ ـ كتاب الرياض ـ للسيد علي بن محمد الطباطبائي[٣]، وقد وصف بأنه «في غاية الجودة جداً بحيث لم يسبق له مثيل، ذكر فيه جميع ما وصل إليه من الأدلة والأقوال على نهج عسر على من سواه بل استحال[٤].

٣ ـ كتاب الفصول ـ للشيخ محمد حسين بن عبدالرحيم الحائري[٥]، وقد وصفه الخوانساري بقوله: وكتابه هذا من أحسن ما كتب في أصول الفقه وأجمعها للتحقيق والتدقيق وأشملها لكل فكر عميق، وقد تداولته جميع أيدي الطلبة في هذا الزمان وتقبلته القبول الحسن في جميع البلدان[٦].

---

(١) المعالم الجديدة: ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) رجال المامقاني: ٣٣٤ ـ ٣.

(٣) علي بن محمد بن أبي المعالي الصغير بن أبي المعالي الكبير الطباطبائي الحائري ابن أخت العلامة الوحيد البهبهاني، تلمذ عليه وتربى في حجره، ولد في الكاظمية سنة ١١٦١هـ. صنف كتباً عديدة في الفقه، ومع هذا فقد اشتهر في الأصول. وتوفي في حدود ١٢٣١هـ ودفن بالرواق الحسيني بكربلاء.
(روضات الجنات: ٤٠٠).

(٤) رجال المامقاني: ٣٠٧ ـ ٢.

(٥) الشيخ محمد حسين بن عبدالرحيم الطهراني الرازي الفاضل المدقق المتوحد في عصره. توفي بأرض الحائر بعد سنين من توطنه فيها وتدريسه الفقه والأصول فيها وإقامة الجماعة فوق الرأس من الحضرة المتعالية سنين متوالية حدود سنة ١٢٦١هـ. له عدة مؤلفات. في الفقه والأصول.
(مختصر من روضات الجنات: ١٣٢).

(٦) روضات الجنات: ١٣٢.

ولسنا بصدد أن نحصي حصيلة هذه الفترة لندل القارىء على مدى القابلية العلمية التي تمتع بها قادة الفكر والعلم في كربلاء ضمن هذه الفترة، إنما نرسم له ملامح هذه الفترة من خلال النتاج المبرز فيها. ويكفي أن نرى أن للوحيد البهبهاني، وهو أستاذ هذه الفترة ورائدها ما يقرب من ستين كتاباً في الفقه والأصول، والعقائد، والرجال[1].

(١) الكنى والألقاب: ٩٩ ـ ٢.

الدور الثالث للجامعة النجفية[1]

ويمكن أن نطلق على هذا الدور «عصر الكمال العلمي» وهو العصر الذي افتتحته في تأريخ العلم، المدرسة الجديدة التي ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر، على يد الأستاذ الوحيد البهبهاني، وبدأت تبني للعلم عصره الثالث بما قدمته من جهود متظافرة، في الميدانين الأصولي، والفقهي.

وقد تمثلت تلك الجهود في أفكار وبحوث رائد المدرسة، الأستاذ الوحيد وأقطاب مدرسته الذين واصلوا عمل الرائد حوالي نصف قرن، حتى استكمل العصر الثالث خصائصه العامة، ووصل إلى القمّة[2].

وعادت النجف إلى ميدانها العلمي، كمركز أول ـ من بعد هذه الفترة ـ للحركة العلمية التي تمثل مدرسة الوحيد البهبهاني، على يد تلميذه السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي، بعد أن عاشت زماناً وهي تتفاعل بتأثيرات المدرسة الفكرية في كربلاء.

ولنا أن نسمي هذا العصر، بعصر النهضة العلمية، لكثرة من نبغ فيه من الفحول الكبار والعلماء، ولكثرة تهافت الناس على العلم فيه، وازدياد الطلاب[3].

ولعل من أهم الخطوات التي امتاز بها هذا العصر، وعلى يد زعيم الجامعة

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة/ ٧/ قسم النجف من ص ٧٨ ـ ٩٠ الدكتور السيد محمد بحر العلوم.

(٢) المعالم الجديدة: ٨٨.

(٣) جامعة النجف ـ مجلة المجمع العلمي: ٢٩٦ ـ م١١.

النجفية السيد بحر العلوم تنظيمه للقضايا والمشاكل التي تقتضيها طبيعة المجتمع، كما يقتضيها سير الزعامة الدينية في النجف.

فمثلاً ركز الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨هـ للتقليد والفتوى حتى قيل: إنه أجاز لأهله وذويه الرجوع في التقليد للشيخ جعفر الكبير تمشياً مع التنظيم والتركيز.

كما عين الشيخ حسين نجف المتوفى سنة ١٢٥١هـ للإمامة والمحراب، فكان يقيم الجماعة في «الجامع الهندي» ويؤمه الناس ـ على اختلاف طبقاتهم ـ بإرشاد من السيد بحر العلوم.

أما في القضاء والخصومات، فقد خص لها الشيخ شريف محيي الدين فكان يرشد إليه في ذلك، علماً منه بمهارته في القضاء، وتثبته في الدين، وسعة صدره لتلقي الدعاوى والمخاصمات.

واضطلع هو ـ بأعباء التدريس، والزعامة الكبرى، وإدارة شؤونها العامة والخاصة[1].

وكان هذا التقسيم منه لإدارة شؤون النجف العامة يدل على وعي كبير في الذهنية القيادية الدينية، والتي تبرز عصره بطابع يختلف عن العصور السابقة من حيث النضج والوعي.

وكانت مظاهر هذا الدور بارزة جلية في مجالي الفقه والأصول إلى جانب بقية العلوم التي دللت النجف على اختصاصها بها. بالإضافة إلى الطابع الأدبي.

ففي حقل الفقه: نرى أنه تطور في هذا الدور تطوراً محسوساً لما دخله من عنصري البحث والنقد، ولما تحلى به من قابلية النقض والإبرام، والتعمق والتحليل، وخاصة في ملاحظة الروايات من حيث السند والدلالة، والفحص عن مدى وثوقها عند الماضين من العلماء والأعلام، وعرض المسائل الفقهية حسب الأدلة الاجتهادية والفقهية.

---

(١) رجال السيد بحر العلوم ٤١ ـ ٤٢.

فالتجربة العلمية التي عاشتها جامعة النجف في دورها الثالث في حقل الفقه كان لها الأثر الكبير في إبراز عطاء ناضج يدل على سعة في الأفق، ووفرة في الاطلاع، ولذا وصف «بدور التكامل والنضج».

أما في حقل الأصول: فقد يكون من الواقع أن يطلق على هذا الدور «دور الكمال العلمي» فإن المرحلة الجديدة التي دخلها علم الأصول كان «نتيجة أفكار» وبحوث رائد المدرسة الأستاذ الوحيد البهبهاني، وأقطاب مدرسته الذين واصلوا عمل الرائد حوالي نصف قرن حتى استكمل العصر الثالث خصائصه العامة ووصل إلى القمة[١]».

وما إن بلغ العهد بالمحقق الأنصاري الشيخ مرتضى، حتى اعتبر رائداً لأرقى مرحلة من مراحل الدور الثالث التي يتمثل فيها الفكر العلمي منذ أكثر من مئة سنة حتى اليوم[٢].

وعندما أطل القرن الرابع عشر الهجري لمع اسم المجدد الشيخ ملا محمد كاظم الخراساني الذي فتح آفاقاً جديدة للعلم، وقدر له ولمن خلفه كالميرزا حسين النائيني، والشيخ محمد حسين الأصفهاني، والشيخ آقا ضياء العراقي وغيرهم من أقطاب هذه المدرسة أن يرتفعوا إلى القمة العلمية، والتي خلفت تراثاً ضخماً تستنير به الأجيال.

وإلى جانب هذين العلمين الرئيسيين فقد قدمت الجامعة النجفية عطاءً ثراً في مختلف العلوم سواء أكان لها مساس في علومنا الفقهية والأصولية أو لها صلة بطبيعة النجف الأدبية.

ولقد سبب ازدهار الجامعة النجفية إلى كثرة المدارس الدينية في هذا الدور، والتي نصطلح عليها في عصرنا الحديث بالأقسام الداخلية لطلاب العلوم بالإضافة إلى كونها مقرات للتدريس والبحث.

وتكاثر المدارس يدل على ازدياد الهجرة إلى طلب العلم، وخاصة من

---

(١) المعالم الجديدة: ٨٨.

(٢) المعالم الجديدة: ٨٩.

البلاد النائية. ونتيجة لهذا التوسع في تكاثر الهجرة إلى النجف اتسعت الأقسام الداخلية لتضم الطلاب المتغربين عن بلادهم، وتحافظ عليهم، وتهيىء لهم المأوى والرواتب، والمجال الأوسع في حياتهم الدراسية[١].

ورغم تعرض النجف لهزات قوية وعنيفة في دورها الأخير سواءً الخارجية منها أو الداخلية، أضف إليها الظروف الخاصة التي أظهرت قادة النجف من العلماء الأعلام بالموقف القيادي للزعامة السياسية والدينية، ومن أجل مظاهر تلكم المواقف المشهورة ثورة العشرين، ظلت سياسة البلد تدار من قبل رجال العلم ومجتهدي النجف وعلمائها بزعامة الإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي.

وتاريخ العراق السياسي يذكر هذه الحقيقة بكل إكبار، ويؤكد على أن القيادة السياسية العامة كانت تلقي عصا ترحالها بيد أهل العلم بين آونة وأخرى، وكما هو الآن ـ من موقف الإمام السيد محسن الحكيم.

وكانت هذه الهزات التي مرت الإشارة إليها عاملاً في تقليص نفوذ الجامعة أو امتداد زعامتها تبعاً للتيارات السياسية.

وثمة عامل آخر كان له أثر في تقليص نفوذ هذا المركز العلمي، وهو انتقال المرجعية من النجف في بعض الأحيان، وفي فترات وجيزة، وتنقلها بين كربلاء، والكاظمية، وقم، وغيرها.

ولكن رغم هذه الفترات القصار التي كانت تتناوب بين النجف، والمدن الأخرى وتنقل عنها المرجعية العامة في عهد قصير، وعلى فترات متباعدة ظل هذا المعهد محافظاً على طابعه العلمي، لا يتخلله ضعف أو وهن، فقد أدى رسالته العلمية على الوجه الأكمل.

ولقد قدر عدد المهاجرين وطلاب العلم في هذه الجامعة في دورها الأخير بحوالي خمسة آلاف طالب من مختلف الأقطار الإسلامية: كالهند، وباكستان، وإيران وأفغانستان، وتركيا والتبت، وبعض الدول الإفريقية، ولبنان، وسوريا، والأحساء والخليج، وغيرها من الأقطار الإسلامية.

---

(١) جامعة النجف ـ مجلة المجمع العلمي العراقي: ٢٩٦ ـ م١١.

والدراسة في الجامعة النجفية مجانية من حين تأسيسها حتى يومنا هذا، وبالإضافة إلى ذلك تقوم (المرجعية الدينية العامة) وهي التي تمثل المرجع الأعلى للشيعة بتعيين رواتب شهرية لطلاب العلوم على اختلاف طبقاتهم، وتخص المهاجرين منهم بزيادة نظراً لعدم وجود أي مورد آخر لهم في هذا البلد.

وتعتمد في مواردها المالية على الحقوق الشرعية من الأموال التي يدفعها المؤمنون من مختلف الأقطار، وعلى بعض التبرعات من المحسنين، وليس لهذه الجهات الدينية أي مورد حكومي، ولا علاقة لها بالحكومات على اختلافها في شؤونها الخاصة والعامة، مادية أو غيرها.

معالم النهضة العلمية لهذا الدور:

أما بالنسبة لإبراز معالم النهضة العلمية لهذا الدور فيمكن تقسيم نتاجها إلى عدة مراتب، حسب التسلسل الزمني للمؤلفين ـ مع غض النظر عن اعتباراتهم العلمية.

ولقد حصل هذا الدور على مجموعة نفيسة في مختلف العلوم ولكننا تبعاً لاختصاصنا في هذا البحث بالفقه والأصول، فسنقصر عليهما بحثنا.

المرتبة الأولى:

وتكاد تكون حافلة بالنتاج الفقهي، وأهم هذه الحصيلة العلمية هي:

١ ـ كتاب (المصابيح) للسيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي المتوفى ١٢١٢هـ، وهو ما زال مخطوطاً ويقع في ثلاث مجلدات.

٢ ـ كتاب (مفتاح الكرامة) للسيد محمد جواد ابن السيد محمد الحسيني العاملي النجفي المتوفى سنة ١٢٢٦هـ، طبع بمصر ودمشق، يقع في ثماني مجلدات.

٣ ـ كتاب (كشف الغطاء) للشيخ جعفر ابن الشيخ خضر الجناجي المعروف بكاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨هـ، مطبوع بإيران في مجلد واحد.

٤ ـ كتاب (مقابس الأنوار) للشيخ أسد الله التستري المتوفى سنة ١٢٣٤هـ طبع بإيران في مجلد واحد.

٥ ـ كتاب (مستند الأحكام) للمولى أحمد بن المولى محمد مهدي النراقي الكاشاني المتوفى سنة ١٢٤٥هـ، طبع بإيران في مجلدين.

المرتبة الثانية:

١ ـ كتاب (جواهر الكلام) الشيخ محمد حسن ابن الشيخ محمد باقر النجفي، المعروف بصاحب الجواهر، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ، وهو كتاب فقه استدلالي، طبع عدة مرات في ست مجلدات.

٢ ـ كتاب (المكاسب) في الفقه ـ للشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١هـ، طبع بإيران في مجلد واحد.

٣ ـ كتاب (الرسائل) في الأصول ـ للشيخ مرتضى الأنصاري طبع بإيران في مجلد واحد.

٤ ـ كتاب (البرهان القاطع) في الفقه للسيد علي ابن السيد رضا بحر العلوم المتوفى سنة ١٢٩٨هـ، طبع بإيران في ثلاث مجلدات.

المرتبة الثالثة:

١ ـ كتاب (هداية الأنام) في الفقه للشيخ محمد حسين الكاظمي النجفي المتوفى سنة ١٣٠٨هـ طبع منه في النجف ثلاث مجلدات، وأصله في سبع وعشرين مجلداً شرح فيها كتاب (شرائع الإسلام) للمحقق الحلي.

٢ ـ كتاب (مصباح الفقيه) للشيخ آغا رضا بن محمد هادي الهمداني المتوفى سنة ١٣٢٢هـ طبع في ثلاث مجلدات جزآن في النجف، والثالث في إيران.

٣ ـ كتاب (حاشية على رسائل الأنصاري) في الأصول ـ للشيخ آغا رضا الهمداني، طبع في إيران في مجلد واحد.

٤ ـ كتاب (بلغة الفقيه) في الفقه ـ للسيد محمد ابن السيد محمد تقي ابن السيد رضا بحر العلوم، المتوفى سنة ١٣٢٦هـ، طبع عدة طبعات في إيران في مجلد واحد.

٥ ـ كتاب (كفاية الأصول) في الأصول ـ للشيخ محمد كاظم الخراساني المتوفى سنة ١٣٣١هـ، طبع عدة طبعات في النجف وبغداد وإيران يقع في جزأين.

٦ ـ كتاب (العروة الوثقى) وملحقاتها للمرحوم السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي المتوفى سنة ١٣٣٧هـ، طبع عدة طبعات. في بغداد، والنجف، وإيران.

المرتبة الرابعة:

ولقد تجلى نتاج هذا الدور في حقلي الفقه والأصول بالشروح الكثيرة لكتابي «العروة الوثقى» في الفقه، و«كفاية الأصول» في أصول الفقه.

ففي الفقه: أصبحت «العروة الوثقى» مصدراً للبحوث والتعليقات فيما بعد وحتى عصرنا الحاضر. وقد سجلت المصادر ما يزيد على العشرين شرحاً لهذا الكتاب.

وهذا الكتاب صار المحور للدراسة الخارجية (البحث الخارج) من حين ظهوره. وفي طليعة هذه الحصيلة من شروح هذا الكتاب (مستمسك العروة الوثقى) للإمام السيد محسن الحكيم، وقد طبع من هذا الكتاب حتى الآن اثنا عشر مجلداً، ويعتبر الكتاب الشرح الأول للعروة. وللبحث الخارج الذي يدور عليه التدريس اليوم.

أما بالنسبة للأصول، فقد أصبحت «كفاية الأصول» هي القاعدة والأساس لبحوث الباحثين والمدرسين، ولعل في مقدمة النتاج العلمي، والذي هو في مقام الشرح والتعليق بحوث الميرزا حسين النائيني الأصولية والذي خلف تراثاً ضخماً في بحوث أصولية مركزة على أقلام تلامذته والذين عليهم مدار الهيئة العلمية في

الجامعة النجفية حتى الآن، أمثال الإمـامين السيد أبي القـاسم الخوئي، والشيـخ حسين الحلي، وغيرهما من أقطاب هذه المدرسة الفكرية العلمية[١].

وقد استعرض صاحب كتاب (أدوار علم الفقه وأطواره)[٢] هـذا الدور وذكـر ثلّةً كبيرةً من رجال العلم الذين انتهت إليهم الرئاسة الدينية في النجف، وغيـرهم من سـائر العلمـاء والشخصيات الـدينية، وذلـك بعد ازدهـار الحركـة العلميـة في كربلاء، ثم انتقالها إلى النجف.

---

(١) انتهى ما ورد في موسوعة العتبات: الدكتور بحر العلوم.
(٢) ص ٢٥٦ إلى ٢٦٨ الشيخ علي كاشف الغطاء.

انتقال الحركة العلمية
من كربلاء إلى النجف

وفي هذا الدور، ازدهرت كربلاء بالفقهاء النوابغ، ذوي المكانة السامية، والمقام الكريم.

منهم الشيخ يوسف، صاحب الحدائق. والآغا محمد باقر البهبهاني، المتوفى سنة ١٢٠٨هـ، والسيد علي صاحب الرياض، المتوفى سنة ١٢٣٢هـ والسيد إبراهيم القزويني، صاحب الضوابط. والسيد محمد المجاهد ابن صاحب الرياض، المتوفى سنة ١٢٤٢هـ. وشريف العلماء، المتوفى بالطاعون سنة ١٢٤٥هـ. والشيخ محمد حسين الأصفهاني المتوفى سنة ١٢٥٥هـ.

الحركة العلمية في النجف الأشرف:

وبعد هذا، ازدهرت النجف الأشرف بفطاحل الفحول، كالسيد مهدي الطباطبائي بحر العلوم، المتوفى سنة ١٢١٢هـ، صاحب المصابيح، وغيرها. وما زلنا نتوسل به إلى الله تعالى في قضاء حوائجنا، وتيسير أمورنا، ولا يسع هذا المختصر عد فضائله وشرح مواقفه.

وجدنا، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، المتوفى سنة ١٢٢٨هـ. صاحب كشف الغطاء. والشيخ حسين نجف، وغيرهم، من فطاحل العلماء، كالشيخ محمد يونس، والشيخ محمد محيي الدين وغيرهم.

وكان المرحوم السيد مهدي يصلي في مسجد الطوسي، والشيخ جعفر في مسجد الهندي، والشيخ حسين في داره. وقد يصلي في الحرم، ولم تكن الصلاة في الصحن الشريف معروفةً قبل هذا.

ثم سافر الشيخ جعفر للحج، وجعل الشيخ حسين يصلي في مكانه.

موقفُ آل كاشف الغطاء من الحركة العلمية في النجف الأشرف

إنه لما رجع الشيخ جعفر ـ جدُّ أسرة آل كاشف الغطاء ـ من الحج، أجمع العلماء على أن يجعلوا أمر التدريس للسيد مهدي رحمه الله، وأمر الفتوىٰ والتقليد، للشيخ جعفر، حتى أن المرحوم السيد مهدي أمر أهله بتقليد الشيخ جعفر.

وأمرُ صلاة الجماعة، للشيخ حسين نجف، فلم يكن سواه إماماً في النجف الأشرف. وكانت العلماء تقتدي به، حتى السيد مهدي. والشيخ جعفر، يصليان خلفه أغلب الأوقات، ولم يبق للسيد مهدي رحمه الله إلا أياماً قليلةً، حتى انتقل إلى جوار ربه. وأصبح التدريس منحصراً بالشيخ جعفر، حتىٰ ذكر المؤرخون أنه كان تحت منبره من المجتهدين ما لا يحصىٰ عدده فضلاً عن المراهقين للاجتهاد.

وقد قام الشيخ جعفر رحمه الله على تمصير النجف، فبنى لها سوراً، وأسكن بها جملة صالحة من بيوت العرب والعجم لدرس العلوم الدينية فيها. وتولى الزعامة الدينية، وأصبحت له المرجعية العامة في التقليد، وبلغ من حرصِهِ على تقدم الثقافةِ ونموّها أن استدعىٰ جملةً من المهرة في سائر العلوم للنجف، وتصدى لصد هجمات الأعراب عليها، والتزم بإعاشة الطلاب فيها، حتى اشترى لهم الدور والمساكن، وبذل لهم حتى مصارف الأعراس فضلاً عن اللوازم والضرورات.

الشيخ موسى كاشف الغطاء:

ثم تولاها من بعده ولده الأكبر الشيخ موسى، المتوفى سنة ١٢٤١هـ فكانت له المرجعية العامة للشيعة، وكان الأمر مردداً بينه وبين الميرزا القمي رحمه الله وقد سأله الفضلاء عن الشيخ موسى، عندما قصد الحج عن طريق النجف، في سنة وفاة الشيخ جعفر رحمه الله فقال: لا عِلْمَ لي به، ولكن أكتب لكم ثلاث مسائل، فإن أجابني نظرتُ في جوابه، وميّزت مقدار علمه، فكتب المسائل،

وبعثها إلى الشيخ موسى، وكان قبل الغروب. وقال للفضلاء: أمهلوه عشرة أيام، فجاؤوا بها للشيخ موسى وهو مشغول بالوضوء لصلاة الغروب، فقال الشيخ موسى:

إني مشغول بأمور مهمة وقد أقلقت فكري والوقت ضيق فقالوا له: إنه يمهلك عشرة أيام فقال رحمه الله: قفوا فخذوا ما تيسر على العجلة ونادى أخاه الشيخ علي وأخذ هو يملي عليه والشيخ علي يكتب فما أتم وضوءه إلا وأتم الجواب عنها.

فجاؤوا بها للقمي رحمه الله وهو بعد لم يقم من مقامه، فتعجب غاية العجب، وقال: هذا لا يكون إلا للقادر القدير، فأمهلوني أراجع جوابه، وأعطيكم بكرة رأيي فيه. فلما بكّروا عليه قال لهم: اسألوا الشيخ موسى عن اجتهادي، فقد شككني علمه ـ حفظه الله ـ في أمري، ولا أرىٰ أن أُقلّدَ مع وجود مثله، فعند ذلك قلّده الجميع.

ونقل لي الثقة العلامة، الشيخ جعفر آل شيخ راضي، عن الشيخ العلامة الشيخ مجتبى اللنكراني، أن صاحب القوانين حضر عند الشيخ موسى في الدرس، ولما عرضت القوانين عليه قال: هذه بضاعتنا رُدّت إلينا.

وقد أصلح بين الدولتين الإيرانية والعثمانية حقناً لدماء المسلمين. وقد تلمذ على يده من العلماء ما لا يحصى عَدّه، كشريف العلماء، والشيخ الأنصاري.

الشيخ علي كاشف الغطاء:

ثم جاء من بعده أخوه، الشيخ علي، المتوفى سنة ١٢٥٤هـ. الولد الثالث للشيخ كاشف الغطاء، فصارت له المرجعية باجتماع العلماء في مسجد الهندي، كالشيخ خضر شلال، والشيخ محسن خنفر، وأمثالهم، على تعيينه للمرجعية العامة، وتقليده، وجعلت العلماء تحضر درسه، وينشر عليهم من العلوم ما لم يعهد مثله، حتى سمي بالمحقق الثالث.

ومن تلاميذه المعروفين: الشيخ مرتضى الأنصاري، وشريف العلماء، والسيد إبراهيم صاحب الضوابط، والسيد مهدي القزويني، ومير فتاح صاحب

العناوين، وغيرهم من العلماء الأساطين.

وعن النراقي أن درس الشيخ علي كان مشتملاً على ثمانمائة تلميذ كلهم ما بين مجتهد ومراهق.

الشيخ حسن كاشف الغطاء:

ثم جاء من بعده أخوهما الشيخ حسن المتوفى سنة ١٢٦٢هـ الولد الرابع للشيخ كاشف الغطاء صاحب أنوار الفقاهة.

سؤال المفتي الألوسي للشيخ حسن:

ومن عظمة فضله أن المفتي الألوسي ـ صاحب التفسير ـ سأله في محضر جماعة من العلماء، عن وجود نص في الكتاب على النهي عن تخلف الناس عن خلافة الأمير عليه السلام.

فأجابه المرحوم الشيخ حسن: (نعم). فتعجب الحاضرون! فقال المفتي: فأتِ به.

فقرأ الشيخ حسن آية المباهلة، فقال المفتي: وما الدلالة فيها؟ قال الشيخ حسن: أسألك ما المراد بأنفسنا قال المفتي: المراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام. قال الشيخ حسن: قال الله تعالىٰ: **﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم أن يتخلّفوا عن رسول الله ولا يرغبُوا بأنفسهم عن نفسِه﴾**. وأراد الله بلفظ **﴿نفسه﴾** هو علي عليه السلام لا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإلا لقال: (عنه). فإنه أوجز وأبلغ وأصرح. وعليه فيكون أهل المدينة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد فعلوا ما نهوا عنه، وهو التخلّف عن نفس الرسول والرغبة عنها.

وينقل عن الشيخ محسن خنفر أنه كان يقول: ليس أحد في المتقدمين والمتأخرين أفضل من الشيخ حسن ابن الشيخ جعفر.

وقد قام أحسن القيام بشؤون الحوزة العلمية، وشؤون الشيعة الاثني عشرية سنة ١٢٥٣هـ. فإنه قد رفع القتل عن أهل النجف الذي أراده الوزير نجيب

باشا، عندما كان والياً على العراق، بعد عزل الوالي علي باشا، فإنه بعد أن ذبح أهالي كربلاء شر مذبحةٍ في ذي الحجة سنة ١٢٥٨هـ، وقصد النجف، فهرع الناس للشيخ حسن عندما سمعوا ذلك، واجتمع عنده العلماء، وأشراف البلد، فأرسل الشيخ حسن رسالة بيد السيد جواد شبر لنجيب باشا يدعوه للضيافة عنده، فحملها له، وأعطاه إياها في مسجد الكوفة، فلبّى الدعوة ونزل ضيفاً عند الشيخ حسن. وكان بمعيته الشيخ وادي شيخ زبيد، والملاّ على الحضي. إلى غير ذلك من مواقفه الكريمة التي لا تحصيها الصفحات الكثيرة.

وقد كان من تلاميذ الشيخ حسن رحمه الله الذين صارت لهم المرجعية العامة، السيد حسن الشيرازي.

ثم قام من بعده الشيخ محمد ابن أخيه الشيخ علي كاشف الغطاء، المتوفى سنة ١٢٦٨هـ. بأعباء الزعامة الدينية والمرجعية في التقليد، قال صاحب نقد الرجال الشيخ عبد الرحيم: إن الشيخ محمد من المجتهدين المعروفين، والعلماء المبرزين وحوزة درسه مملوءة من الفضلاء والعلماء والطلبة.

وقال المرحوم صاحب العبقات: إن الشيخ محمد ألقيت إليه مقاليد الرياسة وهو يتولى مفاتيح الحرم الحيدري.

السيد رضا الرفيعي:

ثم أناب السيد رضا الرفيعي منابه، ثم جعله مكانه، وهو الذي انحلت به فتنة الزقرت والشمرت، وأنزلهم من رباياهم المسماة بالصناكر في النجف الأشرف، وأخذ العهد من رؤسائهم على عدم العود إلى تقاتلهم، وتناكرهم، وأحلفهم على ذلك بالقرآن الشريف عند رأس أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم من بعد وفاة الشيخ الأنصاري رحمه الله، سنة ١٢٨١هـ. قام بأعباء الزعامة الدينية والمرجعية في التقليد، الشيخ مهدي كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٨٨هـ. أخو الشيخ محمد المذكور، وقد قلّده حتى أهالي آذربيجان، وقرباع، وطبعت رسالته العملية في تبريز، بأمر السلطان، مظفر الدين شاه، يوم كان فيها والياً للعهد، وكان المرحوم الشيخ الأنصاري يعتمد على الشيخ مهدي، وينشر

ذكره، ويعلن اجتهاده، فأخذ يعلو، ويسمو، حتى أصبحت له المرجعية العامة بعد الأنصاري، وقد شيد مدرسة لطلاب العلوم الدينية في النجف الأشرف، كانت محبساً لملا يوسف، وبنى مدرسة جده الشيخ جعفر كاشف الغطاء في النجف الأشرف أيضاً، وبنى مدرسة لأهل العلم في كربلاء.

ثم قام من بعده أخوه الشيخ عباس، وله مواقف جليلة، ذكرها المؤرخون. ثم قام من بعده الشيخ عباس، نجل الشيخ حسن، صاحب المؤلفات الكثيرة، والمواقف العظيمة. ثم من بعده الشيخ علي وولداه الشيخ أحمد، والشيخ محمد حسين، وجدُّنا الشيخ هادي، وأبونا الشيخ محمد رضا، لهم آثار قيّمة، وأعمال عظيمة، سجلها لهم التأريخ بأحرف من نور.

ومن علماء هذا الدور، صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦هـ وكان للشريعة حارساً، وعلماً، ومرجعاً منفرداً.

ومن علماء هذا الدور، الشيخ الجليل الشيخ راضي المتوفى سنة ١٢٨٨هـ. ابن بنت المرحوم الشيخ الكبير، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، وابن عمه. ومن تلاميذه الشيخ جعفر الواعظ المشتهر بالتستري، وله المقام العظيم في نفوس رجال الدين، وحضر مجلس درسه العلماء المبرزون.

ومن علماء هذا الدور، السيد الكوكمري، المتوفى سنة ١٢٩٩هـ. وكان له المرجعية في النجف الأشرف. بعد المرحوم الشيخ مهدي كاشف الغطاء.

ومن علماء هذا الدور، السيد حسن الشيرازي، المتوفى سنة ١٣١٢هـ. وبعد وفاة السيد حسين الكوكمري سنة ١٢٩٩هـ انفرد بالزعامة السيد حسن المذكور، ولكنه انتقل من سكنى النجف، إلى سكنى سامراء، لسوء التفاهم الذي حدث بينه وبين أهالي النجف، فإنهم على ما رواه لي الثقة العالم الشيخ جعفر من آل الشيخ راضي، عن العلامة السيد جعفر بحر العلوم: بأن أهالي النجف طلبوا من السيد الشيرازي أن يرفع الجندية الإجبارية عنهم كما كان قد رفعها عنهم المرحوم الشيخ راضي المتقدم ذكره. فقال رحمه الله: أي أمر استفدناه من أهالي النجف حتى نرفع ذلك عنهم، فأوجب ذلك أن تقع وحشةً

بينه وبين أهالي النجف. أوجبت أن يرتحل منها، ثم استقر رأيه على الانتقال لسامراء.

ومن علماء هذا الدور: المحقق الشيخ كاظم الخراساني المتوفى سنة ١٣٢٩هـ.

والسيد كاظم اليزدي المتوفى سنة ١٣٣٧هـ اللذان انتقلت الزعامة الدينية. والدراسة العلمية، من سامراء إلى النجف الأشرف بانتقالهما، ثم تفرد السيد كاظم بالمرجعية بعد وفاة الشيخ كاظم.

ثم بعد وفاة السيد كاظم، رجعت المرجعية العامة لميرزا محمد تقي الشيرازي، المتوفى سنة ١٣٣٨هـ في كربلاء، لأنه كان قد سكن فيها بعد وفاة أستاذه السيد محمد حسن الشيرازي المتقدم الذكر.

ثم انتقلت للنجف الأشرف، واشترك فيها أستاذنا السيد أبو الحسن الأصفهاني، والميرزا حسين النائيني، والشيخ أحمد كاشف الغطاء. أسأله (تعالى) أن يحفظ الجميع.

ومن علماء هذا الدور، الشيخ قاسم بن محمد محيي الدين من الفقهاء المبرزين المتوفى سنة ١٢٣٧هـ.

ومن علماء هذا الدور: أحمد بن محمد مهدي النراقي، المتوفى سنة ١٢٤٥هـ. أكمل علومه بالحضور عند المرحوم بحر العلوم، وجدِّنا كاشف الغطاء في النجف، ورجع لبلده كاشان، وتوفي فيها، ونقل جثمانه منها، ودفن في النجف الأشرف جنب والده، ولما جُدّد بناء أسس الصحن الشريف في زماننا. وجدت جثتاهما على حالهما، لم يطرأ عليهما تغيير، كأنما دفنا في هذه الساعة. وهو صاحب المؤلفات العظيمة الجليلة كمستند الشيعة. ولوالده جامع السعادات.

ومن علماء هذا الدور الشيخ محمد تقي، المتوفى سنة ١٢٤٨هـ. شارح المعالم، صهر الشيخ الكبير جعفر كاشف الغطاء.

ومن علماء هذا الدور، السيد صدر الدين، جد (آل الصدر) المتوفى سنة

١٢٦٣هـ. صهر الشيخ الكبير الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

ومن علماء هذا الدور: الشيخ أسد الله التستري المتوفى سنة ١٢٣٤هـ. صاحب مقابس الأنوار، صهر الشيخ جعفر كاشف الغطاء، وله رسالة في المواسعة والمضايقة، نشرت باسم الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله على ما ببالي.

ومن علماء هذا الدور: الشيخ محسن خنفر، المتوفى سنة ١٢٧١هـ وقد عرف بدقة النظر، وعمق الفكر.

ومن علماء هذا الدور: الميرزا حبيب الله الرشتي، المتوفى سنة ١٣١٢هـ. قبل وفاة الميرزا الشيرازي بشهرين، وقد كان هو من رؤساء الحوزة العلمية في النجف يوم كان مركز الدراسة العلمية والزعامة الدينية في سامراء، في عهد الشيرازي.

ومن علماء هذا الدور: الشيخ جواد محيي الدين، المتوفى سنة ١٣٢٢هـ.

ومن علماء هذا الدور، الشيخ محمد حسن المامقاني، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ حضر عند الشيخ راضي والشيخ حسن كاشف الغطاء، والشيخ الأنصاري.

ومن محققي هذا العصر: الشيخ ملا هادي الطهراني، المتوفى سنة ١٣٢١هـ.

ومن علماء هذا الدور: الشيخ محمد طه نجف، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ. وكان من رؤساء الحوزة العلمية في النجف، يوم كانت المركزية للدراسة في سامراء.

ومن علماء هذا الدور: الميرزا حسين الخليلي في النجف، المتوفى سنة ١٣٢٦هـ. من رؤساء الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

ومن علماء هذا الدور في النجف: الفاضل الشربياني، المتوفى سنة ١٣٢٢هـ. وكانت له المرجعية في الفتوى والتدريس.

وهناك علماء أكابر أعاظم، لم يكن إهمالنا لهم إلا من جهة عدم التذكر، ومن أراد الاطلاع فليراجع ما كتبه المرحوم الحجة الشيخ محمد حرز الدين، والمرحوم العلامة الشيخ آغا بزرك الطهراني وغيرهم.

ولصاحب حديث «الجامعة النجفية» رأيه في هذا الموضوع، أعني موضوع الأدوار العلمية، ولا بأس هنا بذكر ما جاء في كتابه طلباً للمزيد من الاستفادة[1].

(١) حديث الجامعة النجفية، من ص ٢٠ إلى ٣٦.



تمهيد عام

وهـذا حديث آخـر، مستمد من حقيبـة ماضي النجف، ومن وحي تـأريخها القـديم، له أهميتـه من جهات عـدة: أهمية من جهـة عـلاقتـه في التحـدث عن النجف اليوم. وأهميته في رفع كيان الجـامعة النجفيـة، وإظهار قيمتهـا الجوهـرية المكنـونة، وأهميتـه في تغذيـة روح الطالب النجفي الجـديد وتـزويده بـالتشجيـع والنشاط الفكري، حتى لا يتوهم نفسه غـريباً يسيـر منفرداً في قـافلة لا سابق لهـا ولا لاحق، عندما تنكشف له طلائع القوافل العلمية، التي سارت أمامه، واجتازت ميادين العلم والفضيلة، إلى حيث السعادة والخلود.. تلك القوافل السابقة ـ على القـافلة التي هـو فيهـا ـ التي تحمـل كثيـراً من النـوابـغ والمجتهـدين والفـلاسفـة والمفكـرين.. أولئـك ـ الـذين أفـادوا العـالم العـربي، والإسـلامي: بمؤلفـاتهم وأفكارهم ـ هم، بلا ريب، أقطاب الدين وحفظة الإسلام..

والأهمية الكبرى، تطرق هذا الحديث: إلى نقطة حساسة حـول الموازنـة، والمقـايسة، بين أدوار النجف وعصـورها العلميـة ليتبين لنا هـل نحن ـ أهل هـذا الـدور الأخير ـ على حق في آخـر الأدوار النجفية، بكـلا معنيي التأخير: الـزمني والعلمي. كما يدل عليه اعتمادنا على أهل الأدوار السابقة في مؤلفاتهم وأفكارهم ومسـايرتنـا لهم في حـركـاتهم، وسكنـاتهم..؟ أو في التـأخيـر بـالجهـة الأولى ـ الزمني ـ فحسب.. وعلى العكس، في الجهة الثانية ـ التـأخير العلمي ـ كمـا هي سنة التطور، وقاعدة النشوء، والارتقاء؟..

ونتيجـة تلك المقايسـة، أو الرد على هـذا الاستفسار. نحيله على الـطالب النجفي الجديد، وتنتظر حله وجوابه بعد اطلاعه على هذا الحديث..

وموعدنا في الالتقاء معه، في آخر هذا الحديث، لأخذ النتيجة منه والكلمة الأخير في «نهاية الحديث».

الدور الأول

ويبدأ الدور الأول بعهد الإمام علي عليه السلام ـ الذي قدم الكوفة سنة ٣٦هـ ـ والذي ينسب إليه هذا الدور، والجامعة النجفية أيضاً، كما تقدم ذلك مع لمحة عنه وكلمة مختصرة في الحديث السابق، وقلة المصادر القديمة في الموضوع، واختلاف الأقوال، هي التي دفعتنا إلى ذلك الاختصار، وأوقعتنا بمشكلة تأسيس الجامعة النجفية أيضاً. . . والعهدة في ذلك على السياسة الغابرة، التي راقبت كل ما يتصل بآل البيت عليهم السلام من مدن ومدارس ورجال وعلماء وكتب وصفحات، ووقفت منها موقف التحذير، والإرهاب؟!

ومن جهة أخرى، إعراض المؤرخين والعلماء أمس في الكتابة عن النجف، وأوضاعها ودراستها وعلمائها في هذا الدور وغيره.

ولعل عيون الرقباء وسطوة السياسة، هي التي حالت بين هذا. . وذاك. . ومن هنا يتضح لنا أهمية البحث والكتابة عن النجف أمس أو الدور الأول.

في الطريق

وربما جاء أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام إلى قبر الإمام علي عليه السلام مع لفيف من طلابه، وجماعة من تلامذته، ليواصلوا دروسهم على يد أستاذهم الإمام عليه السلام ولو في الطريق، أو عند قبر الإمام علي عليه السلام. . . ولنستمع الآن إلى حديث ـ قريب من هذا المعنى ـ يرويه محمد بن معروف الهلالي قال: «مضيت إلى الحيرة ـ في الكوفة ـ إلى جعفر بن محمد، فما كان لي فيه صلة من كثرة الناس، فلما كان اليوم الرابع، رآني فأدناني، وتفرق الناس عنه، ومضى يريد قبر علي أمير المؤمنين عليه السلام فتبعته، وكنت أسمع كلامه، وأنا معه أمشي». . . فالدراسة في هذا الدور، كانت عبارة عن الوعظ، وتعلم الكتاب الكريم، ورواية الأخبار، وأحاديث العرب دون أن يكون ذلك في محل خاص، أو مركز مخصوص، ففي السفر والحضر وفي البيوت والمساجد

كانوا يتلقون دروسهم.. وهذه الطريقة اللانظامية أو السقراطية ـ كما يعبر عنها الأستاذ «رونالدسن» ـ هي التي يدعو إليها جمع من مفكري هذا العصر، منهم الفيلسوف «برناردشو» وغيره[1].

نور ضئيل

وبعد وفاة الإمام علي عليه السلام ـ في سنة (٤١) للهجرة ـ أصابت الحركة العلمية في النجف ـ حسب المعنى المتقدم ـ نكسة، ذهبت بها زمناً، ثم عادت من جديد، حينما قامت أول بناية على قبر الإمام عليه السلام وأخذ العلويون بالتردد على القبر الشريف، وأخذت الدور، والمساكن إلى جواره.. وكان ذلك قبل انقضاء القرن الأول الهجري، على ما أحسب.

ويحتمل من جهة أخرى أن الحركة العلمية إنما بدأت في النجف عندما ضعفت الحركة العلمية في الكوفة، بانتقال طبقة منها إلى بغداد، بواسطة تشجيع الملوك والخلفاء لها، وتقريب أهلها إليهم.. وطبقة أخرى دفعها حبها لآل البيت عليهم السلام للانتقال إلى النجف حيث مرقد الإمام علي عليه السلام. وكان هذا الانتقال، في عهد الدولة العباسية ـ التي اتخذت بغداد عاصمة لها ـ وقبل عهد الملوك البويهيين في العراق، ووجود كبيرهم عضد الدولة.. وهاتان الصورتان ـ لهذين الانتقالين ـ تعطياننا صفحة مصغرة، عن حركة العلم في هذا الدور.. وهذه الصورة الظنية ـ المستفادة من الكتب ـ يؤيدها التاريخ، ولا يعارضها شيء، فهي صور علمية، نأخذ بها، ونعتمد عليها.

قوة وانتشار

وفي عهد الملوك البويهيين في العراق، وخاصة في عهد عضد الدولة المتوفى سنة (٣٧٢هـ)، تنشطت الحركة العلمية، وكثر رواد العلم في النجف بسبب ما بذله «عضد الدولة» من الأموال الطائلة، لتشييد قبر الإمام عليه السلام، ومدرسته الدينية، وما بذله على العلماء والفقهاء مقابلة لمدارس العامة في

(١) سيأتي التعرض لهذه الناحية في فصل قريب.

بغداد. . وهذا ما دفع بعض المؤرخين، لنسبة تأسيس الجامعة النجفية، إلى الشيخ المفيد، المعاصر لعضد الدولة، وأستاذه أيضاً. . ولعله هو الذي أشار إليه بالانتقال من بغداد إلى النجف تتميماً لأعماله التي أنشأها هناك، وقياماً بمدرسته العلمية التي بذل عليها وعلى طلابها أموالاً طائلة، كما تقدم ذلك عن تأريخ «ابن الأثير» وكتاب «فرحة الغري».

علماء وأبطال

ونختم هذا الحديث «عن الدور الأول» بالتعرض لجماعة من العلماء والرواة الكبار، نسبوا إلى النجف، في هذا الدور. منهم: أحمد بن عبدالله الغروي، الذي يروي عن أبان بن عثمان ـ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ـ، ويروي عنه، الحسين بن سعيد[١]. . ومنهم شرف الدين بن علي النجفي، الذي يقول عنه الشيخ الطوسي: «كان فاضلاً، صالحاً له كتاب الآيات الباهرة في فضل العترة الطاهرة»[٢]. . ومنهم الشيخ أبو طالب عبدالله بن أحمد بن شهريار المعاصر للشيخ المفيد، والذي يروي عنه، النجاشي، وأبو جعفر الطبري[٣].

الدور الثاني

ويبدأ، بعهد الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن، المعروف بالشيخ الطوسي الذي انتقل إلى النجف سنة «٤٤٩هـ» والذي فتح ـ أول من فتح ـ باب التدريس على طريقة الاجتهاد، المتبعة اليوم في النجف، وأول من جمع من علماء النجف، بين الحديث والفقه والأصول في مؤلفاته وأول من أوجد هيئة علمية ذات حلقات ونظم خاصة تخالف ما كان عليه حال النجف قبله. . . وهذا ما دفع البعض، إلى القول بتأسيس الجامعة النجفية على عهد الشيخ الطوسي، ونسبتها

---

(١) رجال المامغاني النجفي ـ م ـ ١ ـ باب الهمزة.

(٢) عن رجال المامغاني النجفي ـ م ـ ٢ ـ باب الشين.

(٣) تقدم ذكره ـ ص ـ ١٤ ـ نقلاً عن ماضي النجف ـ ص ـ ١٧٧.

إليه.. وقد أسلفنا الرد على هذا القول، وتفنيد الفكرة، وأن الشيخ الطوسي لم يوجد العلم في النجف بعد أن كان معدوماً فيها وأن كل ما أتى به لا يقتضي أكثر من أن يسجل له التأريخ أنه صاحب عهد جديد، ودور خاص، ازدهر العلم في عصره كما كان في عصر عضد الدولة على حد سواء، في كثرة الطلاب وقوة العلم.

هيئة علمية

انتقل الشيخ الطوسي، من بغداد - بسبب وقوع عدة فتن واختلافات فيها - إلى النجف الأشرف، فأسس فيها هيئة علمية كبرى، وخرج على يده تلامذة كثيرون.. وقد جاء في كتاب (اختيار الرجال) أن مؤلفه (الشيخ الطوسي) أملاه على تلامذته، في المشهد الغروي[1].

ومن تلك الهيئة أو هؤلاء التلاميذ، الشيخ الأمين، أبو عبدالله محمد بن شهريار (صهر الشيخ الطوسي).. ومنهم السيد رضي الدين محمد الآوي النجفي أحد النقباء الأشراف، والعلماء الصلحاء.. ومنهم الشيخ أبو علي ابن الشيخ الطوسي، الملقب بالمفيد الثاني.. إلى غير هؤلاء من تلاميذ الشيخ الطوسي، ممن يعدون بالعشرات.

موت وحياة

وبعد وفاة الشيخ الطوسي سنة (٤٦١هـ) قام ولده أبو علي الطوسي مقامه في حفظ الحوزة العلمية ومنصب الرئاسة الدينية.. وكان له ما كان لأبيه من ورود الأموال إليه، وتوزيعها على الطلاب، وتقسيمها على تلامذته الكثيرين!. وقد جاء في نسخة من الأمالي أن مؤلفه أبا علي الطوسي أملاه على تلامذته، في النجف الأشرف[2].

ومما يظهر من كلام للسيد صدر الدين العاملي أن بعد وفاة أبي علي سنة

---

(١) الذريعة، لشيخنا آغا بزرك - ج - ١ - ص - ٣٦٥.

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة (ج - ٢ - ص٣٠٩).

(٥١٥هـ) وقفت حركة الدراسة في النجف واستمر وقوفها إلى عهد الشيخ علي بن حمزة بن شهريار فكانت فترة دراسية بين هذا.. وذاك[١] والذي رأيته أن ولد أبي علي الشيخ أبا منصور محمد هو الذي قام مقام أبيه. قال ابن الفلاح الحنبلي عنه: شيخ الشيعة وعالمهم وابن شيخهم، وعالمهم رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب، إلى العراق وحملوا إليه ـ أي الأموال ـ وكان فوق ذلك مقدساً، قال العماد الطبري: «لو جازت على غير الأنبياء صلاة صليت عليه»[٢].

وفي عهد الشيخ علي بن حمزة بن شهريار سنة (٥٧٢هـ) تقوت الدراسة وتنشطت حركتها العلمية.. الذي شجع الناس إلى العلم ورغبهم إليه فكان صاحب عهد جديد في تأريخ النجف العلمي، كما كان سادن روضتها الحيدرية، وصاحب مدرستها الدينية، ومدير معهدها الجليل وبعده استمرت الدراسة في النجف إلى وقت طلوع نجم الدين أو المحقق الحلي، في مدينة «الحلة»، التي تقوت الدراسة فيها حينئذ كما ضعفت في النجف..

إلى الحلة

وعند نبوغ المحقق الحلي، في أوائل القرن السابع للهجرة انتقلت الهيئة العلمية من النجف إلى الحلة، وصار الطلاب ورواد العلم إليها يرحلون حتى أخرجت علماء كباراً، وفقهاء شهيرين.. واستمر الوضع الدراسي فيها إلى عهد فخر المحققين ابن العلامة الحلي المتوفى سنة (٧٧١هـ).

ورغم هذا الانتقال أو هذه الفترة الدراسية فإن السلسلة العلمية لم تنقطع ـ كل الانقطاع ـ عن النجف الأشرف.. ويدل عليها تخرج علماء كبار، من النجف ـ في هذه المدة ـ نذكر منهم: نجم الأئمة محمد الأسترابادي الشهير بالفاضل الرضي صاحب كتاب «شرح الكافية» الذي أثنى عليه «السيوطي» وفضله على جميع شروح الكافية، وأغلب كتب النحو جمعاً وتحقيقاً وحسن تعليل.. وله

---

(١) راجع كلامه في «ماضي النجف ص٨٥» على الهامش.

(٢) شذرات الذهب لابن الفلاح الحنبلي ـ م ـ ٤ ـ ص١٣٦.

فيه أبحاث كثيرة مع النحاة واختيارات جمة، ومذاهب ينفرد بها. . .[١].

وقد ألف هذا الكتاب في النجف سنة (٦٨٣هـ) بعد أن توطنها مدة. . وذكر في خطبته للشرح أن كل ما وجد فيه من شيء لطيف وتحقيق شريف، فهو من بركات تلك الحضرة المقدسة[٢].

عود ورجوع

وبعد وفاة فخر المحققين في الحلة، انتقلت الهيئة العلمية إلى النجف: حيث مركزها الأول، ومقر العلم الشريف. .

رجعت إلى النجف، لأن الحلة خلت من العلماء الكبار ولأن ملوك السلطتين «الجلائرية والإيلخانية» أرادوا أن يروا النجف عاصمة دينية كما هي عاصمة علمية في مدة إقامتهم في العراق في القرن الثامن والتاسع من الهجرة فبنوا لهم المساجد والمدارس، وأمدوهم بالأموال الكثيرة على نحو ما صنعه ملوك البويهيين من قبل، في الدور الأول. . وقد شاهد الرحالة «ابن بطوطة» ما بني على عهدهم من مدارس، عندما زار النجف سنة (٧٢٧هـ) واجتمع بعلمائها وفقهائها، وتحدث عن تلك المدارس في «رحلته» بحديث مملوء بالإجلال والإكبار، والمدح والثناء[٣].

علماء وأبطال

ونختم هذا الحديث ـ عن الدور الثاني ـ بذكر نخبة من كباء العلماء، ممن تخرجوا في عهد السلطتين «الجلائرية، والإيلخانية» في أواخر هذا الدور ـ: منهم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بن محمد الشهير بأبي العتايقي الحلي النجفي صاحب التصانيف الكثيرة، التي أوقفها على المكتبة الحيدرية[٤] في النجف، ولا

---

(١) السيوطي في «بغية الوعاة» (ص٢٤).
(٢) الخوانساري في (روضات الجنات. في أحوال العلماء والسادات) طبع إيران.
(٣) رحلة ابن بطوطة في الجزء (١) ص«١٠٩».
(٤) المكتبة الحيدرية في النجف، من أقدم مكاتب النجف وأشرفها ولعلها أسست في أواسط هذا=

زالت فيها كتبه بخطه الشريف ككتاب «الإرشاد» في الهندسة، والتصريح في الطب الذي فرغ منه سنة ٧٧٤هـ في المشهد الغروي[١] ومنهم الشيخ أبو عبدالله المقداد السيوري، المشهور «بالفاضل المقداد» المتوفى سنة (٨٢٦هـ) وصاحب كتاب (شرح باب الحادي عشر) الذي هو من الكتب الدراسية في النجف اليوم. وكانت له مدرسة علمية، تعرف باسمه اندرست، مع ما اندرس من التأريخ الماضي.

الدور الثالث

ويبدأ الدور الثالث بعهد الشيخ أحمد بن محمد المعروف بالمقدس الأردبيلي المتوفى سنة (٩٩٣هـ) وقبره إلى جنب مرقد الإمام علي عليه السلام وهو ممن أحيا الدراسة العلمية، وأدار حركتها في النجف، بعد أن أشرفت على الهلاك، وقاربت سلسلتها العلمية من الانفصال، والانقطاع لولا أن هيأ الله لها من يوصل ما فصل، ويحرك ما استكن ذاك هو، (المقدس الأردبيلي) الجليل.. الذي ازدهر العلم بعصره، وتهافت عليه الطلاب من هنا.. وهناك.. حتى تشكلت هيئة علمية كبيرة، وساعد على ذلك ملوك الصفويين، فبنوا لهم المدارس والمساجد، وأمدوهم بالأموال كما صنع ملوك الدولة «الجلائرية، والإيلخانية» من قبل.

وكان الشيخ الأردبيلي على ما هو عليه من ضنك العيش وضعف المادة إذا بدا له حل مسألة يتطاير فرحاً ويقول:

«أين الملوك وأبناء الملوك عن هذه اللذة؟..».

= الدور (الثاني) لأن الفاضل الرضي ألف شرحه على الكافية فيها (كما قيل) ولأن بعض المؤرخين ذكر أن هذه المكتبة أحرقت سنة (٧٥٥هـ) فجددها جماعة ـ منهم ابن الأوي النجفي الذي كان صدراً للحكومة الإيلخانية، ومنهم فخر المحققين ابن العلامة الحلي. ـ وفي هذه المكتبة من النفائس والتحف القديمة، الشيء الكثير ومن جملتها قرآن بالخط الكوفي كتب عليه، أنه بخط الإمام علي ومنها شرح الدريدية لابن خالويه بخط يده، وقد تم تشييد الدار الفخمة لنقل المكتبة إليها واستفادة الرواد منها.

(١) الذريعة لشيخنا آغا بزرك (ج٤ ص١٩٦).

و«للمقدس الأردبيلي» مؤلفات جليلة منها «آيات الأحكام» و«شرح الإرشاد» و«حديقة الشيعة» وغيرها..

وقد تخرج عليه علماء كبار: منهم الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني العاملي صاحب كتاب «المعالم» في الأصول، والسيد محمد العاملي صاحب كتاب «مدارك الأحكام» والشيخ ملا عبدالله النجفي مؤلف كتاب «الحاشية» في المنطق، وهذه الكتب الثلاثة لهؤلاء العلماء لم تزل من الكتب الدراسية في النجف الأشرف حتى اليوم!

اختلافات وتقلبات

وفي أواخر القرن الحادي عشر للهجرة، وقع تصادم بين المملكتين «الصفوية، والعثمانية» مما سبب قلة الهجرة ووفود الطلاب إلى النجف الأشرف وثمة سبب آخر لذلك وهو ضغط «العثمانيين» على العلماء ورجال الدين، بعد استيلائهم على العراق على العكس مما كان عليه «الصفويون» من تقدير العلم واحترام رجاله ومع هذه الشدة فإن الدراسة في استمرار متصل، كما يدل عليه تخرج علماء كبار، وفقهاء كثيرين، نذكر منهم الشيخ فخر الدين الطريحي المتوفى (١٠٨٥هـ) صاحب كتاب مجمع البحرين في اللغة وربما عد منهم الشيخ البهائي صاحب (الكشكول) والعلامة المجلسي صاحب (البحار) والمحقق الكركي العاملي إلى غير هؤلاء، ممن قضى مدة من الزمن في النجف الأشرف بالدرس والتدريس.

علماء وأبطال

ونختم هذا الحديث عن (الدور الثالث) بذكر جماعة من العلماء الكبار تخرجوا من النجف في أوائل القرن الثاني عشر الهجري.

منهم الشيخ محمد الفتوني العاملي النجفي المتوفى سنة (١١٣٨هـ) صاحب كتاب (مرآة الأنوار) في التفسير.

ومنهم الشيخ أحمد بن إسماعيل الجزائري النجفي المتوفى سنة (١١٥١هـ) صاحب كتاب «آيات الأحكام».

ومنهم الشيخ حسن بن العباس ابن الشيخ محمد علي البلاغي، صاحب (تنقيح المقال، في علم الرجال)، ووالد الشيخ عباس، الذي هاجر إلى جبل عاملة، وتوفي هناك. . . إلى غير هؤلاء.

الدور الرابع

ويبدأ هذا الدور، بعهد السيد محمد مهدي ابن السيد مرتضى الطباطبائي الشهير بالسيد (بحر العلوم) المتوفى سنة (١٢١٢هـ). وقبره إلى جنب قبر الشيخ الطوسي في النجف، ويعد السيد من كبار الطائفة، وأجلاء علماء الإسلام! ولنا أن نسمي عصره بعصر النهضة العلمية، لكثرة من نبغ فيه من الفحول الكبار والعلماء والأجلاء، ولكثرة تهافت الناس على العلم فيه، وازدياد الطلاب. . واستمرت تلك النهضة العلمية، إلى ما بعد وفاته وظلت تجر ذيولها إلى آخر هذا الدور. الذي لم يبلغه عهد ما بلغه. . من انتشار العلم، وكثرة الطلاب حتى بلغت طلابه نحو العشرة آلاف طالب! أو أقل، أو أكثر، على اختلاف المحصين ولحاظاتهم. . كل ذلك بفضل السيد بحر العلوم مؤسس النهضة، ومخرج الفحول.

علماء كبار

ونذكر فيما يلي جماعة من العلماء الكبار ممن تخرجوا من النجف في هذا الدور منهم الشيخ: جعفر ابن الشيخ الجناجي المعروف بالشيخ الأكبر، و[كاشف الغطاء] صاحب كتاب (كشف الغطاء) الذي يقول عنه الشيخ مرتضى الأنصاري: من أتقن القواعد الأصولية التي أودعها الشيخ في كشفه فهو عندي مجتهد ومنهم السيد جواد ابن السيد محمد العاملي صاحب كتاب (مفتاح الكرامة) الذي يقول: عنه (الخوانساري) في كتابه (روضات الجنات) (لم تر عين الزمان أبداً بمثله،

كتاباً مستوفياً، لأقوال الفقهاء ومواقع الإجماعات وموارد الاشتهارات وأمثال ذلك...)، ومنهم الشيخ محمد حسن الشهير (بالجواهري الكبير) صاحب (جواهر الكلام) الذي هو: في الفقه، ككتاب (البحار)! في الحديث مرجعاً. وسعة، ومنهم الشيخ مرتضى الأنصاري الذي لا تزال مؤلفاته من الكتب الدراسية، ونظرياته في الفقه والأصول لا تزال محل الأخذ والعطاء والاهتمام والإكبار لها بين الفطاحل والمجتهدين، ومنهم السيد كاظم اليزدي صاحب (العروة الوثقى) في الفقه، ومنهم الميرزا النائني صاحب النظريات الأصولية الشائعة على لسان العلماء والطلاب، إلى غير هؤلاء الفحول ممن تخرجوا من النجف في هذا الدور الأخير.

بيوت وعائلات

ونذْكر هنا قسماً من العائلات العلمية النجفية ـ التي هي كمدارس سيارة، تخرج العلماء والأبطال، ويتوارث حفظها الأبناء بعد الآباء ـ لأن أكثرها أنشئت في هذا الدور منها عائلة: آل الأعسم وآل بحر العلوم وآل الجزائري وآل الجواهري وآل الحكيم وآل شبر وآل شيخ راضي وآل الطريحي وآل العاملي وآل القزويني وآل كاشف الغطاء وآل محيي الدين وآل المظفر وغيرها، ولا تزال أكثر هذه العائلات حتى هذا العهد وفيهم اليوم المراجع والمجتهدون، والعلماء والفقهاء، وذوو بيوت مرموقة أوقفوا نفوسهم لاستقبال الضيوف وخدمة الأمة وإعانة الطلاب...

قوة وانتشار

توسع العلم في هذا الدور وكثر طلابه ـ وخاصة في آخره ـ بواسطة أمور كثيرة.. يرجع بعضها إلى نظر الحكومة لها واهتمام العلماء بها وسخاء المثرين من المؤمنين لبناء المدارس وتشييد المعاهد وتقديم التبرعات وتأدية الحقوق، ويرجع بعضها إلى المخترعات الحديثة بانتشار الطبع للكتب، وتسهيل وسائل النقل إلى غير ذلك من الأمور التي تعود إلى تحبيب العلم والترغيب له، وهذه

القوة العلمية وكثرة الطلاب. وجدت في أوائل هذا الدور، ولا زالت مستمرة حتى اليوم، رغم وقوع عدة ثورات وحروب، ورغم توزع العلم هنا وهناك!!

تأسيس مدارس

وبالرغم من تأسيس عدة مدارس دينية في أماكن مختلفة، وتوجه الطلاب إليها فإن النجف لم تزل محتفظة بتلك الكثرة من الطلاب، ورئاستها على غيرها من معاهد العلم..، ففي كربلاء أنشئت هيئة علمية تخرج منها أمثال الشيخ محمد باقر البهبهاني، الملقب «بالأستاذ الأكبر» والشيخ يوسف البحراني صاحب كتاب «الحدائق» في الفقه،... والشيخ محمد حسين صاحب كتاب «الفصول» في الأصول...، وأمثال شريف العلماء، وصاحب «الرياض»، والداماد وكثير غيرهم.. ولا زالت مدارس كربلاء آهلة بالطلاب حتى اليوم..، وفي الكاظمية تأسست هيئة علمية، وعدة حلقات يشغلها آل ياسين، وآل الصدر، وغيرهما وفيها أنشئت مدرسة الإمام الخالصي .. وفي سامراء هيئة علمية أسسها الزعيم الديني ميرزا (محمد حسن) المتوفى سنة (١٣١٢هـ)... وفي قم هيئة علمية أسسها الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي... ولا تزال مدارسها اليوم تزهر بالعلم، ويرجى أن يكون لها مستقبل منعدم النظير كما تدل عليه بعض الملامح، وما ورد في الأخبار[١].

ثورات وحروب

وبالرغم من وقوع عدة حوادث وحروب، في هذا الدور لم يتزعزع شيء من قوة النجف، وعزيمتها الثابتة!

ففي عصر الشيخ جعفر الكبير، عندما بدأ الوهابيون في ثوراتهم كانت

---

(١) كانت رحلتنا لإيران ـ سنة ١٣٧٢هـ بصحبة الأخ الشيخ نجيب الخطيب ـ رحلة مختصرة لم نستطع خلالها أن ندرس حالة جامعة «قم» أو دار الإيمان ـ كما تسمى ـ ومن كتب عنها لم يتعد التعريف القصير لها لهذا وذاك نرجو من فضلائها، الكتابة عنها كتابة وافية.

النجف وعلماؤها تستعد لمكافحة ذلك وتعمل ما تعمله كل دولة صغيرة من التجنيد والتدريب على حمل السلاح، وكيفية الرمي كما يدرب حماة الوطن اليوم. . . وهكذا كان الحال بعد الشيخ الكبير، وقبل عهدنا هذا بقليل، حتى أصبح تدخل العلماء، ورجال الدين في السياسة وأمور الدولة من الأمور المألوفة، فهذه الثورة العراقية والثورة النجفية لاستقلال العراق، كانت اليد الطولى فيها لمجتهدي النجف وعلمائها، أمثال الأخوند صاحب الكفاية والسيد أبي القاسم الكاشاني والسيد محمد سعيد الحبوبي، والخالصي الكبير، والعلامة الجزائري والمصلح الشهرستاني وغيرهم من علماء النجف[1].

وكان تدخل العلماء في السياسة وأمور الدولة، لا يخرج عن حدود الدفاع عن الدين الإسلامي. وجذب المصلحة للإسلام والمسلمين. . .

نهاية المطاف

«وبعد» فهذه لمحة خاطفة وصورة مصغرة، عن أدوار الجامعة النجفية وعصورها العلمية، مع من نبغ فيها من العلماء والمجتهدين الكبار الذين تقوت الدراسة العلمية في وجودهم وتنشطت المعارف الإسلامية في عصورهم، ومع ما تقدم عليها من الثورات والتقلبات السياسية التي سببت قلة الهجرة إليها ونزوح طلابها عنها.

وكأني بالطالب النجفي يقف عند آخر كلمة من هذا الحديث!! ثم لا أراه يعيد نظره لماضي النجف مرة أخرى ليوازن أو يقيس. بين أدوار النجف وعصورها العلمية ـ كما وعدنا في مستهل هذا الحديث ـ، بل أراه قد انتقل ـ فجأة ـ لمستقبل النجف القريب أو البعيد، تاركاً خلفه ماضي النجف لأبنائها الماضين، وجاعلاً أمامه كلمة الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «علموا أولادكم غير ما علمتم. فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم» فهو لهذا راح يوجه كل فكرة إلى ما ينقشه خياله على صفحة خاطره: حول الخطط والتنظيمات التي

(١) راجع ماضي النجف وحاضرها ـ ص ـ ٢٤٦ ـ وما بعدها.

ينبغي أن يسير عليها مستقبل النجف وطلابها النشيطون!!، مما يلائم حاضر العالم المتمدين. ومستقبل الإسلام الحنيف ـ الذي هو دين المستقبل، كما تنبأه الفيلسوف الإنكليزي «برنادرشو» في كتاب أصدره عن الإسلام، وأحرقته الكنيسة المسيحية في أوروبا، بعد أن نشر قسماً منه في الصحف الإنكليزية وأخذت صورتها الصحف العربية ـ، وهكذا ظل يرسم خطوطاً كثيرة!! في عواميد مختلفة عن مستقبل الجامعة. وحركتها الإصلاحية. ونهضة طلابها التي هي على وشك الوقوع. والتطبيق والتنجيز..

وقد بدت للعالم ملامح تلك النهضة النجفية، وحركتها الدينية الإسلامية، في الكتب والمجلات على الأعواد والمنابر.. نرى النجفيين في تلك.. يحملون سلاح العلم والدين، ويهتفون بالوحدة والإسلام والتمسك بالقرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ومعاكسة أعداء الدين. ومكافحة الآراء الشاذة والنظريات الماركسية الساقطة.. والكلمات السخيفة..

ويهتفون أيضاً بقدسية النجف.. وروحيتها، وعلمائها. ومجتهديها، وما يتعلق برسالتها الإصلاحية. وهدفها السامي. والغرض الأقصى الجليل!! لتؤدي النجف رسالتها العالمية العليا، ولتنشرها في جميع البلدان والأقطار الإسلامية، ولتكون جامعة. وخريجوها جامعيين بملء الفم. وما تضم هاتان الكلمتان!!

الفصل الثالث
امتداد أدوار الجامعة النجفية
إلى غيرها من المدن



بعد أن تمّ العرض لأدوار الجامعة النجفية، يحسن بنا أن نعرض سريعاً لمراكزها من حيث مدّها في النجف وانحسارها عنها في المراكز الأخرى، فيما ورد ذكر هذه المراكز، إلا أن المعالم الآتية، تتناول ذلك بنحو آخر هو:

بين مد التاريخ وجزره[1]

سارت هذه الجامعة الكبرى منذ بدأ تأسيسها وتركزها على يد الشيخ الطوسي حتى عصر السيد بحر العلوم، أي منذ القرن الخامس الهجري حتى أوليات القرن الثالث عشر الهجري.

سارت بين مد التاريخ وجزره، حيث وجدت مراكز جامعية أخرى، وحركات علمية غيرها، خلال هذه الفترة المذكورة.

فقد استمرت الحركة العلمية قائمة في جامعة النجف منذ عصر الشيخ الطوسي حتى منتصف القرن السادس الهجري حيث نشطت الحركة العلمية في (الحلة)، لوجود (الشيخ محمد بن إدريس الحلي ٥٥٨ ـ ٥٩٨هـ) صاحب كتاب (السرائر) في الحلة.

(١) أخذ هذا الفصل من كتاب «دليل النجف» للشيخ عبد الهادي الفضلي من ص ٤٠ إلى ص ٥٣.

ومن ألمع العلماء الذين تعهدوا رعاية الحركة العلمية في جامعة النجف بعد الشيخ الطوسي خلال الفترة المذكورة.. هم:

(آل الشيخ الطوسي)، و(آل شهريار) خزنة الحرم الشريف وسدنته.

ومن أشهر من قام بذلك من آل الشيخ الطوسي:

١ ـ أبو علي الحسن ابن الشيخ الطوسي، الملقب بـ(المفيد الثاني)، من مؤلفاته: شرح النهاية في الفقه، المرشد إلى سبيل المتعبد.

٢ ـ حمزة بن الحسن، أخو الشيخ الطوسي.

٣ ـ أبو نصر محمد حفيد الشيخ الطوسي، المتوفى (٥٤٠هـ).

أما آل شهريار، فمن أشهرهم:

١ ـ أحمد بن شهريار، من معاصري الشيخ الطوسي.

٢ ـ محمد بن أحمد بن شهريار، صهر الشيخ الطوسي، وتلميذه، وأول خازن للحرم الشريف من أسرته.

٣ ـ حمزة بن محمد بن أحمد بن شهريار، سبط الشيخ الطوسي.

٤ ـ علي بن حمزة بن محمد بن أحمد بن شهريار.

٥ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن شهريار، سبط الشيخ الطوسي.

وفي منتصف القرن التاسع الهجري عادت الحركة العلمية إلى النجف الأشرف، واستمرت حتى منتصف القرن الثاني عشر حيث انتقلت إلى (كربلاء) لوجود الآغا محمد باقر المعروف بـ(الوحيد البهبهاني ١١١٦ ـ ١٢٠٨هـ).

ومن أشهر العلماء الذين تعهدوا الحركة العلمية في جامعة النجف خلال الفترة المذكورة:

١ ـ السيد حسن بن حمزة الموسوي من علماء القرن التاسع حيث يذكر مؤرخوه أنه كان حياً في عام (٨٦٢).

٢ ـ الشيخ إبراهيم الكفعمي (٨٤٠ ـ ٩٠٠)، من مؤلفاته المصباح في الدعاء، قراضة النضير في التفسير.

٣ ـ الشيخ علي الكركي المعروف بـ (المحقق الثاني ٠٠٠ ـ ٩٤٠)، من مؤلفاته: جامع المقاصد في شرح القواعد في الفقه، الرسالة الخراجية في الفقه.

٤ ـ الشيخ إبراهيم القطيفي، كان معاصراً للشيخ الكركي المتقدم الذكر، من مؤلفاته: الرسائل الخراجية في الفقه، الهادي إلى سبيل الرشاد في شرح الإرشاد في الفقه.

٥ ـ الشيخ أحمد الأردبيلي (٠٠٠ ـ ٩٩٣)، من مؤلفاته زبدة البيان في شرح آيات أحكام القرآن، مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان في الفقه.

٦ ـ الأمير السيد علي ابن حجة الله الشولستاني (٠٠٠ ـ ١٠٦٠) من مؤلفاته: توضيح المقال في شرح الاثني عشرية في الفقه.

٧ ـ الشيخ أحمد الجزائري (٠٠٠ ـ ١١٥٠)، من مؤلفاته قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر.

وفي أوائل القرن الثالث عشر عادت الحركة العلمية إلى النجف الأشرف ثالثة على يد السيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف بـ (بحر العلوم)[1].

ومن الجدير بالذكر ـ هنا ـ أن انتقال الحركة العلمية من النجف إلى الحلة وكربلاء، ووجود حركات علمية مماثلة في بغداد وأصفهان وشيراز وكاشان، كان له شيء من التأثير في جزر الحركة العلمية في جامعة النجف، وإصابة حوزتها بشيء من الضعف لانعدام الحوزة العلمية وعودتها جديداً.

عصر السيد بحر العلوم:

وفي عصر السيد بحر العلوم استعادت جامعة النجف مركزها العلمي العام، وازدهرت حركتها الثقافية ازدهاراً كبيراً، حيث نشطت على يده ـ قدس سره ـ وعلى يد معاصره وأجل تلامذته (الشيخ جعفر الكبير) بفضل ما أوتيا من مؤهلات قيادية وبفضل ما بذلاه من جهود جبارة لذلك.

فعادت النجف منذ عصرهما حتى العصر الحاضر المركز العلمي العام ومقر

---

(١) راعيت في تسلسل الأسماء تسلسل تاريخ الوفاة، وكذلك فيما يأتي.

المرجعية الدينية العليا وموقع القيادة الإسلامية الموجهة.

ومن خلال العرض الآتي لحياتيهما ـ قدس سرهما ـ في الملحقين (٣ و١/٢) نستطيع أن نتعرف على مدى إعطائهما في هذا المجال، ومقدار ما قاما به وتمتعا به من أعمال ومؤهلات، فنتعرف ـ في ضوئه ـ على جامعة النجف يوم عادت تحتل القمة كجامعة علمية ومقر مرجعية وموقع قيادة.

من أعلام عصر بحر العلوم:

وكان ممن ساهم مع العلمين الكبيرين السيد بحر العلوم والشيخ الكبير في بعث الحركة الفكرية وفي رفع النجف إلى مركزها العلمي والديني الذي فقدته حيناً في فترة ما بين الشيخ الطوسي والسيد بحر العلوم.. الفقهاء التالية أسماؤهم:

١ ـ الشيخ محمد تقي الدورقي (٠٠٠ ـ ١١٨٧).

٢ ـ السيد حسين القزويني (٠٠٠ ـ ١٢٠٨)، من مؤلفاته معارج الأحكام في الفقه.

٣ ـ الشيخ محمد مهدي النراقي (١١٢٨ ـ ١١٠٩)، من مؤلفاته: جامع السعادات في الأخلاق، معتمد الشيعة في أحكام الشريعة، تجريد الأصول في أصول الفقه، لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام.

٤ ـ السيد محمد جواد العاملي (١١٦٤ ـ ١٢٢٦)، من مؤلفاته: مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة ـ ويعد أهم كتاب حافل بجمع أقوال الفقهاء ـ.

٥ ـ السيد محسن الأعرجي الكاظمي (١١٣٠ ـ ١٢٢٧) من مؤلفاته: الوسائل في الفقه، المحصول في الفقه، العدة في الرجال.

٦ ـ المولى أبو القاسم الجيلاني المعروف بـ(الميرزا القمي ١١٥٢ ـ ١٢٣١) من مؤلفاته: القوانين المحكمة في أصول الفقه، الغنائم في الفقه، المناهج في الفقه، رسالة في تراجم من وقع التصريح من أئمة الرجال في حقه بأنه من مشايخ الإجازات.

٧ ـ الشيخ محمد علي الأعسم (٠٠٠ ـ ١٢٣٣)، من مؤلفاته: المنظومة في بعض أبواب الفقه.

٨ ـ الشيخ أسد الله التستري الكاظمي (١١٨٥ ـ ١٢٣٤) من مؤلفاته: مقابيس الأنوار في الفقه، كشف القناع عن حجية الإجماع ـ ويعد أهم مؤلف في موضوعه ـ، مناهج الأعمال في الأصول.

٩ ـ الشيخ موسى كاشف الغطاء (٠٠٠ ـ ١٢٤٤).

١٠ ـ المولى أحمد بن محمد مهدي النراقي (١١٨٦ ـ ١٢٤٥) من مؤلفاته: العوائد، الفوائد الرجالية في علم الرجال ـ ويعد من أكثر المصادر الرجالية رجوعاً إليه.

١١ ـ الشيخ محمد علي الهزارجريبي (١١٩٠ ـ١٢٤٥)، من مؤلفاته: البحر الزاخر في الفقه، اللآلي في أصول الفقه.

١٢ ـ الشيخ محمد تقي الأصفهاني (٠٠٠ ـ ١٢٤٨) من مؤلفاته: حاشية المعالم في أصول الفقه.

١٣ ـ الشيخ محمد تقي ملا كتاب (٠٠٠ ـ ١٢٥٠) من مؤلفاته: الدلائل الباهرة في فقه العترة الطاهرة.

١٤ ـ الشيخ حسين نجف (١١٥٩ ـ ١٢٥١)، من مؤلفاته الدرة النجفية في مسألة الحسن والقبح، ديوان شعر.

١٥ ـ الشيخ خضر شلال (٠٠٠ ـ ١٢٥٥)، من مؤلفاته التحفة الغروية في شرح اللمعة الدمشقية في الفقه.

١٦ ـ الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر (٠٠٠ ـ ١٢٦٦) من مؤلفاته: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ـ ويعد من أهم الموسوعات في الفقه الاستدلالي.

١٧ ـ الشيخ محسن خنفر (١١٧٦ ـ ١٢٧٠)[1].

(١) انتهى ما جاء في كتاب «دليل النجف».

بعد عصر بحر العلوم:

وبقيت جامعة النجف بعد تلك النهضة الفكرية الكبرى منذ عصر السيد بحر العلوم حتى اليوم تحافظ على مركزها العلمي العالي، ومكانتها الدينية العظمى، لم يمر بها أي جزر، ولم تصب بأي تضاؤل، وقد تعاقب على إدارة حركتها الفكرية في كل دور من أدوار تاريخها حتى التاريخ الراهن أعلام من علماء الشريعة أسهموا كثيراً في خدمة الشريعة تدريساً وتأليفاً وتوجيهاً، وضمت جدرانها مئات الألوف من الطلاب المسلمين الذين جاؤوها لينتهلوا من نمير علمها الصافي، وخرّجت العديد في كل دور من أدوارها ولا تزال نشطة صاعدة.

نعم.. انتقلت الدراسة من النجف إلى سامراء مدة وجيزة أثناء هذه الفترة وذلك حينما هاجر إليها (السيد الميرزا محمد حسن الشيرازي) عام (١٢٩١) وبقيت حتى وفاته سنة (١٣١٢)، ثم عادت إلى النجف الأشرف، مستقرة فيها حتى اليوم.

ومن أشهر العلماء الذين تعهدوا رعاية الحركة العلمية بعد عصر السيد بحر العلوم حتى الآن هم:

١ ـ الشيخ مرتضى الأنصاري (٠٠٠ ـ ١٢٨١)، من مؤلفاته: المكاسب في الفقه، الرسائل في أصول الفقه ـ ويعد الكتاب الذي أسهم في تطوير أصول الفقه إلى مستوى النضج ـ.

٢ ـ الشيخ مهدي كاشف الغطاء (١٢٢٦ ـ ١٢٨٩).

٣ ـ الشيخ راضي النجفي (٠٠٠ ـ ١٢٩٠)، من مؤلفاته حاشية على نجاة العباد في الفقه.

٤ ـ الشيخ محمد حسين الكاظمي (١٢٢٤ ـ ١٣٠٨)، من مؤلفاته: هداية الأنام في شرح شرائع الإسلام في الفقه.

٥ ـ الميرزا حبيب الله الرشتي (٠٠٠ ـ ١٣١٢) من مؤلفاته بدائع الأفكار في أصول الفقه، الالتقاط في الفقه.

٦ ـ الشيخ محمد الشربياني (١٢٥٠ ـ ١٣٢٢).

٧ ـ آغا رضا الهمداني (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢) من مؤلفاته: مصباح الفقيه في شرح شرائع الإسلام في الفقه.

٨ ـ الشيخ محمد طه نجف (١٢٤١ ـ ١٣٢٣) من مؤلفاته الإنصاف في مسائل الخلاف في الفقه، الدعائم في أصول الفقه، إتقان المقال في أحوال الرجال.

٩ ـ الشيخ محمود ذهب (٠٠٠ ـ ١٣٢٤) من مؤلفاته: رسالة في العلم الإجمالي، رسالة في التقليد.

١٠ ـ الميرزا حسين الخليلي (١٢٣٦ ـ ١٣٢٦) من مؤلفاته شرح نجاة العباد في الفقه.

١١ ـ الشيخ محمد كاظم الخراساني الشهير بالأخوند (١٢٥٥ ـ ١٣٢٩) من مؤلفاته: كفاية الأصول ـ ويشكل هذا الكتاب حلقة مهمة من حلقات تطور أصول الفقه في المضمون والمنهج، حاشية الرسائل في أصول الفقه، شرح التبصرة في الفقه.

١٢ ـ الشيخ عبدالله المازندراني (١٢٥٦ ـ ١٣٣٠).

١٣ ـ الشيخ علي رفيش (١٢٦٠ ـ ١٣٣٤).

١٤ ـ الشيخ علي الخاقاني (٠٠٠ ـ ١٣٣٤) من مؤلفاته: شرح اللمعة في الفقه.

١٥ ـ السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (١٢٤٧ ـ ١٣٣٧) من مؤلفاته: العروة الوثقى في الفقه ـ ويعد من أحفل الكتب الفقهية المتأخرة بجمع الفروع ـ حاشية على المكاسب في الفقه.

١٦ ـ شيخ الشريعة الأصفهاني (١٢٦٦ ـ ١٣٣٩) من مؤلفاته: إرث الزوجة من ثمار العقار، إفاضة القدير في حل العصير.

١٧ ـ الشيخ علي الشيخ باقر الجواهري (٠٠٠ ـ ١٣٤٠) من مؤلفاته: حاشية على العروة الوثقى.

١٨ ـ الشيخ أحمد كاشف الغطاء (١٢٩٢ ـ ١٣٤٤) من مؤلفاته: أحسن

الحديث في الوصايا والمواريث، سفينة النجاة في الفقه.

١٩ ـ الشيخ عبدالله المامقاني (١٢٩٠ ـ ١٣٥١) من مؤلفاته: مقباس الهداية في علم الدراية، تنقيح المقال في أحوال الرجال، مناهج المتقين في الفقه.

٢٠ ـ الشيخ محمد جواد البلاغي (١٢٨٠ ـ ١٣٥٢) من مؤلفاته: الرحلة المدرسية في الرد على النصرانية، الهدى إلى دين المصطفى في الرد على اليهودية، آلاء الرحمن في تفسير القرآن.

٢١ ـ الميرزا محمد حسين النائيني (٠٠٠ ـ ١٣٥٥) من مؤلفاته: وسيلة النجاة في الفقه، حاشية على العروة الوثقى، تنبيه الأمة وتنزيه الملة في الفقه السياسي.

٢٢ ـ الشيخ ضياء الدين العراقي (٠٠٠ ـ ١٣٦١) من مؤلفاته: شرح التبصرة في الفقه، مقالات الأصول في أصول الفقه.

٢٣ ـ الشيخ محمد حسين الأصفهاني (١٢٩٦ ـ ١٣٦١) من مؤلفاته: نهاية الدراية في شرح الكفاية في أصول الفقه، حاشية على المكاسب في الفقه، الإجارة، تحفة الحكيم: منظومة في الحكمة الإلّهية.

٢٤ ـ السيد أبو الحسن الأصفهاني (١٢٨٤ ـ ١٣٦٥) من مؤلفاته: وسيلة النجاة في الفقه، حاشية على العروة الوثقى في الفقه.

٢٥ ـ الشيخ محمد رضا آل ياسين (١٢٩٧ ـ ١٣٧٠) من مؤلفاته: سبيل الرشاد في شرح نجاة العباد في الفقه، شرح التبصرة في الفقه، بلغة الراغبين في الفقه.

٢٦ ـ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (١٢٩٤ ـ ١٣٧٣) من مؤلفاته: الدين والإسلام، تحرير المجلة في الفقه، أصل الشيعة وأصولها.

٢٧ ـ الشيخ محمد حسن المظفر (١٣٠١ ـ ١٣٧٥) من مؤلفاته: شرح القواعد في الفقه، دلائل الصدق.

٢٨ ـ السيد جمال الكلبايكاني (١٢٩٦ ـ ١٣٧٧) من مؤلفاته: الاجتهاد والتقليد.

٢٩ ـ السيد إبراهيم الاصطهباناتي (١٢٩٧ ـ ١٣٧٨) من مؤلفاته: وسيلة النجاة في الفقه، ذخيرة العباد في الفقه.

٣٠ ـ السيد حسين الحمامي (١٢٩٨ ـ ١٣٧٩) من مؤلفاته هداية المسترشدين في الفقه، حاشية على وسيلة النجاة في الفقه.

٣١ ـ الشيخ عبد الكريم الجزائري (١٢٨٩ ـ ١٣٨٢) من مؤلفاته: تعليقة على مكاسب الأنصاري في الفقه، ديوان شعر.

٣٢ ـ السيد ميرزا عبد الهادي الشيرازي (١٣٠٥ ـ ١٣٨٢) من مؤلفاته: وسيلة النجاة في الفقه، حاشية على العروة الوثقى في الفقه.

أما أشهر الذين يتعاهدون رعاية الحركة العلمية اليوم فهم:

١ ـ السيد محمود الشاهرودي[١] (١٣٠٤ ـ ٠٠٠) من مؤلفاته ذخيرة المؤمنين في الفقه، حاشية على العروة الوثقى.

٢ ـ السيد محسن الطباطبائي الحكيم (١٣٠٦ ـ ٠٠٠) ـ ويشغل منصب المرجع الديني العام ـ من مؤلفاته: مستمسك العروة الوثقى في الفقه ـ ويعد آخر حلقة تطور انتهى إليها الفقه الاستدلالي في طريقة التدوين ومنهجة البحث ـ نهج الفقاهة في الفقه، منهاج الصالحين في الفقه. حقائق الأصول، في أصول الفقه.

٣ ـ السيد أبو القاسم الخوئي[٢] (١٣١٧ ـ ٠٠٠) من مؤلفاته: أجود التقريرات في أصول الفقه، البيان في تفسير القرآن، تعليقة على العروة الوثقى[٣].

* * *

إلى هنا نكون قد أنهينا بحثنا عن تأريخ الدراسة في النجف، والأدوار التي مرت بها، وإذا كان قد فاتنا شيء حول هذا الموضوع، فإن ذلك سوف يتدارك في المجلدات الآتية على شكل «ملحقات» إن شاء الله تعالى.

---

(١) توفي في سنة ١٣٩١هـ.

(٢) توفي في ٩ صفر ١٤١٣هـ.

(٣) انتهى ما جاء في كتاب «دليل النجف».

وأود أن ألفت القارىء الكريم، أن النجف قد مرت بأدوار كثيرة سيما المتأخرة منها، وأن هناك علماء عظام قد أهمل ذكرهم في قائمة «علماء النجف» أهمل من قبل الباحثين الذين قرأت لهم، ولعلهم معذورون في ذلك، إذ تناولوا أسماء المقيمين فيها، أو الذين انتهت لهم الزعامة، زعامة النجف أو الزعامة العامة.

الفصل الرابع

كلمات قصيرة حول
أسلوب الدراسة في النجف
ونظام الحلقات

* الإمام السيد محسن الأمين.
* الشيخ علي الشرقي.
* الدكتور فاضل الجمالي.



أسلوب الدراسة في النجف..
ونظام الحلقات

من أبـرز ما تمتـاز به «جـامعة النجف» في تـدريسهـا، وتلقيهـا، هـو نـظام الحلقات، النظام ذو الطابع التقليدي في طريقـة الدراسـة. كما هـو الحال سـابقاً في المدرسة «النظامية» و«الأتابكية» والمستنصرية والأزهر الشريف.

وكما كانت عليه في «باملبونة» و«سيجـوفيا» و«بـرشلونة» و«طليـطلة» وغيرهـا تلك المدارس العربية التي يعود الفضل إليها في نقل ثقافة العرب إلى الغرب[١].

وقبل أن نعرض لـلأبحاث المفصلة، رأينـا أن ننقل بعض «الكلمـات» التي يصح أن نسميها تاريخية، لأنها تعطي صورةً عن طبيعة الدراسة وكيفيتهـا في ذلك الوقت.

وأولى تلك الكلمات هي للإمـام السيد محسن الأمين التي كتبهـا قبل مـائة وأربـع سنوات تقـريباً من هـذا التـاريـخ، وهي تعـطي صـورة مجملة عن الحيـاة العلمية في النجف الأشرف وقد جاء فيها[٢]:

أقسام التدريس في النجف

التـدريس هناك قسمـان (**الأول**) تدريس السـطوح وهو القـراءة من الكتـاب

(١) شمس الدين/ حديث الجامعة النجفية ٤٠.

(٢) أعيان الشيعة/ المجلد العاشر ـ سيرة المؤلف.

ولكل علم من العلوم كتب مخصوصة يدرس فيها ذلك العلم فيقرأ المدرس عبارة الكتاب ويفسرها للطلاب وإن كان له نظر خاص واعتراض بينه ومن كان له من الطلاب قابلية الرد عليه ومباحثته رد عليه وباحثه فيقرؤون أولاً النحو والصرف ثم البيان والمنطق ثم الأصول والفقه في كتب مخصوصة لهذه ومنهم من يقرأ علم الكلام الإلهي وحده أو الطبعي والإلهي.

(الثاني) تدريس الخارج أي الخارج عن الكتاب وهو إلقاء الدرس بدون كتاب وهذا يكون في علمي الأصول والفقه لنيل درجة الاجتهاد لمن وفقه الله لذلك فيلقي الشيخ مسائل أصول الفقه واحدة بعد الأخرى ويذكر أقوال العلماء فيها وحججهم ويفندها ويختار أحدها ويصحح دليله ويحتج عليه ويناقشه الطلاب ويجيبهم ويردون عليه ويرد عليهم وكذلك الفقه يذكر الفرع الفقهي وأقوال العلماء فيه وأدلتهم من الأخبار وغيرها وإجماعهم ويناقشه الطلاب على نحو ما مر في علم الأصول وهكذا حتى تنتهي مسائل الباب الذي شرع فيه فينتقل إلى باب آخر وهذا القسم يكون التدريس فيه بعد الفراغ من القسم الأول وهو تدريس السطوح.

تنظيم الدروس

الدروس منظمة تنظيماً طبيعياً بحسب الكتب وبحسب السطح والخارج ففي النحو والصرف مثلاً يبدأ بقراءة كتب مخصوصة وبعد إتمامها ينتقل إلى غيرها وهكذا باقي العلوم ويبدأ بالنحو والصرف وبعد إكمالها ينتقل إلى البيان والمنطق وبعد إكمالهما ينتقل إلى الأصول والفقه سطحاً وبعد الفراغ منهما ينتقل إلى الأصول والفقه خارجاً.

وهذا ترتيب جيد نافع إلا أن تطبيقه راجع إلى الطلبة أنفسهم فمنهم من يوفق إلى تطبيقه تطبيقاً تاماً فلا يقرأ في كتاب حتى يتم ما قبله ويتقنه ولا في علم حتى يفرغ من الذي قبله ويتقنه ولا يقرأ درس الخارج حتى يفرغ من السطوح وكثير منهم لا يطبق هذا البرنامج فيشرع في الكتاب المتأخر قبل إكمال المتقدم وفي درس الخارج قبل اتقان السطوح فلا يستفيد شيئاً أو يستفيد فائدة قليلة في مدة طويلة.

وهناك خلل آخر يحصل من اختيار الشيوخ فلا يكون الشيخ صالحاً لتدريس هذا الفن أو لا يكون صالحاً للتدريس أصلاً ويغتر به الطلاب لكن هذا قليل والخلل السابق أكثر منه.

وليس هناك من يجبر على تطبيق هذا البرنامج ولا على اختيار الشيوخ الصالحين للتدريس ولا يمنع شيخ أحداً من درسه إن لم يكن من أهله هذا إن لم يرغبه فيه حباً بتكثير السواد وليس هناك امتحان ترتيب الدروس على حسبه.

وهناك خلل ثالث في الدروس الخارجية وهو أن المتأخرين من أهل عصرنا وما قاربه اشتغلوا في تحرير محل النزاع فصرفوا في تدريسه شهوراً وأياماً وفي التعريفات فقالوا: إنها غير جامعة أو غير مانعة فزادوا عليها فجاء الاعتراض من جهات أخرى وأول من انتبه لذلك شيخنا الشيخ ملا كاظم الخراساني فقال في تحرير محل النزاع إن كان النزاع في كذا فالحق كذا وإن كان في كذا فالحق كذا وقال في التعريفات إنها لفظية كقول اللغويين سعدانة نبت فلا يلزم كونها جامعة مانعة.

وخلل رابع وهو إدخال مسائل الكلام في علم أصول الفقه.

(وخامس) وهو التطويل في مسائل من علم الأصول فرضية لا فائدة فيها كدليل الانسداد وتعارض الأحوال وغيرها بل في جميع مسائل الأصول.

(وسادس) وهو إهمال علم الحديث وتصحيح الأسانيد والاكتفاء بتصحيح من سبقهم.

(وسابع) وهو عدم إتقان اللغة العربية ومعرفة خصوصياتها ودقائقها لا سيما من الأعاجم.

أيام التعطيل

تعطل الدروس في النجف في يومي الخميس والجمعة بل في الحقيقة يوم الخميس فقط لأن يوم الجمعة يشتغل فيه بعد الظهر بمطالعة دروس يوم السبت وتعطل الدروس في شهر رمضان وأكثر شهري رجب وشعبان ولا تعطل في

الصيف ومن الشائع أن التحصيل بين تعطيلين غير مستحب ولهذا قال بعض الظرفاء لما سئل عن كيفية تحصيله: يوم أنا في الحمام ويوم شيخي في الحمام ويوم خلقي ضيق ويوم شيخي خلقه ضيق ويوم خميس ويوم جمعة ويوم تحصيل بين تعطيلين وتم الأسبوع.

الإجازة

(منها) إجازة الرواية وهذه لا يشترط في المجاز بها ألا يكون مجتهداً (ومنها) إجازة الاجتهاد وهي شهادة بأن المجاز صار له ملكة استنباط الفروع من الأصول وأنه ثقة عدل يصح أخذ الأحكام عنه ويعرف ذلك بالممارسة لا سيما إن كان من تلاميذ المجيز.

وبعد الانتهاء مما كتبه (الأمين قدس سره) تأتي كلمة الشيخ (الشرقي) في المرتبة الثانية من حيث القيمة التاريخية، وقد جاء فيها[١]:

المدرسة النجفية

إن مبدأ المدرسة العربية الإسلامية وبذرتها الأولى، هي تلك الحلقة المقدسة التي كانت تجتمع في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتتطارح بالحديث والسنة، والإدارة والتاريخ والأدب، ثم توسعت تلك الحلقات والاجتماعات، فكانت في مسجد الكوفة، ومسجد البصرة، وصارت المساجد مركزاً للحركة الفكرية، فالمساجد في غير أوقات العبادة مدارس، وهذه الطريقة القديمة محفوظة في النجف اليوم. فالجامع الهندي ومشهد علي عليه السلام المعروف عندنا بالصحن ـ وغيرهما، في أوقات العبادة تجد الطلاب هناك حلقاً حلقاً مبثوثين، وبعض الأساتذة على المنابر وكلهم يتطارحون في المباحث العلمية والأدبية.

ومشهد علي عليه السلام ـ الصحن ـ أول إنشائه كان بصفة مدرسه حول الرواق العلوي، كما ذكره الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٦هـ وذلك على عهد

---

(١) الدكتور السيد محمد بحر العلوم/ من موسوعة العتبات/٧ ق٢/ ص٩١.

عمارته الأولى، العمارة البويهية، وهكذا هو في عمارته الحالية وهي العمارة الصفوية التي خططت في غرة القرن الحادي عشر، فإنه يشكل مدرسة تدور عليها خلوات وإيوانات في الطبقة السفلى ومثلها في الطبقة العليا وأمامها بهو (قاعة) للتدريس، والاجتماع وهكذا كانت الخلوات مشحونةً بالطلاب الغرباء، ورواد العلم، وما زالت بعض الخلوات أو الحجر، تعرف بأسماء العلماء الذين كانوا يقطنونها مثل حجرة الأردبيلي في الطبقة العليا فوق الباب المعروف بباب القبلة. وقد كانت خزانة كبيرة للمدرسة العلوية أي «الصحن» قيل إنها كانت تشتمل على ٤٠٠ ألف كتاب، وأخيراً تبدلت الحال وصارت الخلوات التي في الطبقة السفلى مقابر للأموات التي تريد التقرب من مرقد الإمام عليه السلام، وبقيت الخلوات التي في الطبقة العليا فارغة موحشة، وما هي إلا عشاً للخفاش، ولطيور الحمام المعروف بحمام الحضرة.

بادت تلك الخزانة ولم يبق منها غير مئات من نسخ القرآن المجيد وكتب الأدعية وشيء من الكتب المبعثرة، مكدسةً في بيت صغير في الصحن، من جهة القبلة. وقد ذكر ابن بطوطة أن مشهد علي عليه السلام محفوفٌ بالمدارس والزوايا، والجوانف.

ومن القرن الثاني عشر كثر تشييد البنايات والأروقة حول المشهد المقدس لسكنى الغرباء من طلاب العلم، وربما كان فيها بعض التخصيص فيقولون هذه مدرسة الهنود، وهذه مدرسة الترك، وهذه مدرسة القزوينيين، وهلم جراً؛ وما هذه بمدارس، لأنه ليس فيها مناهج ولا أساتذة ولا صفوف، وقد تعرف باسم أستاذ كبير مثل مدرسة الملا كاظم، ومدرسة السيد كاظم، وقصدهم من هذه النسبة أنه شيدها وما هي إلا منازل للسكنى فقط.

والمدارس الحقيقية هي الجوامع والمشهد الصحن.

وفي النجف ٥٣ مدرسة بين قديمة وحديثة، أعتقها المدرسة المعروفة بمدرسة الصحن ويظهر أنها أقدم مدرسة في النجف، وهي بناية قديمة بجنب الصحن، من الجهة الشمالية، وبابها مشروع من أحد إيوانات الصحن، وطرز هندسة عمارتها مغاير للعمارة الصفوية الماثلة في الصحن والرواق، ويظهر أن

عمارة المدرسة أقدم، وأقدم وهي اليوم فارغة ومتداعية، ويعرف النجفيون بعض مدارس قديمة جداً درست ونهضت بمكانها دور السكنى، مثل دار في محلة المشراق تعرف بدار الملا شاكر، ومثل عمارة في محلة العمارة، تعرف بدار الآغا خانية، وكثير غيرها.

وقد كانت المدرسة العربية الأولى بمثابة عنوان للأدب الناضج، والنور الشائع في نفوس الأمة بأسرها، لا يخص طائفةً دون أختها، فمثل بيت الحكمة في بغداد كان بين الأمة بأسرها، وهكذا كانت المدرسة النظامية، والمستنصرية وسائر مدارس بغداد، والأندلس، في دورها الأول، ثم افترقت الأمة فتأسست مدرستان، مدرسة للأشاعرة، ومدرسة للمعتزلة من جهة، ومن جهة أخرى، مدرسة للظاهرية، ومدرسة للباطنية، كالتصوف بطرقه كلها، وبحلقاته، ومناحيه، وزاد الافتراق، فتأسست مدرسة للسنة في بغداد، ومصر، ودمشق ومدرسة للشيعة في قم، وفي الحلة، وشيراز، وأصفهان، وبلاد عامل، ثم زاد الافتراق فوق ذلك كله، فتأسست مدارس لِفرَق السنة، ومدارسُ لفرقِ الشيعة فكان في القرن الثاني عشر للهجرة مدرستان للشيعة في كربلاء تتزاحمان: مدرسة الإخبارية، ومدرسة الأصولية، وكان الرجحان لمدرسة الإخبارية، حتى بعث الله ذلك المجدد الكبير والمصلح الشهير العلامة المعروف بالآغا البهبهاني.

نبغ ذلك العبقري في بهبهان إحدى مدن الخليج الفارسي وبعد أن برز فيها هاجر إلى كربلاء فنفخ من روحه الطاهر في مدرسة الأصولية، فزاحمت المدرسة الإخبارية، بل أحرجتها فأخرجتها من كربلاء والنجف. وعلى يد ذلك العلامة تأسست المدرسة الأصولية الكبرى أو دار المعلمين في النجف، وصارت تلك المدينة مدرسة عالية لتلك الطائفة فالنجف اليوم هي مدرسة الآغا البهبهاني وكل من نبغ فيها أو ينبغ من العلماء، فهم تلاميذ الآغا البهبهاني.

طريقة التدريس في مدارسها

وطريقة التدريس في النجف قديمةٌ، تتردد بين الطريقتين اليونانيتين القديمتين، وهي طريقة التحليل، بأن يتناول الأستاذ الموضوع، ويجزئه إلى أقسام، ثم يتناول كل قسم ويحلله إلى أجزاء، وهكذا يقسم، ويحلل، ويجزىء،

حتى يصل إلى أدق تلك الأقسام، وحينئذ يتناولها ويبحث في الأسباب والعلاقات والمعاني والألفاظ.

وطريقة التفسير والشرح هي أن يضع الباحث أولاً نص القضية فيدرسها ويأخذ بتفسيرها من جميع الوجوه الممكنة وفي الأخير يختارُ الوجه الذي يستنسبه والتفسير الذي يختاره.

ويغلب على الأسلوب العلمي في التحرير والتقرير، أسلوب محاورات سقراط المعروفة، وهي الطريقة المعروفة بطريقة السؤال والجواب أو طريقة: «فإن قلت كذا قلت كذا» وهي عبارة عن محاورات يفرضها الأستاذ بينه وبين طرف مفروض. يبدأ الأستاذ بطرح بعض الأسئلة، ثم يذكر الجواب الذي يتوقعه من ذلك الطرف المفروض ثم يتدرج إليه بالأسئلة حتى يصل به إلى الاستجواب عن الحقيقة التي يحذقها ذلك الأستاذ.

والدراسة في النجف على نوعين «سطوح» و«خارج».

أما طريقة السطوح فهي أن يتكلم الأستاذ والتلميذ على سطح كتاب مفتوح بينهما ويتعاطيان جملة منه خاصة.

وأما دراسة «الخارج» فهي أن يذكر الأستاذ عنوان المسألة التي يريد أن يبحث فيها ويقرر عن ظهر قلبه عدة آراء وأقوال حولها، ثم يختار ما يرتئيه والتلاميذ يلتفون حول منبره كالمستمعين لخطابه أو لمحاضرته وهم مثل الأستاذ يستظهرون تلك المسألة وما فيها من آراء وأقوال، وينتظرون ما يرتئيه الأستاذ فيقرونه عليه أو يناقشونه فيه.

وكتب الدراسة قديمة مثل كتاب «قطر الندى» لابن هشام وشرح منظومة ابن مالك ومغني اللبيب لابن هشام في النحو.

ومثل كتاب النظام والمكودي للصرف.

ومثل حاشية الملا عبدالله الشارحة لمتن التفتازاني في المنطق.

ومثل شرح المطول أو المختصر لسعد الدين في المعاني والبيان.

ومثل كفاية العلامة الخراساني. ورسائل الشيخ الأكبر الأنصاري في الأصول.

ومثل شرح اللمعة للشهيد العاملي طاب ثراه. والمكاسب للشيخ الأنصاري قدس سره في الفقه.

ومثل رجال أبي علي في الرجال.
ومثل كتاب الوسائل، وكتاب البحار، في الحديث والأخبار.
ومثل قاموس الفيروزآبادي، وصحاح الجوهري في اللغة.
وخلاصة الحساب للشيخ البهائي العاملي في الحساب.
ومثل أشكال اقليدس في الهندسة.
وكتاب المجسطي في الهيئة.

وتأتي في المرحلة الثالثة كلمة (مجلة الاعتدال) عدد/ ٥ السنة السادسة ١٣٥٦هـ تموز ١٩٤٦ وهي تقويم عام للدراسة ولا تتناول مفرداتها:

الدراسة في النجف

عرفت مدينة النجف منذ تسعة قرون بأنها مدار للحركة العلمية، ومقصد للطلاب وذلك منذ أن هاجر إليها الشيخ الطوسي. من بغداد ـ في سنة ٤٤٨هـ على العهد السلجوقي، تلك الهجرة المباركة التي كانت مبدأ اشتهارها بمنزلتها الدينية، وذيوع أمرها في مختلف الأقطار الإسلامية، فقد أصبحت بعدها محط رحال طلاب العلم، ورائدي المعرفة والحكمة. فأضفى عليها ذلك ـ بالإضافة إلى ما لها من مكانة محترمة لدى العالم الإسلامي كافة، بالنظر إلى أنها مرقد أبي الأئمة الهداة، وابن عم الرسول الأعظم، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ـ رونقاً جديداً هو رونق العلم، وزادها فضيلة هي فضيلة الدرس، فكان فيها أساطين رجال الدين وأعلام العلماء والمجتهدين، وكبار رجال التشريع وعظماؤهم ممن نالوا الزعامة الدينية العامة فكانوا ذوي الأمر والنهي المطلقين، وكانت لهم المرجعية العامة، فحفلت النجف بطلاب العلوم وغصت بيوتها ومدارسها العلمية بالوافدين من مختلف العناصر، والأجناس الذين يمموها من

شتى الأقطار العربية، والإسلامية، فكنت وما زلت ترى السوري إلى جنب الهندي، والحجازي إلى جنب الأفغاني، والمراكشي إلى جنب الإيراني، وهكذا. . فقد اجتمعت هذه الجنسيات المختلفة وكلها متجهة إلى غاية نبيلة واحدة، وهدف جليل واحد، هو طلب العلم والتفقه بتعاليم الشريعة السامية، فكانت النجف السوق الرائجة للعلوم على اختلافها، وقد نبغ من بين هؤلاء وأولئك أعلام الدين وأكابر المجتهدين، وخلفوا الكثير من الآثار القيّمة، والكتب المفيدة التي لو تهيأ لها الظهور إلى عالم الطبع والنشر لعرف العالم ما لهذا التراث الوفير من شأن عظيم ومكانة جليلة، وما له من فائدة كبيرة ومنفعة عظيمة.

كانت النجف بهذا الوضع المشرف السامي، والمنزلة العالية وهي ترتبط بأمهات المدن الإسلامية العظيمة التي نبغ فيها ـ يومذاك ـ فطاحل العلماء الأعلام وأكابر المجتهدين العظام، في حلب الشهباء والحلة الفيحاء، وفي دار السلام بغداد، وجبل عامل «سوريا»، فكانت النجف واسطة العقد من هذه المدن الكبرى وهمزة الوصل بين هذه الحواضر الأدبية العلمية، ولقد ظلت طوال هذه القرون توحد متفرقها، وتجمع شتاتها، على رأي واحد وكلمة واحدة، تغذيها من علمها وأدبها، وتزودها من آرائها وأفكارها بكل معجب أنيق وجليل عظيم، بنشاط لا يعتوره الفتور، حتى شملت هذه الحركة مختلف العلوم والفنون الشائعة حينذاك، وتناولت شتى الدروس والأبحاث لا تقصر بحثها على العلم دون الأدب ولا على الأدب دون العلم، ولا عليهما دون الفلسفة والحكمة.

* * *

ومع هذا يخيل للكثير ـ من غير المطلعين على مدرسة النجف، وكيفية الدراسة فيها ـ أن الدراسة في النجف كانت جامدة لا تتعدى الفقه والأصول، ولا تتجاوز اللغة العربية وآدابها، مع أن فيها كما ذكرنا آنفاً للمنطق والحكمة، والفلسفة والتفسير والهيئة، وما إلى ذلك من العلوم الأخرى، أفسح مجال، ولطلابها من هذه العلوم القدح المعلى، والنصيب الأوفر، هذه هي ميزة النجف التي جعلت منها المدينة ذات الشأن المرموق، والمكانة المحترمة في النفوس، وبذلك اشتهر أمرها في شتى الأقطار وذاع صيتها في أقصى المدن والأمصار.

* * *

النجف مدينة تختلف عن سائر المدن العربية والإسلامية، فارتفاع أرضها وجفاف مناخها، وقربها من البادية، وبعدها عن ضوضاء المدينة الحديثة، جعل منها مدينة أشبه شيء بمدرسة جامعة واحدة، لها منهجها الخاص بها، هو خلاصة القديم الذي عرفت به من عهدها السابق، وخيار الجديد الذي جاء به هذا العصر، فهي لم تزل ولا تزال تواصل الحركة الفكرية والأدبية؛ وتطالع ما تَطلُع به المطابع في أنحاء المعمورة من كتب حديثة، وآراء جديدة، فمكتباتها الكثيرة زاخرة بكل قديم قيّم، وكل جديد جيد.

إن للنجف ـ مع ما لها من مكانة أشرنا إليها في صدر كلمتنا وفي أثنائها ـ رسالة ينبغي أن تؤديها، وأن عليها واجباً لا بد لها من القيام به، وأن عليها ضريبة ـ هي ضريبة العلم على أهله ـ لا مناص من دفعها إلى الناس كافة، وليس من الجائز أنِ تتقاعس عن أدائها كاملة غير منقوصة. لذلك لم يكن غريباً ـ وقد أدركت النجف كل هذا ـ أن تجهد جهدها لربط ماضيها بحاضرها وربط هذين بمستقبلها، وأن تعمل على تنمية قابليات أبنائها، ليتسنى لهم أن يأخذوا للزمن عدته، فيلموا بما يفرضه عليهم هذا العصر ـ الذي فيه تطورت الأهداف، وتعددت المرامي والغايات ـ من صالحات أعماله، وأفكاره، ذلك لأن أبناءها هؤلاء هم وارثو مجدها التليد، وبناة مجدها الطريف، وعنوانها الذي يفخر به، ويعتز به.

* * *

هذه هي النجف، وهذا واجبها تجاه تطورات الزمن، وهذا هو فضلها الذي لا يجارى، فعليها أن تنشط اليوم، وتهب مسايرة للزمن آخذة بأسباب التجدد والتطور بعد أن حدبت على كنوز العالم والأدب طوال التسعة القرون الخالية وقد وقفت خلالها صامدة ترد عنها عاديات الدهر وغوائل الأيام، وبعد أن ثبتت كالطود الأشم تدفع عنها عوامل الخمول والانحلال، التي أخمدت كل جذوة من جذوات الفكر في الدنيا العربية، فلقد كانت النجف إحدى المعاقل التي تحصنت فيها اللغة العربية. إن على النجف اليوم ـ بعد كل تلك الأحداث، وبعد كل ذلك الحدب والحنوّ على التراث العربي ـ أن تزيد تلك الكنوز ثروة أخرى من حضارة هذا العصر ومدنيته بعد إخضاعها لأسلوبها، وطبعها بطابعها، وإننا لنأمل أن يزيد

نشاط النجف هذا على مرور الأيام قوة وحيوية لتستطيع بهما أن تصمد للتيارات والعواصف، وأن تساهم في تقدم الثقافة والمعارف، فهي ـ كسائر البلاد العربية الأخرى ـ ما زالت في مطلع نهضة جديدة لا يتجاوز عمرها ربع القرن، وهو زمن إذا قيس بزمن تلك الرقدة الطويلة الرهيبة كان ـ بحساب نهضات الأمم، وتطورات الشعوب ـ زمناً لا يكفي لأن تفتح فيه عيونها، وأن تقصر أنوار هذه الحياة؛ وتتعرف على مظاهرها وألوانها.

إن على النجف أن تنفض عنها الغبار الذي تراكم عليها وعلى آثارها بحكم الزمن، وأن علينا نحن أهلها أن ننهض لا كسلين ولا متثاقلين لنلحق بقافلة الأمم السائرة، ولنواكب مواكب العصر الجديد، فالزمن يسير مسرعاً وتزداد سرعته يوماً بعد يوم، فمن تأخر عنه أو توانى يكن مصيره الزوال وعاقبته الضياع.



الفصل الخامس

بحوث شاملة حول
أسلوب الدراسة في النجف ونظام الحلقات

* الشيخ محمد تقي الفقيه.
* الشيخ محمد رضا شمس الدين.
* الدكتور فاضل الجمالي.
* السيد محمد بحر العلوم.
* الشيخ عبد الهادي الفضلي.

أسلوب الدراسة في الجامعة النجفية(*)

تمهيد

لا يختلف أسلوب الدراسة في جامعة النجف كثيراً عن سائر الجامعات الإسلامية القديمة في نوعية التدريس، إنما تمتاز هذه الجامعة بطريقة تحصيل ملكة الاجتهاد في الفقه الذي تختص الإمامية بفتح بابه.

وثمة اختلاف آخر: هو أن الطالب الديني في مرحلة دراسته في هذه الجامعة، لا يفكر بأن ينال شهادة، أو يجتاز عقبة امتحان رسمي ليحظى بوظيفة، إنما يفكر ويطلب العلم لنفسه.

ومن مميزات هذه الدراسة، أن الطالب حرٌّ في اختيار المدرس. ولم يسع المدرس التخلّف بوجه ـ إذا كانت لديه فرصة من الوقت ـ ولم يكن هذا الدافع، خوف السلطة الزمنية، وضغطها على المدرّس بالتخلف عن الاستجابة للتدريس، إنما هي طبيعة النجف الأشرف مبنية على هذا النهج، فهو باستجابته يلبي دعوة الواجب الديني فقط.

والتدريس في الجامعة النجفية بكل أقسامه مجاني لا يأخذ عليه المدرس أجراً، ولا يتقاضى في سبيله راتباً، إنما عمله خالص لوجه الله سبحانه.

وتمر على الطالب ثلاث مراحل ليصل إلى غايته المنشودة. وهي «مرتبة الاجتهاد» وهي:

(*) جامعة النجف للشيخ الفقيه.

أولاً: الدراسات التمهيدية، أو «مرحلة المقدمات».
ثانياً: الدراسات الوسطى، أو «مرحلة السطوح».
ثالثاً: الدراسات العليا، أو مرحلة «بحث الخارج»(١).

طبيعياً، أنّ وجهات النظر تختلف بالنسبة إلىٰ الكيفية التفصيلية حول ظروف الدرس، أو التدريس واختيار الأستاذ، والكتاب، والمكان، بالإضافة إلى أسلوب «الامتحان» وكيفيته، وإمضاء العطل الدراسية وأوقاتها، وإقامة الطالب وأسباب معاشه، وما إلى ذلك من تفاصيل تتكفل ببيانها «البحوث» الآتية.

وكما قلنا - نظراً لتطور الدراسة في النجف - فإن ذلك يختلف باختلاف نظرة الباحث، وقرب عهده فالأجدر بنا أن نستعرض في هذا المجال ما كُتب حول هذا الموضوع، آخذين بعين الاعتبار، الأسبق، فالأسبق، لأن في ذلك إعطاء صورة تاريخية مفصلة.

التدريس في جامعة النجف

والدراسة في النجف انفرادية، بمعنى أن الذي يتلقى الدرس عند الأستاذ عدد محدود، فقد يكون واحداً، وقد يكون أكثر، وخطة التدريس الانفرادي أنجح للطالب وأجدى، لأن الأستاذ يتوجه إليه وحده، وقد يشعر منه أنه لم يفهم الدرس فيعيده له لوقته، وقد يطلب التلميذ إعادته في اليوم الثاني وكثيراً ما يوجز الأستاذ الدرس السابق قبل الشروع في الدرس الجديد، ومن الطبيعي أن يفهم التلميذ الدرس في هذا الحال فهماً كاملاً بقدر موهبته وبقدر موهبة الأستاذ أما الدراسة

(١) أخذ هذا الفصل من كتاب «جامعة النجف» ١٠٥ - ١٧٣ و٨٠ - ٨٥. الشيخ محمد تقي الفقيه. وقد كتبه أيام دراسته في النجف، أي قبل نصف قرن تقريباً، حيث قال في نهايته: وكان السبب في تأليفه كما قال: هاجرت إلى النجف في سنة ١٣٤٥هـ وزرت وطننا الحبيب (جبل عامل) منذ ذلك اليوم حتى الساعة مرتين، مرة في سنة ١٣٧٤ ومرة ١٣٥٠هـ وكثيراً ما كان يرد علي سؤال واحد من طبقات مختلفة، يدور حول «جامعة النجف» وكان السائلون يظهرون الإعجاب والدهشة بخريجي النجف، وقد كدت أتهمهم بالمجاملة لولا كنت أتبين صدق أكثرهم وبالطبع إن الجواب كان واحداً، إلا أنه كان يختلف بالإيجاز والإسهاب باختلاف الظروف والملابسات لذلك كتبت كلمة مسهبة عن النجف في تلك الآونة - ٨٧ - ٨٨ جامعة النجف.

غير الانفرادية فليس لها هذا الأثر، لأن الطلاب يتفاوتون في الموهبة، والأستاذ لا يتمكن من إضاعة الوقت على الأذكياء بتكرير الدرس للأغبياء، ومن أجل هذا نجد أن التدريس المتعارف اليوم في المدارس يذهب بحق كثير من الطلاب، فبعضهم يستطيع أن ينهي صفين في سنة واحدة لو أتيح له التدريس الفردي، وبعضهم يستطيع أن ينهي صفه لو أتيح له ذلك، والأول ينهي صفاً واحداً في سنته عندما يكون مشتركاً مع الطلاب الذين هم دونه في الموهبة والآخرون كثيراً ما يرسبون.

والخلاصة أن التدريس في النجف نوعان سطوح، وخارج، أما السطوح فهو التدريس الفردي، وأما الخارج فهو التدريس الجماعي.

وتدريس السطوح عبارة عن دراسة طالب أو طالبين أو أكثر عند شخص أسبق منهما دراسة، بشرط أن يكون قد أتقن الكتاب الذي سيدرسه، وقلما يزيد عدد الحاضرين في الدرس عن سبعة طلاب وتندر زيادتهم عن عشرة وأشد ندرة زيادتهم عن عشرين.

يتفق الطلاب والأستاذ على تعيين الكتاب والزمان والمكان، ثم يحضرون جميعهم قبل الموعد بوقت يسير، فإذا حان الوقت قدم أحد الطلاب كتابه للأستاذ وفتح الآخرون كتبهم واشترك من لم يصحب كتابه مع أحد رفقائه بالنظر إلى كتاب واحد، فيشرع الأستاذ في الدرس بعد التسمية والتحميد والصلاة على النبي وآله، فيقرأ مطلباً واحداً في عبارة الكتاب، ثم يشرع في توضيحه بقدر كفاءته ومقدرته، وربما قضى مدة الدرس في بيان مطلب واحد مهم، كما إذا كان يتضمن قاعدة كلية مشكلة أو غير مدونة في الكتاب وكان فهم ما في الكتاب يتوقف عليها.

وإذا تخلف بعض الطلاب يوماً ما لعارض تفقده الأستاذ والتلاميذ وتساءلوا عن سبب تأخره، فإن كان مشروعاً أعيد له الدرس بصورة مجملة ولا سيما إذا كان صعباً وإذا تكرر منه التخلف عن الوقت سقط حقه، للقاعدة المشهورة عندهم وهي «الدرس لمن حضر» وهذه القاعدة تحفظ نظام الدرس، وتضطر الطالب للاهتمام بالوقت مضافاً إلى ازدراء الأستاذ والطلاب بالمتخلف، وتهاونهم

بالمتهاون ومكافحته بالأساليب الكثيرة.

ومدة الدرس من نصف ساعة إلى ساعة حسبما يناسب الأستاذ والتلميذ والكتاب، ولا يلاحظ في التلاميذ أذكاهم ولا أشدهم غباوة وإنما يلاحظ المتوسط غالباً، وعلى هذا الأساس يضطر الغبي لمفارقة هذا الدرس، واستبداله بدرس يتناسب معه وينتفع فيه، وإذا أصر على الحضور مع من هم فوق مستواه تهاون الأستاذ والتلاميذ به، فيضطر لمفارقة الدرس، وإذا كان ممن يكثر الكلام في الدرس، ويشوش عليهم ما هم فيه، يكون نصيبه التسكيت والتبكيت، والطرد بصراحة، وإذا كان ممن يحتشم ويحترم لدين أو سن أو كمال عقل كوفح بطرق أخرى فيغير الأستاذ وقت الدرس إلى وقت لا يرتضيه حتى يكون انسحابه منه بشكل لا يوجب الاستهانة به ثم بعد خروجه من الدرس قد يعود الدرس إلى وقته الأول أو مكانه الأول.

وحرية الفكر للتلميذ واسعة، فله المناقشة قبل الدرس وبعده وفي أثنائه، له ذلك في ما يتعلق بنفس الدرس لا في الدروس القديمة أو التي هي أجنبية عن الدرس الحالي وإذا تكلم فيما يتعلق بالدرس، فعلى الأستاذ أن يقنعه، وإذا اتضح خطؤه لدى الأستاذ وأصر زجره ولا سيما إذا اتضح خطؤه لرفقائه، وربما يكون الحق في جانب التلميذ وحينئذ يوافقه الأستاذ ويتقبله منه ويشكره ويشجعه وربما يقتنع الطلاب بمناقشة أحدهم فيضطر الأستاذ إلى التبسط في البيان طمعاً في إقناعهم، وربما يوجد في الطلاب من لا يجرؤ على المناقشة في أثناء الدرس، فيناقش قبله أو بعده، وإذا كانت مناقشته ذات أهمية ذكرها الأستاذ بمناسبتها ونسبها له تكريماً وتشجيعاً.

وهذا كله قد يكون في درس السطوح ولكنه يكثر في درس الخارج، فإن مناقشة الطلاب من مقوماته ومميزاته.

يتفق الأستاذ والطلاب على تعيين أحد الكتب المعدة للتدريس، بعدما يكون كل منهم قد استشار وليه أو من يعتمد عليه، في توجيه الطلاب ويتفق الطلاب قبل ذلك على تعيين الأستاذ بعد الفحص عنه والسؤال من أهل المعرفة والخبرة عمن يصلح لتدريسهم الكتاب الفلاني، فإذا تم ذلك التمسوا من الأستاذ

أن يدرسهم مباشرة، أو بواسطة ثم يتفقون على الزمان والمكان، والمطلوب في الأستاذ أن يحمل كفاءة من الوجهة العلمية والأخلاقية فإذا كان لهذا الأستاذ فرصة من الوقت لم يسعه التخلف بوجه، لأن هناك سلطة زمنية تضغط عليه، بل لأن طبيعة النجف مبنية على هذا النهج، فهو باستجابته يلبي دعوة الواجب الديني فقط ويشعر بالغبطة والسرور، ويخشى الله سبحانه في تسويف الوقت وتضييعه، والتدريس بكلا قسميه السطح والخارج مجاني فالمدرس لا يتقاضى على ذلك راتباً ويهتم في أن يكون عمله خالصاً لوجه الله سبحانه، وقد يقصد به الفائدة العلمية فإنه يسيطر على المطالب العلمية بواسطة التدريس سيطرة تامة ويضطر للبحث والتنقيب ولا سيما إذا كان التلاميذ من ذوي النشاط والذكاء فإنهم يحاسبونه منذ اليوم الأول حساباً دقيقاً وكثيراً ما يدرسون في أول الأمر دروساً صعبة قد درسوها عند أستاذ آخر ثم يترك ذلك الأستاذ تدريسهم لمرض أو سفر أو مزاحمة تدريسهم بأمر أهم، يدرسونها اختباراً وامتحاناً للأستاذ الجديد، فإذا وافقهم من حيث التحصيل وجودة الإلقاء استمروا وثابروا وإلا تشاغلوا عنه وفتشوا عمن هو أحسن منه فإذا عزم هذا الأستاذ على تلبيتهم سألهم عن دراستهم السابقة إن لم يكن مطلعاً عليها، ثم رجح بعض الكتب، وربما وجه إليهم كلمة نصح وإرشاد تتعلق بالدرس والدراسة يوجهها إليهم قلوا أو كثروا، يوجهها إليهم بلغة متواضعة، وعبارات بسيطة، من غير تصميم سابق، وربما نصح بعض التلاميذ بعدما يمتحنهم، فالنشيط قد يختار له كتاباً أفضل وأستاذاً أفضل، والفاشل قد يختار له ما هو دون ذلك وكثيراً ما تتناول هذه المحاضرة المرتجلة قيمة الوقت وشرف العلم، وأثر الإخلاص، وفوائد المثابرة والجد والصبر، ثم يشجعهم على تحمل الآلام والمشاق، ويبعدهم عن الشهوات، ويحذرهم من العواقب فيضرب لهم الأمثال، ويذكر القصص، ويقيم البراهين، يفعل ذلك كله حتى تصبح الفكرة في أسمى مراتب الوضوح، وبواسطة التكرار تصبح جزءاً من حياة الطالب هذا درس السطح.

درس الخارج

وأما درس الخارج فهو محاضرات يلقيها الأستاذ، تتكفل شرح موضوع كامل، فقد يستوعب ذلك مدة درس كامل، وقد يحتاج إنهاء الموضوع إلى عدة

أيام، إما لأن التلاميذ لا يقبلون النظرية التي يدعيها الأستاذ، فيكثر فيها الخصام، والنقض والإبرام، فيضطر لإقامة البراهين الكثيرة التي لا يمكن جمعها في درس واحد، وإما لأن النظرية تبتنى على سلسلة نظريات مجهولة لدى جملة من الحضور، فيلتزم الأستاذ ببيانها واحدة واحدة.

ومثل هذه المحاضرات لا تكون ارتجالية، بل يكون الأستاذ قد أعدها قبل الدرس، فراجع الكتب التي يحتاجها من فقه، وأصول، وحديث، ولغة، وتفسير، وكل ما يرى أن له مساساً في الموضوع هذا إذا لم يكن قد راجعه من قبل، أو كان قد راجعه لكنه لم يحط به.

والأستاذ لا يكتب الموضوع في ورقة، بل يستحضره في ذاكرته ويكون قد فكر في سلسلة الإيرادات وأعد الدفاع الكامل، ويكاد يعلم من باب الفراسة وبواسطة المزاولة اتجاهات تلامذته في المناقشات، فبعضهم يهتم في الاستقراء ويتقنه. والأستاذ يعرف منه ذلك ويعرف النقاط التي سيستجوبه فيها فيعدها، وكأنها أعدت له، وبعضهم يهتم في المباني العقلية الفلسفية التي ترتبط بالموضوع، والأستاذ يعرف أن نقاشه سيكون حولها فيعدها كاملة، وكأنها أعدت له، وبعضهم يهتم في الحديث، وهكذا.

والموضوع موجود عادة مع متعلقاته في كتب كثيرة، والتلاميذ يطالعونه قبل الدرس كلاً أو بعضاً كما يطالعه الأستاذ غير أن الأستاذ أعظم إحاطة، وأشد سيطرة على المواضيع لكثرة المزاولة.

ويمتاز الأستاذ عن المؤلفين حين إلقاء الدرس في أنه ربما لا يستحسن ترتيبهم من حيث الدخول في الموضوع والخروج منه، والتعرض لبعض المقدمات أو إهمالها وربما يخطئهم في نقل أو في فهم، وربما يوافقهم في النتيجة، وربما يخالفهم فيها، ثم إذا وافقهم فيها فقد يوافقهم في البراهين التي أقاموها عليها وقد يخالفهم، فيتفطن لما غفلوا عنه أو يفسد ما اعتمدوه كلاً أو بعضاً.

وإذا بلغت المقدرة في المدرس إلى هذا الحد، كان مجتهداً.

وإذا نبغ في هذه النواحي نبوغاً يتفوق فيه على أقرانه كان أعظم.

وأما من فهم الكتب الدراسية أو أحاط بها، وحفظ مضامينها، فلا يكون بذلك مجتهداً ولا متجزياً ولا يصلح لتدريس الخارج، ويسمى في الاصطلاح محصلاً ويكون صالحاً لتدريس هذه الكتب تدريساً سطحياً فقط والمجتهد ليس من يستطيع النقض والإبرام ثم يخصم بسرعة، بل هو الذي يستطيع المتابعة حتى النهاية على وجه يستطيع إرجاع كل دليل ظني إلى قطعي مهما طالت السلسلة أما الذي يرجع الدليل الظني إلى مثله، ثم يدعمه بقوله أفتى به فلان أو قاله فلان أو ذكره جماعة فهو يستدل على الظني بمثله، وعلى النظري بالنظري، ومثله يعتبر جهلاً في جهل، وليس لصاحبه في ميزان التحقيق نصيب من العلم.

ثم إن تلامذة درس الخارج عادة هم والأستاذ سواء بالنسبة للكتب الدراسية والتي تراجع من حيث لزوم استحضار ما فيها، وإن كانوا ليسوا سواسية من حيث تفهمها واستحضار مضامينها.

وربما يوجد في التلاميذ من يستحضر بعضها في ذاكرته أكثر من الأستاذ، ولكنْ من البعيد وجود من يماثل الأستاذ في تفهمها وتحليلها، وإرجاعها إلى أصولها، ومبانيها، ولو بنحو الموجبة الجزئية.

هذا.. ولا حدّ لعدد التلاميذ في درس الخارج من طرفي القلة والكثرة، فإذا كانوا أقلاء جلسوا حلقة مستديرة، وجلس الأستاذ ناحية قرب جدار أو أسطوانة متجهاً حيث يشاء، وربما يختار التوجه إلى القبلة تبركاً كما كان يفعل ذلك أستاذنا الحكيم ثم يشرع في الدرس فيسمي ثم يحمد الله سبحانه ويصلي على النبي وآله، ثم يذكر موضوع البحث ويبين آراء العلماء وأقوالهم فيه، وربما يذكر مصادرها ثم يبين مقتضى الأصل والقاعدة فيها، ثم يشرع في سرد أدلة الأقوال واحداً واحداً، فيسددها ويشيدها، ويقربها من الأذهان، ثم يكر عليها ويبين ما تضمنته من الخلل إن كان لا يرتضيها، وينتهي باختيار أحد المذاهب الذي تكون البراهين عليه سالمة من الشك، وإذا بلغ الطلاب عدداً يتعذر معه إسماعهم مع الاستدارة، جلسوا مجتمعين غير مرتبين، والتمسوا من الأستاذ أن يرقى على المنبر مرقاة أو مرقاتين حسب الحاجة فيجيبهم، ثم إذا انتهى من بعض مقدمات الدرس أو جهاته التي تناولها في حديثه، تقدم الطلاب بالتعليق على ما أفاده، وربما تصدى بعضهم لإقناع بعض، وكثيراً ما يستحكي الطالب من

هـو على يمينه أو يسـاره مستفسراً أو منـاقشاً بشكـل هادىء لا يشـوش الجو على الآخرين، وكثيراً ما لا تنفصل الخصـومة بين التـلاميذ أنفسهـم، فتشـرئب الأعناق إلى الأستاذ بطبعهـا، وقد يسكتهم هـو بنفسه، ثم يستـطرد الشبهات التي ذكـروها واحدة واحدة، ويبين منشأها ويسددها أحياناً حتى يخيـل لمن لا يعرف العـادة أنه يقول بها ويختـارها، ثم يـأتي على تلك المباني، فيجعلهـا هباء منثـوراً، وينتهي الدرس والكل مؤمنون برأي الأستاذ عادة، وربما يوجد من لا يؤمن به على أساس علمي واضح، كما لو كان الأستاذ يقول: ظـاهر النص كـذا، وكان التلميـذ يقول ظاهره شيء آخر، أو كان الأستاذ يقول هذا صحيح من بـاب الترتب، ويقـول إن الترتب ممكن، وكان التلميذ يقول باستحالة الترتب، هذا..

وفي أثناء هذه الجولات الفكريـة يبرز جـوهر القـرائح، وتتجلّى المـواهب، وتتضح محتويات الحقائب، وكثيراً ما يستحكي كل فرد من هو في قربـه وإن كان لا يعرفه، ليتعرف عليه، فـإن وجد فيـه فضلاً تقصـد الجلوس إلى قربـه في اليوم الثاني، وأثنى عليه وعرف إخوانه فيه وإن وجده ليس كذلك تهرب منه وابتعد عنه وهـذا نوع من أنـواع الامتحان المـوجودة في النجف تتجلى فيـه مواهب الـطلاب ومعلوماتهم بأوضح شكل.

ومكـان الدرس يختلف، فقـد يكون في الصحن الشـريف، وقد يكـون في بيت الأستـاذ، وقد يكـون في إحـدى المـدارس، وأكثـرهـا يكـون في المسـاجـد المشهـورة الواسعـة البعيدة عن الضـوضاء مهمـا أمكن، وأوسع درس سمعنـا عنه درس المحقق صاحب الكفاية فقد قيل إن بعضهم أحصى الحضور فيه فكانوا ألفاً ومائتي طالب.

ودرس الخارج له ثلاثة مراتب

أدناها أن يحضر قوم فرغوا من السطوح درساً يسيـر على عناوين كتـاب من كتب التدريس، ويتعهد الأستاذ ببيان مطلب الكتاب كـاملاً بـإيضاح من دون تقيـد بعبـارة الكتاب ويضيف إلى مـطالب الكتاب المنـاقشات التي نـاقش العلماء فيهـا صاحب الكتاب وقد يقبلها وقد يردها، وقد يضيف إليها مناقشات أخرى، وهو في الوقت نفسه يحاول تصحيح ما في الكتاب، إلا إذا كان فساده بمكان من الوضوح

وذلك لأن الطلاب اعتادوا على الإيمان بما في الكتاب ثم بما يقوله الأستاذ.

وأوسطها ما مر بإضافة ما في كتب التدريس الأخرى أو ما في بعض الكتب المهمة.

مثلاً يكون عنوان الدرس الجزء الثاني من الكفاية، فيتعهد الأستاذ ببيان ما فيها، مع ما في الرسائل، مع ما في تقريرات درس النائيني، ثم يحاكم آراءهم، ثم يختار، وطبعاً إن مثل هذا الدرس يكون أطول مسافة وأعظم إحاطة وأجدى نفعاً ولكن إنهاء الجزء الثاني من الكفاية على النهج الأول يحتاج إلى سنتين، وعلى النهج الثاني إلى أربع سنوات، ومن ثم لا يصبر عليه إلا ذوو الرغبة والشوق والطموح إلى المراتب العالية..

وأعلاها، وهو درس الناضجين، أن يشرع الأستاذ في مسائل العلم على نهج خاص به، ترتيباً وتبويباً وتحقيقاً وتنميقاً فإنه يحرر المسألة من تلقاء نفسه، ويشير إلى جهاتها وأقوالها بحسب ما يراه من استحقاقها للإيجاز والإطناب، ويذكر النظريات ويلغي الأدلة الضعيفة، فقد يسردها سرداً، وقد يهملها، فيقول اختار فلان وفلان كذا وكذا واستدلوا له بأدلة كثيرة مسطورة في المكان الفلاني والمكان الفلاني ولكنها ليست ذات أهمية يقول ذلك لثقته بأن فضلاء التلاميذ قد أحاطوا بها من قبل، ولإشعار من لم يحط بها بوجوب الإحاطة، يفعل ذلك محافظة على قيمة الوقت، يفعل ذلك ليصرف وقته الثمين في المهمات.

وعدد الحضور في هذا الدرس أكثر من سائر الدروس، فقد يبلغ عددهم في هذه الأيام ثلاثمائة طالب، ولكن الذين ينتفعون به انتفاعاً كاملاً لا يتجاوزن العشرين بالمئة، فإن هؤلاء لعلو مكانتهم يشاركون الأستاذ في معلوماته، وينتظرون منه ضربة الأستاذ، وهم يفهمون ذلك كله بأدنى إشارة ويوجد فيهم عشرون بالمئة دون أهل هذه المرتبة ولكنهم يجيدون حفظ ما يذكره الأستاذ، وربما يدونونه ويسمونه تقريرات وكتبة التقريرات نعتبرهم فضلاء محصلين، لا علماء محققين، أما المحققون فإنهم يرون أنفسهم أرفع من ذلك، ويمتازون بأنهم يعرفون الجهات التي تتركز عليها نظرية الأستاذ وإن لم يصرح بها ولذا يحسنون الدفاع عن نظرياته أما كتبة التقريرات فإذا نوقشوا قالوا هكذا قال

الأستاذ، ويكون قول الأستاذ هو دليلهم الوحيد على صحة ما كتبوه..

إن العلماء إذا برعوا تحروا النظريات الدقيقة وجعلوها مطرح البحث والنقاش وأوجزوا فيما عداها، وهم يبتعدون عن الإسهاب في المقدمات لظنهم وضوحها وابتذالها، كأنهم يتناسون أنفسهم يوم كانوا في مستهل حياتهم الفكرية ولذلك لا ينتفع بدروسهم انتفاعاً كاملاً إلا من كان في مرتبة سامية من الفضل، وكان مستحضراً للمقدمات، ومحيطاً بجملة من المباني والقواعد.

وكثيراً ما يضطر جماعات من الطلاب إلى اختيار آحاد من فضلاء الدرس، ليلقوه عليهم مرة أخرى، يلقونه عليهم بإيضاح مبانيه ويسمون مقررين.

وتنشأ مناقشة كثير من الطلاب للأستاذ أو مناقشة بعضهم لبعض عن الغفلة عن بعض المقدمات المطوية التي تبتنى عليها النظرية أو الجهل بها، ومن ثم يتشيعون لرأيه بعد التنبيه عليها أو إيضاحها.

الامتحان في النجف

محاسنه ومساوئه

يظن كثير من الناس، أن في جامعة النجف هيئة خاصة تراقب سير الطلاب، وتشرف على أعمالهم، وتعد لهم امتحاناً شهرياً وسنوياً، ثم تعطي كل طالب شهادة تحمل أرقاماً تشير إلى درجات التلميذ ومكانته، فإن جامعة كهذه الجامعة تضم بين دفتيها آلافاً من الطلاب، يتوزع منهم على الأقطار فوج في كل عام، ويخلفه فوج آخر، جدير بها أن تسير على المنهج المتبع اليوم عند سائر الأمم الراقية.

ولكن الأمر ليس كذلك، فإن النجف لا تزال تسير وحدها في طريقها الخاص، ويتبعها قم، وخراسان، وكربلاء، وسامراء والكاظميين، وأصفهان وتبريز وكثير من حواضر إيران وأفغانستان وسائر المدارس الشيعية الدينية، ولا يزال لها أسلوبها الخاص في التدريس وفي الامتحان وفي مكان الدراسة وفي اختيار المدرسين ولا تزال تحافظ على مناهجها، وتعتز بها، لأنها تلمس أفضل النتائج.

والامتحان في النجف امتحان نزيه ينتهي بمعرفة درجات الطالب بدون أي

خفاء، فإن الامتحان فيها لا يتخلله شيء من الغش ولا الرشوة، ولا الواسطة، ولا مراعاة في قرابة، ولا محاباة لصديق ولا تستطيع السلطة أن تشفع للطالب، لأنه عندما يتشفع بها يسقط من جهة أخرى سقوطاً محتماً. .

وهذا الامتحان يدور على أمور ثلاثة:

أولها: حرية الفكر للتلميذ مع الأستاذ ومع الرفقاء أثناء الدرس وقبله وبعده، وبسبب تلك الحرية يستحيل عادة أن تضيع مواهبه، وتخفى درجاته، وقد أوضحنا شيئاً من ذلك عند التحدث عن درس السطح والخارج. .

وثانيها: المباحثة مع الأقران، فقد اعتاد الطلاب على أن يجتمع منه اثنان فأكثر، ويعينوا درساً للمباحثة، يسمونه «بحث مقابلة» فيحضرون في الوقت والمكان اللذين اتفقوا عليهما، ثم يتقدم أحدهم في اليوم الأول فيلقي الدرس كأنه أستاذ للآخرين وكلهم مصغون منتبهون، ولا يسمحون له باجتياز نقطة من نقاط البحث ما لم يقتلها بحثاً، فإذا عجز، فهم متكلفون بإيضاحها، فإذا عجزوا أجمع أرجعوها للأستاذ في وقت آخر، وفي اليوم الثاني يقوم الآخر بهذه العملية في المبحث الذي هو تلو مبحث اليوم الأول، وهكذا دواليك، فالذي لم يفهم دروسه لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل، ولا يخفى أمره على رفيقه أو رفقائه، وإذا أحسوا منه أنه ليس بفاهم وأنه غير مجتهد في دروسه نبذوه، وقلما تخلق الظروف رفيقين بليدين.

ثالثها: المذاكرة، في الأندية العامة والخاصة، وفي الصحن وفي الشوارع، وحتى في المنتزهات، وأثناء تشييع الجنائز، فعندما يجلس الطالب إلى جنب طالب آخر، يوجه سؤالاً إلى رفيقه وإذا أجابه وكان الجواب متفقاً عليه بين السائل والمسؤول لا يقبله منه، بل يطالبه بالبرهان جهده، ثم إذا وجده بارعاً انتقل به إلى مبحث أشد إعضالاً، أو إلى علم آخر وتقوم الحرب على ساق وقد يصغي إليهما آخرون، وقد يتفشى النقاش، من حلقتهم إلى حلقة أخرى. .

مثلاً إذا كان هذا الطالب ليس على صلة بمن إلى جنبه، سأله عن بلاده، ثم عن وقت مجيئه، ثم عن المدرسة التي يقيم فيها ثم عن الكتاب الذي يدرسه، فإذا ارتفعت الوحشة، قال له مثلاً هل قرأت المعرب والمبني فإذا قال

نعم، سأله عن تعريفهما، فإذا أجاب قال له أحسنت ثم يقول له: لم كان الأصل في الأسماء الإعراب فإذا أجاب، قال له لم بُني الاسم إذا شابه الحرف، وما هي جهات الشبه، وفي أثناء هذه الجولات العلمية تتفتح آفاق المسائل ثم قد يشترك معهما من هو في جوارهما، فإذا رأى ثالث استئساد أحدهما وكان معتداً بنفسه، تناوله بسؤال أعمق وأدق، انتصاراً للضعيف، وبعد هذا لا يبقى شك لمن كان يستمع إليهما ممن هو أرقى درجة، وأعلى رتبة وخبرة في الفن الذي تذاكر فيه في درجاتهما ويكون منساقاً بطبيعة الوضع، إلى التنويه بالمحصّل والتعريف به، وإظهار مراسيم الاحترام، في المجالس فيوسع له، ويسأله عن حاله ويثني عليه ويعرف به ويكون ذلك بمنزلة-أوسمة يعطاها، ثم قد يتقصده شخص جديد سمع الثناء عليه، فيتعرف عليه ويتذاكر معه، وهكذا، يلمع اسم الطالب الذكي النبيل في النجف. . .

وإذا اتفق أن المسؤول كان ضعيفاً، فإن كان جديد عهد بالنجف، أو بالعلم الذي سئل فيه، عطف عليه السائل وفتح له باب الأمل، وإن كان قد مضى عليه مدة، أعرض عنه، وتشاغل بالحديث أو المذاكرة مع غيره، فإن تكلم لم يؤبه به، ويكون هذا أشد من هبوط الصاعقة على رأسه، ويستخذي أخيراً مهما كان صلفاً متمرداً، ويكون له بعد ذلك من ضميره أعظم مؤنب وحافز على الجد والنشاط، وقد يترجح لدى السائل حثه ونصحه وإرشاده لتبديل خطوط دراسته، إما بتبديل الكتاب، أو الأستاذ أو الرفيق، فيضطر لتبديل الكتاب الغامض بالواضح، والرفيق الغبي بالذكي، والأستاذ المهمل بالمجد وقد يتولى تهيئة ذلك له بنفسه، كأنه مسؤول عنه، ولا سيما إذا كانا من بلاد واحدة وأهل لغة واحدة، وإذا اتفق أنه اجتمع بالمعروفين من أهل بلاده، ذكره لهم قائلاً، انصحوه ورتبوا دروسه، فإنه غريب وليس له أحد غيركم وقد فارق وطنه وتحمل المشاق، وأخذ يحثهم مندفعاً، يقوم بهذا الواجب لأن طبيعة جامعة النجف تفرض ذلك على طلابها فهم مغمورون بهذا الشعور حتى يكاد يكون طبيعة من طبائعهم، وحتى يكادوا يندفعون إليه اندفاعاً لا شعورياً.

الامتحان في المدارس الحديثة

محاسنه ومساوئه

لا يحسن التحدث عن الامتحان في المدارس الحديثة، لأن كل أحد يكاد يعرفه.

وأما محاسنه، فهي ضبط الدرجات، وإعلانها في منتصف السنة الدراسية وعند انتهائها، وإعطاء الناجح المتفوق جائزة تليق به من تصفيق، وتهنئة، وتبشير وليه به، ونشر اسمه في الصحف وإهدائه دفتراً أو قلماً أو ساعة أو كتاباً، وهكذا ينتقل من مدرسة لأخرى حتى يمضي أكثر من اثنتي عشرة سنة إذا قدر له النجاح في كل عام، ثم بعد ذلك يحمل شهادة من إحدى الكليات تؤهله لمنصب من المناصب..

وفكرة الشهادة هي الفكرة السائدة في العالم اليوم، والامتحان بتوسط لجنة خاصة تختارها السلطة هي الخطة المتبعة في دول العالم، والشهادة هي معبود الشباب والشابات وأوليائهم فالشهادة هي منتهى المطاف، وهي كل ما يتمناه التلميذ، فالطلاب لا يتمتعون بأزيد من هذا الشعور، ولا يعدون للحقل العملي أية عدة غير الشهادة، فهم لا يفكرون في الكفاءة والمقدرة ولا يفكرون في الامتحان العملي ولا يحسبون له ذرة من حساب.

إنهم يريدون تأمين مستقبلهم المادي ويعتقدون أن الشهادة هي التي تضمن لهم المستقبل السعيد، ومن أجل هذا كله يريدون الحصول على الشهادة بكل وسيلة، ولو كانت الوسيلة غير مشروعة بنظر العقل أو الدين أو القانون.

إنهم جائعون، جائعون للمال وللكرسي، فإن الشهوات عارمة، والأهواء مستفحلة، والشهادة هي الوسيلة الوحيدة، للمال وللكرسي، فالشهادة كل شيء بنظرهم.

وبعد فإن نظرية الامتحان بتوسط هيئة محدودة، وإعطاء الأرقام التي تشير إلى درجات النجاح، نظرية صحيحة في ذاتها، ولكن الاعتراف بالشهادة وبما فيها من الدرجات، أمر لا يساعد عليه الوجدان ولا يرتضيه الضمير من جهات كثيرة.

١ ـ إن الامتحان في وقت معلوم، وفي مسائل محدودة لا يدل على نبل التلميذ الناجح، لأن الطلاب يهتمون في الحفظ في أوقات الامتحان، فإذا انتهى الامتحان ودع التلميذ كتبه، ونبذها ظهرياً، فلو جدد الامتحان مرة أخرى، في أول السنة الدراسية الجديدة لما نجح من الناجحين واحد بالمئة، فأي علم يكون عند هذا التلميذ الناجح إذا لم يبق في ذاكرته مما تعلمه في سنته الماضية إلا الشيء اليسير.

٢ ـ إن الامتحان في مسائل محدودة والنجاح فيها نجاح من باب الصدفة، فقد يكون التلميذ حفظ تلك المسائل وحدها وصادف أنه امتحن فيها ففاز على وجه لو كان الامتحان في غيرها لم يجب عن أية مسألة فيكون نجاحه صدفة لا نجاحاً بحق. وقد ذكر هذا بعض المجربين الكبار من رجالات الإدارة في المعارف.

٣ ـ ربما يكون التلميذ يحفظ جميع ما درسه إلا المسائل التي وجهها إليه الممتحنون فيكون إخفاقه صدفة، وطالما سمعنا من الطلاب أنهم حفظوا المسائل المشكلة أو غيرها ظناً منهم أن الامتحان سيكون فيها، ثم صادف أنه لم يرد منها شيء في جداول الامتحان فأخفقوا.

٤ ـ كثير من الطلاب يسيطر عليهم الخوف والحياء فترتبك أعصابهم في ساعة الامتحان فيكون نصيبهم الفشل، وينجح آخرون أقوياء الأعصاب مع أنهم أقل منهم موهبة.

إذن من الخطأ المحض أن نعترف بأناس يحملون شهادات من مدارسهم، ولا يحملون شهادات بالكفاءة العلمية والعملية من بيئاتهم..

ومن الخطأ توجيه اللوم إلى رجال الحكم الذين يقربون ذوي الكفاءات، ويرفعون مستواهم، ويبعدون كثيراً من حملة الشهادات، الذين لم يبرهنوا على مقدرة عملية أو إدارية تتناسب مع مستوى شهاداتهم، وكيف نؤمن بالشهادة ولا نؤمن بالكفاءة ونحن نجد شهادات قادة الدول دون مناصبهم، ونجد في دولهم أناساً فاشلين يحملون شهادات تفوق شهادات هؤلاء العظماء الحاكمين بالكفاءة والمقدرة فمن الخطأ الجلي أن نستند في نظام حياتنا إلى أناس يحملون شهادات

من مدارسهم ولا يحملون شهادات بالكفاءة من مجتمعهم.

ومن الخطأ أن نعترف بصحة الدرجات التي تتضمنها الشهادات، ما دمنا نرى جملة منهم يحملون شهادات من جامعة واحدة، ومن صف واحد، بل وفي سنة واحدة، ذات درجات متساوية، أو متقاربة، ونحن نرى تفاوتهم في الحقل العلمي والعملي ويعرف ذلك كل متخصص فيما تخصصوا فيه..

فما هو العذر عن تساوي الشهادات وتفاوت حامليها. وما هو الجواب لمن يزعم أن تساوي أرقام الشهادات، واختلاف حامليها في الكفاءة والمقدرة لم يكن جارياً مجرى طبيعياً، وأن الواسطة تعمل عملها في ترفيع الدرجات وتحفيظها، وأن الجاه يثبت سيطرته على الهيئة المشرفة، وأن وقاحة بعض الطلاب وإلحاحهم وتهديدهم للممتحنين يوصلهم إلى ما يريدون.

وقد سمعت أن طالباً في بعض الكليات تبع أستاذه من بلد إلى آخر إلى المطار يلح عليه في ترفيع درجاته، فرفعها له وهو في طريقه إلى الطائرة..

وعندما شعر المسؤولون في بعض الدول، بأن إشراف المدرسين على امتحان تلاميذهم، يؤدي إلى المجاملة والمحاباة، قرروا جعل المشرفين على كل مدرسة غير مدرسيها، ثم أحسوا بتسرب المرض فجعلوا الرقابة للجيش، وقرروا الامتحان الكتبي في دفاتر غير مصرح فيها باسم ذويها.

إن هذه الخطوط الدفاعية جيدة جداً، ولكنها لم تحل بين التلاميذ وبين «قوبيا» وإذا فهمت كلمة قوبيا عرفت ناحية من نواحي الخيانة لا تقل عن غيرها، وهي أن يكتب التلميذ على ساعده إشارات لعدة مسائل بقلم قوبيا ويغطيها بكمه ويشاركه آخرون، فإذا دخلوا قاعة الامتحان جلسوا متجاورين ثم لحس كل ساعده فظهرت الكتابة وأخذ كل ما له به حاجة فيعرض كل ساعده على الآخر، وربما كتبوا رؤوس بعض المسائل في رقاع حقيرة لا تسترعي أنظار المراقبين، ثم يوهمهم أنه يمسح بها قلمه أو يعبث بها، وهكذا ينجحون.

كيف نؤمن بالشهادة ودرجاتها مع هذا كله ومع ما نسمعه من أن بعض الجامعات تعطيها لقاء رشوة كاعتناق مبدأ، أو تعهد ببث دعاية، أو بذل مقدار من المال.

وقد سمعت حوالي سنة ١٣٦٦هـ أن حكومة العراق كانت قد رفضت شهادات الجامعة السورية في دمشق من أجل بعض هذه الأمور.

ولأمر ما صدر قرار وزارة المعارف العراقية، بعدم الاعتراف بشهادات الجامعات الأميركية. ما لم يكن معترفاً بها من مجمع الجامعات الأميركية في واشنطن..

وقد نشرت هذا القرار، صوت الأحرار البغدادية في عددها ٣٢٢ بتاريخ الخميس ٣١ تموز سنة ١٩٤٧م الموافق ١٣ رمضان سنة ١٣٦٦هـ.

وأين هذا الامتحان. من الامتحان المكشوف، الذي يرافق الطالب طيلة حياته.

إن طلاب النجف وخريجيها، اعتادوا على أن يكونوا بين سائل ومسؤول. ما دامت تدب فيهم الحياة، وأن تعطى عنهم النتائج في كل حين. ومن أجل هذا يجب أن يكون الواحد منهم مستعداً للجواب عن أية مسألة ترد عليه، سواء أكانت من دروس الصفوف الأولى أم من الصفوف العالية، فقد يسأله من هو دونه ومن هو مثله ومن هو فوقه. ويجب أن يكون مسيطراً على العلوم التي مر بها، فإن لم يكن كذلك تلوثت سمعته العلمية وأعطيت في حقه النتائج المكشوفة، رضي أم سخط.

وأين هؤلاء ممن لو جدد لهم الامتحان في أول سنتهم الدراسية لما نجح منهم واحد. لأنهم حفظوا المسائل للامتحان في أيامه. ثم نبذوا كتبهم ظهرياً، واشتغلوا باللهو واللعب، ولم يفكروا بالمسؤولية عن دروسهم الماضية، ولذا لا يتدارسون فيها.

كيف ينتخب الرئيس

شروط الرياسة
صفات الناخب

إن الـزعيم لا تكوّنـه الأمة، ولا تخلقـه الـظروف، وليس هـو الـذي يكـوّن نفسه، وإنما يتكوّن من تفاعل عدة عناصر.

وإذا كـان الـزعمـاء الـذين تلدهم البيئـة الـواحــدة، ويكتب لهم الـظهــور ويتفاضلون فإن تفاضلهم يدل على شيء وراء هـذه العناصـر، وإذا دل ذلك على شيء وراءها، فذلك الشيء لا يزال لغزاً مبهماً، وإذا حـاول فيلسوف أو أديب أن يحلّ مبهمةً، ويكشف غامضةً. فهو إنما يحاول تعليل الحـادث بعد وقـوعه، وهـو في الوقت نفسه ينظر إلى الحادث من زاويته الخاصـة، ويعطينـا صورة عنـه بقدر فهمه لا بقدر الحادث، ومن ثم اختلفت آراء الباحثين في تعليل القضية الواحدة.

وإن الصفات التي يطلب توفرهـا في الرئيس الـديني، هي العلم، والعقل، والتقوى، والإدارة، والحلم، ويعبرون عنـه بسعة الصـدر، ولا تكتفي الناس بمن جمع هذه الصفات، وتحلى بها، بل لا بد من إحراز تفوقـه فيها، وهـذه الشروط ليست كلها مطلوبة شرعاً، ولكن المؤمنين يطلبونها تحفظاً على دينهم ودنياهم.

وإذا سألنا سائل، كيف ينتخب الرئيس؟ وكيف تثبت له هذه الصفات؟ ومن هو الذي ينتخب الرئيس؟ كان السؤال سهلاً إلى الغايـة، كما هـو الحال في كـل سؤال. أمـا الجواب فيكـون صعباً جـداً، فإذا أردنـا أن نتحدث عن ذلـك وجدنـا أنفسنـا أمام مشكلة متجهمـة، يصعب الخروج منهـا بشكل واضـح، لأن الـرئيس الجـديد لا ينتخب بعـد فقـد الـرئيس الأول، مبـاشـرة، ولا تنتخبـه هيئـة معلومـة

محدودة، ولا تتعين الرياسة بعد فقد الرئيس لشخص واحد. نعم يجب أن تتوفر في الناخبين جملة من الصفات المشترطة في الرئيس، فغير الثقة الورع كيف تقبل شهادته بورع آخر، وغير العالم اللامع كيف تقبل شهادته بأعلمية آخر، وغير الإداري المتزن كيف تقبل شهادته بحسن إدارة آخر؟ وهكذا سائر الصفات.

ومن هنا يتولد عندنا سؤال جديد، يشبه السؤال السابق وهو أنه كيف نعرف الناخبين، وكيف نعرف وجود هذه الصفات فيهم؟

إننا إذا انتهينا في الحديث إلى هذه المرحلة، شعرنا بخطورة السؤالين الآنفين:

ولكن السؤال مهما عظم، يكون صغيراً ويكون الجواب عنه واضحاً، إذا كان للجواب واقع ناطق يفيض بالحياة.

لا ريب أن هذه العناصر تتوفر في كثير من الناس بشكل موزع، فتكون كل جماعة توفرت فيها صفة من تلك الصفات هي الناخبة في تلك الناحية.

مثلاً: يوجد عدد وافر معروفون بالعلم والفضل، وهم بين مجتهد مطلق، ومتجزي، ومراهق، وهؤلاء كلهم يشتركون في تمييز الأعلم، ومن ثم يسمون «أهل التمييز» ومعنى ذلك أنهم يستطيعون تمييز الأعلم من غير الأعلم، فإن هؤلاء بعد ممارستهم للبارزين من العلماء، بالحضور في دروسهم تارة، وبمرافقتهم العلمية أخرى، وبالمذاكرة معهم في المسائل المعقدة التي هي مطرح أنظار جهابذة العلماء ثالثة، يتضح لهم المتفوق منهم، بالإحاطة، والاستقراء، وإرجاع الفرع الفقهي لمبانيه، وبإرجاع القاعدة الأصولية والفقهية إلى أسسها الرصينة، بل بإرجاع كل دليل ظني إلى دليل قطعي، وبتنبهه لما خفي على غيره من السلف والمعاصرين، إذا كان ذلك كله شهدوا له بالأعلمية.

ثم لا تكون المسألة الواحدة والمسألتان أو الباب الواحد من أبواب الفقه أو الأصول أو المسائل المدونة في الكتب مقياساً للتفوق، بل المقياس التفوق فيها وفي غيرها من المسائل التي تخلق مع الزمن.

فإذا كثرت ممارسة العلماء البارزين، وظهور تفوقهم بالإحاطة وإتقان

المباني وإرجاع كل دليل ظني إلى دليل قطعي، مع التنبهات الرفيعة والالتفات للدقائق الخفية إذا كان ذلك كله نعتوا الشخص الذي هو كذلك بصفات ترفع مستواه عما عداه، وقالوا إنه أعلم.

مثلاً كان المرحوم آية الله النائيني رحمه الله يشهد للسيد إسماعيل الصدر[١] بالأعلمية، ثم عدل فقيل له في ذلك فقال: عرفته في صلاة المسافر كذلك، ثم وجدته في غيرها ليس كذلك..

ثم إن أهل التمييز يختلفون في الموهبة والإدراك والإحاطة ومن أجل ذلك يختلفون في النتيجة بعد اتفاقهم على ثبوت الصفات في المنتخب.

سألني مرة الحاج عليوي أو أخوه الحاج سعدون من مؤمني سويج شجر «ناحية الفجر» التابعة إلى لواء الناصرية من ألوية العراق، هل الشيخ عباس الرميثي من أهل التمييز؟ قلت: نعم، فقال: إنك تختلف معه في الترجيح فهو يرجح الشيخ محمد رضا ياسين، وأنت ترجح السيد محسن الحكيم فما هو السبب، فقلت له: إنك وأخوك تاجران في الطعام[٢] وكلاكما مؤتمن فقد يعرض عليكما نموذج من الحنطة فيقول أحدكما قيمتها كذا لأن فيها بريقاً ولمعاناً، وذلك يدل على جودة خبزها، ويقومها الآخر بقيمة دون تلك القيمة ويقول: ما قاله أخي حق ولكن لونها أبيض، وحبتها ضخمة ومثلها لا يكون جيداً في الخبز، فهل ترى أن أحدكما خان ضميره؟ قال لا، قلت: وهكذا يختلف أهل التمييز.

وقد يختلف أهل التمييز في ثبوت الصفة للشخص فيثبتها أحدهم له وينفيها الآخر عنه، وكل ذلك لا يضر بورعهم وأمانتهم ونصحهم للمؤمنين.

---

(١) كان من المرتاضين المعروفين بالكمال، وكان يتهرب من الرياسة، فإذا جاء لزيارة المشاهد ينزل ضيفاً في المدرسة على بعض الطلاب وربما غير مكانه ابتعاداً عن تجمهر الناس حوله. وينقل عن المرحوم الأوحدي الملاّ حسين قلي أنه لما زار سامراء قيل له ماذا وجدت فيها؟ فقال: وجدت إنساناً ونصف إنسان، وعنى بالإنسان الملا فتح علي وبالنصف الإنسان السيد إسماعيل الصدر، وليس معنى هذا الاستخفاف بالآخرين بل معناه الإرشاد إلى هذين الشخصين لينتفع أهل العلم المنهمكون على الدنيا بتعاليمهما وكمالاتهما.

(٢) الطعام في لغة أهل العراق الحنطة والشعير.

ولا يغيب عن القارىء أن أهل التمييز عندما يمارسون المتفوقين في العلم، لا يشعرونهم بأنهم في مقام تمييزهم وأن ذلك لا يكون في مسألة ومسألتين، ولا في شهر وشهرين، بل قد يكون كذلك وقد يكون في مدة طويلة، والمهم أن يحصل الاعتقاد للمميز بتميز شخص عن آخر.

ثم إن الناس قد اعتادوا على أن يكونوا بصدد تعيين طبقات العلماء البارعين قبل الأوان بأمد طويل، ففي حياة الرئيس الديني يبدؤون بالتكهن في الذي يخلفه، فيقولون فلان وفلان من الطبقة الأولى، وفلان من الطبقة الثانية. وفلان وفلان من الطبقة الثالثة.

وعندما يتوفر عدد الناخبين توفراً مستفيضاً تثبت صفة الأعلمية، وذلك كله بعد الوثوق بالناخبين، من ناحية تميزهم بالفضل ولياقتهم للتمييز، ومن ناحية الدين والأمانة[1].

على هذا يسير الناس، أما الحكم الشرعي في التقليد فإنه يدور مدار الجزم والقطع بأعلمية الشخص، أو قيام بينة عادلة على أعلميته، فإذا شهد شخصان عادلان بأعلميته وكانا من أهل التمييز كفى ذلك شرعاً فيتعين تقليده بناء على وجوب تقليد الأعلم.

وأما معرفة التقوى والورع، فإنها تطلب من المعروفين بالتقوى والصلاح، سواء أكانوا من أهل العلم أم من غيرهم، وهم بطبيعة الحال، لا يشهدون بها لشخص إلا بعد ممارسة طويلة، وتجربات كثيرة في السر والعلن، وقد يتقصد بعضهم امتحان المرشحين للرياسة بأمور خفية.

وأما معرفة حسن الإدارة والاتزان في الأمور العامة، فتطلب من رجال الفكر الذين يمارسون المصالح العامة، على النهج السالف وهؤلاء أحذر من أن يخدعوا، وهكذا سائر الصفات..

وأنت ترى من خلال ما أسلفناه أن الانتخاب لا يختص بفئة من الناس، ولا بعدد محصور، ولا يخضع للسلطة الزمنية، ولا للسلطة الدينية، فالرئيس

(١) ومن هنا تتولد شبهة شعرية، وهي أن منتهى التقليد في الحقيقة إلى غير الأعلم.

الديني نفسه إذا رشح شخصاً للرياسة من بعده لا يعتبر أكثر من شاهد واحد له أهميته وقيمته.

هذا هو الانتخاب الذي تبني جامعة النجف مجدها عليه، وهو انتخاب طبيعي، وهو من المجموع، وتحت رقابة المجموع.

والانتخاب المذكور كما قلنا لا يكون بعد فقد الرئيس الديني مباشرة، بل يكون أسبق من ذلك بزمان طويل، وقد يكون نتيجة ثلاثين سنة أحياناً، ومن أجل ذلك يتبلور الموقف أشد تبلور.

ومن أجل ما أسلفناه أيضاً يكثر عدد المرشحين للرياسة ثم يأخذ بالنقص بواسطة الرقابة المشتركة.

وهناك آحاد أوحديون يعتقدون أن منصب الرياسة الدينية منصب روحي، يحمل رسالة السماء، وأن يد القدرة الإلَهية، تمده وتساعده، بأمور طبيعية، يحسبها عمي البصيرة ناشئة عن تكتيك وتدبير، وكان الله سبحانه بعد ذلك كله يختار الأصلح لعباده، في دينهم ودنياهم، فإن الرئيس قد يكون مطاعاً أشد إطاعة عند الجماهير من مختلف الفئات، حتى من القواد والجنود ولكنه يحمل أناة وروية عالية، تحقن الدماء، وتعالج المشاكل بهدوء وسكينة، وعلى ضوء هذا الحديث المكشوف نلمس أن الرياسة في النجف، رياسة حق، لا تشوبها شائبة غش، لأن الانتخاب لا يخضع للسلطة، ولا لذوي الشأن، من المتمولين. أو من أهل النفوذ، ولا تأتي عن طريق المجاملة، ولا المجاولة، ولا التقريب، ولا التبعيد، ولا التأميل. ولا الحرمان، ولا الحب، ولا البغض وكل من طلبها من هذا الطريق يكون نصيبه الفشل لا محالة.

أجل إنما هي بذرة الحق والواقع، تضمن إيجاد نفسها بنفسها، تسير رويداً رويداً، تتخطى رقاب السنين، وتصمد أمام الأحداث والهزاهز، وتكتسح الباطل وإن تراكم وتجمهر، وعلى هذا الضوء سار تاريخ الشيعة وسيبقى بحول الله تعالى وقوته. فإنا إذا التفتنا إلى الماضي، وجدنا الرياسة الدينية منذ عهد الأئمة عليهم السلام حتى هذه الساعة لا يتسلمها إلا أفذاذ لهم تاريخهم المشرق الناصع المملوء بالعزة والكرامة. الطافح بالعفة والنزاهة المتصل بالله سبحانه أشد اتصال.

تحليل نظرية الانتخاب في النجف

عندما ننتهي من حديثنا عن انتخاب الرئيس في النجف نشعر بأن هذا الانتخاب يسير على قاعدة الانتخاب الطبيعي، والانتخاب الطبيعي لا يزيد في معناه عن قاعدة بقاء الأصلح. ونحن إذا أعملنا أدق المقاييس في الشخص الذي تنتخبه النجف لناحية خاصة بالمتفوق. نجده لا يزيد عما أعطي له من المكانة، ولو فرضنا أن منصباً مختصاً بالمتفوق ناله إنسان لتفوقه. ثم كونت الظروف شخصاً آخر أعظم تفوقاً، تنحى الأول عن ذلك المنصب واحتله الثاني. وليس هذا الاحتلال إلا بحملة طبيعية، شنتها قاعدة الانتخاب الطبيعي، وليس مستنداً إلى صدور إرادة من أحد بالترفيع والتنحية. فقد يكون التدريس العام لشخص، ثم يبرع بعض تلاميذه أو أقرانه، فما هي إلا والتدريس العام يصبح لذلك التلميذ أو القرين، ثم لا يشعر التلميذ في ذلك الحال بشيء مما اعتادته النفوس البشرية من الزهو والكبر. ولا يشعر الأستاذ بشيء من الحسد والحقد. ويبقى التلميذ يشعر بأنه تلميذ إلا أنه متفوق بنظر الجمهور على أستاذه. والأستاذ يشعر بأنه أستاذ إلا أن تلميذه متفوق عليه بنظرهم. وتبقى مظاهر الاحترام والتقدير بحالها.

وإذا فتحنا الكتب المعدة لفتاوى العلماء «الرسائل العلمية» المعدة لعلم الناس. الذين يأخذون الأحكام منها، وجدنا في الفصل الأول منها ما لفظه. مسألة يجب تقليد الأعلم[١] ثم نعد سطوراً فنرى ما لفظه. مسألة. إذا قلد الأعلم فصار غيره أعلم منه وجب العدول إليه.

فأنت ترى المجتهد يحكم حتى على نفسه. لأنه يضع هذه الرسالة عندما يرى نفسه أعلم. ويراه جملة من الناس كذلك. ويعرف ذلك منهم. وهذا حكم شرعي عملي. وليس مجرد نظرية مسطورة في كتاب.

وقد اتفق أن بحر العلوم الطباطبائي قلد في زمن أستاذه الوحيد البهبهاني. فإن البهبهاني كان هو الرئيس المطلق ثم لما كبر وشاخ ضعفت ذاكرته فقلد الناس تلميذه بحر العلوم. وكان بحر العلوم مع قيامه بأعباء الرياسة يكرر الزيارة

---

(١) هذه المسألة ليست إجماعية. فبعضهم يفتي بها جزماً. وبعضهم يفتي بها محتاطاً وبعضهم يجزم بعدم تعين تقليد الأعلم.

لأستاذه، ويجعلها عملاً من جملة أعماله، إكباراً وتقديراً.

كل ذلك لأن انتخاب الأعلم ليس جارياً تحت قانون من شأنه الخضوع للسلطة، وإنما يجري على وفق قاعدة بقاء أو فوز الأصلح، الذي سارت عليه النجف منذ أمد بعيد.

فالرئيس لا تنتخبه السلطة الزمنية، ولا علاقة له فيها، ولا ينتخبه أشخاص في ضمن لجنة أو هيئة محدودة، وإنما يتكوّن بصورة تدريجية، ويعرف بعد الاختبار الدقيق، في الأعوام الطوال.

شروط الانتساب لجامعة النجف

وردتني رسائل من أشخاص كثيرين يسألون فيها عن شروط الانتساب لجامعة النجف، والشروط التي كنت أذكرها هي ما يلي:

أولاً: أن لا ينقص سنه عن الرابعة عشرة، ولا تزيد عن العشرين.

ثانياً: أن يحمل شهادة ابتدائية على الأقل، وإذا حمل الشهادة الثانية كان أفضل.

ثالثاً: أن لا يكون مجبوراً من وليه أو من ذويه أو غيرهم على الهجرة لطلب العلم الديني.

هذه هي الشروط التي كنت أذكرها في أجوبة الرسائل أو عندما يسألني سائل.

وأعتقد أن من جمع هذه الشروط يكون مضمون النجاح على الغالب. هذا، ولكن الحقيقة والواقع أن الانتساب ليس له قيد ولا شرط، ومثله الخروج منها، فإن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً، ولا تزال النجف تمنحهم هذه الحرية، التي منحها الله لخلقه، وأقرها الإسلام، والإسلام دين كريم، رفع مستوى الإنسان، وفتح له نقطة الانطلاق إلى الخير من جميع الجهات، وقانون النجف هو القانون الإسلامي الصحيح، الذي يؤخذ عن المجتهدين، بعد إعمال أدق المقاييس الدينية.

مثلاً يستطيع وليّ المدرسة أن لا يعطي غرفة للطالب إذا كان يعتقد أن انتسابه للجامعة غير راجح، ويستطيع طرده منها، وذلك عملاً بولايته وسلطنته، لأن الولي مسلط على النظر في مصلحة المدرسة، ورعاية أهدافها، ويستطيع الرئيس الديني أن لا يدخله في الجرايات والمرتبات التي تعطى للطلاب عملاً بولايته، ورعاية للمصلحة.

أما منع شخص من سكنى النجف، ومن شراء كتاب من السوق ليدرس به، ومن الاتفاق مع شخص ليدرسه، فذلك مما لا يبيحه الإسلام، لأن الناس مسلطون على أنفسهم.

نعم: في النجف رقابة عامة ومسؤولية يشعر بها الطالب والأستاذ على حد سواء.

وقد قلنا فيما مضى إن الشخص قد يكون تلميذاً لآخر، ويكون أستاذه تلميذاً لمن فوقه وهكذا إلى نحو من خمس طبقات وبهذا الأسلوب تتركز معلوماته، وتتجلى مواهبه، وتصبح عنده ملكة في علوم كثيرة، وهؤلاء كلهم يشعرون بالمسؤولية.

فإذا ورد طالب من قطر من الأقطار، فأول ما يرد عادة على طلاب بلاده، وهم بمنزلة شعبة مسؤولة عن ذلك القطر، ثم بعد التعرف عليه، وتعريفه بأفراد هذه الشعبة في ضمن ثلاثة أيام عادة يسألونه عن جهات كثيرة، وينظرون في مقدار معلوماته، ويمتحنونه بشكل هادىء، يمتحنه ذوو الكفاءة وغيرهم، ثم يتداولون الرأي بينهم على انفراد، فيعينون له الدروس التي هو في مستواها ويعينون له أستاذاً فاهماً للعلم الذي يدرسه، وصالحاً لتوجيهه الأخلاقي ثم يبقون على اتصال به، ويبقى الامتحان الهادىء مستمراً، فيقال له: أين تقرأ؟ وماذا قرأت اليوم. وماذا قرأت أمس؟ وهل تستطيع أن تملي علينا درساً من دروسك؟ وقد يوجه إليه السؤال بشكل أوضح، فإذا كان يدرس في النحو سئل عن التعريف والأقسام والعلامات والأحكام ثم عن التعليلات، وبعد ذلك قد يقرونه على ما عينوه له، وقد يغيرون ما يحتاج إلى التغيير، فقد يرفعون مستواه، وقد ينزلونه.

وبالطبع إن صغار السن يطيعون المرشدين، ويقبلون نصائحهم، والصغير

إذا شذ في يوم فإنه يسير في النهاية مع القافلة.

وفي غضون الدراسة، ينطبع الطالب بطابع الدين والتقوى وينشأ على الإخلاص والكمال، من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، وعلى هذا الضوء ينجح الطالب في دروسه وسلوكه، ويتميز في انطباعاته العالية.

وربما يرد آحاد من أهل السن، وأكثرهم من الفاشلين في الحياة، فيكونون كلاً على الجامعة أيام وجودهم فيها. ويسيئون سمعتها بعد مغادرتهم إياها. وهؤلاء عندما يردون النجف ينصحهم الناصحون فلا يسمعون، وأخيراً يعيشون وحدهم منبوذين ثم يصبغون أنفسهم بصبغة أهل العلم، ويصبحون بعد خروجهم من النجف عبيداً للأغنياء وأذناباً للزعماء.

والنجف تنبذ هؤلاء أيام وجودهم فيها. لأن أفكارهم متلبدة، وعقولهم متحجرة، ولأن النفعية تكون قد استحكمت في نفوسهم، وتغلغلت في عروقهم، والمفكرون من رجال الجامعة يعلمون أن هذا الداء عضال، وأنه لا يمكن علاجه.

فالذي كان سمساراً يكيل الكذب والخداع كيلاً على حساب قليل من المال كيف يمكن استخراج هذه الرواسب من نفسه والمظنون أنه يكون بعد ذلك سمساراً أكبر! والتاجر الفاشل الذي كان يساوم على حساب النفع اليسير، كيف لا يكون تاجراً أكبر! والذي كان جندياً متطوعاً لأجل الراتب عند المستعمرين، كيف لا يكون جندياً لأمثالهم من الظلمة؟.

إن النجف تصقل المواهب، وتفتق الأذهان، وتشحذ الألسنة، ولكن القلوب المريضة، والنفوس المتسممة، علاجها أصعب، وأمراضها أعضل، لأنها تحتاج إلى تعب كثير، وزمن طويل، وتحتاج إلى انقياد وطهر، وكبير السن كالخشبة الملتوية لن تعتدل، وإذا قومت انكسرت.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولا يلين إذا قومته الخشب

وكبار السن يعرفون ذوق العوام، لأنهم منهم ومن أجل ذلك ينسجمون معهم، ويتجاوبون فكرياً.

وهؤلاء في الحقيقة توجههم الجماهير، وليسوا هم الذين يوجهون الجماهير.

إن النجف تهتم في تربية الفكر، وتهتم في تربية الروح، وتبعث في نفس الطالب قوى الخير بأنواعها، فيصبح بعيداً عن الحياة الانتهازية، وتهتم في تقوية إرادته، ومن ثم يرى جافاً لأول وهلة، إن النجف تطبعه بطابع الخير، حتى يصبح يرى الكذب من الكبائر حتى في مقام المجاملة، ويرى الخداع من الكبائر حتى إذا كان يجلب له النفع، ولا ينقاد للجماهير، وإن رفعوا أصواتهم، لأنه يعتبرهم رعايا، ويعتبر نفسه موجهاً، لأن العلماء ملوك المؤمنين وينظر إلى نفوسهم الطفلة من حيث الكمالات، نظر الوالد إلى صغاره ونظر الطبيب إلى المريض، ونظر المعلم إلى الطلاب.

وهل يحسن من الملك أن يخون الرعية، وهل يحسن من الطبيب أن يعطي المريض ما يشتهيه، وهل يحسن من المعلم أن يسير بعقل الطلاب، وهل يحسن من رب المنزل أن يسير بإرشاد أطفاله؟

إن العلماء الذين يستولي عليهم تحميس الجماهير وتسيطر عليهم أهواء الأكثرية، ويطبقون رغبات السواد، هم أحوج إلى التوجيه من السواد، لأنهم أشد خطراً، وأسوأ أثراً، ونسأل الله سبحانه الهداية والسداد، فإنه حسبنا وهو نعم المولى ونعم النصير.

شهادات جامعة النجف

درجات الذين يغادرون جامعة النجف مختلفة طبعاً، ولكن تفاوتهم لا يخفى على الرقابة العامة ولا على الرقابة الخاصة، وهم الذين تطلب منهم الشهادة، كما شرحناه سابقاً والذين يغادرونها قسمان، قسم يغادرها إلى رجعة وقسم يغادرها لا إلى رجعة.

أما الذين يغادرونها نهائياً، فإنهم يأخذون شهادات من أساتذتهم ومن الرئيس الديني (المرجع الأعلى) وتلك الشهادات تتضمن في اصطلاحاتها مقدار درجات حامليها، وهذه المصطلحات يعرفها الخاصة، وهم بدورهم يعطون عن حامليها

صورة إلى السواد فهي نظير الشهادات التي يحملها طلاب الجامعات الحديثة، فإنها تتضمن مصطلحات لا يفهمها إلا القليل.

وعندما يريد الطالب الشهادة، يرفع الأمر إلى أساتذته وإلى الرئيس الأعلى مباشرة أو بواسطة، فإن كانوا يعرفونه معرفة كاملة، كتبوا له شهادات بخطوطهم، ومن إنشائهم، فإن كان متميزاً في ناحية أسهبوا في تلك الناحية، فإن كان متميزاً بالفضل نوهوا بفضله، وإن كان متميزاً بالعقل نوهوا بعقله، وإن كان متميزاً بالورع نوهوا بورعه، وإن كان متميزاً فيها كلها نوهوا بالجميع.

يفعلون ذلك تعزيزاً للعلم والدين، والتماساً لرضا الله سبحانه، ويرون ذلك حقاً من حقوق الطالب ومن حقوق المجتمع، أما كونه حقاً من حقوق الطالب فلئلا يغمط فضله، وأما كونه حقاً من حقوق المجتمع فليقيموا الحجة بإرشادهم إلى اتباع من ينتفعون به باتباعه.

وإن كانوا لا يعرفونه المعرفة الكافية، تعرفوا عن عقله وفضله وتقواه، ممن يثقون بدينهم وأمانتهم ولياقتهم للتمييز فإن شهدوا له. كلفوا بكتابة ورقة تتضمن ما شهدوا به، وهم بدورهم يتحرجون من ذلك، لأن الرقابة العامة توجه التبعات على من كتب، فإن كان ما كتبه دون مستوى المكتوب له طولب بذلك وإن كان فوقه كان الأمر كذلك.

ثم إذا كتبت الورقة بقيت أياماً عند من يطلب منه توقيعها تبقى للرقابة والتدقيق، وتكون خاضعة للتبديل والتعديل، فإنه يعرضها على أكثر من واحد من أهل المعرفة والفضل والدين والكتمان، ويأخذ رأيهم، فإن كانوا يعرفونه أعطوا رأيهم، وإلا استمهلوا، واشتغلوا بالتنقيب والتدقيق، كل ذلك بشكل هادىء إلى الغاية وبعد ذلك كله، يضيف الرئيس إلى المسودة ما يريد أو يضرب على ما لا يرتضيه، ثم يأمر بتبييضها.

وفي هذه الفترة، يبقى صاحب الحاجة منتظراً ويطلب توقيع الورقة، فيقال له وقت آخر، لا داعي للعجلة، المسألة تحتاج إلى تروي، متى عزمت على السفر؟ فيقول بعد أسبوع مثلاً، فيقال له الوقت واسع.

وأنت ترى من خلال هذه التعابير أن الرئيس لا يكذب بشكل من الأشكال ولا في حال من الأحوال.

وهذا الاهتمام إنما يكون، إذا كان الطالب يريد شهادة بالاجتهاد والعدالة، وإذا كان المستجيز ممن يرجى تقدمه علمياً، وكانت لياقاته دون ما يظنه في نفسه، نصحوه بالتأخر في النجف ريثما تكتمل قواه العلمية، فيمتثل إذا أمكنه ذلك، وكذلك إذا كان حدث السن يخشى عليه من الانجراف والانحراف.

وأما الذين يغادرون النجف مؤقتاً، فإن كانوا من أهل الفضل والتقوى، شهدوا لهم بما يناسبهم، وإن كانوا في طريق الفضيلة، كتبوا لهم ورقة موجهة إلى المؤمنين، أو لبعض أوليائهم تأمرهم باستماع مواعظهم، وإرشاداتهم، وتعلم الأحكام البدوية منهم، المسطورة في الرسالة العملية، والرسالة كتاب صغير يؤلفه المجتهد للعوام يتضمن فتاوى مؤلفه، ويأمرونهم ببرهم، والإحسان إليهم، وباحترامهم، كل ذلك تشجيعاً لهذا الطالب على الاستمرار في طلب العلم، وتسمى هذه الورقة في عرف الخاصة (ورقة خبر) يعني أن صاحبها إنما يحملها ليستعين بها مادياً، فإن المؤمنين اعتادوا أن يخصوا بمبراتهم من يحمل مثل هذه الورقة، وأهل العفة والكرامة يترفعون عنها، ويحرمون في الوقت نفسه من بر المؤمنين.

ثم إذا وصل هؤلاء إلى بلادهم زارهم علماء تلك البلاد، وامتحنوهم، ونظروا في شهاداتهم، فإن وجدوها تتناسب مع مستواهم فذاك، وإن كانت دون مستواهم نوهوا بفضلهم، ورفعوا مقامهم، وأعزوا جانبهم، وإن كانت فوق مستواهم، أهملوهم ولهم في ذلك أساليبهم الخاصة، الدقيقة الفعالة، ويتصل ذلك بالنجف طبعاً ويشيع بين الخاصة وربما يتداركون.

وهذا لون آخر من ألوان الرقابة العامة.

لماذا لا تمنع النجف شهاداتها عن غير المجتهدين؟

المهمات المطلوبة من رجال الدين تختلف، بعضها لا يستطيع القيام به إلا المجتهد، كفصل الخصومة، «القضاء» وكالولايات بأقسامها، ويسمونها بالأمور الحسبية، أي التي يتولاها المجتهد حسبة وقربة لله سبحانه، والفتيا في المشكلات التي لا توجد في الرسالة، وبعضها يستطيع القيام به من هو دون ذلك بمراتب، كالصلاة على الجنائز، وتعليم الأحكام السهلة العامة الابتلاء المسطورة في الرسالة، وبين ذلك مراتب أخرى تتعلق بالطلاق والنكاح، وأحكام المعاملات، فإن هذه أمور

لا تختص بالمجتهد، ولكنها تحتاج إلى طالب متفقه له عقل وورع، لئلا يقتحم الهلكات، ويوقع الناس في الشبهات..

وهناك مشكلات أخرى قد يعالجها رجل الدين ولكنها لا تختص به، وليس مسؤولاً عنها بنظر العرف الخاص.

ولا ريب أن حاجات المجتمع مختلفة، وأن الناس في إدراكهم طبقات متفاوتة، وأن رجل الدين بمنـزلة الدواء إلى أمراضهم النفسية، والنجف تصدر للمجتمع بنسبة الحاجة.

وغير بعيد أن يكون أفضل أنواع العلاج تنوع طبقات المتعلمين، فإن الطبقة المنحطة فكرياً يصعب علاجها على العالم المجتهد، لأنه لا يتجاوب معها فكرياً، ولأنه بطبيعته يستعمل لغة العلم والمنطق، والسواد لا يفهمون هذه اللغة.

أما الذين يمتازون عن السواد، في معرفة الطهارة، والصلاة وأصول الدين، وفروعه، وبعض المواعظ، ويحسنون تلاوة القرآن وقراءة الأدعية المأثورة، فإنهم من تلك الطبقة، وهم من أجل ذلك يتجاوبون معها.

ولذا نجد أجوبتهم عن المسائل والشبهات، تقنع العوام أكثر بكثير من أجوبة العلماء المحققين المحلقين.

إن الجواب الحقيقي الذي يقوم على العلم والمنطق، هو الجواب الذي يجيب به العالم، ولكن العوام لا يفهمونه، ولا يقتنعون به.

مثلاً، إذا سأل العامي عن الدليل على وجود الصانع، أجابه العالم بقاعدة الإمكان وانحصار الواجب فيه، وقاعدة الإمكان هي مصدر الحكمة، وأصل الفلسفة، وإذا تنزل يسيراً، أجابه بأن كل ممكن لا بد وأن ينتهي إلى ما هو واجب بالذات، وإلا دار أو تسلسل وما في الكون كله في سلسلة الممكنات، فلا بد وأن ينتهي في علة وجوده إلى غني عن العلة، ويجمع ذلك كله القاعدة المعروفة، ما بالغير لا بد وأن ينتهي إلى ما بالذات.

وماذا يفهم السواد، والمتعلمون نصف علم، من الدور، والتسلسل والممكن والواجب، وبالغير وبالذات، ماذا يفهمون من لغة العلم وهي غير لغتهم؟

أما الذين هم من العوام في واقعهم، ويراهم السواد من أهل العلم، فإنهم إذا سألوهم السؤال الآنف قالوا لهم في الجواب: إن كل موجود لا بد له من موجد، ويقتنع العامي بهذا الجواب ونحن نعرف ما فيه.

وإذا سأل سائل عن أحقية علي عليه السلام بالخلافة. استدل العالم بالدليل العقلي المتمم بدليل نقلي، أما العقلي فهو نفس الدليل العقلي الدال على ضرورة بعث الأنبياء وضرورة عصمتهم، فإنه بملاكه يقتضي استمرار وجود من يتصف بالعصمة، وإلا لانتفت الحكمة من بعث الرسل بعد موتهم ولم يدع العصمة أحد من المسلمين غير علي والأئمة الأحد عشر من بعده، ولم يدعها أحد لغيرهم، فانحصرت بهم مضافاً إلى تعزيز ذلك بالنص من السابق على اللاحق، وبالكرامة، وهي غير المعجزة.

وإذا تنزل العالم يسيراً، استدل بالنص المتواتر في غدير خم، وبحديث المنزلة، وبغيرهما من الأحاديث الشريفة الصحيحة عند الفريقين.

وبقوله تعالى: **﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾**، قائلاً إن هذه الآية الكريمة من آيات سورة المائدة، وسورة المائدة لم تنسخ لأنها آخر سورة كبيرة نزلت من القرآن الكريم، وإنها نزلت في حجة الوداع، وذلك قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشهور.

فما هو هذا الأمر الذي إن لم يبلغه الرسول كان غير مبلغ لرسالة ربه، مع أنه كان قد مضى عليه أكثر من عشرين سنة وهو مجد في تبليغ الرسالة وتعليم الأحكام.

وما هو هذا الأمر الذي حدا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم على النزول في غدير خم ضحى في حر الرمضاء، ووقف من أجله خطيباً ساعات من النهار، والناس تستمع واضعة أرديتها تحت أقدامها اتقاء لحرارة الرمضاء.

وما هو الأمر الذي هتف به في ذلك النهار؟ أجل إنه الولاية، وإنه إمرة المؤمنين، وإنه إعطاء «علي» تمام الصلاحيات التي كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد أدى ذلك بعبارات كثيرة، ثم قال اللهم اشهد أني قد بلغت.

أجل إن الآية الكريمة تشير إلى ما ذكرناه من الدليل العقلي، وترشدنا إلى أن

العلة المبقية كالعلة المحدثة، اقتضاء، ومصلحة، وفائدة، وإلى أن العلة المبقية إذا انتفت، لم يكن للعلة المحدثة أثر، فكأنه يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم إن لم تنصب الخليفة الذي أمرتك بنصبه، تكون كأنك لم تبلغ شيئاً من رسالتي، لأن كل تبليغ بدون هذا التبليغ يكون غير نافذ المفعول.

وماذا يفهم العامي من. الدليل العقلي المتمم بدليل نقلي؟

وكيف يفرق بين المعجزة والكرامة؟

وماذا يعرف عن النص والتواتر؟

وماذا يدرك من العلة المبقية والعلة المحدثة؟. وماذا يفهم من هذا وأشباهه؟.

أما أولئك فيستدلون على أحقيته بالقرابة وبالشجاعة وبقوة الساعد. وشدة البطش ولين الجانب ورقة القلب. ولا ريب أنها من صفات الخير التي يمتاز فيها إنسان عن إنسان. إلا أن هناك من الحجج، ما هو أبلغ وأبلج.

لغة التدريس

التدريس في النجف باللغة العربية، ويتقصد الأستاذ الفصحىٰ طاقته، وقد يتنزل عنها طمعاً في الإفهام والتوضيح أو من جهة غلبة العادة.

هذا بالنسبة للدروس العليا وللمدرسين من العرب، أما الإيرانيون، والأفغانيون، والهنود، والتبتيون، والنكر، وغيرهم فإنهم يلقون الدروس السطحية باللغة العربية، ثم يترجمونها لتلاميذهم بلغاتهم حتى إذا أتقنوا العربية يصبح الدرس كله باللغة العربية، أما دروس الخارج فكلها بالعربية، وقد يضطر الأستاذ لغيرها في أثناء الدرس.

العلوم التي تدرس في النجف

١ ـ النحو

أول علم يدرسه الطالب علم النحو، فإذا مهر فيه انتقل إلى غيره.

٢ ـ الصرف

ويدرس الصرف مع النحو، والعناية فيه عند طلاب العرب قليلة، ولعل السبب في ذلك، أنهم يستغنون عنه بمراجعة كتب الصرف واللغة، مضافاً إلى أنهم يدركون الشطر الوافر منه بالفطرة وإلى أن شطراً منه يمر في النحو عرضاً.

٣ ـ المنطق

٤ ـ المعاني والبيان والبديع

٥ ـ الأصول اللفظية

وهي تكاد تكون فلسفة لغوية، تبهر كبار الباحثين، في اللغات وأسرارها، لأنها مباحث عالية تفيض بالسمو الفكري.

٦ ـ الأصول العلمية

وهي أعظم من اللفظية وأهم، وأكثر فائدة وأعم، لأنها قطب رحى الاجتهاد، وهي في الوقت نفسه حلبة تتجارى فيها أفكار الفقهاء، وكلما مهر الفقيه فيها تجلت مقدرته في الفقه.

والأصول العلمية اسم لمباحث القطع، والظن، والشك، وأهم مباحث الشك، البراءة، والتخيير، والاشتغال، والاستصحاب، وتتضمن في الوقت نفسه قواعد سيالة يصعب حصرها تمر بالمناسبة، ويلحقون بالأصول مبحث التعادل والتراجيح، وهو محاكمة عالية للظنون المتعارضة، كما يلحقون بها مبحث الشكوك المتداخلة.

ولهم اصطلاحاتهم، فإن لكل علم لغته واصطلاحاته، التي لا يمكن تجرده منها. وهذه كتب الهندسة والحساب، والطب والهيئة والمنطق والفلسفة وغيرها كلها تحتفظ باصطلاحاتها الخاصة، لمصلحة أدركها المتخصصون وهي تقريب المسافة.

وسهولة الوصول إلى النتائج بتقليل ما يدون.

فلو أراد الرياضي أن يكتب مسألة واحدة مجردة عن اصطلاحاتها لكانت كتاباً.

والخلاصة، إن كثيراً من الناس يطالب الفقهاء بتجريد الأصول من مصطلحاته، لأنه يحاول فهمه بدون تعب، وبدون دراسة، ولكن المتخصصين في كل علم يعرفون قيمة المصطلحات من حيثيات كثيرة، لو تعرضنا لها لخرجنا عما نحن فيه.

وبعد فالاصطلاحات بمنزلة أصول موضوعة تعبر عن الشيء الكثير بكلمة أو كلمتين، يقف عندها النزاع، وتنقطع الخصومة.

وإننا نجد هذه الظاهرة في كتب اللغة التي هي أبسط من كل علم، بل هي ليست من العلم بشيء ومع ذلك نجد اصطلاحاتها تملأ السطور فضلاً عن الصحائف.

٧ ـ الكلام

٨ ـ الفلسفة

وكثير من الطلاب من يستغني بدراسة علم الكلام عن الفلسفة وقد يكتفي بكتاب مختصر من علم الكلام عنه.

هذه هي أهم العلوم التي تدرس في النجف. وتطلب من المنتسبين إليها، وتحاسبهم الرقابة العامة عليها، وفيها. ولأجلها. لأنه لا يمكن لأحد بلوغ درجة الاجتهاد من دون أن يتقنها. أما العلوم الأخرى فيكفيه الإلمام بشيء منها والرقابة العامة تحاسب التلميذ على تركها تركاً باتاً. كما تحاسبه على الإغراق فيها. لأن التخصص بشيء منها يصرفه عن التخصص بالفقه، والفقه يحتاج إلى وقت وتعب وجلد وصبر لما ستعرفه.

وهناك علوم كثيرة. يتزود بها الطالب. بدون دراسة وبتعبير أصح. يتلقاها الطالب في أثناء الدروس العامة.

فعلم الدراية. والحديث. والتفسير واللغة. كلها ترافق التلميذ في جميع أطوار دروسه. فيفهم أقسام الحديث واصطلاحاته وأنواعه، والجرح والتعديل وتفسير الآية

وسبب نزولها ونسخها وناسخها، يفهم هذا وغيره عرضاً، بسبب تعرض الأساتذة له، بصورة مطردة مع كل مناسبة مقتضية له، وإنما لا يعتبرونها في برنامج التدريس لسهولتها، فكل طالب يأخذ منها بقدر نشاطه، وموهبته، وطموحه.

وهناك علوم أخرى تدرس مستقلة، ولكن الرقابة العامة لا تحاسب على تركها، كالهيئة، والحساب، نعم تحث الطالب على الإلمام بشيء منها.

وهناك علوم قد يدرسها الطالب، فيلاقي عتاباً من الرقابة العامة. كالتشريح والطب والهندسة، والعروض، لأنها تصرفه عن التخصص في الفقه والأصول، والطلاب من غير العرب يدرسون الأدب دراسة متقنة، فيدرسون الحماسة، ومقامات الحريري، أو غيرها من المقامات، وديوان المتنبي. لتقوية لغتهم العربية، وللإحاطة بقواعدها وأسرارها ومعاني مفرداتها، ومن ثم قد يفوقون طلاب العرب فيها. ولكن للطبع أثراً لن يصل إليه التطبع.

جزاهم الله. عن الإسلام خير الجزاء.

كتب الدراسة[1]

١ ـ أول ما يدرسه الطالب علم النحو:

فإن كان ضعيفاً فيه، قرأ بعض حلقات الدروس النحوية، أو النحو الواضح، وهما من المؤلفات الحديثة، وإن كان يعرف شطراً من مباديه. قرأ القطر الأصل والشرح وهو لابن هشام، وإن كان أرقى من ذلك قرأ شرح ألفية ابن مالك، فالقوي يقرأ شرح ابن الناظم، والضعيف يقرأ شرح ابن عقيل. لأنه أسهل تناولاً، وبعضهم يدرسه لأنه أكثر إحاطة بالقواعد، وقلما يتم الطالب شرح الألفية، لأنه إذا انتهى إلى إعراب الفعل وجد نفسه مسيطراً عليها، ويستطيع فهمها بدون أستاذ، فيعتمد في تحصيلها على نفسه بالمطالعة أو بالمباحثة مع رفيقه، وقلما يتهيأ له ذلك. لأنه ينشغل بما هو أهم منه. لذلك نرشد الطلاب إلى إتمامها حتى النهاية. وكان الطلاب سابقاً يقرؤون حرف الألف من كتاب المغني لابن هشام مع الباب الرابع منه وكان بعضهم يقرأ شرح الكافية للرضي. وهو من أفضل كتب النحو وأدقها.

٢ ـ المنطق:

ويدرسون منه حاشية الملا عبد الله. ثم شرح الشمسية. وقد يتمون الشمسية. وقد يدرسون التصورات والقضايا الحَملية فقط. ومن أراد التبحر فيه درس شرح المطالع. أو منطق منظومة السبزواري.

٣ ـ المعاني والبيان:

ويدرسون منه المطول. وضعفاء الهمة يدرسون المختصر، وبعضهم يدرس

---

(١) ينبغي أن لا ينسى القارىء أن هذا الكتاب كتب قبل أكثر من ربع قرن.

الإسناد الخبري، والمسند والمسند إليه في المطول، ويتم بقية أبواب المعاني في المختصر، ثم يدرس البيان في المطول، ويراجعون شروح التلخيص، أثناء الدراسة والمباحثة.

٤ ـ الأصول:

وأول ما يدرسون منه (المعالم) ثم شطراً من (القوانين) ثم الجزء الأول من «الكفاية» ثم «الرسائل» ثم الجزء الثاني من «الكفاية» وغير العرب يقدمون دراسة الرسائل على دراسة الكفاية بكلا جزئيها، وكان بعضهم يدرس بعد المعالم عوضاً عن القوانين كتاب الشيخ عبدالكريم، ويراجع الأستاذ أثناء تدريس الجزء الأول من الكفاية «الفصول» وحاشية الشيخ محمد تقي على المعالم.

٥ ـ الفقه:

وأول ما يدرسونه منه عبادات الرسالة العملية ثم الشرائع، ثم اللمعة وشرحها الروضة، ثم عبادات «المدارك» ومعاملات «المسالك» وبعضهم يدرس «الرياض» ويشرع في دراسة الفقه عندما يشرع في النحو، فيكون شروعه في اللمعة مع شروعه في الأصول.

٦ ـ المكاسب:

وإذا انتهى من ذلك كله، درس «المكاسب» والمكاسب كتاب يتضمن أصول المعاملات، وشطراً وافراً من قواعد الفقه، وكل مبحث منها يشبه أطروحة عالية في نفسه، وكأنه وضع للمتخصصين في الفقه والأصول، وقد مرَّت لمحة عنه فيما سبق.

الصرف:

يدرسون منه المراح أو التفتازاني، وبعضهم يدرس شرح النظام:

التاريخ الإسلامي:

وتاريخ الأمم البائدة.

يطالعون مروج الذهب والعقد الفريد، وابن الأثير. وابن خلكان، ومقدمة ابن

خلدون، وقبل ذلك ومعه وبعده شرح ابن أبي الحديد على النهج وغيرها.

الأدب:

الحماسة والمتنبي والبحتري وأبو تمام ومهيار، والمقامات وقبل ذلك ومعه وبعده نهج البلاغة.

التفسير:

مجمع البيان والكشاف، وجامع الجوامع والصافي.

الهيئة:

يدرسون تشريح الأفلاك للشيخ البهائي.

الحساب:

يدرسون الخلاصة للشيخ البهائي، وبعضهم يدرس بعض المؤلفات الحديثة.

اللغة:

يراجعون القاموس، ومجمع البحرين للطريحي، ومختار الصحاح، والمصباح المنير.

الكلام:

شرح الحادي عشر للعلامة، ثم شرح التجريد له، ثم شرحه للقوشجي.

الحكمة:

ويسمونها الفلسفة شرح منظومة السبزواري، والأسفار للملا صدرا وغيرها.

الطب:

شرح نفيسي في التشريح، ويطالعون تذكرة الشيخ داود الأنطاكي.

الهندسة:

يدرس من يريدها المجسطي. ورأيت في مدرسة السيد كاظم فاضلاً يدعي

التخصص بها. ويزعم أنه حل بعض النظريات اليونانية التي لم يهتد غيره لحلها. وهو أعرف بما ادعى.

الأخلاق:

أكثر ما يهتمون في مطالعة جامع السعادات. ومكارم الأخلاق لابن مسكويه. وبعضهم يطالع. إحياء العلوم والأخلاق كان لها سوق رائجة. قبل هذه الأيام. وكان يوجد أناس متخصصون لهم دورات وتلاميذ. ولهم كرامات ومقامات.

وحدثنا الأستاذ الحكيم أن أحد الأساتذة باحثهم في قوة الإرادة ومحاسنها والحث عليها نحواً من أربعة أشهر.

علم الرمل والحرف والجفر والسحر:

يدعي العلم بها أناس ويطلبها أناس. وقد طلبناها للتعرف عنها فلم نظفر منها على شيء يذكر.

هذه[1]

هذه هي الكتب المتداولة. عند الأغلب، أما المتخصصون في كل فن من هذه الفنون. فإن لديهم في كل فن من هذه الكتب ما نعرفه وما لا نعرفه. فلو دخلت على طبيب بالطب اليوناني لذكر لك من كتب الطب المطبوع والمخطوط الشيء الكثير. ولو جلست إلى خطباء المنبر، وسألتهم عن كتب التاريخ الإسلامي، وعن كتب الأدب، لوجدت مئات الكتب في مكتبة كل واحد منهم، ولو سألتنا نحن الفقهاء عما نستحضره من كتب الحديث والفقه والأصول والتفسير لتجاوز ما عند أقل متخصص مائة مجلد تختص بالفقه وتوابعه الآنفة كلها مطبوعة بالمطابع الحجرية القديمة، وكل مجلد منها لو طبع بالمطابع الحديثة لكان ست مجلدات كل مجلد يتجاوز خمسمائة صحيفة تقريباً والمتخصص يعرف موارد الحاجة ويعرف ما يختاره للمطالعة والمراجعة.

---

(١) هذا مضمون ما كتب قبل أكثر من ربع قرن كما أشرنا لذلك مراراً أما اليوم فللطلاب سيرة أخرى.

لمحة عن الفقه

الفقه ينقسم في اصطلاح الفقهاء إلى عبادات. ومعاملات وأحكام. وسياسات. عدا ما يشتمل عليه من الآداب والأخلاق.

والمعاملات هي أقل من العبادات بكثير. وهي تزيد عن ثلاثين باباً، يسمى كل باب منها كتاباً، كالإجارة والجعالة والوصايا والهبة والوقف والمزارعة والمساقاة والحوالة والكفالة والضمان والرهن والسبق والرماية والبيع وغيرها. والبيع نفسه يشتمل على أبواب، كل باب كتاب، كالربا والصرف والسلم. والنسبة وبيع الحيوان وبيع الثمار وغيرها. فإن لكل واحد منها أحكاماً تخالف أحكام الآخر.

والحقوق التي تدرس في الجامعات العالمية، شعبة من شعب الفقه الإسلامي ولكنها تختلف عنه بالمصدر والمرجع، فالفقه يعتمد على الكتاب والسنة والعقل. والحقوق تعتمد على القوانين الموضوعة التي تفرضها السلطة، فالحقوقي الماهر مجتهد في ضمن هذه الدائرة. أما الفقيه الماهر فهو مجتهد فيها وفي غيرها من أبواب الفقه التي هي أضعاف الحقوق عدة مرات.

المجتهد. والاجتهاد والمقلد. والتقليد

المجتهد هو الذي يستطيع إرجاع كل دليل ظني إلى دليل قطعي، ثم بعد وجود هذه القدرة، يجب عليه الإحاطة بكل ما يصلح أن يكون دليلاً في طرف الإيجاب وفي طرف السلب، وأن يكون محيطاً بالأصول اللفظية، والعملية، وأن يكون قادراً على تطبيق الكبريات على صغرياتها، وعلى إرجاع كل فرع لأصله.

أما وجوب إرجاع كل دليل ظني إلى دليل قطعي، فلأن الدليل الظني لا ينفك

عن احتمال الخطأ، ولا طريق للخلاص من هذا الاحتمال، إلا بقيام دليل قطعي، ينتج منه ارتفاع ذلك الاحتمال تكويناً أو تعبداً[١].

والسبب في ذلك كله، أن الذي فيه احتمال الخطأ يكون نظرياً، وكل نظري لا بد وأن ينتهي إلى ضروري، وإلا تسلسل أو دار، ويعبر الفلاسفة عن هذه القاعدة بقولهم «لأن ما بالغير لا بد وأن ينتهي إلى ما بالذات».

وأما استغناء القطع عن الدليل (ونقصد بالقطع الاعتقاد الجزمي) فلأنه ليس فيه احتمال الخطأ، ولذا عرفوه: بأنه ما يمنع من احتمال النقيض. فحجية القطع ذاتية لا تحتاج إلى جعل جاعل أو اعتبار معتبر، بل يمتنع جعل الحجية له للزوم التسلسل أو الدور، مضافاً إلى أنه يلزم من جعلها نفياً التناقض، وإثباتاً تحصيل الحاصل وكل منهما محال.

فالجعل في باب القطع ممتنع، نفياً وإثباتاً، سواء أكان بالجعل التكويني أو التشريعي اصالة وتبعاً.

فحجية القطع من لوزام ذاته، كزوجية الأربع. ووجوب العمل عليه عقلي، ولزوم متابعته فطرية.

وتوضيح ذلك كله:

إن الدليل القطعي إن احتاج إلى دليل فإما أن يكون قطعياً، وإما أن يكون ظنياً، ولا يمكن أن يتوهم متوهم الاستدلال عليه بشيء آخر.

فإن كان قطعياً، كان الاستدلال عليه به، من باب الاستدلال على الشيء بمثله، ومماثل الشيء ومساويه مثله في الاحتياج إلى دليل، فالاستغناء به دونه، ترجيح بلا مرجح ولا ترجح وهو محال، وإذا فرض الاستدلال على الثاني بدليل ثالث قطعي كان أيضاً مثله في الاحتياج إلى دليل، وهكذا فيتسلسل، وإن استدل عليه بواحد مما سبقه دار، وكل من الدور والتسلسل محال.

---

(١) إذا كان مرتفعاً جزماً سمي في الاصطلاح ارتفاعاً تكوينياً، وإذا كان مرتفعاً بواسطة دليل ظني «ثبتت حجيته بدليل قطعي» سمي ارتفاعاً تعبدياً.

وإن استدل عليه بدليل ظني كان من الاستدلال على الواضح بما هو أخفى منه، فإن العلم يمنع من احتمال النقيض. وينفي احتمال الخطأ، بخلاف الظن.

وأما وجوب الإحاطة بكل ما يصلح أن يكون دليلاً، فلأنه لا يمكن التخلص من احتمال الخطأ بدونها، ومثلها القدرة على المحاكمة بين الأدلة.

والمجتهد بعد هذا، يركز نظرياته على العقل والكتاب، والسنة، ولا يستند فيها إلى نظرية إنسان مثله يخطىء ويصيب، مهما بلغ ذلك الإنسان من العظمة، ومهما حاز من الشهرة والألقاب.

فالقوانين المدنية، شرقية وغربية، قديمة وحديثة، وآراء الحقوقيين، لا ينظر فيها المجتهد أكثر من نظرته إلى رأي ارتآه إنسان فاضل يخطىء ويصيب فلا يحتج بها ولا يستند إليها، ولا يقف عندها. بل تكون في معرض البحث، ويجب أن تخضع للحساب فإن رجعت إلى العقل الضروري أو للكتاب أو السنة كانت حقاً، وإلا فهي مردودة على قائلها.

والمجتهد إذا آمن بنظرية من طريق العقل، أو الكتاب أو السنة، دعا إليها، وعمل عليها، آمن بها الآخرون أو كفروا، فإن المجتهد لا يخشى وحشة الانفراد عن عظماء المفكرين، إذا واكبه الدليل، ونصره المنطق.

والمجتهد يرتبط بأحكام العقل البديهية، لبداهتها، ولأن حجيته ذاتية، وليس القطع إلا إشعاعة من فجره، وكل ما قلناه فيه نقوله هنا.

والعقل أسبق رتبة من الكتاب والسنة، لأننا بالعقل عرفنا الله سبحانه وبه أدركنا وجوب بعث الأنبياء، وبه أقمنا البرهان على وجوب عصمتهم، وبه علمنا أن الكتاب من عند الله تعالى، وأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله، وأنه يجب علينا إطاعة الله، وتحرم علينا معصيته.

وعلى هذا الضوء يرتبط المجتهد بالكتاب والسنة، لأن الكتاب كلام الله سبحانه، ولأن السنة كلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وكل ما جاء به يجب العمل عليه لقوله تعالى، **﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾** سورة النجم آية ٣ و٤ ولقوله تعالىٰ: **﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**. سورة الحشر

من الآية رقم ٧. والعقل يرشدنا إلى وجوب إطاعة ما في الكتاب والسنة ويحذرنا من مغبة التمرد والعصيان، فالاستدلال بالكتاب والسنة يرجع إلى الاستدلال بالعقل كما هو واضح:

فكل استدلال بغير كلام الله سبحانه وكلام المعصومين لا يكون حجة بنظر العقل لأن خطأه محتمل.

والمجتهد أيضاً يجب أن يحيط بفنون اللغة العربية، ويعرف أسرارها، لأن من لم يكن كذلك لم يعرف لغة الكتاب والسنة، ولن يصل إلى أسرارهما الرفيعة.

ويجب أن يكون محيطاً بالأصول اللفظية لأنه لن يستطيع بدونها محاكمة الأدلة اللفظية، أعني الكتاب والسنة.

والأصول اللفظية، أكبر فلسفة لغوية، تتجلى بدراستها أسرار لغتنا الحية.

ويجب أن يكون المجتهد أيضاً محيطاً بالأصول العملية، لقيام الدليل القطعي على كونها مرجعاً (على تقدير فقد النص الخاص) في تعيين الوظيفة العملية، فيجب العمل بمؤداها إن كان نتيجتها حكماً إلزامياً، ويحرم العمل قبل ملاحظتها حتى لو كانت نتيجتها ليست حكماً إلزامياً.

الاجتهاد[1]:

والاجتهاد بعد ذلك كله محاكمة رفيعة، واستنتاج متفوق، وتدقيق وتحقيق، يسير على هدى المنطق العالي.

وإن حرية الفكر عند المجتهدين، رفعت مستوى الفكر عن أن يكون مسخراً لمثله، ثم يبقى حائراً في تطبيق فلسفته على فلسفة أناس يخطئون ويصيبون.

وهكذا بقيت العقول في جامعة النجف حرة، تأنف من الاسترقاق، وتترفع عن العبودية، وتطمح إلى الحق حيث كان وهكذا بقي باب الاجتهاد مفتوحاً.

هذا هو الاجتهاد الذي نفخر فيه، ونحامي عنه، وندعو إليه: غير أن كثيراً من

---

(١) عرفه الأصوليون بأنه ملكة يقتدر بها على تحصيل الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية.

أهل العلم يدعون الاجتهاد، ويسرعون إلى إبداء آرائهم. وترجيح دليل على آخر من الأدلة التي تحضرهم في مجلس المذاكرة، أو مما يجدونه في كتاب واحد، من دون استقصاء في الاستقراء. وفي ملاحظة كتب الحديث، وتفاسير الكتاب العزيز، وكلمات الأصحاب، وهؤلاء مقصرون، فهم على شفا جرف هار، وفي معرض سخط الجبار، فليتنبهوا لأنفسهم وليثوبوا لرشدهم. وليتقوا الله سبحانه فإنه بالمرصاد.

فإن المجتهد المعذور في خطئه. هو الذي يبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ثم يعجز عن إدراك الواقع، ويكون حينئذ قاصراً لا مقصراً، والقاصر عاجز، وعقاب العاجز قبيح عقلاً.

أما المتسامحون، فإنهم مقصرون، والعقل يستقل باستحقاقهم للعقاب، حتى مع موافقة فتواهم للواقع، ويشهد لهذا قوله عليه السلام في عداد القضاة الذين هم في النار (ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم)[1].

التقليد:

ثم إن العوام عاجزون عن تحصيل العلم بالأحكام عن أدلتها التفصيلية، ولا بدّ لهم من إطاعة الله سبحانه والعقل يلزمهم بوجوب الأخذ عن المجتهدين، بل الفطرة تحتم عليهم ذلك، لانحصار طريق النجاة بالرجوع للعلماء.

ألا ترى أن المريض بفطرته يرجع للطبيب، وأن الدول على عظمتها، تعتمد على المهندسين في التخطيط، والشريعة فيها علاج الفرد، وعلاج الجماعات، علاج الفرد في نفسه، ومع ربه، ومع مجتمعه. والمجتهدون هم الأطباء المتخصصون. ولا طريق للسلامة والنجاة. إلا الأخذ بأقوالهم. والانقياد لآرائهم.

هكذا يعيش الطالب في جامعة النجف

الطالب في النجف يعمل دائباً، فلا فترة ولا انقطاع، حتى في ساعات الراحة، فللدرس أوقات، ولكن أيام العطلة هي أيام عمل ونشاط في

(١) ربما يكون في هذا دلالة على حرمة (التجري) ومسألة التجري مسألة معروفة عند الأصوليين.

جهات أخرى، وتسمى أيام الدراسة أيام الاشتغال، وتسمى أوقات العطلة أيام التعطيل.

أما أيام الاشتغال فإن الطالب يمضيها بين درس يتلقاه، ودرس يلقيه، ومطالعة في الليل وفي فترات الضحى والزوال والأصيل، ويكتب دروسه كأنه يؤلف كتاباً في العلم الذي يدرسه وقد يتم مسائل ذلك العلم كله وقد لا يتمها، كل وموهبته وجلده وصبره، وتدوين الدروس يعتبر رمزاً للنشاط والجد، وفي الوقت نفسه يكون مقياساً لنجاح التلميذ والأستاذ معاً وبذلك يكون الطالب قد أعطى صورة عن نفسه، فإنه إن فهم الدرس دونه، وإن لم يفهمه لم يستطع تدوينه. ويكون ما يدونه شاهداً عليه أمام أساتذته وأقرانه. وهو قبل ذلك يكون له بذلك من نفسه على نفسه رقيب. فكثير ما يضطر بهذه الواسطة للاعتراف بقصوره أو تقصيره. وقد ينتحل الأعذار.

هكذا يعيش الطالب في أيام الاشتغال. ولا يرتاح من العمل فيها إلا في فترات الانتقال من درس إلى آخر وعند تناول الطعام وأداء فريضة الصلاة، وبعض الطلاب قد ينام بعد الزوال ساعة أو أكثر، ولا سيما في فصل الصيف، يستعين بذلك على سهر الليل، ومكافحة الحر وينتبه الطالب مبكراً قبل الشمس على الأقل فيؤدي فريضة الصباح ويعقب بعدها بشيء من القرآن الكريم والأدعية المأثورة وقد يكون عنده درس قبل طلوع الشمس والأوحدي من الطلاب ينتبه قبل الفجر ويؤدي نوافل الليل ويطالع دروسه، وأما أيام التعطيل، فهي الخميس والجمعة من كل أسبوع، وعيد الفطر، والأضحى، وأيام وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والزهراء عليها السلام والأئمة عليهم السلام وشهر رمضان بكامله والعشرة الأولى من شهر محرم بكامله وأيام الزيارات المسنونة.

أما الجمعة والخميس فقد يمضيهما في نقل مسودات دروسه إلى المبيضة وقد يتدارك ما فاته تدوينه من دروسه أثناء الأسبوع وقد يمضيهما في لقاء إخوانه وأصدقائه وتنظيف غرفته وبدنه وتبديل ثيابه، وقد يمضيهما في النزهة في الكوفة والشواطىء[1] وقد يقسم هذه الأعمال على أيام التعطيل فيكون لكل يوم منها

---

(١) الشواطىء أرض زراعية قريب النجف في الجانب الجنوبي الغربي ويسمونها البحر فيها جدول ماء وأشجار ونباتات وسواقي.

نصيب من هذه الأعمال، فكل طالب يفعل حسب ما يوحي إليه شعوره وإحساسه.

وإذا قضاها في النزهة مع أصدقائه فليس له متعة إلا اللعب والسباحة في نهر الفرات، واحتساء الشاي على ضفافه الخصب والاشتراك معهم على طعام واحد يقترحونه ويصنعونه، بأنفسهم وهم في غضون ذلك كله لا تفوتهم النكتة ويتحدثون في التاريخ والأدب وتكثر بينهم المنافسة في الشعر[1] ويصحبون معهم الكتب وأكثر ما يصحبونه من الكتب ديوان المتنبي والشوقيات وجواهر الأدب، وبعض الكتب التي تكون جديدة الصدور، ويشتغلون بالتقفية والتفسير وبطبيعة الحال تترقى مواهبهم الأدبية وتنصقل أذواقهم. وقلما يكون فيهم بعد ذلك من لا يحسن نظم الشعر وتلاوته وقد يتبارون بالإلقاء وبالقراءة على العربية ويشتركون في نظم قصيدة فتكون عطلتهم جولات عامة في الأدب والتاريخ وعلوم العربية.

وأما في أيام الوفيات فإن أكثر الطلاب يحضرون مجلساً أو مجلسين من

---

(١) وذلك بأن يأتي أحدهم ببيت ويأتي الآخر ببيت آخر يكون أول حرف من حروفه هو آخر حرف من حروف ذلك البيت، ويأتي الثالث ببيت ثالث يكون أوله آخر حرف من البيت الذي قرأه الثاني وهكذا فإذا أنشد الأول:

دعاني أخي والخيل بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بقعدد

أنشد الثاني:

دعاني من نجد فإن سنينه ... لعبن بنا شيباً وشيبننا مردا

وأنشد الثالث:

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطب نفساً بما حكم القضاء

ويستمر هكذا بنسبة المساهمين في المنافسة حتى يعود الدور للأول وهي حرب عوان قد تدوم عدة ساعات حسب مقدرة المتنافسين فإذا طغت الحافظة فصل بينهم الليل إن كانت نهاراً وشدة الحاجة للنوم إن كانت ليلاً، وكثيراً ما يستعملون الحصار فيحاصر بعضهم بعضاً، فيتعمد أحدهم الإتيان بأبيات كلها على قافية واحدة حتى يعجز الآخر، ويجعلون مقياس الغلبة الانقطاع عن الحلبة خمس دقائق أو أكثر أو أقل حسب الاتفاق ويشترطون على من يحسن نظم الشعر أن لا يرتجل ولكن قد يقع ذلك وهم لا يشعرون، فإنه يصنعه على ألسنة الجاهليين أو المخضرمين، وأتخطر أنني حوصرت مرة فأنشدت:

نار القرى في حيهم ... مشبوبة للوافدينا

فلم يشكوا في كونه جاهلياً، وربما ينشد أحدهم بيتاً فيدعي آخر أنه قرئ قبل ذلك، وهنا تعلو الضجة وقد ينتهي الأمر بوقوف المنافسة وإبطالها أو بانسحاب بعض الأشخاص.

مجالس التعزية ومجالس التعزية أندية تعرض فيها صورة عن تاريخ السلف عرضاً إضافياً صحيحاً مقروناً بالنقد والتحليل تكون تلك الصورة متصلة بحياة من عقد مجلس الذكرى باسمه ولأجله، ويسمى «مجلس التعزية».

مثلاً إذا كان مجلس التعزية بمناسبة وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن خطيب التعزية «الروزخون» يستعرض شطراً من حياته الشريفة قبل البعثة وبعدها حتى يصل إلى وفاته وما جرى في غضون ذلك وإذا كانت بمناسبة وفاة الصادق عليه السلام استعرض الدور الأموي والعباسي والفترة التي استغلها الصادق في تعزيز الكتاب والسنة ونصرة الإسلام، ونشر العلم والمعارف، وجهاده الفكري في قبال الزنادقة الذين وجدوا من ضعف السلطة فرصة للتطفل على المبادىء الإسلامية المقدسة، ويعطي صورة عن الخلافة، والخلفاء في تلك العصور.

وأما في شهر رمضان المبارك فأكثر الطلاب يحيون الليل ويمضون شطراً وافراً من النهار بالنوم. يستعينون بذلك على الصوم ولا سيما إذا كان شهر رمضان في فصل الصيف، ويشتغلون في أوقات الانتباه آناء الليل وأطراف النهار بتلاوة القرآن الكريم، وأدعية الليل والنهار والسحر، ويتزاورون، ويحضرون مجالس الوعظ والإرشاد التي تقام طيلة شهر رمضان عصراً وليلاً حتى الصباح وهي كثيرة جداً، وهي أيضاً كما وصفنا، في أوقات الوفيات، فالطالب يختار المجلس الذي يشتهيه من حيث المكان والخطيب وبعضهم يشتغل في بعض المسائل العلمية التي يحتاجها أو التي فاتته أيام الدرس وقد يدرس مسألة معضلة في أسبوع منه أو أسبوعين، ويسمون ذلك درس تعطيل، أما في ليالي القدر فلا عمل إلا العبادة هكذا يعيش الطالب في النجف من الوجهة العملية في هذه الأيام[1] وفي غضون هذه الفترات تتولد في أنفسهم بواعث التأليف والتصنيف ونظم الشعر، وإنشاء المقالات، بهذا وأشباهه يملؤون ساعات الفراغ ويحسبون ذلك تبديلاً في اتجاههم وترويضاً لنفوسهم، وراحة لها وجماماً[2].

---

(١) أعني قبل أكثر من ربع قرن، وذلك عند تدوين هذه المسودات. . .

(٢) انتهى كلام الفقيه (دام ظله).

أما مؤلف «**حديث الجامعة النجفية**»[١] فقد أعطى صورة متقاربة مما تقدم عن «أسلوب الدراسة في النجف»، حيث قال:

لا بد لنا ـ ونحن نتحدث عن الجامعة النجفية ـ أن نمر بتلك المعاهد العلمية. ونقف أمام تلكم المدارس الدينية، للعظة والاعتبار، والعلم والاطلاع والفائدة، وقبل الشروع في هذا الحديث لا بأس أن نلمح إلى حديث آخر عن معاهد الأندلس، ومدارس بغداد، ومعاهد إسلامية أخرى بين الأمس واليوم، إلى غير ذلك مما تذكرنا به مدارس النجف اليوم.

ويتضح لنا أهمية هذه المدارس الإسلامية ـ بكلمة مختصرة ـ ما قاله العالم الألماني (ريثر): «إن المدارس الفقهية، والتفكير الديني في الإسلام يمثلان الفلسفة العربية أكثر مما يمثلها جمهور الفلاسفة أتباع (أرسطو) كالفارابي، وابن سينا وابن رشد وغيرهم[٢].

إلى الأندلس

تذكرنا المدارس النجفية بمعاهد الأندلس العلمية ومدارسها الإسلامية التي كانت في «بامبلونه» و«سيجوفيا» و«برشلونه» و«طليطلة» وغيرها. . هذه المدارس العربية التي يعود الفضل إليها في نقل ثقافة العرب إلى الغرب، حيث إنها المقباس الذي أفاد الغربيين من نوره واهتدوا بهديه. ومنذ ذلك الحين بدأت الدراسات الشرقية وتعليمها في مدارس الغرب، وشرع المستشرقون في ترجمة الكتب العربية الإسلامية إلى سائر اللغات الحية في العالم.

---

(١) للمرحوم الشيخ محمد رضا شمس الدين، وقد طبع كتابه هذا سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٣م راجع من ص ٤٠ إلى ٧١، وقد أثبتنا هذا الفصل نظراً لقيمته التاريخية حيث مضى على كتابته أكثر من أربعين سنة.

(٢) أخذ السيد قطب فكرة هذا الألماني في كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وراح يحارب بها الأزهر ويحمل على معاهده العلمية حيث قال: وبدلاً أن ينهض الأزهر بهذه الرسالة «فلسفة الفقه» راح يدرس في كلية أصول الدين ما يسمىٰ خطأً بالفلسفة الإسلامية من كتب ابن سينا، وابن رشد، هذه الانعكاسات للفلسفة الإغريقية التي لا صلة لها بحقيقة الفكرة الإسلامية الكلية. . .

في بغداد

وتذكرنا هذه المدارس النجفية أيضاً بمدارس بغداد الشهيرة كمدرسة «دار العلم» لنقيب الأشراف السيد الرضي الذي كان ينفق عليها وعلى طلابها من ماله الخاص[١] كما أسس فيها مكتبة كبيرة.. هذا مضافاً إلى ناديه العلمي الأدبي، الذي كان يجتمع فيه للمذاكرة والمناقشة في العلم والأدب.. وهذا النادي ليس كنوادي هذا العصر مقيداً بنظام خاص، بل هو مجمع للعلماء والأدباء، كما هو الحال في نوادي النجف اليوم ومجالسها العلمية الأدبية، ومن مدارس بغداد الشهيرة، المدرسة المستنصرية، التي شيدها الخليفة «المستنصر بالله» في القرن السابع الهجري. وهي كما حدثنا (ابن الفوطي) من أنها كانت تضم نحو ثلاثمائة متفقة. وكان لهم رواتب من مال وطعام. ولباس، وصابون، وحلوى إلى غير ذلك[٢].

هنا وهناك

وتذكرنا هذه المدارس النجفية أيضاً، بمدارس إسلامية أخرى (كما أطلق عليها المؤرخون) متفرقة هنا وهناك، ليس لها بنايات خاصة كالتي نتحدث عنها من مدارس بغداد أمس، ومعاهد النجف اليوم تلك أمثال مدارس البصرة التي خرجت إخوان الصفا، وسيبويه، وأمثال مدارس جبل عامل التي تخرج منها الإمام الشهيد الأول، والبهائي الجبعي والحر العاملي، وأمثال مدارس الحلة التي خرجت المحقق الحلي، والعلامة الحلي، وابن إدريس، إلى غير تلك المدارس.. وإنما كانت مدارس هؤلاء، في تلك المدن، هي بيوتهم ومساجدهم، فيكون إطلاق المدرسة على تلك لا يخلو من تسامح وتساهل.

---

(١) قال الشيخ البهائي في كشكوله: (كان للشيخ أبي جعفر الطوسي أيام قراءته على السيد المرتضى كل شهر اثني عشر ديناراً ولأبي البراج كل شهر ثمانية دنانير) ومن هنا نعرف سبق الإسلام في التعليم المجاني لجميع مدارس العالم ومعاهد أوروبا.

(٢) صفحة ٥٣ من (الحوادث الجامعة) لابن الفوطي المطبوع في بغداد بتحقيق وتعليق الدكتور مصطفى جواد.

جولة صغيرة

ولو رجعنا لتأريخ تشييد معاهد «الجامعة النجفية» الحاضرة اليوم، لوجدناها شيدت جميعها في وقت متأخر في مدة لا تزيد على سبعين عاماً في حين أن المدارس في النجف اليوم تقرب من عشرين مدرسة علمية، إذ أقدم مدارس النجف اليوم، مدرسة الصدر ـ للحاج محمد حسين خان الأصبهاني الذي كان يشغل منصب الصدارة، أو رئاسة الوزارة للسلطان فتح علي شاه القاجري ـ التي تأسست في الشهر الأول من القرن الثالث عشر الهجري، ولا تزال تبنى المدارس في النجف حتى الآن. فهذه مدرسة آية الله البروجردي الجديدة التي ستكون في ثلاثة طوابق على أجمل طراز وأحدث بناء.. ومن المدارس النجفية الشهيرة اليوم، مدرسة السيد كاظم اليزدي التي هي أكبر مدارس النجف وأجملها في الهندسة، والفخامة، وبعدها مدرسة الأخوند الكبرى، والوسطى، ومدرسة الخليل الكبرى ومدرسة القوام، والمدرسة الأحمدية، والمدرسة الهندية، والمدرسة المهدية، ومدرسة البخاري، والقزويني، وبادكوبا، والإيرواني. ومنها مدرسة المعتمد ـ لمعتمد الدولة عباس قلي خان وزير السلطان محمد شاه القاجري ـ أو مدرسة كاشف الغطاء التي أعاد بناءها على طراز حديث ووضع فيها مكتبة عامة.. وقد مر دور على هذه المدرسة وهي ذات نظام وامتحان وشهادات.. ولكنها لم تدم على ذلك حتى عادت لطريقتها الأولى..

ومنها مدرسة منتدى النشر التي يعود إليها الفضل في نشر الكتب وطبعها وإخراج الكتاب، والخطباء الكثيرين! إلى غير هذه من المدارس الصغيرة. والقديمة المنهدمة.

وقبل تشييد هذه المدارس، كانت في النجف مدارس أخرى[1] قد مضت

(١) ويدل على وجود مدارس في النجف، غير ما ذكرناها، ما أشار إليها ابن (بطوطة) الذي زار النجف سنة ٧٣٧ هجرية وتحدث عن مدارسها في رحلته حيث قال: «ج١ ص١٠٩» وبإزاء قبر علي المدارس وقوله: ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة على حد تعبيره كما أنه ذكر من مدارس النجف (مدرسة الضياف) وجاء في ماضي النجف (ص٨٥) نقلاً عن كتاب فارسي أن السلطان محمد خدابنده وابنه أبو سعيد بنى مدرسة في النجف في القرن الثامن للهجرة.

مع ما مضى من الدهر، ولم يحدثنا التأريخ إلا عن بعضها كمدرسة المقداد السيوري «العاملي» المؤسسة في القرن الثامن الهجري ومدرسة الشيخ ملا عبدالله النجفي في القرن العاشر، ومدرسة الحيدرية الموجودة في الجانب الشمالي من الصحن العلوي الشريف التي كانت في زمن العثمانيين تخلص الطلاب من الجندية وهي اليوم مقر للفقراء من الزائرين، وكان الصحن العلوي الشريف المركز الأعلى للطلاب في اجتماعاتهم ومذاكراتهم والمقر الرئيسي للعلماء والمجتهدين في أبحاثهم وعباداتهم، ولو اهتم به مع الطابق الأعلى منه وخفت القدم عنه في أوقات مخصوصة لكان في طليعة معاهد النجف ومدارسها العلمية الحافة به، كاحتفاف معاهد جامع الأزهر به ومدارسه التابعة له[١].

هل في النجف نظام للدراسة؟؟

يتساءل البعض هل يوجد نظام في جامعة النجف؟ فيكون الجواب مرة بالنفي (لا) لأن نظامها لا يشبه نظام الجامع الأزهر، أو المدارس الحديثة اليوم، ويكون الجواب مرة أخرى بالإيجاب (نعم) نظراً لما تضم هذه الجامعة من نظم خاصة كنظام الزي، والكتب، واللغة، والمال، والامتحان، والشهادات؛ والعطل الدراسية، إلى غير ذلك مما هو من صميم النظام وجوهره وحقيقته.. ويمتاز نظام النجف بالخدمة الصحيحة والعمل المتقن والاعتناء بالمعنويات والجوهريات!.. وليس للمظاهر الفارغة والشكليات المزخرفة الأثر المهم والاعتناء الكامل عندها.. والطالب النجفي في مراحل دراسته لا يفكر بأن يحظى بكرسي، أو يستحصل على شهادة أو يجوز عقبة امتحان أكثر من أن يفكر ويهتم بطلب العلم لنفسه. ولربه. ودينه. ومبدئه. ووطنه وأبناء جنسه. وجلدته[٢].

(١) وثمة ربط ثاني وقرابة أخرى، بين هذين الجامعين وهو تشييدهما من دولتين شيعيتين وتأسيسهما في زمانين متقاربين، فقد أسس الأولى ـ الصحن العلوي ـ ملوك البويهيين في القرن الرابع الهجري وبنى الثاني ـ الأزهر ـ ملوك الفاطميين في القرن الخامس الهجري ولعل لتشييد هذين الجامعين من هاتين الدولتين سراً هناك لم يتحدث عنه كاتب وما تعرض له التاريخ.

(٢) في الذكرى الألفي لجامع الأزهر سنة ١٣٦١هـ، ألقى أحد أساتذته كلمة جاء فيها: «ما أبعد الفرق ـ أيها المعهد العتيق ـ بين يومك وأمسك، لقد كان طلابك مثلاً عليا، في الجد والإقبال. على العلم ينقطعون إليك! ويؤثرونك على أوطانهم. وأهليهم. ويرتشفون من مناهل علمك! ويغترفون من بحار فضلك. تدفعهم الرغبة المخلصة وتغريهم اللذة العلمية وكان ـ الطلاب ـ مثلاً عليا! في الخلق والاستقامة وحسن الطاعة. لا يشاورون. ولا يمارون: ولا يصخبون ولا=

وفيما يلي عرض موجز لمصاديق ذلك النظام، مع ما يتصل به، ويتعلق فيه..

نظام الزي

عند دخول الطالب للجامعة النجفية يبدأ ـ أول ما يبدأ ـ بلبس العمة، والجبة الإسلاميتين اللتين كان النبي يرتديهما والأئمة المعصومون عليهم السلام والخلفاء الراشدون. كما يدل على ذلك التاريخ الإسلامي، والحديث النبوي المستفيض. وقد أخذ الإسلام زيه هذا عن العرب وأمرائهم من قبل، إذ لم يشرّع الإسلام زياً خاصاً. ولذلك قيل في المثل العربي القديم «العمائم تيجان العرب»[1]. واستمر هذا الزي للتابعين ـ وتابعي التابعين ـ وأشراف المسلمين وعلمائهم ومحدثيهم.. إلى عصر الخليفة الرشيد، الذي أمر فيه ـ في سنة ـ ١٨٣هـ ـ أبو يوسف، قاضي قضاة الكوفة، في عهده، بتوحيد اللباس الديني، وتخصيصه بعلماء الدين، ونزعه عمن سواهم، كما حدثتنا بذلك بعض الكتب التاريخية[2]. وهذا يشبه ما صنعته حكومة سوريا حديثاً ـ في سنة ١٣٧١هـ ـ بإصدار قانون للباس الديني، ومن يتزيا بذلك الزي الشريف! وقبل سوريا تحدثت به إيران، والعراق. ولكنه لم يتم فيهما. ويا حبذا لو عادتا إلى الفكرة ثانياً.. هذا هو اللباس الروحي ونظامه ولمحة عن تاريخه.

كتب الدراسة

وأما كتب الدراسة في هذه الجامعة فهي في علم النحو:

أ ـ شرح الأجرومية لابن أجروم(*). ب ـ شرح القطر لابن هشام.

= يصيحون! ويخضعون رؤوسهم لأساتذتهم متأدبين! ويسمعون إلى رؤسائهم طائعين. أما اليوم فقد جرائهم الأساتذة: ولحظهم الرؤساء وشغلتهم عن العلم المطالب والرغائب وأصبحوا لا يعملون إلا لاجتياز الامتحان إلى آخر المقال المنشور في س١٠ من الرسالة. ومما ذكر. نعرف أهمية الإخلاص والاتقان في العمل التي تمتاز به النجف على الأزهر لقربها لأوروبا.

(١) ويرى المصلح الأكبر السيد هبة الدين الشهرستاني. أن العمامة زي شرقي. لا فرق بين عربية وأعجمية. في كلمة له عن تأريخ العمائم في مجلة (المرشد) البغدادية (م٢ ج٦).

(٢) كتاب (تتمة المنتهى في وقائع أيام الخلفاء) باللغة الفارسية للشيخ عباس القمي (ص:٢٤٦).

(*) كتاب الأجرومية من أشهر كتب النحو القديمة، ومؤلفه ابن أجروم الذي هو من خريجي جامع =

جـ ـ شرح الألفية لابن الناظم. وربما درس غير تلك كشرح ابن عقيل للألفية، وشرح جامي. وربما توسع الطالب فيدرس (المغني).

وفي علم المنطق: أ ـ كتاب الحاشية لملا عبدالله النجفي. ب ـ شرح الشمسية لقطب الدين الرازي. وربما توسع الطالب فيدرس (شرح المطالع).

وفي علم المعاني والبيان والبديع أ ـ الشرح المختصر للتفتازاني. ب ـ الشرح المطول. وربما اكتفى بأحدهما عن الآخر.

وفي علم الأصول أ ـ المعالم للشيخ حسن ابن الشهيد الثاني العاملي. ب ـ الكفاية للآخند. جـ ـ الرسائل للأنصاري.

وربما درس كتاب القوانين وكتاب الفصول.

وفي الفقه أ ـ كتاب الشرائع للمحقق الحلي. ب ـ شرح اللمعة للشهيدين. جـ ـ كتاب المسالك أو المدارك أو غيرهما من الكتب الفقهية.

وفي الحكمة والكلام: أ ـ شرح باب الحادي عشر للسيوري. ب ـ شرح التجريد للحلي. جـ ـ منظومة السبزواري وربما درس من هذا العلم كتاب الأسفار لملا صدرا.

ويدرس في علم الحساب كتاب «الخلاصة» للبهائي. وفي علم الهيئة كتاب «الاسطرلاب» للبهائي، وفي الهندسة «أشكال اقليدس»، وفي اللغة كتاب «المنجد» و«مجمع البحرين» و«القاموس» وفي الرجال كتاب «رجال المامغاني» و«رجال أبي علي» وغيرهما، وفي الحديث كتاب «الرسائل» و ـ البحار ـ وأمثالهما، وفي التربية والتعليم، كتاب «آداب المفيد والمستفيد» للشهيد العاملي، إلى غير هذه الكتب وغير هذه العلوم من القديمة والحديثة، وهذه الكتب الدراسية ـ التي ليس للطالب أن يدرس غيرها، وعلى غير التسلسل المذكور ـ لا يخلو أكثرها من الحواشي والتعليقات، التي تشوش ذهن الطالب

= (القرويين) ومعهدها الإسلامي في المغرب، الذي أسسته امرأة ـ ولعلها علوية ـ اسمها السيدة أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري، ونسبة هذا المعهد إلى الأزهر كنسبة معهد كربلاء والكاظمية إلى النجف. وقد كتب عنه بعضهم كتابة وافية في السنة (٦) من مجلة «الرسالة المصرية».

وتضيِّع عليه فهم الأصل ولذلك منع الأزهر مطالعتها في السنين الأربع الأولى، وأصدر في ذلك قانوناً سنة (١٣١٤هـ)[1] ولهذا أيضاً اشتهر بين طلاب النجف [الحواشي غواشي].

أقسام الدراسة

والدراسة في هذه الجامعة النجفية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ويسمى بالدرس السطحي وهو أن يحضر الطالب كتابه، ويقرأ أستاذه عليه العبارة ويشرحها ويفسر غرض المصنف منها.. وهذا القسم فيه جميع العلوم القديمة والحديثة ـ ولا سيما العلوم المتقدمة ـ **والقسم الثاني**: ويسمى بالدرس الخارج وهو أشبه بمحاضرات لا يحضر فيه الأستاذ، ولا التلميذ كتاباً من موضوع ما يلقيه الأستاذ، وهو اليوم خاص بعلمي الفقه والأصول. وعلم الفلسفة والتفسير أيضاً.. وفي كلا هذين القسمين تكون حالة الطلاب مع أساتذتهم على شكل حلقة مستديرة. تحيط بالأستاذ الجليل! مفترشة ما على الأرض في الجلوس بدل الكراسي والمنصات ومع هذا التبسط والجلوس المتواضع فإن لتلك الحلقات الجميلة من الهيبة والروعة. مما لا نراه في غيرها من الحالات!!

طريقة الدراسة

إن أهم ما في طريقة الدراسة النجفية هي الحرية الكاملة التي يحظى بها الأستاذ والتلميذ معاً، وهي أشبه شيء بالطريقة الدراسية، التي كان عليها الإمام الصادق عليه السلام مع تلامذته. كما يحدثنا عنها المستشرق «رونالدسن» حيث قال: «سقراطية يأخذ المتلمذين بالحوار والمحادثة ويتدرج من المسائل الساذجة إلى المسائل المركبة، والمطالب المعقدة والأسرار الغامضة»... وكما أن للأستاذ أن يلقي ويرتئي بما يشاء، كذلك للطالب أن يعترض بما شاء ويناقش أستاذه، ويسأله على غير حد.. وجامع الأزهر وإن منع السؤال بأكثر من ثلاث مرات، وأصدر قانوناً في ذلك ـ سنة ١٣١٤هـ ـ ولكن هذا التحديد، لا يخلو من

---

(١) كتاب ـ لمحة عن الأزهر ـ ص٤٥.

الاحتكار للعلم والضغط على الطالب، كما يجعل للأستاذ فيه، أن يهذي بما يشاء على نحو ما حدثنا به عن بعض شيوخ «الأزهر» في يوم جاء تدريس تلامذته في درس لم يكن قد طالعه، وكان فيه هذا البيت المشهور «كادت نفوس القوم عند الغلصمة» فقرأه الأستاذ بالفاء بدل الغين!! فلما اعترضه طالب سبه. وأهانه وتخلص بتخلصات واهية[1].

بحث وحوار

وهناك ـ في الجامعة النجفية ـ نحو من الدراسة، يسمى بالمذاكرة والبحث، وهو أن يتفق طالبان على وقت خاص، وفي موضوع خاص.. ثم يجتمعان ويأخذان بالبحث والحوار، والمناقشة والخلاف.. وقد قيل إن الدراسة النهائية، في بعض معاهد أوروبا، على هذا النحو، أو قريب منه.. وهذا هو الذي يدعو إليه المفكر العالمي «برنارد شو» حيث يقول: «تعلموا كل شيء بواسطة الجدل، والوقوف على الآراء المتناقضة واعلموا أن هناك مؤامرة أبدية، تريد أن توقفكم على وجهة نظر واحدة فأحبطوها باتباع نصيحتي» ويقول: «ثم عليكم أن تجادلوا أساتذتكم فإذا أدلى أستاذ التأريخ برأيه. فقولوا له لقد سمعنا رأيك لكننا سنبحث عن أستاذ يخالفك في الرأي فاسمح لنا أن نستمع إليكما وأنتما تتناظران كل منكما يدافع عن وجهة نظره عسى أن نهتدي من جدلكما إلى الحقيقة»[2].

لغة الدراسة

ولغة الدراسة ـ في الجامعة النجفية ـ هي اللغة العربية الفصحى التي هي لغة القرآن. والحديث. والكتب الدراسية المتقدمة ـ. وأما أبناء الجاليات الأجنبية والبعثات العلمية الأخرى! أمثال البعثة الإيرانية والهندية والأفغانية. والنكرية. والتبتية إلى غيرها من القوميات والهويات الكثيرة التي تزيد على عشرين هوية أو جنسية!.. فإن كل هؤلاء يتعلمون اللغة العربية الفصيحة، قبل كل شيء.. إلا القليل منهم فتترجم الدروس لهم. وعبارات الكتب الدراسية..

---

(١) المرحوم الشيخ محسن شرارة في مقال له عن النجف في مجلة العرفان ـ م١٦ ص١٠٠.

(٢) من حديث بعنوان ـ يجب هدم جميع الجامعات في العالم ـ للمفكر العالمي ـ برناردشو ـ منشور في مجلة البيان النجفية ـ ص٦ ـ ع٤٦ ـ.

وفي هذا.. تؤدي الجامعة النجفية لأبناء الضاد ولغتهم العربية أيادي بيضاء وخدمة كبرى..

والأستاذ علي الشرقي ـ ابن النجف، وخريجها ـ عرف هذا.. ومع ذلك راح ينسب الروح الفارسية إلى النجف في دراستها وكتبها، وينسب الروح العربية إلى الأزهر!! في حين أن الأزهر، كالنجف في البعثات الأجنبية من اللغات الأخرى[١].

النظام المالي

وأما النظام المالي ـ في جامعة النجف ـ فمصدره ما تسمح به رجال الخير، ومحبو الفضيلة ومؤدو الحقوق الشرعية: من الخمس والزكاة وغيرهما تجبى هذه الأموال من بلاد المسلمين[٢] ويؤتى بها إلى المرجع الديني في النجف، وهو الذي يقسمها على الطلاب بإعانات ورواتب شهرية كل بحسبه.

وكانت الميزانية السنوية للمرحوم المقدس السيد أبو الحسن الأصبهاني تتراوح بين الخمسمائة والستمائة ديناراً!![٣] حتى قال المرحوم «عبدالله بن الحسين» ملك شرق الأردن: «إن هذا يزيد على ميزانية بعض الدول الصغيرة في العالم».. ومن النظام المالي، منح الخبز للطلاب، الذي لم يكن قديماً في النجف وإنما هو حديث لم يمر عليه أكثر من خمسين سنة، بينما الأزهر كان فيه جراية الخبز قديماً، وقبل أن يوجد في النجف ـ وإن قطع عن الأزهر اليوم ـ كما جاء في كتاب (المراغي) من سلسلة (اقرأ) المصرية[٤].. ثم إن مالية الخبز، وأكثر ما يرد على النجف من الأموال هي من مثري إيران. والهند وغيرهما..

امتحان وشهادات

وللامتحان «في هذه الجامعة» صورة خاصة، يخالف ما عليه مدارس هذا العصر الحديث، فهو يكون في الطريق وفي المجالس وفي حلقات الدرس.

(١) راجع مقالة (الحركة الفكرية في النجف) في مجلة ـ لغة العرب ـ ج٤س٦ ـ التي كان يصدرها البحاثة الأب الكرملي في بغداد.

(٢) و(٣) راجع كتاب ـ الإمام أبو الحسن ـ طبع النجف ص٦٠.

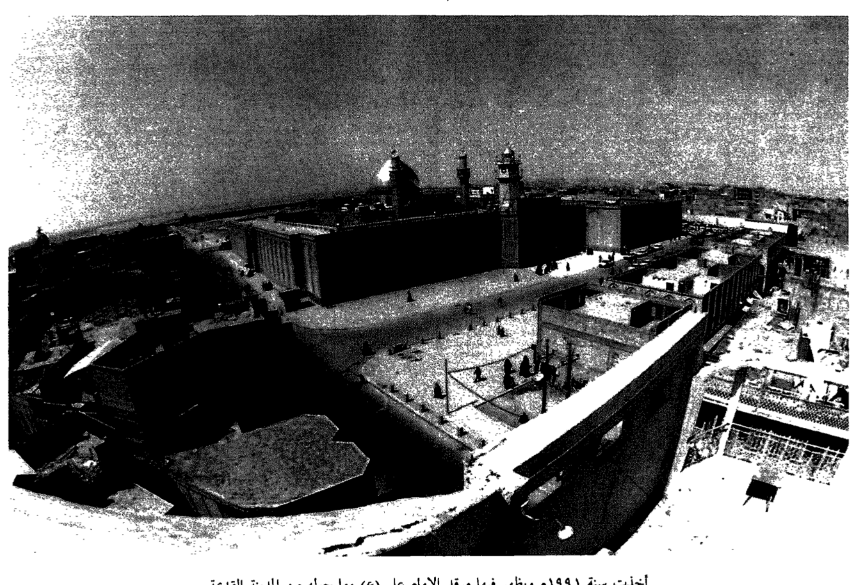
(٤) ص ٧٥ من (الإمام المراغي)، وع ـ ١١٥ من سلسلة (اقرأ).

يختبر المحصل أو الناجح لدرسه بالاحتكاك والكلام.. وترتيب أثر ذلك يظهر من تقدير الأساتذة لهم واحترام العلماء، الذين لا يمارون ولا يجارون. والفقيه المجتهد يبرز، بتقديم رسالته العملية التي هي (كالأطروحة) لتحصيل الشهادة العالية في هذا العصر، وأما الشهادات ـ في هذه الجامعة ـ وإجازات الاجتهاد التي لا تعطى إلا لذوي الكفاءة العلمية والاستعداد الكامل، على الاستنباط، بعد اختباره وامتحانه بالطريقة المذكورة، وبعد ذلك يكون لحاملها في أنس واستقرار في نفسه واحترام وإكرام من عارفيه!!، وله أن يقوم بترتيب محاضرات علمية لإلقائها في الدروس العالية، وأن يكون مبعوثاً ووكيلاً في مدن المسلمين وأقطارهم لإمامة الجماعة والصلاة في الناس ووعظهم، وإرشادهم، ويقوم بالرسالة الإسلامية والتعليمية والإصلاحية، التي كان يحملها الأنبياء والأئمة، أو كل مصلح كبير أو طبيب نفسي جليل!!

العطل الدراسية

وأما العطل الدراسية «في هذه الجامعة» فهي عطلتان:

عطلة سنوية وهي شهر رمضان، وعشرة محرم، وبعض أيام أخرى... وعطلة أسبوعية، وهي يوما الخميس والجمعة، أما تعطيل يوم الجمعة فلأنه يوم مولد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعيد المسلمين عامة ـ كما يتعطل اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ـ وأما تعطيل يوم الخميس فلم أجد له وجهاً إلا أنه عادة جرت بين الطلاب.. ويرجع بتاريخها إلى عهد «العلامة الحلي» الذي كان يزور الحسين عليه السلام في كل ليلة جمعة، وكان يستعد ويهيىء الزاد والراحلة يوم الخميس. ويسير مع لمة من طلابه بموكبه العلمي من الحلة إلى كربلاء، ولذلك لما توفي العلامة الحلي ورآه ولده فخر المحققين في الحلم قال له: (لولا زيارة الحسين، وكتاب الألفين لقصمت الفتاوى ظهر أبيك نصفين). وفي رواية أن أول من عطل الخميس هو الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حيث أمر شيوخ الصبيان أن يتعطلوا عن القراءة يوم الخميس أو ليلة الجمعة ولضعف هذا المستند ولعزة الوقت، يرى كثير من الطلاب إلغاء عطلة الخميس وإن كانت عالمية وفي دوائر الحكومة بصورة أخرى ونصف نهارية.. وأما العطلة الصيفية فليس لها نظام خاص في جامعة النجف، وهذا مما يؤسف



أخذت سنة ١٩٩١م ويظهر فيها مرقد الإمام علي (ع) وما حوله من المدينة القديمة



له، إذ لا بد للطالب من عطلة الصيف في كل عام، يفرغ فيها فكره ويقوم بالوعظ والإرشاد أو غير ذلك، وهذا ما دفع شيخنا وأستاذنا الأكبر السيد أبو القاسم الخوئي وهو على منصة المحاضرات الأصولية للبحث الخارجي أن يقرر جعل عطلة صيفية من كل عام.

مقايسة وتوجيه

لم يزل يردد كثير من الطلاب ضرورة تعديل نظام النجف ـ حسب حاجة العصر ومسايرة الزمان ـ كما تغير من قبل واختلف عما كان عليه أمس من الضعف والبساطة. والقوة والنشاط اليوم ولكن النقد لا يزال عند قسم من الطلاب حملاً ثقيلاً ويرمى المصلح منهم بالانتقاد مهما كانت نيته شراً أم خيراً، إصلاحاً أو إفساداً، ولئن كان ما نحن فيه نقداً وكان وما نلمح إليه عيباً (فكفى بالشيء فخراً أن تعد معايبه) وكفى أن النية طيبة [والأعمال بالنيات] أو الغاية تبرر الواسطة كما يقول علماء الأخلاق وكفى أن طلاب الأزهر أمس، كانوا يشكون مما تشكوه النجف اليوم وأساتذتها المفكرون!!

يقول الإمام المراغي، في مذكرات مهمة له، عن الأزهر الشريف نقتطف منها ما يلي:

(يجب أن يدرس ـ علم الفقه ـ دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأحوالها من الأدلة). (لم تزل كتبنا في الأزهر هي الكتب المعقدة التي لها طريقة خاصة لا يفهمها كل من يعرف اللغة العربية).

«لم نحاول أن نقرب للناس ولا لأنفسنا هذه الكتب ولم نحاول أن نأخذ النافع منها لنعرضه عرضاً يروج عند أهل هذا العصر». «ولم نزل ننفق أوقاتنا الثمينة في المناقشات اللفظية، وفي خدمة نصوص المتون وعبارات المؤلفين..». «ولم نزل نشغل أنفسنا بالفروض الفقهية. كما اشتغل بها السابقون. ولم نزل نحس ثقل العلم. ولا نجد لأنفسنا اندفاعاً إلى تحصيله. ولا رغبة في المثابرة على طلبه..»[1].. هذا ما قاله أحد المصلحين الكبار.

(١) مجلة «الرسالة» المصرية (س١١ ع٣٨٥).

والأساتذة المفكرين عن الأزهر أمس. ونحن نقوله عن النجف وأوضاعها اليوم.

مقدمة البحث

العلوم الإسلامية هي كل ما يتعلق بالإسلام. ويتصل به اتصالاً قريباً، كالنحو. والمنطق. والمعاني والبيان. والفقه والأصول والفلسفة والحكمة. وغيرها من العلوم، التي ألف فيها. وكتب عنها آباؤنا المتقدمون في مجلدات كثيرة.. ملؤوا بها دور الكتب. وخزائن المكاتب في الشرق والغرب.. وقد اعترف الغرب باعتماده عليها، وأخذه منها، فيما اكتشف، واخترع.. حتى قال بعض علماء الغرب: «إن مدنية أوروبا، وحضارتها. قامت على أربعة كتب من كتب «ابن حيان» تلميذ الإمام الصادق عليه السلام!!.

هذه العلوم الإسلامية التي درسها آباؤنا القدماء. وعلماء المسلمين أمس. فنجحوا في إبلاغ رسالتهم الإسلامية وأصابوا الهدف في دعوتهم المحمدية، وخدموا بها الإسلام، وحفظوا أركانه. وقواعده. وأصوله وفروعه، وأظهروا عزه ومجده، وبذلك حفظوا الإسلام أيضاً من الضعف والتفكك، وتقوى المسلمون عقيدة. وإيماناً وسيطرة ونفوذاً. وحكومة. ورجالاً. وفكرة. وعلماً.. وعندما أعرض أكثر المسلمين عن دراسة تلك العلوم إلى غيرها من علوم تقليدية صرفة ليست من روحية الشرق. ولا مادية الغرب، وقعنا في هذا الاضطراب والارتباك!! وعندما أعرضنا عن دراسة علوم آبائنا إلى غيرها من علوم تتعلق بالجسم. أكثر منها بالروح، وبالدنيا أشد صلة منها بالدين، أصبنا بهذا الداء العضال. والمرض القاتل الذي يعانيه الشرق اليوم!!

مراحل ودرجات

والعلوم النجفية هي من تلك العلوم الإسلامية القديمة. التي تقبل للتمطيط، وتصلح لكل زمان، وتسير مع كل عصر. ما دام حديث الإسلام. وفكرة الدين. وغذاء الروح. وحياة النفس حديث المثاليين وذوي الفضيلة. ودعاة السلم. ورجال الأخلاق وعلماء الدين الروحيين.

ويمكن لنا تقسيم تلك العلوم النجفية ـ بحسب هدف الطالب وغرضه. وطريقة دراسته. في هذه الجامعة ـ إلى مراحل ثلاث:

«المرحلة الأولى»: ويدرس فيها علم النحو. والمعاني والبيان وشيئاً من علمي الفقه. والأصول.

«المرحلة الثانية»: ويحضر فيها ـ خارجاً ـ علمي الفقه والأصول بالطريقة الاستدلاية. وفي أثناء هذه المرحلة يتجه الطالب إلى الدراسة الفردية. والكتابة والتأليف، وإلى المطالعة للكتب، ودراسة بقية العلوم. من القديمة والحديثة.

«المرحلة الثالثة»: وهي الدرجة العالية. لتحصيل رتبة الاجتهاد ونيل قوة الاستنباط للأحكام الشرعية الإسلامية!

ولتوضيح هذه المطالب. وما يتعلق بها أدرجنا الأبواب الآتية (عنها باختصار وإجمال).

فلسفة النحو

عند دخول الطالب الجامعة النجفية يجد ـ بادىء ذي بدء ـ طريقاً معبداً وسنة متبعة في دراسة العلوم الأولية، وكتبها الدراسية قد أسسها السلف للخلف، فيشرع (أول ما يشرع) بدراسة علم النحو، فيلتزم بدرس كتاب شرح الأجرومية ـ وأكثره في الإعراب وكتاب شرح القطر ـ وأغلبه في القواعد النحوية ـ وكتاب شرح الألفية لابن الناظم، وهو في الفلسفة النحوية غالباً.

ولعل للفلسفة النحوية ـ أو مزج النحو بالمنطق. وتجريده عن الأدب ـ الصبغة الغالبة. والأثر البين في دراسة علم النحو في الجامعة النجفية. ولعل أول من أسسه أو توجه إليه واعتنى به من علماء النحو «علي بن عيسى الرماني المعتزلي»، ولهذا قال أبو علي الفارسي «إن كان النحو ما يقوله الرماني. فليس معنا منه شيء. وإن كان النحو ما نقوله. فليس معه منه شيء». ولدراسة علم النحو ـ في هذه الجامعة ـ فوائد كثيرة فمن صون اللسان عن الخطأ فيه. وشحذ الذهن وتوسعة الفكر بالمسائل النظرية منه، إلى تفهم لغة القرآن ومعانيه. وأسرار الحديث الشريف. وكلام العرب. ومن وراء ذلك في دراسة علم النحو عامل قوي لتخليد اللغة العربية. وبقائها على رونقها الأصلي القديم. وسبب لانتشار لغة الضاد. وطريق لحفظها من الزيادة والنقصان. والموت والانهيار أيضاً.

وحاجة هذا العلم اليوم. كحاجته أمس، وضرورته لهواة الأدب. بمثل ضرورته لطلاب الدين. ولولا ذلك. لما وقع كثير من الصحافيين. والكتاب الناشئين في هوة من الأغلاط اللغوية والنحوية. التي نراها اليوم في الكتب والمجلات. وهذا ما دفع اليازجي. لوضع كتاب (أغلاط الجرائد). والأستاذ داغر لتأليف (تذكرة الكاتب).

علم المنطق

ويدرس الطالب «في هذه الجامعة» من علم المنطق كتاب الحاشية وشرح الشمسية، وربما درس غير ذلك لمن أراد التوسع في هذا العلم، الذي هو قسم من علم الفلسفة ولهذا يسمى بالفلسفة العملية. وعلم الميزان وله أسماء أخر. ومن فوائد هذا العلم. صيانة الفكر عن الخطأ فيه. والقدرة على الاستدلال. والمحاجّة عند المحاورة لإظهار الحق بترتيب الأشكال. والأقيسة، ومنها صقل الفكر. وتوسعة الذهن، تمهيداً للمسائل الفقهية النظرية.

ولا بد لنا أن نقول كلمتنا. عن هذه الكتب المنطقية ـ وأكثر كتب الجامعة النجفية ـ وهي أنها خالية من التمرينات. والتطبيقات وضرب الأمثلة، مضافاً إلى رداءة الطبع. وقلة الاعتناء بها: بترتيبها وتنسيقها، ليسهل تناولها. ويقرب فهم معانيها. وحينئذ، فلا بد من تعيين لجان. لاختيار الكتب وتنسيقها، أو تأليف كتب جديدة ـ تجمع بين العلوم القديمة والتفنن والتنسيق الحديث ـ أمثال كتاب «المنطق» للشيخ محمد رضا المظفر. وغيره.

علم الفصاحة والبلاغة

ويدرس الطالب من علم المعاني والبيان والبديع كتاب المختصر. والمطول، لمعرفة طرق الفصاحة. وأسرار البلاغة ليقتدي بها. ويعمل عليها. ويتفهم أسرار تراكيب القرآن الكريم وفصاحته المعجزة. وبلاغة الحديث الشريف. وعبارات المؤلفين ـ ذات التراكيب العربية الفصيحة ـ وكلام العرب. لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا خفي عليكم شيء في القرآن. فارجعوا به إلى كلام العرب». ومن طالع كتاب «الكشاف» للزمخشري عرف أهمية هذا العلم. وضرورته لرجال الدين وعلمائه ولكل مبشر ومبلغ. للتعبير عن

المقصود. والتأثير في القلوب بالكلام البليغ. والبيان الساحر. على نحو ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من البيان، لسحراً»!!، والذي ينبغي أن نقوله هنا إن هذا العلم أصبحت دراسته قليلة والاعتناء به ضعيفاً نسبة لبقية العلوم.

الفقه والأصول

يدرس الطالب من العلم الأول التبصرة. والشرائع واللمعة. ومن العلم الثاني المعالم والكفاية والرسائل ـ هذا في المرحلة الأولى كسابقه ـ، وهذان العلمان أهم ما في الجامعة النجفية من العلوم. وأجلها لشدة ارتباطهما بالدين. وتعلقهما بالقرآن. والسنة الشريفة، وكل ما يدرس ـ في هذه الجامعة ـ من بقية العلوم القديمة والحديثة، فهو تمهيد لهذين العلمين. وتوصل إلى نظرياتهما الدقيقة. ومسائلهما المشكلة!!. ولا أريد أن أبين أهمية هذين العلمين. وشدة ارتباطهما بالقوانين الحديثة والحقوق والمحاماة، لأن ذلك بحث سيمر عليك ولكن الذي أريد أن أقوله هنا هو أن من راجع الوضع الدراسي أمس لهذين العلمين وكتبهما، لوجد بوناً بعيداً بين الدراسة أمس وبينها اليوم، وأقول ثانياً، ما قاله أحد المفكرين الفقهاء في أحد المؤتمرات الكبرى جاء فيه: «إن الفقه الإسلامي لجدير بأن يكون أهم مصدر من مصادر التشريع الحديث. وإن على أهله لواجباً أن بخلصوه مما علق به من آثار الجمود. والركود وأن يقربوا للناس سبل الانتفاع به».

الدراسة الفردية

وبعد انتهاء أكثر الطلاب من الدروس السطحية ـ أو دراسة العلوم المتقدمة ـ يلتحق بالدروس الخارجية. فيحضر دورة فقهية استدلالية مجملة، وأخرى أصولية، وبعدها يجد الطالب أمامه، طريقين مخيراً بسلوك أيهما: طريق موصل لرتبة المرجعية العليا، ودرجة الاجتهاد السامية ومنصب الفتيا والحكم بين الناس في النجف الأشرف، وهي المرحلة الثالثة الآتية. وطريق آخر موصل لرتبة أستاذ ومدرس. في النجف الأشرف أو وكيل وإمام جماعة. وواعظ ومرشد في خارج النجف الأشرف. وهي المرحلة الثانية التي بين أيدينا. وفي هذه المرحلة

يدرس الطالب ـ أكثر ما يدرس ـ على نفسه. ويتخرج عليها، كما تخرج الرازي وابن سينا، إلى كثير من علماء الشرق. ممن تخرجوا على أنفسهم، ومن علماء الغرب أمثال «برنادرشو». و(دارون) وكثير غيرهم ممن لم يدخلوا مدرسة، حتى أن الفيلسوف الإنكليزي «هربرت» قد جاوز عمره الثمانين وهو يفتخر بأنه لم يدرس الأجرومية!! وهذا النوع من التعليم يسمى بالتثقيف الذاتي، وقد ألف بعضهم فيه كتاباً بهذا العنوان[١].

الفلسفة والحكمة

وللطالب في هذه المرحلة أن يدرس من العلوم ما يحتاج إلى الدرس ـ كعلم الحساب والهندسة والفلك والطب ـ على أساتذة متخصصين في النجف الأشرف ـ وكان في النجف أمس مدرسة طبية. لا يزال أبناؤها حتى اليوم ـ ولعل علم الفلسفة والحكمة والكلام، أبرز هذه العلوم «في الجامعة النجفية» وأشدها اعتناءً واهتماماً بها. في حين كنا نرى الأزهر يمنعه. ويحجر عليه!!، وكيف لا يمنعه. والشافعي يقول: «أن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك. خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام»!!. ويقول الإمام المراغي[٢]: منذ أربعين سنة اشتد الجدال حول جواز تعلم الحساب والهندسة والتأريخ في الأزهر، وحول تعليمها لعلماء الدين ومنذ أربعين سنة. قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة. على أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس بالزيغ والزندقة!![٣].

ولهذا وذاك يرجح أن دخول الفلسفة إلى الأزهر، كان عن طريق النجف، منذ دخول جمال الدين الأفغاني إلى مصر سنة ١٢٨٨ هجرية، بعد تخرجه من النجف. وتلمذته على فلاسفتها، لأنه أول من بذر الفلسفة في مصر، وأخذ عنه تلميذه الإمام محمد عبده، كما قال ذلك كل من كتب عن فيلسوف الشرق الأفغاني[٤].

---

(١) كتاب (التثقيف الذاتي) أو كيف نربي أنفسنا للأستاذ سلامة موسى.

(٢) المراغي الذي يقول بفتح باب الاجتهاد وبطلان القسم بالطلاق. ووقوع الطلاق الثلاث مرة واحدة، إلى غير ذلك مما عليه مذهب الشيعة الجعفرية.

(٣) ص ٧٦ من كتاب (الإمام المراغي) لأنور الجندي.

(٤) راجع كتاب «لمحة عن الأزهر» للدكتور الوافي (ص:٢٦).

الشعر والأدب

وأما الشعر والأدب «في الجامعة النجفية» فلها اليد الطولى والإمارة المطلقة فيهما، منذ القدم حتى اليوم!!. ولا أريد أن أطيل الحديث. عن شعر الكوفة أمس، ولكن أقول إن شعر النجف اليوم هو الشعر المسيطر على أدب العراق وأكثر شعراء الجزيرة العربية! الذين تخرجوا من الجامعة النجفية. أو ممن تلمذوا على خريجيها، وحسبنا أن يكون منها. أمير شعراء العرب اليوم: الشاعر الجواهري. الطائر الصيت. وأديب القصة الأستاذ الخليلي. ومعالي البحاثة الشبيبي والشيخ علي الشرقي، والسيد الصافي[1] إلى كثير غيرهم.

يقول شيخنا العلامة موسى السبيتي: «لا أستطيع أن أؤمن أن مصر أقوى عقلية. وأوفر ذكاء من النجف وأقدر على التجوال في الآفاق الأدبية الرحبة، بل عكس ذلك هو الذي أصدقه وأبرهن عليه، نعم سعدت مصر بموقع جغرافي، أدناها من أوروبا. فتناولت من موائد الغرب كل شهي مستطاب. فالروح الأوروبية نافذة في هيكل أدبي. ولم نجد أدباً مصرياً منتزعاً من نفسية وعقلية مصر. كما نجد في النجف. حتى أن تمثيليات شوقي صدى خافت لتمثيليات «شكسبير» وعوائق ذيوع الأدب النجفي سياسة لا غير[2].

موضوع الاجتهاد

والطريق الثاني ـ من الطريقين، اللذين يجدهما الطالب أمامه ـ على حسب ما تقدم ـ هو الطريق الموصل لمرتبة الاجتهاد ـ والاختصاص بعلومه. وما يتعلق به ويتوقف عليه ـ الذي هو ضرورة من ضروريات الدين كما عليه مذهب الجامعة، من وجوب تقليد المجتهد الأكبر، ومن ضروريات المجتمع الحاضر أيضاً، كما

---

(١) السيد أحمد الصافي النجفي. رحمه الله، الذي يقول في طالب علم مهاجر. قد أدمن في طلب العلم، وهام في درسه حتى أسكره في ليلة ما فنام فوق كتابه!!:

هام في الدرس يافعاً في كتابه ... ونأى عن قبيله وصحابه
وانزوى ينعش الفؤاد بعلم ... مسكر للنفوس في أكوابه
سهر الليل للصباح اجتهاداً ... ثم أعيا فنام فوق كتابه

(٢) عن مجلة (العرفان) العاملية (م:٣٣) و(ص٥٠٢).

تنبه لذلك أخيراً جماعة من كبار العلماء في مصر، فدعوا له وحثوا عليه، ولعل موضوع (الاجتهاد) هو من أهم ما يجب أن يهتم له في «هذه الجامعة» لتسهيل الطريق إليه وتقريب الوصول له بحيث يستطيع الطالب أن يحصل مرتبة الاجتهاد. في وقت قصير، ومدة محدودة، ويجمع بين عدة وظائف، ويقوم بواجبات كثيرة، ويدرس عدة علوم، كما كان الحال في كل ذلك قبل اليوم، فهذا الإمام الشهيد الأول قد اجتهد ولم يبلغ العقد الثاني من عمره!! ـ كما تحدث عن نفسه في بعض كتبه ـ ومثله العلامة الحلي. وكتبهما في سائر العلوم ـ وآراؤهما فيها ـ لا تزال القطب الأعظم ما بين الكتب العلمية في هذه الجامعة وغيرها. وفي رواية عن العلامة الحلي أنه قال: «من كان في الدرجة الأولى من الذكاء ولم يجتهد في أربع سنين فلا خير فيه، ومن كان في الدرجة الثانية من الذكاء. ولم يجتهد في ثماني سنين فلا خير فيه، ومن كان في الدرجة الثالثة من الذكاء ولم يجتهد في اثنتي عشرة سنة فلا خير فيه».

ويقول السيد ابن طاوس صاحب «الإقبال» في بعض مؤلفاته ما معناه «قرأت التهذيب ـ للشيخ الطوسي ـ فلم يشك أحد في اجتهادي» وكان مع ذلك لا يفتي برأيه. لشدة احتياطه وتقدسه!!.

وقد أبدع الدكتور فاضل الجمالي في إعطاء الصورة كما شاهدها بنفسه حيث قال:

يوم كنت مدرساً للتربية وعلم النفس في دار المعلمين الابتدائية في بغداد سنة ١٩٢٩/٢٧ انتبهت إلى أهمية أساليب التعليم الديني في النجف لما يمتاز به من حرية واستقلالية. ويوم بدأت في التفكير لاختيار موضوع أطروحة أعدها لنيل الدكتوراه في علوم التربية خطر لي أن نظام الدراسة في الكليات الدينية في النجف قد يكون مناسباً لما فيه من مزايا خاصة. ولكن أستاذ الدكتور «بول منرو» رجح أن أعالج موضوع «تربية العشائر البدوية في العراق» فلم أتناول الكليات الدينية في النجف الأشرف بالدرس آنذاك.

إن صلتي بالكليات الدينية في النجف الأشرف ترجع إلى مهد الطفولة يوم كان والدي طالباً للعلم في النجف لمدة تقارب العشرين سنة. وأنا بدأت بدوري

بدراسة العلوم العربية والدينية في الكاظمية يوم كنت معلماً في المدرسة الابتدائية. وإني وإن لم أذهب إلى النجف للدراسة في إحدى كلياتها إلا أني ازددت على مر الأيام قناعة بأن لدينا في النجف منجماً للأخصائيين في علوم التربية يتطلب الكشف عنه واقتباس ما فيه من أساليب نفسية وتعريف العالم بها.

إن الكليات الدينية الـ (٢٤)[1] هذه (وكل نظام التعليم الديني في النجف) ليست تحت نفوذ الحكومة. فالحكومة لا تمول هذه الكليات ولا تعيقها كما لا توجد أية هيئة أو مؤسسة خارجية تهيمن على سير هذه الكليات. ولا يوجد عمداء للكليات ولا رؤساء ولا إداريين فكل طالب علم مؤمن له الاستعداد والقابلية للدرس. وكل عالم يشتغل في التدريس وفي البحث له أن يشغل أية غرفة فارغة ليشغلها ويعيش فيها. إن الانضباط الديني والانضباط التعبدي هما العاملان اللذان يوجهان النظام في هذه الكليات.

كل كلية تتكون من ساحة مفتوحة مربعة الشكل أو مستطيلة يتوسطها حوض ماء قد تحيط به أشجار وتحيط بالسّاحة غرف ذات إيوان مفتوح ترتفع نحو المتر عن أرض السّاحة. ومعظم الكليات تتكون من طابق واحد وتستثنى من ذلك مدرسة البروجردي فهي ذات طابقين.

لقد زرت غرف بعض الطلاب فلم أجد فيها أسرّة فالطالب يضع فراشه على حصيرة أو «زريبة»، (سجادة) على الأرض. إن بعض الغرف تحتوي على تهوية مستمرة لتوفر شباك أو كوّة وبعضها تعتمد في تهويتها على باب الغرفة فقط.

إن العديد من الكليات تشتمل على «سراديب» تحت الأرض ينزل إليها الطلاب في أيام الصيف الحارة وقد اشتهرت سراديب النجف لاحتواء البعض منها على أكثر من طابق واحد في العمق وفي وسع الإنسان أن ينزل إلى الطابق الأول ويرتاح ثم ينزل منه إلى طابق أسفل فيكون بارداً فإذا نزل إلى الطابق الثالث تشتد البرودة ولا بد له من ألبسة تقيه من البرد. إن الطابق الثالث هذا استعمل لتبريد الماء والأطعمة كما تفعل الثلاجة في الوسائل الحديثة.

---

(١) ذكرها الدكتور الجمالي في مقدمته، المثبتة في أول الكتاب.

إن طالب العلم في النجف يرتدي العباءة عادة ويضع على رأسه عمامة نصف كروية الشكل. لون العمامة أبيض عادة إلا إذا كان صاحب العمامة سيّداً من السلالة الهاشمية فتكون عمامته سوداء.

لكل كلية حارس أو كاتب. والساكنون في الكلية أساتذة كانوا أم طلاب يتولون طبخ طعامهم وغسل ثيابهم بأنفسهم عادة ما لم تكن لديهم الوسيلة المادية، للأكل خارج الكلية ولدفع ما يلزم لمن يتولى غسل ملابسهم.

إن طلاب الكليات يحصلون على كمية من الخبز واللحم (أحيانا) مجاناً يوزع عليهم من مصادر إحسان أو حقوق دينية توجه إلى كبار المجتهدين عادة. فإن آية الله البروجردي كبير المجتهدين الشيعة (في السنة التي زرت فيها النجف) المقيم في «قم» في إيران: يرسل عادة ستة آلاف دينار عراقي شهرياً إلى المدارس الدينية في النجف وكربلاء وسامراء لتصرف على الخبز وعلى مساعدة نحو الـ (٥٠٠) طالب. فالطالب المستحق يصيبه دينار ونصف أو ديناران شهرياً(*). هذا وإن المخصصات الشهرية للطالب قد تكون أعلى حتى تبلغ الثلاثين ديناراً للطلاب البارزين المعيلين الذين يسكنون خارج الكليات عادة، إنهم يرتادون الكليات لغرض التدريس والمناقشة.

فالطلاب يحصلون على المساعدات المادية متى توفرت وإلا فهم يعتمدون على ما توفره عوائلهم أو جهات محسنة خاصة لتأمين معيشتهم. فلا توجد ميزانية ثابتة ولا دخل ثابت للكليات الدينية. الطالب يدرس مجاناً والأستاذ لا يتقاضى مرتباً. ومعظم الطلاب هم طلاب ومدرسون في الوقت نفسه، فالطالب المتقدم في الدراسة يدرّس من هو دونه في المراحل الدراسية، إن الطالب المتقدم يحضر محاضرات المجتهد عادة ويعلم من هم دونه. ومن هم في المرحلة الوسطى يعلمون المبتدئين. ولذلك فكل طالب في النجف قد يصبح طالباً وأستاذاً في الوقت نفسه.

لا توجد سنوات محددة لإتمام الدراسة فالطالب يقضي في النجف عدداً من السنوات يقررها لنفسه. وهناك من يصرف كل حياته في طلب العلم في

(*) (في سنة ١٩٥٧ كان الدينار العراقي يعادل ٢,٨٠ دولار).

النجف. إن معدل سنوات الدراسة في النجف قد تقدر بـ ١٥ سنة. ولكن هذا رقم اعتباطي فالبعض يقضي خمس سنوات والبعض الآخر عشر أو عشرين سنة.

لا توجد في النجف امتحانات يُطلب من الطالب اجتيازها. فمدينة النجف تشبه بركة ماء فياض يردها من يشاء ليستقي منها قدر ما يشاء إلى متى يشاء. فإذا لم يرد هو الشرب فلا أحد يدفعه إلى ذلك. ولا يسأله أحد كم من الماء ينبغي أن يشرب ومتى يشرب.

إن برنامج الدراسة يتكون عادة من كتب معروفة ومن دروس محددة تحديداً واضحاً. فهي تحتوي على كتب في اللغة العربية والمنطق وعلوم الدين. إن مواضيع أخرى كالفلسفة أو علم الهيأة (الفلك) أو الرياضيات كما كانت تدرس في القرون الوسطى قد تدرس أيضاً. ولكنها تترك لاختيار الطالب وليست من المواد المطلوبة من الجميع. وللطالب أن يدرس في أوقات فراغه ما يشاء فالبعض قد يختار درس لغة أجنبية مثلاً وللطالب الحرية أن يختار زملاءه الذين يحضرون الدروس معه وله اختيار الأستاذ الذي سيدرس عليه من بين العلماء وأن يحصل الاتفاق مع الأستاذ على زمان ومكان الدراسة.

ومكان الدراسة قد يكون في الكلية ذاتها أو في المسجد أو في دار الأستاذ أو في الهواء الطلق.

إن «جامع الهندي» هو من أكبر مراكز التدريس الديني في النجف. ففيه نشاهد حلقات صغيرة تلتقي للدرس والنقاش وفيه تلقى محاضرات.

إن الحلقة الدراسية قد تتكون من ثلاثة طلاب فصاعداً فقد يصل عدد المشاركين في الحلقة إلى حوالى العشرين.

أما المحاضرات فقد يرتفع عدد المشاركين فيها إلى ما فوق المائة. والمحاضرات تلقى في الجوامع حيث يرتقي الأستاذ المجتهد «المنبر» يحاضر من فوقه والمستمعون يجلسون متربعين كما يحدث في استماع الخطبة في صلاة الجمعة.

إن سرعة سير الطالب في الدراسة تختلف من طالب لآخر. فالطلاب الذين

في وسعهم أن يسرعوا في السير في الدراسة لهم أن يفعلوا ذلك. أما الطالب البطيء فلا يعّجله أحد. إذ لا يوجد زمن محدد للانتهاء. ولا يوجد موعد للامتحانات. ولا يفكر الطالب بالحصول على شهادات. فللطالب أن يقضي طوال حياته في الدرس إذا شاء. النبوغ والعلميّة المتفوقة تبرز للعيان بصورة طبيعية. فمتى برز طالب في ذكائه وإنجازاته العلمية تتجه إليه الأنظار ويصبح مركزاً ينجذب إليه من يرغب أن يزامله في الدراسة أو أن يصبح من طلابه.

إن الدراسة يمكن أن تبدأ في أي وقت يتفق عليه من الأستاذ وطلابه بعد صلاة الصبح (قبل طلوع الشمس) وإلى ما بعد صلاة العشاء. فللطالب أن يتفق مع الأستاذ والزملاء على أوقات الدرس. فالعديد من الأساتذة قد يقومون بالتدريس في الوقت الواحد وفي الموضوع ذاته.

وبعد الدراسة مع الأستاذ هناك أوقات يتفق عليها للمناقشة والتسميع يقوم بها الطلاب. فالجماعة تلتقي وتناقش الدرس الذي حضروه. وقد جرت العادة أن يتولى أحد الطلاب القيام بدور الأستاذ فيلقى ما قدمه الأستاذ (وكأنه هو الأستاذ) ثم يبدأ زملاؤه بتوجيه الأسئلة إليه. وبعد المناقشة لكل طالب أوقاته الخاصة به للمراجعة والدراسة والإعداد. وبذلك يتوفر المجال الكافي للتكرار والفهم والتفكير.

إن الدراسة في النجف تنقسم إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: وتدعى بـ «السطوح» وهي تحتوي على دراسة النحو والمعاني والبيان والمنطق.

إن الطالب يبدأ بدراسة «النحو» في كتاب يدعى «الأجرومية»، وبعد الانتهاء من الأجرومية يدرس كتاباً أوسع في النحو يدعى «القطر» وقد يستعاض عنه بكتاب يدعى «جامع المقدّمات». وبعد الانتهاء من ذلك يدرس كتاباً أوسع في علم النحو هو شرح «ألفية ابن مالك» والألفية هذه هي أرجوزة نظمها ابن مالك تشتمل على كل علم النحو. وإذا حفظ الطالب هذه الأبيات فإن القواعد النحوية تبقى راسخة في ذهنه. وبعد الانتهاء من درس شرح الألفية يتوج الطالب دراسة

علم النحو بدرس كتاب «مغنى اللبيب».

وبعد الانتهاء من دراسة علم النحو يبدأ الطالب بدرس علم «المعاني والبيان» في كتاب يدعى «المطوّل» لمؤلفه التفتزاني.

وبعد الانتهاء من درس المعاني والبيان يدرس الطالب علم المنطق. فيدرس منطق أرسطو في كتاب يدعى «الحاشية» لمؤلفه «الملاّ عبدالله».

إن معدل المدة التي يقضيها الطالب لإكمال مرحلة السطوح يقدر بسبع سنوات.

بعد الانتهاء من مرحلة «السطوح» يرتقي الطالب إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة «الفضلاء» وهو تعبير يذكرني بكلمة Soaphomore المستعملة لطلاب السنة الثانية من الدراسة الجامعية في الجامعات الأمريكية. وفي هذه المرحلة يدرس الطالب علمي «الأصول» و«الفقه الإسلامي».

وعلم الأصول يشتمل على درس أساليب الإسناد الصحيح وأصول البحث عن صحة المنابع الأصلية للأحكام الشرعية.

والفقه يحتوي على درس الفرائض الدينية والتشريع الإسلامي. فدرس الطهارة والصلاة والصوم والحج والزكاة هي من ضمن الفرائض. أما الأحوال الشخصية كالنكاح والإرث والملكية والمعاملات التجارية والعلاقات الدولية فهي مما يدخل في التشريع الإسلامي.

والكتب المستعملة في علم الأصول هي: «المعالم» و«القوانين» و«الرسائل» و«الكفاية». فالطالب في مرحلة الفضلاء يدرس هذه الكتب الواحد تلو الآخر متدرجاً من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب.

أما كتب الفقه فهي «التبصرة» و«الشرائع» و«اللمعة» و«المكاسب» و«العروة الوثقى». وهنا أيضاً تتدرج الكتب من حيث البساطة والتعمق.

وبعد الانتهاء من مرحلة «الفضلاء»، ينتقل الطالب إلى المرحلة الثالثة ويدعى «خارجياً».

ففي هذه المرحلة يحضر الطالب محاضرات عامة يلقيها المجتهدون في الجوامع. والمحاضرات تحتوي على دراسة تحليلة ومعمقة للمسائل الدينية.

من المجتهدين الذين كانوا يحاضرون لهذه المرحلة أذكر السيد محسن الحكيم والسيد حسين الحمامي والسيد أبو القاسم الخوئي. وقد حضرت محاضرات لهؤلاء المجتهدين خلال زيارتي للنجف ١٩٥٧.

لقد استمعت إلى محاضرة السيد الخوئي في مسجد «الخضرا» حضرها نحو المائة وخمسين مستمع وكلهم جالسون على الأرض متربعون. لم تدم المحاضرة أكثر من نصف ساعة وكان موضوعها «طرق البحث في علم الأصول».

وقد حضرت محاضرة للسيد حسين الحمامي في جامع «الهندي» وكان عدد الحاضرين يزيد على المائة وكان موضوع المحاضرة. . «النّية في الصلاة» حلل المحاضر معنى النية وأهميتها في أداء فريضة الصلاة وقام بتحليل النية من ناحية نفسية.

وحضرت محاضرة للسيد محسن الحكيم في «جامع الطوسي» وكانت تتناول موضوع «الزواج بين الأرقاء وعلاقة ذلك بموافقة مالك الرق».

إن الدراسة في المرحلة الخارجية لا تحدد بسنوات، ففي وسع طالب العلم أن يقضي كل حياته فيها. وهدف الطلاب البارزين في هذه المرحلة هو بلوغ درجة الاجتهاد التي يمكن أن تقارن بدكتوراه الدولة في الجامعات الحديثة. فالمفروض في المجتهد أن يكون قادرا على إبداء الرأي في الأحكام الشرعية مستنداً إلى نصّ القرآن والحديث الصحيح هذا وإن درجة الاجتهاد لا تدرك بالدرس وحده بل تتطلب التبصر والهداية التي يمنحها الله تعالى للمجتهد. فالعلم في نظر علماء المسلمين الشيعة لا تتحقق بدرس وجمع المعلومات وحفظها فحسب بل يتطلب النور الذي يلقيه الخالق عز وجلّ في عقل العالم.

إن على المسلم الشيعي (ما لم يكن هو مجتهداً في العلوم الدينية) أن يتبع في حياته الدينية تعاليم مجتهد حيّ. ولذلك يدعى «مقلّداً».

وقد اعتاد المجتهدون المقلدون أن ينشروا رسائل تحوي آراءهم في

الشؤون الدينية. وطالب العلم الذي يبلغ درجة الاجتهاد ولا يتصدى «للمرجعية» أي لا يريد أن يقلِّد ولا يقلَّد فيدعى «محتاطاً».

ومدينة النجف تحوي العديد من العلماء المحتاطين. الذين قد يبرز اسمهم فيصبحوا من المقلَّدين عند الاقتضاء.

ففي النجف يعيش العديد من المجتهدين الذين لهم مقام علمي محترم في الأوساط العلمية والبعض منهم قد يتعهد القيام بمهام اجتماعية أو سياسية ويخدم المجتمع في الساحة العلمية والبعض الآخر قد ينكب على البحث العلمي المجرد.

لقد زرت عدداً من الكليات وتحدثت مع الطلاب حول دراستهم ومعيشتهم وعن البلاد التي جاءوا منها.

سألت أحد الطلاب واسمه «الشيخ محمد رضا شمس الدين» أن يصف لي حياته اليومية وما يقوم به عادة خلال يوم واحد فقال: إنه ينهض من النوم قبل طلوع الشمس بنصف ساعة عادة فيؤدي فريضة الصلاة وبعد طلوع الشمس يحضر محاضرة خارجية في الفقه يلقيها السيد أبو القاسم الخوئي وبعد ذلك يقوم بتدريس المعاني والبيان، ثم يطالع كتاباً في الفلسفة الإسلامية عنوانه «شرح الفصل الحادي عشر» لمقداد النسويسي. وبعد ذلك يحضر محاضرة خارجية أخرى يلقيها الشيخ عباس في الفقه تعالج فصلاً من كتاب الشرائع. ثم يحضر محاضرة ثالثة في موضوع الزكاة من الكتاب ذاته. ثم يحضر محاضرة رابعة يلقيها «علي الأصفهاني» كل ذلك عدا مطالعاته الشخصية وأداء فريضة الصلاة والاهتمام بشؤونه المعاشية. إنه حقاً حمل ثقيل! فالطالب قد يحمل نفسه فوق طاقته إذا اختار أن يفعل ذلك وله أن يمشي الهوينا إذا شاء ذلك. فلا قوة خارجية تسوقه إلى العمل.

زرت طالباً بارزاً آخر في مدرسة «القوام» هو الشيخ علي الكرمي وهو بدوره طالب خارجي (المرحلة الثالثة). إنه يحضر محاضرات الشيخ حسين الحلي. وهو يدرس الفلسفة وله قابليات أدبية بارزة وعقلية جدلية متفتحة. كان

يتكلم بالعربية الفصحى وعلمت أن أخاه باحث ومؤلف معروف في الفلسفة الإسلامية.

إن المزايا الرئيسية لنظام الدراسة الدينية في النجف هي الآتية:

١ ـ إن الدراسة في النجف لا تتحكم فيها أية سلطة خارجية. فلا تدخل حكومي ولا قرارات هيئة عليا.

٢ ـ كل من يقصد النجف لأجل الدراسة إنما يقصدها كغاية في حد ذاتها. فالغاية طلب العلم في سبيل الله وليس طلب العلم وسيلة لغاية أخرى. التقوى والدرس في سبيل الله هما الدافعان الموجّهان للدراسة. فعلى طالب العلم في النجف أن يتحلى بالتقوى ويطلب العلم في سبيل الله.

٣ ـ القناعة والزهد هما من خصائص طالب العلم في النجف.

إن طلاب العلم في النجف. لا يعيشون عيشة بذخ وترف. ومع ذلك فكل من استقبلني كان كريماً ومضيافاً قدم البعض الشاي أو القهوة وقدم آخر مشروباً بارداً. وطالب من «هرات» (أفغانستان) استقبلني في غرفته ولما وجد أني اعتذرت عن تناول الشاي غادر غرفته مسرعاً وجاء حاملاً صحن رمّان. فالبساطة والسخاء والصداقة تسود الجوّ الطلابي.

٤ ـ إن الدراسة في النجف تجري في جوّ حرّ. فلا قيود على النقاش والبحث في نطاق العقيدة الإسلامية.

٥ ـ إن النظام الدراسي في النجف قد تغلب على مشكلة الفروق الفردية ومراعاتها في التربية. فالطالب يمكنه السير بالسرعة التي تناسبه. كما أنه يختار الأستاذ والزملاء الذين يستطيع العمل معهم في الأوقات التي تناسبه ولما كان تحصيل العلم هو من أجل العلم ذاته ولا توجد مواعيد محددة لإكمال البرنامج ولا مواعيد للامتحانات فالطالب يتقدم إلى الدرس طواعية ودون ملل أو خوف ويسير بالسرعة التي تناسبه.

٦ ـ إن غياب الامتحانات يحرر الأساتذة والطلاب عن الكثير من القلق ومن

الاستعجال وعدم هضم المادة العلمية. فالمقدرة العلمية والاتقان تبرزان لدى الطالب نفسه ولدى زملائه. ويستثنى من ذلك الطلاب العراقيون الذين يطلب منهم أن يبرزوا كفاءة علمية أمام لجنة ليتمتعوا بالإعفاء من الخدمة العسكرية. ولكن إبراز هذه الكفاءة العلمية لا يعتبر امتحاناً بالمعنى الرسمي.

٧ - إن ازدهار شخصية الطالب، وتحليه بالسجايا الأخلاقية الفاضلة إنمايحدث بالقدوة الحسنة والرفقة الصالحة. ذلك إلى جانب التشبع بالفضائل الدينية. ومن القواعد الأساسية للتربية الدينية في النجف مواظبة الطالب على تأدية فرائضه الدينية. والتحلي بالحياء واللطف والأدب. ولا يعني هذا عدم بروز أفراد ضعاف النفوس والأخلاق بين الحين والآخر. فمغريات الحياة المعاصرة قد تتغلب أحياناً على بعض الطلاب ذوي النفوس الضعيفة. كما أن انتشار المغريات الحديثة قد ألجم بعض العلماء الذين كان في وسعهم أن يكونوا أقوى نفوذاً وتأثيراً في الحياة العامة. هذه شكوى سمعتها عرضاً.

٨ - ومن مزايا الدراسة في النجف التي تدعو إلى الإعجاب مزية ترسيخ الطالب في العلم. لما كان الموضوع الواحد يدرس أولاً وثانياً وثالثاً في كتب متتالية لا شك في أنه يترك أثراً عميقاً في ذهن الطالب. ثم إن الطالب يدرّس عادة لمن هم دونه في مرحلة الدراسة وإن تجربتي الشخصية دلتني على أن أفضل طريقة لإتقان علم من العلوم هي تدريس ذلك العلم.

بعد أن عددنا بعض المزايا التي تمتاز بها الدراسة الدينية في النجف ها نحن فيما يلي نشير إلى بعض المشكلات التي تجابه هذا النظام الممتاز:

١ - إن محتويات البرامج الدراسية التي تقدم في مدارس النجف هي قديمة تعود إلى القرون الوسطى. فطلاب النجف يندر أن يحصلوا على التفكير الحديث أو العلم الحديث أو الفلسفة الحديثة أو علم النفس الحديث أو علم الصحة الحديث. إن بعض الكليات ما تزال تحتوي على حوض «بركة ماء» في وسط ساحتها وهذه البركة هي لاستعمال الجميع ولذلك فهي لا تخلو من جراثيم فهي غير صحيّة.

كانت لي أحاديث خاصة مع بعض العلماء والمجتهدين حول إدخال مواضيع دراسية كالفلسفة الحديثة أو علم النفس المعاصر وعلم الاجتماع وعلم الصحة وبعض العلوم الطبيعية فكانت الاستجابة سلبية في الغالب.

أتذكر أني تحدثت مع أستاذ في الفلسفة الإسلامية حول فلسفة «هنري برغسن» فوجدت أنه لم يسمع بالاسم. من ذلك نستنتج أن الانتاج العلمي في النجف يقصر في مجابهة تحديات العصر. وهذه نقطة ضعف خطيرة في الدراسة العلمية الدينية في النجف الأشرف.

٢ ـ غياب التقييم العلمي لدراسة الطلاب يشكل مشكلة عملية: لقد سبق أن قلنا لا توجد امتحانات ولا فروض دراسية ولا حضور إجباري فكل شيء يجري بحرية وهذه من المزايا الكبرى للدراسة في النجف. ولكننا في الوقت نفسه قد نلتقي بفرد درس في النجف ولم يحصل على المؤهلات الكافية وغادرها قبل أن يحقق إنجازاً علمياً مقبولاً ومع ذلك فإنه يدّعي العلم ويتصدى للقيادة الدينية في المجتمع. هل الأمر يترك للشعب ليكتشف هل هذا الإنسان صادق في ادعائه أم لا؟ لا شك في أن الزهد والتقوى والجاذبية الشخصية قد تعوض عن العلمية في المجتمعات المتخلفة، ولكن هل نقف مكتوفي الأيدي أم نبحث عن طريقة للتقييم العلمي الحرّ إذا شئنا خدمة الصالح العام بطريقة أفضل.

٣ ـ مشكلة الاحتياجات المادية: لقد قلنا أعلاه: إن لا توجد لمدارس النجف ميزانية ثابتة ولا مصادر دخل أكيدة. فالأحوال المادية تتقلب مع الظروف ولذلك فحياة الطالب المادية معرضة للمشكلات وتقلق الطالب أحياناً. ففي بعض الظروف قد تقصر الإمكانات المادية في طعام الطالب وتزويده بالملابس ومصروف الجيب.

وأخيراً نقول إن الدراسة العلمية الدينية في النجف تجابه المشكلات التي يجابهها العالم الإسلامي الشيعي كمجموع. هل العالم الشيعي سائر نحو بعث حياته الدينية وتنظيمها وتجديدها؟ هل سيحظى العالم الشيعي بعلماء مجددين

يتحملون المسؤولية؟ أم ستبقى الحياة الدينية في معزل عن الحاجات العامة والأحوال العامة والتفكير العام؟

في نظري إن على قادة العلم الشيعة أن يوحدوا جهودهم مع جهود قادة العلم للمذاهب الإسلامية الأخرى ليجابهوا مشكلات الحياة الدينية في العالم الإسلامي ويكيفوها لتصبح منسجمة مع تطورات الحياة في العالم المعاصر بحيث يتم التفاهم والتسامح والتآخي بين أبناء الشيعة وأبناء الطوائف الإسلامية الأخرى وبين المسلمين وأبناء الأديان الأخرى في كل أنحاء العالم[١].

أما الدكتور السيد محمد بحر العلوم، فقد تطرق لدراسة بعض الكتب التي استحدثت، وفي ذلك تأكيد لما قلناه، من أن المنهجية الدراسية في تطور مستمر، لأن الأستاذ يتوخى الأصلح للطالب، إن في الفقه، أو الأصول، أو غيرهما.

مراحل الدراسة[٢]

أولاً ـ الدراسات التمهيدية، أو مرحلة (المقدمات)[٣].
ثانياً ـ الدراسات الوسطى، أو مرحلة (السطوح)[٤].
ثالثاً ـ الدراسات العليا، أو مرحلة (بحث الخارج)[٥].

---

(١) من بحث له بعنوان «كليات العلوم الدينية في النجف الأشرف» تقدم الكلام عنه أول الكتاب.

(٢) موسوعة العتبات/ق النجف/٧ من ص ٩٢ إلى ص ١١٠.

(٣) المقدمات: من مصطلحات الجامعة النجفية، ويراد بها الدروس الأولية للجامعة النجفية، كالنحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق.

(٤) السطوح: ويقصد بهذا المصطلح الدراسة التي تشمل متن الكتب الاستدلالية الفقهية والأصولية.

(٥) البحث الخارج: والمقصود من (البحث) المحاورة والمناقشة بين الطرفين، وقد أطلق على المرحلة الأخيرة من الدراسة الدينية اسم (البحث) وذلك لتوفر الحرية في إعطاء الرأي ومناقشته، والمؤاخذة على إيراد الاشكال والدفاع والاستدلال، وتكون حجتهم موضع عناية الأستاذ والطلاب.
والمقصود بمصطلح (الخارج) الدروس التي يتلقاها الطلاب في المرحلة الثالثة، وأنها خارج نطاق الكتب يحضر فيها الأستاذ، يستمع الطالب دون كتاب.

المرحلة الأولى: دراسة المقدمات:

وفي هذه المرحلة تكون الدراسة فردية على الأكثر، وإن كان من الممكن أن يشترك عدد من الطلاب في درس من دروس هذه المرحلة، كما تتوفر للطالب حرية اختيار المدرس بالكتاب الذي يروم درسه، وفي أي مكان أو زمان يتفق عليه الأستاذ والتلميذ. وللطالب حرية النقاش مع أستاذه، ولكنه محدد بالقدر الذي يسعه أفق الطالب وتفكيره، والغرض من هذه الحرية التوجيه والتمرين على قوة الملاحظة.

ومدة الدرس اليومي من نصف ساعة إلى ساعة حسبما يناسب الأستاذ والتلميذ والكتاب.

أما المواد المقررة للتدريس في هذه المرحلة فهي:

النحو والصرف ـ وكتبها: الأجرومية لمؤلفها عبد الله بن هشام، وقطر الندى لابن هشام، وشروح ألفية ابن مالك، لابن الناظم، أو ابن عقيل، وابن هشام، والأشموني.

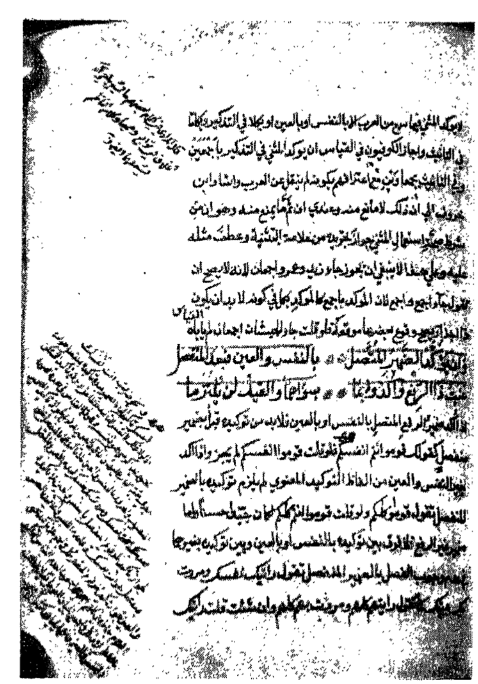
وقد يستعاض عن الأجرومية، وقطر الندى بكتاب النحو الواضح.

ويعتمد الطلاب الإيرانيون على كتاب جامع المقدمات، وصرف مير. ولغاية التوسّع يتّبعون كتاب السيوطي في العربية، وشرح الرضي، والجامي.

ولغرض التوسّع في العربية يدرس كتاب مغني اللبيب لابن هشام وشذور الذهب لابن هشام، والكتاب لسيبويه، وغيرهم.

البلاغة والمعاني والبيان ـ وكتبها:
المطول ـ للتفتازاني.
المختصر ـ للتفتازاني اختصر فيه تلخيص المفتاح.
جواهر البلاغة ـ للسيد أحمد الهاشمي.

المنطق ـ وكتبه: حاشية ملا عبد الله النجفي، والشمسية لقطب الدين الرازي، والمنطق للشيخ محمد رضا المظفر، وربما توسع الطالب فيدرس شرح المعالم.



صفحة من كتاب (ألفية ابن مالك) في النحو لمحمد بن مالك الجياني الأندلسي الشافعي المتوفى سنة ٦٧٢ هـ والشرح لولده بدر الدين وقد اخترنا هذه النسخة التي يعود تأريخها إلى ما قبل ٤٠٠ سنة على سبيل النموذج للكتب القديمة، والكتاب مطبوع عدة طبعات.

أصول الفقه: وكتبه ـ المعالم للشيخ حسن بن زين الدين الشهيد الثاني وأصول المظفر الجزآن الأولان منه، وأصول الاستنباط للسيد علي نقي الحيدري، وكتاب المعالم الجديدة للسيد محمد باقر الصدز، الذي صدر حديثاً[1].

الفقه: وكتبه ـ تبصرة العلامة الحلي، مختصر النافع، للمحقق الحلي شرائع الإسلام للمحقق الحلي، وقد تدرس بعض الرسائل العملية كالعروة الوثقى للسيد كاظم الطباطبائي، ووسيلة النجاة للسيد أبي الحسن الأصفهاني، ومنهاج الصالحين للسيد محسن الحكيم الطباطبائي.

وربما ينضم إلى هذا كله دراسة علم الكلام، والعلوم الرياضية، وبعض العلوم الأدبية: كعلوم العروض، والقافية، والبديع، والنصوص الأدبية، وهذا كله حسب رغبة الطالب، واستعداده في المشاركة بهذه المعارف وما إلى ذلك.

ومدة هذه المرحلة من ثلاث إلى خمس سنوات.

المرحلة الثانية: دراسة السطوح:

وهي دراسة متن الكتب الموضوعة في الفقه الاستدلالي، وأصول الفقه ويتبع فيها محاكمة الآراء، ومناقشتها بحرية كاملة، وعلى الأكثر تجري هذه المرحلة على أسلوب الحلقات، حيث يجتمع أكثر من طالب واحد في مجلس أحد المدرسين المعروفين ويختلف عدد الطلاب في كل حلقة حسب اختلاف المدرس وتفوقه في أسلوب التدريس، وسعة اطلاعه، كما أن الحرية مطلقة للطالب في اختيار الكتاب والدرس.

وأهم الكتب المقررة لهذه المرحلة هي:

في الفقه: (شرح اللمعة الدمشقية) للمرحوم زين الدين الشهيد الثاني، والمكاسب للمرحوم الشيخ مرتضى الأنصاري، وقد يدرس كتاب (رياض العلماء)

---

(١) يدرس هذا الكتاب في كلية أصول الدين ببغداد.

— ٢٩ — (مستمسك العروة الوثقى) ج ١١

سقط من المسمى بحساب ما بقي واستحق بمقدار ما مضى والفرق بين هذه المسألة وما مر في المسألة السابقة أن الإبطال هنا عرض ودام وفيما مر قيد أو شرط.

فصل

الاجارة من العقود اللازمة (١) . لا تنفسخ إلا بالتقايل أو شرط الخيار لأحدهما أو كليهما إذا اختار الفسخ . نعم الاجارة المعاطاتية جائزة (٢) . يجوز لكل منهما الفسخ ما لم تلزم بتصرفهما . أو تصرف أحدهما فيما انتقل إليه .

(مسألة ١) يجوز بيع العين المستأجرة قبل تمام مدة الاجارة . ولا تنفسخ الاجارة به (٣) . فتنتقل إلى المشتري مسلوبة المنفعة مدة الاجارة ، نعم للمشتري مع جهله بالاجارة خيار فسخ البيع (٤) ، لأن نقص المنفعة عيب (٥) . ولكن

فصل

(١) بلا خلاف ، بل عليه الاجماع محكي ، ويشهد له غير واحد من النصوص ، مضافاً إلى عمومات اللزوم .

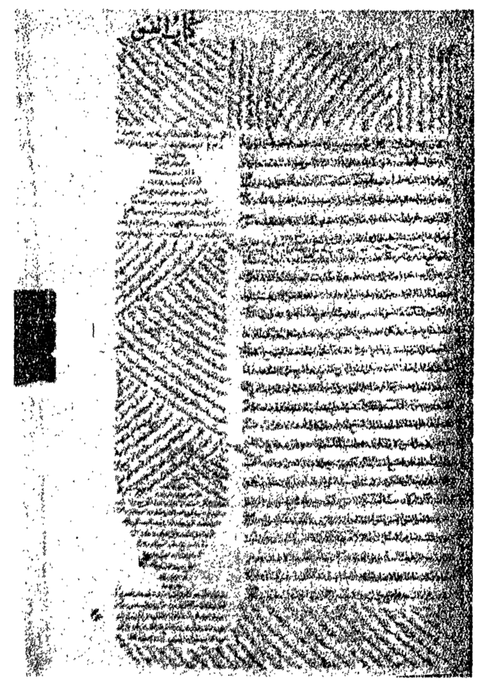
(٢) بناء على تمامية الاجماع على عدم لزوم المعاطاة إلا بالملزمات المخصوصة المذكورة في محلها .

(٣) بلا خلاف ولا إشكال ، ويشهد له جملة من النصوص .

(٤) كما صرح به جمع كثير ، بل عن التذكرة الاجماع عليه .

(٥) لأن مبنى المعاوضات على التسليم والانتفاع وهو متعذر بالاجارة ، أو لأن من الشرائط الارتكازية كون العين مستتبعة للمنفعة ، فاذا فقد الشرط المذكور كان له خيار تخلف الشرط . وبالجملة : نقص المنفعة خلاف [illegible]

صفحة من (العروة الوثقى) وعليها شرح الإمام السيد محسن الحكيم



صفحة من كتاب (شرائع الإسلام) في الفقه للمحقق
أبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن بن يحيىٰ بن سعيد الحلي

للسيد علي الطباطبائي، وكتاب (مسالك الافهام) لزين الدين العاملي الشهير بالشهيد الثاني.

في الأصول: القوانين ـ للقمي، الفصول للحائري، كفاية الأصول للشيخ محمد كاظم الخراساني، رسائل الشيخ مرتضى الأنصاري، الجزء الثالث من أصول الشيخ محمد رضا المظفر، وللتوسع يقرأ الطالب الأصول العامة ـ دراسة للأصول مقارنة ـ للسيد محمد تقي الحكيم ـ طبع حديثاً[1].

وهناك مراجع أخرى أوسع دائرة وبحثاً لا يستغني عنها الطالب الباحث وإذا انتهى الطالب من هذه المرحلة بإتقان استحق أن يسمى (مراهقاً)[2].

ولما كانت كتب السطوح كلها استدلالية فإن دراستها والاستفادة منها توسع ذهن الطالب، وتمنحه مقدرة خاصة لإقامة الدليل، أو رد البراهين والدعاوى.

وقد ينضم إلى هذه المرحلة دراسة علم الكلام، والحكمة، والفلسفة الإلهية، والتفسير والحديث، وأصول الحديث، وأحوال الرواة.

ومدة مرحلة (السطوح) عادة من ثلاث إلى ست سنوات، وقد تزيد أحياناً عن ذلك.

المرحلة الثالثة ـ بحث الخارج:

وهي المرحلة التي يحضر فيها الطالب دروس كبار العلماء المجتهدين في الفقه والأصول، وهذه هي آخر مراحل الدراسة التي قد يوفق فيها إلى بلوغ درجة الاجتهاد وهي أعلى درجة، وبها امتياز هذه الجامعة الإسلامية في أسلوب التدريس وفي حرية المناقشة والرأي، وفي درجتها العلمية العالية.

تتكون هذه المرحلة عادة في دورات يتولاها كبار العلماء المجتهدين،

---

(١) يدرس هذا الكتاب في الصف المنتهي في كلية الفقه في النجف الأشرف كما يدرس في معهد الدراسات الإسلامية العليا ـ جامعة بغداد ـ قسم ماجستير الشريعة.

(٢) مراهق: مقارب لدرجة الاجتهاد.

ويبتدىء المدرس منهم بدورة بحوث أصولية، أو فقهية يلقيها بشكل محاضرات يومية فيشرح المسألة شرحاً وافياً بعرض الأقوال من مختلف المذاهب الإسلامية، ومناقشة الآراء فيها، وأدلتها المختلفة، ويختار ما ينتهي إليه رأيه مع الدليل، ولكل مدرس طريقة خاصة في أسلوب البحث، وسعة المنهج، والأسس العلمية التي يعتمدها.

وهذه الدورات لا تكون إلَّا جماعية يحضر فيها عدد كبير، وجم غفير من الطلاب وذلك تبعاً لشهرة المدرس في تفوّقه العلمي، ودقة منهجه، وأسلوب تدريسه، وقد سميت هذه المرحلة (بحث الخارج) نظراً إلى أن التدريس فيها لا يعتمد على رأي خاص، ولا على كتاب معين إلَّا ما قد يتخذ على سبيل تسهيل المراجعة على الطلاب أو التحضير قبل الدرس.

وللطلاب في هذه الدورات كامل الحرية في المناقشة، وإبداء الرأي في أثناء المحاضرة وبعدها، وقد يكون كثير من طلابها مراهقين للاجتهاد في أنفسهم.

وميزة هذه الدورات عمق البحث ودقته، وسعة أفقه، والحرية الكاملة في نقد الآراء ومناقشتها مهما كان صاحبها، وبهذا الأسلوب يغذى الطلاب ليتمكنوا من الاعتماد على آرائهم، والثقة بنفوسهم حيث يرجع إليهم الناس، وتقلدهم الأمة في أمورها.

إلى هذا النهج الدراسي يعزى السرّ في تطور الدراسات الفقهية والأصولية في جامعة النجف على مرّ القرون، ومن يقرأ كتاباً في الفقه وأصوله لأحد أعلام القرنين الرابع والخامس مثلاً، ثم يقرأ كتاباً فيها لأحد أعلام هذا القرن يلمس مدى التطور الذي بلغه البحث في هذا الشأن.

والطلاب الذين في حلقات الدروس الخارجية، يحضرون عدة سنوات، أو دورة كاملة في الفقه أو الأصول، ثم يعرضون كتاباتهم، وتقريراتهم على الأستاذ، وإذا ما حازت الرضا والقبول يمنحه الأستاذ شهادة كتابية، يقال لها (إجازة

الاجتهاد) وعندما يحصل الطالب على هذه الإجازة يصبح (مجازاً) وفي ذلك الوقت يكون قد بلغ مقام الاجتهاد، وقد صار باصطلاح العلماء (مجتهداً)[١].

وقد قسمت بعض المصادر درس الخارج إلى ثلاث مراتب:

ـ أدناها: أن يحضر قوم فرغوا من السطوح درساً يسير على عناوين كتاب من كتب التدريس، ويتعهد الأستاذ ببيان مطلب الكتاب بإيضاح من دون تقيد بعبارة الكتاب، ويضيف إلى مطالب الكتاب المناقشات التي ناقش العلماء فيها صاحب الكتاب وقد يقبلها وقد يردّها، وقد يضيف إليها مناقشات أخرى، وهو في الوقت نفسه يحاول تصحيح ما في الكتاب، إلاّ إذا كان فساده بمكان من الوضوح، وذلك لأن الطلاب اعتادوا الإيمان بما في الكتاب، ثم بما يقوله الأستاذ.

وأوسطها: ما مرّ بإضافة ما في كتب التدريس الأخرى، أو ما في بعض الكتب المهمة مثلاً: يكون عنوان الدرس الجزء الثاني من الكفاية، فيتعهد الأستاذ ببيان ما فيها، مع ما في الرسائل، مع ما في تقريرات درس (النائيني) مثلاً، ثم يحاكم آراءهم، ثم يختار.

وأعلاها: وهو المرتبة الأخيرة، وذلك بأن يشرع الأستاذ في مسائل العلم على نهج خاص به، ترتيباً وتبويباً، وتحقيقاً، وتنميقاً، فإنه يحرر المسألة من تلقاء نفسه، ويشير إلى جهاتها وأقوالها بحسب ما يراه من استحقاقها للإيجاز والإطناب، ويذكر النظريات ويلغي الأدلة الضعيفة، ويناقش باقي الأدلة، وينتهي إلى رأي جديد، ومطلب ناضج قد يختلف مع كثير من آراء متقدميه[٢].

وللمجتهد الحق في أن يصنف في أحكام الدين كتاباً يسمّى بـ(الرسالة) طبقاً لاجتهاده ـ أي بحثه واستنباطه ـ أو أن يكتب الحواشي، ويصادق على رسائل

(١) جامعة النجف ـ مجلة المجمع العلمي العراقي: ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ـ م ١١ بتصرف.

(٢) جامعة النجف في عصرها الحاضر ـ الشيخ محمد تقي الفقيه ـ ١١٦ ـ ١١٧ ـ طبع صور الحديثة ـ لبنان.

العلماء السابقين، ويفتي في الاختلافات والاشتباهات والإشكالات التي تفرض لاتباع المذهب ـ أي المقلدين ـ بمعنى أنه يبدي رأياً وحكماً يأخذ به المقلدون فيعملون بمقتضاه.

كما أنه يخلف أساتذته في التدريس الخارجي، ويتسنم مرجعية المسلمين في التقليد وإدارة الشؤون العلمية، والاجتماعية، والاقتصادية لجامعة النجف، وباقي الحوزات العلمية الدينية في العتبات المقدسة، بعد تأهيله لذلك بواسطة الشهرة الساحقة للطلبة من أهل العلم، أو شهادة اثنين عادلين من كبار العلماء في حقه.

والشيء الذي يجب أن نشير إليه قبل ختام هذا الفصل هو (لغة التدريس) والتدريس بصورة عامة في النجف الأشرف باللغة العربية، وباللغة الفصحى طبعاً، وهذه اللغة تتماشى في كل مراحل التدريس.

أما الطلاب الأجانب: كالإيرانيين، والأفغانيين، والهنود، والتبتيين والنكر وغيرهم، فإنهم يتلقون الدروس السطحية باللغة العربية، ثم يترجمها أساتذتهم بلغاتهم.

أما الدروس الخارج فالطابع العربي هو البارز عليها، اللهم إلاّ بعض الشاهد، أو شرح المصطلحات، زيادة للتوضيح، فقد تكون غير اللغة العربية لها مجال في هذا الموضوع.

أشهر الكتب الدراسية في جامعة النجف:

لم تقتصر الجامعة النجفية على كتاب محدود يدرسه الطالب في علم من العلوم، فللطالب أن يتوسع ويقرأ ويدرس أي كتاب شاء، ويرغب فيه، ويستطيع أن يتفهمه وينسجم معه. ولكن هناك كتباً مشهورة في نطاق الحوزة العلمية تداول عليها المشتغلون والمحصلون، فأصبحت بحكم التداول والاستمرارية هي المعروفة دون غيرها، ولشهرتها نذكرها:

في النحو:

١ ـ كتاب (قطر الندى، وبل الصدى) لمؤلفه عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ، من أئمة العربية، طبع عدة مرات.

وهذا الكتاب يدرسه الطالب في المرحلة الأولى من تعليمه، وهو يلمّ بجميع أبواب النحو بصورة مختصرة.

٢ ـ كتاب (ألفية ابن مالك) أرجوزة في النحو في ألف بيت ناظمها محمد بن عبد الله بن مالك الطائي المتوفى ٦٧٢ هـ، أحد أئمة النحو طبعت، ولقد شرحها جمع من أئمة النحو كابن هشام، والأشموني، وابن عقيل، وابن الناظم بدر الدين محمد المتوفى سنة ٦٨٦ هـ، ويتميز شرحه بغزارة المادة، وتعقيد العبارة، واختارته الجامعة النجفية لثروته العلمية لأنه يوسع ذهن الطالب.

٣ ـ كتاب (مغني اللبيب) لمؤلفه ابن هشام ـ صاحب كتاب قطر الندى ـ المتقدم الذكر وهو كتاب واسع الجوانب يقع في مجلدين أشبه بالقاموس للمصطلحات النحوية، وهذا الكتاب يدرسه الطالب في المرحلة الأخيرة لدراسته النحوية بغية التوسّع.

في البلاغة:

١ ـ (المختصر) لمؤلفه مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١ هـ من أئمة العربية، والبيان، والمنطق، اختصر بهذا الكتاب تلخيص المفتاح، وأغلب الطلاب يكتفون بهذا الكتاب عن (المطول) لأنه أخصر. طبع عدة طبعات.

٢ ـ (جواهر البلاغة) لمؤلفه السيد أحمد بن إبراهيم الهاشمي من رجال القرن الرابع عشر الهجري، وضع هذا الكتاب بصورة مبسطة ليسهل تناوله على الطلاب. وقد بحث في البلاغة، والمعاني والبيان، والبديع.

في المنطق:

١ ـ كتاب (الحاشية في المنطق) لمؤلفها الملاّ عبد الله بن شهاب الدين

حسين اليزدي، المتوفى سنة ٩٨١ هـ، من المختصين بعلم المنطق طبع في طهران.

٢ ـ كتاب (المنطق) للشيخ محمد رضا المظفر ـ عميد كلية الفقه في النجف الأشرف سابقاً ـ يقع في ثلاثة أجزاء؛ كتبه لطلاب الكلية وعند طبعه تداولته أيدي طلاب الجامعة باعتباره أسلس عبارة، وأكثر اختصاراً من الحاشية وقد طبع مرتين في النجف وبغداد.

في الفقه:

١ ـ (مختصر النافع) لأبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلي المعروف بالمحقق الحلي، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ. طبع هذا الكتاب ثلاث طبعات واحدة منها في القاهرة قدمه أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف السابق للعربية المتحدة، يقع في مجلد واحد. يتميز بعبارة بسيطة من غير تعقيد لخّص فيه كتاب «شرائع الإسلام في مسائل الحلال الحرام» الذي يعتبر متناً من المتون الحية إلى الآن. وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات، والعقود، والإيقاعات، والأحكام.

٢ ـ كتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) لنفس المؤلف المتقدم الذكر، وهو يقع في مجلدين، فقه استدلالي طبع في إيران، وفي بيروت.

٣ ـ كتاب (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية) لمؤلفه زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد العاملي الجبعي المعروف بالشهيد الثاني المقتول سنة ٩٦٥ هـ، يقع في مجلدين شرح المؤلف اللمعة الدمشقية للشهيد الأوّل محمد ابن الشيخ جمال الدين بن مكي النبطي العاملي الجزيني المقتول سنة ٧٨٦ هـ. والكتاب من المصادر الفقهية الاستدلالية الرائعة. طبع عدة طبعات وآخرها في مصر.

٤ ـ (المكاسب) للمجدد الشيخ مرتضى بن محمد أمين التستري الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ هـ، وهو كتاب فقه استدلالي جليل في نواحي المعاملات طبع الكتاب عدة طبعات في إيران وبغداد.

ومراتب هذه الكتب حسب التسلسل المذكور فالطالب يبدأ في المختصر وعند إتمامه ينتقل إلى الشرائع، ثم إلى اللمعة، ثم إلى المكاسب، وبذلك يكون قد أكمل دورة فقهية كاملة.

في أصول الفقه:

١ ـ كتاب (معالم الأصول) الشيخ حسن بن زين الدين الشهيد الثاني المتوفى سنة ١٠١١ هـ، حوى الكتاب أبواب الأصول بصورة مختصرة، وقد طبع عدة طبعات في إيران، ويدرسه الطالب عندما يبدأ في علم الأصول ويقع في مجلد واحد.

٢ ـ كتاب (قوانين الأصول) للميرزا أبي القاسم بن محمد حسن الجيلاني القمي المتوفى سنة ١٢٣١ هـ، تناول فيه أبواب الأصول بصورة تفصيلية ويقع في مجلد كبير طبع بإيران. ويأتي بالمرتبة الثانية للطالب المبتدىء.

٣ ـ كتاب (كفاية الأصول) للمحقق الشيخ الملاّ محمد كاظم الخراساني الشهير بالأخوند المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ. يقع في ثلاثة أجزاء، ووصف كتابه بأنه صار كتاباً نهائياً لمدرسة الأصول لما حوى من تحقيق وتدقيق فكري عال في علم الأصول. طبع في إيران وبغداد عدة طبعات.

٤ ـ كتاب (الرسائل) للشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ هـ من أهم الكتب الأصولية يقع في مجلد واحد عبر بحق عن الفكر العلمي الذي تمثل في هذه المرحلة من النضج الذهني، والعمق والسعة.

وهذان الكتابان (الكفاية والرسائل) بالمرتبة الأخيرة يتناولهما الطالب الديني فإذا أكملهما فقد أكمل دورة أصولية عامة.

٥ ـ (أصول المظفر) لمؤلفه الشيخ محمد رضا المظفر المتوفى سنة ١٣٨٣ هـ يقع في ثلاثة أجزاء وهي محاضرات ألقاها مؤلفها على طلاب كلية الفقه في النجف الأشرف بصورة منظمة تناول فيها بحوث الأصول بأسلوب خال من التعقيد، وعندما صدر إلى عالم الظهور، أخذ طلاب الجامعة النجفية بدراسته للمميزات التي يتمتع بها.

هذه هي أشهر الكتب المقررة للتدريس في الجامعة النجفية، وعندما نذكر هذه الكتب فليس معناه أن هذه المجموعة هي الأول والآخر، إنما هناك عدد من المؤلفات القيمة في جميع العلوم التي مرّ ذكرها، ولكنها إما ليست بالمستوى الفكري للجامعة، أو أنها غير متعارفة لعمق بحوثها وعدم تمكن الطالب من استيعابها.

محلات الدراسة في النجف

لم تتقيد جامعة النجف بمحل واحد للدراسة، إنما نراها تتخذ من الجوامع والمدارس (الأقسام الداخلية) والصحن الشريف مكاناً للتدريس. ومن أجل تنوير الباحث نعطي صورة موجزة عن هذه المرافق التدريسية:

أ ـ الصحن الشريف:

لم يكن اتخاذ الصحن الشريف الحيدري مكاناً للتدريس حديثاً، إنما يرجع تاريخه إلى العهد البويهي، حينما بناه عضد الدولة البويهي فبنى غرفاً للصحن.

وقد اعتاد طلاب العلم أن يعقدوا في هذه الغرف والإيوانات الحلقات التدريسية، وربما تعدّى إلى ساحة الصحن نفسه[(١)].

ب ـ الجوامع (المساجد):

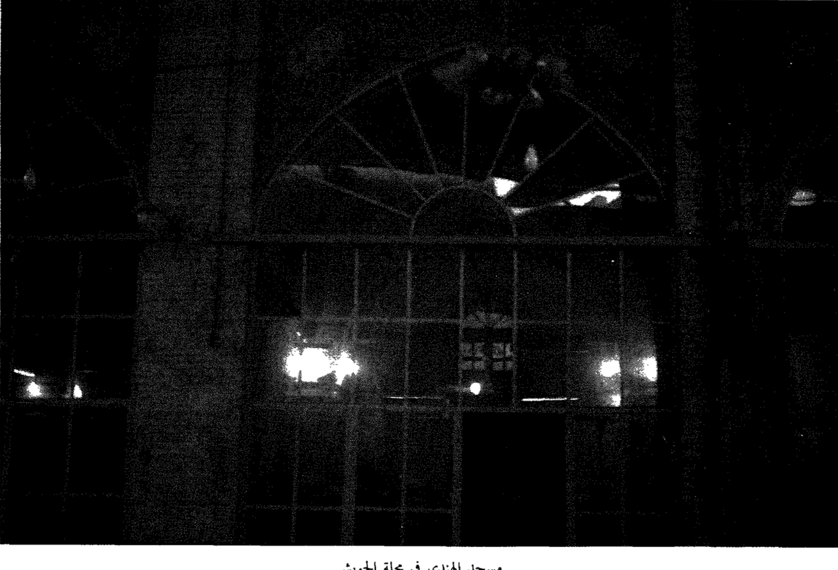
في النجف جوامع كثيرة قديمة العهد، منتشرة هنا وهناك، ولقد اتخذ طلاب العلوم الدينية من بعضها مركزاً للتدريس والبحث، ونأتي على ذكر أهمها:

١ ـ مسجد عمران: وهو المسجد المنسوب إلى عمران بن شاهين[(٢)]، وهو

---

(١) اقرأ في بحث المدارس من هذا الجزء الشرح الكافي عن مدرسة الصحن.

(٢) عمران بن شاهين: رأس الإمارة الشاهينية بالبطحية، ومؤسسها أصله من الجامدة ـ من أعمال واسط، ينتسب إلى بني سليم، كان عليه دم وهرب إلى البطائح، فاحتمى بالآجام يتصيد السمك والطير. ورافقه الصيادون، والتفّ عليه اللصوص، ولم يتمكنوا منه، ثم كثر جمعه واستفحل أمره، فأنشأ معاقل وتمكن أمره وعجزت عنه حكومة واسط، واستولى على الجامدة، وامتدّ سلطانه في نواحي البطائح، فجهّز له معزّ الدولة جيشاً من بغداد سنة ٣٣٨ هـ، فهزمه عمران، ونشبت بينه وبين معزّ الدولة معارك انتهت بالصلح على أن تكون إمارة البطحية =



مسجد الهندي في محلة الحويش

من أقدم المساجد النجفية، وأبعدها صيتاً، ويمكن أن ندعي أنه كان من قديم الزمان مركزاً للتدريس فهو يقع في مدخل الصحن الحيدري من جانب باب الطوسي، ويرجع عهده إلى أواسط القرن الرابع الهجري. ويعقد الآن فيه بحث الإمام السيد محسن الحكيم.

٢ ـ مسجد الخضراء: وينسبه البراقي إلى علي بن المظفر، وهو من المساجد القديمة البعيدة العهد، وموقعه شرقي الصحن بالقرب من الجهة الشمالية، وله باب من الصحن الحيدري، كما له باب من الشارع العام.

وقد اتخذ مقراً للتدريس والبحث، ويعقد فيه الآن بحث الإمام السيد أبي القاسم الخوئي.

٣ ـ مسجد الشيخ الطوسي: وهو من المساجد القديمة، كان داراً لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، وبعد وفاته عام ٤٦٠ أوصى أن يجعل مساجد من بعده، ويعتبر هذا الجامع مركزاً للعلم والتحصيل في كل أدواره، ويقع في محلة المشراق من الجهة الشمالية من الصحن في أول شارع الطوسي اليوم، وبإزائه مقبرة السيد محمد مهدي بحر العلوم.

٤ ـ مسجد الهندي[1]: وأسس هذا المسجد في أوائل القرن الثالث عشر الهجري في عصر الشيخ حسين نجف الكبير، ومن حين تأسيسه اتخذه طلاب العلوم الدينية مركزاً للدرس، يجتمع فيه أكثر أهل العلم، وتعقد فيه عشرات الحلقات لفضلاء العصر. بالإضافة إلى بحث الإمام السيد محمود الشاهرودي ويقع في آخر سوق البزازين الواقع قبلة الصحن الشريف، وله باب اليوم على شارع الرسول.

= لعمران. وحاول معزّ الدولة وابنه بعده أن يخضعاه فضعفا، واستمر أميراً منيع الجانب، مدة أربعين سنة. من بدء خروجه، ومات على فراشه، عام ٣٦٩ هـ وتوارث بنوه الإمارة من بعده، ولم تطل مدتها قال السيد ابن طاوس: وبنى الرواق المعروف برواق عمران في المشهدين الغروي والحائري على مشرفهما السلام له موقف مع عضد الدولة راجع قصته في: (فرحة الغري: ١٢٦ ـ ١٢٨ وترجمته في الأعلام: ٢٣٣ ـ ٥).

(١) سبب تسمية هذا المسجد الهندي بأنه كان والسوق المجاور له لعائلة ثرية هندية تقطن النجف عرف منها ميرزا علي أنور الملقب بالفل الهندي.

٥ ـ مسجد الشيخ مرتضى: ولم يكن هذا المسجد بالمرتبة الأولى غير أنه من حين تعميره حتى الآن اتخذ محلاً للتدريس والتحصيل، فلقد أسّس بإيعاز من الشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١ هـ، وقد اتخذه الإمام السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي مركزاً لدرسه، ثم اتخذه الإمام السيد عبد الهادي الشيرازي مقراً لبحثه، واليوم يلقي فيه الإمام الخميني درسه.

هذه هي المساجد التي كانت، وما زالت مركزاً للتدريس، والأبحاث الخارجية المهمة، وهناك عدد من المساجد غير رئيسية قد اتخذت للبحوث الصغيرة، كمسجد الرأس الذي يقع في الصحن الحيدري تحت الطاق، ومسجد الصاغة والذي يقع في آخر سوق الصاغة من السوق الكبير، كذلك مسجد آل الجواهري، والذي يقع في محلة العمارة وكذلك مسجد العلامة الشيرازي المتوفى سنة ١٣١٢ هـ، وكان محلاً لدرس الزعيم الروحاني السيد ميرزا محمد حسن الشيرازي قبل هجرته إلى سامراء، إلى غير ذلك من المساجد الكثيرة التي تعقد فيها الحلقات الخاصة للدرس.

جـ ـ المدارس:

وهذا مرفق ثالث، اتخذ منه المدرسون مقراً لحلقاتهم الدراسية، وإن كثيراً من هذه المدارس اليوم تعتبر بمثابة قاعات للمحاضرات والتدريسات إلى جانب كونها أقساماً داخلية ومنازل للطلاب من الغرباء أو الذين لم تتوفر لهم في بيوتهم غرف للمطالعة والدرس.

أما الشيخ عبد الهادي الفضلي[(١)] في بحثه حول الدراسة في النجف، فقد تعرض إلى ذكر ما فات غيره من الباحثين من المدارس التي شيّدت في النجف الأشرف، كما أسهب في ذكر المواد والكتب العلمية والأدبية، التي يدرسها طلاب النجف، أو يرجعون إليها في مطالعاتهم وبحوثهم وكتاباتهم وتعرض أيضاً

---

(١) دليل النجف الأشرف من ص ٥٣ إلى ص ٨٠. والدكتور الفضلي حالياً هو عميد كلية الآداب بجامعة الملك فيصل في جدّة ـ المملكة العربية السعودية ـ، وهو أحد القائمين على شؤون (الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية) في بريطانيا.

لـذكر ثلةٍ من شيـوخ الأدب وروّاده، مدلّـلاً بذلـك على أهميـة هـذا الجـانب في النجف.

ثم بعـد ذلك أعـطى صورة مختصـرة عن «كلية الفقـه» و«جـامعـة النجف» وطـريقة الـدراسة فيهمـا من حيث الجدّة في التنـظيم وشروط الانتسـاب (وهو مـا سنعرض له مفصلاً.

دراستها:

أمـا دراسـة جـامعـة النجف فهي لا تختلف في منـاهجهـا وطـابعهـا العـام ومختلف أنمـاطها عن الـدراسـات الـدينيـة القـديمـة إلاّ بمـا تتميـز بـه من حيث اختصاصها وملابساتها الخاصة. وتتلخص بما يلي:

(١) **العلوم**:

العلوم المقررة التي تعارفت دراستها وتعلمها في هذه الجامعة هي:

أ ـ علوم الشريعة الإسلامية وهي:

١ ـ الفقه.
٢ ـ أصول الفقه.
٣ ـ التفسير.
٤ ـ الحديث.
٥ ـ الرجال.
٦ ـ الفلسفة والكلام.

ب ـ علوم اللغة العربية ـ والذي يدرس منها:

١ ـ النحو.
٢ ـ الصرف.
٣ ـ البلاغة: المعاني والبيان والبديع.
٤ ـ متن اللغة.
٥ ـ العروض والقوافي.

حـ ـ الأدب العربي، والذي يتعلم منه:

١ ـ الشعر.
٢ ـ الكتابة.
٣ ـ الخطابة.

د ـ ما يلابس العلوم المذكورة. وهي:

١ ـ المنطق اليوناني.
٢ ـ الهيئة القديمة (الفلك العام).
٣ ـ الرياضيات القديمة (الحساب والهندسة).

(٢) الكتب:

أما الكتب المقررة والمتعارف دراستها فهي:

في الفقه:

١ ـ تبصرة المتعلمين للعلامة الحلي.
٢ ـ المختصر النافع للمحقق الحلي.
٣ ـ شرائع الإسلام للمحقق الحلي.
٤ ـ العروة الوثقى للسيد اليزدي.
٥ ـ الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني.
٦ ـ المكاسب للشيخ الأنصاري.
٧ ـ الرياض للسيد الطباطبائي.
٨ ـ المسالك للشهيد الثاني.

في أصول الفقه:

١ ـ معالم الدين للعاملي.
٢ ـ القوانين للميرزا القمي.
٣ ـ أصول الفقه للمظفر.
٤ ـ كفاية الأصول للخراساني.

٥ ـ فرائد الأصول (الرسائل) للشيخ الأنصاري.

في الفلسفة الإلهية:

١ ـ شرح المنظومة للسبزواري.
٢ ـ تحفة الحكيم (منظومة) للأصفهاني.
٣ ـ شرحا الإشارات لنصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي.
٤ ـ الأسفار الأربعة لصدر الدين الشيرازي.

في الكلام والعقائد:

١ ـ عقائد الإمامية للمظفر.
٢ ـ النافع ليوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر للفاضل المقداد.
٣ ـ حق اليقين لشبر.
٤ ـ شروح تجريد الاعتقاد (أ) للعلامة الحلي (ب) للقوشجي (حـ) للاهيجي.

في النحو:

١ ـ الأجرومية لابن آجروم.
٢ ـ جامع المقدمات... وهو مجموعة تشتمل على المتون والرسائل التالية:

أ ـ الأمثلة في الصرف.
ب ـ شرح الأمثلة في الصرف.
ج ـ صريف مير.
د ـ التصريف للزنجاني.
هـ ـ شرح التصريف للتفتازاني
و ـ الصيغ المشكلة في الصرف.
ز ـ العوامل للجرجاني في النحو.
ح ـ شرح عوامل الجرجاني في النحو.
ط ـ العوامل للكاشاني في النحو.

ي ـ عوامل منظومة في النحو.
ك ـ الهداية في النحو.
ل ـ شرح الأنموذج للأردبيلي في النحو.
م ـ الصمدية في النحو.
ن ـ الكبرى للجرجاني في المنطق.
س ـ آداب المتعلمين.

٣ ـ قطر الندى لابن هشام.
٤ ـ شروح ألفية ابن مالك... والمتعارف دراسته منها:

أ ـ شرح ابن الناظم المعروف بشرح بدر الدين.
ب ـ شرح ابن عقيل.
حـ ـ شرح ابن هشام.
د ـ شرح السيوطي.
هـ ـ شرح الأشموني.

٥ ـ شروح كافية ابن الحاجب... والمتعارف دراسته منها:

أ ـ شرح الرضي.
ب ـ شرح الجامي.

٦ ـ مغني اللبيب لابن هشام.

في الصرف:

١ ـ جامع المقدمات.
٢ ـ المنيف للسيد الأمين.
٣ ـ مراح الأرواح الشهير بـ(المراح) لأحمد بن علي بن مسعود.
٤ ـ شروح شافية ابن الحاجب: والمتعارف دراسته منها:

أ ـ شرح النظام.
ب ـ شرح الرضي.
حـ ـ شرح الجاپردي.

في البلاغة:

١ ـ جواهر البلاغة للهاشمي.
٢ ـ مختصر المعاني للتفتازاني.
٣ ـ المطول للتفتازاني.

في العروض والقوافي:

١ ـ ميزان الذهب للهاشمي.
٢ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه.

في المنطق:

١ ـ جامع المقدمات.
٢ ـ حاشية ملاّ عبد الله على تهذيب المنطق.
٣ ـ المنطق للمظفر.
٤ ـ تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية المعروف بـ(شرح القطب) لقطب الدين محمود بن محمد الرازي:
٥ ـ منطق المنظومة للسبزواري.
٦ ـ مطالع الأنوار للقاضي سراج الدين الأرموي.

في الفلك:

١ ـ تشريح الأفلاك للبهائي.

في الرياضيات:

١ ـ تحرير إقليدس في الهندسة لنصير الدين الطوسي.
٢ ـ خلاصة الحساب للبهائي.

أما في التفسير والحديث والرجال: فليس هناك كتب مقررة متعارفة دراستها بصورة خاصة، وإنما يعود الأمر إلى تحضير المدرس من المراجع التي يعتمدها أو إلى كتاب معين يتفق عليه بين الأستاذ والطالب.

وفي الأدب العربي بفروعه الثلاثة (الشعر والكتابة والخطابة) فمدرستها

المجالس والنوادي الأدبية التي تعقد طول السنة أيام العطل وفي المناسبات والتي تهيىء بطبيعتها الأجواء الخلاقة للشاعر والكاتب والخطيب.

وقد تتكون شخصية الأديب ـ أحياناً ـ نتيجة ملازمته لشيخ من شيوخ الأدب أو أستاذ من أساتذته المعروفين.

وقد أنجبت مدرسة النجف الأدبية العديد من الشعراء أمثال:

١ ـ الشيخ أحمد النحوي ١١٨٣ هـ.
٢ ـ الشيخ محمد رضا النحوي ١٢٢٦ هـ.
٣ ـ السيد محسن الأعرجي ١٢٢٨ هـ.
٤ ـ الحاج هاشم الكعبي ١٢٣١ هـ.
٥ ـ الشيخ محمد علي الأعسم ١٢٣٣ هـ.
٦ ـ الشيخ عبد الحسين الأعسم ١٢٤٧ هـ.
٧ ـ الشيخ عبد الحسين شكر ١٢٨٥ هـ.
٨ ـ السيد موسىٰ الطالقاني ١٢٩٨ هـ.
٩ ـ الشيخ محسن الخضري ١٣٠٢ هـ.
١٠ ـ السيد جعفر الخرسان ١٣٠٣ هـ.
١١ ـ السيد إبراهيم الطباطبائي ١٣١٩ هـ.
١٢ ـ السيد محمد سعيد الحبوبي ١٣٣٣ هـ.
١٣ ـ الشيخ مهدي الحجار ١٣٥٨ هـ.
١٤ ـ السيد مير علي أبو طبيخ ١٣٦١ هـ.
١٥ ـ السيد رضا الهندي ١٣٦٢ هـ.
١٦ ـ الشيخ جاد الشبيبي ١٣٦٣ هـ.
١٧ ـ الشيخ محمد باقر الشبيبي ١٣٨١ هـ.
١٨ ـ الشيخ علي الشرقي ١٣٨٤ هـ.
١٩ ـ الشيخ حميد السماوي ١٣٨٤ هـ.
٢٠ ـ الشيخ محمد علي اليعقوبي ١٣٨٥ هـ.
٢١ ـ الشيخ محمد رضا الشبيبي ١٣٨٥ هـ.

والعديد من الكتّاب أمثال:

١ ـ الشيخ محمد جواد البلاغي ١٣٥٢ هـ.
٢ ـ الشيخ يوسف رجيب ١٣٦٦ هـ.
٣ ـ الشيخ محمد السماوي ١٣٧٠ هـ.
٤ ـ الشيخ جعفر النقدي ١٣٧٠ هـ.
٥ ـ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء ١٣٧٣ هـ.
٦ ـ الشيخ عبد الحسين الحلي ١٣٧٧ هـ.
٧ ـ الشيخ محمد جواد الجزائري ١٣٧٨ هـ.
٨ ـ الشيخ محمد علي الأوردبادي ١٣٨٠ هـ.
٩ ـ الشيخ محمد حسين المظفري ١٣٨١ هـ.
١٠ ـ الشيخ محمد رضا المظفر ١٣٨٣ هـ.
١١ ـ الشيخ علي الشرقي ١٣٨٤ هـ.
١٢ ـ الشيخ محمد علي اليعقوبي ١٣٨٥ هـ.
١٣ ـ الشيخ محمد رضا الشبيبي ١٣٨٥ هـ.

والعديد من الخطباء أمثال:

١ ـ الشيخ جعفر التستري ١٣٠٣ هـ.
٢ ـ الشيخ محمد علي الجابري ١٣٣٣ هـ.
٣ ـ الشيخ كاظم سبتي ١٣٤٢ هـ.
٤ ـ السيد صالح الحلي ١٣٥٩ هـ.
٥ ـ الشيخ حسن جلو ١٣٦٩ هـ.
٦ ـ الشيخ محمد حسن الدكسن ١٣٦٨ هـ.
٧ ـ الشيخ محمد علي قسام ١٣٧٣ هـ.
٨ ـ الشيخ حسن سبتي ١٣٧٤ هـ.
٩ ـ الشيخ مسلم الجابري ١٣٨٣ هـ.
١٠ ـ الشيخ محمد علي اليعقوبي ١٣٨٥ هـ.

والعديد من الشعراء الشعبيين أمثال:

١ ـ الشيخ محمد نصار ١٢٩٢ هـ.
٢ ـ الشيخ عبود غفلة الشمرتي ١٣٥٦ هـ.
٣ ـ الشيخ عبد الله الروازق ١٣٥٩ هـ.
٥ ـ السيد عبد الحسين الشرع ١٣٨٥ هـ.

(٣) المراحل:

تمر الدراسة في جامعة النجف بمراحل ثلاث هي:

أ ـ المقدمات:

ويدرس الطالب في هذه المرحلة: الصرف والنحو والبلاغة والمنطق، مقدمة لدراسة الفقه والتخصّص به.

أما الكتب التي يدرسها الطالب في هذه العلوم المذكورة:

في الصرف والبلاغة والمنطق: يدرس كتاباً واحداً أو كتابين في كل علم من الكتب التي مرَّ ذكرها.

وفي النحو: يدرس الأجرومية وقطر الندى وأحد شروع الألفية... أو يدرس قطر الندى وواحداً من شروح الألفية... أو يدرس جامع المقدمات وواحداً من شروح الألفية... فلا يكتفى هنا بدراسة كتاب واحد.

على أن الطالب ـ هنا ـ قد يدرس أكثر من كتابين أو ثلاثة في هذه العلوم.

وكذلك يدرس الطالب في هذه المرحلة بعض المتون الفقهية غير الاستدلالية كتبصرة المتعلمين والمختصر النافع وشرائع الإسلام.

ودراسة المتون الفقهية ـ هنا ـ غير إلزامية، وإنما ليتزود الطالب بشيء من المعلومات العامة التي تمهد له الطريق عند دراسة الفقه في المرحلة الثانية.

٢ ـ السطوح:

ويدرس الطالب في هذه المرحلة: المتون الفقهية الاستدلالية ومتون أصول الفقه التي تتضمن عرض الآراء العلمية في المسألة ومناقشاتها ومحاكماتها والاستدلال على الرأي الذي يختاره أو يتوصل إليه المؤلف.

فيدرس الطالب في الفقه: الروضة البهية، ثم المكاسب.

وقد يدرس: الرياض، أو المسالك، إلاَّ أن دراستهما غير إلزامية، وإنما للتمهيد لمرحلة بحث الخارج.

ويدرس في أصول الفقه: المعالم وأصول الفقه والكفاية والرسائل.

أو يدرس: المعالم والكفاية والرسائل فقط.

وفي هذه المرحلة قد يدرس الطالب: الفلسفة الإلهية وعلم الكلام في بعض كتبهما المقررة.

قد يدرس: التفسير وأصوله، والحديث وأصوله، والرجال وأصوله، إلاَّ أن دراسة الجميع غير إلزامية، إلاَّ لمن يريد التخصّص بأحدهما.

٣ ـ بحث الخارج:

ويحضر الطالب في هذه المرحلة دروس أعلام المجتهدين في الفقه وأصوله.

وهي آخر مرحلة.دراسية في جامعة النجف.

(٤) الطريقة:

أما طريقة الدراسة في هذه المراحل الثلاث المتقدمة فكما يأتي:

أ ـ في مرحلتي المقدمات والسطوح: تتبع في هاتين المرحلتين تدريساً ومباحثة: طريقة شرح العبارة والمشاركة، شرح العبارة من الأستاذ والمشاركة من الطالب.

يقوم الطالب بنفسه أو من يساعده على ذلك باختيار المدرس ثم يتفقان على تعيين مكان الدراسة وزمانها.

وعندما يأتي الطالب في الزمان المعين والمكان المعين المتفق عليهما، يبدأ المدرس بقراءة عبارات الكتاب فقرات فقرات ثم يشرحها ويعلق عليها، ويعود يقرأ الفقرات الأخرى من حيث انتهى فيشرحها ويعلق عليها، وهكذا حتى ينتهي.

أو يبدأ المدرس بإعطاء موجز الدرس خارج الكتاب ثم يقوم بعده بتطبيقه

مفصلاً على عبارة الكتاب، يقرأ ويشرح ويعلق حتى ينتهي.

ويقوم الطالب بدوره بمشاركة أستاذه الدرس في الاستفهام والمناقشة وما إليهما بتمام الحرية وكاملها من قبل الطرفين.

والكثير من الطلاب ـ هنا ـ يكتب درس أستاذه. ثم يعرضه عليه ليلاحظه ويصحّحه، وتسمّى هذه الكتابة بـ (التقريرات).

وفي هاتين المرحلتين، يتفق طالبان أو أكثر على المراجعة والمذاكرة في الدروس التي يتلقونها، فيتفقون على زمان معين ومكان معين يلتقون فيهما، فيقوم كل مرة طالب معين منهم حسب الاتفاق بينهم بإعادة الدرس وتقريره على الآخرين، ويقوم الآخرون بمشاركته في الشرح والتعليق والمناقشة وبحرية تامة من الطرفين وتسمّى هذه المذاكرة بـ (البحث) أو (المباحثة).

وينهي الطالب الدراسة في هاتين المرحلتين بإنهائه دراسة الكتب المقررة.

والطابع العام للدراسة في هاتين المرحلتين هي (الفردية) وبخاصة في مرحلة المقدمات، فالذي يغلب فيها أن ينفرد طالب أو أفراد قلائل من الطلاب بمدرس.

أما في مرحلة السطوح، فالفردية فيها أقل منها في مرحلة المقدمات، إذ ربما اشترك عشرات الطلاب بمدرس يشكلون حوله حلقة دراسية.

ب ـ وفي مرحلة بحث الخارج: تتبع طريقة المحاضرة والمشاركة، المحاضرة من الأستاذ، والمشاركة من الطالب.

يقوم الأستاذ بتحضير الموضوع من مختلف مصادره المعتبرة وعندما يأتي إلى مكان الدرس وفي زمانه المعين، يلقي الموضوع خارج الكتاب، أي على ظهر قلب، ويبدأ بتحرير المسألة ثم يعرض آراء العلماء فيها وأدلتهم، ثم يقوم بمناقشة الأدلة ومحاكمتها حتى ينتهي إلى عرض رأيه الخاص في المسألة وعرض دليله على رأيه.

والطالب ـ هنا ـ يشارك الأستاذ في الإشكال والاعتراض على مناقشاته ومحاكماته أدلة العلماء الآخرين، وفي مناقشة دليله الخاص وبحرية كاملة من الطرفين.

وعندما ينتهي الدرس يتجمع الكثير من الطلاب جماعات جماعات، ويقوم فرد من كل جماعة بإعادة محاضرة الأستاذ، ويسمّى الطالب المعيد بـ (المقرر).

والكثير من الطلاب يكتبون محاضرات الأستاذ متسلسلة، وتسمّى هذه الكتابة بـ (التقريرات) أيضاً.

وقد يعرض بعضها على الأستاذ ليلاحظه ويصححه.

وقد يطبع بعضها بعد الملاحظة والتصحيح، مصدراً ـ غالباً ـ ببيان المدرس وتقريظه.

والطابع العام للدراسة في هذه المرحلة هي (الحلقية) حيث يحضر عشرات أو مئات الطلاب تحت كرسي مدرّس واحد.

(٥) الاختصاص:

ويتخصص الطالب في جامعة النجف بدراسة الفقه.

ومرحلة التخصص بالفقه تسمّى مرحلة (الاجتهاد).

ويعني بالاجتهاد ـ هنا ـ حصول القدرة لدى الفقيه على استنباط أحكام التشريع الإسلامي من أدلتها.

وطبيعة التخصص بالفقه تستدعي التخصص بأصول الفقه، وذلك لأن الفقيه لا يبلغ درجة الاجتهاد في الفقه ما لم يكن مجتهداً في أصول الفقه.

والفقه الذي يتخصص به في جامعة النجف هو (فقه أهل البيت ـ ع ـ).

وهناك اختصاصات أخرى يتوفر عليها الطالب حسب رغبته وهوايته وهي في العلوم التالية:

المنطق. الفلسفة. الكلام والعرفان. التفسير. الحديث. الرجال. متن اللغة العربية. النحو. الصرف. البلاغة:

(٦) أماكن الدراسة:

والأماكن التي يدرس فيها هي:

١ ـ الصحن الشريف: في الغرف والإيوانات.

٢ ـ المساجد: وأكثر المساجد ارتياداً من قبل الطلاب هي المساجد التالية:

جامع الهندي. جامع الشيخ الأنصاري. جامع الطوسي. جامع الخضراء.
٣ ـ الدور: دار الأستاذ، أو دار الطالب.
٤ ـ المدارس: في المدرَس (وهو قاعة الدراسة)، أو في الغرف.

والمدارس في جامعة النجف هي محلات سكنى للطلاب وبمثابة أقسام داخلية.

والمدارس الموجودة الآن في النجف الأشرف هي:

١ ـ مدرسة الصدر، أسّسها محمد حسين خان الأصفهاني حوالي سنة (١١٤٠)، وتشتمل على (٣٠) غرفة، وأضيف لها ملحق يشتمل على (١٤) غرفة، وتقع في السوق الكبير.

٢ ـ مدرسة كاشف الغطاء، وكانت تعرف بمدرسة المعتمد أسّسها معتمد الدولة عباس قلي خان حدود سنة (١٢٥٠) وتشتمل على (٢٠) غرفة، وتقع في محلة العمارة.

٣ ـ المدرسة المهدية، أسّسها الشيخ مهدي كاشف الغطاء حدود سنة (١٢٩١) وتشتمل على (٢٢) غرفة، وتقع جوار جامع الطوسي.

٤ ـ مدرسة القوام، أسّسها فتحعلي خان الشيرازي حوالي سنة (١٣٠٠)، وتشتمل على (٢٦) غرفة، وتقع ملاصقة للمدرسة المهدية.

٥ ـ المدرسة السليمية، أسّسها سليم خان الشيرازي حدود سنة (١٣٠٥) وتشتمل على (١٢) غرفة، وتقع في سوق المشراق.

٦ ـ مدرسة الإيرواني، أسّسها الحاج مهدي الإيرواني سنة (١٣٠٥) وتشتمل على (١٩) غرفة، وتقع في محلة الحويش.

٧ ـ مدرسة الخليلي الكبرى، أسّسها الميرزا حسين الخليلي سنة (١٣١٦) وتشتمل على (٤٦) غرفة، وتقع في محلة العمارة.

٨ ـ مدرسة الشربياني، أسّسها الشيخ محمد الشربياني سنة (١٣٢٠)، وتشتمل على (١٢) غرفة، وتقع في محلة الحويش.

٩ ـ المدرسة الكبرى، أسّسها الشيخ محمد كاظم الخراساني سنة (١٣٢١) وتشتمل على (٤٠) غرفة، وتقع في محلة الحويش.

١٠ ـ مدرسة الخليلي الصغرى، أسّسها الميرزا حسين الخليلي سنة

(١٣٢٢) وتشتمل على (١٨) غرفة، وتقع في محلة العمارة.

١١ ـ مدرسة القزويني، أسّسها الحاج محمد آغا الأمين القزويني سنة (١٣٢٤)، وتشتمل على (٣٠) غرفة، وتقع على الطمة.

١٢ ـ مدرسة البادكوبي، أسّسها الحاج علي البادكوبي سنة (١٣٢٥)، وتشتمل على (٣٠) غرفة، وتقع في شارع الإمام زين العابدين (ع).

١٣ ـ مدرسة الهندي، أسّسها ناصر علي خان اللاهوري سنة (١٣٢٨)، وتشتمل على (٢٠) غرفة، وتقع في محلة العمارة.

١٤ ـ المدرسة الوسطى، أسّسها الشيخ محمد كاظم الخراساني سنة (١٣٢٦)، وتشتمل على (٣٣) غرفة، وتقع في شارع الإمام الصادق (ع).

١٥ ـ المدرسة الصغرى، أسّسها الشيخ محمد كاظم الخراساني سنة (١٣٢٨)، وتشتمل على (١٢) غرفة، وتقع في محلة البراق.

١٦ ـ مدرسة البخارائي، أسّسها محمد يوسف البخاري سنة (١٣٢٩)، وتشتمل على (١٦) غرفة، وتقع مجاور المدرسة الكبرى.

١٧ ـ مدرسة السيد محمد كاظم اليزدي أسّسها سنة (١٣٢٩)، وتشتمل على (٨٠) غرفة، وتقع في محلة الحويش.

١٨ ـ مدرسة البروجردي الكبرى، أسّسها السيد آغا حسين البروجردي سنة (١٣٧٣)، وتشتمل على (٦٤) غرفة، وتقع قرب دورة الصحن.

١٩ ـ مدرسة الرحباوي، أسّسها الحاج عباس الحاج محسن ناجي سنة (١٣٧٨)، وتشتمل على (١٨) غرفة، وتقع في شارع المدينة.

٢٠ ـ مدرسة البروجردي الصغرى، أسّسها السيد هاشم البهبهاني سنة (١٣٧٩)، وتشتمل على (٢١) غرفة، وتقع في سوق العمارة.

٢١ ـ مدرسة الجوهرچي، أسّسها الحاج محمد صالح الجوهرچي سنة (١٣٨٣)، وتشتمل على (٥٤) غرفة، وتقع في شارح المدينة.

٢٢ ـ المدرسة العاملية، أسّست بسعي الشيخ محمد تقي الفقيه، سنة (١٣٧٧)، وتشتمل على (٤٠) غرفة، وتقع في شارع مسلم بن عقيل.

٢٣ ـ مدرسة الشيرازي الكبرى، أسّسها السيد عبد الله الشيرازي سنة (١٣٧٣) وتشتمل على (٢٢) غرفة، وتقع في محلة الجديدة.

٢٤ ـ مدرسة الشيرازي الصغرى، أسّسها السيد عبد الله الشيرازي سنة (١٣٧٧)، وتشتمل على (٨) غرف، وتقع في محلة الجديدة.

٢٥ ـ مدرسة غديريان، وهي دار صغيرة لسكنى الطلبة مع عوائلهم وتقع في محلة العمارة.

٢٦ ـ مدرسة البغدادي، أسّسها عبد العزيز البغدادي سنة (١٣٨٣)، وتشتمل على (٩٩) غرفة، وتقع في ساحة الإمام الحسين (ع).

٢٧ ـ مدرسة اليزدي الصغرى، أسّسها السيد أسد اليزدي سنة (١٣٨٥)، وتشتمل على (٤٠) غرفة، وتقع في محلة العمارة.

٢٨ ـ غرف الطابق الأعلى من الصحن الشريف، وعددها (٤٤) غرفة.

وهناك مدارس أخرى في دور التأسيس والتشييد، وهي:

١ ـ مدرسة الحكيم، يؤسّسها السيد محسن الحكيم، في محلة المشراق.
٢ ـ مدرسة شبر، يؤسّسها السيد علي شبر، في محلة البراق.
٣ ـ مدرسة، تؤسّس بسعي الشيخ محمد علي كلباسي، في دورة الصحن.

(٧) العطل:

تعطل الدراسة في جامعة النجف في الأيام والمناسبات التالية:

١ ـ يومي الخميس والجمعة.
٢ ـ أيام الزيارات المخصوصة.
٣ ـ أيام وفيات المعصومين عليهم السلام.
٤ ـ يوم وفاة المرجع الديني.
٥ ـ من أول شهر محرم حتى اليوم الثالث عشر منه.
٦ ـ شهر رمضان.
٧ ـ النصف الأول من شهر رجب.

والكثير من الطلبة خلال أيام العطل يواصلون دراستهم بدروس أخر، يقتصرون على دراستها أيام العطل فقط، وتسمّى بـ(الدروس التعطيلية) أو (درس تعطيلي).

وتنتهز فرصة العطلة أيضاً للسفر، ولمراجعة الدروس، وللاستجمام والترويح، وللتأليف والكتابة، ولقضاء مختلف الحاجات.

(٨) المالية:

تعتمد جامعة النجف في ماليتها التي تنفقها على الطلاب وفي شؤونها الأخرى على (الحقوق الشرعية) التي يدفعها المسلمون إلى مراجع التقليد، وعلى تبرعات المحسنين، وعلى بعض الموقوفات الأهلية في إيران والهند وغيرهما.

ومن الجدير بالذكر هنا: أنه ليس لجامعة النجف أي مورد مالي حكومي من أية حكومة.

وأكثر من هذا: إن جامعة النجف تأبى أن تقبل أية مساعدة مالية من أية حكومة، وطالما رفضت ما قدم لها.

كلية الفقه

مؤسسة دينية عالية، فتحت عام (١٩٥٨) من قبل (جمعية منتدى النشر) برئاسة (الشيخ محمد رضا المظفر ١٣٢٢ ـ ١٣٨٣) لتخريج ذوي اختصاص بالعلوم الإسلامية واللغة العربية.

ومدة الدراسة فيها أربع سنوات، تبدأ في اليوم الأول من الأسبوع الثاني من تشرين الأول، وتنتهي في آخر الأسبوع الثالث من مايس.

ويقبل فيها خريجو الدراسات الإعدادية أو ما يعادلها، وذوو الدراسات الخصوصية ممّن يجتاز امتحاناً خاصة في علوم اللغة العربية وعلم المنطق وعلمي الفقه وأصوله، بمستويات معينة نص عليها نظامها (نظام كلية الفقه).

والعلوم التي تدرّس فيها موزّعة على سنيها الأربع هي:

الفقه الإمامي، الفقه المقارن. أصول الفقه. التفسير. الحديث. المنطق. الفلسفة الإسلامية. الفلسفة الحديثة. التاريخ الإسلامي. الالتزام. النحو والصرف. البلاغة. العروض. تاريخ الأدب العربي. المطالعة. علم الاجتماع. علم النفس. التربية وأصول التدريس. اللغة الانكليزية.

والشهادة التي تمنحها لخريجها هي (البكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية. ويطبق على حائزها ما تنص عليه القوانين والأنظمة.

ويقوم بالتدريس فيها أساتذة من ذوي الدراسات الخصوصية العالية من جامعة النجف، وأساتذة جامعيون من حملة الشهادات الجامعية العالية.

ويقع مقرّها ـ الآن ـ في بناية جمعية منتدى النشر (المركز العام) قرب الباب الكبير للصحن الشريف.

وقد أسهمت كلية الفقه بنظامها الجديد في تطوير الدراسة الدينية في النجف بما يلي:

١ ـ بإدخال العلوم الحديثة التي تتطلبها رسالة المرشد الديني ووظيفته في التبليغ إلى الدراسة الدينية.

٢ ـ بإدخال العلوم الإسلامية ـ وبمناهجها القديمة التي تتميز بأصالتها وعمقها ـ إلى الدراسات الجامعية الحديثة.

٣ ـ بإدخال نظام الدراسة الصفية.

٤ ـ بإدخال نظام الامتحانات الدورية.

٥ ـ بإدخال نظام منح الشهادة الرسمية التي تؤهل الطالب الديني لدراسة قسم الماجستير، والتدريس في المدارس الثانوية والمعاهد العالية.

وتقوم الآن طائفة من خريجيها بالتدريس في المدارس الثانوية والمعاهد العالية، وبالدراسة في أقسام الماجستير الجامعية.

مدرسة جامعة النجف الدينية

مؤسسة دينية ذات بناية خاصة، أسّسها الحاج محمد تقي اتفاق الطهراني بسعي السيد محمد كلانتر سنة (١٣٧٩)، وتشتمل على (٢١٠) غرف، ومجهزة بالوسائل والمرافق الحديثة، وتقع في حي السعد على الطريق العام الموصل بين النجف والكوفة.

ولهذه المدرسة نظام خاص في الدراسة، تقوم على تطبيقه ثلاث هيئات:

مشرفة وإدارية وتدريسية، برئاسة عميد.

وينص نظامها على تدريس العلوم التالية:

النحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، والفقه، وأصوله، والكلام، والتفسير إجبارياً. وعلم الحديث والفلسفة، والأخلاق، وعلم النفس والهيئة، والرياضيات، والتأريخ، ولغة أجنبية ـ تعينها الإدارة ـ والفقه المقارن والصحة اختيارياً.

وتسير الدراسة فيها على عشر مراحل، تبدأ بدراسة علوم اللغة والأدب، وتنتهي بدراسة (بحث الخارج).

وتجري فيها امتحانات نصف سنوية وأخرى نهائية.

وعدد طلابها الآن (١٦٠) طالباً.

ويقوم بصرف جميع نفقاتها المالية مؤسّسها الحاج محمد تقي اتفاق الطهراني.

والمدرسة بهذا النظام الخاص تسهم في تطوير الدراسة النجفية بإدخال نظام الامتحانات، وبتدريس بعض العلوم الحديثة التي يحتاجها الطالب الديني في أداء مهمته، وبخضوع الطالب فيها لتعليمات خاصة.

وبنايتها في تصميمها وضخامتها، تعدّ الأولى في مدارس النجف الدينية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفصل السادس
بحوث أكاديمية
عن
حوزة النجف

إلى هنا، نكون قد انتهينا من إثبات فصول كاملة حول «الدراسة في النجف». أخذناها من أربابها، وأهلها، من طلابها، وعلمائها الذين درسوا وعاشوا فيها، وفي ذلك صورة واضحة جليّة عنها يجد الباحث فيها ما يريد.

غير أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أمرين:

أحدهما: أن جامعة النجف، تعني النجف كلها، بكل ما فيها من مدارس، وعلماء، ومجتهدين، ومدرسين، وطلاب.

الثاني: أن الذين كتبوا عن النجف حديثاً هم كثيرون، وقد وضعوا كتاباتهم كدراسات قدموها لنيل الشهادة الجامعية، ولو أردنا إثبات ما كتبوا هنا، لاستلزم ذلك وضع مجلدات ضخمة.

ولكننا مع ذلك قد اخترنا بعضاً من تلك الدراسات، وأولاها رسالة من إعداد **الأستاذ سلمان نزال** بعنوان: الدور التربوي والاجتماعي والسياسي للنجف في مطلع القرن العشرين قدمها رسالةً لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، وهي - بالطبع - تعبر عن رأي كاتبها، واستنتاجاته الخاصة بصفته منتسباً إلى غير الطائفة الإمامية. وقد أخذنا منها الفصل الذي يخصّ النظام «التعليمي في النجف»[1].

---

(١) الرسالة اشتملت على ٢٧٨ صفحة بالقطع الكبير، وهي نسخة خاصة بالأطروحة. وجاء فيها =

كما اخترنا دراسة حول الموضـوع نفسه (**للأستاذ علي البهـادلي**) أخذنـاه من كتابه «الحوزة العلمية في النجف»[1] وهي رسالة ماجستير.

وبين يدي القارىء الآن ما كتبه الأستاذ نزال حيث قال:

= بحث «النظام التعليمي...» من صفحة ١٣٩ ـ ١٧١.

(١) اشتملت رسالة الأستاذ البهادلي على ٤٨٠ ص . ط بيروت ـ دار الزهراء.

الفصل الأول
النظام التعليمي في جامعة النجف

١ ـ شروط الانتساب

إن الشروط التي يجب أن تتوفر في الإنسان، لكي يستطيع الانتساب إلى جامعة النجف، شروط ممكنة وعادية وبغاية البساطة؛ هذه الشروط يوجزها أحد طلبة الجامعة النجفية القدامى كما يلي:

١ ـ «أن يكون قد بلغ الرابعة عشرة من العمر وأن لا يزيد سنّه عن العشرين سنة».

ب ـ «أن يكون قد أنهى المرحلة التعليمية الابتدائية على الأقل وكلما ارتفعت درجة علمه من الابتدائي إلى المتوسط وما فوق يكون أكثر استيعاباً وأسرع احتواءً للفكر المطروح».

ج ـ «أن يكون الطالب مقتنعاً بأسباب رحلته العلمية وغاياتها. أي أنه لا تتم رحلته تحت ضغط ذويه وأولياء أمره، بل أن يؤمن بضرورة وواجب هذه الرحلة، أي أن يرحل في سبيل الله وإلى الله.

وعندما يصل الطالب إلى النجف، بعد أن تتوفر فيه هذه الشروط، يرد إلى حيث يتجمع أبناء قطره الذين يؤلفون شعبة مسؤولة ويشكلون همزة الوصل بين النجف وبين قطرهم.

هؤلاء يحتضنون القادم الجديد ويتعرفون به، ويقدمون له الخدمات الأولية،

ويعرفونه على معالم النجف، الجامعة والمدينة. بعد ذلك يستطلع أفراد هذه الشعبة أحواله العلمية ودرجتها دون أن يلمس ذلك، لأن امتحانه يأتي بطريقة غير مباشرة. فيسألونه مثلاً عن زملاء له في الدروس ونسبة درجته بالنسبة لهم. كيف كان يتصرف زملاؤه؟ أيّ الكتب كانوا يدرسون؟ مدى الاستيعاب؟ احترامه لفلان من زملائه ولماذا؟ هل فلان كان يحترمه مثلاً، لماذا؟ وأي المواد يحبها أكثر وأي من المعلمين يحترم أكثر؟ امتحان هادىء يُجرى له كما لو كان للتسلية وإضاعة الوقت. بعد الاطلاع على معلوماته وتوجهاته يعيّن له زملاؤه، أبناء قطره. الدروس التي تستوي ومعلوماته تحاشياً للصعوبة في بادىء الأمر ولينطلق دون عقبات ثم يحدّدون له أستاذاً خبروا هم كفاءته وجدارته ويصلونه به.

وبعد فترة من الدرس، وحسب توجيه الجامعة النجفية، يعود أبناء قطره ليوجهوا إليه أسئلة متنوعة مثلاً: ماذا قرأت اليوم؟ ماذا كنت تقرأ بالأمس. أي مادة درستم بالأمس؟ هل من صعوبة؟ فإذا كان الجواب: لا صعوبة، يطلبون منه شرح ما شُرح له في القواعد أو في الحديث أو في التفسير. وهنا فإما أن يُقرّوه على ما هو عليه، أو أن يخفضوا أو يرفعوا مستواه بتغيير الدروس والأستاذ.

«وفي غضون الدراسة ينطبع الطالب بطابع الدين والتقوى»[1]، والانضباط والعمل وإلّا فإنه سرعان ما يتقهقر وينزوي عائداً من حيث أتى.

٢ ـ نظام الزيّ

قبل أن يباشر الطالب بالدرس عليه، عند دخول الجامعة، «بلبس العمّة والجبة الإسلاميتين اللتين كان النبي يرتديهما والأئمة المعصومون (ع). وقد أخذ الإسلام زيّه هذا عن العرب وأمرائهم قبل، إذ لم يشرع الإسلام زيّاً خاصاً غير ما كان عليه العرب. . . ولذلك فقد قيل في المثل العربي القديم «العمائم تيجان العرب» وجاء في الحديث «تعمّموا فإن الشياطين لا تتعمّم» استمر هذا الزي للتابعين ـ وتابعي التابعين وأشراف المسلمين وعلمائهم ومحدثيهم إلى عصر الخليفة الرشيد الذي أمر ـ في سنة ١٨٣ هـ ـ أبا يوسف، قاضي قضاة الكوفة،

(١) الشيخ محمد تقي آل الفقيه، جامعة النجف في عصرها الحاضر ص ١٤٣ صور ـ لبنان.

في عهده، بتوحيد اللباس الديني وتخصيصه بعلماء الدين ونزعه عمّن سواهم»[(١)] وما زال هذا الزيّ حتى عصرنا الحاضر مختصاً بعلماء الدين والفقهاء.

٣ ـ مراحل التدريس في النجف

مراحل التدريس الجامعي في النجف يتشكل من ثلاث مراحل وهي السطوح والفضلاء والخارجية.

أ ـ مرحلة السطوح:

وهو اسم لدراسة التلميذ في الكتب. وسمّيت سطحية لأنه لا يطلب فيها أكثر من فهم ما في الكتاب. «والذي يفهم الكتاب ويحفظ مضامينه يسمّى محصلاً ومشتغلاً ولا يسمّى فاضلاً ولا عالماً ولا متجزياً ولا مجتهداً»[(٢)].

في هذه المرحلة، يحضر الطالب كتابه وكذلك أستاذه: ثم يبدأ الأستاذ بقراءة العبارة ويشرحها ويفسر غرض المصنف منها. يقول أحد طلبة النجف يشرح هذا الوضع: «يتفق الطلاب والأستاذ على تعيين الكتاب والزمان والمكان ثم يحضرون جميعهم قبل الموعد بوقت يسير إذا حان الوقت قدّم أحد الطلاب كتابه للأستاذ (إذا لم يكن مصحوباً بكتابه)، وفتح الآخرون كتبهم واشترك من لم يصحب كتابه مع أحد رفقائه بالنظر إلى كتاب واحد، فيشرع الأستاذ في الدرس بعد التسمية والتحميد والصلاة على النبيّ وآله. فيقرأ مطلباً واحداً في عبارة الكتاب ثم يشرع في توضيحه بقدر كفاءته ومقدرته. وربما قضى مدة الدرس في بيان مطلب واحد مهم... وإذا تخلف بعض الطلاب يوماً ما لعارض، تفقده الأستاذ والتلاميذ وتساءلوا عن سبب تأخره. فإن كان مشروعاً أعيد له الدرس بصورة مجملة ولا سيما إذا كان صعباً. وإذا تكرر منه التخلف عن الوقت سقط حقّه، للقاعدة المشهورة عندهم وهي «الدرس لمن حضر» وهذه القاعدة تحفظ نظام الدرس وتضطر الطالب للاهتمام بالوقت مضافاً إلى ازدراء الأستاذ والطلاب المتخلف وتهاونهم بالمتهاون، ومكافحته بالأساليب الكثيرة»[(٣)].

---

(١) الشيخ محمد تقي آل الفقيه، جامعة النجف في عصرها الحاضر ص ١٨ صور ـ لبنان.
(٢) مرجع سابق، آل الفقيه ص١٨. (٣) المرجع نفسه ص١٨.

والشيخ أو الأستاذ الذي يتولى التعليم يُسأل عنه من وجهة الكفاءة العلمية والخبرة ومن الوجهة الدينية والأخلاقية فإذا تمّ واتفق عليه لتدريس مادة ما في كتاب ما، ذهبوا إليه والتمسوا منه ذلك. فإذا كان لدى الأستاذ متسع، بعد، لتدريس هذه المادة فإنه لا يألو جهداً بتلبية طلب الطالب أو الطلبة المجتمعين «لا لأن هناك سلطة زمنية تضغط عليه، بل لأن طبيعة النجف مبنية على هذا النهج، فهو باستجابته يلبي دعوة الواجب الديني فقط ويشعر بالغبطة والسرور ويخشى الله سبحانه في تسويف الوقت وتضييعه... والتدريس مجاني، لا يتقاضى على ذلك راتباً ويهتم في أن يكون عمله خالصاً لوجه الله سبحانه... وكثيراً ما تتناول محاضرته (في البداية)... قيمة الوقت وشرف العلم وأثر الإخلاص وفوائد المثابرة والجد والصبر ثم يشجعهم على تحمّل المشاق والآلام ويبعدهم عن الشهوات، ويحذرهم من العواقب فيضرب لهم الأمثال ويذكر القصص ويقيم البراهين، يفعل ذلك حتى تصبح الفكرة في أسمى مراتب الوضوح وبواسطة التكرار تصبح جزءاً من حياة الطالب. هذا درس السطح»[1] هذا من حيث الجوهر، أما من حيث الشكل فالقاعات أو الأماكن التي تُعطى فيها الدروس وتُلقى المحاضرات ليست مجهزة بالكراسي والمنابر والمنصات فالطلبة يشكلون حلقة مستديرة «تحيط بالأستاذ الجليل: مفترشة ما على الأرض في الجلوس بدل الكراسي والمنصات. ومع هذا التبسط والجلوس المتواضع فإن لتلك الحلقات الجميلة من الهيبة والروعة ممّا لا نراه في غيرها من الحالات»[2].

وهذه الطريقة في إعطاء الدروس تعكس الطريقة التعليمية التي كانت سائدة زمن الأئمة وإن أهم ما في طريقة الدراسة النجفية هي الحرية الكاملة التي يحظى بها الأستاذ والتلميذ معاً وهي أشبه شيء بالطريقة الدراسية التي كان عليها الإمام الصادق (ع) مع تلامذته كما يحدثنا المستشرق رونالدس حيث قال «سقراطية يأخذ المتلمذين بالحوار والمحادثة ويتدرج من المسائل الساذجة إلى المسائل المركبة والمطالبة المعقدة والأسرار الغامضة»... وكما أن للأستاذ أن يرتئي ما

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١١٠.

(٢) الشيخ محمد رضا شمس الدين، حديث الجامعة النجفية، النجف ١٩٥٣م/ ١٣٧٣هـ.

يشاء، كذلك للطالب أن يعترض بما شاء ويناقش أستاذه ويسأله على غير حدّ»[١].

ومرحلة السطوح تنقسم قسمين: القسم الأول وطلابه هم المبتدئون بالمرحلة الأولى وكتبها البسيطة التحضيرية. أما القسم الثاني فهو قسم المتقدمين لأنهم أنهوا دراسة المرحلة الأولى وكتبها (كالأجرومية مثلاً) وأصبحوا يدرسون في الكتب المقررة الأخرى مثل «جامع المقدمة» و«ألفية ابن مالك» و«مغني اللبيب» و«المطول» للتفتازاني و«الحاشية» للملاّ عبد الله[٢].

ب ـ مرحلة الفضلاء:

وهي تلي مرحلة السطوح «المتقدمين» وهنا يصبح على الطالب أن يدرس المنهج والفقه الإسلاميين. «في هذه المرحلة على الطالب أن يدرس مختلف المناهج في التوصل إلى معرفة الأدلة والثبوت والأصول والشرائع والفروض سواء أكانت تتعلق بالصلاة أم بالمعاملات بحسب الدين الإسلامي.

وفي هذه المرحلة يتم إلقاء المحاضرات دون كتب. فلا الأستاذ أو المعلم يحمل كتاباً وكذلك الطلاب ولكن يتم تدوين بعض النقاط أو الملاحظات من قبل الطلاب أو بعض الأسئلة في حال غموض مسألة من المسائل لكي يعاد شرحها. وهنا يروي أحد طلبة النجف عن المرجع الأعلى، السيد محسن الحكيم ما يلي: «كان إذا فرغ من الدرس يبدو عليه التعب الشديد فسألته مرّة عن ذلك فقال: أهتم في إفهام جميع الحاضرين في الدرس فإذا رأيت احداً منهم لم يفهمه... أظل متأثراً، فهوّنت عليه، فقال: التدريس طريق لا غاية»[٣] ولكن الأستاذ المحاضر يشير إلى الكتب المعتمدة في الجامعة النجفية والمقررة بعد دراسات واطلاع عليها والتثبّت من قيمتها العلمية وفائدتها المرجوة.

وفي مرحلة الفضلاء لا يختار الطالب أيّاً من الشيوخ والعلماء قبل

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١١٠.
(٢) عبدالله النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ص٥١ دار النهار.
(٣) مرجع سابق، آل الفقيه ص٥٦.

استشارات عديدة وقبل الاطلاع على رأي ذوي الخبرة والكفاءة والعلم فيه.

والذي يجدر ذكره، هنا، هو أن هذه المرحلة تعتبر أعلى مرحلة من مراحل السطوح وبعضهم يعتبرها مرحلة مستقلة نظراً للمستوى العلمي الذي يبلغه الطالب من حيث انتقاله إلى مرحلة دراسة الأدلة والثبوت والأصول والشرائع والفروض ومن حيث إنه لا المعلم ولا التلميذ يحضرون معهم كتباً أثناء المحاضرة.

د ـ مرحلة الخارجية أو درس الخارج:

بعد أن يكون الطالب قد أنهى مرحلة السطوح التي تحتاج مع مرحلة الفضلاء إلى مدة لا تنقص عن سبع سنوات، ويكون قد استوى على معرفة شاملة باللغة والبيان والصرف والنحو والأدلة والنصوص والتاريخ الإسلامي بحذافيره إضافةً إلى دراسة تفسير القرآن على نحو وافٍ ممّا يؤهله للانتقال إلى مرحلة الخارجية أو درس الخارج.

ودروس الخارج، محاضرات يلقيها الأستاذ تتكفل شرح موضوع كامل، فقد يستوجب ذلك مدة درس كامل، وقد يحتاج إنهاء الموضوع إلى عدّة أيام، إما لأن التلاميذ لا يقبلون النظرية التي يدعيها الأستاذ، فيكثر فيها الخصام والنقض والإبرام، فيضطر لإقامة البراهين الكثيرة التي لا يمكن جمعها في درس واحد وإما لأن النظرية تبتنى على سلسلة نظريات مجهولة لدى جملة من الحضور، فيلتزم الأستاذ ببيانها واحدة واحدة»[1] وفي هذه المرحلة لا يمكن أن ترتجل المواضيع والمحاضرات دون إعداد مُسبق من قبل الأستاذ نظراً لعظم شأنها وأهميتها وعمق محتواها بل لا بدّ أن يكون قد راجع الكتب التي يحتاجها من فقه وأصول وحديث ولغة وتفسير وكل ما يرى أن له مساساً في الموضوع، هذا إذا لم يكن قد راجعه من قبل أو كان قد راجعه لكنه لم يحط به»[2]

وموضوع المحاضرة المعدة للإلقاء، يكون الأستاذ قد أرشد طلابه إلى الكتب التي تعالجه فيطلعون عليه ويدرسونه ثم يأتي دور الأستاذ فيطرحه ويناقشه

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١١١.
(٢) المرجع نفسه ص١١١.

إمعاناً بإنضاجه وإضاءة غموض بعضه، أو إزالة الالتباس في بعض جوانبه.

والكتب التي يعود إليها الطلاب هي الكتب نفسها التي يعتمدها الأستاذ «وإن كانوا ليسوا سواسية من حيث تفهمها واستحضار مضامينها»[1].

أما عدد الطلاب في مجلس الخارج الواحد فقد يبلغ العشرة، وقد يبلغ الألف. فلا حدّ لعدد طلاب الخارج. وإذا كانوا قلة، جلسوا حول أستاذهم مشكلين حلقة مستديرة.

ثم يجلس الأستاذ شارحاً الموضوع مبيّناً أقوال الفقهاء وآراءهم وما اختلفوا فيه، وما اتفقوا عليه ثم يظهر الخلل إن وُجد، وإلاّ فإنه يبيّن موقفه حيال الموضوع في آخر الأمر ثم يترك للطلاب حرية السؤال والمناقشة وإبداء الرأي.

وأثناء المناقشات بين الطلاب والأستاذ، وبين الطلاب أنفسهم تبرز المواهب ويتجلى الطالب المتفوق فهماً وعلماً.

ودرس الخارج، وهو أعلى مستوى يبلغه الطالب في الجامعة النجفية، له ثلاث مراتب:

«أدناها أن يحضر قوم ـ فرغوا من السطوح ـ درساً يسير على عناوين كتاب من كتب التدريس، ويتعهد الأستاذ ببيان مطلب الكتاب كاملاً بإيضاح... ويضيف إلى مطالب الكتاب المناقشات التي ناقش العلماء فيها صاحب الكتاب، وقد يقبلها، وقد يردّها، وقد يضيف إليها مناقشات أخرى وهو في الوقت نفسه يحاول تصحيح ما في الكتاب... وأوسطها ما مرَّ بإضافة ما في كتب التدريس الأخرى أو ما في بعض الكتب المهمة: مثلاً: يكون عنوان الدرس، الجزء الثاني من الكفاية (للخراساني) فيتعهد الأستاذ ببيان ما فيها، مع ما في «الرسائل» مع ما في تقريرات درس «النائيني» ثم يحاكم آراءهم ثم يختار... وأعلاها درس «الناضجين»[2] و«الناضجون» هم الذين بلغوا مرحلة دراسة الأصول العملية بعد

(١) مرجع سابق، آل الفقه ص١١٢.
(٢) المرجع نفسه ص١١٦.

دراسة الأصول النظرية «لأنها قطب رحى الاجتهاد وهي في الوقت نفسه حلبة تتجارى فيها أفكار الفقهاء، وكلما مهر الفقيه فيها تجلّت مقدرته في الفقه.

والأصول العملية اسم لمباحث «القطع» و«الظن» و«الشك».

وأهم مباحث الشك: «البراءة» و«التخيير» و«الاشتغال» و«الاستصحاب». وتتضمن في الوقت نفسه، قواعد سيّالة يصعب حصرها، تمرّ بالمناسبة، ويلحقون بالأصول مبحث «التعادل» و«التراجيح» وهو محاكمة عالية للظنون المتعارضة، كما يلحقون بها مبحث «الشكوك المتداخلة»[١].

والفقه، والأصول، هما أهم ما يجب على الطالب دراستهما في النجف. فدراسة كل المواد الأخرى هي: «تمهيد لهذين العلمين، وتوصّل إلى نظرياتهما الدقيقة ومسائلهما المشكلة»[٢] والذي يجب لحظه هنا: أن «من فهم الكتب الدراسية أو أحاط بها وحفظ مضامينها فلا يكون بذلك مجتهداً ولا متجزياً ولا يصلح لتدريس الخارج. ويُسمّى في الاصطلاح، محصلاً ويكون صالحاً لتدريس هذه الكتب تدريساً سطحياً فقط. والمجتهد ليس من يستطيع النقض ثم يُخصم بسرعة، بل هو الذي يستطيع المتابعة حتى النهاية، على وجه يستطيع إرجاع كل دليل ظنّي إلى قطعي، مهما طالت السلسلة»[٣] ولذلك فإن الخارج يكون أمام دورتين:

الأولى: فقهية استدلالية مجملة. الثانية دورة أصولية نظرية وعملية.

وبعد حضوره هاتين الدورتين يجد نفسه أمام خيارين أو نجدين لا بدّ من سلوك أحدهما: «طريق موصل لرتبة المرجعية العليا ودرجة الاجتهاد السامية ومنصب الفتيا والحكم بين الناس، أو وكيل وإمام جماعة، وواعظ ومرشد في خارج النجف. وفي هذه المرحلة يدرس الطالب - أكثر ما يدرس - على نفسه ويتخرج عليها»[٤].

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١٥٦.
(٢) مرجع سابق، شمس الدين، ص٦٦.
(٣) مرجع سابق، آل الفقيه ص١١٣.
(٤) مرجع سابق، شمس الدين ص٦٧.

الفصل الثاني
طريقة التدريس والتوجيه العلمي التربوي

أولاً:

كنا عرضنا فيما سبق للأدوار التربوية التي مرَّت بها جامعة النجف كما تطرقنا إلى المذهب الذي تعتنقه والملامح الخصوصية المميّزة له عن غيره من المذاهب أو الفرق الإسلامية. وهذه الفرق كان لها إسهامات جليّة في العمل التربوي ودفع عجلته. فعملية التربية لم تكن لتنفرد بها فرقة دون أخرى، بل «لقد أسهم في إرساء قواعد النظام التربوي الإسلامي وتطويره أعداد كبيرة من العلماء، من مختلف الطوائف والمذاهب».

ومن الفرق التي اهتمَّت بالتعليم وأسهمت في وضع أسسه وتطويره، الفرقة الشيعية الإمامية.

ولا يختلف النظام التربوي عند هذه الفرقة، من حيث الشكل، عن النظام التربوي الإسلامي العام وإنما يتفرد عنه ببعض السمات الخصوصية في منهج البحث وفي مواد بعض موضوعات الدرس[1].

هذه السمات الخصوصية في المعتقدات الشيعية كان لها وما زال دور الموجّه والمحرّك للعملية التربوية التعليمية والاجتماعية والسياسية أيضاً. وكان لها

(١) د. عبدالله فياض، تاريخ التربية عند الشيعة الإمامية ص٨ مطبعة أسد بغداد ١٩٧٢م.

أيضاً الأثر الأكبر في استقلالية كيانها المذهبي، وكذلك في استقلالية قرارها ومواقفها.

والنجف كجامعة تربوية دينية، انتهت إليها مسؤولية تدريس وتلقين علوم أهل البيت، وإحياء أمرهم ونشر مذهبهم، وترامت عندها المرجعية الدينية العليا كولاية تكوينية، أو كنيابة ولاية الفقيه، لتقود الشيعة الإمامية على خطى أهل البيت وتمثّل سيرتهم، منذ استقرارها على وضعها الحالي كآخر مدارس الفقه الشيعي الإمامي.

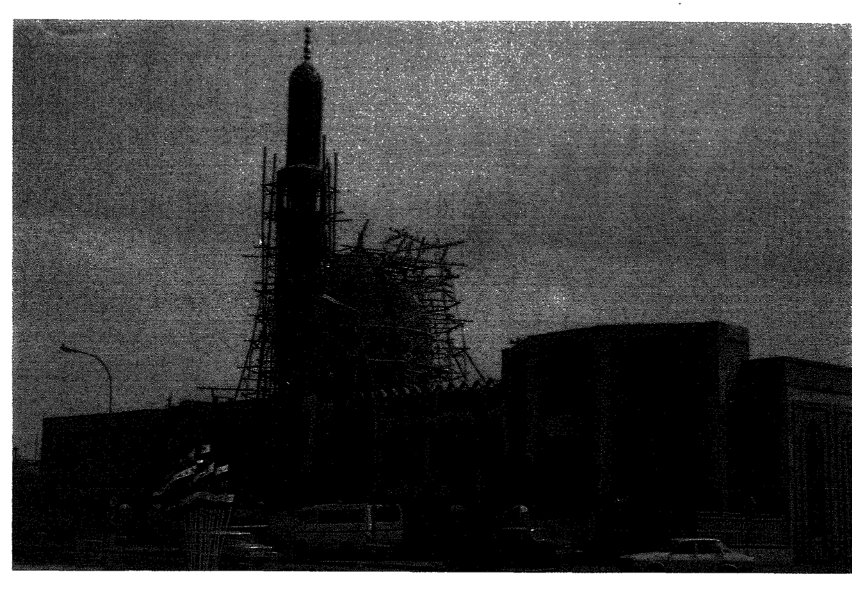
فالنجف أصبحت المنتجع العلمي الذي من دعاماته وإحدى خصوصياته «فتح باب الاجتهاد» الذي أوصدته الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى.

لذلك فإن «النجف الأشرف، الجامعة الدينية الإسلامية... امتازت على غيرها إذ ذاك بفتحها على طلابها أبواب الاجتهاد، وتركها المجال للعقول تتصارع في سبيل البلوغ إلى الحق، من طريق الجدل العلمي لتأخذ من ثمرات ذلك الصراع تجارب تنبض بالحركة والحياة»[1].

وتصارع العقول واحتدام النقاش والجدال في النجف لا يورث حقداً، ولا يؤدّي إلى التعصّب في الرأي، ولا يبعث على النفور أيضاً ما دامت الحجة تقرع حجّة، والبرهان يدفعه برهان، وما دامت الغاية من وراء ذلك إزالة الشبه، والقضاء على الشك، وبلوغ اليقين والحقيقة.

«وألفة النجف لهذا النوع من الجدال والصراع ضمن حياتها العلمية الطويلة... أكسبها في بحوثها العلمية صفة الموضوعية والتواضع، وأبعدها عن مستلزمات الجدل غالباً من الصفات الذميمة، كالتحاقد، والتباغض، والتمسك والاعتداد بالرأي... أما إذا كان بلوغ الحق هو رائد الجميع، وكانت الفكرة هي مجال الأخذ والرد منفكة عن أصحابها، كانت الموضوعية وسرعة التنازل للحق هي المالكة لزمام الجدل في أغلب المتجادلين، ما أيسر أن نشاهد هنا أساتذة كباراً ينزلون على آراء تلاميذهم متى وجدوا فيها إصابة للحقيقة، فضلاً عن

(١) السيد محمد تقي الحكيم (مقدمة في كتاب النص الاجتهاد للإمام شرف الدين عبد الحسين) ص ٥٦.



كلية الفقه في محلة الجديدة



خضوعهم لأساتذتهم أو لبعضهم بعضاً. والأساتذة على الأكثر هم الذين يبعثون بتلاميذهم على مجادلتهم لشحذ عقولهم، ولتقوية شخصياتهم، وتمرنهم على الأصالة وترك التقليد، والانصهار في آراء مدرستهم وموجههم شأن ضعاف التلاميذ غالباً من جهة أخرى»[1].

نستنتج ممّا سلف أن طريقة التدريس في النجف، هي طريقة حرة، تعتمد الحثّ والتشجيع على التبحّر في العلوم الدينية والمعارف الأخرى، كاللغة ومشتقاتها، والمنطق، وغيرها، ثم الاطلاع على ما ورد عن ألسنة الفقهاء الجهابذة وآرائهم وحججهم وتبريراتهم. ومن أجل هذا يعتمد الأستاذ في النجف، إذا أراد أن يبحث قضية من القضايا، إلى عرض الفكرة على تلاميذه بأسلوب الاستفهام، والتساؤل، ثم يذكر كل ما يُمكن أن يُقال حولها من الآراء المتناقضة، ويبذل الجهد كله لإيراد الاعتراضات على ما يراه ويختار، ثم يفنذها واحداً واحداً بالمنطق والحجة القاطعة، بحيث لا يدع مجالاً للاحتمال والتشكيك بالحق والصواب فيخرج التلميذ من عنده وهو واثق كل الثقة بما يؤمن ويعتقد، ومسلحاً بأقوى الحجج وأفضلها»[2]. إذن، يترتب، بناء لذلك، على طالب العلم أن يكون مواظباً على حلقات التدريس، وأن يكون دائم الحضور، لكي لا تفلت منه فرص الاستفادة العلمية. فتكرار الغياب عن حلقات التدريس يؤدّي إلى تفاوت في المسافة العلمية بينه وبين زملائه، وقد يخلق بينه وبينهم برزخاً، فلا يستقر معهم على المستوى العلمي الذي بلغوه، حيث يتضعضع تواصله، وتتقهقر مسيرته ويتخلف عن أسباب رحلته وغاياتها ليفضي به ذلك إلى الخيبة والفشل.

لذلك، هُناك، وفي هذا السياق نصائح عديدة ترى أن «العلم الذي يكسبه الطالب مشافهة من الشيوخ أجدر بالاعتماد من العلم الذي يؤخذ من الدفتر والكتب»[3] أو كما قال الشهيد الثاني: «من تفقه من بطون الكتب ضيّع الأحكام»[4] لذلك لا بدّ من الحضور لأخذ العلم عن الشيخ مشافهة لأن ذلك

---

(١) مصدر سابق، الحكيم ص ٥٦ (مع الملاحظة أن هذا السيد هو طالب نجفي قديم).
(٢) الشيخ محمد جواد مغنية، مع علماء النجف ص٣٣ بيروت ١٩٦٢.
(٣) مرجع سابق د. فياض ص٢٠٢ عن (النجاشي، الرجال ص٦٩).
(٤) المرجع نفسه ص٢٠٢.

يبعث ـ كما أسلفنا ـ على الاستفهام، والنقاش، والأجوبة ممّا يرسخ المعلومات المعطاة ويبلورها أكثر.

«وكان أهل السنة والشيعة يستوون في قضية تفضيل السماع من الشيخ. وعدّ بعضهم السماع من الشيخ أرفع من القراءة عليه... وقالوا إن تشييخ الصحيفة يُعد من البلية»[1].

إذن على طالب العلم أن يكتسب العلم مشافهة عن الشيخ وأن لا «يشيّخ» الصحيفة، لذلك يقول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تذاكروا تلاقوا وتحدثوا فإن الحديث جلاء القلوب. إن القلوب لترين كما يرين السيف، جلاؤها الحديث»[2].

كما رُفع كلام للإمام محمد الباقر (ع) يقول فيه: «تذاكر العلم دراسة، والدراسة صلاة حسنة»[3].

وعن أهمية السؤال في حلقة التدريس يقول الإمام الصادق: «إن هذا العلم عليه قفل ومفتاحه المسألة ـ إنما يهلك الناس لأنهم لا يسألون»[4] ويروي الإمام الصادق (ع) كذلك، بهذا الخصوص أن الإمام علياً قال: «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر»[5].

وتعمل النجف بنصائح أئمتها، وإرشاداتهم، وتوصياتهم، وتورد الكثير من أقوالهم ونصائحهم التربوية. فالإمام الصادق كان يقول لطلابه، في مجلسه عن لسان الإمام علي: «اقتربوا، اقتربوا واسألوا فإن العلم يُقبض قبضاً... أدقوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا من فضولكم، واقصدوا قصد المعاني وإيّاكم والإكثار»[6].

(١) مرجع سابق د. فياض ص٢٠٣.
(٢) الكليني، الكافي ج١ ص٤١.
(٣) المصدر نفسه ص٤١.
(٤) مرجع سابق د. فياض ص١٨٧.
(٥) المرجع نفسه ص١٨٧.
(٦) المرجع نفسه ص٦٣.

ثم إن طريقة التعليم التي تتبعها جامعة النجف على غرار طرق التعليم الإسلامية الأصيلة تقوم على الحرية الكاملة في النقاش والجدل وإبداء الرأي، إن في حال الموافقة أو الاعتراض، تؤدّي إلى حلحلة حزونة مسار الطالب العلمي وإلى شحذ ثقته بنفسه وإلى ضخّ روح الاندفاع فيه ممّا يدفعه إلى التواصل مع أساتذته وزملائه فيصبح في منجى من تقطع الأسباب به. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنه يتزوَّد بالمعارف، والعلوم المرسَّخة على أرضية قناعاته، وثقته، فيحمله هذا إلى الوقوف دون رأيه، ومبادئه، والاهتمام الزائد لامتلاك الأدلّة والبراهين، والبحث عن الحقائق العلمية، وضمّها إلى فكره، ليكون دائم الحضور العلمي في المناظرات، والمحاورات العلمية التي تفيد مجتمعه، وتأخذ به إلى مطارح النور.

وطريقة النجف في تدريسها طلابها على «أساس فتح باب الاجتهاد» والحرية الكاملة في الرأي والمناقشة المفتوحة، الممنوحة لهم تأتي بالفائدة المرجوة، في نظر أحد النجفيين من حيث «إن هذه الطريقة نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد ولولاه... لما كان للإسلام هذه العلوم والمعارف. لأن التقليد لا يفسح المجال للمنطق والتساؤل، ولذا سار عليه الشيخ محمد عبده والشيخ المراغي والأستاذ الأكبر محمود شلتوت...»[(١)].

لذلك فقد اعتبر الكثيرون أن «التشيّع في أساسه، ردّ فعل لفكر حرّ طليق كان يقاوم جموداً عقلياً»[(٢)] هذا من جهة، ومن جهة ثانية اعتبروا أن الشيعة بفتحهم «باب الاجتهاد» كان لهم «فضل كبير ملحوظ في إغناء المضمون الروحي للإسلام، فإن بمثل حركاتهم الجامحة تأمن الأديان التحجّر في قوالب جامدة»[(٣)] من هنا اعتُبرت النجف بأنها امتازت عن غيرها من الجامعات باستخدام الاجتهاد «للتوفيق بين روح الدين الحنيف وبين مقتضيات روح العصر الحديث»[(٤)] ثم إن

(١) حسن الأسدي، ثورة النجف منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية ١٩٧٥.
(٢) المرجع نفسه ص٣٥ عن المستشرق كارا ديفو.
(٣) المرجع نفسه ص٣٥ عن بدوي وطويل.
(٤) مصدر سابق الكليني ص٧٥.

الطالب الذي يرتحل إلى النجف طلباً للعلم، عليه أن يعلم منذ البداية أن «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فيلتبوأ مقعده من النار»[1] وأن العلم روحه العمل لأن «من تعلم العلم وعمل به، وعلَّم لله، دعي في ملكوت السموات عظيماً فقيل: تعلَّم لله وعمل لله وعلَّم لله»[2].

على الطالب منذ بدء رحلته العلمية، أن يعلمَ قصد الرحلة، لأن «من تخرّج منها يجب أن يعمل ويتجه إلى هذا القصد، وإلَّا كان تاجراً، لا عالماً، ومنافقاً، لا مؤمناً، من هنا كان التدريس في النجف بالمجان. فلا الأستاذ يقبض أجراً، ولا التلميذ يتكلف شيئاً، تنزيهاً عن الكسب والاتجار، وعن أي وسيلة تجرّ منفعة دنيوية»[3]. وزكاة العلم ليس بالاتجار بل إن «زكاة العلم أن تعلمه عباد الله»[4].

هذا ما يُغرس في نفس الطالب النجفي ويُنمّ عليه فيتأصل في نفسه ويترسخ علماً وعملاً وجهاداً.

ثانياً ـ لغة الدراسة، ومواضيعها، والكتب المعتمدة:

ـ لغة الدراسة:

اللغة المعتمدة في جامعة النجف هي اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وسنّة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وكل ما جاء على لسانه، ولسان الأئمة، والصحابة، والتابعين، من فقهاء وغيرهم. «وأما أبناء الجاليات الأجنبية، والبعثات العلمية، أمثال البعثة الإيرانية، والهندية، والأفغانية، والنكرية، والتبتية إلى غيرها من القوميات والهويات الكثيرة. التي تزيد على عشرين هوية أو جنسية... فإن كل هؤلاء يتعلمون اللغة العربية الفصيحة قبل كل شيء»[5].

---

(١) الكليني، الكافي ج١ ص٤٧ عن الإمام الصادق.
(٢) المصدر نفسه ص٣٥.
(٣) الشيخ المرحوم محمد جواد مغنية، مع علماء النجف ص٣٣ بيروت ١٩٦٢.
(٤) المرجع نفسه ص٣٣.
(٥) مرجع سابق، الشيخ شمس الدين ص٥٤.

ـ مواضيع الدراسة والكتب المعتمدة:

في علم النحو والصرف:

ـ للمرحلتين: الأولى والثانية: «الأجرومية» (ابن أجروم)، ثم «شرح القطر» (ابن هشام)، أو «ألفية ابن مالك» (ابن الناظم).

ـ في المنطق: «الحاشية» (الملاّ عبد الله النجفي)، ثمَّ «منظومة السبزواري»، «الشمسية» (قطب الدين الرازي).

ـ في علم المعاني والبيان والبديع: «المختصر» ثم «المطول» (التفتازاني).

ـ في الأصول: «المعالم» (الشيخ حسن، ابن الشهيد الثاني العاملي)، «الكفاية» (ملاّ محمد كاظم الأخند)، «الرسائل» (الأنصاري).

ـ في الفقه: «كتاب الشرائع» (المحقق الحلّي)، «اللمعة وشرحها» (الشهيدان).

ـ في الحكمة والكلام (أو الفلسفة): «شرح باب الحادي عشر» (السيوري)، «شرح التجريد»، (الحلّي)، «الأسفار» (الملاّ صدرا)، «الكشاف» (الزمخشري).

ـ في الحساب: «الخلاصة» (للبهائي).

ـ في الهندسة: «أشكال إقليدس» و «المجسطي».

ـ التاريخ الإسلامي: «مروج الذهب» (المسعودي)، «الكامل في التاريخ» (ابن الأثير) «المقدمة» (ابن خلدون)، «العقد الفريد» (ابن عبد ربّه الأندلسي)، «وفيات الأعيان»، «ابن خلّكان».

ـ في الأدب: ديوان المتنبي، «الحماسة» (أبو تمام)، «المقامات» (الهمذاني)، «نهج البلاغة» (الإمام علي).

ـ في التفسير: «مجمع البيان» (للطبرسي).

ـ في الهيئة: «تشريح الأفلاك» (البهائي).

ـ في الأخلاق: «مكارم الأخلاق» (ابن مسكويه).

وللاستزادة يرجع الطلبة إلى كتب غير التي ذكرنا، وهذه الكتب يرشد الأساتذة طلبتهم إليها بعد تعيين المواضيع المعالجة فيها.

والكتب التي ذكرناها أيضاً يعود إليها الطلبة في جميع المراحل مع ما يدونون من ملاحظات وإرشادات ونقاط هامة. وهناك مواضيع ومواد مفروضة، كما هناك مواد اختيارية: كالفلك والطب والهيئة والهندسة. والحساب. من هذه المواد يختار الطالب ما يريد منها حسب توجهاته، وتطلعاته، يمكنه أن يختار واحدة، ويمكنه اختيار أكثر من واحدة وإذا كان نشيطاً يختار أكثريتها.

أما في المرحلة الثالثة من الجامعة، فهناك كتب كثيرة يلزم مراجعتها وقراءتها من قبل الطالب الخارج ومن هذه الكتب:

- في الفقه: «العروة الوثقى» (السيد كاظم اليزدي الطباطبائي)، «التبصرة» (الحسن بن يوسف المطهر المعروف بالعلامة الحلّي) «حاشية» الشيخ محمد تقي.

- في الأصول: «الكفاية» (محمد كاظم الأخند)، «الرسائل» في الأصول العملية (مرتضى الأنصاري).

وللطالب هنا الاطلاع على كل المذاهب الإسلامية والرسائل وعلى كل ما يريد.

ثالثاً: كيف يعيش الطالب في النجف:

قبل المضيّ في محاولة معرفة أحوال وظروف الطالب النجفيّ، يجدر بنا أن نشير إلى مسألة، أو وضع ليس له مثيل في العالم، وهي أن مدينة النجف تخلو كلياً من كل أسباب اللهو غير المشروع. أي أنها خالية طرّاً من الملاهي، كدور السينما، والبارات، والمقاهي، والحانات وغيرها.

إذن، أين يُمضي الطالب وكيف، أوقاتَ العُطَل؟

يصف لنا أحد طلبة النجف السابقين، كيف كان وزملاؤه يقضون أيامهم في النجف، في فترات الدرس، وأيام العطلة يقول: «أما أيام الاشتغال فإن الطالب يمضيها بين درس يتلقاه ودرس يُلقيه، ومطالعة في الليل وفي فترات الضحى والزوال والأصيل، ويكتب دروسه كأنه يؤلف كتاباً في العلم الذي يدرسه... وتدوين الدروس يعتبر رمزاً للنشاط والجدّ، وفي الوقت نفسه يكون مقياساً لنجاح

التلميذ والأستاذ معاً، وبذلك يكون الطالب قد أعطى صورة عن نفسه، فإنه إن فهم الدرس دوّنه، وإن لم يفهمه لم يستطع تدوينه، ويكون ما يُدونه شاهداً عليه أمام أساتذته وأقرانه، وهو قبل ذلك يكون له بذلك من نفسه على نفسه رقيب: فكثيراً ما يضطر بهذه الواسطة للاعتراف بقصوره أو تقصيره وقد ينتحل الأعذار. . . ولا يرتاح من العمل فيها إلاَّ في فترات الانتقال من درس لآخر، وعند تناول الطعام وأداء فريضة الصلاة. وبعض الطلاب قد ينام بعد الزوال ساعة أو أكثر، ولا سيّما في فصل الصيف، يستعين بذلك على سهر الليل. . . وينتبه الطالب باكراً قبل الشمس على الأقل فيؤدّي فريضة الصباح، ويُعقّب بعدها بشيء من القرآن الكريم والأدعية المأثورة. . .

وأما أيام التعطيل، فهي الخميس، والجمعة، من كل أسبوع، وعيد الفطر، والأضحى، وأيام وفاة النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، والزهراء (ع)، والأئمة (ع)، وشهر رمضان بكامله والعشرة الأولى من محرم. . . وأيام الزيارات المسنونة. . .

الجمعة والخميس قد يمضيهما في نقل مسودات دروسه إلى المبيضة، وقد يتدارك ما فاته تدوينه من دروسه أثناء الأسبوع، وقد يمضيهما في لقاء إخوانه وأصدقائه وتنظيف غرفته وبدنه. وقد يمضيهما في. . . الشواطي (أرض زراعية خصبة قريبة جنوبي غربي النجف وفيها جدول ماء وأشجار ونباتات وسواقي). . . في النزهة مع أصدقائه، فليس له متعة إلاَّ اللعب والسباحة في نهر الفرات، واحتساء الشاي. . . ويتحدثون في التاريخ والأدب وتكثر بينهم المنافسة في الشعر. . . ويصحبون معهم الكتب. . . ديوان المتنبي، الشوقيات، جواهر الأدب. . . وقد يتبارون بالإلقاء والقراءة على العربية، ويشتركون في نظم قصيدة، فتكون عطلتهم جولات عامة في الأدب والتاريخ وعلوم العربية. . .

وأما في أيام الوفيات فإن أكثر الطلاب يحضرون مجلساً أو مجلسين من مجالس التعزية. . . أو بمناسبة وفاة النبي. . . أو وفاة الصادق. . . وأما في شهر رمضان فأكثر الطلاب يحيون الليل. . . بتلاوة القرآن الكريم وأدعية الليل والنهار والسحر. ويتزاورون. . . ويحضرون مجالس الوعظ والإرشاد. . . وبعضهم يشتغل

في بعض المسائل العلمية... أما في ليالي القدر فلا عمل إلاّ العبادة هكذا يعيش الطالب في النجف...»[1].

(١) مرجع سابق آل الفقيه ص٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥.

الفصل الثالث
الإجازة

١ ـ قبل النجف

أ ـ تفسيراتها اللغوية:

أجاز فلاناً، في اللغة، يعني: منحه إذناً بأمر ما. وكما يقول الفيروزآبادي في مؤلفه اللغوي «القاموس المحيط»: «أجاز له، سوّغ له» وعرفها الشهيد الثاني بقوله: «والإجازة طريقة من طرق نقل الحديث»... والإجازة في الاصطلاح «إذنٌ وتسويغٌ، وهو المعروف، وعلى هذا فتقول أجزت له رواية كذا كما تقول أذنت له وسوّغت له»[1].

فالإجازة، حسبما مرّ، هي الإذن الذي يبيحه زيد من الناس لآخر رواية حديثه...

ب ـ تاريخياً:

نجد أمامنا نوعين من الإجازة: شفهية وتحريرية.

ـ **الشفهية**: نأخذ كمثل على ذلك، إجازة الإمام جعفر الصادق (ع) لأبان بن تغلب بالرواية عنه؛ روي أن أحد تلامذته قال لإمامه عند فراقه إيّاه ـ أحب أن تزودني. فقال: ائت أبان بن تغلب، فإنه سمع مني حديثاً كثيراً فما روى لك

(١) مرجع سابق، د. فياض ص٢٣٣ عن الدراية ص٩٤.

عني فاروه عني»[١] من هنا نصل إلى ما مفاده أن الإمام الصادق (ع) أجاز شفهياً تلميذ أبيه وتلميذه أبان بن تغلب برواية أحاديثه عنه.

وهناك الكثير من الشواهد التاريخية على إجازات العلماء الشفهية لطلبتهم، أو لعلماء آخرين بنقل أحاديثهم ورواياتها. وهنا نثبت بعضاً منها على سبيل المثال:

«يقول النجاشي: أخبرنا أبو الحسن العباس بن عمر بن عباس... الكلوذاني قال: أخذت إجازة علي بن الحسين بن بابويه لما قدم بغداد، سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة بجميع كتبه».

وقال الطوسي إن إسماعيل بن رزين بواسط و«أخبرنا عنه برواياته كلها الشريف أبو محمد المحمدي، وسمعنا هلال الحفار يروي عنه مسند الرضا وغيره، فسمعنا منه وأجاز لنا باقي رواياته»... ويقول النجاشي كان لحسن بن زياد الطائي كتاب أخبرنا إجازة الحسين بن عبيد الله...»[٢].

ـ الإجازة التحريرية أو الخطية:

هذا النوع من الإجازات كان أقل شيوعاً من الإجازات الشفهية في العصور التي سبقت القرن العاشر للهجرة. يقول أحد الباحثين التربويين الإسلاميين:

«وقد عثرت على إشارات قليلة عن الإجازة التحريرية في الفترة التي تناولها بحثي هذا»[٣] التي يعنيها الباحث تمتد من عهد الإمام الصادق (ع) (المتوفى سنة ١٤٨ هـ وحتى عهد الطوسي الذي انتقل من بغداد إلى النجف عام ٤٤٨ هـ. أي أنها لا تتعدّى القرن السادس للهجرة على أبعد حدّ. ومن الشواهد التاريخية على الإجازة التحريرية يورد الباحث شاهدين لا غير وذلك لندرتها، ندرج واحداً منهما:

«قال النجاشي إن أحمد بن عبد الله الوراق دفع إلى شيخ الأدب أبو أحمد

---

(١) مرجع سابق، د. فياض ص٢٣٥.
(٢) المرجع نفسه ص٢٣٥.
(٣) المرجع نفسه ص٢٣٤.

عبد السلام بن الحسين البصري كتاباً بخطه قد أجاز له فيه جميع رواياته. . . »[1].

نستخلص ممّا تقدم بأن الإجازة، قبل نشوء المعاهد التعليمية، أي قبل نشوء المؤسسات المخصصة، والمكرّسة للتعليم المنظّم على مراحل معينة ومحددة، كانت تتم شخصياً بين مجيز ومجاز.

وكانت تتم بعد اقتناع تام من قبل مانح الإجازة، وثقته بطالب الإجازة أو المستجيز. وقبل تبويب العلوم إلى أصول وفقه وحديث، وغيرها، من المواضيع، فإن الإجازة كانت تعطى للمستجيز، إن كان طالباً مثلاً، ساعة يُبرزُ كفاءته، وإخلاصه، وصدقه لمعلّمِهِ، ـ كما حصل بين الإمام الصادق (ع) وتلميذه أبان بن تغلب الأنصاري ـ دون تخصيص في موضوع من المواضيع، أو تعيين موضوع ما تجيزه به.

وكان يمكن فيما مضى وقبل ظهور المعاهد التعليمية، أن يمنح عدة شيوخ طالباً واحداً إجازاتهم، أي أن كل شيخ يمنحه إجازةً وهذا يدل على أن الطالب يمكنه أن يتتلمذ على عدة شيوخ، لأنها ما كانت مقيدة بمناهج معينة تشتمل على مواضيع مختلفة، كالفقه والحديث والتفسير وغير ذلك، بل يدرس الطلبة كتباً مختلفة المواضيع على أكثر من شيخ واحد عادة.

٢ ـ الإجازة وجامعة النجف

الإجازات التي تمنحها النجف، لا تأتي نتيجة امتحان خطي، كما هو معروف في الجامعات الحديثة اليوم. و «للامتحان في هذه الجامعة صورة خاصة، يخالف ما عليه مدارس هذا العصر الحيث، فهو يكون في الطريق، وفي المجالس، وفي حلقات الدرس، يُختَبَرُ المحصل أو الناجح لدرسه بالاحتكاك والكلام. . . ترتيب أثر ذلك يظهر من تقدير الأساتذة لهم واحترام العلماء الذين لا يُمارون، ولا يُجارون، الفقيه المجتهد يبرز بتقديم رسالته العملية التي هي (كالأطروحة) لتحصيل الشهادة العالية في هذا العصر، وأما الشهادات ـ في هذه

---

(١) مرجع سابق، د. فياص ص٢٣٤.

الجامعة ـ وإجازات الاجتهاد «فإنها» لا تُعطى إلاّ لذوي الكفاءة العلمية والاستعداد الكامل، على الاستنباط بعد اختباره وامتحانه بالطريقة المذكورة»[١].

كيف يجري الامتحان في جامعة النجف، وكيف تعطى الإجازة؟

أحد طلاب النجف القدامى يحدثنا عنه كصاحب تجربة وممارسة يقول: «يظن كثير من الناس أن في جامعة النجف هيئة خاصة تراقب سير الطلاب، وتشرف على أعمالهم، وتُعدُّ لهم امتحاناً شهرياً، وسنوياً، ثم تعطي كل طالب شهادة تحمل أرقاماً تشير إلى درجات التلميذ ومكانته، فإن جامعة كهذه الجامعة تضمّ بين دفتيها آلافاً من الطلاب يتوزع منهم على الأقطار فوج في كل عام ويخلفه فوج آخر، جدير بها أن تسير على المنهج المتبع اليوم عند سائر الأمم الراقية... ولكن الأمر ليس كذلك، فإن النجف لا تزال تسير وحدها في طريقها الخاص، وتتبعها قم، وخراسان، وكربلاء، وسامرا، والكاظمين، وأصفهان، وتبريز وكثير من حواضر إيران، وأفغانستان، وسائر المدارس الشيعية الدينية ولا يزال لها أسلوبها الخاص في التدريس، والامتحان، وفي مكان الدراسة، وفي اختبار المدرسين، ولا تزال تحافظ على مناهجها وتعتزّ بها لأنها تلمس أفضل النتائج. والامتحان في النجف امتحان نزيه، ينتهي بمعرفة درجات الطالب بدون أي إخفاء. فإن الامتحان فيها لا يتخلله شيء من الغش، ولا الرشوة، ولا الواسطة، ولا مراعاة، ولا قرابة، ولا محاباة لصديق، ولا تستطيع السلطة أن تشفع للطالب»[٢].

والامتحان في النجف يقوم على ثلاثة محاور:

الأول: هو الحرية، حرية الفكر والرأي والمناقشة للتلميذ مع أستاذه ومع رفاقه أثناء الدرس وبعده، أو قبله، وبذلك يأخذ الأستاذ فكرة عن تلميذه، واستيعابه، وجرأته وقوة منطقه.

والثاني: هو «المباحثة مع الأقران، فقد اعتاد الطلاب على أن يجتمع منهم اثنان

---

(١) مرجع سابق الشيخ شمس الدين ص٥٦.

(٢) مرجع سابق آل الفقيه ص١١٩.

فأكثر، ويعينوا درساً للمباحثة، يسمونه «بحث مقابلة»، فيحضرون في الوقت والمكان اللذين اتفقوا عليهما، ثم يتقدم أحدهما في اليوم فيلقي درسه كأنه أستاذ للآخرين وكلهم مصغون ومنتبهون، ولا يسمحون له باجتياز نقطة من نقاط المبحث ما لم يقتلها بحثاً، فإذا عجز، فهم متكفلون بإيضاحها، فإذا عجزوا أجمع، أرجعوها للأستاذ في وقت آخر، وفي اليوم الثاني يقوم الآخر بهذه العملية في البحث الذي هو تلو مبحث اليوم الأول، وهكذا دواليك. فالذي لم يفهم دروسه لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل، ولا يخفى أمره على رفيقه أو رفقائه وإذا أحسّوا أنه ليس بفاهم وأنه غير مجتهد في دروسه نبذوه»[١].

الثالث: المذاكرة والمناقشة في الأندية العامة والخاصة، في الصحن وفي الشوارع وأثناء تشييع الجنائز «فعندما يجلس طالب إلى جنب طالب آخر، يوجه سؤالاً إلى رفيقه. . . ويطالبه بالبرهان جهده»[٢].

أما الشهادات في جامعة النجف:

الطلبة الذين يغادرون النجف حاملين شهاداتهم، ليسوا جميعاً على مستوى واحد من العلم وقد يكون أحدهم فاضلاً أي أنه أنهى مرحلة الفضلاء واكتفى بها. وربما كان أحدهم وكيلاً أو إمام جمعة أو أستاذاً لتدريس السطوح والفضلاء فقط وربما كان ـ آخر قد فشل في رحلته العلمية فلم يُصِبْ حظاً أو بسطة من العلم، ولكنه كان تقياً مؤمناً حسبما يلاحظه أستاذه وزملاؤه، لذلك فالشهادة تعطى على مقدار درجته العلمية التي بلغها.

فمثلاً لا تعطى الشهادة للذي لم يُصب نجاحاً علمياً بأنه ناجح وفاضل، وأنه يستطيع أن يكون ثقة علمية ولا في أية ناحية، بل تُعطى له شهادة وكأنها شهادة حسن سلوك، فيلحظ في شهادة خاصة من معلمه أنه كان تقياً مؤمناً، وتذكر بقية صفاته الشخصية التي تعبر عن سلوكاته وممارساته.

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١٢١.

(٢) مرجع نفسه ص١٢١.

«ودرجات الذين يغادرون النجف مختلفة طبعاً. ولكن تفاوتهم لا يخفى على الرقابة العامة، ولا على الرقابة الخاصة، وهم الذين تطلب منهم الشهادة... والذين يغادرونها قسمان: قسم يغادرها إلى رجعة وقسم إلى غير رجعة...

أما الذين يغادرونها نهائياً فإنهم يأخذون شهاداتهم من أساتذتهم ومن الرئيس الديني (المرجع الأعلى)، وتلك الشهادات تتضمن في اصطلاحاتها مقدار درجات حامليها، وهذه المصطلحات يعرفها الخاصة، وهم بدورهم يعطون عن حامليها صورة إلى السواد. فهي نظير الشهادات التي يحملها طلاب الجامعات الحديثة... عندما يريد الطالب الشهادة، يرفع الأمر إلى أساتذته وإلى الرئيس الأعلى»[1] فيتم التداول بأمره، ويشار إلى النواحي التي كان يبرز فيها دون أخرى، وإن كان قد لفت أنظار معلميه بمواظبته ونقاشه واستعداده الدائم، بل وحضوره النفسي والعقلي الدائم، بالإضافة إلى تقاه، وورعه، وعدم تخلّفه عن واجباته الدينية، تعطى له الشهادة منوّهةً بجميع تلك الفضائل، ويُطلب من الناس في هذه الشهادة الاستماع إليه واحترامه. وهذه الشهادة لا تعطى جزافاً وإنما تعرض على جهاز خاص تابع للمرجعية العليا.

«ثم إذا كتبت الورقة بقيت أياماً عند مَنْ يُطلب منه توقيعها، تبقى للرقابة والتدقيق وتكون خاضعة للتبديل والتعديل، فإنه يعرضها على أكثر من واحد من أهل المعرفة والفضل، والدين، والكتمان، ويأخذ رأيهم فإن كانوا يعرفونه أعطوا رأيهم وإلّا استمهلوا، واشتغلوا بالتنقيب والتدقيق، كل ذلك بشكل هادىء إلى الغاية. وبعد ذلك يضيف الرئيس إلى المسودة ما يريد أو يضرب على ما لا يرتضيه ثم يأمر بتبييضها... وفي هذه الفترة يبقى صاحب الحاجة منتظراً أو يطلب توقيع الورقة فيقال له: وقت آخر، لا داعي للعجلة، المسألة تحتاج إلى تروّي، متى عزمت على السفر؟ - بعد أسبوع مثلاً، فيقال له: الوقت واسع...»[2].

(١) مرجع سابق آل الفقيه ص١٤٦.
(٢) المرجع نفسه ص١٤٨.

هذا إذا كان الطالب لم يبلغ، بعد، درجة الاجتهاد ينال الشهادة بالمرحلة التي اجتازها، أما إذا كان الطالب قد بلغ درجة الاجتهاد والعدالة فإنه يطلب من المرجح الأعلى إجازة بذلك. لأن الذين يبلغون درجة الاجتهاد هم قلّة، بل هم نخب الطلبة. فيكونون قد واظبوا واجتهدوا وناقشوا بفكر عميق، فعُرِفَتْ سيرتهم العلمية وكفاءتهم العقلية والذهنية، ثم يُجرّبون في تدريس الصفوف التي هي دون مرتبة الاجتهاد لتبرز كفاءاتهم أكثر وتتبلور مستوياتهم، هذا بالإضافة إلى سلوكهم الشخصي في مراحل الجامعة حيث إن كل أستاذ يعرف طلابه ونشاطهم وسلوكاتهم كما أن كل طالب يعرف مزايا وسيرة زميله الآخر لذلك فعندما يستجيز طالب الاجتهاد، فإنه يُجاز ويُنوّه عنه شخصياً وبعلمه وبكفاءته وبتقواه وورعه كما يُلتمس من المسلمين الأخذ برأيه واجتهاده. ويستطيع تمثيل المرجع الأعلى في كل مكان أما إذا كان المستجيز، على مستوى الجهاد، لم يحظ بثقة أساتذته وهم من المجتهدين وعلى رأسهم المرجع الأعلى - وكان دون ما يظنه بنفسه. ينصح «بالتأخر في النجف ريثما تكتمل قواه العلمية، فيتمثل إذا أمكنه ذلك»[1] ولا يُجاز إلّا بعدما يُعاود نشاطه ويعمل بجد أكثر لتحصيل أكبر حتى يُسدَّ النقص وتُملأ الثغرات التي حالت دون إعطائه الإجازة.

إذن، يُستفاد ممّا تقدم بأن النجف الأشرف لا تمنح الشهادة، ولا الإجازة إلّا للمستحقين فعلاً، فالطالب في مراحل حياته الجامعية يبقى تحت مراقبة صامتة لنشاطه العلمي ولسلوكه الشخصي. كما أن هناك هيئة مراقبة سرّيّة من قبل المرجع تنظر في جميع الأمور، وتراقب سير الطلاب العلمي واجتهادهم، وسلوكاتهم الشخصية، وتتعاون مع الأساتذة في معرفة أحقية الطالب للشهادة أو عدمها. وتدقق في أهليته للمستوى الذي يطلب الشهادة فيه. لذلك فلا يستطيع الشيخ أو الأستاذ منح الشهادة للطالب دون المرور على جهاز المراقبة ثم المرجع الأعلى الذي يمنح أو يمنع. لذلك لا تمنح الشهادة والإجازة إلّا لمستحقيها والجديرين بها، لكي لا يشكل ذلك خطراً على المسلمين. من هنا فإن منح الشهادة والإجازة لغير مستحقيها تشكل ظلماً من قبل المانح وخيانة للدين

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١٤٨.

والمسلمين، لأن الممنوح سوف يُكوّن خطراً على الرسالة السماوية وضرراً، لأنه بمظهره الديني، وبشهادته التي يعرضها تدفع الناس إلى الثقة به، وهذه الثقة قد يستخدمها، كما هو المعروف عن فقهاء السلاطين وعلماء القصور، لبلوغ أغراضه وغاياته الشخصية من جهة ويجتهد من جهة أخرى بما ليس له به علم، فقد يتكون من ورائه جيل جاهل يعتد بالدين ولا يعرف حقيقة الدين. «إن النجف تهتم في تربية الفكر وتهتم في تربية الروح وتبعث في نفس الطالب قوى الخير بأنواعها فيصبح بعيداً عن الحياة الانتهازية... إن النجف تطبعه بطابع الخير حتى يصبح يرى الكذب من الكبائر حتى في مقام المجاملة ويرى الخداع من الكبائر حتى إذا كان يجلب له المنفعة... إن العلماء ملوك المؤمنين... وهل يحسن من الملك أن يخون الرعية...»[1] إذن لا تخون النجف رعيتها، ولا تمنح إجازة إلاَّ لمتفوّق، ولا تعطي شهادة إلاَّ بحدود ما وصل إليه الطالب. «يفعلون ذلك تعزيزاً للعلم والدين والتماساً لرضا الله سبحانه ويرون ذلك حقاً من حقوق الطالب ومن حقوق المجتمع. أما كونه حقاً من حقوق الطالب، فلئلا يُغمط حقّه وفضله، وأما كونه حقاً من حقوق المجتمع فليقيموا الحجة بإرشادهم إلى اتباع من ينتفعون به باتباعه»[2].

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص١٤٧.
(٢) المرجع نفسه ص١٤٧.

الفصل الرابع
النجف والترويج المذهبي

لم يقتصر دور علماء النجف على التربية والتعليم ضمن إطار النجف، بل تعدّى ذلك إلى القيام بعمل لا يقلّ شأناً وأهمية عن الدور الأول: وهو دور الترويج لمذهبهم، والوعظ في مناطق من العراق ولا سيّما بين القبائل. هذه القبائل التي هاجرت من جنوب شبه الجزيرة العربية وغيرها كانت تعتنق المذهب الإسلامي السني، ثم وبفعل الدعاة ونشاط الوعاظ الشيعيين، اعتنقوا المذهب الشيعي.

ومن هذه القبائل المهمة نذكر: قبية الخزاعل التي تشيّعت منذ مئة وخمسين سنة، قبيلة تميم تشيّعت منذ ستين سنة، كعب منذ مئة سنة، ربيعة منذ سبعين سنة، البو محمد، بنو عمير، الخزرج، شمّر، طوجا، الدفافعة، بنو لام، آل الأقرع، البدير، عنق، الجبور والشليمان. «وقد عزا المؤرخون العراقيون في القرن التاسع عشر هذه الظاهرة - اعتناق القبائل النازحة المذهبَ الشيعي - إلى نشاط الدعاة والوعاظ الشيعيين الذين كانوا يغادرون الأماكن المقدسة مثل النجف وكربلاء وسامراء للعمل التبشيري فيها... وعن قبيلة زبيد أنها كانت أصلاً قبيلة سنية، غير أنها أصبحت شيعية بفضل نشاط الدعاة الذين عملوا بين ظهرانيهم، مع العلم أن الدعاة الشيعيين يتدربون على هذا العمل ويمارسونه بجدّ وكفاءة»[1].

---

(١) مرجع سابق، النفيسي ص٦٩.

ولقد اتسع مهد الشيعة في العراق رويداً رويداً، حتى زاد على نصف السكان عامة وهذا التزايد أهاب بابن سند البصري برسالة إلى الباب العالي العثماني في القرن التاسع عشر «بالتماس. . . يطلب فيه وضع حدّ لهذا النشاط التبشيري، وذلك، بإيفاد علماء من السنة إلى القبائل والأرياف العراقية حيث لم يبلغ النشاط الشيعي بعد ذروته كي يتعهدوها بالتعليم الديني السني»[١].

ويركز الدعاة الشيعيون في نشاطهم التعليمي بين القبائل على مسألتين مركزيتين وبأسلوب خالٍ من التعقيد، يسهل فهمه على العامة، ولا سيّما على القبائل البدوية التي كانت تعيش عفويتها وفطرتها.

وهاتان المسألتان اللتان ركّز عليهما الدعاة الشيعيون هما:

أولاً: سيرة أهل بيت الرسول، وتعيين موقعهم عند الله ورسوله، آتين على ذكر الآيات القرآنية وإيراد الأحاديث النبوية التي تُمجّدهم وتظهر مناقبيتهم، وأهليتهم، وعلومهم، وشرعية حقّهم في الخلافة بعد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم. كما يشدّد الدعاة على وجوب اتّباعهم، والتمسّك بهم، ثم الأجر الذي يناله الناس عقب ذلك عند الله ورسوله.

ثانياً: يركز الدعاة أيضاً على الذين اغتصبوا حق آل البيت، واستبدوا بهم وتفننوا بقهرهم ـ خلاف ما أوصى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بعدما عبث المغتصبون بأمور الدين، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، وفشا ظلمهم بين الرعية (كمعاوية بن أبي سفيان) وعادوا بالناس إلى جاهليتهم الأولى بعدما أخرجهم منها الرسول، وطهّرهم الدين الجديد من رجس عصبيتها وأصبح «المؤمنون إخوة»[٢].

ثم يركز الدعاة على شجاعة الإمام علي بن أبي طالب وبطولاته الخارقة، وفصاحته التي لا تفوقها سوى فصاحة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثم على زهده، وعدالته، وعصمته، وعلى مسيرة بقية الأئمة (ع) التي تعكس مسيرةَ جدّهم

(١) مرجع سابق، النفيسي ص٦٩.
(٢) سورة الحجرات آية ٨.

الإمام عليّ (ع). «والغاية من ذلك عرض قضية الشيعة ـ لا لرفعها إلى مجلس قضاء. بل لطرحها يوماً بعد يوم أمام عامة الشعب فتستأنف طريقها إلى مشاعرهم وأحاسيسهم الدينية».

والدعاة، يعرضون قصة المبارزة بلغةٍ مثيرة، وأسلوب قصصي جذّاب ثم يتلون ما قيل فيها من شعر الشعراء، وأحاديث الركبان التي تضرب على أوتار مناقبية البدوي، وشغفه بالفروسية، وعبادته للبطولة الخارقة، والشجاعة الفائقة، فيمتلىء البدوي ولعاً بهذه الرموز، ويتخذها مثلاً عليا، ثم ينصاع كلياً لبقية ما يريد الداعية قوله ونشره بلغة بسيطة.

ولمأساة كربلاء وسرد وقائعها وما جرى من بطولات نادرة، أبلغ التأثير وأشدّ الوقع على مشاعر ووجدان البدوي.

ويُظهر الداعية مقام الحسين من النبي، ومن صحابة رسول الله، ثم يظهر أصحاب الحسين إخواناً خلّصاً، يتبارون في مقاتلة المعتدين والعابثين بالدين الحنيف وأهله، حتى الشهادة.

وهؤلاء الشيعة الجدد من القبائل وغيرها سيكون لهم الشأن السياسي والعسكري الخطير فيما ستتخذه المرجعية الدينية في النجف، من قرارات سياسية، وعسكرية، وسوف يشكّلون قوّة ضاربة ضد المستعمرين الإنكليز ساعة يدق نفير الجهاد المقدس، ومركز الثقل في المعارك والحروب التي قادتها وخاضتها النجف ضد المستعمرين. (وهذا ما سوف ندرسه مع بعض التفصيل في «دور النجف السياسي»).

أمّا الوعّاظ، والدعاة، الذين تستخدمهم المرجعية العليا للترويج المذهبي، فإنهم على مستوى علمي ديني عال. فإنهم وإن لم يكونوا قد نالوا درجة الاجتهاد ولكنهم من الفريق الخارج الذي أسلفنا في الحديث عنه، مرتبة تؤهله «لرتبة أستاذ ومدرّس في النجف الأشرف، وتؤهله لأن يكون وكيل أو إمام جماعة، وواعظ ومرشد في خارج النجف الأشرف»[1].

---

(١) مرجع سابق، شمس الدين ص٦٧.

ثمَّ إنَّ المرجعية في النجف، أرسلت إلى كلّ من لبنان، وسوريا، وتركيا وأفغانستان وغيرها، دعاتها ووعّاظها.

هؤلاء الدعاة يعتبرون سفراء للمرجع الأعلى في مناطق خارج النجف، فيزوّدهم بالإرشادات والنصائح ويوجههم أن يكون عملهم مخلصاً لله، لا تشوبه المنفعة الذاتية، وعلى الله الأجر.

فلم تقتصر حركة الترويج المذهبي على العراق، وإنما تعدتها إلى هذه المناطق الأخرى التي ذكرنا. ففي سنة ١٣٦٧ هـ كلّف المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم، الشيخ حبيب آل إبراهيم بزيارة العلويين في طرابلس، والعمل على إدخالهم في حظيرة المذهب الشيعي الإمامي بواسطة الوعظ والإرشاد وتبيان الحقيقة لهم، حقيقة ما يعتقدون ثم حقيقة المذهب الإمامي. ولقد «اهتمَّ السيد الحكيم» بالعلويين غاية الاهتمام، وأجرى للحجة الشيخ حبيب آل إبراهيم مئة دينار كل شهر من بعض التجار المحسنين في بغداد إلى سنة واحدة، وقد استرفدنا عدداً من شبابهم لطلب العلم في النجف، وكلّفوا الحكيم معنوياً ومادياً أكثر ممّا يُتصور. . .»[1].

ونقف هنا أمام شهادة أحد تلامذة السيد الحكيم (المرجع الأعلى في النجف)، كشاهد عيان في دور النجف التربوي الاجتماعي في العراق وخارجه، يقول:

«. . . ومن أولياته أيضاً أنه لم يقبل الطلاب الأفغانيين الذين يغادرون بلادهم إلى النجف قبل إتمام دراسة السطوح، وساعدهم على إنشاء مدارس دينية في بلادهم، وأمدّهم بالكتب الدراسية، وأخبرني السيد حسن البلخي، أنه (أي السيد) أنشأ مدرسة سمّاها «المحسنية» وأن مدارس أخرى أنشئت في حواضر أفغانستان بهذا الاسم. . . ومن أولياته، أنه هو أول من حاول تعيين عالم شيعي في القاهرة يجمع كلمة الشيعة هناك ويكون همزة وصل. . . ومن أولياته أنه أول من أرسل عالماً شيعياً إلى بلاد الشيعة في تركيا. . . ومن أولياته أنه أول رئيس

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص٧٧.

ديني في النجف بذل الجهد في سبيل إنقاذ العلويين دينياً الذين يمثلون ثلث الجمهورية السورية»[١].

نستفيد ممّا تقدم بأن دور النجف التربوي الاجتماعي تجاوز الحدود الجغرافية التي تقبع ضمنها مدينة النجف، تجاوز الإطار الجغرافي إلى أقطار إسلامية نائية، تباين بعضها معه لساناً وعادات وتقاليد، وذلك لأن الواجب الديني يقضي بكسر طوق الحدود المادية من حيث إن الدين الإسلامي، كان وما زال، دين جميع الناس في كل أنحاء الأرض، دانيها وقاصيها على مبدأ التوحيد، مبدأ العدل والمساواة حيث لا فضل لعربي على أعجميّ إلاّ بالتقوى. وإذا كان المؤمنون إخوة فهذه الأخوّة في الدين ليست وشيجة بين فرد وآخر أو بين جماعة وأخرى في حدود بيئية واحدة وحسب، بل إن وشائج الأخوّة الدينية، وأواصر القربى الإسلامية تشدّ جميع الأقطار الإسلامية بعضها إلى بعض، وهذا الانشداد بين الإخوة هو واجب ديني ومطلب توحيدي. وهذه الأقطار ما تمزّقت وأصابها الشلل إلاَّ بعدما تخلّت عن وشائج الأخوّة الدينية وهمدت في أركانها وخبت في أوصالها جذوة الإيمان واليقين بالتوحيد وبمبدئه العادل.

لا يمكننا أن نعتبر، حسبما رأينا، بأن النجف تنحصر مهمتها بالتعليم الديني في حدود الجامعة أو بحدود المدينة. بل نستخلص ممّا تقدم بأن العلاقة بين النجف والشيعة هي علاقة مترامية الأطراف لا تضيق بحدود المساحات الجغرافية والمسافات المادية:

إنما بين النجف وبين الشيعة رباطات روحية، ليس باليسير التشويش عليها أو زعزعتها، لذلك فإن العلاقة بين النجف والشيعة في كل أنحاء المعمورة استمرّت وتستمر في سياق التواصل الروحي، والمادي، والسياسي أيضاً، ولم تقتصر صلة النجف عامة، والمرجعية خاصة على إحكام أواصرها مع طلبة العلم فقط، بل تعدّتها إلى الانخراط في صفوف العامة والخاصة، في إطار المهمة التربوية الاجتماعية والسياسية، وهذا الانخراط يتم عبر المجالس الحسينية في عاشوراء، وفي ذكر وفاة النبي ـ أو وفيات الأئمة في الأعياد ـ الدينية وفي مناسبات

---

(١) مرجع سابق، آل الفقيه ص٧٥ ـ ٧٦.

اجتماعية وسياسية. ولاستقلالية المرجعية الدينية عن أي سلطة قائمة محلية أم غير محلية ولشروط ومستويات، سبق القول بها، فإن هذا كان ينعكس على المجموع الشيعي العام محلياً كان أم عالمياً. فالشيعة الإمامية يتطلعون إلى النجف لدى كل توجّه وإزاء أية مشكلة وعلى هذا لا يحتفظ الزعماء الدينيون من الشيعة بسلطتهم الروحية على جماهير الناس في مجتمعاتهم، بتوليهم الشؤون الدينية الشيعية، وبرعايتهم لأعيادهم الدينية، والمهرجانات التي تتسم بصبغة دينية، والتي تقام في مزاراتهم ومقاماتهم. إذ إنه لا بدّ من أن يكون في كل لواء تكون غالبية السكان فيه من الشيعة، عدد من المزارات المقدسة ومقامات تضم قبوراً لأولياء[1] هذه المزارات الموجودة في منطقتي الفرات الأوسط والفرات الأسفل، لا ينقطع الشيعة الإمامية عن زيارتها، إن من الداخل أو من الخارج. فهم يتواصلون معها نيلاً للبركة والثواب. والزيارات لا تنقطع على مدار العام كما تتواصل الاجتماعات الدينية ويعقب ذلك تقديم النذور المعقودة لصاحب المزار عن مسألة من المسائل الشخصية.

على أثر ذلك نلمس ما لهذه المزارات من أهمية في شدّ جموع الشيعة بأمانيها وإيمانها نحو النجف التي تحمل لواء مذهب أصحابها وتتمثل سلوكهم وسيرتهم مضطلعة بنيابة ولاية الفقيه، وهذا ما حصر المرجعية الدينية في النجف وأكسبها نفوذاً دينياً وسياسياً اخترق الحدود والسدود، الجغرافية المحلية، إلى الأمصار النائية التي ترى بالنجف الملاذ الروحي والمتنفس الاجتماعي الذي يلجأ إليه القادة والزعماء في حالات التأزّم السياسي والاجتماعي.

هنا تتمحور أمامنا علاقة التواصل، وتنقشع صورها بين الشيعة الإمامية والنجف كمرجعية دينية. هذه العلاقة تتم عبر حركة اتصال دائرية تفاعلية، استلهاماً وعطاء ورعاية في إطار البنيان الرسولي الإسلامي العام. ومن هنا نرى أن «حملة الشرع لم ينقطع لهم سياق أو تواصل إن كان مع الإطار العام أو الخاص الإسلاميين، فقد كانوا الأمناء على الدعوة والرسالة[2].

---

(١) مرجع سابق، النفيسي، ص٧٢.

(٢) منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة ص٣٧.

لقد طفق قطار المرجعية الدينية يأخذ طريقه السوي في خضم الصراعات المصيرية، غير عابىء بما يعقب ذلك من آلام، أو قتل، أو تشريد، حتى إذا دخل القرن العشرون تصبح النجف قلعة الصمود الإسلامي العام، ومنارها الذين نشر الوعي والتحرّر والصمود، وبطلها الذي قاد المعارك وخاضها تحت شعار واجب الجهاد المقدس.

الفصل الخامس
الموارد المالية لدى الأئمة ولدى نوابهم بعد الغيبة

كان الأئمة ينفقون على تعليم طلابهم، وإعانة الفقراء والمعوزين منهم من الحقوق الشرعية التي يتسلمونها من مواليهم وشيعتهم. ومن بين هذه الحقوق وأهمها: الخمس الذي يعتبر من حق الله والرسول وأهل بيته. ولقد كتب الإمام الرضا (ع) إلى أحد مواليه «إن الخمس عوننا على ديننا، وعلى عيالنا، وعلى موالينا، وما نفك ونشتري من أعراضنا ممّن نخاف سطوته فلا تزووه عنا، ولا تحرموا أنفسكم دعانا ما قدرتم عليه فإن إخراجه مفتاح رزقكم»[1] ولم تكن الموارد المالية تقتصر على جانب وحيد بل كانت هناك عدة جوانب: كالزكاة وعائدات الأوقاف، والغنائم، وما كان يوصي به أغنياء الشيعة الإمامية من أموالهم أو بها كلها عقيب وفاتهم. «يضاف إلى ذلك أن وجود أوقاف عند أسلاف الإمامية في عصر الأئمة يبيح لنا أن نستنتج، أن قسماً من واردات تلك الأوقاف الإمامية التي حبست لأغراض تعليمية في العهد البويهي حين أصبحت الأحوال السياسية ملائمة لوجود تلك الأوقاف، يمكن أن تعد تقليداً لسنة سابقة كان يعمل بها في عهد الأئمة (ع)»[2].

ولقد استهدف الأئمة عبر تعليم شيعتهم، رضا الله. ولم «يؤثر عنهم أنهم أخذوا أجرة على تعليمهم. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا مستقلين اقتصادياً فلا

---

(١) مرجع سابق، د. فياض ص٤٩ عن الطوسي، الاستبصار ج٢ ص٣٤.
(٢) المرجع نفسه ص٥١.

حاجة فيهم لأخذ الأجرة. أما الشيوخ فيبدو أنهم كانوا يسدّون معظم نفقاتهم من المهن الحرة التي يمتهنونها... وربما تلقى بعض الشيوخ من الأئمة أو من وكلائهم بعد نهاية عصرهم معونات مالية من الحقوق الشرعية التي كان يستوفيها الأئمة في حياتهم ووكلاؤهم أو المجتهدون، كما يسمّون اليوم من بعدهم...»[1].

ومن هنا يمكننا أن نستخلص أن الأئمة كانوا يقدمون المساعدات المالية لطلبة العلم المعوزين من الحقوق الشرعية التي ترد عليهم من شيعتهم «وممّا يؤيّد ذلك أن أحد الأئمة جعل الصرف على أمور الدين من بين أوجه نفقات الحقوق الشرعية. وقال عبد الله السكوني للإمام محمد الباقر: إني ربما قسمت الشيء بين أصحابي أصلهم به فكيف أعطيهم؟ فقال: أعطهم على الهجرة في الدين والفقه والعقل»[2].

ولم تقتصر الموارد المالية على الحقوق الشرعية عند الأئمة وشيعتهم الإمامية بعدهم بل كانت هناك هبات كثيرة ومتنوعة يقدمها المحسنون من الشيعة لتؤدي قسطاً من نفقات التعليم ولقد (حثَّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم المؤمنين على وجوب إعانة الطلبة. روى الديلمي أن النبي قال: «من أعان طالب العلم بدرهم بشّرته الملائكة عند قبض روحه بالجنة وفتح الله له باباً من نور في قبره»)[3].

أما الموارد المالية التي يعتمد عليها علماء النجف في إنفاقهم على التعليم، وطلبة العلم، فهي امتداد للموارد ذاتها التي كانت على عهد أسلافهم من الأئمة، ووكلائهم والتي كانت تتشكل من الحقوق الشرعية (زكاة وخمس ومال الأوقاف الشيعية والهبات وغيرها). وربما ازدادت أو كانت أوفر حالياً ممّا كانت عليه في عهد الأسلاف، نظراً لملاءمة الظروف الاجتماعية والسياسية واتساع المهد الشيعي في العالم كما لن ننسى أن في النجف طلاباً، يتلقون التعليم

---

(١) مرجع سابق، د. فياض ص١٦٥.
(٢) القمّي، من لا يحضره الفقيه ج٢ ص١٨.
(٣) مرجع سابق د. فياض ص١٧٢ عن إرشاد القلوب ج١ ص٢٧٥.

الديني، من مختلف القومياتِ: هندية، باكستانية، أفغانستانية، إيرانية، لبنانية، سورية وغيرها بالإضافة إلى الطلبة العراقيين.

كما لن ننسى أيضاً مقبرة وادي السلام ـ التي مرَّ ذكرها آنفاً، وما لها من تأثير في حمل الوفيات من الأمصار البعيدة، والقريبة، ودفنها فيها، وما يعقب ذلك من نتائج مادية وحضارية ويزيد على ذلك تأثير وجود المرقد العلوي في النجف وما تنهال عليه من نذور وهبات من أموال نقدية، وأشياء ثمينة، كالسيوف الذهبية، والخناجر، والحلي، وغيرها وهذه تتكرر على الدوام في مدار العام. ولقد راوحت الميزانية السنوية للمرحوم المقدس السيد أبو الحسن الأصبهاني بين الخمسمائة والستمائة ألف دينار حتى قال المرحوم عبد الله بن الحسين، ملك شرق الأردن: «إن هذا يزيد على ميزانية بعض الدول الصغيرة في العالم»[1].

أما التعليم في النجف فهو كما ذكرنا، بالمجان. ويتمثل علماء النجف سيرة وسلوك أئمتهم في الإنفاق على التعليم، وعلى الطلبة الفقراء، وذلك ابتغاء وجه الله، والأخذ بزمام الدعوة الإسلامية في مسارها الصحيح.

أما الأستاذ علي البهادلي، فقد تحدث عن الحوزة في رسالة ماجستير جاء في أحد فصولها:

(١) مرجع سابق، شمس الدين ص٥٥.
(٢) مرجع سابق، النفيسي ص٧١.



لمحة عن النظام الدراسي العام
في الحوزة العلمية بالنجف[1]

أن نتحدّث عن النظام الدراسي في الحوزة العلمية بالنجف في عصرنا الحاضر دون ربطه بالنظام الدراسي العام للمسلمين الشيعة الإمامية في ماضي عصورهم. فهو حديث ناقص، لا يمكن من خلاله إعطاء الصورة الواضحة التي تبيّن معالم نظام التعليم في نطاق الحوزة العلمية.

والحديث عن الحاضر التعليمي في النجف يتطلب ربطاً بالماضي التعليمي الإسلامي إذ «أسهم في إرساء قواعد النظام التربوي وتطويره أعداد كبيرة من العلماء من مختلف الطوائف والمذاهب» . والإمامية من تلك المذاهب الإسلامية حيث «لا يختلف النظام التربوي عند هذه الفرقة من حيث الشكل، عن النظام التربوي الإسلامي العام، وإنما يتفرد عنه ببعض السمات الخصوصية في منهج البحث، وفي بعض موضوعات الدرس .

ولعلّ القول بالتفرد ببعض السمات يفرض سؤالاً يمسك بخناق الباحث عن تلك السمات أولاً، وعن أسباب مثل ذلك التفرد. وذلك ما يدعو إلى الحديث عن مسألة الفكر العَقَدي الإمامي، لِما له من تأثير، وما له من دور في توجيه التعليم لدى الإمامية إنْ في الماضي أو في الحاضر. بحيث عاد التعليم لدى الإمامية يرتدي حلّة خاصة يمكن أن تضفي عليه بعض الملامح والخصائص.

---

(١) علي البهادلي ـ الحوزة العلمية في النجف من ص ٢٥٧ إلى صفحة ٢٨٥.

لقد تصدّى الدكتور عبد الله الفياض[١] «لدراسة العوامل المؤثرة في توجيه التعليم عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة، فأجملها في نقاط ثلاث:

أولاً: اعتقاد الإمامية وأسلافهم في علم أئمتهم ورسالة الأئمة (عليهم السلام) في تبليغه لشيعتهم.

ثانياً: العامل السياسي، إذ لجأ الأئمة (عليهم السلام)، والإمامية، وأسلافهم في التستّر وعدم البوح بعلومهم أمام من يخالفهم في العقيدة، وأمام من له صلة بالسلطان بسبب المطاردة والتنكيل والمضايقة، وهو ما يُعرَف في مفردات التعامل الشيعي بـ (التقيّة).

ثالثاً: الموارد المالية لدى الأئمة ونوابهم، إذ كان الأئمة (عليهم السلام) ونوابهم بعد غيبة المهدي (عليه السلام) يتسلّمون الحقوق الشرعية من الشيعة وأسلافهم وينفقون منها على التعليم، وكان الخُمس من أهم تلك الحقوق.

ومن المهم بعد بيان تلك العوامل أن نضع أيدينا على السبب الذي يقف وراء عدم اتخاذ التعليم لدى الإمامية الصفة الرسمية منذ العصر الأموي حتى اليوم، وهو يتمثل في أن السلطات منذ ذلك الوقت لم تكن تعطي علوم آل البيت (عليهم السلام) الاهتمام الكافي، وبمرور الزمن يتأكد ذلك حتى يعمل «السلاجقة ولأول مرة في تاريخ التعليم الإسلامي بتأسيس مدارس الدولة. فصار الناس يشعرون بصبغة حكومية يُراد بها السيطرة على العلماء»[٢]. بحيث عُدّ مثل ذلك الإجراء بداية مرعبة لتحول العلماء والفقهاء إلى موظفين ومستخدمين في دوائر الأوقاف، وإذا ما أضفنا لذلك كله حصر الاعتراف الرسمي لاحقاً بفقه الأئمة الأربعة، أدركنا جيداً سبب اتخاذ الشيعة الإمامية معاهد للعلم خاصة بهم، مثّلت تلك المعاهد الوجه المشرق لعلوم الإسلام، وفقه آل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم. ولعلّ الحوزة العلمية في النجف تعبّر اليوم عن الامتداد

---

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي بكليّة الآداب ـ جامعة بغداد. في كتابه: تاريخ التربية عند الإمامية، ٤٥ وما بعدها.

(٢) علي: بين الجامعات والحوزات، ١٣ (مخطوط). وقد ورد عنوان هذا المصدر في قائمة مطبوعات مؤسسة البلاغ في بيروت، للعام (١٤١١ هـ/١٩٩١ م).

الحقيقي لكل ذلك التراث التعليمي العريق، وتحمل الكثير من خصائصه ومميزاته.

فهل يوجد نظام تعليمي معيَّن في الحوزة العلمية في النجف أم لا؟ وإذا وُجِد، فما هي خصائصه؟ وإذا لم يوجَد فلماذا؟.

لقد كان المرحوم الشيخ محمد رضا شمس الدين مُحِقّاً حين قال مجيباً عن مثل ذلك التساؤل: «. . . يكون الجواب مرة بالنفي (لا) لأن نظامها لا يشبه نظام الجامع الأزهر، أو المدارس الحديثة اليوم، ويكون الجواب مرة أخرى بالإيجاب (نعم). نظراً لما تضم حوزة النجف من نُظُم خاصة كنظام الزي، والكتب، واللغة، والمال، والامتحان، والشهادات، والعطل الدراسية، إلى غير ذلك ممّا هو من صميم النظام وجوهره وحقيقته»[1].

ولإيضاح كل ذلك ترتسم أمامنا عدة عناوين لا بدّ من معالجتها بشيء من الشمول وهي:

- شروط الانتساب.
- نظام الزّي.
- طريقة التدريس ومميزاته.
- المنهج الدراسي.

١ ـ شروط الانتساب للحوزة العلمية في النجف:

لعل أكثر الأسئلة إلحاحاً في ما يتعلق بالنظام التعليمي الحوزوي بالنجف هو السؤال عن الشروط المطلوبة للانتساب لتلك الحوزة العلمية، وإذا كان ذلك السؤال هو الأكثر إلحاحاً من بين عدة أسئلة، فإن في الجواب يكمن الاستغراب حتماً، حين نجيب بأن الانتساب للحوزة العلمية في النجف ليس له من قيد أو شرط. . . !

نعم: ليس من قيد وشرط، فبإمكان أي إنسان كائناً مَنْ كان أن يقصد تلك

---

(١) شمس الدين: حديث الجامعة النجفية، ٤٨ (بتصرّف محدود).

المدينة، ويتفق مع أي أستاذ حوزوي فيتلقّى على يديه العلم، وبإمكانه كذلك أن يذهب إلى أي مدرسة من المدارس الكثيرة المنتشرة بالنجف ليحصل من إحداها على الرعاية السكنية المجانية التي تمنحها تلك المدارس عادة لطلاب العلم في الحوزة. وهكذا قل في الراتب الشهري، إذ بإمكان مثل ذلك الطالب الذهاب إلى المسؤول المالي في الجهاز الإداري للمرجع الأعلى، فيدوّن اسمه ضمن سجلات الطلاب الذين يشملهم المرجع بعطائه المالي.

ولتأكيد هذا الاتجاه في الانتساب للحوزة نقرأ ما كتبه الشيخ محمد جواد مغنية إذ يقول: «يدخل الطالب إلى النجف فلا يُسجل اسمه ولا صفته في سجل، بل لا يسأله أحد عن هويته واسمه إلاّ للتعارف فقط، ويُترَك له الخيار في تعيين الكتاب الذي يدرسه والرفيق والأستاذ»[١].

وفي الاتجاه نفسه نقرأ عن السيدة وداد سكاكيني التي زارت النجف فسجّلت ضمن ما سجّلته أن «الدراسة في النجف الأشرف مفتّحة الأبواب متعددة الحلقات (. . .) دون أن تلاحق الطالب فيها قيود أو حدود عُرِفت بها الجامعات الدينية والمدنية في زماننا»[٢].

وهذه الحرية في الانتساب للحوزة العلمية هي السمة البارزة في النظام التعليمي العام للحوزات العلمية لدى الإمامية، عبر تاريخ ضاربٍ في القدم.

وإذ حافظت النجف على هذه السمة حتى هذا اليوم، فإن بعض الحوزات العلمية الإمامية الأخرى قد خرجت بعض الشيء عن هذا التقليد المتوارث، إذ راحت تضع بعض الشروط في قبول الطلاب فيها، وانضمامهم إليها[٣].

---

(١) مغنية: النجف والامتحان. مجلة العرفان (صيدا) مج/٤٥، ج/١ ربيع الأولى ١٣٧٧هـ/تشرين أول ١٩٥٧ م.

(٢) سكاكيني: إلى النجف الأشرف، مجلة العرفان (صيدا) مج/٥٩ ج١ ـ ٦، رجب ١٣٩١ هـ/آب ١٩٧١ م.

(٣) على سبيل المثال فإن (معهد الشهيد الأول للدراسات الإسلامية) في لبنان الذي أسّس سنة (١٣٩٨ هـ(١٩٧٨ م) يشترط لقبول الطالب فيه:

١ ـ نجاحه في المقابلة الشفهية.

٢ ـ أن يكون حاملاً لشهادة البكالوريا قسم أوّل، فما فوق.



جامعة النجف الدينية (كلانتر) من الداخل في حي السعد



نعم يمكن للقائمين على الحوزة العلمية إذا ما تبين لهم أن انتساب فلان من الناس إلى الحوزة العلمية غير راجح أنْ يمنعوا عنه بعض ما يُعطى لغيره من الطلاب. «مثلاً يستطيع وليّ المدرسة أن لا يعطي غرفة للطالب إذا كان يعتقد أن انتسابه للحوزة غير راجح، ويستطيع طرده منها، وذلك عملاً بولايته وسلطنته، لأن الوليّ مسلّط على النظر في مصلحة المدرسة، ورعاية أهدافها، ويستطيع المرجع الأعلى أن لا يُدْخِله في الجرايات والمرتبات التي تُعطى للطلاب عملاً بولايته ورعايةً للمصلحة»[1].

ولكن هل أن مثل تلك الإجراءات تحول دون دخول وانتساب أمثال ذلك الطالب إلى الحوزة العلمية؟ كلا، إذ قد يُمنَع من السكن في المدارس الدينية، وقد يُمنَع عنه الراتب والحقوق الشرعية، ويظل في المجتمع الحوزوي دون أن يتمكن أحد، سواء من رجال الحوزة، أو من رجال السلطة على إجباره على مغادرة المجتمع الحوزوي.

وإذا كنا نرى أن مثل ذلك الوضع هو نتيجة الفوضى وعدم تنظيم الحوزة، إلّا أن البعض ممّن كتب عن الحوزة العلمية في النجف يرى أن «منع شخص من سكن النجف ومن شراء كتاب ليدرس به، ومن الاتفاق مع شخص ليدرّسه، فذلك ممّا لا يبيحه الإسلام لأن الناس مسلّطون على أنفسهم»[2].

ثمّة أمر لا بدّ من الإشارة إليه ما دمنا بصدد الحديث عن شروط القبول في الحوزة العلمية في النجف، وهو: أن الحوزة العلمية لا تشترط مستوى علمياً محدداً في مَن يرغب الالتحاق بها «فهي تستقبل أي طالب، وبأي مستوى، فقد ينتمي إليها من لا يُحسِن غير القراءة والكتابة، وقد ينتمي إليها من يحمل أعلى

= ٣ ـ أن يتراوح سنّه بين ١٨ ـ ٢٥ سنة، وبالإضافة لذلك خضوع الطالب فترة اختبار لمدة ثلاثة أشهر يحدّد خلالها الأستاذ مدى قدرته على الدراسة ومراقبة حسن سلوكه، من خلال تعاطيه مع الآخرين ومن ثم يُقبَل أو يُرفَض.

انظر: زيتون: الحوزات العلمية في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت، ٣٦ ما بعدها.

(١) الفقيه العاملي: جامعة النجف في عصرها الحاضر، ١٤١.

(٢) الفقيه العاملي: م. ن، ١٤١ ـ ١٤٢.

المؤهلات الجامعية في علم من العلوم»[1].

على أنه من المفيد القول: إن هذا الوضع في القبول والانتساب للحوزة العلمية في النجف هو الدّاء الذي تعاني منه، فمن غير المعقول والمقبول عدم وجود إدارة مركزية للحوزة تتولّى رفض أو قبول هذا الطالب أو ذاك، وبالتالي تحديد صلاحية هذا الطالب للانتماء إلى الحوزة أو عدم صلاحيته.

وفي ظلّ تعدّد مراجع التقليد في الحوزة، وبتعدّد المسؤولين عن المدارس الدينية، وفقدان التنسيق بين كل أولئك يستطيع من يُرفَض من هذا المرجع أن يجد له مرجعاً آخر يعتمد عليه في حاجاته المالية، ويجد بعد رفض متولّي هذه المدرسة إلحاقه بها مدرسة أخرى يوافق متولّيها على منحه الرعاية السكنية المجانية، ومثل ذلك خلل نتمنّى على المعنيين والمخلصين معالجته وإصلاحه.

١ ـ نظام الزّي:

هناك عرف جرى عليه طلاب العلم في الحوزة العلمية في النجف منذ أن أُنشِئَت حتى اليوم، وهو أن الطالب ما أن يقرر التفرّغ لطلب العلم فيها، فإن أول ما يقوم به هو ارتداء الزي[2] الحوزوي الخاص. وذلك الزي هو «العمّة والجبّة الإسلاميتين اللتين كان النبي (صلّى الله عليه آله وسلّم) يرتديهما والأئمة المعصومون (عليهم السلام)، والخلفاء الراشدون، وقد أخذ الإسلام زيّه هذا عن العرب وأمرائهم. إذ لم يشرِّع الإسلام زيّاً خاصاً، غير ما كانت عليه العرب الذين نشأ بين ظهرانيهم، وبدأ دعوته فيهم، ولذلك قيل في الحديث النبوي الشريف: (العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوا العمائم وضع الله عِزّهم)[3]. واستمر هذا الزي للتابعين وتابعي التابعين، وأشراف المسلمين، وعلمائهم ومحدّثيهم إلى عصر الخليفة الرشيد، الذي أمر فيه سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م أبو يوسف قاضي قضاة

(١) البستاني: مدرسة النجف، أدوارها العلمية وأطوارها الفكرية، ورقة رقم (٤٤٣)، مخطوط.

(٢) عُرِّف الزي لغةً بأنّه «هيئة الملابس، يُقال: أقبل بزيّ العرب، وجاءنا بزيّ غريب». انظر: مادة (زيا) في معاجم اللغة العربية.

(٣) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ١١٩.

الكوفة في عهده بتوحيد اللباس الديني وتخصيصه بعلماء الدين ونزعه عَمّن سواهم»(١).

إن لِبس العمّة والجبّة الإسلاميتين شأن معظم مَن يفِدُون لطلب العلم في الحوزة العلمية في النجف في الغالب، في ما يتحرّج البعض من لِبسها، ويؤجّل ذلك لحين إتمامه دراسة بعض الكتب النحوية والفقهية. وله في ذلك تعليل، ووجهة نظر تستدعي الوقوف هنيهة... فهو يرى: أن لبس العمّة وارتداء الجبّة يعني ضمناً ـ وفق الأعراف الحوزوية وتقاليدها ـ أن مرتديها يعلن للناس، ويقول لهم: اسألوني في شؤون دينكم اسألوني في أمور الحلال والحرام، لكأنّه يعلن للملأ: أنه نذر نفسه للعلم وللدين، ولذا نجد أن البعض يتحرّج من أن يتقمّص شخصية العالِم قبل أن يستكمل دراسة بعض الكتب التي تؤهله للإجابة عن بعض ما يردّه من الأسئلة، وكأني به يجلّ عمّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن تُحرَج في سؤال... أو تقف حائرة في شبهة.

ومن المفيد أن نشير إلى أن للبس العمّة والجبّة أعرافاً وتقاليد حوزوية عريقة تتمثّل في أن إسناد أمر وضع العمّة على رأس الطالب يتم فيه تحرّي أكثر العلماء ورعاً وتقوى. فيقوم ذلك العالِم بوضع العمّة على رأس الطالب بكل إجلال وخشوع، وبعد قراءة ما تيسّر من آيات القرآن الكريم وبعد الدعاء بالمأثور بالتوفيق والهداية والرشاد للطالب، وقد يقترن ذلك بتقديم شيء من المساعدة المالية للطالب إن كان من المحتاجين، وكان العالم من المقتدرين على المساعدة. وبعد وضع العمامة يتوافد زملاء الطالب عليه بتهنئته بارتداء تاج رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والدعاء له. أما فيما يرتبط بمكان ارتداء العمامة، فأغلب الطلاب يقصدون بيت المرجع الديني الأعلى ليضع لهم العمّة.

---

(١) شمس الدين: حديث الجامعة النجفية، ٤٩ ـ ٥٠ (نقلاً عن): كتاب تتمّة المنتهى في وقائع أيام الخلفاء. للشيخ عباس القُمّي، ص٢٤٦ (فارسي). وهنا أُشير إلى ما وقع به الباحث/ سلمان نزّال عند استعانته بالنص أعلاه ضمن رسالته الجامعية «الدور التربوي الاجتماعي والسياسي للنجف في مطلع القرن العشرين»، أنْ نَسَبَ النص خطأً إلى الشيخ محمد تقي الفقيه العاملي، صاحب كتاب جامعة النجف في عصرها الحاضر.

إلَّا أن الميسورين مادياً من الطلاب يقيمون حفلة خاصة بهذه المناسبة، إنْ في منازلهم الخاصة أو في غرفهم الخاصة ضمن المدارس الدينية، مستثمرين بعض المناسبات أو الأعياد الإسلامية الكبرى، كعيديْ الفطر[١]، والأضحى[٢]، أو الغدير[٣]، أو يوم المولد النبوي الشريف[٤].

ثَمّة تساؤل عن لون العمّة النجفية، وعلى أي أساس يتمُّ اختيار ذلك اللون؟

إن للعمائم في الحوزة العلمية في النجف لونين:
أولهما: اللون الأبيض.
ثانيهما: اللون الأسود.

«فالذي يُنْسَب إلى أهل البيت (عليهم السلام) يكون شعارهم العمّة السوداء، أمّا الذين لا ينتسبون إلى أهل البيت (عليهم السلام) فيكون شعارهم العمّة البيضاء[٥] ويسمّى المُعَمَّم بالعمّة السوداء من طلّاب العلم في الحوزة (سَيِّد)، أما من يلبس العمّة البيضاء فيطلق عليه (شيخ).

جدير بالذكر أن لون العمّة من الأمور التي لا يُستهان بأمرها إطلاقاً، ولا تسمح البيئة الحوزوية لأحد التلاعب فيها، وتجاوز ما تمّ التعارف بشأنه حولها، والأمر نفسه بالنسبة لِلقَبَيْ (شيخ وَسَيِّد)، إذ يجب أن يوضَع كل لقب في محلّه، ضمن حدود استعماله الصحيح.

---

(١) في الأول من شوّال من كل عام هجري.
(٢) في العاشر من ذي الحجة من كل عام.
(٣) يوم الغدير هو المصادف للثامن عشر من ذي الحجة. حيث ألقى الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في مثل ذلك اليوم خطبة الوداع في منطقة يُقال لها «غدير خُم» وجاء ضمن ما جاء في خطبة الوداع: ـ
«ألا من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم والِ مَن والاه، وعادِ مَن عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، فجاء الخليفة الثاني لعليّ قائلاً: بخٍ بخٍ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مسلمٍ ومسلمة» إلى آخر القصة.
للاستزادة يراجَع: الأميني: موسوعة الغدير في الكتاب والسنّة والأدب (١١ مجلد).
(٤) في الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، أو في الثامن عشر منه. كما يرى ذلك الإمامية.
(٥) القزويني: الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، ٢٥٥.

وقد خرج البعض من طلاب العلم في النجف عن المألوف من الزي الحوزوي، وخاصة أولئك الذين تسلّموا وظائف في الدولة (مدرّسين أو قضاة). فراحوا يلبسون (البنطلون) تحت الجبّة بدلاً من السروال الأبيض الفضفاض، ويستغنون أحياناً عن لبس العباءة. وفي تقديري أن في مثل تلك الممارسات إساءة كبيرة للعلم وللعمّة وللرسالة التي كُلّفوا بحملها. ولعلّ الأفضل لهؤلاء ترك الزيّ الحوزوي جانباً وارتداء ما يشاؤون بعد ذلك، إذا لم يستطيعوا ارتداءه بالشكل المهيب الذي ارتداه عليه علماؤنا العِظام[1].

٣ ـ طريقة التدريس ومميزاته في النجف:

لكي نتكلم عن خصائص شيء ومميزاته، فإن الموضوعية تقتضيك دراسته، ودراسة ما يماثله وما يسير موازياً له إن في الأهداف والمضمون، أو في الشكل على أقل تقدير. من هنا فحتى نعرف خصائص نظام الحوزة العلمية في النجف في المجال التعليمي يتعيّن علينا الاطلاع على خصائص الحوزات العلمية الأخرى في غير بقعة من أراضي المسلمين، إلّا أن ذلك وإن كان أملاً نتمناه، إلّا أن المجال لا يتسع لمثله في معالجة سريعة كهذه. لذا نحاول هنا عرض طبيعة النظام الدراسي السائد في الحوزة العلمية في النجف. آملين أن نكون قد وضعنا بين يَدَيْ من يأتي بعدنا ممّن يحب طرق موضوع كهذا، للتوسّع والنظر والتدقيق، أو مقارنته بالمؤسسات التعليميّة المثيلة.

إن أبرز خصوصيات الحوزة العلمية في النجف ما تنطوي عليه طريقة التدريس فيها، من جانب وفي أهدافها من جانب آخر. فطريقة التدريس في الحوزة لا تعتمد نظام السنوات الدراسية كما هو الحال في العديد من المعاهد العلمية الإسلامية أو المؤسسات الجامعية الحديثة، إنما لا تزال تمارس كما بُدِئَت على عهد الشيخ أبي جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٧ م). معتمدة نظام

---

(١) أُحيل مَن يريد التوسّع أو الكتابة عن العِمَّة إلى المصادر التالية:
١ ـ فيّاض: تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة، ١٢٩ و ١٨٠.
٢ ـ الشرقي: النجف: عاداتها وتقاليدها، ١٤٢ وما بعدها.
٣ ـ القزويني: الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، ٢٥٣ ـ ٢٥٥.

الحلقـات. وفي نظام الحلقـات يُسنِد الشيـخ (الأستاذ) ظهـره إلى إحـدى أعمـدة المسجـد أو إلى جداره ثم يـأتي الطلاب ليتحلقوا حولـه «ويفتتح الشيـخ الـدرسَ بـالبسملة وبالصـلاة والتسليم على الرسـول وعلى آله وصحبـه، وربما تـلا بعض آيـات من الذكـر الحكيم أو بعض أحاديث الـرسول (صلَّى الله عليـه وآله وسلَّم) التي تـحثّ الـطلاب فـيهـا عـلى طلب الـعلم لـلعلم، وعـلى التـواضـع فـي طلبه...»[١]... إلخ.

وتتشكـل مثل تلك الحلقـات الدراسيـة باتفـاق شخصي فـردي بين الأستـاذ وطـلابه بعـد أن يكـونـوا قـد اتفقـوا على اسم الكتـاب الـدراسي ووقت الـدرس ومكانه، ولعل في مسألة اختيار الطالب لأستاذه وحـريته في اختيـار الكتاب الـذي يدرسه خير فرصة لإثبات جدارته وفطنته، فإذا كان نشيطاً فإنه «قد يختـار له كتـاباً أفضل وأستاذاً أفضل والفاشل قد يختار ما هو دون ذلك»[٢].

فما أن يحين وقت الدرس المتفق عليه حتى يكون كل طالب قد أخذ مكانه فيشكِّل مع بقية زملائه حلقة مستـديرة «تحيط بـالأستاذ الجليـل، مفترشـة ما على الأرض في الجلوس بـدل الكـراسي والمنصّـات، ومـع هـذا التبسيط والجلوس المتواضع فإن لتلك الحلقات الجميلة من الهيبة والروعة ممّا لا نراه في غيرها من الحالات»[٣]. وهكذا يفتح الأستاذ كتـابه كمـا يفتح الـطلاب كتبهم ليبدأ الأستـاذ بالبسملة والصلاة على محمد وآله، ومن ثم يشرح مفردات بحثه، فيقرأ العبارة ثم يشـرحهـا وهكـذا بقيـة العبـارات، في درس يتـراوح وقتـه بين (٤٥) دقيقـة إلى الساعة.

وهناك خاصيّة في الدراسة ضمن الحلقات الحـوزويّة في النجف، ألا وهي الجو المُشبع بالحرية الكاملة، والذي يستشعره الطالب كما يستشعره الأستاذ سواء بسواء وما أيسر أن يجد الإنسـان في هذه الحلقـات المتواضعـة التي تُعقَد هنـا أو

---

(١) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ٣٧٤.
والفقيه العاملي: جامعة النجف في عصرنا الحاضر، ١٠٦، ١٠٧. (والنص للأول).
(٢) الفقيه العاملي، م. ن، ١١٠.
(٣) شمس الدين: حديث الجامعة النجفية، ٥٢.

هناك هذا الأستاذ الذي يتعرض بوقار لرأي العلّامة الحلي[١] مثلاً في الفقه، أو لرأي الشيخ الأنصاري[٢] في الأصول، ويناقشه مناقشة موضوعية هادئة. وذلك الأستاذ الذي يتعرض لرأي الجرجاني[٣] في مسألة بيانية وينتقده بعنف أو برفق، ثم يعرض لطلابه رأيه في المسألة. . . !

وما أكثر ما نجد الطلاب يتعرضون لشيوخهم في ما يبدو لهم من رأي عرضاً رفيقاً أو عنيفاً، وما أكثر ما يخرج هذا النقاش عن شكله الهادىء الذي ابتدأ به إلى نقاش عنيف وحاد، حتى يتفقوا أخيراً على وجه من الرأي أو يلتجىء أحدهم إلى أن ينزل عند رأي الآخر»[٤].

ويشبّه أحد الباحثين ما يسود من حرية فكرية ضمن حلقات الدراسة في الحوزة العلمية بالنجف يشبهها «بالطريقة الدراسية التي كان عليها الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) مع تلامذته»[٥] ثم يقارن الباحث نفسُهُ: مثل هذا الوضع بحالة الجامع الأزهر بمصر في هذا المجال إذ «مُنِع السؤال بأكثر من ثلاث مرّات، وأصدر قانوناً في ذلك سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٦ م. لكن هذا التحديد لا يخلو من الاحتكار للعلم والضغط على الطالب، كما يجعل الأستاذ فيه أن يهذي بما يشاء»[٦].

ومن الضروري أن نشير إلى أن حرية الرأي وحرية النقد في الحوزة العلمية مضمونة شريطة أن لا يتجاز أحد في رأيه أو نقده الأدلة المقررة والقواعد الممهدة لاستخراج القواعد أو النظريات العلمية الدينية[٧].

---

(١) مؤلف الموسوعة الفقهية (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) ت: (٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م).

(٢) الأنصاري: أحد كبار علماء الشيعة المتأخرين من كتبه المكاسب في الفقه، والرسائل في الأصول.

(٣) المقصود: عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة (٤٧١ هـ/١٠٧٨ م). من مؤلّفاته في البلاغة كتاب (أسرار البلاغة)، وفي علم المعاني: (دلائل الإعجاز).

(٤) الأصفي: مدرسة النّجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها، ٦ ـ ٧.

(٥) شمس الدين: حديث الجامعة النجفية، ٥٣.

(٦) شرارة: بين الفوضى والتعليم الصحيح، مجلة العرفان (صيدا)، مج/١٦ ج/١.

(٧) الهاشمي: رسالة النجف الأشرف، مجلة الإيمان ـ النجف ص٣، عدد/٧ محرّم ١٣٨٥ هـ/آيار ١٩٦٥ م.

على أن وضع (الاجتهاد) كأحد أهم الأهداف التي تعدّ الحوزة طلّابها للوصول إليه ما يتطلب حرية واسعة في النقاش والحوار، سواء للتلميذ أو الأستاذ سواء بسواء، حتى يكون البحث والنقاش في مستوى عميق يؤهل الطالب لبلوغ مرحلة (الاجتهاد)، ويفتح الطريق أمامه لإبداء وجهة نظره، والخروج من الموضوع الدراسي بوجهة نظر قد يوافق وقد يخالف بهما مَن سبقه، أو من عاصره من العلماء والمجتهدين.

إن «توافر الحرية في الجدل والنقاش والحوار، والمستوى الدراسي الذي يرغب طالب العلم في ولوجه أو مغادرته إلى المستوى الأعلى، وكذلك الحرية في اختيار الموضوعات والمصادر التي يعتمدها، والمشايخ الذين يرغب في الاستماع إليهم والتلمذة على أيديهم»[1]، إن ذلك كله من أهم مزايا الحوزة العلمية في النجف وخصائصها.

٤ ـ المراحل الدراسية في الحوزة العلمية في النجف:

عندما تحدثنا عن طريقة التدريس ومميزاته، ذكرنا أن طريقة التدريس في النجف لا تعتمد نظام السنوات، إنما تعتمد نظام الحلقات وإن كان يرتكز في الأساس على اختيار كتاب ما، ليدرّسه الأستاذ لمجموعة التلاميذ التي تضمّها حلقته، إلّا أن ذلك لا يعني عدم خضوع مسألة اختيار الكتاب لضوابط علمية تحددها طبيعة المراحل الدراسية التي يتسم بها الوضع الدراسي في الحوزة العلمية، إذ يظل لكل مرحلة مستواها العلمي، ويظل كل كتاب من كتب المنهج الدراسي الحوزوي المتعارف عليه خاضعاً بل منضوياً تحت هذه المرحلة أو تلك، وإذا قلنا إنه ليس هناك إلزام بكتاب معين، فإننا يجب أن نقول أيضاً: إن هناك مستوى علميّاً يشترط في المنهاج الدراسي ليوائم المرحلة الدراسية التي يعيشها الطالب، وبالتالي ليتوافق ذلك مع مستواه الفكري. إذن لا بدّ والحالة هذه من معرفة المراحل الدراسية، لنتعرف بعد ذلك على كتب ومناهج كل مرحلة من تلك المراحل.

(١) البستاني: مدرسة النجف أدوارها العلمية وأطوارها الفكرية، رقة رقم ٤٥٨ (مخطوط).

بإمكان الباحث رصد خمسة آراء في ما يخصّ تقسيم المراحل الدراسية للحوزة العلمية في النجف، يمكن أن نوجزها في الآتي: ـ

الرأي الأول: ـ إن المراحل الدراسية في الحوزة العلمية مرحلتان:

أ ـ مرحلة السطوح.
ب ـ مرحلة الخارج.
وهو رأي الشيخ الفقيه العاملي[١]، وتبعة في ذلك الشيخ شمس الدين[٢].

الرأي الثاني: ـ إن المراحل الدراسية في الحوزة العلمية في النجف ثلاث، هي على التوالي: ـ

أ ـ مرحلة السطوح.
ب ـ مرحلة الفضلاء.
جـ ـ مرحلة الخارج.
وقد ذهب إلى هذا الرأي الدكتور النفيسي[٣]، وتابعه الأستاذ/نزّال[٤].

الرأي الثالث: ـ إن مراحل الدراسة الحوزوية في النجف مرحلتان: ـ

أ ـ مرحلة السطوح والمقدمات.
ب ـ مرحلة الاجتهاد (الخارج).
وصاحب هذا الرأي هو الدكتور الفضلي[٥]، وتابعه فيه الأستاذ العبيدي[٦]، ثم الدكتور القزويني[٧].

الرأي الرابع: ـ إن الدراسة في الحوزة العلمية إنّما تتم على مراحل أربع هي: ـ

---

(١) جامعة النجف في عصرها الحاضر، ١٨ و١٠٦.
(٢) حديث الجامعة النجفية، ٥٢.
(٣) دور الشيعة في تطوّر العراق السياسي الحديث، ٥٠ ـ ٥١.
(٤) الدور التربوي الاجتماعي والسياسي للنجف في مطلع القرن العشرين، ١٤٠ ـ ١٤٥.
(٥) دليل النجف الأشرف، ٦٩.
(٦) التعليم الأهلي في العراق، ٤٠.
(٧) الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

أ ـ مرحلة المقدمات.
ب ـ مرحلة السطوح الأولية.
جـ ـ مرحلة السطوح العالية.
د ـ مرحلة الخارج[1].

الرأي الخامس: إن مراحل الدراسة في الحوزة العلمية بالنجف تنقسم إلى ثلاث مراحل، وهي:

أ ـ مرحلة المقدمات، وتقوم مقام الدور الابتدائي.
ب ـ مرحلة السطوح، وتقوم مقام الدور المتوسط (الإعدادي).
جـ ـ مرحلة الخارج، وتقوم مقام الدراسات العالية.

وهذا الرأي في تقسيم مراحل الدراسة هو للشيخ الآصفي[2]، وتابعه فيه الباحثُ حين نشر كتاباً له عن النجف[3] واعتمده الدكتور البستاني[4]. والتقسيم نفسه هو الذي نعتمده في كتابنا هذا، حيث إنه أقرب إلى واقع الحال الدراسي من غيره، رغم اعترافنا بعدم وجود فوارق مهمة بين الآراء الخمسة. ويظلّ الاختلاف إلى اللفظ والشكل، أقرب منه إلى المعنى والمضمون.

وحيث اعتمدنا المراحل الثلاث أعلاه عناوين للمراحل الدراسية الحوزوية في النجف فلا بدّ من إيضاح ما ينطوي عليه كل عنوان من تلك العناوين:

أ ـ مرحلة المقدمات:

إن دراسة المقدمات أو مرحلة المقدمات مأخوذ من أهداف المنهج الدراسي الحوزوي في تلك المرحلة، والذي يعني في ما يعني الوقوف على المعلومات الضرورية لإطلاع الطالب عليها، فلكي يتفهّم موضوعاً في أصول

---

(١) خليل: الإمام محسن الطباطبائي الحكيم، ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) الآصفي: مدرسة النجف وتطور الحركة الإصلاحية فيها، ٨.
(٣) البهادلي: النجف، جامعتها ودورها القيادي، ٥٢.
(٤) البستاني: مدرسة النجف، أدوارها العلمية وأطوارها الفكرية، ورقة رقم (٤٤٣)، وما بعدها، (مخطوط).

الفقه كموضوع مباحث الألفاظ[١]، لا بدّ له من مقدمات في علم النحو وصرفه. ولكي يتفهّم موضوعاً في تفسير القرآن كالتأويل، لا بدّ له من مقدمات في علم البلاغة. وهكذا.

ب ـ مرحلة السطوح:

يبدو أن التسمية فيها مأخوذة من أن الطالب في تلك المرحلة إنما يُطلَب منه معرفة ما في سطح الكتاب ليس إلاّ، دون الغوص في مبانيه ومعانيه، فهناك فرق بين فهم كتاب ما فهماً سطحياً، وبين التعمّق فيه ومناقشة مطالبه وموضوعاته. وإذا كان الأخير يمكن أن يُطلَق عليه فاضِلاً وذا رأي، فـ«الذي يفهم الكتاب، ويحفظ مضامينه يُسَمّى مُحَصّلاً ومشتغلاً، ولا يُسمى فاضلاً ولا عالِماً ولا متجزياً مجتهداً»[٢]. إذ تظل مرحلة الاجتهاد مؤجّلة لحين بلوغ الطالب المرحلة الثالثة وهي: مرحلة الاجتهاد.

جـ ـ مرحلة الاجتهاد أو الخارج:

وهو «اسم للدراسة بدون كتاب، وهو عبارة عن محاضرات علمية عالية في الفقه والأصول، أو غيره يلقيها الأستاذ بدون كتاب ولا كتابة، يشرع فيها من أول مسائل العلم وتنتهي الدورة بإنهاء تمام مسائل ذلك العلم، ويسوّغ للتلاميذ فيها مطالبة الأستاذ بالبرهان الكامل على كل ما يقوله، فالأستاذ لا بدّ أن يكون مستعداً ومتسلّحاً بأعظم سلاح من قوة التفكير، وسعة الاستقراء. ودقة الملاحظة، والاستقصاء»[٣] وكثيراً ما يختلف الأستاذ عن طلابه في صياغة الدليل وإعداد البحث، ومناقشة الآراء، والرأي الذي يتبنّاه في المسألة، فيتعرض الطالب لمناقشة أستاذه في ما يختلفان فيه من وجوه الرأي والبحث، بعد أن يكون قد

---

(١) المقصود من (مباحث الألفاظ) تشخيص ظهور الألفاظ من ناحية عامة إمّا بالوضع أو بإطلاق الكلام، لتكون نتيجتها قواعد كلية، وتلك المباحث في هيئات الكلام التي يقع فيها الشك والنزاع، سواءً كانت هيئات المفردات كهيئة المشتق والأمر والنهي أم هيئات الجمل كالمفاهيم ونحوها.
انظر: المظفّر: أصول الفقه، ١/٤٠.

(٢) الفقيه العاملي: جامعة النجف في عصرها الحاضر، ١٨.

(٣) نفسه، ١٨ ـ ١٩.

كوّن لنفسه رأياً في المسألة. وقد يتفق أن يشتد الخلاف بين الشيخ وطلابه في حلقة البحث فيتبلور لدى الشيخ الوجه الآخر من الرأي، فينزل عند آراء الطلاّب[١].

بقي أن نشير إلى أن سبب تسمية هذه المرحلة بمرحلة الخارج هو بسبب كون الدراسة فيها تتم خارج الكتب الدراسية المعتَمَدة.

٥ ـ المنهج الدراسي في الحوزة العلمية في النجف:

يعدّ المنهج الدراسي من أهم الوسائل التي تساعد المربّي في تحقيق الأهداف التربوية[٢]، وحتى نتمكن من التحدّث عن المنهج الدراسي في حوزة النجف، لا بدّ أن نستعيد بعض أهداف الحوزة العلمية لنرى كيف وُضِعت المناهج، وهل أنها تحقق الوصول للأهداف المرجوّة، أم لا؟

إن أحد أهداف الحوزة العلمية في النجف هو إعداد جيل من المجتهدين في كل وقت ليتمكن مثل هؤلاء المجتهدون من استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية، وتلك الأدلة هي بحسب المعتَقَد الإمامي الكتاب الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والإجماع، والعقل[٣]. «وإن تحقيق هذا المستوى يتطلب استيعاب الطالب علوم اللغة العربية من مفردات اللغة والنحو، والصرف والبلاغة وعلوم القرآن والتفسير، من أجل فهم الكتاب المقدّس فهماً يؤهله للاستنباط. كما أن فهم (الحديث) يتطلب العلم بعلوم العربية فضلاً عن علوم الحديث لا سيما تراجم رجال الحديث على أن لا يعتمد ـ كمجتهد ـ على تصحيح الآخرين للحديث، بل يبحث بنفسه عن تراجمهم ليكوّن عن كل واحد منهم رأياً مستنداً على قناعته الذاتية... أما متطلبات حصول (الإجماع) أو عدمه على المسألة الشرعية، فيتطلب مراجعة فتاوى جميع الفقهاء السابقين والمعاصرين وآرائهم. وأمر دليل (العقل) يتطلب دراسة علم المنطق لمعرفة الأقيسة الصحيحة من

(١) انظر: الأصفي: مدرسة وتطوّر الحركة الإصلاحية فيها، ١١ ـ ١٢.
(٢) انظر: القزويني: الفكر التربوي عند الشّيعة الإمامية، ٢٠٦.
(٣) انظر: المظفّر: أصول الفقه، ٤٧/٢ وما بعدها.
الحكيم: الأصول العامة المقارن، ٩٧ وما بعدها.

المغالطات والملازمات العقلية وغيره. وهناك علم آخر أساس لكل استنباط فقهي، وهو علم أصول الفقه، المتكفّل دراسة كيفية استنباط الحكم من مصادره، ودراسة القواعد التي يعتمدها الفقيه لكل عملية استنباط»[1].

وإذا ما أضفنا إلى موضوع إعداد الطالب لبلوغ مرحلة الاجتهاد كهدف من أهداف الحوزة العلميّة في النجف، مسألة عدم اشتراط مستوى علمي في مَن يريد الانتساب للحوزة، إذ يمكن أن ينتمي للحوزة من لا يجيد إلّا القراءة والكتابة. يتبيّن جليّاً أن مفردات المنهج الدراسي الحوزوي في النجف إنما تبدأ بالطالب من نقطة الصفر حتى توصله ـ إذا كان مجدّاً ـ إلى مرحلة الاجتهاد، وفق المراحل الثلاث: المقدمات، السطوح، الخارج. ولكل مرحلة من تلك المراحل كتبها التي نعرض لها بشكل مفصّل[2]، وفق تسلسل المراحل:

ـ مناهج الدراسة لمرحلة المقدمات:

أ ـ علم النحو: وقد وضع منهجه على ثلاث مراتب:

١ ـ ابتدائي: ويتمثل بكتاب (الأجروميّة) لمؤلفها أبي عبد الله الصّنهاجيّ المتوفّى في فاس سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م.

٢ ـ متوسط: ويتمثل بكتاب (قطر الندى وبل الصدى). لابن هشام عبد الله بن يوسف بن أحمد، المتوفّى سنة ٧٦١ هـ/١٣٥٩ م.

٣ ـ نهائي: ويتمثل بكتاب (ألفية ابن مالك). وهي أرجوزة في النحو نظمها محمد بن عبد الله بن مالك الطائي، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م.

---

(١) البستاني: مدرسة النجف أدوارها العلمية وأطوارها الفكرية، ورقة رقم ٤٤٢ ـ ٤٤٣ (مخطوط).

(٢) اعتمدنا في بيان مناهج الدراسة في الحوزة العلمية بالنجف على المصادر التالية:
١ ـ الفقيه العاملي: جامعة النجف في عصرها الحاضر، ١٥٩ وما بعدها.
٢ ـ شمس الدين: حديث الجامعة النجفية، ٥٠ وما بعدها.
٣ ـ الأصفي: مدرسة النجف تطوّر الحركة الإصلاحية فيها، ٧ وما بعدها.
٤ ـ البستاني: م. س، ٤٤٣ وما بعدها.
٥ ـ الخليلي: موسوعة العتبات المقدّسة ٩٨/٧.
٦ ـ البهادلي: النجف جامعتها ودورها القيادي، ٥٣ وما بعدها.
٧ ـ الفضلي: دليل النجف الأشرف ٥٣.

وحيث قد شُرحت تلك الأرجوزة من أكثر من شارح، فإن بعض الحوزويين أساتذةً أو طلاباً قد يختارون شرح ابن الناظم، في ما يختار آخرون شرح القاضي بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المتوفى سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٧ م.

وللتوسّع في دراسة المصطلحات النحوية يدرس بعض الطلاب كتاب: (مغني اللبيب) لابن هشام.

ب ـ علم البلاغة والمعاني والبيان: على مرحلتين:

١ ـ **أولى**: وتتمثل بكتاب: (مختصر المعاني) لمسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني المتوفى سنة (٧٩١ هـ/١٣٨٨ م).

٢ ـ **ثانية**: وتتمثل بكتاب (المطوّل) للتفتازاني أيضاً.

وقد استعاض بعض طلاب الحوزة عن هذين الكتابين في السنين الأخيرة بكتاب: (جواهر البلاغة) لأحمد بن إبراهيم الهاشمي، وهو من أدباء مصر، توفي فيها سنة (١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م).

جـ ـ المنطق: على مرحلتين:

١ ـ **أولى**: وتتمثّل بكتاب: (الحاشية) لملاّ عبد الله بن شهاب الدين حسين اليزدي المتوفّى سنة (٩٨١ هـ/١٥٧٢م). وقد استعاض بعض الطلاب عنه أخيراً بكتاب (خلاصة المنطق) للدكتور عبد الهادي الفضلي، أحد علماء النجف المعاصرين[١].

٢ ـ **نهائيّة**: وتتمثل بكتاب: (تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية)، لقطب الدين محمد الرازي، المتوفى سنة (٧٦٦ هـ/١٣٦٥ م). وقد استعاض البعض عن هذا الكتاب بكتاب (المنطق) للشيخ محمد رضا المظفر، وهو أحد علماء النجف، توفي عام (١٣٨٣ هـ/١٩٦١ م).

---

(١) من مؤلفاته: من البعثة إلى الدولة. و: اللامات: دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية.
والدكتور الفضلي حالياً هو عميد كلية الآداب بجامعة الملك فيصل بالحجاز. وعرفتُ لاحقاً أنه أحد القائمين الآن على شؤون (الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية) في بريطانيا.

د ـ الفقه: على مرحلتين أيضاً:

١ ـ **أولى:** تتمثل بدراسة (تبصرة المتعلّمين) للمحقق أبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحُلّي المتوفى سنة (٦٨٦ هـ/١٢٧٧ م). أو كتاب (المختصر النافع في فقه الإمامية)[١] للمحقق الحلّي أيضاً.

وفي السنين الأخيرة جرت العادة على الاستغناء عن دراسة هذين الكتابين في هذه المرحلة، والاستعاضة عنهما بمجموعة فتاوى المجتهد الأعلى وزعيم الحوزة العلمية وقت الدراسة، والتي يُعَبَّر عنها في الوسط الحوزوي بـ (الرسالة العملية).

٢ ـ **ثانية:** تتمثل بدراسة كتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) للمحقّق الحلي أيضاً.

هـ ـ الأدب والعَروض:

لا يلتزم معظم طلاب الحوزة العلمية في النجف بالتزام منهج دراسي معين في ما يرتبط بالأدب والعَروض، وإنما يستحصل الطالب فيها معلوماته عن طريق المطالعة الشخصية.

ففي الأدب يحاول الطالب حفظ شيء من خطب الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة، وحفظ بعض قصائد الشعراء الكبار.

أما في العَروض فالمهتمون من طلاب الحوزة في هذا العلم دأبوا مؤخَّراً على دراسته أو مطالعته في كتاب (الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة) للدكتور مصطفى جمال الدين، أحد أساتذة كلية الفقه في النجف الأشرف[٢].

---

(١) ما يثلج الصدور حقاً، ويبشّر بإمكانية وحدة قلوب أبناء المذاهب الإسلامية، ما يُعرَف عن خطوة الأزهر الشريف قبل حوالي الخمسين عاماً من طباعة هذا الكتاب وتدريسه في الجامع الأزهر، وتوزيعه مجاناً على المكتبات العامة والمعاهد العلمية في العالم الإسلامي.
بيد أننا ننتظر خطوة جريئة مماثلة من علماء المسلمين الشيعة...!!!؟

(٢) انظر ترجمته في: الأميني: معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ١٠٦.

وإضافة إلى ذلك فإن الكثير من الطلاب هناك يمارسون التمرين العملي ـ بين زملائهم وأساتذتهم ـ على الخطابة لحاجتهم إليها في إلقاء المحاضرات العامة، أو ارتقاء المنبر الحسيني.

٢ ـ مرحلة السطوح: تتضمن هذه المرحلة دراسة المواد التالية:

أ ـ أصول الفقه.
ب ـ الفقه.
جـ ـ علم الحديث.
د ـ الفلسفة الإسلامية.
هـ ـ علم الكلام.
و ـ التفسير.
ز ـ الحساب.
ولتوضيح الكتب الدراسية لكل مادة نقول:

أ ـ أصول الفقه: على أربع مراحل، وهي:

١ ـ أولى: تتمثل بكتاب (معالم الدين في الأصول) للشيخ أبي منصور حسن بن زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد الجبعي العاملي، المتوفى سنة (١٠١١ هـ/١٦٠٢ م).

وقد تغيّر هذا العرف، إذ ليس من الميسور على الطالب الابتداء بمثل هذا الكتاب فظهر كتاب (أصول الفقه) للشيخ محمد رضا المظفر قبل حوالي ثلاثين عاماً، ككتاب دراسي يمكن أن يُمَهّد لفهم كتاب المعالم. ومن ثم ليظهر كتاب (المعالم الجديدة في الأصول) للسيد محمد باقر الصدر. لـ «تقديم علم الأصول بصورة بدائية ومبسّطة للمبتدئين في دراسة هذا العلم»[1] فصار يُبتدأ به، ومن ثم يُدرّس كتاب (معالم الدين في الأصول).

٢ ـ ثانية: وتتمثل بكتاب (قوانين الأصول) للشيخ عباس القُمّي.

٣ ـ ثالثة: وتتمثل بكتاب (الرسائل) للشيخ مرتضى الأنصاري، المتوفى

(١) الصدر: المعالم الجديدة للأصول، كلمة المؤلف (ا).

سنة (١٢٨١ هـ/١٨٨٢ م).

٤ ـ رابعة: وتتمثل بكتاب (كفاية الأصول) للشيخ محمد كاظم الخراساني، المعروف بالآخوند، المتوفى سنة (١٣٢٩ هـ/١٩١١ م).

د ـ الفقه: على مرحلتين وهي:

١ ـ أولى: تتمثل بكتاب (اللمعة الدمشقية) للشيخ محمد بن جمال الدين مكي العاملي الجزّيني (الشهيد الأول) استشهد سنة (٨٧٦ هـ/١٣٨٤ م). ومشروحاً من قبل الشهيد الثاني: الشيخ زين الدين الجبعي العاملي المتوفى سنة (٩٦٥ هـ/١٥٥٧ م)، ضمن كتابه المعنون (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية)[1].

جـ ـ علم الحديث: مرحلة واحدة:

تتمثل بكتاب (دراية الحديث) للعلّامة الحُليّ: أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف، المتوفّى سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٥ م.

د ـ الفلسفة الإسلامية: وتُدرَس هذه المادة عادة ضمن كتابَيْ:

١ ـ المنظومة للسبزواري.

٢ ـ الحكمة المتعالية في المسائل الربوبية المسمّى (الأَسفار الأربعة) لصدر الدين محمد الشيرازي، المتوفى في البصرة سنة (١٠٥٠ هـ/١٦٤٠).

على أن بعض الطلاب في العقود الثلاثة الماضية دأب على دراسة الفلسفة ضمن كتاب (فلسفتنا) للسيد مُحمَّد باقر الصدر.

هـ ـ علم الكلام: ويدرس هذا العلم في كتابين:

١ ـ شرح الباب الحادي عشر، للعلّامة الحلي المتوفى سنة (٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م).

---

(١) انظر الصفحة الأولى من كتاب (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية) بطبعته الحجرية، في الملحق رقم (٧)، ص٣٣٤.

٢ ـ تجريد الاعتقاد، لنصير الدين الطوسي، المتوفى سنة (٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م)، أو شرح تجريد الاعتقاد للعلاّمة الحلي وفي السنين الأخيرة دأَبَ البعض على دراسة هذه المادة في كتاب (محاضرات في العقيدة الإسلامية) للشيخ أحمد البهادلي.

و ـ تفسير القرآن: وتتم دراسة تفسير القرآن على مرحلتين:

أ ـ أولى: في علوم القرآن، إذ لم يكن ثمة كتاب معين متداول في هذا المجال حتى ظهر كتاب (البيان في تفسير القرآن) للسيد أبي القاسم الموسوي الخوئي، (طيَّب الله ثراه)، قبل حوالي ٢٥ سنة.

٢ ـ محاضرات تتناول تفسير بعض السور القرآنية، يعدّها الأستاذ المُكَلَّف بالدرس.

ز ـ الحساب:

وبعض المعلومات الهندسية، وهي متفرقات تتعلق بحساب المواريث، ومعرفة المقاييس، وجرت العادة في الحوزة قديماً على دراسة ذلك في كتاب (خلاصة الحساب) للشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجبعي العاملي المشهور بالبهائي، المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م.

ومادة الحساب لم تَعُد تُدرَس في الحوزة في زماننا، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كون الملتحق بالحوزة هذه الأيام، إنّما يكون قد تلقّى بعض علوم الحساب في المدارس الحديثة، بخلاف الطالب القديم الذي كان يأتي للحوزة، ولم يكن قد تعلّم على يد (الكتاتيب) سوى القراءة، وقراءة القرآن.

بعد استيعابنا لمناهج التدريس في مرحلتيْ المقدمات والسطوح، لا بدّ أن نشير إلى خطة التدرّج في استيعاب هذه المواد: فإذا ورد الطالب للحوزة مبتدئاً فتكون بدايته بالمواد التالية، ووفق التدرج التالي: ـ

النحو الابتدائي + الفقه الابتدائي. وبعد اجتيازهما يدرس:

النحو المتوسط + الفقه المتوسط بمستوى الشرائع + المنطق. وبعد اجتياز ذلك يدرس:

النحو النهائي + الفقه بمستوى اللمعة + البلاغة الأولية + المنطق النهائي.
وبعد اجتياز ذلك يدرس:

الفلسفة + الحديث + التفسير (علوم القرآن) + أصول الفقه الأوّلي + الفقه على مستوى اللمعة + البلاغة النهائية.

وبعد ذلك يدرس الفقه على مستوى المكاسب + الأصول على مستوى القوانين + الفلسفة النهائية + تفسير القرآن (محاضرات).

ويستمر في الفقه + الأصول على مستوى (الكفاية).

ويستمر في الفقه + الأصول على مستوى الرسائل.

من المهم أن نشير أن العلوم غير الأساسية التي عرضنا لبعضها في المناهج، يتمكن الطالب من تلقّيها بما شاء من المراتب أعلاه، بحسب مستواه الذهني واستيعابه ومقدرته. وممّا يلفت النظر في هذه الدراسة: أن الطالب هو الذي يحكم على نفسه بالرسوب أو النجاح. فإذا ما أحسّ أنه لم يستوعب مرحلة عاد ليدرسها كلها أو بعض كتبها، حيث يتعذّر عليه فَهْم المرحلة اللاحقة، إذا لم يكن مستوعباً ما سبقها، ومعنى ذلك بقاؤه دون فهم وبذلك يحكم على نفسه بالفشل والجهل.

وحيث أشرنا إلى أن تلك المراحل إنما تنطبق على الطالب المبتدىء. فماذا عن غيره ممّن يلتحق بالدراسة الحوزوية، وهو يحمل شيئاً من معلومات سابقة؟

إن مثل ذلك الطالب يلجأ إلى أحد أساتذة الحوزة العلمية فيطلب إليه المشورة بنقطة البداية، فيقوم هذا الأستاذ باختباره، ومن خلال مستواه الذهني العلمي يحدّد له نقطة البدء من بين المراحل التي ذكرناها، أو يستثني له من المواد السالفة ما يجده غنياً عن دراستها، ويركز على ما يحتاجه من مواد أخرى[1].

---

(١) نظير ما تقوم به كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت في ما يخصّ قبول طلاب الدراسات العليا. ويظل الفرق أن الكلية تعتبر شهادة التخصّص أساساً دون اختبار علمي، بينما لا تعير الحوزةُ الشهادة أيّة أهمية، إنما يظل المحكُّ هو معلومات الطالب فعلاً.

ومع أن مدة الدراسة يحدّدها جهد الطالب ونشاطه وتحصيله بالإضافة إلى جهد الأستاذ، إلاَّ أنها في المتوسِّط تتراوح بين: ثلاث إلى ست سنوات.

٣ ـ مرحلة الاجتهاد (بحث الخارج):

في مرحلة (البحث الخارج) ينتقل الطالب في الحوزة العلمية بالنجف إلى الدور الأخير من رحلته الدراسية. وليس في هذه المرحلة منهج معين أو كتاب محدّد وإنما تقع مهمة التحضير والإعداد على الطالب نفسه، دون أن يتقيّد بمصدر علمي خاص. إذ يقوم الطالب ـ عادة ـ بإعداد مادة المحاضرة من فقه وأصول أو تفسير، ثم يراجع فيها أقوال العلماء في هذه المادة وما يمكن أن يصلح دليلاً لها، وما يمكن أن يناقش به هذا الدليل ثم يحاول الطالب أن يستخلص لنفسه رأياً خاصاً في هذه المسألة. فيحضر الطالب محاضرة الأستاذ (الذي لا يكون في هذه المرحلة إلاَّ مجتهداً)، ويستمع للأستاذ وهو يعرض مادة البحث (الدَّرْس) الذي لا يكتبه الأستاذ في ورقة وإنّما يستحضره في ذاكرته فيعرضه عرضاً شاملاً مع آراء كافة علماء المذاهب الإسلامية، ودليل كل صاحب رأي، فيناقش كل واحد من تلكم الآراء، ليصل إلى رأي خاص له في المسألة مع الدليل الذي اعتمده في تبنّي هذا الرأي. وتظل مهمة الطالب هنا ـ بعد تحضيره مادة الدرس ـ الاستماع إلى توجيهات الأستاذ وأطراف المسألة (مادة البحث)، فقد يختلف الطالب والأستاذ في صياغة الدليل وإعداد البحث، ومناقشة الآراء، وقد يتفق أن يشتد الخلاف بين الشيخ وطلابه في حلقة الدرس، وقد يتبلور لدى الشيخ الوجه الآخر من الرأي، فينزل عند آراء الطالب.

ومع انتهاء (البحث الخارج) وشعور الطالب بالاكتفاء عن حضور الدورات القادمة واستشعاره أيضاً باكتساب[1] ملكة الاجتهاد في استنباط المسألة الشرعية الفرعية من أدلتها يخرج عن مرحلة التقليد لغيره، ويصبح في عداد المجتهدين. في الوقت الذي يقوم به أيضاً بإدارة حلقات دراسية من مرحلة السطوح، فكل

(١) أو صقلها، إذا ما اعتبرنا أن ملكة الاجتهاد موروثة لا مكتسبة، كما هو رأي الدكتور المشرف على هذا البحث.
لقاء شخصي في بيروت، السبت ١١ ذو القعدة ١٤١١ هـ/ ٢٥ أيار ١٩٩١ م...

طالب يكون مدرساً لمن هو أدنى منه في سلّم التحصيل في حين يستمر هو في طلب العلم.

أما في حال عدم حصول مثل تلك القناعة الذاتية لديه بتحقّق ملكة الاجتهاد، فعليه معاودة حضور (البحث الخارج). إلى هذا النهج الدراسي - في البحث الخارج - يُعزى السرّ في تطور الدراسات الفقهية والأصولية في الحوزة العلمية بالنجف على مرّ القرون، ومن يقرأ كتاباً في الفقه وأصوله لأعلام القرنين الرابع والخامس الهجريين - مثلاً - ثم يقرأ كتاباً فيها لأحد أعلام هذا القرن، يلمس مدى التطوّر الذي بلغته النجف في هذا الشأن .

الفصل السابع
البعد الأخلاقي في الحوزة العلمية

يجدر بنا في متابعة الدراسة الحوزوية أن نقدم إلى القارىء كلمة السيد **محمد جمال الهاشمي** في هذا الصدد.

يقول ضمن عنوان (رسالة النجف الأشرف):

التركيز على الجانب الروحي والأخلاقي
لدى طلاب العلم الديني[1]
بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله.

رسالة النجف، توعية الشعوب الإسلامية بنشر مفاهيم الإسلام وأحكامه المقدسة في أوساطها.

وتختلف وسائل التوعية باختلاف الأجواء التي تعيشها التوعية، فلكل محيط وسيلته المقبولة عنده ومن طريقها تنبعث التوعية الدينية لتوقظ المشاعر والعقول، وبذلك تكون رسالة الدين مفهومة مقبولة، وإلاَّ فإن ابن الشارع لا يتفهم لغة الجامعي، والجامعي لا يتذوق لغة ابن الشارع، ولقد تبنت مدينة النجف الأشرف هذه الرسالة المعقدة منذ أكثر من عشرة قرون ولا زالت وستبقى مشرقاً للنور والإشعاع ما دام للإسلام، وأحكامه تأثير في العقول.

---

(١) مقالة للمرحوم السيد محمد جمال الهاشمي مجلة الموسم الثقافي السنة الثالثة، من ص١٢ إلى ص٢٠.

والسبب الوحيد الذي جعل مدينة النجف القاحلة، ـ والتي لم يكن بها قبل خمسين عاماً مورد مأمون لمياه الشرب ـ مقصداً لروّاد العلم، وطلّاب المعرفة، هو مشهد أمير المؤمنين (ع)، لأن لقدسية هذا القبر وكرامته عند الله تعالىٰ وشهادة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في حق الإمام (ع) بأنه باب مدينة العلم تأثيراً ساحراً في قلوب المؤمنين وعقولهم، ولذلك ـ وقبل أكثر من ـ ألف عام كان العلماء من المؤمنين يعتكفون بهذه البقعة المقدسة، ويستمدون من مشرفها عليه آلاف التحية والسلام، البركة والتوفيق.

وبعد أن انتقل شيخ الطائفة الجعفرية محمد بن الحسن الطوسي (قدّه) سنة ٤٤٩ هـ من بغداد إلى النجف الأشرف، أصبحت هذه المدينة مركزاً حساساً للعلوم الإسلامية، وانعقدت فيها المجموعة الأولى من رواد العلم، ومن هذه المجموعة تشكلت الحوزةُ العلمية التي سارت عبر القرون والأجيال، وهي تزداد سعة وانتشاراً، حتى أصبحت المرجع الأول للعلوم الإسلامية في العالم الإسلامي.

ولقد جذب عنوان «الحوزة العلمية» روّاد العلم والمعرفة من سائر البلاد ومختلف الشعوب، وكما نشاهد ذلك في مدارس النجف ومجامعها وجوامعها، إذ نرى المسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم، يُشكّلون الحوزة العلمية في هذه المدينة الجامعية، فهذا العربي يباحث الفارسي، وذلك التركي يطارح الهندي، وذلك الأبيض يعايش الأسود.

إن وحدة الوسيلة والغاية جعلتهم أسرة واحدة لا يشعرون بالمميّزات العنصرية، ولا بالفوارقِ الجغرافية.

إن كل واحد من هؤلاء الروّاد يرى في رفيقه أخاً برّاً وقريباً، لا يبتعد عنه في كل شيء، إن هذه الوحدة الروحية هي التي أوقفت من هؤلاء المؤمنين صفاً كأنه بنيان مرصوص، لا تؤثر فيه الحوادث الزمنية، ولا العواصف العالمية، إنه يقنع من متاع الدنيا بما يحفظ حياته ويُقيم أَوَدَهُ، وإلاّ فليس للحياة ولا لامتاعها موضوعية في حياة الطالب الديني النجفي.

تعال معي لنزر مدرسة من مدارس النجف الأشرف الدينية، ولتكن مدرسة

الصدر الواقعة في السوق الكبير، والتي ما زال لها الصدارة في كل شيء، ثم لندخل حجرة يعيش بها الطالب الديني طيلة أيام الدراسة وربما تمتد هذه الأيام إلى أكثر من عشرة أعوام، سترى أن فرشها لا يتجاوز البساط القطني، وأكثر هذه البسط موقوفة على حجرات المدرسة نفسها، وعلى ذلك البساط سترى مقعداً أزال الاستعمال ألوانه.

وفي إحدى الرفوف ترى موقداً نفطياً وعليه قدرٌ أكثر ما يكون جنسه من القصدير، وحوله ظروف لا تتجاوز حاجة الطالب، في جنبها إبريقٌ للشاي تصاحبه آنية أو آنيتان من أوانيه، هذا كل جهاز الطالب الديني.

وأما مآكله فلا تتجاوز الأغذية البسيطة جداً.

إن بساطة العيش التي تربّى عليها الطالب الديني جعلته ينظر لمتع الحياة نظرة عابرة يتعداها إلى المقصد الأصلي لوجود الإنسان في هذه الحياة، إن الطالب الديني يرى في حاجيات الحياة شاهداً على نقصه الإنساني، فهو يشارك فيها الحيوان الأعجم، فكما يحتاج ذاك إلى الأكل والشرب والنوم، كذلك يحتاج هذا إلى نفس ما يحتاجه ذاك، إن وحدة الحاجة تدل على وحدة المحتاج، وذاك ما لا يريده الإنسان الطالب للكمال. إنه يريد أن يتجاوز العجماوات وحياتها إلى الحياة الإنسانية التي وجد لكي يعيشها، ولكي يتكامل هذا النقص، راح يجاهد نزوات النفس ونزعاتها نحو المادة حتى أصبحت ضعيفة التأثير في نفسه، وهو يجاهدها إلى أن يسيطر عليها، فيوجهها كما يريد هو بعد ما كانت تسيطر عليه فتوجهه كما تريده هي.

إن هذه السلطة الروحية هي التي تعتمد عليها الدعوة الدينية فتسلم له قيادة الجماهير إلى طريق التكامل الإنساني، وهي التي تعبر عنها لغة الدين ـ بالتقوى... فالطالب الديني كما يثقف نفسه بتعلم المعارف الإنسانية والعلوم الإلهية، كذلك يثقفها بالمجاهدة مع النزعات والشهوات، وإن الثقافة الثانية أسمى من الثقافة الأولى، بل لا تأثير للثقافة الأولى ما لم توجد الثقافة الثانية، فالعلم إن يحزه إنسان عامل كان نقمة على الإنسانية، وإن حازه إنسان كامل كان نعمة كبرى للإنسانية وإن ما نشاهده في المعسكرين الغربي والشرقي دليل على

ما أقول، فلقد حاز العلم رجال منغمسون في شهواتهم منجرفون مع أهوائهم ونزعاتهم، ولذلك أصبحت الممالك والشعوب مهددة بحرب مدمرة، ويكفينا ما نشاهد اليوم، أن العلم إذا وقع في يد إنسان لم يجاهد نزواته وشهواته يجعل منه جلّاداً يبيد الأمم والشعوب، ولا يختص العلم بموضوع خاص، فالمهندس إن لم يثقف نفسه ويكمل إنسانيته، يخون علمه في مبانيه إن وجد من يشبع غريزته إزاء الخيانة، والطبيب مثله يفتك بمراجعه لو وجد من يدفع له أجرة الفتك، والعالم الديني مثلهما يخون دينه لو وجد من يرضي شهوته بخيانة دينه.

إن العلم إن وقع بيد غير أهله أصبح نقمة على الإنسانية.

لذلك رأينا الحوزة بالنجف كما تهتم بتثقيف عقل الرائد وتكميل معرفته، كذلك تهتم بتهذيب نفسه وتكميل إنسانيته، فالعلم إن لم تصاحبه التقوى كان الجهل أشرف منه، وهكذا تمكنت الحوزة العلمية النجفية أن توجه الآفاق الإسلامية وتقود الأجيال والشعوب أكثر من ألف سنة، ولو كان نتاج الحوزة محصوراً بالعلم المجرد عن التقوى، لانسدّت أبوابها كما انسدّت أبواب غيرها.

وتختلف مفاهيم التقوى باختلاف مواضيع العلم الذي تصاحبه، فتقوى الطبيب أن يخلص للعلم الذي يتبناه وأن لا يشذّ في آرائه وصفاته عن الأصول والمقاييس العلمية، وتقوى العالم الديني أن يرعى الدين في أحكامه وفتاواه، فلا يشذّ عن مؤديات الأدلة والامارات العلمية الموضوعة له من صاحب الشريعة، «وإن رعاية الدين في الأحكام الشرعية من أشق الأعمال، فالأسس التي تبتنى عليها الأحكام أكثرها لا يتوقف على الإنصاف والعدل وهما لا يكونان إلّا في المؤمن المحافظ على دينه.

لذلك ينبغي للحاكم الشرعي أن يحتاط في فتاواه وأن يكثر من الفحص والبحث عن الأدلة في مظانها، فعسى أن يكون فيها ما يعارض القاعدة التي يريد أن يقيم عليها حكمه الشرعي، وعند ذاك يجب عليه أن يغير الحكم ويراعي الأصول المقررة في باب تعارض الأدلة، كما أن استخراج الواقع من الأدلة التي كثرت فيها الآراء، وتعارضت بها المذاهب من أصعب الأمور، فالعالم الديني هو الذي لا يعتمد على ما تفهمه من القواعد العلمية والأصول الموضوعية، بل عليه

أن يتقي الله في فتاواه، ولا يجعل رقبته جسراً لجهنم يعبر عليها الناس إلى الجنة.

لذلك رأينا طائفة من الفقهاء رضوان الله عليهم كانوا يتحاشون الفتوى مع تملكهم العلمي من الفقه وأدلته، ومع اطلاعهم الواسع على الأحاديث وآراء الفقهاء، ولكن ملكة التقوى كانت تمنعهم من المبادرة إلى الحكم لمجرد انطباقه على قاعدة من قواعد أصول الفقه، وإن هذه الملكة لا تحصل إلّا بعد أن يصل صاحبها إلى قمة الكمال النفسي والتهذيب الإنساني، لأن انطباق القاعدة على موضوع معين يستوجب الحكم عليه بما تقتضيه القاعدة، فكفُّ النفس عن الحكم والتحرّز من البت في أمر ذلك الموضوع من أشق الأعمال.

إن تقوى المجتهد الرباني في رعاية الأحكام والفتاوى تقع في قمة مراقي الفضيلة والتديّن، ولذلك ترى اطمئنان الناس بشخصية المجتهد لا حدود لها أبداً، فالمسلم مطمئن بحاكمه الشرعي ولو كان شخص ذلك المسلم غير ملتزم بالأحكام الإسلامية، وسببه اطمئنانه بعصمة المجتهد وصيانته من شهوات النفس ونزواتها.

أما برنامج الدراسة في النجف فإنه: يحتوي على كل ما يحتاجه منصب المرجع الديني في الأوساط الإسلامية ولا تنحصر معارفه بمبادىء الاجتهاد من المواد الدراسية في النجف، والتي تتألف من العلوم العربية اللسانية والعلوم العربية البيانية، والمنطق والأصول والفقه، بل تشمل ما يحتاجه المرجع من المعارف والعلوم، فهو في الوقت الذي يدرس النحو، يطالع ما أنتجه الأدباء من الكتب والآثار، وفي الزمن الذي يباحث الصرف، يراجع نوادر الأثر من الشعر والنثر واللغة، وفي هذه الفترة يستقرىء تفاسير القرآن الكريم وما فيها من الشواهد، والنكات العربية النادرة، وفي العهد الذي يدرس فيه المنطق، يتوخّى الكتب الفلسفية فيدرس طائفة منها لا يتوصل إلى آفاقها إلّا بالدراسة، ويكتفي من البعض منها بالمراجعة والمطالعة، كما يتطلب الآثار الفلسفية الباقية من أدباء الفلسفة وشعراء الحكمة والمعرفة كأبي العلاء المعري، وابن الفارض. وأضرابهما من شعراء العرب، كما يراجع آثار الخيام، وحافظ، والمثنوي، وما يوازنهم في نظم المفاهيم الفلسفية والمعاني الإلهية الدقيقة، ولا يكتفي بدراسة

الآثار المنظومة بل يراجع المنثور من كلمات العرفاء ومحاضرات الحكماء ليغذي فكره وتعليمه بما خلفته القرون من الآثار الفكرية للأجيال، وعندما يدرس البلاغة يتمم مطالعاته الأدبية بالطواف على المراجع والمصادر الأدبية البلاغية وتحقيق ما فيها من الأسرار البلاغية، فإذا درس الأصول حصر مطالعاته ومراجعاته بما أنتجته أفكار علماء الأصول من التحقيقات في هذا المجال كما راح يراجع مبادىء الدراية وعلم الرجال وبعض كتب الحديث، ويستمر في مطالعة هذه المصادر طيلة دراسته للسطوح الفقهية، والأصولية، متتبعاً ما ترك له السلف الصالح، مطبقاً أصول قواعدها على ما تصل إليه يده من الأحاديث والمصادر التشريعية، فإذا شرع بدراسة الخارج وتحرّر من قيود المنهج الدراسي انطلق مع ذوقه وسليقته إلى حيث يختار من الآراء العلمية، أو إلى حيث يكتشف نظريةً جديدة أو قاعدة مستحدثة يعارض فيهما آراء العلماء ومذاهبهم في الموضوع المبحوث عنه.

إن حرية الرأي وحرية النقد مضمونة في الحوزة العلمية، شريطة أن لا يتجاوز في رأيه، أو في نقده، الأدلة المقررة والقواعد الممهدة لاستخراج القواعد، أو النظريات العلمية الدينية، بانياً عليها نظرياته وقواعده، وهكذا يربي الطالب الديني في الحوزة العلمية عقله ونفسه ويتحرر فيها من قيود المحيط ومناهجه المقررة، مهما كانت موادها وأيّاً ما كان واضعه، يتحرر ليسير على الصراط القويم، صراط الله الذي يصل بالإنسان إلى إنسانيته الكاملة.

إن الروح العلمية والعملية الطاغية في المجامع الدينية، والمدارس العلمية تنشر عطرها في كل مكان تحل فيه، وفي كل طريق تسلكه، ولذلك كانت البلاد النائية ترى في أبناء النجف بشراً يسمو على الملائكة في تقواه، وعلى العباقرة في معرفته، وحقاً أن يكون ابن النجف كذلك، فالنجف الأشرف جنة الدين في الدنيا، وللجنة تأثيرها في نفوس أهلها فهم يمتازون بطابع فردوسي يميزهم الناظر أينما حلّوا وارتحلوا، وهكذا ابن النجف، ينبغي أن يمتاز عن غيره من الناس بطابع المعرفة والتقوى، لأن هذه الصفة ممّا تختص بها النجف، فهي التي تجعل من أبناء الريف ومن ساكني مجاهل إفريقيا علماء بأحكام الدين وأتقياء تقدّسهم الملائكة، فجدير بأن تبعث ذلك في ابن تربتها، فالأقرب أولى بالفضل من

الأبعد، وهب أن كل أبنائها لم ينتسبوا إلى الحوزة ليتفقهوا في الدين وليكونوا علماء في أحكام الشريعة، بسكنهم يعاشرون العلماء ويحضرون مجالسهم، ويستعرضون سلوكهم وأوضاعهم، فأينما حلّ ابن النجف يرى رائداً من هؤلاء الرواد يسكن في ذلك الشارع أو ينتمي إلى ذلك الزقاق، فهم منتشرون في محلات النجف وأزقتها، كما أن مدارسهم ومجامعهم متوزعة على محلات النجف وشوارعها، وإن مثل تلك المواطن العلمية مثل حديقة الورد، أينما وُجِدَتْ عطرت جو ذلك المكان ولطفت هواءه، وهكذا المدارس العلمية أينما حلّت نشرت فيه أثراً طيباً من هديها ومعرفتها؛ فإذا رأينا الجو لم يتأثر بها، فلا يخلو المانع من التأثير أن ينسب إما إلى المدرسة أو إلى الجو أو إليهما معاً، وعلى أي تقدير يلزمنا رفع المانع، وذلك، بتوعية الطالب الديني ليعرف منزلته في المحيط، وبتوعية المحيط ليعرف منزلة الطالب الديني، فإذا تعارفا حصل التأثير والتأثّر، وحازت النجف على مكانتها اللائقة بها في البلاد الإسلامية.

إن مهمة رسالة النجف هي بثّ التوعية الدينية وبعث الروح العلمية في الأجواء الإسلامية، ولا تؤدّى هذه الرسالة بوجهها الأكمل إلاّ بعد أن يلتفت أصحاب الرسالة إلى الوظيفة التي يتلبسون بها ليجهّزوا أنفسهم أولاً بطاقات الرسول الإلهي، وليؤدّوا مفاهيم تلك الرسالة السامية بتعابير يتقبلها عصر الذرة.

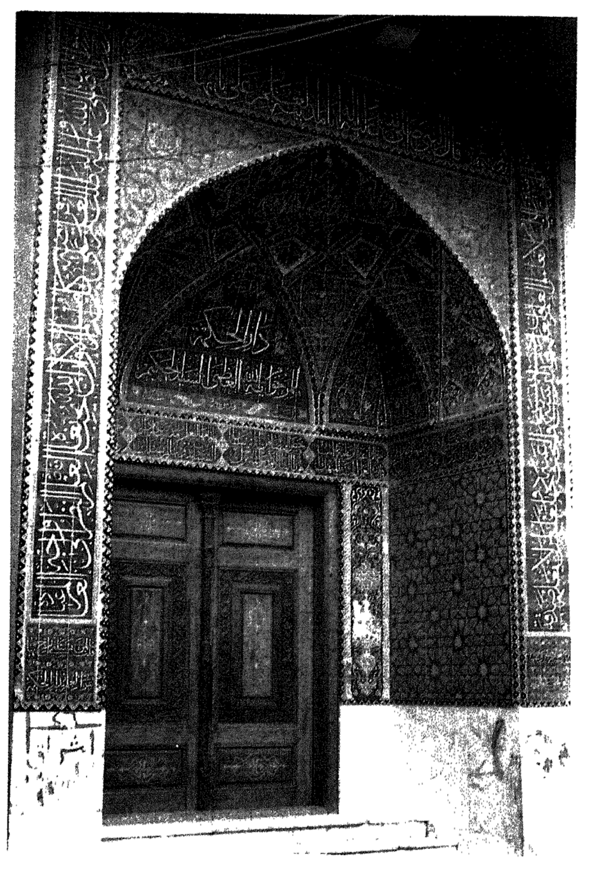
ولم تكتف النجف بحيازة القيادة العلمية الدينية فقط، بل حازت القيادة الأدبية الفنية في العراق، فإن طائفة من تلاميذ الحوزة توغلوا في دراساتهم الأدبية، وتغلغلوا في استقراء آثار الأدباء من القدماء والمحدثين، حتى حصلت عندهم ملكة الأدب، فراحوا يساجلون الأدباء في بدائع آثارهم، ويسابقون الشعراء في أجوائهم الشعرية، وأنتجت هذه المسابقة الأدبية تآليف قيّمة سدّت الشواغر من المكتبة الأدبية، وتخرّج من هذه المدرسة رجالات أصبحت لهم شهرة عالمية في الشعر والأدب، وتشكلت لهم حلقات ومجتمعات خاصة كانت ولا زالت تفيض بالظرف والطرف، وأصبحت هذه المجالس تتفنن في انتخاب المواضيع الأدبية، الشعرية منها والنثرية، وكان الداخل إليها ينتقل من عالمه الخاص إلى عالم ثان لم يكن يحسن به في غير هذا المكان، وفي مجالس الأدباء ومجالستهم تذوب الأفكار المزعجة، وتُنسى الأشجان والأحزان، وهكذا

تمكنت النجف أن تنتج في سيرها الدراسي مدرسة أدبية عفوية لم تستند على أسس معينة ولا على أساتذة متخصصين، بل كانت مدرستها المجالسُ العامة، والاجتماعات الخاصة، ومواسم الأحزان والأفراح، حيث كانت تتجاوب العواطف في أجوائها فتحلق بالنفوس إلى الأجواء الفنية الساحرة، ومن هذه المجالس تخرج أمثال الشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ علي الشرقي، والسيد أحمد الصافي النجفي، ومحمد مهدي الجواهري، وغيره ممّن حصل على شهرة أدبية عالمية، ولم تكن الأوليّة الشعرية في مجالس النجف لهؤلاء المعروفين وإنما تمكنوا أن يتصلوا بالعالم الخارجي فانتشرت آثارهم في صحفه ومجلاته، وحازوا ما حازوا من الشهرة في الأوساط الأدبية العالمية. وإلاّ، ففي النجف من الشخصيات الأدبية الشعرية، ما تخشع لها آثار هؤلاء الأعلام، وأخيراً انتقلت المجالس الأدبية إلى تنظيم جمعيات حوت مجموعة لامعة من الأدباء، والشعراء، ومنها جمعية الرابطة الأدبية، والتي هي أول جمعية أدبية تشكلت في النجف الأشرف، والتي عاشت في خضم الحوادث الهائجة وهي تحمل المشعل الأدبي في النجف، وتجاري الحركات الأدبية العالمية مجتنبة عمّا يُشوِّه سمعة النجف الدينية من الآراء والنزوات المجافية للدين والأخلاق، وها هي ذي تخترع هذا الموسم لتوجد فيه مجالاً للانطلاق الفكري.

ولما كانت مهمة رسالة النجف بث التوعية الدينية في الشعوب الإسلامية، كان من الطبيعي أن ترتبط بالتطورات الاجتماعية التي تخلقها الظروف السياسية. لأنّ الدين الإسلامي لا يحصر تعاليمه برابطة الإنسان بربه فقط، بل يعمّم أحكامه بما يوصل الإنسان بالإنسان، والمجتمع بالمجتمع، وهذا الشمول الديني هو الذي يفرض على النجف أن تقود الشؤون الاجتماعية في العواصف، ولقد رأينا علماء النجف في هذا القرن يقودون الحركات العارمة من واقعة التنباكو التي دحرت الاستعمار الكافر من احتلال إيران اقتصادياً، ومن قيادة فقيد العلم والأخلاق والأدب السيد محمد سعيد الحبوبي لجهاد سلطة الاحتلال ومن فتوى آية الله المرحوم الميرزا محمد تقي الشيرازي التي ألهبت ثورة العشرين، وأخيراً من جهاد سيدنا آية الله العظمى السيد محسن الحكيم للحركات المجافية للعقيدة والأخلاق، إن هذه السلسلة الذهبية التي تربط مراجع الدين بالحركات الاجتماعية

تلمسنا رابطة النجف الاجتماعية بالمجتمع المسلم أينما كان، وإن هذه القيادة ما زالت ولن تزال مختصة بهؤلاء الأعلام، لأن الشعب المسلم لا يثق إلَّا بعلمائه الأبرار، ولا يتبع إلَّا قيادتهم بالرغم من تجرّد هذه القيادة عن السلاح والثروة والرجال، حفظ الله النجف، وصان حوزتها العلمية من الكوارث وأدام سلطة علمائهم، وظلالهم على الأمم الإسلامية بمحمد وآله الطاهرين.





دار الحكمة في المشراق «هُدّمت سنة ١٩٩١م»



الفصل الثامن
الجامعة النجفية ومدارسها الدينية

لقد مرَّ بنا الحديث عن الجامعة النجفية وأساليب التدريس فيها، أما الآن فنقدم معلومات تتصل بأماكن التدريس وما واكبها من شؤون المدارس الدينية، وبالرغم من أن الأبحاث السابقة تعرضت إلى المدارس الدينية إلّا أنها كانت عابرة، لذلك يجدر بنا أن نعرض لشيءٍ من التفصيل لها فنقول: إن الصحن الشريف وما يحيط به من الجوامع تظل هي المكان الأمثل للتدريس، سواء كان ذلك في صعيد دراسة السطوح (ومكانها الرئيسي هو الصحن) أم كان في صعيد بحوث الخارج لكبار المرجعيين أو الفقهاء، ومكانها الجوامع المحيطة بالصحن، مثل: جامع العمران، وجامع الخضرة، وجامع الطوسي... جامع الهندي وجامع الشيخ مرتضى الأنصاري إلخ... إلّا أنه في الوقت نفسه نجد أن حلقات التدريس لا تقتصر على الأماكن المذكورة بل تتجاوزها إلى الجوامع والمدارس الخاصة، وبما أن الجوامع خصّصت أساساً للصلاة وإنما جاء التدريس فيها عرضياً إلّا أن المدارس على عكس ذلك، حيث خصّصت للدراسة، أو لمتابعة نتائج الدرس، أو لبحوث الخارج الصغيرة علماً بأن هذه المدارس قد شيّدها المحسنون من التجار والسلاطين منذ نشأة الجامعة النجفية.

يضاف إلى ذلك أن هذه المدارس مزوّدة بغرف سكنيّة، أي أنها مكان للدراسة والسكنى بالنسبة إلى غير المتزوجين بطبيعة الحال وإن كانت هناك مدرسة واحدة مخصصة لسكن المتزوجين أيضاً.

ويحسن بنا أن نقدم إلى القارىء جملة من البحوث التي تناولت المدارس الحوزوية من حيث نشأتها وتطورها وأنظمتها، ونبدأ بذلك بما كتبه صاحب «ماضي النجف وحاضرها» **الشيخ جعفر محبوبة**، حيث قال:

المدارس الدينية[1]

النجف بعد أن حطّ العلاّمة الشيخ الطوسي (قدّه) رحله بها بذر بها بذور العلم والعرفان فأينعت من حينه واجتنى من ثمارها كثير من الفضلاء أهل الدين وأمها من سائر أقطار الشيعة... جمع غفير ليقتنصوا من بنات أفكاره فراجت بها أسواق العلم وصارت على ممر السنين والأيام مركزاً من مراكز العلم الشهيرة[1] وأنشأت فيها سلاطين الشيعة ووزراءهم والعلماء أنفسهم كثيراً من المدارس ولا سيما في عصر الجلاريين والإيلخانيين حتى الصفويين ولكنها ضاعت حتى اسمها إلاّ ما نقف على ذكره صدفة إن اتفقت ـ وهذا ابن بطة حين دخوله النجف ذكر ما فيها من مدارس وكذلك زين العابدين الشيرواني ذكر ما أسّسه السلطان محمد خدابنده وابنه أبو سعيد من أبنية وعمارات وعدّ منها مدرسة وكذلك غيرهما من المؤرخين.

مدرسة المقداد السيوري[2]

هي إحدى مدارس النجف المشهورة في عصرها ومن حسن الصدف أني

(١) ذكر العلامة الشهير السيد حسن الصدر «ره» في آخر كتابه تكملة «أمل الآمل» المخطوط مراكز العلم فقال: ومن مراكز العلم للشيعة النجف الأشرف المشهد الغروي على مشرفها السلام لما هاجر إليها الشيخ أبو جعفر شيخ الطائفة الطوسي «ره» وسكنها خارجاً من بغداد خوفاً من الفتنة التي تجددت فيها وأحرقت كتبه وكرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام سنة ٤٤٨، وبقي يدرس في المشهد الغروي اثنتي عشرة سنة وبقي تلامذته في النجف واستمر العلم والمهاجرة إليها حتى كان عصر الشيخ الأجلّ علي بن حمزة بن محمد بن شهريار الخازن بعده بالمشهد الغروي على مشرفه الصلاة والسلام وكان ذلك سنة ٥٧٢ كثر أهل العلم وصارت الرحلة إليه ثم لما نبغ المحقق «ره» في الحلة ضعف ذلك ثم عادت الرحلة إليها في زمن المقدس الأردبيلي «ره» فقوي ذلك واشتدّ الناس إليه من أطراف البلاد وصارت من أعظم مراكز العلم واستمرت الهجرة إليها إلى اليوم وليس اليوم مثلها مجتمع لأهل العلم وإن ضعف الناس عن طلبه وقامت سوق كساده ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً «انتهى».

(٢) هو الشيخ جمال الدين أبو عبد الله المقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيوري =

وقفت على كتاب مصباح المتهجد للشيخ الطوسي «ره» مخطوط عند الشيخ الإمام العلامة الميرزا محمد حسين النائيني «ره» وفي آخره ما نصّه: كان الفراغ من نسخه يوم السبت ثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٨٣٢ على يد الفقير إلى رحمة ربه وشفاعته عبد الوهاب بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن السيوري الأسدي عفي عنه بالمشهد الشريف الغروي على ساكنه السلام وذلك في مدرسة المقداد السيوري (انتهى) وهذه المدرسة باقية حتى اليوم ولكن تغيّر اسمها فإنها تعرف بالمدرسة السليمية نسبة إلى بانيها سليم خان فإنها خربت مدة واشتراها هذا الرجل وعمرها مدرسة فنسبت إليه ـ كما حدثنا به العلامة الخبير السيد أبو تراب الخونساري «ره».

مدرسة الشيخ ملّا عبد الله[1]

أخذت هذه المدرسة نصيباً وافراً من الدرس والتدريس وكانت زاهرة بأهل العلم ـ موقعها في محلة المشراق اليوم ويعين محلها وموقعها بعض المتتبعين للآثار من النجفيين وهي الآن دار لبعض السادة الأشراف من آل كمونة وكانت معرساً لأهل العلم يوم كانت الهجرة للمقدس الأردبيلي «ره» ومن كان بعده من العلماء. وقفت على صك مؤرخ سنة ١٢٧٣ فيه بيع دار من دور الملالي والمشتري من آل معله ويحد الدار بالخربة المعروفة بالمدرسة القديمة، وهذه الخربة اليوم هي دار لبعض الأشراف من السادة.

المدرسة الغروية

أسّست هذه المدرسة في أوائل القرن الحادي عشر وتخرّج فيها كثير من

= الأسدي الحلي النجفي صاحب كتاب كنز العرفان في فقه القرآن مطبوع. كان من أفاضل العلماء وأكابر الفضلاء وهو أجل تلامذة الشهيد الأول محمد بن مكي «ره» ـ وفخر المحققين ابن العلامة «ره» والسيد ضياء الدين عبد الله الأعرجي ألف في أكثر الفنون وخاصة الفقه وعلم الكلام وهو يروي بالإجازة عمّن ذكرناه ويروي عنه ابنه الشيخ عبد الله والشيخ زين الدين علي بن الحسن بن العلاّ والشيخ محمد بن شجاع القطاه والسيد رضي الدين بن عبد الملك الواعظ القمي. توفي نهار يوم السادس والعشرين من شهر جمادى الآخر سنة ٨٢٨ هـ.

(١) هو الملاّ عبد الله بن شهاب الدين اليزدي الشاه ابادي المتوفى في النجف الأشرف سنة ٩٨١ وهو صاحب الحاشية في المنطق جد الملالي خزنة الحرم العلوي قديماً.

الأفاضل وكان ابتداء تخطيطها مع تخطيط الصحن الشريف، وينسبها السيد البراقي إلى الشاه عباس الأول كما هو المعروف عند بعض النجفيين المتتبعين ولعلها هي مدرسة الصحن الشريف التي موقعها في الجهة الشمالية منه وبابها في الإيوان الثالث من تلك الجهة قريب من الجهة الشرقية، وقفت على كتاب أصول الكافي مخطوط وفي آخره ما نصّه: تمّت كتابة أصول الكافي على يد الفقير إلى الله الغني يوسف بن عبد الحسين النجفي الشهير بالصلنباوي في المدرسة الغروية على مشرفه أفضل الصلاة والسلام يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رجب المرجب سنة ١٠٦٩ «اه» وفي ذلك الوقت نفسه كتب الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن موسىٰ المغربي مشيخة الاستبصار في المدرسة الغروية أيضاً ورأيت نسخة من الاستبصار في آخره ما نصّه: كتبه فرج الله بن فياض الجزائري النجفي سنة ١٠٤٣ في المدرسة الرومية بكنف القبة الغروية. والظاهر هي هذه المدرسة.

وكان لهذه المدرسة في أيام الحكومة التركية بعد تشكيل التجنيد الإجباري سنة ١٢٨٦ شأن عظيم فإنها عينت مدرساً خاصاً لها وانتسب لها كثير من حملة العلم إذ إن الحكومة سنّت قانوناً خاصاً يسمح لطلبة العلم الذين يؤدّون الامتحان أن لا ينخرطوا في سلك الجندية وجعلت في بعض الألوية والأقضية مدارس فكانت هذه المدرسة هي إحدى المدارس الرسمية في النجف ولم تزل على ذلك حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري فتهدمت حجراتها وسدّ بابها إلى أن قيض الله لها أحد التجار وهو الشهم السيد هاشم زيني النجفي فعمرها سنة ١٣٥٠ وجعلت محلاً للزائرين والواردين إلى النجف وقد أرّخ هذه العمارة الخطيب البارع الشيخ محمد علي اليعقوبي بقوله:

حزت يا هاشم[1] زيني رتبة لم يحزها أبداً من قد سلف
دارك الخلد غداً إذ أرخوا شدت للزوار داراً بالنجف

وقد أرّخها أيضاً الكامل الأديب السيد مهدي الأعرجي بقوله:

---

(١) توفي هذا السيد يوم الخميس السادس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٦٦ بعد مرض طويل ودفن في داره بمحلة العمارة في مقبرة أعدّها لنفسه أيام حياته.

رئيس نحاة الندى هاشم ألم تر إعرابه مستبينا
فمذ شاد أرخت دار النوال بناها على الفتح للزائرينا

مدرسة الصدر[١]

هي أقدم المدارس الحاضرة اليوم وأوسعها وفيها ما يزيد على ثلاثين غرفة في طابق واحد، موقعها في السوق الكبير وهي إلى سور البلدة أقرب منها إلى الصحن الشريف. وكان ابتداء تشكيلها بعد الفراغ من بناء السور الحاضر، ولم تزل مزدهية بأهل العلم ورجال الدين، وأوقف لها مؤسّسها موقوفات تقوم ببعض واجبات طلاب العلم، وفيها إطعام في بعض الليالي لمن حلّ بها، وبإزائها مقبرة لعامرها وسقاية ماء.

مدرسة المعتمد[٢]

كان تشكيل هذه المدرسة في أيام الفقيه الشيخ حسن ابن الشيخ الكبير

(١) هو الحاج محمد حسين خان الأصفهاني كان يشغل منصب الصدارة للسلطان فتح علي شاه القاجاري وهو من أولي الخيرات وله آثار كثيرة في النجف منها هذه المدرسة ومنها السور الحاضر اليوم، وذكر فرهاد ميرزا في كتابه الفارسي «جام جم» المطبوع أنه صرف في بناء السور مع المدرسة خمسة وتسعين ألف تومان من الذهب الأشرفي المثقالي وله الباب الفضي الأول في إيوان الذهب وله في إيران وباقي العتبات المقدسة آثار جليلة تقدر فتشكر، وكان سخياً جاداً محباً لأهل العلم والعلماء وهو جد الطائفة النجفية «آل نظام الدولة» فيهم الأدباء وأهل العلم توفي سنة ١٢٣٩ ونقل إلى النجف ودفن في مقبرته التي أعدّها لنفسه بإزاء مدرسته ورثته الشعراء بمراثٍ كثيرة مدونة.

(٢) حدثني المعمر الحافظ العالم السيد عبد الحسن ابن السيد عبد الله الدزفولي عن العلامة السيد حسين آل بحر العلوم «قده» أن معتمد الدولة بعث أموالاً كثيرة - على يد العلّامة الشيخ مهدي ابن الشيخ علي آل كاشف الغطاء «قده» ليعمل صندوقاً فضياً على القبر الشريف فعمله وزاد من المال شيء فعمل منه هذه المدرسة انتهى «قلت» معتمد الدولة هو عباس قلي خان وزير محمد شاه القاجاري توفي في إيران سنة ١٢٤٩ ونقل نعشه إلى النجف ورثاه الشيخ جعفر ابن الشيخ علي آل كاشف الغطاء بقصيدة يقول في أولها:

ما بال عينك لا تجري الدموع دما فقد طوى الدهر من أبنائه علما
أودى بمن ترهب الأيام سطوته من بعد ما كان قد ألقى له السلما

ونقلنا عن السيد البراقي عند ذكر الشباك الفضي. أنها جددت جميعها سنة ١٢٦٢ بأمر المعتمد عباس قلي خان وهذا لا يوافق تاريخ وفاته. أقول: لعل الأموال المرسلة من ثلثه أو وصاياه.

صاحب كشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٦٢. أخذت بحظ وافر من العمران وكانت زاهية بأهل الفضل حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري فتهدمت وسقطت غرفها وسدّ بابها حتى عادت خراباً لا تسكن. وسعى العلّامة الحجة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء رحمه الله في تجديد عمارتها فعمرت وعادت آهلة بالسكان. موقعها في محلة العمارة وبجنبها من جهة القبلة مسجد الشيخ موسىٰ «ره» ومن الجهة الشرقية مقبرة الشيخ الكبير «ره» وأبنائه الأعلام، وساحة المدرسة مع المقبرة والمسجد من موقوفات أمان الله خان السنوي (المتوفى سنة ١٢٤١) التي وقفها على الشيخ الكبير سنة ١٢٢٨ كما تحكيه لنا وثيقتها الوقفية.

مدرسة الشيخ مهدي(١)

اختطّ هذه المدرسة العلامة الشيخ مهدي ابن الشيخ علي آل كاشف الغطاء «ره» سنة ١٢٨٤ «قبل وفاته بخمس سنين» أرسل إليه مال كثير من «قرباغ» إحدى بلاد «آذربيجان» فبنى به هذه المدرسة وأخرى في كربلاء وهي اليوم معروفة بالنسبة إليه. موقعها في محلة المشراق مقابلة لمقبرة السيد بحر العلوم والشيخ الطوسي «ره» ومسجده، وبإزائها من جهة الشمال مدرسة القوام الشيرازي. محل المدرسة كان سرايا «مركزاً» إلى الملاّ يوسف كليدار النجف وحاكمها وكان يضرب المثل في سعته في النجف فيقال سراي الملاّ يوسف، باعه ورثته بعد وفاته على العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ علي آل كاشف الغطاء فبناه العلّامة الشيخ محمد دارين (برانية ودخلانية) وبعد وفاته باعه ورثته سنة ١٢٧٣ على العلامة الشيخ عبد الحسين الطهراني ثم باعه العلامة الطهراني سنة ١٢٨٤ على العلّامة الشيخ مهدي فبناه مدرسة في هذه السنة ـ كما تحكيه صكوكها، وتحكيه صورة إجازة البناء المؤرخة ١٣ نيسان من السنة المذكورة.

(١) أشرفت هذه المدرسة على الانهدام وقلت رغبة أهل العلم في سكناها خوفاً من انهدامها عليهم وبهمة الفاضل المتولي لها الشيخ محمد علي ابن الشيخ عبد الكريم آل كاشف الغطاء «المتوفى سنة ١٣٦٧» وبمساعدة الحجة السيد أبو الحسن الأصفهاني رممت سنة ١٣٦٥ وعادت مأهولة عامرة بأهل العلم حتى اليوم.

مدرسة القوام

هي من المدارس الشهيرة في النجف تخرّج بها كثير من الفضلاء وأهل العلم موفقة لأهل التقوى والصلاح والغالب على نزولها الزهد والعبادة، تمّ بناؤها سنة ١٣٠٠ وفيها ست وعشرون غرفة وتعرف بالمدرسة الفتحية نسبة إلى بانيها فتح علي خان الشيرازي. موقعها في محلة المشراق مجاورة لمدرسة الشيخ مهدي ولمقبرة الإمام السيد بحر العلوم «ره» وهي واسعة كبيرة الساحة لها أوقاف كثيرة تصرف على من حلّ بها شهرياً أو سنوياً وكان فيها إطعام في بعض الليالي وقد انقطع ذلك عنها أخيراً وتوجد على جبهة بابها أبيات عربية وفارسية وفيها ثلاثة تواريخ - الأبيات:

يا من بنى هذا الأساس المتين ... إنا فتحنا لك فتحاً مبين
بعهد خاقان فلك باركاه ... ناصر دين خسرو إيران زمين
تاج السلاطين سراج الملوك ... وعروة الوثقى وحبل المتين
نام برازنده به تخت وكلاه ... قدر فرانيده تاج ونكين
ظلّ الإله دام اظلاله ... على البرايا أبد الآبدين
خواجه آزاده جناب أجل ... جاكر ديرينه غلام كهين
صاحب ديوان كه شداز سعي أو ... بازوي دولت قوي وبشت دين
مهتر فرخنده نسب ميرزا ... (فتح علي خان) سعادة قرين
إز سر إخلاص دراين خاك باك ... كرد بنائي جه بهشت برين
مدرسه مجمع أرباب فضل ... مصطبه محفل طلاب دين
جايكه مردم بير ميز كار ... ازلفت الجنة للمتقين
(فتحيه) نا ميدش وزين نام نيك ... كشت بصد عز وشرافت قرين
سألت عن تاريخ هذا البناء ... فقل لي أضف إلى (الغين شين)[1]
باز زفر هنك جه كردم سؤال ... كفت (بهشتي بنكر در زمين)
نصر من الله وفتح قريب ... إذا نقصت الباء أيضاً يبين

(١) التاريخ منه حرف «غ» مع حرف «ش» وكذلك في البيت الثاني ما بين الهلالين هو تاريخ وكذلك الآية في صدر البيت الثالث بعد حذف الباء.

المدرسة السليمية

مدرسة صغيرة واقعة في سوق محلة المشراق تقابل مسجد الصاغة وعند حدوث السوق اقتطع بعض غرفها وجعل دكاكين ووقفت على أن تصرف وارداتها في حاجيات المدرسة غير أنه قد اغتصبها أولياء الوقف ـ اختطت هذه المدرسة في حدود سنة ١٢٥٠ وتنسب إلى اسم بانيها (سليم خان) من أهالي شيراز، وله مدرسة أخرى في كربلاء أيضاً تعرف بهذا الاسم ولها موقوفات كثيرة في كربلاء وشيراز، وهي مدرسة المقداد السيوري كما تقدم.

كانت هذه المدرسة بصفة دار يسكنها أهل العلم وفي أيام العلّامة الشيخ الأنصاري (قده) كان هو المتولي عليها وقد أسكنها أخاه الشيخ صادق فبقي بها مدة غير يسيرة وبعد وفاته تولّاها ابنه الشيخ محمد طاهر وفي أيام آية الله الخراساني (قده) انتزعت يده من التولية وجعلت بيد السيد أبو القاسم أحد حاشية آية الله الخراساني وحتى الآن يتولاها بعض من ينتمي إليه بالقرابة.

مدرسة الإيرواني[1]

هي إحدى مدارس النجف الشهيرة كان ابتداء تأسيسها سنة ١٣٠٥ ويسكنها طلاب العلم من الترك خاصة ـ موقعها في محلة العمارة في شارع آل محيي الدين مجاورة لدار آية الله الحجة الأصفهاني «قدّس سرّه» الباذل لمصروفاتها الحاج مهدي الإيرواني وسبب بنائها أن بعض طلاب الترك كان نازلاً في مدرسة أكثر سكانها من أهالي رشت فتنازعوا بينهم يوماً حتى آل أمرهم إلى الضرب والشتم وطرد الطالب التركي من المدرسة ورمي رحله وأمتعته خارجها فجاء المطرود إلى الفاضل الإيرواني المذكور شاكياً واتفق أن الرجل الباذل كان جالساً فلما وقف على الحال أمر من حينه ببناء هذه المدرسة فعمرت أحسن عمارة وخصّصها بطالبي العلم من الترك واشترط أن يدفن بها وكان ختام بناء الطابق

---

(١) هو العلامة الشيخ ملا محمد المعروف بالفاضل الإيرواني كما ذكرت ترجمته في الجزء الثاني ص٥٦.

العلوي سنة ١٣٠٧ وفيها تسع عشرة غرفة وهي اليوم آهلة بحملة العلم فلما توفي الواقف دفن فيها مع الفاضل الإيرواني (قده).

مدرسة القزويني

هي من المدارس العامرة الآهلة بأهل العلم تشتمل على طبقتين وفيها ثلاث وثلاثون غرفة عمرها الحاج محمد آغا الأمين القزويني سنة ١٣٢٤ وهو من أهل بيت معروفين بالثروة يعرف بيتهم (ببيت الكروري) كانت قبلاً خاناً معداً للمسافرين فابتاعه الرجل المذكور وعمره مدرسة ووقف عليها أراضي زراعية تبلغ وارداتها في هذا الوقت سنوياً أكثر من ستمائة تومان تصرف على طلابها. موقعها في محلة العمارة بسفح التل المعروف (بالطمه) ويقال إنها كانت قديماً مفخراً للكيزان.

مدرسة البادكوبئي

مدرسة عامرة غاصة بأهل العلم. موقعها في محلة المشراق في شارع ينتهي شرقاً إلى سور البلدة وإلى مدرسة الغري الأهلية وبإزائها من جهة الغرب مسجد كبير أسّسه أيضاً عامرها، وهو مشرف على شارع ينتهي إلى السوق الكبير يعرف بباب (السيف) اختطها وعمرها الحاج علي نقي البادكوبئي في حدود سنة ١٣٢٥ لما زار النجف ومكث فيها ما يقرب من سنة.

مدرسة الهندي

هي من المدارس المعلومة في النجف واسعة كبيرة الساحة آهلة بأهل العلم مشتملة على طبقة واحدة وقد آذنت اليوم بالخراب. كان تخطيطها في حدود سنة ١٣٢٨. موقعها في محلة المشراق بالقرب من دور آل كمونة، وعلى الجهة الشرقية منها دور آل بحر العلوم وبابها في رأس دريبة طويلة ضيقة تنتهي إليها. كان محلها قديماً داراً لبعض أحفاد العلاّمة الحجة السيد بحر العلوم «ره» ثم اشتراها رجل من أهالي لاهور من ملحقات بنجاب (الهند) اسمه ناصر علي خان فجعلها مدرسة فعرفت به.

مدرسة الشربياني[١]

هي من المدارس المشهورة في النجف يسكنها بعض أهل العلم. اختطها هذا الشيخ في أيام زعامته في حدود سنة ١٣٢٠. موقعها في محلة الحويش في آخر الشارع الذي فيه مدرسة السيد محمد كاظم اليزدي، كان هذا الشارع قديماً يعرف (بعقد الهنود) كما يحكيه الصك المؤرخ سنة ١٢٦٧ فإن فيه استئجار خربة وقف بجنب هذه المدرسة وهذه الخربة من موقوفات آل عصيدة. مشتملة على طبقة واحدة ومرّت عليها أعوام بعد وفاة مؤسّسها معطلة حتى أعدّت للإيجار كسائر البيوت. ومحل هذه المدرسة كان داراً لآل بازي ـ أسرة نجفية.

مدرسة الحاج ميرزا حسين الخليلي الصغيرة[٢]

مدرسة صغيرة مشتملة على طبقتين فيهما ثماني عشرة غرفة. موقعها في محلة العمارة في أول الشارع المنتهي إلى مسجد الشيخ آغا رضا الهمداني (قده) ويجاورها من جهة الشرق الخان الذي عمره ووقفه العلاّمة السيد محمد كاظم اليزدي للزائرين. كان ابتداء تأسيسها سنة ١٣٢٢ والباذل لمصروفاتها الميرزا محمد علي خان كركاني وجعل له بها مقبرة دفن بها بعض عائلته وهو اليوم حي يرزق.

مدرسة الحاج ميرزا حسين الخليلي الكبيرة

مدرسة واسعة كبيرة الساحة محكمة البناء فيها خمسون غرفة آهلة بأهل العلم والفضل. موقعها في محلة العمارة بالشارع العام المعروف (بعقد

---

(١) هو العلامة الشيخ محمد المعروف بالفاضل الشربياني كان من مشاهير وعلماء النجف تخرج على العلاّمة السيد حسين الترك وكان من أفاضل تلامذته ومقرري درسه انتهت إليه الرئاسة على الترك بعد وفاة أستاذه المذكور ووفاة العلامة المجدد السيد الشيرازي، وكان أهل العلم في أيامه في أهنأ عيش وأرغده توفي في النجف سنة ١٣٢٤ بعد أن طوى ثمانين صحيفة من عمره ودفن في الصحن المقدس بقرب الساباط من الجهة الشمالية بغرفة خاصة به.

(٢) هو العلم الشهير الحاج ميرزا حسين ابن الحاج ميرزا خليل الطهراني كما ذكرت ترجمته في الجزء الثاني من ماضي النجف وحاضرها ص٢٢٦.

السلام)[١] ويجاورها من جهة الشرق مرقد العالم الزاهد الشيخ خضر شلال المتوفى سنة ١٢٥٥، عقدت فيها محافل للإيرانيين للمطالبة بحقوقهم أيام استبداد حكومتهم، واحتفل بها العلماء سنة ١٣٢٧ وفي الثاني من رجب عند خلع محمد علي شاه القاجاري ونصب أحمد ميرزا مكانه واشترك في هذا الاحتفال العثمانيون والإيرانيون وهو احتفال عظيم. وتعرف أيضاً بمدرسة القطب لأنها كانت قبلاً خاناً لبعض الأشراف وهو السيد علي القطب فاشتراه هذا الشيخ «ره» فوقفه وعمّره مدرسة فبقيت على ذلك الاسم وجرى عقد الوقف في السابع عشر من ذي القعدة الحرام سنة ١٣١٦ كما يحكيه صك الوقفية المختوم بخواتيم علماء عصره. كالآخوند ملّا محمد كاظم الخراساني. والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد طه نجف وغيرهم من مشاهير العلماء. وقد بذل ثمنها وبعض المصروفات عليها للشيخ المذكور معتمد السلطنة الحاج محمد حسين خان (أمير بنج)[٢]، وقام بعمارتها رجال آخرون، عمر المقبرة مع الجهة المتصلة بها من المدرسة أمير تومان صمصام الملك العراقي. وعمر الجهات الثلاث مجد الدولة جهان كيرخان.

مدارس الآخوند[٣] الكبرى

هي من المباني المعظمة والمساطب المنظمة فسيحة الساحة كثيرة المساكن

---

(١) ويعرف «بعقد الذهب» كما حدثني بذلك العلّامة الشيخ عبد الرضا ابن الشيخ مهدي «ره» فإنه رأى بعض صكوك دار في هذا الشارع ويحسب أن الوجه في التسمية بهذا الاسم «عقد الذهب» هو أن الواقف فيه يشاهد القبة المشرفة الذهبية وهو الوجه في تسميته «بشارع السلام» إذ الواقف فيه يشاهد القبة فيسلم على من فيها «قلت» هذا الوجه حسن غير أن الصكوك التي رأيتها هي سابقة على عصر التذهيب.

(٢) والتزم لهذا الرجل إزاء ما بذله من المال أن يدفن هو مع خمسة ممّن يحب مع الشيخ في المقبرة وقد دفن زوجته وهو اليوم حي يرزق.

(٣) هو العالم الكبير مالك أزمة التحقيق والتدقيق الشيخ ملّا محمد كاظم الخراساني - صاحب الكفاية في الأصول وغيرها من المصنفات هو أشهر مشاهير عصره كان آية في الذكاء والحفظ وسرعة الانتقال متقناً لعلمي الحكمة والكلام وأصول الفقه وهو الذي تنبه لخلاص شعبه من رق الاستبداد ونزع عنه نير الاستعباد له أياد مشكورة على العلماء وأهل العلم وحملة الدين إذ جدد لهم منهج الدراسة، صنف في الأصول والفروع فكشف عن غامضها الحجاب وميّز القشور عن اللباب، وكانت حوزته تعد بالمئات وربي كثيراً من العلماء. وحقاً يقال هو أبو العلماء على=

في طابقين جدرانها مكسوة بالحجر القاشي الملون آهلة بأهل العلم. وكان الفراغ من بنائها سنة ١٣٢١.

موقعها في محلة الحويش بالشارع العام الممتد من سوق باب القبلة إلى باب السور الذي يعرف بباب السقائين، مكتوب على بابها بيت شعر فيه تأريخ الفراغ من عمارتها ـ هو:

مدرسة الكاظم قد أرّخوا أساسها على التقى والرشاد

الباذل لمصروفاتها جان ميرزا من أهالي بخارى وكان وزيراً للسلطان عبد الأحد البخاري، صالحاً تقياً وله خيريات كثيرة توفي في حدود سنة ١٣٢٢.

مدرسة الآخوند الوسطى

وهي من المدارس العامرة الزاهرة بأهل العلم مشيّدة البناء بأحسن طرز وأرضها معبدة بالرخام وجدرانها منقوشة بالحجر القاشي، وتعرف بالوسطى نسبة إلى المدرسة الكبيرة والصغيرة التي يأتي ذكرها. موقعها في محلة البراق في شارع آل الأعسم يقابلها من جهة الغرب خان كبير يعرف (أسكلة السمك) تتقوم من طبقتين وهي مثل أختها (المدرسة الكبيرة) شكلاً ولكنها أصغر منها ساحة. وكان الفراغ من عمارتها سنة ١٣٢٦ وعلى بابها بيتان وفيهما تأريخ الفراغ من عمارتها وهما للكامل الأديب الشيخ إبراهيم أطيمش ـ البيتان:

= مؤلفاته الأصولية اليوم تدور رحى الدراسة وفي أيامه راجت أسواق العلم وازدحم عليه أهل الفضل حتى غصّت النجف من كثرة المهاجرين فأدّت الحال إلى تشكيل مدارس لتلامذته فبنى ثلاث مدارس وكان عصره عصر العلم والعرفان عصر الترقي. عصر تنور الأفكار. فيه حدثت المطابع والصحف وأكثر المدارس الحديثة. وقد فاجأه الأجل ليلة الثلاثاء في الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢٩ وكان عازماً في صبيحة تلك الليلة على السفر إلى إيران لجهاد الروس التي كانت قد أنشبت أظفارها في البلاد الإيرانية حتى آل الأمر إلى رمي القبة الرضوية في طوس بالبنادق ومقاساة المسلمين أشدّ البلاء وكان لنبأ موته صدى في العالم الإسلامي. دفن في الصحن الشريف في حجرة على يمين الخارج منه من الباب الشرقي الكبير، ورثته الشعراء بمراثي كثيرة وجاء في تأريخ وفاته للعلامة الشيخ عبد الحسين ابن الشيخ عبد علي آل صاحب الجواهر «قده»:

لله يوم عمّت رزيته فلم تدع قلب مسلم سالم
يفقد أقصى الرجا مؤرخه في فقد باب الحوائج (الكاظم)

هـذي مـديـنـة عـلـم وبـاب سـر الـعـوالـم
لـلعـلم شيّـدت فـأرخ لمعـدن العلم (كـاظم)

عمّرها الوزير الكبير البخاري آستان قلي بك المتوفى في حدود سنة ١٣٣٠ وكان وزيراً للسلطان البخاري عبد الأحد المذكور وبعد وفاته تـولّى منصب الوزارة لولده الجالس مجلسه (عـالم خان). وهـذا الوزيـر كان رجـلاً مواليـاً للأئمـة (ع) محباً لأهل العلم، ولـه خيريـات كثيرة شـاد في النجف في وقت واحد مـدرستين هذه إحداهما والأخرى مدرسة السيد محمد كاظم اليزدي «ره» الآتي ذكرها.

مدرسة الآخوند الصغيرة

مدرسة عـامرة حـافلة بأهـل العلم وأكثر نـزالها الأفغـانيون فـاشتهرت بهم. مـوقعها في محلة البـراق في الشارع المشهـور بشارع (صـد تومـان) مشتملة على طابق واحد. عمّرها الحاج فيض الله البخاري خازندار الـوزير جـان ميرزا، وكـان الفـراغ من بنائهـا في حدود سنـة ١٣٢٨. وموقعهـا كـان من جملة دور آل بـازي الأسرة النجفية المنقرضة اليوم من النجف.

مدرسة البخاري

مـدرسة عـامرة مشـرقة بـأنوار أهـل العلم ورجال الـدين وفيها بعض الكتب المـوقوفـة على ساكنيهـا، موقعهـا في محلة الحويش مـلاصقة لمـدرسة الأخـونـد الكبرى عمّرها محمد يوسف البخاري وكان من خواص جان ميرزا فرغ من بنائهـا سنة ١٣٢٩.

مدرسة السيد محمد كاظم[1]

هي من المدارس الوحيدة في النجف لا نظير لها في فخـامة البنـاء والسعة

---

(١) ينتهي نسبـه الشريف إلى إبـراهيم الغمر ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط (ع) كـان عـالمـاً فاضلاً فقيهاً أصولياً انتهت إليه الرئاسة العامة في جميع أقطار الشيعة كانت تجبى إليه الأموال من جميع الأطراف وكان أديباً شاعراً مـاهراً في اللغتين «الفـارسية والعـربية»، ولـه منثورات جـاد بها طبعـه على سبيل الحكم والمـواعظ، هاجـر إلى النجف بعد فـراغه من المقـدمات وحضـر على الفقيهين الشيـخ مهدي ابن الشيـخ علي والشيخ راضي وحضـر في الفقـه والأصـول أيضـاً على =

وكثرة الغرف فيها ثمانون غرفة في طابقين. بديعة الشكل أرضها مبلطة بالرخام الصقيل وجدرانها مكسوة بالحجر القاشي، وهي اليوم موئل لرواد العلم ورجال الدين كما أنها محط أنظار السواح والزائرين. كان ابتداء تأسيسها في شهر صفر سنة ١٣٢٥ وتمّ بناؤها سنة ١٣٢٧ عمّرها الوزير الكبير البخاري (آستان قلي) عامر مدرسة الآخوند الوسطى الذي كانت طلاب العلم في أيامه في أهنأ عيش وأرغده بما تدره يداه على العلماء. بعث أموالاً كثيرة لعمارة هذه المدرسة ووقف لها بعض الموقوفات[1] على أن تصرف وارداتها في واجباتها من الماء والضياء وما تحتاجه من الإصلاح، موقعها في محلة الحويش في الشارع الذي فيه مدرسة الفاضل الشربياني.

وقد أرّخ بعض الأدباء هذه العمارة بأبيات وقد كتبت بالحجر القاشي على جبهة بابها من الخارج ـ الأبيات:

قد أبهج المصطفى وعترته — بذا وقالوا شيّدت دعائمنا
يا طالبي فقهنا وحكمتنا — دونكم هذه معالمنا
مدارس الدين أرخوا لكم — جدد للعلوم كاظمنا

وقال الشيخ علي المازندراني مؤرخاً:

أسّسها بحر العلوم والتقى — محمد الكاظم من آل طبا
وفي بيوت أذن الله أتى — تأريخها إلاّ بحذف ما ابتدا[2]

= العلاّمة المجدد الشيرازي «قده» وتلمذ عليه جماعة من الأعلام، وله مؤلفات في الفقه والأصول مطبوعة متداولة بين أهل العلم منها «العروة الوثقى» التي عليها مدار التدريس، والحاشية على مكاسب العلاّمة الأنصاري «ره» وغيرهما من المصنفات النافعة. ولد في زيد سنة ١٢٤٧ وتوفي في النجف بمرض ذات الرئة ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من رجب سنة ١٣٣٧ وكان لنبأ وفاته صدى في العالم الإسلامي ورثته الشعراء بمراثي كثيرة ودفن في مقبرة أعدها لنفسه وأولاده في الصحن الشريف.

(١) فضلت أموال كثيرة بعد تمام عمارتها فابتيع بها نصف مشاع من حمامين وأحد عشر دكاناً فوقها «مسافر خانه» في سوق الخلخالي وسبع دكاكين مع مسبح وساحة كبيرة خلف المسبح في السوق الوسط وكلها في شريعة الكوفة ووقفت على أن تصرف وارداتها في شؤون المدرسة.

(٢) يعني حذف الواو: وهو الابتداء من الآية ـ ذكر هذا التاريخ في كتاب العلماء المعاصرين.

وورد ذكر لمدرسة تنسب للشيخ قاسم الوندي وهي مجهولة المحل.

وفي النجف اليوم أيضاً مدرستان صغيرتان (إحداهما) مدرسة العلّامة الكبير المجدد الشيرازي «ره» فإن في الطابق العلوي غرفاً يسكنها طلبة العلم وفي الطابق السفلي مرقده الشريف مع مقبرة بعض المثرين من أهالي الهند الذي قام ببناء المرقد. موقعها مجاور للصحن الشريف من جهة باب الطوسي (والثانية) مدرسة صغيرة في محلة العمارة في الشارع المار إلى جبل «شرفشاه» خلف شارع آل الخمايسي وهي كبعض الدور يسكنها بعض الطلاب مع عيالاتهم، هذا مجموع المدارس الدينية في عصرنا الحاضر سنة ١٣٦٨. وتذكر مدرستان (إحداهما) مدرسة ضياء السلطنة أقام بها بعض طلبة العلم مدة وتركت بعد وجعلت قيسارية يسكنها السماسرة ويقام بها المزاد العلني وسبب جعلها قيسارية أن ضياء السلطنة اشتراها وعزم على جعلها مدرسة وأنزل بها بعض حملة العلم ولم يجر عليها صيغة الوقف وبعد ذلك عدل عن رأيه فاشتراها الحاج علي آغا بن نظام الدولة وهي اليوم ملك من أملاكه الخاصة يتوارثونها أولاده[1]. موقعها بالقرب من الصحن الشريف من جهة الباب القبلي وبإزائها مقبرة لمالكها الأول. وكانت قديماً داراً للسيد مراد ابن السيد أحمد أحد نقباء النجف. (والثانية) مدرسة ذكرها في ذيل (روضة الصفا) عمرت في أيام السلطان ناصر الدين القاجاري على يد العلّامة شيخ العراقين الشيخ عبد الحسين الطهراني «ره» وذكر مصروفاتها ما يقرب من عشرة آلاف تومان ولكني لم أقف على موقع هذه المدرسة مع قرب العهد.

وتذكر مدرسة ثالثة وهي مدرسة «تاج الدولة» كما يحكيه الصك المؤرخ سنة ١٢٧٢ فإن فيه شراء الشيخ مهدي ابن الشيخ أربعة دكاكين مقابل هذه المدرسة، وموقعها بحسب التحديد هي قيسارية الحاج علي آغا الوسطى الواقعة مقابل باب خان محمد البناء الوقف الكائن في سوق باب القبلة ـ ويجوز أن تكون هذه المدرسة هي التي عمرت أيام ناصر الدين شاه المار ذكرها.

---

(١) وقد هدمت اليوم وألحقت بالشارع المحيط بالصحن الشريف.

يدرس في هذه المدارس جميع العلوم المهمة وخاصة الفقه. والأصول. والحديث. والتفسير ومقدماتها من النحو والصرف والمعاني والبيان وبعض العلوم الرياضية واللغة والتأريخ والأخلاق والأدب وليس في هذه المدارس صفوف منظمة ولا كتب خاصة مقررة ولا أساتذة معينون لها بل للطالب أن يقرأ أي كتاب شاء وعند أي أستاذ يختاره وفي أي مكان يريده من مسجد أو دار أو مدرسة[1].

مدرسة البروجردي العلمية

مدرسة الإمام آية الله السيد آغا حسين البروجردي (أمد الله في عمره) هي من المدارس العلمية الدينية التي أنشأها الإمام المذكور في العصر الحاضر، وأنفق على إنشائها وعمرانها مبالغ طائلة فجاءت على غاية من الإبداع المعماري والفن الهندسي. تربو مساحتها على خمسمائة متر مربع وتحتوي على ثلاثة طوابق، وعدد الغرف التي ضمتها تبلغ (٦٤) غرفة كما أنشئت فيها مكتبة عامرة حافلة بالكتب العلمية والفقهية وبعض المخطوطات القديمة، يختلف إليها الطلاب في مختلف الأوقات والمناسبات.

والمدرسة المذكورة تعد من الآثار الخالدة التي تنطق بعظمة مؤسسها وعلو كعبه مع العلم بأن طلابها يتقاضون مرتباً شهرياً كل بحسب درجته العلمية. وقد أشرف على بنائها العلّامة الشيخ نصر الله الخلخالي كما أنه يشرف على شؤون هذه المدرسة وغيرها من الأمور الخيرية التي تصرف في هذا البلد المقدس من قبل السيد «حفظه الله» ولا تنس ما لهذا السيد من الأيادي البيضاء على الحوزة العلمية فهو الذي يتولى القيام بشؤونهم ورعايتهم، ولا تزال الرواتب مستمرة من سماحته حتى الوقت الحاضر.

---

(١) وكان على هذه الوتيرة سير الدراسة في النجف منذ الزمن الأول حتى اليوم وقد تخرج منها جمع غفير من العلماء الأعلام الذين كانوا ولم يزالوا غرة في جبين الدهر ومفخراً للطائفة بالرغم من «الفوضوية» التي العلماء الأعلام الذين كانوا ولم يزالوا غرة في جبين الدهر ومفخرة للطائفة بالرغم من الفوضوية التي طالما يلهج بذكرها المتشدقون بزعم أنها ضربة قاضية على الحالة العلمية.

وقد أرّخها العلامة السيد موسى آل بحر العلوم بأبيات كتبت بالحجر القاشي ـ الأبيات:

هذه مدرسة شيّدت لمن — طلب العلم ومن أدّى فروضه
أسّسته يد أعلى مرجع — زاده الله من الجاه عريضه
للحسين بن علي أجرها — جبر الله به الحق مهيضه
وعن الصادق قد أرختها — طلب العلم كما جاء فريضه «١٣٧٣»

كما وقد أرّخ عام البناء جماعة من الأدباء منهم فضيلة السيد محمد الحلي فقال:

وعظيم قد سمت أعماله — فغدت تجلب للناس الرشادا
كيف لا يسمو لدى الله وقد — شاد للعلم وللدين العمادا
سيد عمّ البرايا نفعه — فلذا عظمه الناس وسادا
إن يفز بالفخر تأريخي له — فحسين معهد التدريس شادا

وفي سنة ١٣٧٦ اشتريت قطعة كبيرة في منطقة «حي السعد» البالغة مساحتها «٥٠٠٠» متر من قبل الوجيه الكبير الحاج محمد تقي الاتفاق الطهراني على أن تكون مدرسة دينية على الطراز الحديث وعناية العلاّمة السيد محمد الكلانتر الذي يشرف على شؤونها وبنائها. وقد أرصد لها مبلغاً جسيماً يبلغ «١٥٠» ألف دينار وذلك من ثلثه الخاص ولا يزال العمل مستمراً فيها والنية متجهة إلى إنشاء مائتي غرفة فيها.

ولحد الآن لم يستقر الرأي على تسميتها لذا أثبتناها عارية عن الاسم.

المدارس الحديثة

كان في النجف قبل الاحتلال البريطاني على عهد حكومة الأتراك مدرسة وهي تحت إشراف الحكومة تشتمل على ست صفوف أربعة ابتدائية واثنان لمن تخرج من الصفوف الأولى، وكانت غاصة بالتلاميذ وفيها معلمون أهل مقدرة وكفاءة مخرجون من مدارس عالية، وهي من المدارس الراقية وابتداء تشكيلها سنة ١٣٠٠.

وكان في ذلك الوقت للإيرانيين مدرستان «إحداهما» تسمّى مدرسة العلوي وكان تأسيسها غرة ذي الحجة سنة ١٣٢٦ وهي من المدارس الابتدائية. اشترك في تأسيسها جماعة من أشراف الإيرانيين وأهل المعرفة منهم وفي طليعتهم أنجال آية الله الخراساني وهي اليوم تحت نظارة الحكومة الإيرانية الحاضرة «والثانية» تسمّى المدرسة الرضوية وهي مثل أختها منهجاً وقد اشترك أيضاً في تأسيسها جماعة من الإيرانيين غير أنها تعطلت من أيام الاحتلال حتى اليوم.

وفي النجف اليوم من المدارس[1] العربية للأطفال والشبان ست مدارس ابتدائية وواحدة ثانوية كاملة وفيها خمسة صفوف وهذه المدارس تحت إشراف الحكومة الحاضرة ومدرسة ثامنة أهلية تعرف بمدرسة الغري وفيها ستة صفوف ولها بنية خاصة موقعها في محلة المشراق ملاصقة للسور من الطرف الشمالي للبلدة وكان محلها قبلاً مركزاً للحكومة التركية «قلعة».

اشترك في تأسيسها سنة ١٣٤٠ جماعة من النجفيين، والفضل في تأسيسها لآل كمال الدين، والمدير لشؤونها ثلة من النجفيين وتستمد اليوم مادياً من تبرعات بعض الأعيان والأشراف ومن مخصصات جلالة الملك الحالي أدام الله ملكه كما كانت قبلاً تستمد من مخصصات والده المغفور له جلالة الملك فيصل الأول «ره» ـ وفي النجف نهضة علمية حديثة لشبابنا الناهضين فاقت سائر المدن العراقية الكبرى وعلى كثرة مدارس النجف المملوءة بالتلاميذ ترى من يدرس العلوم الحديثة خارج المدارس أضعاف ما فيها والعلم غريزيّ في النجف يتغذاه الطفل مع لبنه فتراه مجبولاً عليه من مهده إلى لحده فكأن لتربة النجف تلك التربة الطاهرة أثراً فعالاً في تلقي العلوم والمعارف.

وقد كتب الشيخ محمد الخليلي من هذا التاريخ بحثاً أضاف فيه عدداً آخر من المدارس تحت عنوان:

---

(١) وقد مرَّ ذكر عدد المدارس الحالي في ص ٢٢، ٢٣، «هامش».

مدارس النجف القديمة والحديثة

لا يستبعد أن يكون تأريخ قيام المدارس في النجف يبتدىء مع تأريخ الدراسة وإن لم تكن لهذه المدارس بناية خاصة تسمّى باسمها، ويكفي في ذلك أن يكون اجتماع بقصد تلقي الدرس، والوعظ، والمناقشة، والإنشاد، وهذا ما كان يحدث في الأسواق كسوق عكاظ، وسائر أسواق العرب، ومسجد النبي في الحجاز، وكسوق المربد في البصرة ومسجد علي في الكوفة، وقد اشتهر هذا المسجد في الكوفة على غرار شهرة مسجد النبي في المدينة، بما استمع فيه المستمعون من آراء وأفكار، وخطب، وموعظة، ودرس، وما أخرج من الفحول في مختلف العلوم، والفنون، وعلى هذا كان قيام أول مدرسة نجفية مرتبطاً بقيام أول دراسة للعلوم اللسانية والعقلية والروحية في النجف وتأريخ هذه المدرسة قديم جداً، فكم من معاهد أدبية توارثت الحركة الفكرية معهداً بعد معهد مثل (عاقولا) الواقعة حول الكوفة أو هي الكوفة في الزمن القديم.

لقد كانت (عاقولا) مدرسة سريانية، وبقيت إلى عهد الرومان في العراق وقد انتقلت إليها دراسات يونانية، ولما اندرست (عاقولا) نهضت الحيرة. فكانت واجهة كبرى للأدب، ترى فيها الكثير من الأفكار المبثوثة بين العاصمة الحيرة وما حولها من الديارات، وانتقل ما في الحيرة إلى الكوفة ثم انتقل ما في الكوفة إلى النجف[1].

وأول ما نزل عليّ (ع) في العراق نزل الكوفة، ونزل مسجدها لا قصورها كما فعل غيره من الولاة، وقد اتخذ مسجد الكوفة مصلًى له، ومعبداً ومدرسة يدرس ويخطب ويقضي فيه بين الناس، وقد تخرج من هذه (المدرسة) المدرسة العلوية أو مدرسة الكوفة الكبرى أمثال (أبي الأسود الدؤلي) و(عبد الله بن عباس) حبر الأمة، وقد قام بعد علي (ع) في التعهد بمدرسته أولاده وأحفاده حتى جاء دور الإمام الصادق (ع) وعلى قلة استيطان الإمام الصادق (ع) بالكوفة فقد تخرج عليه علماء كثيرون حتى ألف الحافظ أبو العباس بن عقدة الهمداني الكوفي كتاباً

---

(١) الأحلام للشيخ علي الشرقي ص٤١.

في أسماء الرجال الذين رووا الحديث عن الإمام الصادق فذكر ترجمه أربعة آلاف شيخ[1].

وإذا عرفنا سعة العلوم الإسلامية في الكوفة وشهرتها بالفنون الأدبية اتضحت لنا قيمة مدرسة الكوفة التي انتقلت إلى النجف وانتقل معها ما حملت الكوفة من الأفكار المتبلورة بالدراسات السريانية والعربية والروحية الإسلامية وهي وإن لم تكن مدارس على نمط هذا العصر من حيث البناء والمكان فهي مدارس على نمط عصرها من حيث الاجتماع في المساجد أو الساحات أو الأسواق والاستماع والمناقشة والمباهلة الأدبية والقراءة والكتابة.

أما متى بنيت هذه المدارس بمثل هذه الهياكل المشتملة على الغرف والأبهاء لسكنى الطلاب فليس من وسيلة إلى تعيينه تعييناً مضبوطاً ذلك لأن هذه المدارس لم تكد تشيد ويقف عليها الواقفون بعض الأوقاف للإنفاق عليها ثم يمرّ عليها بعض الزمن ويتقادم العهد حتى تتلف الأوقاف، أو يستبد بها البعض، فلم يعد هنالك من ينفق عليها وتتهدم ولا يعود لها أثر أو بعض أثر، ثم تذوب بين البيوت وتصبح من الأملاك المشاعة بين الناس فلا يعرف عنها أحد شيئاً...!!

وهنالك عدة أدلة يستنبط منها القارىء أن عدداً كبيراً من المدارس كان قد شيّد في النجف ثم اضمحل.

يقول ابن بطوطة الذي زار النجف في سنة ٧٣٧ هـ، وهو يصف الأسواق «... ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون (كذا) أنه قبر عليّ عليه السلام وبإزائه المدارس والزوايا، والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن».

ثم يقول: «ويدخل من باب الحضرة إلى (مدرسة عظيمة) يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم، ومن تلك (المدرسة) يدخل إلى باب القبة... إلخ[2]».

---

(١) حديث الجامعة النجفية ـ لمحمد رضا شمس الدين ص ٧ ـ ٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة ج١ ص١٠٩.

وليس من شك أن عدداً من المدارس كان قد شيّد في النجف ثم اندثر باندثار البيوت ولم يصلنا من أخبار هذه المدارس إلّا ذكرها عرضاً وفي أثناء الرحلات كما ورد في رحلة ابن بطوطة، وكما ذكر زين العابدين الشيرواني في عرض ذكره لما أسّسه السلطان محمد خدابنده، وابنه أبو سعيد، من أبنية وعمارات في النجف وقد عدّ من تلك العمارات إحدى المدارس، وغير ذلك ممّا وجد مشروحاً على هوامش الكتب من أسماء المدارس، ونحن نثبت هنا ما وقفنا عليه بطريق التتبع والبحث في الكتب ما وقفنا عليه بطريق السماع الموثوق بصحته، أو ما وقفنا عليه بطريق المشاهدة والعيان من المدارس القديمة التي لم يبق لها اليوم غير الاسم، والمدارس التي لم تزل قائمة، أو المدارس الحديثة التي لم يتطرق لها بعد تأريخ النجف الثقافي الحديث.

الحياة المدرسية لسكان المدارس الدينية:

لكل مدرسة من مدارس النجف الدينية القديمة منها والحديثة أنظمة خاصة تعينها صيغة الوقف، لأن جميع هذه المدارس قد شيّدت من الموقوفات التي وقفها العلماء، أو المحسنون على طلاب الدين، ولكل مدرسة شروط خاصة يقبل بموجبها إسكان الطلاب في غرفها.

وأغلب سكان هذه المدارس من الغرباء الذين يؤمّون النجف بقصد الدراسة ووصول مرتبة الاجتهاد وقد يقضون فيها عشرات السنين حتى يبلغوا المرام ويعودوا إلى بلدانهم مزودين بالإجازات التي يمنحها لهم أساتذتهم من المراجع الروحانية الكبرى.

ومنذ ألف سنة والنجف مزدحمة بالطلاب الذين يأتون إليها من مختلف الأصقاع، كالهند، والتبت، والأفغان، وبلوجستان، وتركستان، وقفقاسية، وإيران، وإفريقيا الشرقية، ولبنان فضلاً عن المدن العراقية.

وحين يقبل الطالب في المدرسة يعطى غرفة فيها وتكون هذه الغرف في بعض المدارس مفروشة ومجهزة بالكهرباء وذات منح نقدية تمنح للطالب في كل شهر أو في كل موسم، وموائد تقام على حساب المدرسة في أوقات معينة وذلك تبعاً لإمكانية المدرسة، وأوقافها، وأزمانها إذ إن عدداً من المدارس ليس لها مثل

هذه الامتيازات ولا بعضها.

يقول السماوي في (عنوان الشرف) عن هذه المدارس:

فبعضها تكون ذات راتب ينفق في الشهر لكل طالب
وبعضها في الجمعات تجلو مائدة والباقيات تخلو(١)

ولبعض الطلاب في مختلف المدارس مخصصات يومية من الخبز يتناولها من الخباز، وراتب شهري تدفعه له المراجع الدينية كلاً حسب مؤهلاته، وحسب إمكان المرجع الديني الذي يساعده.

والبعض من هؤلاء الطلاب يأتون النجف وهم مزودون بجميع ما يحتاجون إليه فيستأجرون بيوتاً مستقلة ويأتون معهم بعائلاتهم وأطفالهم ويعيشون عيشة لا تشوبها شائبة من الاحتياج بفضل إمكانية ذويهم، وآبائهم الذين ينفقون عليهم بسخاء، ويمطرونهم بالحوالات فلا يحتاج مثل هؤلاء سكنى المدارس إلّا إذا قصد منهم أحد الانعزال عن البيت تهرباً من ضوضاء الأطفال وزيارات العائلات، وإن أغلب الذين ينزلون البيوت المستقلة وينفقون على أنفسهم إنفاق الموسرين هم الطلاب الإيرانيون والترك والأذربايجانيون.

والطالب في المدرسة لا يفيد غير السكن للانصراف إلى الدرس حين لا يتسنى له محل آخر يضمن مثل هذا السكن الهادىء المعد للبحث والدرس والتتبع، ومعظم طلاب هذه المدارس هم من الذين لم يتزوجوا بعد، ولم تخل هذه المدارس من طلاب نجفيين إلى جانب الطلاب الغرباء ممّن لا طاقة له على توفير مثل هذا الجو في بيته سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، لأن معظم المدارس لا تفرق بين الطالب الغريب وغير الغريب، على أن هنالك مدارس خاصة ببلد معين كمدرسة (الإيرواني) الخاصة بالترك من الطلاب ومدرسة (العامليين) الخاصة بالطلاب اللبنانيين على الأكثر، ومدرسة (الهندي) الخاصة بالطلاب الهنود.

أما الدروس فيتلقاها الطالب في خارج المدرسة في أكثر الأحيان وفي

(١) عنوان الشرف ج١ ص٥٩.

الأماكن التي يتخذ منها الأستاذ محلاً للدرس كالصحن الشريف، أو الجوامع، أو المساجد، فالطالب حر في اختيار أستاذه، وأخذ الدروس داخل المدرسة أو خارجها، لأن الدراسة في هذه المدارس ليست على مستوى واحد لتتألف منها صفوف، فالمدرسة ذات الغرف الستين مثلاً قد يسكنها ستون طالباً وكل منهم في مراحل مختلفة ومستويات متباينة من الدرس والتتبع.

ولكل طالب مفتاح يفتح به باب المدرسة متى جاء، وحين يغلق باب الحرم في المشهد المقدس ليلاً يكون الطلاب غالباً قد أمّوا مدارسهم، وترى معظم الغرف في هذه المدارس مضاءة إلى وقت متأخر من الليل.

والطالب الغريب هو الذي يعدّ بنفسه طعامه في غرفته، وغالباً ما يكون هذا الطعام مؤلفاً من الخبز، والتمر، واللبن، وقد روى الراوون روايات كثيرة عن عدد من كبار العلماء النابغين الذين عاشوا في مثل هذه المدارس على الخبز وحده، وكثير منهم من كان يطوي اليوم واليومين دون أن يحصل على قوت يومه ملتذاً بالصبر، والفناء فيما هو فيه من التتبع. ولقد ألقى الدكتور زكي مبارك خطاباً مرة في جمعية الرابطة العلمية في النجف مشيراً إلى مثل هؤلاء الطلاب، وقال إنه سبق له أن عاش نظير عيش الطلاب النجفيين، لأنه لم يكن لديه ما يشتري به الرغيف الحار، فكان يكسر كسر الخبز اليابس بيديه، وأقسم في خطابه أن هذه الكسر قد جرحت مرة أصابعه، وهو يعالج كسرها فسال منها الدم ومع ذلك فقد كان يمشي في الدرس والمطالعة كما مشى طلاب النجف منذ مئات السنين حتى الآن...!!

ولطلاب العلم وسكان هذه المدارس عطلة يومين في الأسبوع وعطل أخرى في مواسم زيارات العتبات المقدسة فيقضون فيها هذه العطل بأنواع من الألعاب البريئة، وأكثر مسارح متنزهاتهم تكون في الكوفة بين البساتين إذ يصحبون معهم بعض القطع من السجاد أو البسط الخفيفة وديواناً أو ديوانين من الشعر ويفترشون البساتين والحدائق وينصبون (سماور) الشاي ويفتحون ديوان الشعر ويبدؤون بالتقفية، وفي الصيف ينتحون بعيداً عن الناس وينزلون النهر سابحين، وبين هؤلاء الطلاب عدد غير قليل من مهرة السباحين.

ولم تقتصر رياضة أرواحهم على تقفية الشعر بل يعمدون إلى نظم الشعر ودخول المباراة وحل الأحاجي الشعرية والفكرية كما لم تقتصر رياضة أبدانهم على السباحة، وإنما يعمدون إلى ترويض أبدانهم بكل صنوف الرياضة من ركض وقفز وغير ذلك من الرياضات البريئة وكل هذا يفعلونه بعيداً عن أنظار الطبقات الأخرى.

ومن أمتع الرياضات عندهم زيارة المراقد المقدسة مشياً على الأقدام فكانوا يقطعون الطريق بين النجف وكربلا في ليلتين ولا يزيد متاعهم على أربعة أو خمسة أرغفة من الخبز وشيء من التمر. وفي كربلا يحلّ بعضهم ضيفاً على بعض أصدقائه من طلاب المدارس هناك كما يحل هذا البعض من طلاب كربلا ضيوفاً عليهم عند زيارتهم النجف.

وفي أمسية كل يوم ثلاثاء يقصد جمع غير قليل من هؤلاء الطلبة كما يقصد غيرهم مسجد الكوفة ومسجد السهلة وهما على مسافة تسعة كيلومترات فيسهمون في أداء طقوس من الصلاة والأدعية بقصد الاستتابة ثم ليغيروا بذلك من الجو الخانق الذي يحيط بهم ولينشطوا من عقال هذا الدرس الذي لا ينتهي.

وفي الأعراس العامة، ومجالس الفاتحة التي تقام للشخصيات الكبيرة والمآتم الحسينية مجال واسع للتنفيس عن أنفسهم سواء بإسهامهم في نظم الشعر تهنئة أو تعزية لوجه الشعر وللتسلية والمباراة ليس غير، أو بحضورهم هذه المجالس العامة ليستمتعوا بما يسمعون أو بمن يجدون من رفاقهم الذين تلهيهم دروسهم عن الالتقاء بهم في غير هذه المناسبات.

وهكذا كانت بالإجمال حياة هذه الطبقة من طلاب العلم، وسكان المدارس، ولم تزل تجري على هذه الوتيرة مع شيء من الفروق القليلة.

هندسة المدارس العلمية الدينية:

لقد روعي في هندسة المدارس العلمية في النجف طبيعة البلد فكان لا بدّ من حساب (للسراديب) في أغلب أبنية المدارس وتقوم هذه السراديب في جهة واحدة من عمارة المدرسة أو جهتين أو الجهات الثلاث أو الجهات الأربع من

العمارة ينزل إليها بواسطة سلالم، وتسمّى بالسراديب الفوقانية في مصطلح النجفيين، وفي بعض المدارس الأخرى سراديب تقام تحت السراديب الفوقانية وهي ما تسمّى بالسراديب (نيم سن) والكلمة فارسية معناها منتصف (السن) والسن طبقة من الرمل المتحجر ينحت فيه الناحت سرداباً آخر، وهنالك من السراديب ما هو أعمق من (النيم سن) ويسمّى بسرداب (السن) ويحفر (للسن) أو (للنيم سن) في وسط المدرسة حفيرة على هيئة متوازي الأضلاع بقطر مترين أو أقل من ذلك وفي عمق عشرين متراً أو أقل من ذلك لينفذ هذا الحفر من متوازي الأضلاع إلى وسط السرداب بقصد إيصال النور وسحب الماء البارد إلى الأعلى كما تحيط بالسراديب من أطراف أعاليها شبابيك لنفوذ النور والهواء، فضلاً عن عدد من المنافذ الهوائية المتصلة من أعلى سطح العمارة بالسراديب الفوقانية وهي التي تسمّى (بالبخاريات) ثم تبنى هذه السراديب في الغالب بالآجر وتزخرف وقد تترك سراديب السن على حالها وهي منحوتة من طبقة السن التي تشبه الصخور أو تزين جدرانها بالآجر وقد تزين الجدران وأرض السراديب بالكاشاني كما هو الحال في مدرسة السيد كاظم اليزدي.

وكثيراً ما تفتح في السراديب منافذ تتصل ببئر المدرسة إذ المفروض أن يكون في كل بيت وفي كل عمارة بئر ماء تتصل بالبئر المجاورة لها وهذه تتصل ببئر أخرى. وهكذا حتى تتجمع المياه في بئر كبيرة تستمد مياهها من نهر الفرات عن طريق قناة تجلب الماء من مناطق تسمّى (بابو فشيكه) وقد قيل إن هندسة بناء السراديب في البيوت وفي المدارس قد انتقلت إلى النجف من مدينة شوشتر لأن طبيعتها تحاكي طبيعة النجف وتأريخ حفر السراديب في شوشتر قديم جداً وعلى أننا لا نعرف مبلغ صحة هذه الرواية في انتقال تصميم السراديب إلى النجف من شوشتر فلسنا نستبعد ذلك.

ويتحول السكن في الصيف في وسط البيت أو وسط المدرسة إلى هذه السراديب وتتم فيها المطالعة وتناول طعام الغداء والقيلولة وقد تمسي في بعض ليالي الصيف عند اجتياح العواصف الرملية المدينة ملاذاً للطلاب يقضون فيها الليل نياماً.

وحين يراد بناء المدرسة تقام في كل ركن من أركانها القواعد الأساسية في

أعماق مناسبة من السرداب وتقام أساطين وأعمدة ترتفع من الأعماق حتى تبلغ سطح الدار فتوصل هنالك بين أسطوانة وأخرى بطبقات تبنى بالآجر ويتألف من هذه الطبقات المتصل بعضها ببعض سقف السرداب وقد تعمل في هذا السقف من الزخرفة والأشكال الهندسية بالآجر ما يلفت النظر.

وهنا يأتي دور الطابق الأرضي أو الطابق الأول كما يسميه البعض بعد أن يكون السرداب قد تمّ بناؤه. والدور الأول أو الطابق الأول الذي يقوم على أسس السرداب عبارة عن عدة غرف تقام في الجوانب الأربعة إذ إن أغلب المدارس تكون مربعة الشكل أو مستطيلة، تاركة وسط المدرسة فارغاً لتؤلف صحناً واسعاً كثيراً ما أقيم في وسطه حوض ماء كبير، وتبنى الغرف غرفة إلى جنب غرفة حتى تستوعب الجهات الأربع وتكون مساحة كل غرفة تتراوح بين ٢ ـ ٢,٥ متراً مربعاً أو ٢ ـ ٣ متراً مربعاً وأمام كل غرفة إيوان صغير في الغالب وهو مسقف بسقف مسنم ومزين بزخرفة من الآجر أو الكاشاني فيستقل كل طالب بغرفة من هذه الغرف وإيوانها المستقل.

وعلى هذه الوتيرة يجري بناء الطابق الثاني فوق الطابق الأول مع فارق بسيط تقتضيه المصلحة وهو أن الغرف، من الطابق الثاني تكون بدون أواوين لأن هذه الأواوين من الأعلى تتحول إلى ممر عام يخترقه الطالب في طريقه إلى غرفته.

ومن الطابق الثاني يرقى الطالب بواسطة السلالم إلى سطح المدرسة الواسع.

هذه بالإجمال هندسة المدارس التي دخلت النجف مع دخول الصفويين. أما المدارس التي بنيت أخيراً وفي السنين القريبة فقد تغيرت هندسة البناء فيها تغيّراً كبيراً كما تبدلت مواد البناء ولم يعد الآجر والجص والخشب هو المقوم الأول في البناء وإنما صار للسمنت و (الكونكريت) والحديد الأهمية الكبرى في تشييد المدرسة وزاد عدد الطوابق من طابقين إلى ثلاثة أو أربعة، وتبنى هذه الغرف متصلة بعضها ببعض في الجهات الأربع كما هو الحال في البناء القديم ولكن كثرة الشبابيك والنوافذ من أهم مميزات المدارس العلمية الحديثة.

وقد روعي في تصاميم المدارس الجديدة بناء قاعة للدرس والمحاضرات وبناء مكتبة خاصة، وتخصيص مسجد للصلاة بالإضافة إلى الحمامات والمغاسل الحديثة مما لم يكن لها وجود في أبنية المدارس القديمة.

أما المدارس الحكومية فلها طراز خاص يختلف عن طراز المدارس الدينية فهي لا تلتزم بالبناء في جميع أطراف الساحة وإنما تتخذ جانباً واحداً تبنى فيه الغرف متقابلة على الغالب يفصل الصفين المتقابلين ممر عريض وهكذا يكون الطابق الثاني، أو أنها تبنى صفاً واحداً من الغرف وتقيم الطابق الثاني على نسقه وتخصّ جوانب من البناء لقاعة المحاضرات والمختبرات وتبعد عنها المغاسل في جانب آخر من المدرسة وفضلاً عن هذا فإن هندسة البناء في المدارس الحكومية للعلوم الحديثة ليست متقاربة في التصميم مثل هذا التقارب الملحوظ في هندسة المدارس الدينية حتى ليكاد يكون لكل مدرسة عصرية شبه تصميم مستقل يفرضه موقع المدرسة وحاجتها.

ما قبل القرن العاشر الهجري

١ ـ مدرسة المقداد السيوري (السليمية)

تقع هذه المدرسة في سوق المشراق إحدى محلات النجف الأشرف مقابل مسجد الصاغة المعروف. ويقول الشيخ جعفر محبوبة «إن الذي يظهر من خطوط بعض طلابها على بعض كتبهم المخطوطة أنها كانت مسكونة بالطلاب الدينيين في أوائل القرن التاسع الهجري فقد شوهد على كتاب (مصباح المتهجد) المخطوط للشيخ الطوسي وكان عند المغفور له المرزا حسين النائيني ما نصّه: «كان الفراغ من نسخه يوم السبت ١٢ جمادى الأولى سنة ٨٣٢ على يد الفقير إلى رحمة ربه وشفاعته عبد الوهاب بن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن السيوري الأسدي بالمشهد الشريف الغروي على ساكنه السلام وذلك في مدرسة المقداد السيوري»[١].

وهذه المدرسة باقية حتى اليوم وقد تغير اسمها وصارت تعرف اليوم باسم المدرسة السليمية نسبة إلى بانيها الثاني (سليم خان الشيرازي) فإنها تهدمت بالإهمال فعمرها هذا المحسن سنة ١٢٥٠ فنسبت إليه» اهـ.

وقد دخلناها فوجدناها مدرسة صغيرة لا تتجاوز مساحتها (١٠٠) متر مربع، وشاهدنا ستة حوانيت قد اقتطعت منها ليصرف ريعها على ما تحتاجه من كهرباء وماء وأجور خادم، وإصلاحات أخرى. والمنقول أنه كان لها أوقاف ما لبثت أن اغتصبت وقد كتب على بابها الخارجي بالقاشاني أنها عمرت (أصلحت) بهمة السيد أبي القاسم (الوكيل السابق) في سنة ١٣٤٠ هـ وهذا هو آخر تعمير لها.

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ج١ ص٨٥.

أما غرفها فعشر وأما عدد طلابها فاثنا عشر وكلهم من المهاجرين الواردين من الخارج.

والسيوري الباني الأول لهذه المدرسة هو الشيخ جمال الدين أبو عبد الله المقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيوري الأسدي الحلي الفحص صاحب كتاب (كنز العرفان) في فقه القرآن وهو من أجل تلامذة الشهيد الأول وفخر المحققين. وقد توفي سنة ٨٢٨ في عام الفراغ من بناء المدرسة وعليه فإن هذه المدرسة التي بقيت حتى اليوم وإن كانت قد تغيرت معالمها عدة مرات لتعتبر من أقدم مدارس النجف.

مدرسة الشيخ عبد الله:

تعتبر مدرسة الشيخ عبد الله من أقدم المدارس التي وصلنا خبرها والتي يعود تأريخ وجودها إلى منتصف القرن العاشر الهجري وقد عرفت بكونها معهداً مهماً يقصده طلاب العلم من كل مكان ويتلقون فيه علومهم والشيخ عبد الله هذا هو المعروف بالملاّ وصاحب (الحاشية) في المنطق وهو الكتاب الذي تجيء قراءته بعد الفراغ من ألفية ابن مالك في سلسلة الدروس القديمة.

والشيخ عبد الله هو ابن شهاب الدين اليزدي وهو جد أسرة الملالي وهي أسرة نشأ فيها غير واحد من العلماء وكان منهم من جمع بين حكومة النجف وسدانة الحرم المقدس. وقد كان الشيخ ملاّ عبد الله من ألمع العلماء وقد كانت مدرسته أشهر مدرسة علمية عرفت في زمانها، أما موقعها فقد كان في محلة المشراق. ويقول الشيخ جعفر محبوبة عن هذه المدرسة إن بعض المتتبعين للآثار من النجفيين قد عيّنوا موقعها من هذه المحلة وهي الآن دار لبعض السادة الأشراف وكانت معرساً لأهل العلم في أيام المقدس الأردبيلي (رض) ومن كان بعده من العلماء[1].

أما كيفية بناء هذه المدرسة وما قبلها من المدارس فأغلب الظن أنها تختلف عن أبنية المدارس التي استحدثت بعدها لما قد دخل بعد ذلك على المدارس

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ج١ ص٨٦.

من هندسة جديدة وريازة خاصة جاء بها الصفويون لأن أغلب البيوت كانت تتألف من طابق واحد قبل القرن العاشر الهجري وأن أكثر سقوفها كانت عبارة عن طبقات معقودة تملأ أعالي زواياها من السطح بالتراب، وتفتح في وسط سطح الغرفة فتحة صغيرة لينزل النور منها وذلك لقلة الشبابيك والكوى. وليس من البعيد أن يكون بناء المدارس يومذاك فيما يشابه هذه الأبنية ولم يزل في النجف بيت يرجع تأريخه إلى القرن الرابع الهجري وإلى العصر البويهي على ما يروي الراوون وهذا البيت واقع في شارع آل الحلو من محلة العمارة وكان ذات يوم مقراً للمطبعة العلوية وقد سكنه بعد ذلك آل الجزائري، وهو جد محكم بحيث قد يتعذر قبول رجوعه إلى ذلك التأريخ على رغم أن هندسة بنائه من حيث القبب والسقوف متصفة بالصفات المتعارفة في ذلك العصر.

وحين جاء الصفويون ووسعوا بناء الصحن الشريف وأقاموا أول مدرسة حديثة في الصحن تغيرت هندسة المدارس منذ ذلك الحين كما بدأت تتغير هندسة البيوت تبعاً لذلك التغيير.

ما بعد القرن العاشر الهجري حتى اليوم

مدرسة الصحن الشريف الأولى
أو المدرسة الغروية

مدرسة الصحن الشريف الأولى والمدرسة الغروية يغلب على الظن أنهما اسمان لمدرسة واحدة وقد تأسّست في أوائل القرن الحادي عشر الهجري وقبل مدرسة الصحن الكبرى وكان ابتداء تخطيطها مع تخطيط الصحن الشريف الأول. وينسبها (البراقي) إلى الشاه عباس الصفوي الأول، وموقعها في الجهة الشمالية من الصحن وبابها من الإيوان الثاني بعد الإيوان الأول من الصحن الشريف. وقال الشيخ جعفر محبوبة «وقد أيّد هذا حصول بعض المخطوطات المعتبرة التي خطّها بعض طلابها بأيديهم على كتبهم بعد إكمال نسخها مثل كتابة الشيخ يوسف بن عبد الحسين النجفي الشهير (بالصلينباوي) سنة ١٠٦٩ على أحد كتبه، ومثل الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن موسىٰ المغربي في استنساخه لكتاب (مشيخة الاستبصار) في نفس السنة ونفس المدرسة ورأيت أيضاً نسخة من الاستبصار في آخرها ما نصّه:

كتبه فرج الله فياض الجزائري النجفي سنة ١٠٤٣ في المدرسة الرواقية بكنف القبة الغروية والظاهر أنها هي هذه المدرسة»[١].

وهكذا بقيت هذه المدرسة عامرة بطلابها إلى سنة ١٢٨٦ هـ حيث عينتها الحكومة التركية مدرسة خاصة بطلاب العلوم الدينية الذين يعفون بعد الامتحان من خدمة الجندية حسب قانونهم العسكري.

---

(١) ماضي النجف وحاضرها ج١ ص٨٦.

ولم تزل هكذا حتى أوائل القرن الرابع عشر فقد استغنت عنها الحكومة وهجرت فتهدمت جدرانها وأغلق بابها وجعلت مخزناً لبعض أثاث الصحن، ولوازم خدام الحرم إلى أن تولى تعميرها السيد هاشم زيني فعمرها من جديد وذلك في سنة ١٣٥٠ هـ وجعلها دار ضيافة ومنزلاً للزوار الذين يفدون إلى زيارة النجف، وليس لهم مأوى، وخرجت بذلك عن صفتها المدرسية إلى ما يسمى دار ضيافة.

وجاء عنها في أرجوزة (السماوي) بعد ذكر مدرسة الصحن الكبرى قوله:

ثم التي في الجانب الشمالي ... وبابها في الصحن ذي العلالي
وهذه صيرت الآن محل ... للزائرين حين وفد العلم قل[1]

وقد أرّخ بناءها الجديد الشيخ محمد علي اليعقوبي بقوله:

حزت يا هاشم زيني رتبةً ... لم يحزها أبداً من قد سلف
دارك الخلد غداً إذ أرّخوا ... (شدّت للزوار داراً بالنجف)

١٣٥٠ هـ

وأرّخها السيد مهدي الأعرجي بقوله:

رئيس نحاة الندى هاشم ... ألم تر إعرابه مستبينا
فمذ شاد أرخت (دار النوال ... بناها على الفتح للزائرينا)

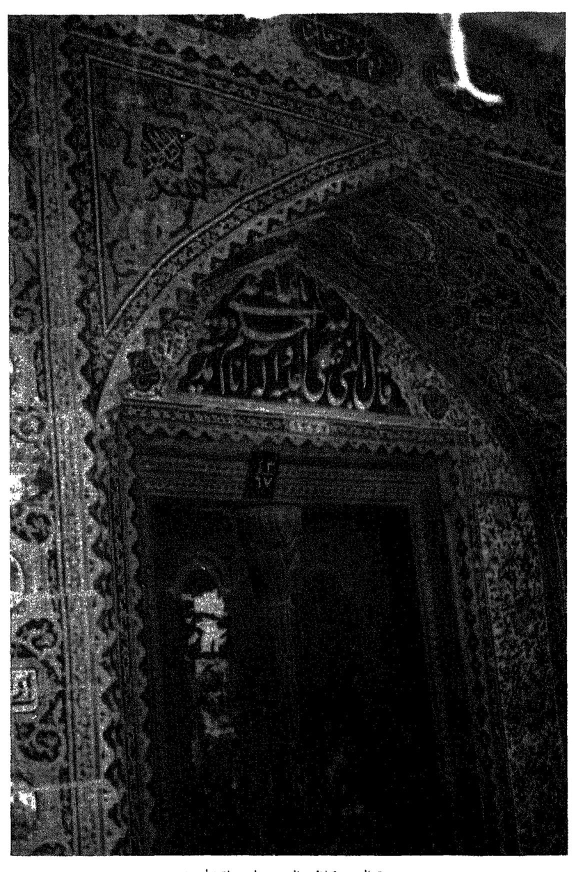
١٣٥٠ هـ

مدرسة الصحن الكبرى:

هذه أول مدرسة شيّدت على طراز من الهندسة المعمارية الصفوية من حيث بناء الغرف وتزيينها بالكاشاني وهي البناية التي يتألف اليوم منها صحن الإمام علي بن أبي طالب (ع). وقد كان هذا الصحن أصغر مساحة يوم تصدّى لبنائه الشاه عباس الصفوي الأول في أوائل القرن الحادي عشر، وحين زار النجف الشاه صفي حفيد الشاه عباس الأول الصفوي قام بشراء مساحات أخرى

---

(١) عنوان الشرف ج١ ص٥٩.



مدرسة السيد كاظم اليزدي في محلة الحويش



من الأرض وهدم الجدران ووسع بها مساحة الصحن، ثم بناه في طابقين فخمين فبنى في كل ضلع من ضلعي الصحن الشرقي والشمالي خمس عشرة غرفة، وأمام كل غرفة إيوان زيّنه بالكاشاني. أما الضلع الغربي والجنوبي فقد بنى في كل منهما أربع عشرة غرفة وأمام كل غرفة إيواناً على نفس الطراز من الضلعين الشرقي والشمالي ثم أقام الطابق الثاني على الطابق الأوّل بنفس الطراز والنقوش الكاشانية وكل هذه الأضلاع قد قامت على ارتفاع واحد ومستوى واحد وقد خصّ الطابق بطلاب العلم. وكان تأسيس هذا البناء يرجع إلى سنة ١٠٤٢ هجرية وقد تناقل الناس الأحاديث عن كثير من الطلاب الذين سكنوا هذه الغرف وكانوا من المتفوقين في العلوم.

يقول الشيخ السماوي عن مدرسة الصحن هذه في أرجوزته:

وفي الغري لذوي العلوم	مدارس معلومة الوسوم
مشيدة في حجرات وغرف	من أربع الجهات صفاً فوق صف
ومن ثلاث واثنتين وجهة	أو حجرات أفردت للترفهة
أشهرها (مدرسة الصحن) السني	قد بنيت للدارسين إذ بني[1]

ثم ما لبثت أن توسعت حركة المدارس في النجف فانتقل الطلاب من مدرسة الصحن وتركت الغرف في هذه المدرسة خالية يشغل بعضها اليوم من لهم ارتباط بخدمة الصحن الشريف.

مدرسة الصدر:

هذه المدرسة من المدارس الواسعة وموقعها في السوق الكبير وهو السوق الطويل المستقيم المتصل بالصحن الشريف ابتداء وبباب البلد القديمة وهي المسمّاة (ساحة الإمام) اليوم انتهاء، وتعدّ من المدارس القديمة وتحتوي على ما يزيد على (٣٠) غرفة في طابق واحد ومساحتها مع ملحقاتها من مساجدها ومقبرة مؤسّسها ومطبخها الواسع المعد للطبخ في بعض المناسبات العامة تربو على (٩٠٠) متر مربع.

---

(١) عنوان الشرف في وشي النجف ج١ ص٥٨.

أسّسها المحسن الكبير الصدر الأعظم نظام الدولة الحاج محمد حسين خان العلاف الأصفهاني وزير السلطان فتح علي شاه القاجاري بعد إكمال بناء سور النجف (السادس) وهو الأخير وذلك في سنة ١٢٢٦ هـ وقد أحصيت مصاريف بنائها مع بناء السور في ذلك العصر فكانت (٩٤) ألف تومان أشرفي، والأشرفي يساوي يومذاك وزن الليرة الذهبية العثمانية. وهذه المدرسة منذ ذلك اليوم حتى هذه الساعة مزدحمة بطلاب العلوم الدينية وفضلاء المحصلين. وكان قد أوقف لها مؤسسها موقوفات تقوم ببعض مقتضيات سكانها، وخصّص للطلاب اطعاماً مستمراً في ليالٍ معينة من الأسبوع والشهر والسنة. والصدر هذا هو جد الأسرة المعروفة في النجف (بآل نظام الدولة) وقد آل بعض جوانب هذه المدرسة اليوم إلى الانهدام فتبرع لإصلاحها بعض ذوي الخير على يد الحاج الشيخ نصر الله الخلخالي وقد شرع بهدم الجانب الشمالي منها على أن يشرع بالجانب الآخر بعد إتمام بناء هذا الجانب وهكذا حتى يتم تشييدها من جديد.

مدرسة المعتمد أو مدرسة الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء:

موقعها في محلة العمارة وبجنبها من جهة القبلة المسجد المعروف بمسجد الشيخ موسى، وفي جهة الشرق مقبرة الشيخ الكبير الشيخ جعفر صاحب كتاب (كشف الغطاء) وأبنائه الأعلام. إن ساحة هذه المدرسة والمسجد والمقبرة كلها من موقوفات (أمان الله خان) وهو أحد الأمراء الإيرانيين وقد وقفها على الشيخ الكبير في الثلث الأول من القرن الثالث عشر ليعمل بها ما شاء فاقتطع الشيخ منها للمدرسة ما يربو على ٨٠٠ متر مربع لبناء المدرسة.

قال صاحب ماضي النجف: «حدثني المعمر الحافظ العالم السيد عبد الحسن الدزفولي عن العلاّمة السيد حسين آل بحر العلوم (رض) أن معتمد الدولة وهو المحسن الكبير (عباسقلي خان) وزير محمد شاه القاجاري المتوفى في إيران سنة ١٢٤٩ هـ بعث بأموال كثيرة على يد العلاّمة الشيخ مهدي ابن الشيخ علي آل كاشف الغطاء ليعمل صندوقاً فضياً على قبر أمير المؤمنين عليه السلام، فعمله وزاد من المال شيء فبنى به هذه المدرسة» على هذه الساحة الموقوفة على الشيخ الكبير، والمعروف أن الذي بنى هذه المدرسة هو الشيخ

موسىٰ ابن الشيخ جعفر الكبير على ما عرفنا وأخذت هذه المدرسة بحظ وافر من العمران وكانت زاهية بأهل الفضل حتى أوائل القرن الرابع عشر، ثم تهدمت لقلة العناية بها وسقطت سقوف غرفها، وسدّ بابها وأصبحت غير صالحة للسكن حتى تصدّى لها الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء وجدّد عمارتها وهي اليوم آهلة بالسكان من طلاب العلم، وصارت تسمّى بمدرسة الإمام كاشف الغطاء وهي من جهة القبلة ذات طابقين في كل طابق خمس غرف وأمام كل غرفة إيوان في الطابق الأرضي وممر عريض أمام غرف الطابق الثاني، أما عكس القبلة فغرفتان كبيرتان وفوقهما السطح، وفي الغرب على الأرض غرفتان وأربع غرف فوقهما فيكون المجموع (٢٦) غرفة. أما جانب الشرق ومنه شروع الباب ففي يسار الباب غرفة واحدة لإدارة المدرسة وتقابل الباب غرفة كبيرة للمطالعة وفي داخلها المكتبة العظيمة العامرة وهي مدفن الشيخ علي والد الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، وقد اتخذ منها الإمام داراً للمكتبة.

أما عدد طلابها فيقارب الثلاثين طالباً ومعيشتهم كسائر طلاب العلم في النجف يقوم بها العلماء الأعلام.

وكان الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء قد اتخذ جانباً من هذه المدرسة ديواناً يجلس فيه للناس صباحاً ومساءً وفي أيام الصيف كان صحن المدرسة يفرش بالسجاد ويجلس الشيخ فيجلس رواد مجلسه وزواره في صف على طول أضلاع الساحة ومن جهاتها الأربع.

ومن هذه المدرسة صدرت كل الفتاوى السياسية، والشرعية، والرسائل الأدبية التي كتبها الشيخ، ولذلك كان لهذه المدرسة تأريخ حافل في صفحات تأريخ العراق السياسي فضلاً عن التأريخ الديني، وقد اعتاد الإمام كاشف الغطاء أن يشير إلى هذه المدرسة في كل ما كان يصدر منه من فتاوى ورسائل فيقول: صدر من مدرستنا بتأريخ كذا. . .

المدرسة المهدية:

تقع هذه المدرسة في محلة المشراق إحدى محلات النجف مقابل مقبرة

الحجة السيد مهدي بحر العلوم وشيخ الطائفة الشيخ الطوسي مجاورة لمدرسة (القوام).

أسّسها وشيّدها الشيخ مهدي ابن الشيخ علي ابن الشيخ جعفر الكبير صاحب (كشف الغطاء) في عام ١٢٨٤ هـ بأموال كثيرة أرسلت إليه من بلدة (قره داغ) في آذربيجان كما بنى مثلها في كربلا وهما معروفتان باسمه.

إن أرض هذه المدرسة البالغة مساحتها ما يقارب (٧٠٠) متر مربع كانت في السابق مركزاً (سرايا) لسادن الروضة. وحاكم البلد يومذاك وهو الملاّ يوسف الشهير، ولما توفي باعها ورثته للشيخ محمد ابن الشيخ علي كاشف الغطاء فبناها دارين، وبعد وفاته بيعتا على الشيخ عبد الحسين الطهراني ثم اشتراها منه الشيخ مهدي كاشف الغطاء المذكور سنة ١٢٨٤. وفي نفس السنة بناها مدرسة ذات طابقين وعدد غرفها ٢٢ غرفة يسكنها نحو ٣٠ طالباً.

وفي سنة ١٣٦٥ هـ أشرفت على الانهدام فتولّى الاهتمام ببنائها الشيخ محمد علي ابن الشيخ عبد الكريم آل كاشف الغطاء، وأعاد تعميرها بمساعدة السيد أبي الحسن الأصفهاني فعادت مأهولة بأهل العلم. وقد أخرجت هذه المدرسة عدداً من فحول أهل العلم والأدب. ومن طلبتها الشيخ صالح الجعفري وهو أحد أساطين الشعر والأدب اليوم.

مدرسة القوام:

مدرسة شهيرة عامرة مساحتها (٧٠٠) متر مربع تقع في محلة المشراق مجاورة للمدرسة المهدية ومقابلة لمقبرة العلمين شيخ الطائفة الطوسي والسيد بحر العلوم. وتعرف أيضاً بالمدرسة الفتحية نسبة إلى بانيها (فتح علي خان الشيرازي) قوام الملك وقد تمّ بناؤها سنة ١٣٠٠ هـ. وكانت تحتوي على ٢٦ غرفة، في صف واحد غير أن «طرف الشمال» منها الذي كان ذا طابقين قد آل إلى الانهدام فتصدّى لتعميره الشيخ نصر الله الخلخالي على نفقته ونفقة بعض المحسنين وهو اليوم مشغول بتشييدها لإحيائها من جديد.

وقد كانت لها إلى زمن قريب أوقاف كثيرة تصرف على طلابها شهرياً وسنوياً، وكانت في جانبها ساحة يلج إليها الداخل من ممر باب المدرسة وقد

أعدت هذه الساحة للطبخ والطهي في بعض المناسبات وخصوصاً في ليالي رمضان والمحرم. وقد انقطع واردها اليوم فانقطع الإطعام، ورأينا على جبهة بابها أبياتاً عربية ومطعمة بالفارسية وفيها ثلاثة تواريخ عن تأسيس هذه المدرسة منها:

يا من بنى هذا الأساس المتين	إنا فتحنا لك فتحاً مبين
بعهد خاقان فلك باركاه	ناصر دين خسرو إيران زمني
تاج السلاطين سراج الملوك	والعروة الوثقى وحبل المتين... إلخ
سألت عن تأريخ هذا البناء	فقيل لي أضف إلى: «الغين شين»

مدرسة الإيرواني:

مدرسة شهيرة معروفة واقعة في محلة العمارة بجنب دار الزعيم الروحاني السيد أبي الحسن الأصفهاني، وهي ذات طابقين تشتمل على تسع عشرة غرفة وفي جنب بابها في الطرف الشمالي مقبرة مؤسّسها الحاج مهدي الإيرواني الذي شادها على يد الشيخ ملّا محمد الإيرواني على أرض مساحتها نحو (٣٠٠) متر مربع. وقد كمل بناؤها في سنة ١٣٠٧ هـ ثم أوقفها بأمر الشيخ الإيرواني وجعل توليتها بيد الفاضل، ثم من بعده بيد أنجاله وأولاده على التعاقب. وعدد طلابها ٢٤ طالباً جلهم من الأتراك. وقد خصّها لسكنى الطلاب الأتراك فقط ولا سيما أهل (إيروان) وذلك لسبب حادث وقع أمام الباذل على بنائها، وهو أن هذا الباذل كان عند الشيخ الإيرواني حين جاءه طالب تركي وشكا إليه ما لقي من معاملة طلاب المدرسة التي يسكنها حتى طردوه منها. وهنا هاجت أريحية هذا المحسن وفي الحال أمر بشراء هذه الدار وبناها مدرسة للأتراك.

أما معيشة طلابها فهي ممّا تنفقه عليهم المراجع الروحانية من رواتب وخبز وأحياناً ممّا يصل لوكيل المدرسة من الحقوق الشرعية لإنفاقها على سكانها من الطلاب الأتراك. أما عدد طلابها فهم عشرون طالباً في الوقت الحاضر. وقد كانت لهذه المدرسة شهرة في إحدى معارك الزكرت والشمرت إذ كان كاظم صبي قد اتخذ منها قلعة احتمى بها في المعركة وهاجم منها آل السيد سلمان في مذبحة دارت الدائرة فيها على الشوامع من أنصار آل السيد سلمان.

مدرسة المرزا حسن الشيرازي:

شيّدت هذه المدرسة على أرض لا تزيد مساحتها على (١٢٠) متراً مربعاً وبناها المرجع الروحاني الكبير السيد مرزا حسن الشيرازي نزيل سامراء وذلك سنة ١٣١٠ هـ. وقد أنفق على بنائها أحد أثرياء الهند والمقلدين للسيد الشيرازي، وهي واقعة بجنب (باب الطوسي) من أبواب الصحن الحيدري الشريف من جهة الشمال والمتصلة من جهة الجنوب بجدار الصحن.

والمدرسة صغيرة ذات طابقين بنيت في الطابق الثاني منها ثمان غرف يسكنها عدد من طلبة العلوم الدينية وفي الطابق الأرضي شيّدت مقبرة الإمام الشيرازي وفيها حوض وسيع بني خصيصاً لوضوء المصلين والزائرين الذين يفدون للزيارة من باب الطوسي.

مدرسة الحاج مرزا حسين الخليلي الكبرى:

مدرسة واسعة الساحة تبلغ مساحتها (٦٠٠) متر مربع وموقعها في رأس شارع السلام في محلة العمارة، وفي جوار مرقد الشيخ خضر شلال. وتعرف عند العامة بمدرسة القطب لأن مؤسّسها الحاج ميرزا حسين الخليلي كان قد اشتراها من صاحبها السيد علي القطب، وكانت قيصرية في أيام القطب يشغل حوانيتها الخياطون. وقد اشتراها الشيخ الخليلي بمال معتمد السلطنة (أميرينج) وقد كمل تشييدها سنة ١٣١٦ هـ وفي نفس السنة أجريت وقفيتها. وقد شاهدت في بعض المجاميع الخطية تأريخاً لعام تكميل تعميرها لم يذكر فيه اسم المؤرخ الناظم وهو:

دار علوم لذوي التحصيل عمرها الحسيني ذو التبجيل
قد قيل لما كملت أرّخ (لها معهد علم شاده الخليلي)

١٣١٦ هـ

وفي جهة الجنوب الشرقي من المدرسة عمر أمير تومان صمصام الملك العراقي المقبرة الشهيرة باسم مقبرة الخليلي، وهي المقبرة التي دفن فيها أيضاً هذا المعمر إلى جانب الشيخ الخليلي، ثم شاد الجهات الثلاث الأخر من

المدرسة مجد الدولة جهان كيرخان. وهي ذات طابقين من جهاتها الأربع وعدد غرفها (٥٠) غرفة مبنية بالكاشاني وفي هندسة سداسية، وفيها سرداب يدور حول جهاتها الأربع. أما باب المدرسة فهو من جهة الشمال الشرقي على الشارع المعروف بشارع السلام. وقد استخرجت من الجانب الشرقي ثمانية دكاكين وقفت على مصاريفها الضرورية من كهرباء وماء وأجور خدم، وعدد طلابها اليوم (٨٥) طالباً.

وقد أنشئت فيها مكتبة عامرة للطلاب فيها من الكتب القيمة ما يربو على (١٠٠٠) كتاب وكانت لهذه المدرسة مكانة مرموقة في المجتمع إذ كانت عامرة بالفضلاء والعلماء المبرزين يوم كان مؤسسها الخليلي المرجع الروحاني الكبير، ولا تزال تضم نخبة من الفضلاء الأدباء وهم يصدرون من هذه المدرسة سلسلة شهرية بعنوان (مختارات إسلامية) تتضمن فلسفة الفكرة الإسلامية والبحوث الدينية بأقلام كتابهم ويشرف عليها السيد عبد الكريم القزويني. ولهذه المدرسة تأريخ حافل في مختلف القضايا الدينية والسياسية فقد كانت محل اجتماع العلماء كلما كان يجد ما يستوجب ذلك. وقد احتفل بها العلماء سنة ١٢٢٧ في ٢ رجب عند خلع محمد علي شاه القاجاري ونصب ابنه أحمد شاه مكانه. واشترك في هذا الاحتفال الإيرانيون والعثمانيون فكان إحتفالاً تأريخياً مشهوداً[١].

وقد كان وقفها في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٦ كما يحكيه صك الوقفية المختوم بخواتيم علماء عصره كالاخواند الملاّ محمد كاظم الخراساني، والسيد محمد كاظم اليزدي، والشيخ محمد طه نجف، وغيرهم من مشاهير العلماء[٢] وقد أخرجت هذه المدرسة أعلاماً في الفقه والشعر والأدب وكانت لهم شهرة كبيرة منهم الشيخ محسن شرارة، وعباس الخليلي، وأحمد الصافي النجفي، ومحمد علي الحوماني.

مدرسة البخاري:

تقع في محلة الحويش ملاصقة لمدرسة الأخوند الكبرى وتبلغ مساحتها

(١) ماضي النجف وحاضرها ج١ ص٩٣.
(٢) المصدر السابق.

(٣٠٠) متر مربع قام بتعميرها محمد يوسف البخاري وهو من أصحاب الوزير (خان ميرزا) وقد بنيت على يد الشيخ كاظم البخاري، وفرغ من تشييدها سنة ١٣١٩ هـ. ثم آلت إلى الانهدام حتى كادت تغلق، فتداركها الحاج غلام الكويتي الشيرازي، ووصى بأن تبنى من ثلثه بعد فاته. وهكذا فعل ورثته وأعانهم على إكمالها بعض المحسنين الآخرين فكمل بناؤها من أطرافها الثلاثة عدا الطرف الشمالي منها وهي تحتوي اليوم على (١٩) غرفة من طابقين، وفي الطرف الآخر من الجنوب قاعة للاجتماع والدرس وفيها مكتبة صغيرة خاصة بالطلاب وهي جديدة الإنشاء. أما تجديد بنائها فقد تمّ سنة ١٣٨٠ هـ. وعدد طلابها (٤٠) طالباً إذ يسكن في كل غرفة طالبان أو ثلاثة لأن بعضهم يحضرون في الغرفة للدرس والمطالعة فقط، ويذهبون ليلاً إلى دورهم الخاصة. والمدرسة هذه مبنية من الحديد والكونكريت اليوم وعلى الطراز الحديث من هندسة المدارس الجديدة.

مدرسة الشربياني:

من المدارس الشهيرة في النجف الأشرف لما ضمّت من الفضلاء والعلماء البارزين في الحوزة العلمية، وهي واقعة في محلة الحويش في آخر الشارع من مدرسة السيد محمد كاظم اليزدي المعروف سابقاً (بشارع الهنود).

وكان الشيخ محمد المعروف بالفاضل الشربياني قد اختطها في سنة ١٣٢٠ هـ، ثم شادها من تبرعات أصحابه ومقلديه التجار الأتراك في إبان زعامته الدينية، وهي ذات طبقة واحدة لا تتجاوز غرفها العشرين غرفة وقد أصبحت لتقادم عهدها شبه متداعية وتحتاج إلى تعمير وترميم ومع ذلك فإنها لم تزل مسكونة من قبل عدد من الطلاب.

مدرسة الخراساني الكبرى:

مدرسة وسيعة ذات مكانة في المجتمع العلمي لما ضمّت من أهل العلم والفضل، تقع في محلة الحويش وفي الشارع المبتدي بالساحة المعروفة (بفضوة الحويش) والمنتهي بباب سور البلد القديم المسمّى (بباب السقائين) مساحتها (٧٣٠) متراً مربعاً ذات طابقين وغرفها (٤٨) غرفة، وكلها معمورة بالطلاب

وعددهم يناهز (١٠٠) طالب وفي كل غرفة طالبان يسكنها أحدهما نهاراً للتدريس والبحث والثاني ليلاً للمطالعة والنوم، وفي الطابق الثاني من الشرق مكتبة عامرة تقدر كتبها بنحو (٢٠٠٠) كتاب مع بعض المخطوطات الأثرية القيمة.

وفي زواياها الأربع ساحات صغار فيها عدد من الغرف الصغيرة وجدرانها محلاة بالقاشاني الثمين، وقد أسّست سنة ١٣٢١ هـ وكان المنفق على عمارتها الوزير الكبير للسلطان عبد الأحد البخاري بأمر من الملاّ كاظم الخراساني المرجع العام في عصره والمتوفى سنة ١٣٢٩ هـ.

وقد أرّخ بناء هذه المدرسة بعض شعراء عصره كما هو مكتوب على بابها بقوله:

مدرسة (الكاظم) قد أرّخوا (أساسها على التقى والرشاد)

وكان من أشهر طلاب هذه المدرسة في العقد الرابع من هذا القرن هو السيد أبو القاسم الخونساري العالم الكبير في الفلك والرياضيات وكان جميع الطلاب يقصدونه لتلقي العلوم الرياضية منه، وكان يتلقى على ما نقل الناقلون عدداً كبيراً من الرسائل من مختلف الجهات يسألونه فيها عن حل بعض المسائل الرياضية وقد وضع قاعدة سهلة لمعرفة قابلية القسمة على العدد ٧. وقد أدركناه كهلاً لا يقل تضلعه بالرياضيات عن تضلعه بالفقه والأصول. ومن أشهر طلاب هذه المدرسة السيد كاظم وهو ممّن حصل على شهادة الدكتوراه في القانون من السوربون وجاء إلى النجف للحصول على شهادة الاجتهاد، فاستعانت به المدرسة العلوية في النجف لتدريس الفرنسية وكان من أنبغ أساتذة الفقه.

مدرسة الخليلي الصغرى:

مدرسة صغيرة مساحتها (٢٣٠) متراً مربعاً ذات طابقين. وعدد غرفها (١٨) غرفة محكمة البناء عدا الجانب الغربي منها فإنه لا غرف فيه. ولكل غرفة من الغرف السفلية في الطابق الأول إيوان صغير. أما الغرف العلويات فأمامها ممرّ مسقوف، وعند مدخل المدرسة غرفة صغيرة وهي مقبرة الباذل لتعميرها بأمر الحاج مرزا حسين الخليلي وهو المرزا محمد علي خان الكركاني. وموقعها في محلة العمارة

في الشارع الذي يبتدىء بدار الإمام الشيخ محمد رضا آل ياسين وينتهي بدار الإمام السيد محسن الحكيم. ويجاورها من طرف الشرق الخانقاه الذي كان قد عمره السيد محمد كاظم اليزدي ووقفه للزائرين. وقد شيّد اليوم مدرسة بعد أن انتفت الفائدة المطلوبة منه بسبب كثرة الفنادق والمساكن.

وقد كان ابتداء تأسيس هذه المدرسة سنة ١٣٢٢ هـ وكانت التولية بيد أولاد الشيخ الخليلي على التعاقب. واليوم يتولاها نجله الشيخ محمود الخليلي وقد أنشئت فيها مكتبة صغيرة لاستفادة الطلاب على قدر حاجة الدرس والبحث والمطالعة.

وقد أرّخ عام تأسيسها بعض شعراء عصره بقوله:

وبيت معارف شاد الخليلي ... لأهل العلم إذ كان العميدا
ولما تمّ حط الفضل فيه ... فأرخنا (لأهل الفضل شيدا)

وكان من فحول طلابها الشيخ حسين الزين العاملي والشيخ حسين مروة، وهو شيخ بلغ الاجتهاد ومع ذلك ظلّ ملازماً سكنى هذه المدرسة.

مدرسة القزويني:

تقع هذه المدرسة في محلة العمارة وفي سفح التل المعروف (بالطمة) وبالقرب من مسجد (الهندي) الشهير والذي يذكره المعمرون في النجف أن هذا التل مجموع من الأتربة التي نقلت من الصحن الشريف عند بنائه وتعميره وألقيت هنا حتى صارت تلاً وبقيت حيث هي وقد سميت بالطمة.

وهذه المدرسة أسّست على أرض مساحتها تزيد على (٣٠٠) متر مربع وذلك في سنة ١٣٢٤ هـ وكان الباذل على تعميرها الحاج محمد آغا الأمين القزويني - وهو من البيت المشهور باسم (الكروري) وكانت أرضها قبل ذلك خاناً للمسافرين والزوار وقيل إنها كانت مفخراً للكيزان.

وهي مؤلفة من طابقين، في الطابق الأول منها (١٥) غرفة أقيمت على سقف السراديب الممتدة في أطراف العمارة دون أن يكون لها إيوان أمامها كسائر المدارس. والطابق الثانى الأعلى وفيه (٢٨) غرفة وأمام هذه ممر يحوطها من

جميع جهاتها الأربع وقد عمر الجانب الجنوبي منها الذي كان قد أشرف على الانهدام محسن من أهل الكويت، وأحدث في وسط هذا الجانب ومقابل باب المدرسة مكتبة رأينا فيها ما يناهز (٧٠٠) كتاب، وكان تأريخ تجديد بنائها من قبل هذا المحسن الكويتي في سنة ١٣٨٤. وقد وقف عليها الباذل أراضي زراعية في إيران ليصرف ريعها سنوياً على الطلاب وبعض حاجياتها الضرورية وفي نية بعض تجار قزوين الذين زاروا النجف أن يجددوا تعمير باقي جهاتها.

مدرسة البادكوبي:

مدرسة عامرة بطلاب العلوم في محلة المشراق وفي الشارع المنتهي شرقاً بساحة الإمام مقابل مدرسة الغري الأهلية والممتد إلى الغرب حتى ينتهي بالثلمة في طرف العمارة وهو المسمّى (بشارع زين العابدين) وبإزائها من جهة الغرب مسجد كبير شيّده معمر المدرسة الحاج علي نقي البادكوبي في حدود سنة ١٣٢٥ هـ عندما زار النجف ومكث فيها مدة تقارب السنة.

وهي ذات طابق واحد وغرفها لا تتجاوز ٢٨ غرفة. وفي جنبها الشرقي ساحة صغيرة بمساحة (١٠٠) متر مربع بنيت فيها ثمان غرف أخرى في طابقين ولها طريق واسع يصلها بهذه المدرسة. وكل هذه الغرف يسكنها طلاب بخاريون من أهل بخارى وبادكوبيون أتراك من قفقاسية على الأغلب وعددهم أكثر من عشرين طالباً.

وفي سنة ١٣٨٣ هـ هدمت الحكومة المحلية ما يقارب النصف من هذه المدرسة عندما أحدثت شارع (زين العابدين) المذكور ولم يبق من غرفها اليوم سوى (١٦) غرفة يسكنها مثل هذا العدد من الطلاب بعد أن بني للمدرسة جدار حاجز عن الشارع. وقد بقيت هذه المدرسة على قدمها من حيث البناء.

مدرسة الآخوند الوسطى:

تقع هذه المدرسة في محلة البراق على شارع (الصادق) الحديث والممتد من شارع دورة الصحن إلى خارج البلد من (ساحة الإمام علي) ويفتح بابها من شارع آل الأعسم وهي من المدارس العامرة بأهل العلم معبدة الساحة بالرخام

ومنقوشة الجدران بالكاشي مساحتها (٤٢٠) متراً مربعاً ذات طابقين وعدد غرفها (٣٦) غرفة وطلابها حوالي ٦٠ طالباً ولها سرداب تحت الطبقة الأولى وفيه ثلاثة حمامات ولها مكتبة في الطابق الثاني وعدد كتبها نحو (١٣٠٠) كتاب. وقد سمّيت الوسطى لأنها متوسطة المساحة بين المدرسة الكبرى والصغرى. وهذه المدارس الثلاث للزعيم الملاّ كاظم الخراساني عمرها وقام بمصاريفها الوزير البخاري (أستان قلي بك) وزير السلطان البخاري عبد الأحد الذي عمّر مدرسة السيد محمد كاظم اليزدي. أما سنة تأسيسها وتعميرها فهي سنة ١٣٢٦ هـ وقد أرّخ ذلك الشيخ إبراهيم أطيمش بقوله وهو مكتوب على بابها بالكاشاني:

هذي مدينة علم وباب سرّ العوالم
للعلم شيدت فأرّخ (لمعدن العلم كاظم)

١٣٢٦ هـ

وقد اكتسبت هذه المدرسة شهرة كبيرة بمن سكنها من رجال العلم وبمن خرجت من العلماء والمجتهدين، وقلما توفرت الشروط الكاملة للطلاب المجدين كما توفرت لطلاب هذه المدرسة. ومن طلابها الذين سكنوها ودرسوا فيها كان الشيخ نصر الله الخلخالي القائم اليوم بالإنفاق على أكثر المدارس الدينية وطلابها في النجف.

مدرسة السيد كاظم اليزدي:

هذه المدرسة من أشهر المدارس في النجف الأشرف عمارة، وزخرفة، وفخامة، تقع في محلة الحويش وفي الشارع الواقع بين شارع الرسول في الشرق وسوق الحويش في الغرب وقد بنيت بناء بديعاً وفي هندسة رائعة كانت في وقتها ولا تزال حتى اليوم مضرب المثل. أرضها مبلطة بالرخام الصقيل وجدرانها مكسوة بالحجر الكاشاني البديع. وفيها من فن الهندسة والريازة ما جعلها محط أنظار السواح والزائرين، وتحتوي على (٨٠) غرفة في طابقين. وأمام كل غرفة إيوان صغير كهندسة سائر المدارس المشادة في النجف الأشرف منذ العصر الصفوي، ولها عدة سراديب محكمة جميلة باردة الهواء. وأرض هذه السراديب والجدران مكسوة بالحجر الكاشاني، وتعتبر هذه السراديب المبنية طابقاً فوق طابق من

أغرب العمارات وأفخمها تحت الأرض. يزورها في كل سنة عدد من السواح فيعجبون بهذه العمارة القائمة تحت الأرض. أسّسها وعمّرها بأمر الإمام السيد محمد كاظم اليزدي الوزير البخاري (أستان قلي) الذي عمّر مدرسة الأخوند الوسطى على أرض مساحتها (٧٥٠) متراً مربعاً. وقد ابتدأ بتعميرها سنة ١٣٢٥ هـ وأكمل بناءها في سنة ١٣٢٧ هـ وعندما كمل تشييدها فضل من الأموال التي أرسلها الوزير المذكور لتعميرها مبلغ كبير اشتروا به نصفاً من حمامين، وأحد عشر دكاناً وفندقاً من سوق الخلخالي بقضاء الكوفة، كما ابتيعت لها أيضاً سبعة حوانيت أخرى وخان هو الآن معمل لاستخراج الدبس من التمور مع ساحة كبيرة خلف هذا المعمل في سوق الكوفة المتوسط. وقد أوقفت كلها عليها على أن تصرف وارداتها في شؤون المدرسة من ماء وكهرباء وما تحتاجه من الإصلاحات. وقد كان المباشر لتعميرها والساعي في إدارتها وتنظيمها السيد محمد اليزدي نجل الحجة السيد محمد كاظم اليزدي، وقد أسّس فيها بعد إكمالها مكتبة عامرة بالمصادر المهمة وبعدد من المخطوطات القيمة.

وقد أرّخ بناءها بعد الإكمال بعض الأدباء وكتب التأريخ بالكاشاني على جهة الباب وهو:

قد أبهج المصطفى وعترته ... بذا وقالوا شيّدت دعائمنا

يا طالبي فقهنا وحكمتنا ... دونكم هذه معالمنا

مدارس الدين أرخوا (لكم ... جدّدها للعلوم كاظمنا)

وقال الشيخ علي المازندراني مؤرخاً أيضاً:

أسّسها بحر العلوم والتقى ... محمد الكاظم من آل طبا

وفي بيوت أذن الله أتى ... تأريخها (لكن بحذف ما ابتدا)

أي بحذف الواو التي ابتدأت بها الآية، فإن التأريخ يزيد مع الواو ستة بحساب الجمل لدى المؤرخين ولذلك أشار المؤرخ إلى حذف الواو ليصحّ التأريخ.

ومن سكان هذه المدرسة شيخ جاء النجف طالباً للعلم من إيران وهو شاب

لم يبلغ الثامنة عشرة فمكث في هذه المدرسة ستين سنة ولم ينل الاجتهاد. وقد توفي في أوائل العقد الرابع من هذا القرن وكان مضرب المثل للمتأخرين في الدراسة.

مدرسة الهندي:

مدرسة أقيمت على أرض مساحتها (٦٠٠) متر مربع في محلة المشراق بجنب دور أسرة آل كمونة خدمة الروضة الحيدرية الشهيرة، مدخلها في دريبة ضيقة طويلة يقع بابها في آخرها وهي مؤلفة من طبقة واحدة ومجموع غرفها (٢٢) غرفة. وطرفها الجنوبي متصل بمدرسة القوام المتقدمة الذكر. وقد آلت إلى الانهدام فأصلحها الإمام السيد محسن الحكيم قريباً وإنما عرفت بمدرسة الهندي لأن المحسن ناصر علي خان أحد أهالي (لاهور) من ملحقات بنجاب الهندية كان قد اشتراها وشيّدها مدرسة للهنود سنة ١٣٢٨ هـ وعدد طلابها اليوم لا يتجاوز (٣٨) طالباً.

مدرسة الآخوند الصغرى:

موقعها في محلة البراق. وفي الشارع المشهور بشارع (صدتوماتي) وهي صغيرة مساحة أرضها (٢١٠) أمتار مربعة ذات طبقة واحدة وفيها (١٢) غرفة فقط، أمام كل غرفة إيوان صغير وعدد طلابها (٢٠) طالباً أكثرهم أفغانيون. عمرها وشاد بناءها الحاج فيض الله البخاري خازندار الوزير خان ميرزا وقد كمل تعميرها في عام ١٣٢٨ هـ.

مدرسة السيد عبد الله الشيرازي:

تقع هذه المدرسة في الجادة الخامسة من شارع الرسول الأعظم في محلة الجديدة إحدى محلات النجف الحديثة مساحتها (٧٢٥) متراً مربعاً وتحتوي على (٢٤) غرفة؛ وهي ذات طابقين من جهة الجنوب فقط وعدد طلابها (٣٠) طالباً وفيها مكتبة على رغم صغرها تكفي طلابها. وموقع هذه المكتبة في الطابق العلوي ولا يتجاوز عدد كتبها فعلاً (٨٠٠) كتاب وهي خاصة بالطلاب لغرض الدرس والمطالعة، ولها نظام داخلي خاص بسير طلابها.

أسّسها وسعى في تعميرها السيد عبد الله الشيرازي عام ١٣٧٢ هـ من تبرعات المحسنين وذوي الثراء من محبي الخير ولا سيما الإيرانيين. أما نفقات طلابها ومعيشتهم فيجريها المؤسّس نفسه وبعض المراجع العالية من العلماء في النجف الأشرف.

مدرسة البروجردي الكبرى:

تقع هذه المدرسة التي تضافر على هندستها وبنائها إبداع الفن الإيراني والفن الهندي في محلة البراق وفي الشارع المتوسط بين سوق التجار وشارع الدورة المحيط بالصحن الشريف في الطرف الشرقي من الصحن. ومساحتها (٧٠٠) متر مربع ذات أربعة طوابق. أما الطابق الأول فهو السرداب الواسع والمحتوي جانب منه على ثلاثة حمامات صيفية. وأما غرفها فعددها اثنتان وستون غرفة وكلها في الطابق الثاني والثالث والرابع دون أن يكون لكل غرفة إيوان كغيرها من المدارس الأخرى. وعند مدخل المدرسة ساحة صغيرة في طابقين. أما العلوي ففيه عدد من الغرف والطابق الأرضي فيه غرف للخدم ومداخل للسرداب وسلم للطبقة الثانية وكل غرفة مؤثثة بالسجاد الإيراني الذي حيك خصيصاً لها في إيران، ولها في الطابق الأول قاعة محاضرات كبيرة، وصالة للصلاة والبحث والتدريس كما أن لها في الطابق الثاني مكتبة عامرة منظمة أحسن تنظيم وحافلة بالكتب القيمة العلمية والفقهية وبعض المخطوطات القديمة، وعدد كتبها نحو (٨٠٠٠) كتاب. وعدد طلابها (٦٠) طالباً يسكن كل طالب في غرفة واحدة ويشترط في قبوله فيها أن يكون من متوسطي الدراسة الدينية وبشهادة يحملها من أحد الأعلام، وأن يكون مجرداً من العائلة. وهؤلاء الطلاب كانوا يتقاضون مرتباً شهرياً كل بحسب درجته العلمية في زمن مؤسّس المدرسة الإمام السيد حسين البروجردي. ويعين اليوم السيد أحمد الخونساري القاطن بطهران لكل طالب من طلابها ديناراً واحداً في كل شهر، وتدفع المراجع العالية من العلماء مخصصات أخرى لهؤلاء الطلاب.

وقد كان تأسيسها سنة ١٣٧٣ هـ. والمباشر المشرف على بنائها هو الشيخ نصر الله الخلخالي، وهو نفسه المتولي عليها الآن بالاشتراك مع السيد محمد

حسن البروجردي نجل الإمام البروجردي فيقومان بتنظيم أمورها وإدارة شؤونها. وقد أرّخ عام إكمالها الشيخ محمد تقي الجواهري ذاكراً اسم المؤسّس والمباشر إذ قال:

وجامعة بجنب الطهر شيدت لترعاها من الكرار عين
فأرّخها (على التقوى بناء بنصر الله أسّسها حسين)

وأرّخها السيد موسى بحر العلوم بقوله وقد كتبت بالحجر الكاشاني داخلاً:

هذه مدرسة شيدت لمن طلب العلم ومن أدّى فروضه
أسّسته يد أعلى مرجع زاده الله من الجاه عريضه
للحسين بن علي أجرها جبر الله به الحق مهيضه
وعن الصادق قد أرّختها (طلب العلم كما جاء فريضه)

وأرّخها السيد محمد الحلي بقوله:

وعظيم قد سمت أعماله فغدت تجلب للناس الرشادا
كيف لا يسمو لدى الله وقد شاد للعلم وللدين العمادا
سيد عمّ البرايا نفعه فلذا عظمه الناس وسادا
إن يفز بالفخر تاريخي (له فحسين معهد التدريس شادا)

مدرسة العامليين:

تقع هذه المدرسة في محلة الجديدة التي حدثت في جانب خان المخضرات وقد أسّست على أرض مساحتها (١٥٠٠) متر مربع تحتوي على (٤٠) غرفة؛ منها سبع عشرة غرفة على جانبي مسلك باب المدرسة في شرقها وغربها. وفيما بين كل صفين من الغرف صالون وسيع، ثم بعد هذه المجموعة ساحة كبيرة؛ وفي مقابل هذين الجناحين من الغرف المذكورة بنيت حديثاً غرف أخرى وعددها ٢٣ غرفة غير أنها لم تسكن بعد إذ لم تكمل تماماً. وفي هذا البناء الجديد إيوانان وإسعان شمالي وجنوبي، وقاعة كبيرة تحتها سرداب بمساحة (٢٠٠) متر مربع، كما بنيت فيه مكتبة وصالون للمطالعة وغرفة لإدارة المدرسة.

أما طلابها فعلاً فعددهم (٢٦) طالباً وأكثرهم عامليون من جبل عامل بلبنان.

وكان الساعي في إنشائها وصاحب الفكرة الأولى هو الشيخ محمد تقي الفقيه العاملي، فإنه بعد استشارة إخوانه العامليين وموافقتهم على شدّ أزره رفعوا ذلك إلى السيد محسن الحكيم، فأقرهم عليه وتبرع لهم أولاً بمبلغ (١٥٠٠) دينار حين شرع في بنائها بعد شراء الأرض سنة ١٣٧٧ هـ. ثم ذهب فريق من العامليين في وفد إلى الكويت وجمعوا لها من تبرعات المحسنين هناك مبلغاً وافراً ساعدهم على تشييدها وما زالوا يسعون في إكمالها. ومتوليها اليوم هو صاحب الفكرة المؤسس الشيخ الفقيه ووكيله في النجف هو الشيخ العسيلي. أما نفقات هؤلاء الطلاب فهي من المراجع الدينية وبعضها من أهاليهم في جبل عامل.

المدرسة الطاهرية:

مدرسة كبيرة الساحة تبلغ مساحة أرضها (٣٠٠٠) متر مربع تقع في الجادة (١٣) من شارع الرسول الأعظم وهي في ركن تحيط بجوانبها الأربعة جادات واسعة.

أسّسها السيد عبد الله الشيرازي بعد إشادة مدرسته الأولى وكان ذلك في عام ١٣٧٧ وبنى فيها حتى الآن (١٤) غرفة وأسكن فيها ١٤ طالباً ولا يزال يجد في إكمالها. وقد أسماها (بالطاهرية) نسبة إلى جده السيد طاهر الشيرازي.

مدرسة البروجردي الصغيرة:

تقع هذه المدرسة المشيدة على أرض مساحتها (٣٥٠) متراً مربعاً في رأس سوق العمارة الصغير. الذي ينتهي بشارع دورة الصحن مقابل باب الصحن المسمّى (بالباب السلطاني) نسبة إلى السلطان ناصر الدين شاه القاجاري الذي فتحه عند زيارته للنجف الأشرف وقد كانت داراً معروفة باسم (بيت القاضي) ذات طابقين تشبه في هندستها مدرسة البروجردي الكبرى وعدد غرفها (٢٠) غرفة وطلابها أربعون طالباً. وفي كل غرفة يسكن اثنان من الطلاب، وقد تبرع بشراء أرضها وتعميرها السيد هاشم البهبهاني بأمر من الإمام الحاج آغا حسين البروجردي، كما عين لكل طالب فيها ديناراً واحداً شهرياً مشترطاً في نظامها الداخلي أن لا يكون الطالب رب عائلة أو رب دار في البلد. وقد كان أكثر سكانها من الباكستانيين. ثم عين السيد هاشم لكل غرفة من غرفها سجادة إيرانية

على قدر مساحة الغرفة. وجعل المتولي عليها الشيخ نصر الله الخلخالي. وقد كان تأسيسها في عام ١٣٧٨ هـ وأرّخها الخطيب السيد علي الهاشمي بقوله. وقد كتب التأريخ بالحجر الكاشاني على الجبهة المقابلة للداخل:

معهد علم بالغري شاده	الهاشمي هاشم بن أحمد
باسم فقيه العصر موئل الورى	سيدنا (الحسين) فخر المقتدي
نادى به رائد أرباب الهدى	أرّخ (لقد شيد خير معهد)

١٣٧٨ هـ

مدرسة الرحباوي:

تقع هذه المدرسة في محلة الجديدة في الركن الذي هو عند ملتقى شارع المدينة وشارع الهاتف؛ مساحتها (١٠٠٠) متر مربع وبابها من جانب الشمال من شارع المدينة.

أسّسها صاحبها الحاج عباس محسن ناجي الرحباوي النجفي سنة ١٣٧٨ هـ باسم الحسينية أولاً، ثم رجح له أن يبني فيها غرفاً لطلاب العلوم لتكون أكثر نفعاً وأعمّ فائدة فبناها في طابق واحد وجعل في جانبيها الشرقي والغربي اثنتي عشرة غرفة أسكن فيها ما يزيد على العشرين طالباً. ثم ابتنى في الجنوب حسينية بمساحة (٢٠٠) متر مربع وخصّها بإقامة مأتم الحسين في الأوقات المناسبة على أن تكون في عين الوقت قاعة محاضرات ومصلّى للطلاب.

ثم عيّن لها أوقافاً يصرف ريعها في حاجاتها الضرورية وأن أوقافها هذه:

ستة حوانيت من خارجها مع دار صغيرة في جانبها.

ويشرف عليها اليوم نفس مؤسسها الحاج عباس ولها وقفية ونظام للمتولي وللطلاب.

مدرسة الجوهرجي:

أسّس الحاج محمد صالح الجوهرجي في محلة المناخة في شارع المدينة في النجف الأشرف مسجداً واسعاً كبيراً وبجنبه حسينية ثم أخرج منها (١٢) دكاناً وبنى في جوارها حماماً للرجال باسم (حمام الكوثر) وجعل هذه المنشآت كلها

وقفاً للمسجد والحسينية غير أنه رأى أخيراً أن الأنفع والأصلح للوقف وإدامته ومنعاً لتضرر المجاورين من وجود الحمام وتسرب مياهه إلى أسس دورهم أن يزيل الحمام ويضيف مساحته إلى الحسينية مع قسم من أرض ملكه المجاور وهكذا فعل وأعاد بناء المسجد بأقوى ممّا كان وجعله حرماً وجعل الساحة (حسينية) وحرم المسجد هذا واقع في الطابق السفلي من الساحة، وشيّد على القسم الباقي المحيط بالمسجد والحسينية من الجهات الأربع خمسين حانوتاً وبنى في الطابق العلوي فوق الحوانيت المذكورة مدرسة لطلاب العلوم الدينية تتألف من اثنتين وخمسين غرفة وكلها اليوم مسكونة بالطلاب وقد بنى لهم حماماً عصرياً في الطابق الثالث ثم وقف جميع هذه المنشآت وقفاً خيرياً يصرف واردها على لوازم المسجد، والحسينية، والمدرسة، والمكتبة، والمقبرة، في أجور ماء، وكهرباء وخادم، وقراءة قرآن، وإمامة المسجد وما تحتاج المكتبة من راتب الناظر والأمين إلى غير ذلك.

وقد أرّخ عمارة مسجدها محمد جواد مطر بأبيات مكتوبة بالكاشاني على جبهة بابه وهي:

صالحُ ما أسّس مسجداً هنا ... إلّا وفي الجنة بيتاً أسّسا
فقلت في التأريخ (زده إنه ... لمسجد على التقى تأسّسا)

٣ ـ سنة ١٣٨٢ هـ

مدرسة جامعة النجف الدينية:

أسّست هذه المدرسة في محلة (حي السعد) إحدى محلات النجف الواقعة على طريق (الكوفة والنجف) وشيّدت على أرض مساحتها (٥٠٠٠) متر مربع وقد شرع في بنائها في سنة ١٣٧٦ هـ واستمر التعمير حتى سنة ١٣٨٢ هـ.

وقد كانت فكرة تأسيسها والقيام بتنفيذ هذا المشروع تعود للسيد محمد أسولموي الشهير (بكلانتر)، أما الباذل على تعميرها فهو المحسن الحاج محمد تقي اتفاق الطهراني وقد أنفق عليها من خالص ماله وليس من الحقوق الشرعية وأرصد لها مبلغ (١٥٠) ألف دينار عراقي، أما ما أنفق عليها من الضروريات

والكماليات بعد إكمالها فقد كان كثيراً جداً، وقد اشتريت أرض المدرسة، وعمرت وسجلت بالطابو باسم المباشر السيد محمد كلانتر.

أما نفقاتها الحالية ونفقات طلابها فإنها تجري من نفس المؤسّس ومن بعض تبرعات المحسنين، وفي نية المؤسس أن يوقف لها ولإعاشة طلابها موقوفات من أملاك وأراض زراعية تدر عليها وعليهم سنوياً ما يضمن لها ولهم سدّ الحاجة كما عيّن للطلاب نظراً لبعدها عن الصحن وحوزات التدريس في داخل البلد سيارة ذات (٢٤) مقعداً تحمل الطلاب من المدرسة إلى الصحن ثم تعود بهم إلى مدرستهم كل يوم صبحاً وعصراً وليلاً.

وهذه المدرسة تحتوي على (٢٠٨) غرف للسكن قائمة في ثلاثة طوابق عدا الطابق الأرضي الذي هو عبارة عن سردابين يقعان تحت بناية العمارة، وثلاثة سراديب واسعة أخرى تقع تحت صالوناتها وفيها مرافق واسعة للطبخ والغسيل.

أما الطابق الأول فمنه مدخل المدرسة وعلى يمين الداخل إلى المدرسة شيّدت مكتبة بمساحة (٢٢٥) متراً مربعاً في طابقين. وقد وضعت قماطر الكتب في الطابق العلوي، وأما المساحة السفلى فهي للمطالعين يجلسون على كراسٍ ومناضد خاصة أعدت لراحتهم، وعلى يسار الداخل يقع مسجد الجامعة البالغة مساحته (٢٢٥) متراً مربعاً أعدّ لأداء الصلوات الخمس والتدريس. والبحث والحفلات الدينية الخاصة، وبجانب هذا المسجد غرفة لقلم الجامعة تقع تحتها مقبرة خاصة للمؤسس وعائلته وللمتولي الفعلي السيد محمد كلانتر وحده.

وفي وسط المدرسة ساحة كبيرة وفي جانبها رديفان من الغرف يفصل بينهما صالون كبير ومثله في الجانب الغربي من الساحة كما ترى في الجانب الشمالي والجنوبي غرف أمامها إيوانان كبيران مسقوفان، ومجموع غرف الطابق الأول (٦٢) غرفة وفيه ثمانية حمامات واثنتا عشرة مغسلة أما الطابق الثاني فيشتمل على (٥٤) غرفة وثلاث قاعات للتدريس تقع في الجهة الغربية منها، وفي جهتي هذا الطابق الغربية والشرقية صالونان كبيران بين رديفين من الغرف كالطابق الأول وفيه ثماني حمامات واثنتا عشرة مغسلة.

أما الطابق الثالث وفيه (٩٢) غرفة وصالونان كبيران في الشرق والغرب

يتصلان أيضاً بين رديفين من الغرف كالسابق وفيه أيضاً إيوانان وسيعان شمالاً وجنوباً وثالث دائري مسقوف في جهة الشمال.

والمتولي لأمورها هو السيد محمد كلانتر بالوكالة عن مؤسسها ومتوليها الأصلي والمدرسة مقيدة بأنظمة الامتحانات ويمنح الناجح منهم بدرجة الامتياز زيادة في راتبه ومخصصاته وتعتبر هذه المدرسة اليوم أفخم وأوسع مدرسة بنيت في تأريخ مدارس النجف.

مدرسة عبد العزيز البغدادي الدينية:

مدرسة متقنة البناء أسّست على أرض مساحتها (١٩٠٠) متر مربع تقع في مقدمة محلة حي السعد من المدينة وفي ركن يجعل جانبها الجنوبي على الشارع الرئيسي بين الكوفة والنجف والجانب الغربي على طريق كربلاء ومنه طريق بابها وقد شيّدت في طابقين عدا الطابق السفلي المشتمل على سردابين كبيرين مجهزين بعدد كبير من المراوح الكهربائية مبالغة في راحة الطلاب صيفاً.

أما الطابق الأول الذي منه طريق الباب فإنه يشتمل على ساحة كبيرة تحيط بها خمسون غرفة وفي أطراف الساحة وزواياها عشرة حمامات، ومطبخان، وعدد من المغاسل ثم قاعة كبيرة للمحاضرات وقاعة أخرى للحفلات، وفيها مسجد لأداء الصلوات الخمس يقع في الركن الذي يفصل بين شارع الكوفة وشارع كربلا، وتحته مقبرة خصّها مؤسّسها وواقفها الحاج عبد العزيز البغدادي بنفسه وأهل بيته وبجانب هذا المصلى محل للوضوء.

وفي الطابق الثاني العلوي اثنتان وخمسون غرفة وعشرة حمامات ومغاسل ومطابخ على غرار الطابق الأول فيكون مجموع غرفها (١٠٢) غرفة وكلها عامرة بالطلاب الفضلاء. وقد جهّزها مؤسّسها بالفرش والأثاث الكامل من المكيفات الهوائية الأتوماتيكية وتبريد الماء والمراوح.

وتحيط بهذه المدرسة حديقتان جانبيتان غرباً وجنوباً كما شيّد بجنبها دار سكنى للقائم بإدارتها ولزائريها من آل (البغدادي) وأصدقائه، وإخوانه. وهي مشرفة على الحديقة، وبعد أن تمّ بناء هذه المدرسة قرّر مؤسسها وقف عمارة

كبيرة بشارع الرشيد، في بغداد عليها، وقد افتتحها بحفلة كبيرة حضرها الإمام السيد محسن الحكيم كما حضرها وفود من أنحاء العراق وكان ذلك في يوم ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٨٣ هـ وقد جعل توليتها لنفسه ما دام حياً ومن بعده لولده كامل وجعل ابنيه رؤوفاً وعبد الجبار، ناظرين عليه.

وقد أرّخ سنة انتهاء تعميرها بعض الشعراء بقوله:

عبد العزيز عندما أسّسها مدرسة دينيةً وشيدا
رام له الحكيم أن يعظم في الدنيا وفي أخراه أن يخلدا
فبلدة الغري أرخنا (بها عزيز بغداد أقام معهدا)

مدرسة الأفغانيين:

مدرسة حديثة البناء واقعة في محلة (الجديدة) اختصّت بالأفغانيين والبلوجيين البربر، وهي واقعة في وسط الدور التي يسكنها الأفغانيون والبربر على الغالب وخلف حديقة (غازي) الكبيرة كانت أرضها البالغة مساحتها (٤٠٠) متر مربع ملكاً للحاج الشيخ حسن الأفغاني، فوقفها على أنْ تكون مدرسة دينية للطلاب منهم فعمروها بما جمعوه من تبرعات المحسنين منهم ومن غيرهم وشرعوا في بنائها سنة ١٣٨٤ هـ وشيّدوا فيها سبع غرف في الجانب الجنوبي منها بعد أن سورها وهي في الطابق الأول السفلي فقط وبنوا أمام كل غرفة إيواناً صغيراً على طراز هندسة المدارس الدينية في النجف. وأسكنوا فيها سبعة طلاب من الأفغانيين والبلوجيين أما المتولي لشؤونها الداخلية والخارجية اليوم فهو السيد عوض الأفغاني والشيخ محمد الرحماني الأفغاني الخراساني وهما يبذلان المساعي لتعمير جوانبها الأخرى بناء على شدّة الحاجة لسكنى الطلاب الأفغانيين.

مدرسة اليزدي الثانية:

تقع هذه المدرسة الجديدة في محلة العمارة متصلة من الغرب بمدرسة الخليلي الصغرى ومن الجنوب بمدرسة الخليلي الكبرى، وكانت هذه المدرسة منذ خمسين عاماً (خانقاهاً) بناه العلامة السيد كاظم اليزدي للزائرين يوم لم يكن

في النجف الأشرف فنادق أو أماكن عامة تسع الوافدين إليها، فاشترى الأرض وهي دار لبعض العلويين وشيّدها (خانقاهاً) بماله، وببعض الحقوق الشرعية التي تنطبق على مثل هذه المشاريع.

ولما رأى نجله السيد أسد اليزدي أن هذا الخان قد أصبح عاطلاً ولا فائدة فيه اليوم بسبب كثرة الفنادق والمساكن للوافدين والزوار رجح في نظره أن يشيد هذا الخان المسمّى بخان الوقف مدرسة لطلاب العلوم الدينية الذين هم اليوم في حاجة ماسة إلى مساكن، فعرض الفكرة على السيد الحكيم واستفتاه في جواز هذا التصرف والتغيير. فأمضى رأيه وساعده بمبلغ لإخراج الفكرة إلى حيّز العمل. وقد كملت اليوم بهيكلها العام وهي مدرسة جميلة ذات طابقين شيّدت على أرض مساحتها (٦٠٠) متر مربع وعدد غرفها (٥١) غرفة منها (٢٥) في الطابق الأول المقام على سرداب كبير و(٢٦) غرفة في الطابق الثاني وفي الطابق الأول قاعة محاضرات كبيرة وهي التي يطلق عليها اسم (المَدْرس)، وفي الجنوب الشرقي منها أربعة حمامات صيفية ومغاسل وأمام الغرف كلها في كلا الطابقين ممر بعرض مترين ونصف متر مسقف بالحديد والآجر وقائم على أعمدة من الكونكريت والإسمنت، والحديد، وهي مدورة الشكل وقد زينت دورتها من أعالي السقف الدائر بالآيات القرآنية مكتوبة بالكاشاني الملون البديع. وقد شرع في بنائها سنة ١٣٨٤ هـ وحتى اليوم والعمل لم يزل مستمراً فيها.

وقد كان لهذا (الخان) المذكور أوقاف تصرف وارداتها عليها فرجعت كلها إلى المدرسة وهي عبارة عن أربعة دكاكين، ودارين، وفندق صغير، وكلها متصلة بنفس المدرسة وتصرف إيجاراتها على المقتضيات اللازمة من ماء وكهرباء وأجور خادم وما إلى ذلك من ضرورياتها.

وقد أرّخ عام الابتداء في تعميرها السيد موسى بحر العلوم بقوله:

بشرى بها مدرسة عائدة ... على هواة العلم بالفائدة
أسّسها (الكاظم) من حلمه ... بنية راسخة القاعدة
ثنى بها مدرسة فاغتدت ... في حسنها الثانية الواحدة
فأصبحت عيداً لمن هاجروا ... للعلم والسكنى بها المائدة

وعـدهـا الـدهـر بتـأريخـه (من حسنـات السيـد الخـالـدة)

مدارس تحت الإنشاء:

أ ـ مدرسة الحكيم:

واقعة في محلة المشراق قرب الساحة الكبيرة المعروفة (بفضوة المشراق) البالغة مساحة أرضها (٧١٤) متراً مربعاً اشتراها الإمام الحكيم ليشيدها مدرسة وهي عبارة عن دارين إحداهما دار أمين شمسة ومساحتها (٤٨٤) متراً مربعاً والثانية دار لطيف (أبو أصيبع) ومساحتها (٢٣٠) متراً مربعاً وسوف يشرع بتعميرها قريباً إن لم يكن قد بوشر بتعميرها الآن.

ب ـ مدرسة الكلباسي:

دار اشتراها الشيخ محمد علي الكلباسي النجفي بماله وبسعيه من تبرعات المحسنين من إيرانيين وغيرهم، اشتراها من الأخوين التغلبيين الشيخ عبد الحسين والشيخ عبد العزيز وهي واقعة على شارع دورة الصحن الشريف ومتصلة من جانبها الغربي بمدرسة البروجردي الصغيرة ويفصل بينها وبين سوق العمارة دار واحدة ومساحتها (١٤٧) متراً مربعاً وقد هدمت الدار ليشرع في تعميرها.

جـ ـ ولا يستبعد أن تشاد عدة مدارس كبيرة في ربع القرن المقبل بناء على هذه الحركة النشطة البادية في تأسيس هذا العدد من المدارس خلال ربع القرن الماضي.

المدارس الدينية في النجف

وجاء في كتاب (**لمحات من تاريخ النجف**)[١] ذكر بعض المدارس الأكثر حداثة على هذا النحو:

يرجع تاريخ نشوء المدارس الدينية في النجف إلى زمن غير قريب وهو مرتبط بتاريخ انتقال مدرسة الكوفة إلى النجف منذ ظهور سر القبر العلوي الشريف حيث انتقلت أيضاً كل الأفكار والدراسات العربية الإسلامية، كان ذلك منذ أن حطّ رحاله شيخ الطائفة «الطوسي» عام ١٠٥٦ م ٤٤٨ هـ فيها ممّا حدا بالكثير من أرباب الفضيلة أن يؤمّوا هذه المدينة المقدسة لينهلوا من العلم والأدب على شيخنا الطوسي. وهكذا مع توالي السنين أصبحت مركزاً كبيراً من مراكز العلم واحتلت مكان الصدارة في العالم الإسلامي وتقاطر عليها طالبو العلم من كل فج عميق. وإذا افترضنا أن من أولى الأسباب الدراسية للتحصيل هو إيجاد المناخ الملائم للدراسة حيث الهدوء والاستقرار كانت المدارس الدينية هي خير وسيلة لذلك. ومن خلال هذه الحقيقة يمكننا أن نعلل سبب وجود المدارس التي نراها منتشرة في مدينة النجف حيث إن لكل مدرسة نظاماً خاصاً بها ولبعضها أوقاف مخصصة. ولو أردنا إحصاء المدارس الدينية في النجف فإنا نحتاج إلى دراسة مسهبة حيث إن كثيراً من المدارس قد انقرضت وذهبت وقفيتها وبقي القسم الآخر محافظاً على الوقفية .وقائماً إلى يومنا هذا وسنذكرها جميعاً.

١ ـ مدرسة المقداد السيوري: بناها الشيخ جمال أبو عبد الله المقداد بن عبد الله السيوري الأسدي عام ١٤٢٨ م ـ ٨٣٢ هـ وقد تغيّر اسمها الآن وأصبحت

(١) للأستاذ ناجي وداعة ج ١ ص ٧٢.

تعرّف باسم المدرسة السليمية نسبة إلى بانيها سليم خان الشيرازي الذي عمّر بناها في سنة ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م تحوي على عشر غرف.

٢ - مدرسة الشيخ عبد الله: بنيت هذه المدرسة في أواخر القرن العاشر الهجري من قبل الشيخ عبد الله.

٣ - مدرسة الصدر: أسّسها الحاج محمد حسين خان الأصفهاني مساحتها حوالي ٩٠٠ متر يرجع تاريخها إلى سنة ١٢٢٦ هـ لا زالت عامرة بروادها وقد أوقف لها مؤسسها وقفاً لغرض الصرف عليها.

٤ - المدرسة المهدية: أسّسها الشيخ مهدي ابن الشيخ علي ابن الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء في عام ١٨٦٧ م - ١٢٨٤ هـ من المدارس المشهورة واسعة تقع في محلة المشراق وكانت أصلاً سجناً للملاّ يوسف وقد قال الشيخ مهدي بعد أن انتهت فترة الملالي «إن دار الظلم حري بها أن تكون داراً للعلم»[1].

٥ - مدرسة القوام: أسّسها فتح علي خان الشيرازي عام ١٣٠٠ هـ تسمّى بالمدرسة الفتحية نسبة إلى مؤسسها وهي كبيرة وواسعة تزخر برواد العلم كما أن لها أوقافاً تصرف عليها.

٦ - مدرسة الإيرواني: أسّسها الحاج مهدي الإيرواني في سنة[2]. ١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م تقع في محلة العمارة مساحتها ٣٠٠ متر وقد جاء السبب في تأسيسها أنه جاء إلى الشيخ مهدي طالب تركي شاكياً له سوء المعاملة من طلاب المدرسة التي يسكنها عند ذلك آمر الحاج مهدي بأن تبنى مدرسة وقد خصّصها للطلاب الأتراك فقط.

٧ - مدرسة القزويني: أسّسها الحاج محمد آغا الأمين القزويني في سنة ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م تقع في محلة العمارة تبلغ مساحتها ٣٥٠ متراً مكونة من طابقين فيها الآن خمسة عشر غرفة، وقد آلت أخيراً إلى الخراب في حدود سنة ١٩٦٣ م.

---

(١) حدثنا عن هذا الموضوع الأستاذ محمد صالح الجعفري وقد حكم الملالي حوالي ٥٠ سنة.
(٢) ماضي النجف وحاضرها ص١٣٢ وموسوعة العتبات المقدسة ج٢ قسم النجف ص١٤١.

٨ ـ مدرسة البادكوبية: أسّسها الحاج علي تقي البادكوبي سنة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م تقع في محلة المشراق.

٩ ـ مدرسة الهندي: أسّسها ناصر علي خان اللاهوري البنجاني سنة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م.

١٠ ـ مدرسة الشربياني: أسّسها الشيخ محمد الشربياني في سنة ١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م وهي من المدارس ذات الشهرة الكبيرة ضمّت عدداً كبيراً من الفضلاء تقع في محلة الحويش فيها عشرون غرفة.

١١ ـ مدرسة الخليلي الكبرى: أسّسها حاج ميرزا حسين الخليلي في سنة ١٣١٦ هـ ـ ١٨٩٨ م تقع في محلة العمارة توجد فيها مكتبة عامة للطلاب.

١٢ ـ مدرسة الخليلي الصغرى: أسّسها حاج ميرزا حسين الخليلي في سنة ١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م تقع في محلة العمارة مجموع مساحتها ٢٣٠ متر.

١٣ ـ مدرسة الملاّ محمد كاظم الأخوند الكبرى: أسّسها محمد كاظم الأخوند في سنة ١٣٢١ هـ ـ ١٩٠٣ م تقع في محلة الحويش فيها ٤٨ غرفة ومكتبة تحتوي على ٢٠٠٠ كتاب.

١٤ ـ مدرسة الأخوند الوسطى: أسّسها محمد كاظم الأخوند في سنة[1] ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م تقع في محلة البراق وهي من المدارس العامرة تزخر بروادها.

١٥ ـ مدرسة الأخوند الصغرى[2]: أسّسها محمد كاظم الأخوند تقع في محلة البراق وقد عمرها الحاج فيضي البخاري سنة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م.

١٦ ـ مدرسة محمد كاظم اليزدي أسّسها محمد كاظم اليزدي سنة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م[3] تقع بين شارع الرسول وسوق الحويش هندستها بديعة وفخمة وقد أنفق على تعميرها الوزير البخاري.

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ص١٥٠

(٢) موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ص١٥٤.

(٣) موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ص١٥٢.

١٧ ـ مدرسة الإمام البروجردي: أسّسها آغا حسين البروجردي في سنة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣ م تقع في محلة البراق وهي مدرسة واسعة مساحتها ٧٠٠ متر ذات أربعة طوابق فيها مكتبة عامرة تحوي على ٨٠٠٠ كتاب.

١٨ ـ مدرسة الإمام البروجردي الصغيرة[1]: أسّست سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م (تبرّع بشراء أرضها وتعميرها السيد هاشم البهبهاني بأمر من الإمام البروجردي) تقع في سوق العمارة مساحتها ٣٥٠ متراً.

١٩ ـ مدرسة عبد الله الشيرازي: أسّسها السيد عبد الله الشيرازي في سنة ١٩٧٢ هـ ـ ١٩٥٢ م تقع في محلة الجديدة.

٢٠ ـ مدرسة جامعة النجف الدينية: أسّست سنة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م تقع في حي السعد تكلف إنشاءها المحسن الحاج محمد تقي اتفاق الطهراني مدرسة ضخمة من حيث البناء والهندسة المعمارية والحجم تقع على مساحة قدرها ٥٠٠٠ متر تحتوي على ٢٠٨ غرف.

٢١ ـ مدرسة عبد العزيز البغدادي: أسّسها عبد العزيز البغدادي في سنة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م تقع في محلة حي السعد مساحتها ١٩٠٠ متر فيها ١٠٢ غرفة تحيط بها حدائق فسيحة.

٢٢ ـ مدرسة اليزدي الثانية: أسّسها السيد اليزدي في سنة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م تقع في محلة العمارة مساحتها ٦٠٠ متر.

٢٣ ـ المدرسة الشبرية أسّسها العلامة المجاهد السيد علي شبر الحسيني في سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م تقع في محلة البراق تبلغ مساحتها ٦٠٠ متر تتألف من طابقين بلغت مصروفاتها ٤٠٠٠٠ دينار يسكنها اليوم ٤٨ طالباً دينياً فيها مكتبة عامرة تحوي على ١٠٠٠ كتاب افتتحت المدرسة في ١٦ شعبان ١٣٨٧ هـ المصادف ١٩٦٧/١١/١٨ يتولى شؤونها الآن نجله الخطيب السيد جواد شبر. وللمدرسة موقوفات يدر ريعها على مصروفات المدرسة.

---

(١) موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف ص١٥٩.

٢٤ ـ مدرسة البخاري: أسّسها الشيخ محمد يوسف البخاري في سنة ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م تقع في محلة الحويش فيها ١٩ غرفة وقد جدّد بناؤها في سنة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م يسكنها ٤٠ طالباً دينياً.

٢٥ ـ مدرسة دار الحكمة: أسّسها الإمام السيد محسن الحكيم «قدّس سرّه». مساحة أرضها ١٠٥٠ متراً تقع في محلة المشراق فيها مكتبة عامرة بناؤها حديث تحتوي على ١٦٩ غرفة.

٢٦ ـ مدرسة الأفغانيين: أسّست في سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م من قبل جماعة من المحسنين بعد أن أوقف أرضيتها الشيخ حسن الأفغاني تقع في محلة الجديدة.

٢٧ ـ مدرسة الإمام السيد أبي القاسم الخوئي: أسّسها الإمام السيد أبو القاسم الخوئي دام ظلّه ولا تزال الأعمال جارية فيها.

٢٨ ـ مدرسة دار العلم للسيد الحكيم «قدّس سرّه»: تقع في محلة حي السعد ولا تزال الأعمال جارية فيها.

هذا هو مجموع المدارس الدينية البائدة منها والحاضرة عرضناها بشكل موجز مكتفين بما ورد عنها من التفصيل من المراجع الأخرى.

وقبل أن نختم حديثنا عن مدارس النجف الدينية، يحسن بنا أن ننقل وثيقتي وقف، إحداهما تتصل بوقفية مدرسة الحاج عبد العزيز البغدادي، الواقعة في حي السعد وأخرى تتصل بوقفية مدرسة «جامعة النجف» الواقعة في حي السعد أيضاً.

محكمة شرعية النجف
العدد - ٩٦٥/٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

. حجة وقف .

انا قاضي محكمة شرعية النجف الأشرف الشيخ حسن الشميساوي، المأذون بالقضاء باسم الشعب، حجزت ما هو آت:

بناءً على الطلب المقدم من قبل المحامي السيد محمد علي كمونة الوكيل العام عن السيد محمد بن السيد سلطان السيد مصطفى كلانتر، بموجب الوكالة العامة المصدقة من قبل كاتب عدل النجف بعدد ٩٦٥/٥٤٣ وتاريخ ١٦/٣/١٩٦٥ المتضمنة بأن موكله قد أوقف الملك تسلسل ٧٤/٣١٨٨ الواقع في محلة حي السعد بالنجف الأشرف، المسجل بدائرة الطابو بعدد ١٤ جلد ٩٤ وتاريخ آب ١٩٦٤ المشيد عليه جامعة النجف الدينية. فقد حضر الواقف المذكور بالذات وأفاد قائلاً: إني قد وقفت وحبست وأبدت حسبة وقربة لله تعالى ـ جلت عظمته ـ وطلباً لمرضاته وجزيل إحسانه: تمام الملك تسلسل ٧٤/٣١٨٨ الواقع في محلة حي السعد بالنجف الأشرف المسجل باسمي بدائرة الطابو بعدد ١٤ وتاريخ آب ١٩٦٤ المشيد عليه بناية جامعة النجف الدينية، المحتوية حالياً على أربع طوابق:

الطابق الأرضي: وفيه سردابان كبيران يمتدان تحت بناية المسجد والمكتبة، وثلاث سراديب أخرى تقع تحت الصالون الشرقي والجنوبي والغربي من الجامعة، ومرافق لغسل الأواني والملابس في الجنوب، ومطابخ عامة للساكنين في الجهة الشرقية. والطابق الأول: وفيه مدخل نصف دائري للجامعة، تقع على يمين الداخل إلى الجامعة مكتبة عامة بمساحة ٢٢٠ متراً مربعاً ذات طابقين تابعة للجامعة، والمكتبة بما تشتمل عليه من الكتب والمخطوطات والآثار والأثاث وقف خاص على طلاب الجامعة، وإن عدد الكتب الموجودة حالياً في المكتبة ستة آلاف وسبعمائة وأحد عشر كتاباً في العلوم المختلفة، وعلى يسار الداخل يقع مسجد الجامعة بمساحة ٢٢٠ م٢، ويستفاد منه لإقامة الصلاة والدراسة والتبليغ وإقامة مجالس العزاء والمواليد، وبجانب المكتبة غرفة لإدارة الجامعة، وبجانب المسجد غرفة لعالم الجامعة تقع تحتها مقبرة خاصة لي ولمن يمت إلي، وبعد الباب الداخلي لجامعة النجف الدينية، تقع ساحة كبيرة في الوسط، وفي الجانب الشرقي منها عشرون غرفة من غرف السكنى يفصل بينهما صالون كبير، وكذلك في الجهة الغربية، وفي الجانب الشمالي والجنوبي تقع غرف سكنى أمامها طارمتان كبيرتان مسقفتان بارتفاع طابقين، ومجموع غرف السكنى في الطابق الأول اثنان وستون غرفة، وفي هذا الطابق ثمانية حمامات وثلاثة عشر مرحاضاً واثنا عشر مغسلة. أما الطابق الثاني: فيشتمل على أربع وخمسين غرفة سكنية وثلاث قاعات للتدريس تقع في الجهة الغربية، وفي الجهة الشرقية والغربية من الطابق الثاني صالونان كبيران يفصلان بين مجموعتين من الغرف كالطابق الأول، وفي هذا الطابق أيضاً ثمانية حمامات واثنا عشر مرحاضاً واثنا عشر مغسلة. وفي الطابق الثالث اثنان وتسعون غرفة للسكنى وثمانية حمامات واثنا عشر مرحاضاً واثنا عشر مغسلة، وفيه صالونان كبيران في الشرق والغرب يفصل بين مجموعتين من الغرف كالطابق السابق، وطارمتان واسعتان في الجهة الشمالية والجنوبية، وطارمة دائرية مسقفة في جهة الشمال تقع على طارمة المدخل الدائري للجامعة. وعلى الساحة جملون لحفظ الجامعة من الأمطار والغبار. وعلى السطح قبة قاشانية تقع على مدخل القسم الداخلي للجامعة. كما أن للجامعة أثاثاً هي عبارة عن واحد وخمسين مروحة سقفية (S.M.C) وواحد وستين مروحة سقفية (T.A.T) وأربع مراوح سقفية (اينديلا) ومروحة سقفية واحدة (ياسمين) ومروحة سقفية واحدة (أورينت)

صورة تسجيل وقفية «جامعة النجف الدينية» لدى المحكمة الشرعية في النجف الأشرف.

نموذج لكيفية إجراء وقف المدارس الدينية في النجف[1]

هذه صورة للوثيقة التي تمّ بها وقف مدرسة (عبد العزيز البغدادي كنموذج لكيفية وقف المدارس الدينية وقد كانت صيغة الوقف تجري في السنين السابقة دونما حاجة لتصديقها في المحاكم، أما اليوم فإن المراسيم تتطلب تسجيل الوقف وتصديقه من قبل المحاكم الشرعية على هذه الوتيرة:

العدد ١٧ ـ ١٩٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إن قاضي محكمة شرعية النجف الشيخ حسن الشميساوي المأذون بالقضاء باسم الشعب سجّل ما هو آت:

قدم المستدعي الحاج عبد العزيز الحاج طاهر كاظم الحاج البغدادي عريضة لهذه المحكمة مؤرخة في ٥ ـ ٣ ـ ٦٤ تتضمن ما يلي: استناداً إلى الحجة الوقفية الصادرة من المحكمة الشرعية الجعفرية ببغداد في ١٩ ـ ٣ ـ ١٩٦٢ المرقمة ٦١ أساس ٥٥ ـ ٩٦٢ المتضمنة إيقافه قطعة الأرض المرقمة ٤٠٤ ـ ١٥٠٥ البالغة مساحتها ألف وتسعمائة متر مربع الكائنة في مدينة النجف الأشرف بحي السعد وقفاً خيرياً على أن يشيد عليها بناء ومحدثات حسب رغبته وتكون جميعها وقفاً خيرياً وفق الشروط التي يشترطها عند إكمالها وإيقافها وحيث قام بالبناء وفرغ من تعميرها وهي تتكون من مدرسة مشيدة من طابقين تحتوي على ما يزيد على مئة غرفة ومكتبة وعشرة حمامات، ودورات مياه، وساحة

(١) موسوعة العتبات المقدسة مجلد ٧.

ومطبخين وتحيط بها حديقتان جانبيتان على طريق الكوفة وطريق كربلا، ومصلًى يقع في الزاوية التي تربط شارع الكوفة وشارع كربلا، وتحته مقبرة وبجانب المصلّى محل للوضوء، كما شيّدت على الأرض المذكورة دار في الجهة الشمالية، تحتوي على غرف ومرافق صحية وبجانبها حديقة، وقد أوقف جميع ذلك خيرياً وفق الشروط الآتية:

على أن يكون اسم المدرسة ـ مدرسة عبد العزيز البغدادي الدينية الخيرية وإن الشروط هي:

أن تكون المدرسة وقفاً للأغراض الآتية:

أ ـ مدرسة العلوم الشرعية الإسلامية. وللعلوم التي لا تتعارض مع الأحكام الإسلامية.

ب ـ إقامة الاحتفالات الدينية بواسطة ذكرى مواليد الأئمة الأطهار، ووفياتهم، وذكر وفاة الصديقة الزهراء، ومولدها، وإقامة عزاء الحسين، ثم بالمناسبات المعروفة وغيرها من الأغراض الدينية، كحفلات عقود الزواج، وإقامة الفواتح، وكل حفلة واجتماع لا يتعارض مع الأغراض الدينية.

ج ـ لإسكان طلاب العلوم الدينية، والعلوم المشروعة سواء كان الطالب يدرس في المدرسة نفسها أم في غيرها من المدارس الدينية في النجف الأشرف إذا توفرت في الطالب الشروط الآتية:

أولاً ـ أن يكون الطالب متمتعاً بالأهلية الشرعية.

ثانياً ـ أن يكون حسن السلوك والسيرة وسالماً من الأمراض المعدية.

ثالثاً ـ أن لا يسبب الضرر للمدرسة أو للطلاب المقيمين فيها.

رابعاً ـ أن يتجنب البحث في الأمور غير المشروعة لا سيما المتعلقة منها بالأمور السياسية أو العقائدية التي لا تتفق والعقيدة الإسلامية.

خامساً ـ لا يجوز استصحاب النساء وإسكانهم في المدرسة بأي حال من الأحوال.

سادساً ـ أن يأذن له المتولي بالسكن أو من يوكله المتولي.

سابعاً ـ أن يستمر الطالب على الدراسة أو التدريس في المدرسة أو في

غيرها كما تقدم.

ثامناً ـ يجوز للمتولي أو وكيله إخراج من أخلّ بإحدى الشروط المذكـورة أو إذا اعتقد بأن وجوده مضر غير صالح.

تاسعاً ـ للمتولي أن يشترط في قبول الطالب شروطاً أخرى تقتضيها مصلحة المدرسة.

٢ ـ يكـون المصلى وقفـاً عـامـاً للمسلمين لإقـامـة الصـلاة وتـلاوة القـرآن الكريم.

٣ ـ أوقف المقبرة لدفن آل البغدادي على الوجه الآتي:

أولاً ـ لدفنه ودفن زوجاته وأولاده ذكـوراً وإناثـاً وزوجاتهـم ودفن الـذكور من أولاد أولاده الذكور منهم دون الإناث.

ثانياً ـ لدفن شقيقاته ودفن الذكور من أولادهن دون أولاد أولادهن.

ثالثاً ـ لدفن أولاد عمّه الحاج صالح وأولاد الحاج حسن وأولاد عمّـه محمد علي ذكوراً وإناثاً ودفن أولاد أولادهم. وللواقف في حياته أن يأذن بـدفن من يشاء وليس للمتولي بعده ذلك.

رابعاً ـ لقد أوقف الدار لسكنى المتولي والزائرين لمرقد الإمام عليه السـلام من أولاده وأولاد عمـومته وشقيقـاته مـا تعـاقبـوا وتنـاسلوا طيلة مكثهم في مـدينـة النجف الأشـرف بقصد الـزيارة ويستثنى من هـذا الشرط المتـولي ووكيله إذ لهمـا الإقامة فيها حيث رغبا دون تحديد مدة وللمتولي إيجـار الدار المـذكورة إذا وجـد في ذلك نفعاً ويصرف بدل إيجارها على صيـانة الأعيـان الموقـوفة كمـا تقدم أولاً وعلى ما يلزم من المصروفات على المدرسة ومرافقها ثانياً، وللمتولي أن يأذن في إسكانها من يشاء.

خامساً ـ لقد جعل المكتبة وقفاً خيرياً عاماً على المسلمين للمـطالعة وتـدار من قبل المتولي أو من ينيبه المتولي لإدارتها وللمتولي أن يشرع لها نـظاماً خـاصاً لإدارتها ومسك سجلاتها والمحافظة عليها وتعيين من يقوم بالخدمة فيها.

سادساً ـ لقد جعل التولية بيده ما دام حياً ومن بعده تكون التولية لولده كامل ويكـون كل من ولـديه رؤوف وعبـد الجبار نـاظرين عليـه، ومشرفين على أعمـال

المتولي المتعلقة بتطبيق هذه الوقفية، وللواقف أن يعين شخصاً أو أكثر بالإضافة إلى المشار إليهم بصفة المتولي أو الناظر كما له الحق في عزلهم مدة توليته، وبقائه على قيد الحياة، وعلى المتولي من بعده والناظرين أن يعين كل واحد منهم من يخلفه بعد وفاته، مع وجوب مراعاة الشروط الآتية:

أ ـ أن يكون من يخلف المتولي والناظرين متمتعاً بالأهلية الشرعية ومعروفاً بالتقوى والصلاح وحسن الإدارة.

ب ـ أن يكون من ذكور أولاد الواقف ثم الذكور من أولاد الذكور من أولاد أولاده ما تعاقبوا أو تناسلوا طبقة بعد طبقة.

جـ ـ إذا فقد الذكر من أولاد أولاده الذكور منهم تكون التولية والنظارة للذكور في أولاد الذكور من أولاد جده الحاج كاظم، ما تعاقبوا وتناسلوا طبقة بعد طبقة.

د ـ إذا فقد من يصلح للتولية أو النظارة كما تقدم تكون التولية والنظارة للذكور من بناته طبقة بعد طبقة.

هـ ـ إذا فقد من يصلح للتولية كما في البند (د) تكون التولية والنظارة للذكر من أولاد اناث جده الحاج كاظم طبقة بعد طبقة.

و ـ إذا فقد من يصلح للتولية والنظارة كما تقدم فعلى المتولي الأخير والناظرين أن يجتمعوا وبعد اليأس من وجود من يصلح للتولية أو للنظارة من ذريته وذرية جده كما تقدم أن يعينوا بالاتفاق ثلاثة من صلحاء المسلمين الجعفريين القادرين على إدارة العين الموقوفة ويكون أحدهم متولياً والآخران ناظرين عليه، وتسري بحقهم شروط التعيين كما تقدم، وعلى كل واحد منهم أن يعين في حياته من يخلفه متولياً كان أو ناظراً.

ز ـ إذا فقد المتولي أو أحد الناظرين فإن كان قد عين من يخلفه قام مقامه حتى زوال العذر فإن استمر فقدان أهليته حتى الموت استقر مكانه.

حـ ـ إذا كان من فقد الأهلية لم يعين من يخلفه بعد وفاته عينه الآخران الناظران أو المتولي الناظر وقام مقام فاقد الأهلية حتى زوال العذر وإن استمر

حتى الموت استقر مقامه كما تقدم.

ط ـ إذا فقد شخص من الناظرين والمتولي الأهلية عين الشخص الثالث ناظراً كان أو متولياً من يقوم مقامهما حتى زوال العذر فإن استمر العذر حتى الموت استقر مقامهما.

ي ـ تسري أحكام الفقرتين السابقتين (ح. ط) على من كان من الناظرين أو المتولي دون أن يعين من يخلفه فيكون بيد الباقي كما تقدم.

ك ـ إذا مات المتولي والناظران دون أن يعين أحد منهم من يخلفه عين المرجع الديني من علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية من يخلفهم متولياً وناظرين ووجب على واحد منهم أن يعين من يخلفه كما تقدم مع وجوب مراعاة شروط هذه الوقفية في شروط التعيين.

ل ـ إذا وقع خصام بين المتولي والناظرين أنفسهما وجب عليهم الرجوع إلى من يتفقون عليه من علماء الجعفرية المشهورين ليحكم بينهم ويكون حكمه الفصل في النزاع ولا فرق بين أن يكون النزاع والخصام ناشئاً بينهم بسبب الاختلاف في التعيين أو في تطبيق الشروط لهذه الوقفية.

م ـ إذا فقد من يصلح للتولية وعهد بها إلى أحد العلماء كما في الفقرة (و) ثم وجد من يصلح لها من ذرية الواقف كانت التولية له، وهكذا إذا وجد أكثر من واحد عين منهم الناظران وفق شروط هذه الوقفية.

ن ـ لا يجوز للمتولي والناظرين حصر التولية أو النظارة في ذريتهم ومخالفة شروط هذه الوقفية في التعيين كما في الفقرات أ ب جـ د هـ و.

وعلى هذا تمّ إجراء صيغة الوقف بتاريخ ٢١ شوال سنة ١٣٨٣ الموافق ٥ ـ ٣ ـ ٦٣ وطلب تسجيل ذلك وفق الأصول كما أبرز إعلاماً صادراً من محكمة شرعية بغداد الجعفرية وهي حجة بعدد ٦١ وعدد الأساس ٥٥ وتأريخ ١٧ ـ ٣ ـ ٦٢ تتضمن إيقافه قطعة الأرض المرقمة ٤٠٤ ـ ١٥٠٥ الواقعة في محلة حي السعد في النجف الأشرف، والبالغة مساحتها ١٩٠٠ متر مربع الموقوفة من قبله وقفاً خيرياً لإنشاء مدرسة دينية عليها، وكذلك أبرز سند طابو بعدد ٨٧. وتأريخ

آذار ٩٦٢ ويتضمن كون قطعة الأرض المنوه عنها أعلاه وقفاً خيرياً من قبل العراقي الحاج عبد العزيز بن طاهر البغدادي كما أجري الكشف على الملك المذكور من قبل الخبراء، ومهندس الطابو، تحت إشراف المحكمة، وقد ظهر بعد التطبيق أن الواقف قد شيّد على الأرض المذكورة بناية متخذة مدرسة تتألف من طابقين الأول يحتوي على خمسين غرفة، ومسجد، وقاعة للمحاضرات، ومكتبة، وسردابين، ومقبرة، تحت المسجد، ومطبخ وعشرة حمامات، ومرافق صحية أخرى، وساحة كبيرة، في وسط المدرسة، وتوجد كذلك دار ملاصقة للمدرسة تتألف من أربع غرف في السفلى وسرداب و(هولين)، ومرافق صحية، وغرفتين، و(هول) في الطابق العلوي وحديقة محيطة بالعمارة من جوانبها الثلاثة وقد ثبتت منشآت الملك وطبعت على الخارطة والسند من قبل مهندسي الطابو، وقد أجرى الواقف أمام المحكمة وبحضور الشاهدين الموقعين أدناه صيغة الوقف على المنشآت المذكورة آنفاً، وعلى الوجه المبين أعلاه، ونزع يده من ملكية المنشآت المذكورة وتسلمها بصفته متولياً عليها ونظمت هذه الحجة الشرعية، وسجلت تحريراً في ٥ ـ ٣ ـ ١٩٦٤.

القاضي حسن الشميساوي

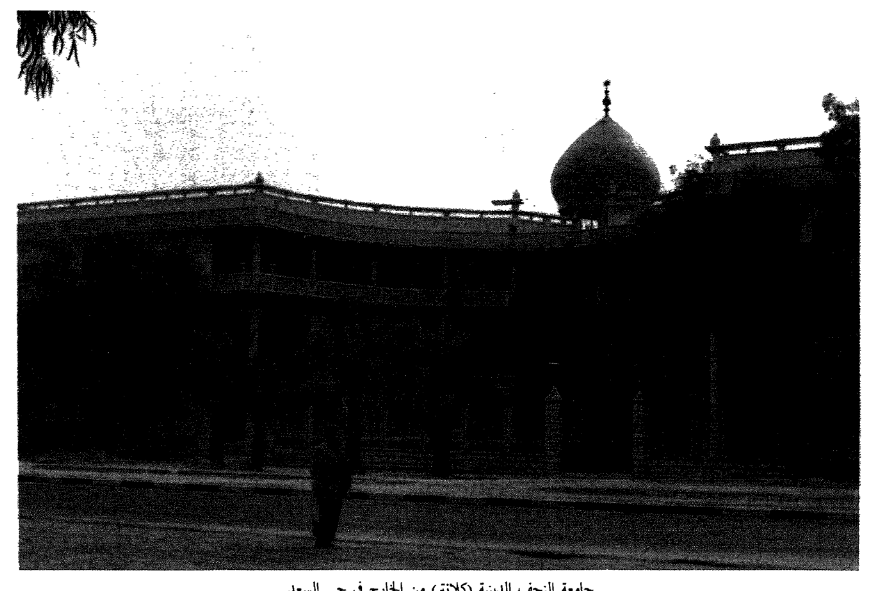
وأما النموذج الآخر الذي يكشف جانباً من وقفية جامعة النجف (مدرسة كلانتر) فهي كما يلي[1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل الوقف ذريعة إلى تنمية الخيرات، ووسيلة لإدامة المبرات، عبر السنين والأعوام. والصلاة والسلام على محمد رسول الإسلام ومبين الأحكام، وعلى آله الطيبين الطاهرين، الحافظين على الشريعة والداعين إلى الهداية، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

وبعد: فمن منن الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ على العبد الصالح، الموفق المؤيّد، الورع التقيّ، الأخ في الله (الحاج محمد تقي اتفاق) ـ أكرمه الله بلطفه ـ نجل المرحوم المغفور له (الحاج كريم اتفاق) ـ طاب ثراه ـ أن قيضه لتأسيس مشروع

(١) منشورات جامعة النجف.



جامعة النجف الدينية (كلانتر) من الخارج في حي السعد



ديني ضخم، هي «جامعة النجف الدينية»، من خالص ماله وصميم عزمه، على مساعي الراجي عفو ربه الكريم، والمؤمّل لشفاعة أجداده الطاهرين (محمد ابن السيد سلطان السيد مصطفى الموسوي كلانتر) ـ عفا الله عن ذنوبه، وجعل مستقبل أمره خيراً من ماضيه، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

وقد تمّ ـ بحمد الله تبارك وتعالىٰ ـ بناء «جامعة النجف الدينية» وكملت العمارة الخالدة مدى الدهر ـ إن شاء الله ـ حتى ظهور من تحيى البلاد بظهوره ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ خلال تسعة أعوام (من سنة ١٣٧٣ إلى ١٣٨٢ هـ).

وافتتحت ـ بحمد الله تعالىٰ ـ ليلة مبعث الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ (السابع والعشرين من شهر رجب الأصب سنة ١٣٨٢ هـ). . . فازدهرت، منذ الافتتاح، برواد العلم والفضيلة ـ وله الحمد والشكر ـ.

وهي لا تزال ـ ولن تزول إن شاء الله ـ عامرة بوفرة من طلبة العلوم الدينية ومكتسبي الفضائل الإنسانية المنبعثة من إشعاعات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة المأثورة عن النبي الأعظم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وعن الأئمة الأطهار ـ صلوات الله عليهم أجمعين.

وبناء على الوكالة العامة المخولة إليّ من قبل صاحبها ومؤسسها المحسن الكبير، الوجيه النبيل، الأخ في الله الحاج «محمد تقي اتفاق» ـ حفظه الله تعالىٰ ـ، في أصل الوقفية وكيفيتها، وترتيبها، وشرائطها، والمتولين عليها. . . فقد وقفت وحبست وأبدت حسبة وقربة إلى الله تعالىٰ وطلباً لمرضاته: تمام الملك تسلسل ٣١٨٨/٧٤ الواقع في محلة حي السعد بالنجف الأشرف، المسجل باسمي لدى دائرة الطابو بعدد ١٤ وتاريخ آب ١٩٦٤، والمشيّد عليه بناية «جامعة النجف الدينية»، الواقعة على الطريق العام (نجف ـ كوفة) والمحتوية حالياً على أربع طوابقٍ كما يلي:

١ ـ **الطابق الأرضي**: وفيه سردابان كبيران يقعان تحت بناية المسجد والمكتبة، وثلاثة سراديب أخرى تقع تحت الصالون الشرقي والجنوبي والغربي من الجامعة، ومرافق لغسل الأواني والملابس في الجنوب، ومطابخ عامة للمناسبات في الجهة الشرقية.

٢ ـ الطابق الأول: وفيه مدخل نصف دائري للجامعة، تقع على يمين الداخل إلى الجامعة مكتبة عامة بمساحة ٢٢٥ م٢ ذات طابقين، تابعة للجامعة، وفيها حالياً ستة آلاف وسبعمائة وأحد عشر كتاباً في مختلف العلوم واللغات.

والمكتبة بما تشمل عليه من الكتب والمخطوطات والآثار والأثاث وقف خاص على طلاب الجامعة. وعلى يسار الداخل يقع مسجد الجامعة بمساحة ٢٢٥ م٢، ويستفاد منه لأداء الصلاة والدراسة والبحث وإقامة مجالس العزاء والمواليد. وبجانب المكتبة غرفة لإدارة الجامعة.

وبجانب المسجد غرفة لقلم الجامعة، تقع تحتها مقبرة خاصة للمؤسس وعائلته وقبر لي.

وبعد باب القسم الداخلي للجامعة، تقع ساحة كبيرة في الوسط، في الجانب الشرقي منها رديفان من غرف السكنى يفصل بينهما صالون كبير، وكذلك في الجانب الغربي.

وفي الجانب الشمالي والجنوبي تقع غرف للسكنى أمامهما طارمتان كبيرتان مسقفتان على ارتفاع طابقين.

ومجموع غرف السكنى في الطابق الأول اثنان وستون غرفة. وفي هذا الطابق ثمانية حمامات واثنا عشر مرحاضاً واثنتا عشرة مغسلة.

٣ ـ الطابق الثاني: ويشتمل على أربع وخمسين غرفة سكنية وثلاث قاعات للتدريس تقع في الجهة الغربية. وفي الجهة الشرقية والغربية من هذا الطابق صالونان كبيران يفصلان بين رديفين من الغرف كالطابق الأول. وفيه أيضاً ثمانية حمامات واثنا عشر مرحاضاً واثنتا عشرة مغسلة.

٤ ـ الطابق الثالث: وفيه اثنتان وتسعون غرفة للسكنى، وثمانية حمامات واثنا عشر مرحاضاً واثنتا عشرة مغسلة، وفيه صالونان كبيران في الشرق والغرب يفصلان بين رديفين من الغرب كالطابق السابق وطارمتان واسعتان في الجهة الشمالية والجنوبية، وطارمة دائرية مسقفة في جهة الشمال تقع على طارمة المدخل الرئيسي الدائري للجامعة.

وعلى الساحة جملون لحفظ الجامعة من الأمطار والغبار. وعلى السطح قبة قاشانية تقع على مدخل القسم الداخلي للجامعة.

وقفت جميع مرافق هذه الجامعة وتوابعها، وما سيحدث عليها من بناء بعد هذا التاريخ، وما فيها من الأثاث والكتب وغيرها، وقفاً صحيحاً شرعياً، وحبساً مؤبّداً مرعياً ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ على طلاب العلوم الدينية الامامية الاثني عشرية الأصولية، الساكنين في هذه الجامعة، الملتزمين بالأحكام الشرعية والمواظبين عليها، والعاملين بما جاء به الرسول الأعظم ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من الحلال والحرام.

ويجوز، فيما إذاً اقتضت المصلحة، أن تبنى بها غرف أخرى لسكنى الطلاب، أو قاعات للدراسة، أو مرافق أخرى لتسهيل راحة الطلاب وتيسير جو الدراسة والاستقرار في هذه الجامعة.

وقد جعلت التولية على هذه الجامعة لي ولحضرة المؤسّس الوجيه الحاج «محمد تقي اتفاق» ـ حفظه الله ـ ما دمنا في قيد الحياة، وخصّصت عمادة الجامعة لنفسي... ومن بعدي تنتقل التولية والعمادة إلى الأرشد من أولادي الذكور، ومن بعده للأكبر الأرشد من ولد ولدي الذكور... وهكذا.

فإذا لم يكن منهم أحد ـ لا سمح الله ـ فتكون التولية والعمادة بيد الأرشد الأقرب مني من جهة باقي أولادي الذكور.

وإذا لم يكن أحد منهم فتكون بيد الأصلح الأقرب مني من جهة أبي.
وإذا لم يكن أحد منهم فبيد الأصلح الأقرب مني من جهة أمي.

وعند انقراضهم ـ والعياذ بالله ـ تعود التولية والعمادة من جانبي بيد الفقيه الزعيم الديني والمرجع الأعلى للطائفة الإمامية الاثني عشرية الأصولية المقيم في النجف الأشرف.

فإن لم يكن فبيد الفقيه الزعيم الديني والمرجع الأعلى للطائفة الإمامية الاثني عشرية الأصولية الساكن في إحدى المدن الإسلامية.

وكذلك جعلت التولية ـ بعد حضرة المؤسّس الوجيه الحاج «محمد تقيّ

اتفاق» ـ محصورة في ولديه «ناصر آقا» اتفاق و«علي آقا» اتفاق ـ حفظهما الله تعالىٰ ـ ومن بعدهما تكون التولية للولد الأكبر الأرشد لكل منهما، وهكذا. . . شريطة أن يعملوا جميعاً وفق الوقفية والنظام الأساسي المنظمة لـ«جامعة النجف الدينية»، والموقعة من قبل علماء العصر ـ أدام الله تعالىٰ أعمارهم.

وقد أجريت الصيغة الصحيحة الشرعية في صباح يوم الخميس الرابع عشر من شهر ذي القعدة الحرام سنة ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ـ على مهاجرها آلاف الثناء والتحية ـ ضمن شروط وقوانين مشروحة في «النظام الأساسي» كما يلي:

«فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم».

اللهم العن من بدّل حرفاً من هذه الوقفية.

اللهم العنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً.

اللهم أدخل عليه الفقر والذلّ والسقم والخزي والمرض والعاهة.

اللهم خذه أخذ عزيز مقتدر، بجاه حبيبك محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً.

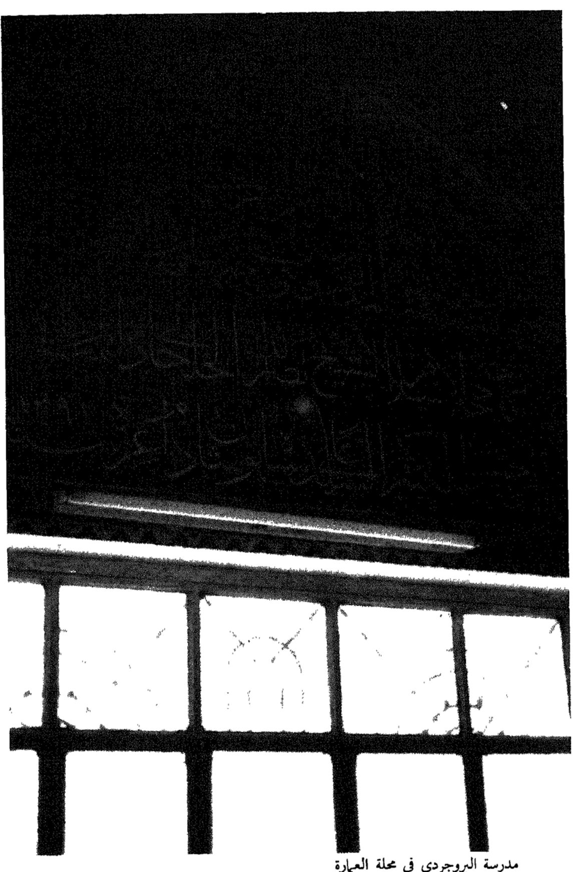
النجف الأشرف

٢٨/١/١٣٨٥ هـ

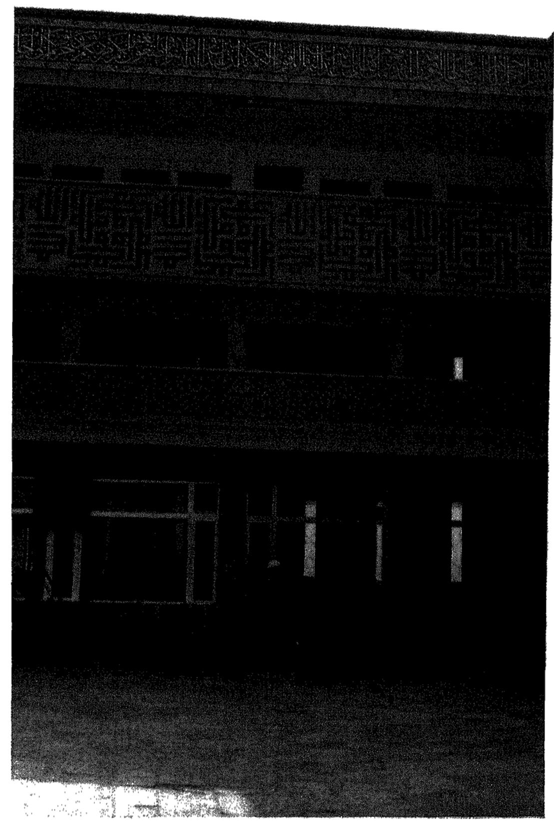
السيد محمد كلانتر

عميد ومتولي «جامعة النجف الدينية»

وقد تفضل حضرات العلماء الأعلام ـ أدام الله تعالىٰ أعمارهم ـ بتصديق الوقفية. . . وهذه صور تواقيعهم الكريمة.



مدرسة البروجردي في محلة العمارة
«دخلت في الشارع العام الذي يربط بين باب الفرج وبحر النجف سنة ١٩٨٩م»



مدرسة البغدادي من الداخل في حي السعد


بسم الله الرحمن الرحيم
قد تمت وقفية جامعة النجف الدينية
على النحو المسطور في الورقة
بسم الله الرحمن الرحيم
اعترف جناب الواقف الحاج
على ما سطر في ٢٧ شعبان
صح ما في الورقة من
الوقفية المرقوم
١٣٨٥



خواطر شاعر وآراؤه

تحدث الدكتور السيّد مصطفى جمال الدين وهو يكتب تصديراً لديوانه «الديوان» حول نشأته ومسيرة حياته العلمية والأدبية حديثاً فيه شيء من نكران الذات أمام مجتمعه الذي عاش فيه ونهل من موارده الصافية، فهو عندما يصوّر ملامح شخصيته العلمية والأدبية، يعرض هذه الصور مؤطرة بالجامعة النجفية المتّسمة بالأدب كاتسّامها بالعلم والدين والسياسة، وعندما يتحدث عن فرد هو السيد مصطفى جمال الدين، إنما يتحدث عن المجتمع النجفي بعلمائه وأدبائه، بخلجاته ونزعاته، وعندما يرينا صورته في المرآة، يعكس لنا فيها صورة فرد يمثل وجهاً من وجوه هذا المجتمع البارزة.

وقد قيل قديماً:

أتحسب أنّك جِرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

فرأينا أنِ نلحق حديثه بحديث الجامعة النجفيّة، وأن طغى عليه الجانب الأدبي في اعطاء رأيه عن الشعر الحر والشعر العمودي واستدلالاته حول كل منهما، وهذا يمثل رأياً من آراء المجتمع النجفي فيهما.

وحتى عندما تحدث واستشهد على عدم تناقض الشعر والدين إنما تحدث عن رأي فرد نجفي متحرر من قيود التزمت والتحجر. ففي المجتمع النجفي أقوال وآراء متضاربة حول الموضوع أو ذاك، وكل ذلك يعطي صورة عن النجف الأشرف، وهذا ما يهم هذه الموسوعة المباركة وجامعها.

وإليك هذا التصوير:



المنْبتُ الأوّل

في ريف (سوق الشيوخ) بين المدينة والأهوار، تَتربّع على ضِفّتي نهر (الحميدي) قريةٌ صغيرةٌ تسمّىٰ (المؤمنين) أكثر بيوتها من القَصَب، وقليلٌ منها توجد فيه غُرفةٌ أو غرفتان، جِيطانُها من الطين وسقوفُها من جذوع النخل، ولا يوجد في القرية بيت بُني بالآجُر والطوب غيرُ بيتٍ و(مَضِيف) كبير القرية، ومالِكها، والمرجع الديني لقبائل الأرياف المحيطة بها السيد مرزا عناية الله جمال الدين، وغيرُ المسجد الجامع الذي تقام فيه الصلوات الخمس من قِبَل سكّان القرية، ويسعىٰ أهلُ الأرياف والقرى المجاورة إلى قرية المؤمنين هذه، صباحَ كلِ جمعة، ليحضروا مجلسَ المرجع الديني هذا، ويستمعوا لوعظه، ثمّ ليؤدّوا (صلاةً الجمعة) التي تُقام من قِبَله في هذا المسجد الجامع، وبعد تناول طعام الغداء على مائدته، يعودون إلى قراهم مُستبضعين ما يحتاجون إليه من السوق الموسمي في هذه القرية الذي كان يُسمّىٰ (سوق الجمعة).

وقد كان تجّار سوق الشيوخ، والناصرية يعرفون تجمّع القبائل في هذه القرية كلِّ جمعة، فيوفدون عمّالهم بالبضائع التي يحتاجها أهل الريف والأهوار عادةً، ويبدأ وفود العمّال من يوم الخميس، فيتكوّن، في ساحة القرية، سوق مؤقت يستمر حتى صباح السبت.

وبمرور الأيام اعتاد أهلُ القرية أنفسُهم أنْ يساهموا في هذا السوق باستيراد بعض البضائع من المدن المجاورة، ولأنهم يسكنون القرية نفسها، فقد أصبحت (حوانيتُهم) المؤقتة محلّاتٍ دائمة طوال أيام الأسبوع، وسمّي سوق الجمعة، بعد ذلك، بـ(سوق المؤمنين) تباع فيه كل البضائع التي يحتاجها سكّان القرى، من المواشي والأغنام حتى الأقمشة والمواد الغذائية.

ولأن السيد مرزا عناية الله هو المرجع الديني لقبائل الأرياف والأهوار الجنوبية، وأتباعُهُ منتشرون في المحافظات الثلاث: الناصرية، والبصرة، والعمارة، فقد كان طبيعيّاً أن يتجمّع طلّاب العلوم الدينية من أبناء هذه المحافظات حوله، فاضطُرّ إلى بناء غُرَفٍ ملحقةٍ بمسجده الجامع لسكنى الوافدين إليه من هؤلاء الطلّاب، وتكوّنت في القرية (حوزة صغيرة) لتدريس العلوم الدينية، قوامُها دراسة (المقدّمات) من النحو، والصرف، والبلاغة، والمنطق، وبعض كتب الحديث والفقه، ومدرّسوها هم إخوانه وأبناؤه، وبعضُ المحيطين به ممّن تعلّموا في النجف، ثم يوفد السيدُ من يرىٰ به الاستعدادَ من هؤلاء الطلّاب إلى النجف الأشرف، جامعة العلوم الإسلامية للشيعة الإمامية، ويظلّ يمُدّه بما يحتاج من نفقة، وقد يعود بعضُ هؤلاء الموفدين للتدريس في هذه الحوزة، وقد يستمر بعضهم فيتخذ النجف موطناً.

من أجل ذلك سمّيت هذه القرية بـ(قرية المؤمنين) لأن (المومن) - بتسهيل الهمزة - مصطلح ريفيّ يعنىٰ به الشخص الذي يعتمر العمامة، ويقوم بوظيفة المرشد والموجّه الديني.

* * *

وفي الحادي عشر من جمادىٰ الأولى سنة ١٣٤٦ هجرية الموافق ١٩٢٧/١١/٥ م انشقّتِ التربةُ، في هذه القرية، عن نِبتَةٍ من هذه الأسرة الدينية، هي شاعرُ هذا (الديوان): مصطفى بن جعفر ابن عناية الله، عاش في كَنَف جدّه طفولته الغضّة، حتىٰ إذا قَوِيّ للنبتة ساقُها، وتمكّنت في التربة جذورها، اختار لها أهلُها حقلاً آخر أقربَ إلى طبيعتها، وليس غير النجفِ، يومئذٍ، مزدرعٌ يمكن لمثلها أنْ تنمو فيه، وتعطي ثمارَها في ظلاله.

كان ذلك في أواخر سنة ١٩٣٨، لم يُكمِل صاحبنا الدراسة الابتدائية، فقد أُخرِج من مدرسة القرية، وهو في الصف الرابع، والتحق بـ(الجامع الهندي) في النجف، طفلاً صغيراً يستظهر متن (الأجرومية)، وطوي تحت عباءته الصغيرة (قطرَ الندىٰ) لابن هشام، وهو يتطلّع بلَهَفٍ لأن يحفظ رجز (الألفية) لمحمد بن مالك.

كـان أبوه السيـد جعفر واحـداً من رجـال الـدين الـذي يستـوطنـون النجف الأشرف للتزّود بعلومها الدينية، ثم رجع إلى القرية في أوائل الأربعينات، لظروف صحيّة بجده (عناية الله) فَقَدَ على أثرها بَصَره، فكان بحاجةٍ لعودة ابنه الكبير إلى مساعدته في إدارة شؤون القرية.

ورجع السيد جعفر، مع أهـل بيته إلى القـرية، إلاّ والـدة الطفـل، فقدعـزَّ عليها أن يترك الطالبُ الصغيرُ درسَـه، ففضّلت البقاءَ معـه حتى صَلُبَ في الغربـةِ عُودُه، ومَرَنَ على الدرس قلبُه، ووجدت له من يحتضنه من أصدقاء الأسرة.

وحين نَشَر صاحُبنا ـ بعد زمن طويل ـ رسالتَه التي نال بها الدكتوراه (البحث النحوي عند الأصوليين) وكانت ذات صلةٍ بدراسته الدينية هذه، تذكر إيثار والـدته البقـاء معه، فكتب لهـا في الإهداء: اللّهـم وكمـا كـانت عينـاهـا أنيسَ طفـولتي، وسراجَ ظلمتي، فاجعل ثوابَ ما بذلتُهُ من جهدٍ أنيسَ وحشتِها وسراجَ قبرها».

النجَفُ مَنبتُنا الحقِيقي

والنجف مدينة تقع في ظاهر الكوفة، تبعد عنها سبعة أميالٍ تقريباً، وتوصلها بالكوفة سكّة حديد (تراموای) تجرّها الخيول، يبلغ تعدادُ نفوسها يوم دخلها صاحبُنا (٧٥) وهي اليوم تربو على نصفِ مليون. ولأنها ترتفع كثيراً عن مجرىٰ نهر الفرات في الكوفة فقد كان الماء فيها شحيحاً، يُنقل إليها على ظهور الدوابّ من قِبَل (السقّاية)، أمّا الآبار الموجودة في غالب بيوتها فقد كانت ـ لعدم صلاحيتها للشرب ـ تستعمل لتنظيف الأواني وغسيل البيوت.

ولأن النجف هي الامتداد الطبيعي للكوفة عاصمة الإمام علي ـ عليه السلام ـ، ومنطلقُ شيعته، فقد صارت منذ هجرة الشيخ الطوسي إليها من بغداد، أواسط القرن الخامس، داراً للعلم وجامعة دينية لفقهاء الإمامية في جميع مواطن سكناهم، وإن كانت قبل ذلك مسكناً لبعض علمائهم وزُهّادهم الذين فضّلوا جوار المرقد المقدس بعد اكتشافه في زمن الرشيد، وبناء قبته البيضاء من قبله أو من قِبل البويهيين التي يقول فيها الحسين بن الحجّاج (٣٩١ هـ):
ملاحظة

يا صاحبَ القبّةِ البيضا على النجفِ

مَن زار قبرَكَ واستشفى لديكَ شفي

ولعلّها زمن البويهيين، ونقل جثمان (عضد الدلة ٣٧٣ هـ) إليها أصبحت مدفناً لعلماء الإمامية وأعيان الشيعة، ثم عامّتهم، ينقل إليها موتاهم من مختلف مدن العراق والأقطار المجاورة، حتى يوم الناس هذا، ولعلّ مقبرة النجف التي تسمّىٰ (وادي السلام) أكبر مقبرة في العالم كلّه.

خصائص النجف الأشرف

تمتاز هذه المدينة بخصائص يندر وجودها في مدن العراق وهي أنها:

١ ـ مدينة الوافدين:

ـ زوّاراً، ومجاورين، وطلّابَ علم ـ فغالبية سكّان هذه المدينة ليسوا من أهل النجف الأصليين، وكثير من الأسَرِ التي تسمّىٰ اليوم بـ(الأُسَرِ النجفية) هي من تلك الأسر المهاجرة إليها لطلب العلم أو لمجاورة مرقد الإمام، وكانت لشغفها بهذه المدينة وطول إقامتها بها نَسِيَتْ أصولها في البلاد العربية، أو الأقطار الإسلامية، وانقطعت العلائق شيئاً فشيئاً بينها وبين المدن والأقطار التي تحدّرت منها، وأصبحت هي الأُسَر النجفية المتشابكة بأواصر القربى والمصاهرة مع بعضها البعض، وبعضُ هذه الأسر مرّ عليها في سكنى النجف ما يقرب من أربعمائة عام، ولعلِ أجيالها المتأخرة لا تعرف شيئاً عن بلدها الأصلي، أو قراباتها، هناك، فضلاً عن لغاتها التي انصهرت بلغة العرب.

٢ ـ الشمائل العربية:

وهناك ميزة أخرى تبرز في هذه المدينة هي أنّ شمائلَ أهلِها، والطابع العام لسكّانها هو الطابع العربي القريب من البداوة، فالعشائرية، والنخوة، ورعاية الجار، والكرم، والضيافة، سِماتٌ بارزة يلمسها كل وافد إليها، ولعلّ السرّ في ذلك أنّ النجف تقع بين الريف العراقي المنتشر على ضِفاف الفرات، وبين البادية الممتدة من العراق إلى الحجاز، وهي السوق المشتركة بين عشائر الريف وعشائر البادية، فمنتوجات (المشخاب) و(الشاميّة) و(العباسيّة) و (الكوفة) وغيرها من التمر، والحِنطة، والشعير، والرزّ، تتجمع في (خانات) النجف لتُصدَّر بعد

ذلك إلى بغداد، والبصرة، والموصل، ومنتوجات البادية من (القادسية) و(الحِيرة) و(الرحبة) حتى (الشبكة) من الغنم والصوف والوبر، والسمن، والجلود، ترد إلى (مَناخة) النجف لتصدَّر إلى مناطق العراق الأخرىٰ.

وبعضُ مُصدّري الأرياف والبادية لهم في النجف بيوت يأوون إليها في أيام المواسم، كما أنّ لمستوردي النجف أيضاً بيوتاً في الأرياف والبادية، وهذه الصلة الاقتصادية، بين طرفي الريف والبادية وبين النجفيين هي التي طبعت النجف بهذه السمات والشمائل البدوية، حتى أصبحت، وهي المدينة المتعلقة بكل أسباب التطور المدني، عشائريةَ الروحِ، بدويّةَ المجتمع.

٣ ـ العربية ومراكز الدراسات الإسلامية:

وخصوصية ثالثة تميز النجف عن غيرها من مدن العراق، أنّها ـ لكونها مدينة جامعيّة للدراسات الإسلامية، وتمتد جامعيّتُها على مدىٰ يقرب من عشرة قرون ـ قد احتفظت باللغة العربية بآدابها رغم كل محاولات (التتريك) الذي فرضه المماليك والحكّام العثمانيون على مدارس العراق وغيرها من البلدان الخاضعة للخلافة الإسلامية من جهة.. ورغم انتشار اللغات الشرقية ـ وبخاصة اللغة الفارسية ـ بين الوافدين إليها من أقطار العالم الإسلامي التابعة لمرجعيّتها الدينية من جهة ثانية.

ولعلّ السر في احتفاظها باللغة العربية وآدابها، أنّ الدراسة الدينية، واستنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها، تعتمد ـ بصورة أساسيّة ـ على مصادر هي نصوصٌ عربية أصيلة، بَلَغَتْ الغايةَ القصوىٰ في فصاحتها وبلاغتها، وأهمُّها: القرآن الكريم، والسنة النبوية، ونهج البلاغة، وآثار أئمة أهل البيت، وصحابة الرسول الكريم، وفقهاء التابعين، ولا يستطيع طالبُ العلوم الدينية ـ سواء أكان في النجف الأشرف أم في غيرها من مراكز هذه الدراسة كالأزهر الشريف، وقم، والقرويين، والقيروان، ودمشق، وجبل عامل ـ أنْ يحصل على مستوى من الوعي الفقهي، ما لم يكن متضلّعاً بآداب العربية، وفلسفتها اللغوية، ما دامت مصادر هذا الوعي علىٰ هذه الأهمية من الفصاحة والبلاغة، وفيها من المجازات،

والكنايات، والصور البيانية، ما لا يدركه غير الخبير بهذه اللغة، من أجل ذلك لم يكن غريباً أن يتشدّد الأصوليون في شروط (الاجتهاد) فيذكروا فيها أن يكون المجتهد على علم باللغة، وفهم أساليب العرب، وقد حدّد (الشاطبي): أن يكون فهم المجتهد في اللغة العربية وأساليبها بمقدار فهم الخليل، وسيبويه، والمبرّد، والمازني، والجرمي. [انظر الموافقات ٤/١١٥].

ونقل (ابن القيّم) عن الإمام الشافعي - وهو من أوائل من كتبوا في أصول الفقه - قوله: «لا يحلّ لأحدٍ أن يفتي في دين الله إلاّ رجلاً عارفاً بكتاب الله - إلى أن يقول - ويكون بصيراً باللغة بصيراً بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن» [أعلام الموقعين ١/٤٦].

وقديماً كان ابن عباس يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب» «وكان إذا سئل عن شيء في القرآن أنشد فيه شعراً» [العمدة ١/٣٠].

ولذلك كانت الدراسة الدينية تبدأ عادة بما يسمّىٰ (المقدمات) أو (علوم الجادّة) وأهمُّها النحو والصرف، والبلاغة، وفيها من البحوث النحوية، والصرفية، والبلاغية ما لا يوجد في كتب النحاة والبلاغيين من أجل ذلك فإن الشريف المرتضى في مسألة تَعقّب الاستثناء لجمل متعدّدة، واستدلال بعض الأصوليين بأقوال النحاة قال: «ومَن صنّف كتب النحو إنما هم مُستقرون لكلام العرب، ومستدلّون على أغراضهم، فربما أصابوا وربما أخطأوا، وحكمهم في ذلك كحكمنا، على أن قولهم في هذا يختلف، ولم يُحقّقوه كما حقّقه المتكلمون منا في أصول الفقه» [انظر الذريعة إلى أصول الشريعة ١/٢٦٢].

وهذا هو السر في أنك تجد أكثر من نبغوا في أوائل هذا القرن من أدباء العربية، وشعرائها، وأصحاب الخبرة، في فلسفتها اللغوية، هم من خريجي مراكز الدراسات الدينية، كالشبيبيّين، والشرقي، والجواهري في النجف، والزهاوي والرصافي في بغداد، وشوقي وحافظ، وطه حسين، وأحمد أمين، والزيّات في الأزهر، وأبي القاسم الشابي في القيروان، وعمر أبو ريشة في

حلب، وبدوي الجبل في جبلة، والشيخ أحمد رضا في جبل عامل، والعلائلي ـ وهو خريج الأزهر ـ في بيروت، وأمثالهم.

وقد أحصى المرحوم محمد رضا الشبيبي في عصر السيد بحر العلوم وحده (١٢١٢ هـ) ما لا يقل عن مائتي شاعر في مدينة صغيرة كالنجف، ويبلغ ما كتبه المرحوم علي الخاقاني عن (شعراء الغري) اثني عشر مجلداً وجلُّهم من طلبة العلوم الدينية.

ومن هذا يبدو لك سرُّ احتفاظ النجف بنصاعة اللغة، وبهذا النزوع الشديد لصهر الوافدين إليها بحب العربية وآدابها، وقد تركت آثارَها الواضحة في الأقطار العربية التي تخرّج أبناؤها في جامعة النجف، وأصبحوا (وكلاء) المرجعية الدينية في أقطارهم، كالاحساء، والقطيف، والبحرين، والأهواز، وسوريا، ولبنان، وإنك لتجد سِمات الشعر النجفي واضحةً في شعراء هذه الأقطار وإن لم يعيشوا في النجف.

٤ ـ الشعر مُتنفَّس المجتمع المتحفظ:

وميزة رابعة تخص النجف باعتبارها مركزاً دينياً، أنها مدينة متحفظة أشدَّ أنواع التحفّظ، فالتزمّت هو السِمَةُ البارزة في المجتمع النجفي، فلا يوجد في هذه المدينة ما كان يوجد في غيرها من المدن، كالمسارح، والنوادي، والسينمات، وأمثال ذلك ممّا يلهي الشباب عن دراستهم، أو يُخرجهم عن تحفّظهم، بل حتى (المقاهي) الصغيرة المبثوثة في بعض أنحاء المدينة ـ وهي خالية من كل شيء عدا الشاي، والقهوة، والنرجيلة، وبعض المرطبات ـ يمتنع علينا، نحن شبابَ الدراسات الدينية، الجلوسُ فيها، واذكر أنه لا يوجد فينا من يملك جهاز (راديو) مثلاً، لذلك كنا في الأربعينات ننزوي في صالة جمعية (الرابطة الأدبية) لنستمع أخبار الحرب العالمية الثانية من (الراديو) الذي أهداه لها الملك غازي مع المكتبة الثمينة. وهذه الميزة هي التي جعلت الشباب الديني في النجف يتطلع إلى أولاع أخرى يتنفس منها، ولم يكن حينئذٍ غير (الحفلات الشعرية) ـ دينيةً وغير دينية ـ فكانت هذه الحفلات هي المتنفَّس الوحيد الذي يجد الشباب فيها وَلَعه المفضَّل.

ولعل ذلك هو الذي يفسّر لنا كثرة الشعراء في مدينة صغيرة كالنجف، فكونها تضمّ مائتي شاعر في عصر واحد (ظاهرة) ملفتة للنظر، وإذا كان للفصحىٰ هذا العدد الضخم من الشعراء، فللغة الدارجة ما يماثله أيضاً، فكما يوجد فيها الحبّوبي، والحلّي، والشبيبيّون، والشرقي، والجواهري، والجعفري، واليعقوبي، وعبد الرزاق محي الدين، وغيرهم من أعلام الشعر العربي يوجد فيها كذلك أمثال حاج زاير، والجِدّ، وياسين الكوفي، والقابجي، والقصّاب، ورسول محي الدين، وكلّهم من أبرز شعراء العاميّة في العراق.

٥ ـ المعارك الأدبية في حفلات النجف:

كانت هذه الحفلات الشعرية إذن هي متنفس طلاب الجامعة النجفية، وكانت حفلاتهم هذه متنوعة، منها (الموسميّة) الثابتة، التي يرتادها عامّة الناس، وتقام عادةً في الأماكن العامة، كالمساجد، والمدارس، والصحن الشريف، وهي الحفلات الدينية مثل: المولد النبوي، ومواليد الأئمة ووفيّاتهم، ومنها (الطارئة) كوفيّات مراجع الدين، وكبار العلماء، والأدباء، والسياسيين، ومنها (الحفلات المصطنعة) ـ ولعلها كانت الأكثر عدداً والأجود نوعاً ـ لأنّ حضّارها في العادة من خاصة القوم، فإذا تزوّج أحد أبناء الأسر العلمية، تنادىٰ أصدقاؤه ومعارفه لإقامة هذه الحفلات في بيوتهم، إظهاراً لفرحهم بزواجه، وكما يُقدِّم القائمُ بها في حفلِهِ صحونَ الحلوى والمرطّبات، يُقدِّم أيضاً (قصيدةً) له أو لأحد الشعراء المعروفين في موضوع مّا تختم عادةً بأبيات تنته بالمناسبة الخاصة، وتحذف هذه الأبيات عند نشر الشاعر لديوانه غالباً، وكانت العادة في السابق أنْ تقرأ هذه القصيدة بلحن مميَّز من قبل أحد الخطباء المعروفين، وحين جاء دورنا، نحن الشباب، كسرنا هذه الطريقة، فأخذ الشاعر منا يقرأ قصيدته بنفسه، وبطريقة (الإنشاد) الذي اعتاده.

وكانت هذه الحفلات هي المحفّز الأقوى للحركة الشعرية في النجف، لأن الموضوعات التي تثار فيها حرّة غير مقيدة بمناسبة مّا، وليست معروفة سلفاً، فقد تكون وجدانيةً، أو سياسية، أو فلسفيةً، أو إخوانية، وقد تعالج مشكلة اجتماعية أو دينية، أو غير ذلك من مشاكل النجف، أو العراق، أو الأمة العربية

والإسلامية، وقد يتناول الشاعر موضوعاً يختلف الآخرون معه في معالجته، فيأتي شاعر آخر، في الحفلة القادمة، ينقض عليه رأيه، فينتصر الشعراء الآخرون للأول أو للثاني، وتنشأ معارك أدبية، ونقائض شعرية، قد تستمر حسب أهميتها وأهمية هذا المتزوج وكثرة المحتفلين بزواجه.

وهناك من أدباء النجف من يهتم بتسجيل هذه المعارك الأدبية في (مجموعته) ويسميها باسم مثل (معركة الخميس) أو (الماشيِّة) أو (الدارميّة) فيتناقلها منه صغار الأدباء، والشعراء، ولا تزال المجموعات المخطوطة تحتفظ بكثير من هذه المعارك والنقائض.

وأنا أتذكر (المعركة السودانية) التي كان بطلها المرحوم الشيخ كاظم السوداني، وتابعتُ أكثر الحفلات التي ساهمَتْ فيها، وسببُها كان (الأربعين) الحاشد الذي أقيم لفقيد الشعر العربي الشيخ جواد الشبيبي والد الشيخ رضا والشيخ باقر، وكان حفلاً مهيباً ساهم فيه الكثير من شعراء العراق والوطن العربي وقد كان شِبهَ رسميٍّ، لأن الشيخ محمد رضا الشبيبي كان وزيراً للمعارف يومئذٍ، واتّهم السودانيُّ في حرمانه من المشاركة بهذا الاحتفال الشيخَ محمد علي اليعقوبي والسيد محمود الحبوبي وأعضاء جمعية الرابطة الآخرين، لأنهم كانوا هم المشرفين على تنظيمه، وحرموه بعد أن وعدوه بالمشاركة، فاستغلّ أقرب فرصة كتب فيها قصيدته:

أنَقَضْتَ بالميثاق يا يعقوبي وعلي النفاق أعانك الحبّوبي

فثارت عليه الثائرة من شعراء الرابطة وصادف ذلك زواج أحد أقارب الشيخ عبد المنعم الفرطوسي وقد استمرت الاحتفالات به أكثر من عشرين يوماً كلّها تدور حول ما أثاره السوداني، وقد شارك فيها الحبّوبي والجعفري، واليعقوبي، والفرطوسي، والصغير وكثير من شعراء الرابطة، وهذه المعركة مسجلة في مجموعتي المخطوطة وفي مجموعات بعض متتبعي الشعر النجفي.

ويبدو لي أن هذه المعارك الأدبية، كانت متبعة منذ القديم، فقد أثبت السيد محسن الأمين في (أعيان الشيعة) معركة الخميس (الأولى) التي دارت في

القرن الثالث عشر الهجري بين أدباء النجف في عصر السيد بحر العلوم. وقد جمع الشيخ محمد الخليلي (معركة الخميس الثانية) التي دارت بين أعضاء من جمعية الرابطة الأدبية في واحدة من مجموعاته الثلاثة، وأشار المرحوم جعفر الخليلي إلى كثير من هذه النقائض والمساجلات في كتابه (هكذا عرفتهم) وتوجد في مكتبة المرحوم الشيخ سلمان الخاقاني مجموعة من أربعة مجلدات، وفي مكتبة المرحوم السيد محمد جمال الهاشمي مثل ذلك، وهناك مجموعات كثيرة مخطوطة في مكتبات النجف والحلة، والكاظمية وغيرها لعلها كانت المادة الأساسية لـ (بابليات) اليعقوبي وللمجلدات الاثني عشر في (شعراء الغري) والأربعة في (شعراء الحلة) والثلاة في (شعراء بغداد) التي أخرجها المرحوم علي الخاقاني.

في هذا الجو الشعري الصاخب نشأ جيل مصطفى جمال الدين.

كنا صغاراً ننتهز فرص العطل الرسمية ـ وما أكثرها في مدينة دينية كالنجف ـ فنركض وراء الحفلات الأدبية ـ عامّةً وخاصة ـ لنسجل في دفاترنا أجود ما نسمع للأجيال السابقة علينا من شعراء النجف.

الفكر المنفَتح في المجتمَع المغلق

النجف كما وصفتها لك، مدينة شديدة المحافظة والانغلاق، في أكثر مظاهرها الاجتماعية ولكنّك تجد في المجتمع الأدبي الذي تحدثت عن صخب الشعر فيه، انفتاحاً فكرياً لا يختلف عن غيره من مراكز الدراسات الأدبية والفكرية، ولعلّ منشأ هذا الانفتاح الفكري يكمن في عاملين:

١ ـ القراءات المتنوعة:

فالنجف التي عشناها (مدينة قارئة) تتصل ـ رغم انغلاقها ـ بالعالم الخارجي عن طريق الكتب والصحف والمجلات التي تردها بانتظام، ومن مختلف البلدان، كالعرفان والبرق من لبنان، وألف باء ومجلة المجتمع من دمش، والمقتطف، والمقطم، والهلال، ثم الرسالة، والثقافة، والكاتب المصري من مصر وكثير من صحف العالم العربي والإسلامي التي صدرت في تلك الفترة، وكانت هي زادَ الثقافة العربية في مختلف أقطارها.

كما صدرت في النجف نفسها صحفٌ ومجلات ليست على الشكل المتحفظ الذي يعيشه مجتمعها كمجلة (النجف) التي صدرت في العشرينات، للكاتب النجفي المعروف يوسف رجيب، و(الفجر الصادق) و(الراعي) و(الهاتف) وهي صحف أصدرها الكاتب الكبير والقاصّ المعروف جعفر الخليلي، واستمرت الهاتف وحدها عشرين سنة، ومجلة (الاعتدال) وقد صدرت خمس سنوات للأستاذ محمد علي البلاغي، وقد شاركه في سنواتها الأولى المرحوم أحمد جمال الدين عضو محكمة تمييز العراق، ومجلة (الغري) التي كانت لساناً معبراً عن نشاط جمعية الرابطة الأدبية، ثم أصدرت الجمعية يوم صرتُ رئيسَها مجلة خاصةً

بها باسم(الرابطة). و(البذرة) التي كان يصدرها طلاب كلية منتدىٰ النشر، ثم (النجف) التي أصدرتها كلية الفقه. ومجلة (الأضواء) التي كانت منطلقاً لأدبيات الحركة الإسلامية في النجف، ومجلة (الإيمان) وهي إسلامية مستقلة.

وهناك مجلات أثّرت كثيراً في نشاط النجف الأدبي مثل مجلات: البيان، والعقيدة، والشعاع، والدليل، والحيرة، وأخيراً صدرت مجلة (الكلمة)، معبّرةً عن فكر الجيل الحديث وما يتبناه من أساليب جديدة في الشعر والقصة، وقصيدة النثر.

وقد عَرفَتْ النجفُ المجلات الفكرية والأدبية من وقت مبكر جداً. ففي أوائل هذا القرن أيام العثمانيين ١٩٠٨ كانت تصدر فيها مجلة (العلم) للسيد هبة الدين الشهرستاني تضمّ نتاج المفكرين من جيل النهضة كالشبيبي والشرقي، ثم صدرت جريدة (الفرات) للشيخ باقر الشبيبي وكانت لسان الثوار أيام الاحتلال البريطاني.

لذلك كنا نسمع ونكتب من نتاج هذه (الحفلات) التي تحدثت عنها (أفكاراً) لا تتناسب مع التحفظ الذي يطبع مظاهر الحياة النجفية، ففي النظرات الفلسفية، للكون والحياة كنا نسمع للشيخ علي الشرقي، ما يعتبره البعض تشكيكاً في أهم عقائد هذه المدينة:

فيا جانب البحر الذي أنا غارقٌ بلجّته هل ثَمَّ من جانبٍ ثاني

أو يقول بنظرة اعتدادٍ عن خروجه على هذا المجتمع المتزمّت:

أقول ـ وقد سَأَلَتْني الرفاقُ: أأنتَ على وَضْعِنا خارجُ؟! ـ:
أبىٰ الثمرُ الفِجُّ عن جذعِهِ فِصالاً، وينفصلُ الناضجُ

وفي إحدى حفلات الأعراس قُرِئتْ قصيدة (للشيخ) عبد الرزاق محي الدين هي أشبه بالموضحة مطلعُها:

رَبَّةَ الدلِّ خففي مسراكِ إنّ قلب المحبِ بين خُطاكِ

وفيها (دورٌ) يتميّز بجرأته في مجتمع ديني مغلق كقوله:

ادخلي الحقلَ إنْ نهضتِ صباحاً تجدي الطيرَ كيف يعبد رَبَّهْ:
لا صلاةٌ سوى الغناءِ، ولا صو م سوى أن يُطهِّرَ العبدُ قلبَهْ!!
وحياةٌ، لو (تهتدين) إليها لتركتِ القصر المنيفَ وصحبَه
صَوَّرَتْها العقولُ (للروس) ديناً وَدَعَتْها بـ(المذهب الاشتراكي)!!

ويثور (الشيخ) صالح الجعفري ـ وهو يتابع سياسة اللاعنف التي اتبعها غاندي في العصيان المدني في الهند ـ على وفود المسلمين المجتمعين في مكة لأداء مناسك الحج، فيخاطبهم في إحدى هذه الحفلات:

قِفْ في (مِنىً) واهتفْ بمزدحم القبائلِ والوفودِ:
حُجّوا فلستم بالغين بحجّكم شَرَفَ الهنودِ!!
حجُّوا إلى (استقلالهم) وحَجَجْتُم خوفَ (الوعيد)
وعبادة (الأحرارِ) أفضلُ من إطاعاتِ (العبيدِ)!!

وترجم السيد أحمد الصافي (رباعيّاتِ الخيّام) بكل ما فيها مما تُحِسُّ هذه المدينةُ بثقله على عقائدها، وقد كانت ترجمته لها عن الفارسية مباشرةً. ولذلك كانت في نظري ونظر الكثيرين، أجودَ ترجمات الخيّام، وقد أشرتُ إلى ذلك في رثائي له بعد زمن:

وإذا عَرْبَدَتْ بكأس (أبرويز) فخيّامُهُ بها النشوانُ
صُورٌ تذهل القلوبَ، وفكرٌ نَسِيتْ نفسَها به الأذهان
غُرتَ فيها مع الشُّداةِ ولكن شَهقتْ فيكَ وهي بكر حَصَان

واذكر أن ديوان (الجداول) طبع في النجف من منشورات مجلة الهاتف، وفيه قصيدة (الطلاسم) المعروفة، وكانت حصيلة هذا التحدّي في نشره أن صدر ردّان شعريّان على تشكيك أبي ماضي، كان الأول أقرب إلى الفلسفة هو رد الشيخ محمد جواد الجزائري، والثاني أقرب إلى الشعر هو ردّ الشيخ عبد الحميد السماوي.

٢ ـ ثقافات الوافدين:

أما العامل الثاني لانفتاح الفكر في هذا المجتمع المنغلق، فهو أنّ مدارس

النجف الدينية ـ وهي تقرب من أربعين مدرسة ـ لم تكن (مدارس) بالمعنى الذي نَعرِفه، بقدر ما هي (أقسام داخلية) للجامعة الدينية، فالدروس والمحاضرات التي يتلقاها الطلبة عادةً، تكون في الجوامع والمساجد العامة مثل: (جامع الهندي) و(مسجد الترك) وجامع الطوسي)، و(مسجد الخضراء) و(الصحن الشريف). أمّا هذه المدارس فتحتوي غرفاً لسكنى الطلبة الوافدين، وتتكون المدرسة من عشرين إلى أربعين غرفة، في كل غرفة طالب أو طالبان، حسب كثافة عدد الوافدين، وهي مدارس بناها مراجع الدين في مختلف عصورهم وسميت بأسمائهم، كمدرسة اليزدي، ومدارس الآخوند، ومدرسة الشربياني، ومدرسة الخليلي، ومدرسة كاشف الغطاء، وغير ذلك، وقد تبني الأقطارُ الإسلامية مدارسَ لجالياتها التي توفدها إلى النجف كالمدرسة الهندية، والمدرسة الأفغانية، والمدارس اللبنانية، ومدرسة (البادكوبا) ـ وهي عاصمة (آذربيجان) التي كانت إحدى دول (الإتحاد السوفياتي) في الثورة الشيوعية، ثم استقلت بعد تفتته.

وهذه المدارس تضمّ أجيالاً من الوافدين من مختلف الأقطار الإسلامية، تنشأ بينهم ـ في العادة ـ صداقاتٌ تُكوِّن منهم مجموعاتٍ أو (شِلَلاً) متجانسة داخل كلِّ مدرسة، وقد ينضمُّ إليهم من العوائل المهاجرة أو النجفية التي تسكن البيوت بعضُ زملائهم في الدراسة، ولكنّ الغالبَ في هذه (الشِلَل) أن يألف الطلابُ العربُ، أو الهنودُ، أو الفرسُ، أو الأتراكُ، أبناءَ لغتهم فيجتمعون في عطلهم الأسبوعية ـ الخميس والجمعة ـ أو العطل الموسمية الأخرى على (أكلةٍ) مفضلة كانوا يحبّونها في بلدانهم، أو يتشاركون في رحلة إلى كربلاء، أو الكوفة، أو سامراء، أو رحلة صغيرة إلى البساتين المحيطة بجدول الأمير عازي القريب من النجف، والغالب أن هذا التجانس لا يقع إلاّ في عدد معين يتراوح بين خمسة وعشرة أشخاص.

وهذه المجموعات المتجانسة قد يبرز فيها شخصٌ أو أكثر، كان له قبل هجرته إلى النجف نوع من الثقافة، أو الفكر، أو الهمّ الاجتماعي، مما يكون له الأثر في طبع المتجانسين معه بطابعه، فيؤثر في ثقافتهم العامة ـ خارج مُقرَّراتهم الدراسية ـ وشيئاً فشيئاً يتمحورون حوله فينجرّونَ إلى ميوله وثقافته، فإذا كان هذا

(المحور) مولعاً بالفلسفة، أو السياسة، أو الأدب، أو الشعر، أو القصة، كان الطابع العام لزملائه كذلك.

وقد كنت أسمع ـ وأنا طالب صغير ـ عن محاور تتجمع حول طلّاب عرب منهم اللبناني، كالسيد صدر الدين شرف الدين، أو محمد شرارة، ومنهم العراقي كالشيخ مهدي الحجّار، ومنهم القطيفي (كالشيخ) سلمان الصفواني، والأهوازي كالشيخ محمد الكرمي، والشيخ محمد رضا العامري، وأمثال هؤلاء ممن كان له الأثر البارز في (شلّته).

وعلى سبيل المثال أذكر أن المرحوم الدكتور حسين مروّة ـ وهو ذو ميولٍ يسارية ـ كان طالباً في مدرسة الخليلي، تجمّع حوله طلاب أعرف بعضَهم، فيهم العراقي، والاحسائي، والبحراني، وقد طبع أكثرهم بطابع (الشيخ) حسين مروّة، وفكره السياسي، حتى بعد تفرّقهم وعودتهم إلى بلدانهم.

وفي أكثر الأحيان تتحكم (الصدفة) في اختيار الطالب النجفي لنوع أو اتجاه المجموعة التي ينتمي إليها، فإذا كان همُّ أفرادها الأكلَ، والشربَ، و(الفرفشة) كما يقولون، لم يخرج الطالب من النجف مزوّداً بأكثر من ذلك، وإذا كان همُّهم العلمَ، أو الأدبَ أو الشعرَ، أو السياسة، وَضَع نفسَه في الطريق الصحيح، وشقَّ دربَه في حياته مزوّداً بالعلم الديني الذي هاجر إلىٰ النجف من أجله، مضافاً إليه ما اكتسبه من صحبة جماعته ـ فكراً أو أدباً ـ وعلى نشاطه وقابليّته الذاتية، يتوقف نبوغُهُ ـ بعد ذلك ـ وتأثيره في مجتمعه الجديد.

هذان العاملان: القراءات المتنوّعة. . وثقافات الوافدين، هما اللذان فتحا في المجتمع الديني المنغلق نوافذَ المعرفة في مختلف اتجاهاتها، وطَبَعٰا مضمونَ الشعر النجفي بطابعٍ غريب على مجتمعه المحافظ.

الشَجَرةُ التي آحتضَنَتني برغُمًا

وصاحبنا الذي نكتب سيرته، ونحاول أن نتعـرَّف تجربتـه، واحدٌ من هؤلاء الوافدين إلى النجف من قـرى سوق الشيـوخ، كان يبحث عن مـدرِّسٍ في النحو يأخذ عليه شرح ابن الناظم لألفية أبيه محمد بن مالك، لأن الدراسة في النجف ـ كمـا هي في أكثر مـراكز الـدراسة الـدينية ـ دراسـةٌ فـرديّـةٌ في أغلب مـراحلهـا، والطالب فيها له حريّة اختيار مدرِّسِه، وكما يكون الطالب طالباً، يكون في الوقت نفسِهِ مُدرِّساً، فهو إذْ يَدرسُ ألفيةَ ابن مـالك عنـد زيدٍ، يُـدرِّس عَمْراً قـطرَ الندى لابن هشام، وأستاذُه مثله أيضـاً، حتى إذا تقدم في دروسـه كان نـظام (الحلقات) في انتظاره، ثم ينتقل إلى الحلقـة الكبرى، عنـد أحد مـراجع الـدين التي تسمى بـ(الخارج)، لأن الدرس فيها ليس له كتاب مقرَّر، فهو (خارجُ) الكتبِ المقـرّرة، ولكنه يمتاز بموضوعـه، وموضـوع (الخارج) إمـا في الفقه، أو في أصـول الفقه، واستحـدث أستاذنـا الخوئي درسـاً في التفسير هـو إلى (الخارج) أقـرب منـه إلى الكتاب المقرّر.

وظـلّ صاحبنـا يبحث عن هذا المـدرّس حتى وقع اختيـاره على المـرحـوم الشيخ علي زين الدين من البصرة، وجرّتـه صِلتُهُ بـالشيخ علي إلى صلتِهِ بأخيـه الشيخ محمد أمين زين الدين ـ وهو اليـوم أحد مـراجع الـدين في النجف ـ حفظ الله مهجته، وجعل خير الحوزة على يديه، وكان هذا الشيـخ بالإضـافة إلى علمـه الجم، شـاعراً من طـراز متقدم، وكـاتباً بـارعاً ذا أسلوب متميّـز، لعله أقرب إلى أسلوب الزيّات، تدل عليه رسائله (إلى الطليعـة المؤمنة) وكتـابه الـرائع (الإسـلام في ينـابيعه الأولى) ولعله أول كتـاب يظهـر في النجف عن الإسلام بلغـةٍ مشرقـة الأسلوب، حديثة المعالجة لقضايانا الفكرية، كما كان فيلسوفـاً أخلاقيـاً تشهد لـه

(الأخلاق عند الإمام الصادق)، ورسالته (كلمة التقوىٰ) في سبعة مجلدات أكبر دليل على فقاهته، وغير ذلك من مؤلفاته، وكان هذا الشيخ الجليل محورَ حلقة من العلماء يمتازون بثقافتهم الواسعة، وأساليبهم الرائعة، منهم المرحوم الشيخ سلمان الخاقاني، وهو من أقدم تلامذة السيد الخوئي المرموقين، وله ولع بالشعر، واطلاع واسع على أغلب ما يصدر في المكتبة العربية، وفي مكتبته العامرة وبإرشاده وتوجيهه قرأنا ما جَدَّ من الكتب المصرية واللبنانية، وتابعنا مجلّات (الرسالة) و(الرواية) اللتين أصدرهما الزيات، و(الثقافة) التي صدرت عن لجنة التأليف والترجمة والنشر برئاسة أحمد أمين، و(الكاتب المصري) برئاسة طه حسين، و(الكتاب) التي أصدرتها دار المعارف بتحرير عادل الغضبان، وسلسلة (اقرأ) وغيرها من السلاسل والكتب والقصص التي كنا لا نهتدي إليها لولا إرشاد أبي المهدي وتهيأتها لنا، أمثال كتب طه حسين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، والمازني وأحمد أمين، وسلامة موسى، وعبد الله العلائلي، ونجيب محفوظ وغيرها.

هذان العَلَمان الكبيران ـ زين الدين والخاقاني ـ هما اللذان وضعاني على الطريق الذي أنا الآن في نهاياته.

كنت أدرس على الشيخ علي زين الدين شرح الألفية، وقسماً من (المختصر) للتفتازاني، ودرست (حاشية ملا عبد الله) في المنطق على الشيخ محمد رضا العامري و(الشرائع) على الشيخ عبد الكريم شمس الدين، و(المعالم) و(اللمعة) على المرحوم الشيخ محمد علي الصندوق، ولكني تمحّضتُ في أكثر دروسي بعد ذلك على الشيخ محمد أمين زين الدين، فأخذت عنه (الكفاية) و(الرسائل) وقسماً من (المكاسب) وأكثر (شرح منظومة السبزواري) في الفلسفة الإسلامية، وقد تنقّلتُ في حياتي الدراسية على أساتذة كثيرين، ولكني لم أجد من هو أجلى بياناً، وأكثر إيصالاً من الشيخ محمد أمين زين الدين.

وكانت لأستاذي هذا رحلات سنوية قد تمتد أشهراً في بعض الأحيان، يستوطن فيها قريته (نهر خوز) في قضاء (أبي الخصيب) أو يذهب فيها للإرشاد والتوجيه الديني إلى أتباعه في البحرين، فأجد عناءً كبيراً في العثور على أستاذٍ

انسجم مع بيانه انسجامي مع الشيخ زين الدين، حتى إذا أكملتُ مرحلةَ (السطوح) ـ كما كانت تسمى في النجف ـ وانتقلت إلى مرحلة (الخارج) في بحث سيدنا الإمام الخوئي قدس سره استرحت من هذا العناء.

أمّا حياتي الأدبية ـ والشعرية بوجه خاص ـ فإذا كنت مديناً فيها لأحد فلهذين الشيخين الجليلين: محمد أمين زين العابدين.. وسلمان الخاقاني، فهما اللذان وَضَعا اللَبِنَةَ الأولىٰ في أساس ظللتُ أبني عليه، بعد ذلك، حتى خُيِّل إليّ أنه أعجب كثيراً من النَظّارة.

الدّراسة الدّينيّة ومحاولات تطوير المنهَج

أسلوبُ الدراسة في الجامعة النجفية، ومقرّراتُها، وحاجتُها لإدخال بعض المفردات المعاصرة في منهجها، وأخذها بأسباب التطور في إدارة شؤونها، بما تقتضيه ظروف (العصرنة) التي نعيشها، كانت من أهم ما يشغل المجدّدين من طلبة هذه الجامعة وأساتذتها، وباعتباري واحداً من الذين تخرّجوا في هذه الجامعة، وأخلصوا لها، وحرصوا كل الحرص، على أنّ تظلّ (قاعدة إسلامية) للمرجعية الدينية، تمدُّ الأقطار المؤمنة بها، بخير الكوادر المسلّحة بالفكر الإسلامي المتفتح، بحيث لا ينقصها شيء من متطلّبات الموجّه الديني المعاصر، فإني كنت أحسّ بعمق الاهتزاز الذي تستبطنه مقرّراتُ هذه الجامعة الدينية، وجمودها، وعدم أخذها بأسباب التطور المطلوب، لذلك كان شغلي الشاغل كشاعر يستطيع أن يوصل فكره للناس بأقرب وسيلة، وإكثرها إثارة لحماس الذين يشعرون مثلي بهذا النقص والجمود، أو الذين هم على استعدادٍ للشعور به، لذلك حشدت كل طاقتي وأنا أشارك بكثيرٍ من حفلاتها العامة، أن أثير هذا الموضوع، وبخاصةٍ في الحفلات التي تعقد لتكريم أحد مراجع الدين أو تأبينه.

وفي أوائل الخمسينات شاركتُ في حفلات تأبين أحد مراجع الدين العظام (الشيخ محمد رضا آل ياسين) بقصيدة نشرت في مجلتي (البيان) النجفية، و(الألواح) اللبنانية تحدثت فيها عن تطور الدراسة في (الجامعة الأزهرية) وطلبت من مراجع الدين النظر بجديّة لتطوير الدراسة في (الجامعة النجفية) وكان مما قلته في ذلك:

هلّا تكونون من مصرٍ وأزهرها ... كما يكون من السَلسالِ منبعُهُ
أم لا.. فنحن أناسٌ عُمرُنا سَفَهٌ ... إن لم نكن بـ(أتي زيدٌ) نضيّعُهُ

وثـارت ثائـرة (المحافـظين) على هذه الـدعوة لتجـديد منـاهـج الـدراسـة، واستُغِلت المقارنةُ، بين النجف والأزهر، ذريعةً للحملة على دعـوتي التجديـدية، فـاستمعنا في الأيـام التاليـة إلى سيلٍ من القصـائد تنقض عليّ رأيي، أذكـر منها قصيدة الشيخ محمد تقي الجواهري، وقصيدة المرحوم الشيخ علي الصغير، وقـد أشار سماحة الأخ السيد محمد حسين فضل الله، في حديثٍ ذكريـاتٍ أَجْرتْـهُ معه أخيراً جريدةُ (الديـار) اللبنانيـة، إلى طرف من هـذه المعركـة الأدبية. ولكنني مـع ذلك بقيتُ مُصِّراً على هذه الدعوة، فكنتُ أوضحَ بياناً وأشدَّ عنفاً، وأنا أشارك في حفلة تكريمية لأحد مراجعنا العظام، قلت فيها:

هـذي (المنـاهـج) أطمـارٌ مُهَلْهَلةٌ ... مَرَّتْ على نسجها الأحداثُ والعُصُرُ
وسـوف يـأتي زمـانٌ لا تـرونَ بهـا ... إلا خيـوطاً لهمسِ الـريـحِ تنتشـرُ

وتصاعدت حَمَـلاتي في الاحتفالات الـدينية على مـا أعتقد نقصَـه فتحدثت في إحـدى مراثي رجـال الـدين سنـة ١٩٥٢، عن المحنـة التي يعيشهـا الشبـاب الـديني في النجف، ختمتها في خطـابٍ لشيـوخ المجتمـع الـديني في الاستمـاع لـوجهة نـظر الشباب، في قصيـدة موجـودة في هذا (الـديوان) بعنـوان: (صـونـوا مناهجكم تصونوا دينكم) وقد جاء فيها:

يا قومُ حسبكم الخمـولُ فقد مضىٰ ... زمنٌ بفـطرتِـهـا تشبُّ الـرضّـعُ
والعصـرُ عـصـرٌ لا يشبّ وليـده ... إلاّ لـيعـجبَـهُ الـمِـفـنُّ الـمُـبـدِع
(عصرُ المدارسِ).. عذبِها وأُجاجِها ... تبني العقـولَ بمـا يَضـرّ.. وينفـع
لا عصـرُ (كتّـابِ) قصـارىٰ جهـدِهِ ... (صُحُفٌ مبـاركـة)، وأيّ ممتـع
صـونـوا منـاهجَكم تصـونـوا دِينَكم ... وابنـوا العقـولَ يَقُمْ عليهـا مجمع
فـالـدين ليس يَـربُّـهُ ويسـوسُـهُ ... (شيـخ) بمحـراب الـدجىٰ يتضـرّع
ولقـد عهـدنـا الـدينَ عنـد محمـدٍ ... (سيفـاً) بحـالكـة المنـايـا يلمع
و(منـابـراً) طَلَعتْ على آفـاقهـا ... خُطَبٌ من الصبحِ المنوِّر أنصـع
و(مُبشّـرينَ) سـروا بهـدي كتـابـه ... كـالريـح تسري بـالشـذىٰ وتَضـوَّعُ
أنّىٰ سـرىٰ الـداعي فثمّـةَ (مَعهـدٌ) ... يـرتـاد مِـنبـرَهُ الـلبيـبُ الأروع
وإذا فَخُـرتم بـالمسـاجـد أنكم ... عُمّـارهـا.. فهمُ السجـودُ الـركّـعُ

هــذا الجهـادُ فـأين من عليـائِـهِ جُبَبٌ مُخلَّقـةٌ و(شيـخٌ) مُهـطِع!!

وقصيدة (الفتنة الكبرى) في ١٩٩٥ كانت من أشدّ هذه القصائد عنفاً في النقد، ودعوةً للتجديد، فقد استعرضت فيها من أسواء هذا النظام الديني، فِقدانَ (نِظامِ القبول) في الجامعة النجفية، لذلك كان بإمكان أيّ انتهـازيّ يريـد العيش باسم الدين، أن يعتمر العمامة، ويَسيحَ في بـلاد الله (جابيـاً) للحقوق الشـرعية، وهو لا يعرف شيئاً من الشرع ولا من حقوقه، وقلتُ بعد هذا الاستعراض:

والفِتنــةُ الكـبـرىٰ ومن آيــاتـهــا أنّ الــذي تنعىٰ العــديــدُ الأوفــرُ
حتى لَتَعـذِرَ (نـاقِـدِيـكَ) إذا ادّعـوْا عُقْمَ الـطريقِ بمــا أتيتَ (تبشّــر)
فـالدين قـد غَرَسَتْـهُ قبلكَ (عُصبةٌ) الـمــالُ دِينُ قـلوبِهــا والـمـنكَــرُ
ومُـغــالِطٌ مَنْ راح يُـقنِـعُ نـفسَـه أنّ الـقتـادَ إذا سـقـاه يُـثـمِـرا!!
والفِتنــةُ الكـبــرى بــأنّ معــاشــراً (مِنّــا) تضيق بمــا ادّعيتَ فتُـنكِــرُ
حتى كـأنّـكَ قلتَ: دينُ محمـدٍ مُـتفسِّــخٌ، ونـظامُــهُ متـأخّــر!
ومِـن البـليّــةِ أنْ تحــذِّرَ كــافـراً بنظامِهِ.. فيقـالَ: إنّـك تكفُـرُ!!
ومن السعــادةِ أنْ تكــونَ مُـغفَّــلاً فتــظنَّ أنّ فسـادَ قــومِك خيِّــر!!

وحين وجدتني أتصاعدُ في شدّة النقد وقسوته، خفتُ أن يفسَّر ذلك بخلاف ما كنت أرمي إليه، فتـراجعتُ إلى القصد واللين، معتـذراً لمن بيدهم أمـرُ القيادة العامة، وتحمّل أعبائها، فقلت:

يــا سـادتي، ومن الأمــانــة أنّهــا (شكـوىً) تُعـادُ، و(دعــوة) تتكـرّرُ
ومن الخيــانــةِ أن يقــول مـثقّـفٌ يَعتـزُّ بـالــرأيِ الحصيفِ ويفخُـرُ:
إنّ الــذيـن تـحـمّـلوا أعـبــاءَهــا ظهــرٌ أشــلُّ.. ومَنكِبٌ لا يـقــدر
فهمُ الــذيـن تعـهــدوا أثقــالَـهــا في يــوم ألقىٰ ثــوبَـه المتنـكّــرُ
لكنّــه الــدربُ العسيــرُ، ودونَــه دربٌ ـ يُـظلَّلُ بـالعــرائشِ ـ أيسَـرُ
ولســوف تـركبُـهُ وشيكــاً أرجــلٌ كــادت من التَعَبِ المبـرِّحِ تعثُـرُ
وإذا (قســوتُ) عليـهُمُ فــلأنّ لـي قلباً على (اللَّهبِ المقدّسِ) يُجمِـرُ
ولأنّــهــم أعــوادُ عــطرٍ كـامِــنٍ لا بـدّ، كي يذكـو شذاهـا، تُسعَـرُ

وبهذا التراجع والاعتذار سلكتُ في قصائدي الأخرى التي كنت فيها شديد القسوة في النقد لمناهج الدراسة، والشؤون الإدارية العامة لأتجنّب الوقوع في خطأ التفسير فقلت في ختام إحدى هذه المراثي:

يا سادة النجف المرموقِ جانِبُهُ   وحاشدي الحَسَبِ الموفورِ مَحتِدُهُ
وحاضني العلمِ من ألفٍ، وما فتئت   تجلو الظلامَ دراريهِ وخُرَّدُهُ
ويا مُغذّيهِ بـ(الفصحىٰ) وما برحتْ   للآنَ (تُعجِمُهُ) الأخرىٰ و(تُهنِدُه)

ثم قلت معتذراً ومفسِّراً معنىٰ اليسر والسهولة التي أردت أن تكون بديلاً عن تعقيد هذه المناهج:

وإن يكن قد قسا شعري فمعذرةً   إذْ ربّما ضاق عمّا كنتُ أقصِدُهُ
عشتم بعصرٍ مضىٰ صحواً بأعينكم   لم يحتجزكم، على جهلٍ، مُعقَّدُهُ
وجيلُنا عاش عصراً من سُهولته   أنْ يتركَ الماءَ، أو يَصفو مُبرَّدُهُ
فاسقوه نورَ الهدىٰ فيما تعوَّده   من الكؤوس.. وخلُّوا ما ينكِّدُهُ

وفي (الديوان) قصائد كثيرة كنت أوظّف فيها المناسبة الدينية لهذه الدعوة التجديدية التي أتبنّاها ويتبنّاها الكثيرون من شباب هذه الجامعة.

وأحمد الله أني وجدتُ جيلاً من الشباب على هذا المستوى من الوعي بمشكلة المنهج والأسلوب فكوّنا (تياراً) دينيّاً يلتفّ حول (الصارية) التي كان يرفعها الفقيه المجدّد الشيخ محمد رضا المظفّر أذكر منهم باعتزاز أستاذنا المحقّق السيد محمد تقي الحكيم، وسماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وفي نهاية الخمسينات ١٩٥٨ أثمر جهدُنا، فغَرَسَ هذا التيّارُ أوَّلَ (نواةٍ) للتغيير هي (كلية الفقه)، والمجلة العلمية الناطقة باسمها (مجلة النجف)، وتضمّن المنهج الذي أُعدَّ لهذه الكلية كثيراً مما كنا ندعو إليه من (مفرداتٍ) كان الطالب الديني بحاجة إليها، فدخلتْ ضمن مقرّراتها، بالإضافة إلى دروس الحوزة الأساسية، موادُّ جديدة مثل: الفلسفة الحديثة، والفقه المقارن، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والأدب، والعروض، والتاريخ، واللغة الإنكليزية، ووُضِعتْ مؤلفاتٌ حديثة الأسلوب في الدروس الأساسية، كأصول الفقه، والمنطق، والعقائد،

والفلسفة الإسلامية للشخ المظفر، والأصول العامة للفقه المقارن، والقواعد الفقهية المقارنة للسيد محمد تقي الحكيم، ودروس في الفقه الاستدلالي ـ كبديل عن اللمعة ـ للشيخ محمد تقي الايرواني، وكتاب في قواعد النحو العربي للمرحوم الشيخ عبد المهدي مطر، ومحاضرات في التاريخ الإسلامي للشيخ محمد مهدي شمس الدين، كما ساهمتُ أنا بوضع كتاب (الإيقاع في الشعر العربي: من البيت إلى التفعيلة) وشاع تدريس قسم من هذه الكتب في بعض الكليات المشابهة والحوزات الأخرى.

وتخرَّجتْ الوجباتُ الأولى من طلاب هذه الكلية ـ وكنتُ من بينهم ـ فالتحقوا بالدراسات العليا في الجامعات العربية وغير العربية، وحاز كثير منهم شهادات (الماجستير) و(الدكتوراه) في العربية وآدابها، أو في فروع الشريعة الإسلامية، وعاد بعضُ ذوي الدراسات العليا مدرّسين في (كليّتهم) أو في كلية أصول الدين التي أنشئت، بعد ذلك، أو مدرسين في جامعة بغداد وغيرها من الجامعات العربية.

وعُيِّنتُ أنا في السنة التي تخرجت فيها ١٩٦٢ (معيداً) في كلية الفقه، ثم أكملت الماجستير في جامعة بغداد، وعُيّنتُ فيها (مدرساً) بكلية الآداب، بعد تقديم رسالتي عن (القياس: حقيقتُهُ وحجيّتُهُ) وسجّلتُ، وأنا مدرس في الآداب، رسالة الدكتوراه في (دار العلوم) بالقاهرة، بإشراف المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة، ولكني لم أستطع اكمالها؛ نظراً لوفاة الأستاذ المشرف من جهة، ولارتباطي بوظيفتي في كلية الآداب من جهة ثانية، فما وجدت محيصاً عن الرجوع إلى جامعة بغداد، وتسجيل رسالة الدكتوراه فيها بقسم اللغة العربية عن (البحث النحوي عند الأصوليين) بإشراف الدكتور مهدي المخزومي رحمه الله، وكنت وأنا مشغول بتحضير هذه الرسالة، أدرِّس أصول الفقه بقسم الدين من كلية الآداب، والمنطق في كلية أصول الدين، وأحاضر في كلية الفقه، ولكني بعد حصولي على الدكتوراه بدرجة (ممتاز) نَسَّبتُ نفسي للتدريس في كلية الفقه مرةً أخرى، لما تربطني بها من علاقات التلمذة، ولأني كنت أحد المساهمين في فكرة إنشائها، والحريصين على نجاحها.

وقد تطوَّر مشروع كلية الفقه ـ بعد ذلك ـ فأنشأتْ قسماً عالياً لمنح شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، ومَنَحتْ بعضَ طلابها هذه الشهادة، وكادت أن تُنشِيءَ قسماً للدكتوراه، لولا أنّ ظلام الدكتاتورية في العراق امتدّ إلى هذا الجهد الطويل الذي بذلناه في سبيل إنشائها، فأطفأ شُعلتَه في لحظة حقدٍ من لحظات ليله الطويل.

وكانت ثمار التغيير الأخرى ـ بعد إنشاء كليتي الفقه في النجف وأصول الدين في بغداد ـ أن تغيّرت بعضُ أساليب الدراسة في الحوزة نفسها ـ وإنْ بقيت على نظام الحلقات في المساجد ـ فقد أُدخِلتْ (الامتحاناتُ) الفصليّة وبعضُ الدروس الإضافية فيها، كما شُدِّد في (نظام القبول) في الحلقات الجديدة والدورات الدراسية التي تبناها (كادرُ) المرجع الديني الأعلى السيد محسن الحكيم في جامع الهندي أولاً، وفي (مدرسة الحكمة) التي أنشئت بعد ذلك لإعداد الطلبة المستجدين ثانياً، وقد نَسَف النظامُ الحاقد هذه المدرسة من أساسها ـ بما فيها من مكتبة عامرة ـ بعد انتفاضة الشعب في آذار ١٩٩١.

كما أنشأ السيد محسن الحكيم مكتبةً عامة ملحقة بـ(جامع الهندي) الذي كان مركز الدراسات (الحوزوية) وزوّدها بكثير من المصادر الأساسية والمصادر العامة ممّا تحتاجه الدراسات الدينية، وأمَرَ بتصوير المخطوطات العربية لهذه المكتبة في مختلف الأقطار كدار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، والمكتبة الظاهرية في دمشق، والمكتبة الرضوية، ومكتبة المجلس في إيران، وأمثال ذلك من مَظانّ المخطوطات العربية، ثم توسع مشروع المكتبة هذا، فأتبعه بإنشاء المكتبات المصغَّرة عنها في أكثر جوامع المدن العراقية.

وأنا الآن ـ إذْ أستعرض هذه الفترة من جهاد التطوير والبناء ـ أعتبر نفسي قرير العين لأني كنت ـ بما أثرته في شعري من دعوات التجديد ـ واحداً من هؤلاء المساهمين في تطوير بعض ما تتطلبه الدراسة الدينية في الجامعة النجفية، وإذا كان قد أدّى بُناةُ (كلية الفقه) أدوارهم وكان أنْ ساهم في تجديد أساليب الدراسة فيها جيلُ السيد محمد تقي الحكيم، والشيخ محمد مهدي شمس

الـدين، والشيخ محمـد تقي الايرواني والـدكتور عبـد الهادي الفضلي، والـدكتور محمـود المظفـر، والدكتـور محمود البستـاني، والشيخ مهـدي الآصفي، والأستاذ صالح الظالمي، والأستاذ عدنان البكّاء ومصطفى جمال الدين وغيـرهم ممن التفَّ حول راية الشيخ المظفّر، وبذلـوا جهدهم في دعم مشـروع كلية الفقـه فإني أرى أنّ على الأجيال الصاعدة من خريجي هـذه الكلية (النـواة) أن يبذلـوا جهدهم في جمع فُتاتهـا، ولَمِّ أطراف الجـذور التي بدّدتهـا الكتاتـورية الـطاغية في العـراق، فيغرسوهـا في كل حقـل تنمّ تربتُـهُ عن صلاحيتهـا لاحتضان هـذه النواة، وتكثيـر غراسها المثمرة.

وأنا لا أشك أن أسماع أجيالنا الصاعدة لا يزال يرنّ فيها تهدّجُ صوت شاعر هذا (الديوان) وهو يلملم دموعَه في تأبين مؤسّس هذه الكلية:

ويـا لـداتِ طـريقٍ كِـدتُ أحسِبهـا	إذْ صـوّح النبـعُ أقسى مـا سنفقـدُهُ
هبّتْ على الوارف المخضلِّ عاصفةٌ	هـوجاءُ، طـال بغـاشِيهـا تـأوُّده
وكـاد لـولا جـذورٌ منـه خَيِّـرةٌ،	ألّا يـقـرَّ بعـصف الـريـح أيّـدُهُ
(كليـة الفقهِ) أنتم غـرسُهـا، وبكم	يمتـدُ ظـلٌّ على الأجيـال تَعقِـدُهُ
ميـراثُكـم وقصـارى مـا يـؤمّـلهُ	مُـورِّثُ أنْ تـزكّـوا مـا بَنَت يَـدُهُ
مُـدّوا بـأعمـاركم عُمـراً يحـرّقُـهُ	لكم، فيُسرجُ هـذا الليـلَ مُجهَـدُه
وجـدّدوا مـا تنـاهىٰ من كهـولتـه	فـأنتمُ عُمـرُه الثـانـي ومـولـده

أسرَةُ الأدبِ اليَقِظ

١ ـ نشأتها:

كنت تحدثت في فقرة سابقة عن (الشِلَلِ) والمجموعات التي تضمّ طلّاب العلوم الدينية في مدراسهم التي هي في الواقع (أقسام داخلية) لجامعة النجف، وقلت: أن هذه الشِلَل تتمحور حول أبرز أعضائها وأكثرهم ثقافةً وتأثيراً في مجموعته، وكنت أنا واحداً ممن انضمّ إلى حلقة (الشيخ زين الدين) وكانت في أول أمرها في (مدرسة الخليلي) ثم انتقلت إلى (مدرسة الآخوند الوسطى)، وفي هذه المدرسة انضمّ إليها قطب آخر هو الشيخ سلمان الخاقاني بما له من ثقافة واسعة، واطلاع على كل جديد يصدر في المكتبة العربية وصحفها ومجلاتها، وكان نشاطُنا الأدبي يثيره فيها كلٌّ من الشيخ زين الدين والشيخ الخاقاني بأسئلة شعرية يُطلَبُ الإجابة عنها شعراً، أو اقتناص موضوع طريف يتسابق فيه الجميع ثم يُحكَّم أحد شعراء النجف البارزين يومئذٍ كاليعقوبي، أو الجعفري، للحكم بأجود قصيدة لهؤلاء المتسابقين وهكذا، حتى جمع الشيخ سلمان الخاقاني مجموعة طريفة من مساهماتنا في تلك الفترة لا أعرف أين هي الآن؟

ولكن هذه الحلقة التي أصبح محوراها الأساسيان: زين الدين والخاقاني، توسّعت كثيراً ففقدت خصوصيّتها، وكنتُ قد التقيت فيها بشبابٍ كانت لهم نفس الاهتمامات والتطلّع الأدبي، أذكر منهم السيد محمد بحر العلوم، والشيخ صالح الظالمي، والشيخ ضياء الدين الخاقاني، وتمكّنت الصلةُ بيننا إلى حدٍ بعيد: فَهْمٌ يَقربُ من التَوحُّد، وصداقةٌ أقوى من الأخوّة، وحبٌّ لا يزال في جدّته حتى اليوم، استشرفه (أبو المهدي) يوماً فكان لاستشرافه طَعمُ الوحي:

أُخَـيُّ يـا مَـن فـي أخـوّتِـهِ بـاقٍ لـديَّ كـأمـسِـهِ غـدُهُ

وكان لا بدّ لنا ـ وقد توسّعت الحلقة ـ أنْ نَمَيِّز أنفسَنا عنها، وانضمّ إليها من خارجها السيد حسين بحر العلوم من النجف، والسيد محمد حسين فضل الله من لبنـان، والشيخ محمـد الهجري (العلي) من الإحسـاء، والشيخ جميـل حيدر من سوق الشيوخ، واليوم وقد تفرّقت بنا سبلُ الحياة، واتجاهات الواقع الذي نعيش، لم يلتقِ اثنان منا في بلد واحد، بل لم يلتقيا على رأيٍ واحد.

٢ ـ قراآتها المتنوعة:

وما أدري إذا كان غرورُ الشبابِ، أم الاعتداد بثقافتنا التي أخذت تتّسع في جدّتها هو الذي دفع جميل جيـدر أن يطلق على هـذه الشلة الجديـدة اسم (أسرة الأدب اليقظ).

على كل حال كنا نمتاز عن الأجيال الأدبية التي عاصرناها في النجف، أننا كنّا كثيري القراءة والمتابعة لكل ما هو جديد، فإذا كان زادُ النـاشئة التي نتعـايش معهـا دواوينَ السيـد محمـد سعيـد الحبـوبي، والسيـد حيـدر الحلي، والشبيبي، واليعقوبي من الجديـد، ودواوينَ المتنبي، والبحتري، والشـريف الرضي، ومهيـار الـديلمي من القديم، فقـد أضفنا إلى ذلـك كل مـا تيسر لنـا من دواوين الشعـراء العرب المحدثين، بما فيها موجة شعر الحديث، بل إن بعضنا أخذ يكتب تجاربه بطريقة (التفعيلة) التي لا يعتبرها أكثر نقّاد النجف شعراً. وإذا كان النقد المسيطر على هذه الأجيال التي عـاصرنـاها هـو نقد الجـاحظ، وقدامـة بن جعفر، وضيـاء الدين بن الأثير، فقد أضفنا إلى ذلك نقد أحمـد الشايب، وسيـد قطب، ومـارون عبود، وميخائيل نعيمة، ورئيف خوري، وكثيراً من الدراسات الأدبية المترجمة في مـوسيقى الشعر، وأصـوات اللغـة، عن الفـرنسي (جـويـار) والأمـريكي (سـابيـر) والروسي (كوندراتوف)، والإنجليزي (إليوت).

كانت أعمارنا متقاربة، وإن كنت أعتقد أني أكبرهم سنّاً، ولكننا كنا نتقارب في شيء آخر لعله الأهم هو (ضيقُ مـا في اليد)، فقـد كان مـرتبي الذي يصلني

من أهلي في القرية، لا يتجاوز (الدينارين) هو للطعام، وهو للكسوة، وهو للكتاب، وهو للتدخين، ولم يكن الآخرونَ أسعد حالاً مني.

وحين انفصلتْ (أسرتُنا) عن (الحلقة الكبرى) افتقدنا ـ فيما افتقدناه ـ مكتبة الخاقاني، واستمدادنا منها كل جديد، وكان لا بدّ لنا أن نقرأ، فكنا نستعير بعض الكتب منها أو من مكتبة الرابطة، ونجمع فيما بيننا بعضَ الدراهم لنشتري به الجديد من أعداد (الرسالة) أو (الثقافة) أو (عالم الغد) وأخيراً (الأديب) و(الآداب) أو أي كتابٍ أو قصة، ونقرأ ذلك بـ(الدور) أو نتدارسه (جماعيّاً)، وكم احتلنا على بعض أساتذتنا الذين هم أيسرُ حالاً منها، للاشتراك معنا في هذا الاكتتاب، على أن يكون (الدور) الأول له.

كنتُ محورَ هذه الأسرة الأدبية، وكانت في بيتي الصغير في (الجديدة) غرفةٌ منعزلة عن غرف البيت الداخلية تسمىٰ في عرف النجفيين بـ(البراني) هي ندوة أعضائها، يجتمعون فيها كلما حدث جديد، وربما انتقلت الندوة إلى غرفة جميل حيدر في (المدرسة المهدية) وكانت في النجف جمعيات أدبية ضمّت أكثر المتطلعين للأدب هي: جمعية الرابطة، ومنتدى النشر، والتحرير الثقافي، ولكن أسرتنا ـ في ذلك الوقت ـ تجنبت الإنتماء إلى واحدة منها، وإن كنا نشارك في أكثر نشاطاتها، ربما لأننا نريد أن نحتفظ بامتيازنا عن بقية الأجيال الأدبية.

٣ ـ رسائلها المتبادلة:

وحدث لي في سنة ١٩٥٣ حادث كان له أثره في اجتماعات الأسرة الأدبية وندوتها، فقد توفي جدي (عناية الله) واختارني ـ مع وجود أبي وأخويه ـ (وصيّاً) له، وخصّني بثلث الضيعة التي نملكها (قرية المؤمنين) وأسند لي إدارة شؤونها وزعامةَ عشيرتها، فقد كانت إحدى عشائر (آل حِسَن) في سوق الشيوخ.

كان عمري يومئذ ستاً وعشرين سنة، متزوج وعندي ثلاثة أطفال.

وتحت وطأة هذا العبء الجديد اضطررت لترك النجف أكثر من خمس سنوات، لا أزورها إلّا لماماً، ولكن صلتي بالأسرة الأدبية لم تنقطع، وإنّما اتّخذتْ مجالاً آخر، فأنا بحكم شاعريتي، وحبي المفرط للأدب، صرت مِحوَر

جماعة أخرى من أدباء سوق الشيوخ، وعقدتُ صلةً بينها وبين جماعة النجف، وبدأنا ندعوهم لاحتفالات نقيمها في سوق الشيوخ كالاحتفال الذي أقيم في قرية المؤمنين في أربعين جدي، وكالاحتفال الأربعيني الذي أقيم في سوق الشيوخ لتأبين المرحوم الشيخ جعفر حيدر، ثم أقمنا احتفالاً موسّعاً في المولد النبوي الشريف، شارك فيه أكثر أعضاء أسرة الأدب اليقظ، مع غيرهم من شعراء الرابطة الأدبية، وفي هذا الاحتفال أنشدتهم قصيدة مطلعها:

رَدّدي يا حناجرَ البيد لحني   فالكرىٰ فَرَّ من جفون المغنّي

ولم أملك نفسي في ختام هذه القصيدة عن بثّهم شكواي المرّة من غربتي في وطني التي اضطررت إليها فقلت لهم:

أنا ما زلتُ في مجاهل ريفٍ   مُوحِشِ الظلّ في غَيَابَةِ سجنِ
بين (شيخٍ) يَئِنُّ من غير جرحٍ   و(فتىً) كل همِّهِ أنْ يغنّي

وأخذت الصلة بيني وبين الأسرة منحىً آخر، فكنّا نتبادل الرسائل بين أسبوع وأسبوع، ولكن بشكلٍ يختلف عن الرسائل الاعتيادية، فيها الشعر، ونقد الشعر، والقصة، والمسرحية، وفيها رسوم (كاريكاتير) كنا نستوحيها من مضامين ما نكتب، ونعهد بتنفيذها إلى الأستاذ كاظم التميمي ـ أحد الأدباء الذين انضموا لجماعتنا في سوق الشيوخ ـ وكان مجيداً للرسم.

وتوسّعت هذه الرسائل توسعاً ملفتاً للنظر، بحيث أصبحت الرسالة تشبه المجلة في تنوّع مواضيعها، وكانت تصل إلى خمسين صفحة، كنا نطلق على رسالة سوق الشيوخ: (الجبهة الشرقية) وعلى رسالة النجف: (الجبهة الغربية)، وكانت الظروف السياسية يومئذ غير مريحة، فالوزارة يرأسها عسكري، والأحكام عرفية، وكنا نخشىٰ من إرسالها بالبريد، لذلك تطوع أحد أصدقائنا ـ بعد أن تعهدنا بنفقات سفرهِ ـ أن يكون (البريد) بين الجبهتين.

كانت القصائد التي تضمنتها هذه الرسائل (إخوانية) تميل إلى الدعابة والظرف في أكثر الأحيان، وبعضها يتضمن نقداً اجتماعياً لبعض ما نراه من عيوب مدينتنا الخالدة، لقد فضّلتُ وفضّل الكثير من إخواننا إهمالَ ما كتبناه منها، ومن

جانبي لم أدخله في هذه المجموعة، أما الشعر الذي خلا من الدعابة الجارحة، أو النقد القاسي فلم أجد بأساً من نشره كما نشر بعض أعضاء هذه الأسرة مشاركاته في هذه الرسائل في واحد من دواوينه.

المهم أنّ هذه الفترة من حياتي، والمنحى (الرسائلي) الذي اتجهت إليه أسرتنا الأدبية كانت إحدى العلامات البارزة في مسيرتي الثقافية، ولا يزال أسفي عظيماً لأني فرّطتُ في مجموعات هذه الرسائل، فقد أعرتها لصديقٍ ادّعىٰ، بعد ذلك، أنه أرجعها إليّ ـ وقد يكون صادقاً ـ ولكني لم أجدها بين محتوياتي.

الشعرُ الإخوَاني

قلت: إن النجف مدينة جامعية للعلوم الإسلامية، وهي كما تزخر بالفقه وأصوله، تزخر بالشعر والأدب، ولكن هناك نوعاً من الشعر النجفي، يَنْدر أن تجدَ مثيله في مراكز الدراسات العلمية هو ما يسمونه (بالإخوانيات) أو الشعر الإخواني، كما أشرت إليه في الفقرة السابقة، وهذا النوع من الشعر، وإن حالت دون نشره بعض الموانع المجتمعية، إلّا أنه يبقى أصدقَ ما صدر عن شاعره، لأنه خالٍ من (التكلّف) الذي تفرضه علينا بعض قيود مجتمعنا الديني، ولعله من هذه الخاصّةِ يكون قريباً كل القرب من نفس المتلقي.

وفي أدبنا العربي القديم نماذج كثيرة ممّا تجده في مثل (يتيمة الدهر) من شعر الحسين بن الحجّاج، وابن سُكّرة الهاشمي، وفي دواوين دعبل الخزاعي، والحمّاني، وبشّار، وأبي نواس، وغيرهم، ولكنه يختلف عن الشعر الإخواني الذي أتحدث عنه، فذلك باب معروف من أبواب الشعر العربي، قد يسمّى بعضه (هجاءً) وبعضه (مجوناً)، وقد تطلق عليه بعض دواوين معاصرينا اسم (الأدب المكشوف)، وربما وجد نظيره في الشعر النجفي، ولكن (الإخوانيات) التي أتحدث عنها، أبعد ما تكون عن الهجاء أو المجون، ربما كان لصرامة التحفّظ في المجتمع الديني، ما يبعد هذه الإخوانيات عن جرح الهجاء، وخدش المجون، وهي - فيما أرى - إلى الظَرْف أقربُ منها إلى الهجاء والمَجانة.

ولَديَّ ولدى كثير من أدباء النجف نماذج كثيرة من هذا الشعر، وقد أشرت إلى بعض المجموعات المخطوطة التي احتفظت بنماذج منه، ولكني استبعدت نشره في (الديوان)؛ لأني لا أزال مشدوداً إلى تحفّظ المجتمع النجفي، فتركته للتاريخ الأدبي، ولتلك المجموعات المخطوطة.

وكنموذج لهذا الشعر الإخواني الذي أحبه أشير هنا إلى مثالٍ واحد منه ليتجلّى ما أدّعيه من الفرق بينه وبين الهجاء والمجون، وليظهر صدق الشاعر في تناول موضوع، لا تكلّف فيه.

كان لي وللأستاذ الشاعر عبد الغني الخليلي صديق مشترك هو شاعر، وأديب، ومدرّس للأدب العربي، فَرَضتْ عليه بعضُ ظروفه الإيفاد مدرّساً في السعودية، وهناك أدركته (الرحمة) فعقد العزم على حج بيت الله الحرام!! كنا نسميه لنضارته ـ رغم تقدّمه في السن ـ بـ(الشباب) فكتبنا إليه قصيدةً مشتركة تهنئة بهذا (الحج) غير المرتقب، جاء فيها:

أبا عليٍّ كيف حالُ (الشَبابْ) ألم يزل غَضّاً جديدَ الإهابْ؟
أم لَوَّحتْه الشمسُ في مكّةٍ وهَدّه (السعيُ) بتلك القِباب؟
راح خفيفَ الطبعِ من (ذنبه) فعاد بـ (التقوىٰ) ثقيلَ الجَناب!
أبا علي قَسَماً خالصاً بالشِعر.. بالذكرى.. بكأسِ الشراب
لو طُفتَ في مكّة (ألفاً) وقد عَفَّرتَ خدّيك بذاك التراب
وعُدتَ من (يثربَ) مُحدودِباً من ثِقلِ ما حُمّلتَهُ من ثواب
ثم رأيتَ (الآسَ) من رِقّةٍ (يَحمرُّ) (يسودُّ) بأيدي الصِحاب
لبِعتَ من زُهدِكَ (أمَّ القرىٰ) (بطرقةٍ) منه و(أمَّ الكتاب)

* * *

وجاء فيها:

أبا علي لم يزلْ بيننا ذِكرُكَ كالعِطر، كزهر الرَوابُ
تركتَ بغدادَ وعمرانَها يطوي بك الجوَّ جناحا عُقاب
أغَرّكَ الرونقُ من (حائلٍ) فتِهتَ في (جدّةٍ) هذا الخرابْ؟
أم بَخِلَتْ (دِجلةُ) في عَذبها فرُحتَ في (زمزمَ) تُسقىٰ العذاب؟
مَنْ ضاق في (الكرخ) بصيد المَها أشقاه في (عَرْعرَ) صيدُ الذئابْ
ومَن أشاحَ النهرُ عن رِيِّهِ هيهات ترويه بحورُ السراب

ثم تتحوّل القصيدة، بعد ذلك، إلى (الجِدّ) فنتذكر محنة صاحبنا أبي علي

وأمثاله ممن ترك بغداد لظروف سياسية، في حين تفتح بغداد صدرها لأفواج الإنتهازيين الذين يسبّحون بحمد سلطانها:

أبا علي، وكثيرٌ علىٰ مِثلِكَ أن يهجرَ ربعَ الشبابْ
أنْ يُسلِمَ الزرعَ إلى حاطِبٍ ويترْك الضرعَ لسوء احتلاب
بغدادُ بغدادُك لا للأُلىٰ (مَرُّوا على (الدهنا) خِفافَ العِياب)
ثمَّ أفاقَ (الكُوخُ) من حولهم يَسألُ عن سكّان هذي (الهضاب)!!
بغدادُ أبناؤكِ في (غُربةٍ) وأنتِ للعافين دارُ (اغتراب)
أأفلحتْ قبلَكِ أمٌّ رَعَتْ بيضَ العِدا.. وبيضُها في اليباب!!
يا بَيضُ (فَقِّس) وانتشر كالدَبَا وادخلْ بيوتَ الناسِ من أيّ باب
فسوف يأتيكَ زمانٌ ترى أنّ الذي يحميكَ (قِشرٌ) وذاب

وشاعت هذه القصيدة بين أصدقاء الطرفين فعارضها جماعة من الشعراء النجفيين أذكر منهم المرحومين: عبد الكريم الدجيلي، وحسين الصافي، كما عارضها الأستاذ محمد الهجري، وقد بعثها من السعودية، وفيها الكثير من الجِدّ، لأنه ترك النجف لظروف مشابهة لظروف صاحبنا أبي علي، من هذا الجد قوله:

قلْ للذَيْنِ ارتشفتْ منهما أوابدُ الشعرِ الرحيقَ المذابْ
مهلاً فما أغوتْ صقورَ الفلا أوكارُها عن اصطياد العراب
ولا هوتْ كواكبٌ غضّةٌ تفرش بالإغراء دربَ الشراب
لكنّها إغفاءةٌ مثلما تشهّتِ السيوفُ طعمَ القِراب
ستُتعِبُ الخيولُ ميدانَها ويُلهِبُ الزروقُ ظهرَ العباب
وتغرب الشمسُ بلا عودة فليلُنا طال عليه الغياب

وما أعذبَ قولَه فيها:

يا مَن تغنّي حولهم دجلةٌ أغصانُنا غَنَّتْ عليها الكلابْ
واستعجمتْ عيونُنا فيه لا تُبصِرُ إلاّ جَمَلاً أو سراب
ألم تزل هناك في أرضِكم و(ذاك) لا أذكره.. ما اسمُهُ؟ شُمَيْسةٌ) ولو لنشر الثياب؟!
فشمسُنا قد نَسِيَتْ لونَها يُضيءُ في الليلِ زوايا العِتاب؟
وبدرُنا يحثو علينا تراب!!

حَرَكَةُ الشِعر الحُرّ

١ ـ مواقف من الشعر الحر:

قلت: إن الأسرة الأدبية التي عشناها في النجف، كانت أقربَ إلى التطور من الأجيال التي عاصرناها، وعلّلتُ ذلك بأنها كانت أكثرَ متابعةً لما يجدّ في الساحة العربية من تطلعات أدبية، لذلك لم يكن موقفُها من (الشعر الحر) في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، موقفَ غيرها من نقّاد الشعر ومتذوقيه، بل أن بعض جماعتنا أخذ يكتب بعض تجاربه بطريقة الشعر الحر، كالسيد بحر العلوم والسيد فضل الله، ولا يزال الأخ الهجري (محمد العلي) يكتب فيه حتى اليوم، بل لعله ترك عمود الشعر إلى هذه (الموجة الحديثة) التي أغربتْ كثيراً في علاقاتها اللغوية.

وأذكر أني قرأت مرةً أن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد ـ وكان يرأس لجنة الشعر في المجلس الأعلى للآداب والفنون ـ كتب على ملفّات دواوين هؤلاء الشعراء التي قدّمت للجنة الشعر عبارتَه الجارحة: «إلى لجنة النثر للاختصاص!» ولاقىٰ هذا الرأي العقّادي هوىً في نفوس الكثيرين من منكري (شعريّة) الشعر الحر، في النجف وبغداد، حتى نُسِب للدكتور عبد الرزاق محي الدين أنه كان يسعى لتأسيس معهد لتعليم الشعر العربي، وتصفيته من نزعات النثرية!!

وأذكر أني كنت في زيارة للمرحوم بدر شاكر السيّاب في الأعظمية، فأطلعته على (مسوّدات) محاضرة كنت أعددتها لموسم المجمع الثقافي لمنتدى النشر في النجف عن (الشعر الحر: تاريخه وتطوّره) وكان السيّاب يزعم ـ كما في مقدمة

ديوانه أساطير، وقد صدر في النجف ـ أنّ أوّل قصيدة كتبت على طريقة الشعر الحر هي قصيدته: (هل كان حبّاً) التي نشرت في ديوان (أزهار ذابلة) سنة ١٩٤٧، وأشار إليها المرحوم روفائيل بطي في مقدمة الديوان، وأنّ نازك الملائكة وبقية روّاد الحركة تبعوه في موسيقاها.

وفي الجانب الثاني كَتَبَتْ السيدة نازك الملائكة، في مجلة الأديب اللبنانية بحثاً عن (حركة الشعر الحر) ـ وأعادت ذلك في (قضايا الشعر المعاصر) ـ زعمت فيه: أن أوّل قصيدة منه كانت قصيدتها (الكوليرا)، وأنها استوحت تفعيلتها (الخَبَبيّة) من وقع أرجل الخيل، وهي تجر عَرَبات الموتىٰ، من ضحايا الوباء في ريف مصر وقد ساقتها ضرورة التعبير إلى (اكتشاف) الشعر الحر، وأن القصيدة نشرت في مجلة (العروبة) للحوماني، فى أوائل كانون الأول سنة ١٩٤٧، وفي النصف الثاني من الشهر نفسه ـ كما تقول ـ صدر ديوان بدر شاكر السياب (أزهار ذابلة)، وفيه قصيدته (هل كان حبّاً).

معنى ذلك أن كلاً منهما يدعي الأسبقية، وزادت نازك إدعاءها باكتشاف الشعر الحر!!

وكانت محاضرتي تقوم على محورين: الدفاع عن شعرية الشعر الحر.. وتحقيق المسألة التاريخية لبداياته. ورأيت في المحور الأول أن (الوحدة الموسيقية) في الشعر العربي، كما تنشأ من تكرار شطرٍ متساوٍ في كمّيته الزمنية، ومرتّب في (مقاطعه الصوتية)، تنشأ أيضاً من تكرار تفعيلة واحدة لها كمّيتها الزمنية وترتيب مقاطعها الصوتية، وكل ما بينهما من فرق هو (طول) الوحدة الموسيقية في الشطر، و(قِصرُها) في التفعيلة.

وفي المحور الثاني رأيت أن قصيدة (الكوليرا) موشّحة وليست شعراً حراً، وقصيدة (هل كان حباً) هي الشعر الحر، ولكنّ كلاً من السياب والملائكة كانا مسبوقينِ بمحاولات جماعة (أپولو) في العشرينات والثلاثينات. وبترجمة علي أحمد باكثير لـ(روميو وجولييت) على طريق الشعر الحر في سنة ١٩٣٦، وذكرت لهم نماذج منها، ومما نشره خليل شيبوب في مجلة (أپولو) سنة ١٩٣٢ وسمّاه بالشعر الحر أيضاً.

ثم رأيت أن (شعر التفعيلة) المتكررة، موجود منذ القرن الحادي عشر في الوسط العراقي بما كان يسمّىٰ: (البند) فموسيقى البند تقوم على أساس (تكرار وترتيب) المقاطع الصوتية في تفعيلتي الرمل (فاعلاتن) والهَزَج (مفاعيلن).

ثم صدر لنازك الملائكة كتابُها (قضايا الشعر المعاصر) وأعادت فيه نفسَ الإدّعاء، كما وضعتْ ـ في زعمها ـ قواعدَ عروضيّة للشعر الحر، واعتبرت زملاءها خارجين على هذه القواعد!! فكتبتُ بحوثاً في مناقشة رأيها، وتلمّستُ القواعدَ العروضية التي قدّرتُ أنها أقرب إلى السلامة، في موسيقى الشعر الحر والبند، وأودعت هذه البحوث جميعاً كتابي عن (الإيقاع في الشعر العربي: من البيت إلى التفعيلة) يحسن لمتتبعي هذا الفن الرجوع إليه للوقوف على دفاعي عما أثاره الآخرون من نثرية الشعر الحر، وعن بُنوّته للبند.

٢ ـ في تقييم الشعر الحر:

المهم أن موقفي من موسقية الشعر الحر كان يختلف عن مواقف بعض أنصاره في أسرتنا الأدبية، وعن كثير من مواقف خصومه في الأجيال الأخرى، ويتلخص ذلك في النقاط الآتية:

١ ـ إنه شعر عربي من ناحية عروضية، قائم على (الأساس الكمّي) الذي يقوم عليه الشعر العربي، ولا يختلف شعر التفعيلة عن العمود الشعري إلاّ في (حرّية) طول الشطر، فقد يكون الشطر تفعيلةً واحدة، أو اثنتين، أو ثلاثاً، أو أكثر، بينما يلتزم العمود الشعري بعدد محدَّد من التفعيلات، وهو في هذا يقوم على نفس الأساس الموسيقي الذي يقوم عليه البند من الحرّية في عدد التفعيلات.

٢ ـ أنه من الناحية الموسيقية يصلح للملحمة أو للمسرحية الشعرية، كما فعل عبد الرحمن الشرقاوي في مسرحيتي (ثأر الله: الحسين ثائراً.. والحسين شهيداً) وكما فعل صلاح عبد الصبور في (مأساة الحلاّج) ولعل اختيار علي باكثير لترجمة مسرحية شكسبير بهذا الشعر كان اختياراً موفقاً، وفي رأيي أنّ الشعر الحر

أكثر صلاحية للحوار في المسرح الشعري من عمود الشعر، الذي استعمله شوقي وتابعه عزيز أباظة في مسرحياتهما.

أمّا أن يكون الشعر الحر (بديلاً) عن شعرنا العربي في غير ذلك ـ كما هو حاصل الآن عند أجيالنا الصاعدة ـ فهذا ما لا أتفق فيه مع أنصاره، فموسيقى الشعر العربي متنوعة بحسب تنوع أبحرها الستة عشر ومجزوءاتها التي تزيد على ستين نوعاً، وقد اختُصِرتْ هذه الأنواعُ الستون في شعر التفعيلة إلى سبعة أنواع، لأنه ما دامت الوحدة الموسيقية فيه قائمة على تكرار التفعيلة لا الشطر فإنه ينحصر في سبعة أنواع هي: تكرار متفاعلن، أو مفاعلتن، أو مستفعلن، أو مفاعيلن، أو فاعلاتن، أو فعولن، أو فاعلن ـ وهذه هي (وحدات الموسيقى العربية) ـ أما (مفعولاتُ) فهي تفعيلة مصطنعة، حتى في عمود الشعر، خلقتها دوائر الخليل، ليس لها وجود في الشعر العربي، ولم أرَ شاعراً حرّاً كتب شعره على أساس تكرارها.

واقتصار الشعر العربي الحديث على هذه الأنماط الموسيقية السبعة تفريط وخسارة لموسيقانا الشعرية المتنوعة التي تزيد على الستين نمطاً.

٣ ـ إن نشوء الموسيقى الشعرية، من تكرار تفعيلة بعينها، في قصيدة طويلة أوقع نماذج هذا الشعر في رتوبٍ مملّ، وتشابه نغمي، جعله أقرب إلى وقع أرجل الخيل، وهي تجر العربات ـ كما تصوّرتْ ذلك نازك الملائكة، وهي تكتب أول قصيدة حرّة من الخبب ـ ولعل شعراءنا القدماء حين سمّوا (المتدارك): خَبَباً، ووزنه من هذه التفعيلة المتكررة: (فعلن فعلن فعلن فعلن) لاحظوا هذا التشابه الصوتي بينه وبين وقعِ أرجل الخيل في عدوها، فالخَبَب لغة: ضربٌ من عدو الفرس.

وهذا ما يفسّر لنا تشابه الجمل الشعرية في تجارب الشباب ـ أداءً وموسيقى ـ وما يقال من أن التنوّع يحصل من (الحرية) في طول الشطر، لا أساس له من واقع هذه التجارب، ما زالت وحدتها الموسيقية قائمة على (تكرار التفعيلة) لا على الشطر، طويلاً كان أم قصيراً.

٤ ـ إن السيّاب، وبعده أدونيس، بذلاً جهداً ملحوظاً للخروج من هذا

الرتوب القائم على التفعيلات المتشابهة، وذلك بمزج تفعيلتين غير متشابهتين، للخروج عن رتوب التفعيلة الواحدة، كما هو واقع في عمود الشعر في بحور البسيط، والطويل، والخفيف، والمديد، والمنسرح وما شابهها من الأبحر ذات التفعيلتين.

فكتب السيّابُ خمسَ محاولاتٍ في البسيط، وواحدةً في الطويل، توجد بسيطيّاته في قصيدة (بور سعيد) من ديوان أنشودة المطر، و(افياء جيكور) من المعبد الغريق، وقطعة من (سِفر أيوب) في ديوان منزل الاقنان، و(يا غربة الروح) من ديوان شناشيل و(رسالة) من ديوان اقبال، أما تجربته في الطويل فهي من ديوان شناشيل بعنوان (ها ها هوه)، وقد استعرضتُ هذه القصائد في فصل (الشعر الحر والأبحر الممزوجة) من كتابي عن (الإيقاع) توصلتُ فيها إلى فشل هذه المحاولات السيّابية؛ لأن الجيد فيها هو تكرار أشطر البسيط ـ تاماً أو مجزوءاً ـ وفي هذا عودة إلى الشعر العمودي بشكله (المرسل)، أما الأشطر التي خرج فيها عن الوحدة الموسيقية الممزوجة للبسيط من (مستفعلن فاعلن) معاً، فإنه كان فيها مضطربَ الإيقاع، على ندرة هذا الخروج، هو لم يأت به في كل هذه القصائد غير خمس مرات، وقد خرج في بعضها عن البسيط إلى السريع كما شرحتُ ذلك في الأيقاع ص ٢٠٢ ـ ٢٠٩، لذلك لم تأخذ محاولات السياب أثرها في شعر الشباب إلا نادراً جداً.

أما أدونيس فقد كتب مطولته (هذا هو اسم) على الخفيف، ولم يحصل له ما حصل للسياب من اضطراب الإيقاع، ولكن كان نصيبُها نصيبَ بسيطيّات السياب من عدم شيوعها في شعر مقلّديه، وأحسب أن ذلك ناشىء من صعوبة أدائها الموسيقي، لأنه احتفظ بوحدة موسيقى الخفيف المؤلفة من ثلاث تفعيلات (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) واضطر لتكرار هذه الوحدة كاملةً على طول القصيدة، من أجل أن يحتفظ بإيقاع الخفيف، ولكنه وجد نفسه أخيراً أمام أمرين غريبين:

أ ـ فأمّا أن يقف بعبارته الشعرية، حيث تقف وحدة الخفيف الثلاثية، وحينئذ يعود إلى نماذج (الشعر المرسل) ـ وهي أشطر كاملة غير مقفّاة ـ وتلك

محاولات قديمة كتب فيها الزهاوي، ومحمد فريد أبو حديد في ترجمته لـ(يوليوس قيصر) في الثلاثينات، وكتب فيها طه حسين على المديد في فصل (ذو الجناحين) من على هامش السيرة، والجواهري على الخفيف مطولاته: عالم الغد، وأفروديت وأنيتا، وغيرهم.

ب ـ وأما ألا يقف بعبارته حيث وقف شطر الخفيف، فيقع في (التدوير) المُمِلّ، وهذا ما حدث، الأمر الذي جعله يفصل بين عباراته بخطوط مائلة، لأنه فقد الوقفات الطبيعية في (عروض) الخفيف و(ضربه) واستمر في تدوير الأشطر بعضها على بعض، وهذا (التدوير) مستساغ في الأذن العربية إذا وقع بين شطرين، وهو مع ذلك يحتاج إلى قوة في الشاعرية ـ كما يقول ابن رشيق في العمدة ـ فكيف به إذا وقع بين عشرين شطراً أو أكثر، لذلك لم تجد محاولة أدونيس من يجاريها حتى من غُلاةِ مقلّديه.

٥ ـ إن الإدعاء بأن الشعر الحر ـ لما فيه من حرية طول الشطر ـ يساعد الشاعر على صياغة عبارته بمقدار فكرته، دون أن تضطره صرامةُ الشطرِ المحدّدِ الطول، إلى التنقّص أو التزيّد في فكرته، هذا الإدعاء في الحقيقة نَظَريٌّ بحت، وليس عمليّاً، فما أكثر (الحشو) في الشعر الحديث، وما أقلّه في شعر المجيدين من أصحاب عمود الشعر.

على أن (الحشو) الذي يضطر إليه الشاعر أحياناً، يضيف به ـ إذا كان شاعراً ـ إلى صورته الشعرية ظِلالاً تزيد من عمق فكرته، وتصقل من رونق صورته.

فبدوي الجبل حين تعرض للحدود المصطنعة بين العراق والشام في قوله:

يا بُناةَ الحدودِ لا تعرفُ الصحراءُ ـ في زحمة الأعاصير ـ حَدّا

لم تكن (زحمة الأعاصير) هذه حشوةً قلقةً، في فكرته التي أراد، بل أعطت للصورة بُعداً آخر، لم يعطه لها دعاؤه وتضرّعُهُ المصطنع في قوله الآخر:

ليس بين العراق والشام حدٌّ (هدم الله ما بنوا من حدود)

على أن لغة الشعر لا تقيم وزناً لهذه (السنتمترية) المطلوبة بين العبارة والفكرة، وإلّا فليكتب الشاعر نثراً ـ لأنه أقدَرُ على ذلك ـ ويُرِحْ نفسه من لغة الشعر حتى في مقياسه الحر.

٦ ـ إني أعترف أن شعر التفعيلة أكثر يسراً وسهولةً من عمود شعرنا العربي، ولكن من قال إن (الفن) يتطلب اليسر والسهولة، ليظل الشعر وحده ـ من بين سائر الفنون ـ يُكتَبُ ـ كما يُشرَب الشاي ـ على طاولة مقهى في جلسة سمرٍ ناعمة!!

الشعر مزيج خاص من اللغة، والفكر، والموسيقى. والبراعة أن تبذل جهدك في تجانس هذا المزيج الثلاثي، بحيث يستلذّه شاربوه، وكما تكون معاناتك وأنت تختار (المفردة) الغضّة من بين أطنان المفردات الجافّة، وتقتبس الفكرة الحية من بين آلاف الفِكَر الميتة، فيجب أن تكون في نفس المعاناة، وأنت تختار الموسيقى الصعبة، التي تشدّ آذان مستمعيك حين تقدّم لهم جديدك الذي تريد له أن يكون (بديلاً) لمألوفٍ موسيقيٍّ وُلِد مع الأذن العربية المرهفة، ونشأ في حضن اللغة الشاعرة.

يقول الشاعر الإنجليزي (ت إليوت) في محاضرة له عن موسيقى الشعر: «إن الشاعر الرديء هو وحده الذي يرحب بالشعر الحر كوسيلة للخلاص من الشكل».. ثم يقول: «وأنا أعتقد أن كل لغة ـ ما دامت هي نفس اللغة ـ تفرض قوانينها وحدودها، ولا تسمح إلّا بالإجازات التي تناسب طبيعتها، وأنها تملي ما يناسبها من إيقاعات الكلام، وأنماط الصوت».

ويقول العالم اللغوي الأمريكي إدوار سابير ـ بعد أن تعرّض للنُظُم العروضية في كلٍ من اللغة اللاتينية، واليونانية، والإنجليزية، والفرنسية، والصينية ـ: «وكل نظام من هذه النظم الإيقاعية ينبع من العادة الحَرَكيّة، غير الواعية، في اللغة، صادرة من شِفاه الشعب» ثم يُعقّب: «ادرسْ بعنايةٍ النظامَ الصوتي للغةٍ مّا، وعلى الخصوص صفاته الحركية، تعرف أيَّ نوعٍ من النَظْمِ قد أوجَدتْ، أو كان ينبغي أن تُوجِد» [انظر: الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ص٢١ ـ ٢٢].

وإذا كان إيقاع شعرنا العربي نابعاً من الطبيعة الصوتية للغتنا العربية ـ كما هو الشأنُ في أعاريض اللغات الأخرى ـ وكانت أذانُنا قد أَلِفَتْ هذه الموسيقى طيلة عمر شعرنا العربي، فاعتقد أن الخروج على النظام العروضي المألوف، يقع في آذان مستمعيه وقوع (اللكنة) أو تكلّف الفصاحة التي نحسها في أصوات اللغة العربية ممن ينطق بها من أبناء اللغات الأخرى.

والآن ـ وقد مرّ على طغيان الشعر الحر على وسائل النشر العربية ما يقرب من خمسين عاماً ـ هل استطاعت موسيقاه الشعرية أن تنقل جمهورها العربي من الإعجاب بموسيقى الشطرين إلى الإعجاب بموسيقى التفعيلة، كما استطاعت المدرسة الموسيقية الحديثة أن تنقل آذان المستمعين العرب من (عبده الحمولي) وسلّمه الموسيقي، إلى عبد الوهاب وسلّم مدرسته المتطورة؟!
أنا أتحدّىٰ.. والكرة الآن في ملعب إعلامنا العربي الذي سيطر عليه هَوَس الحداثة.

٧ ـ على أن جماعة هذا الشعر، بالإضافة إلى ضعف الموسيقى الشعرية في تفعيلاتهم، فإنهم أثقلوا تجاربهم هذه بمدارس غريبة على حِسِّنا وفهمنا الأدبي للشعر، كـ(السرياليزم) والعلاقات اللغوية الغريبة في تركيب الجملة الشعرية، وضعف الحس الموسيقي عند شبابنا، حتى في مقاطع التفعيلة الواحدة، ثم ما يسمّىٰ بـ(قصيدة النثر) وأمثالها من (صرعات)، وأصبح هذا الركام الهائل في غرابته على لغتنا، وضبابيته في أفهامنا، هو (الزادَ) الذي يُغذّي ناشئتَنا الجديدة، لعدم وجود (زادٍ) آخر تحت تصرف إعلامنا العربي الذي سيطر عليه (عسكر) الثقافة الحديثة، والشعر ـ كما نعرف ـ عملية تقليد ومحاكاة فإذا كانت الصور التي تقلّدها (الناشئة) هو هذا الغثاء المغتر بادعاء الحداثة، فلك أن تقدْر مستقبل ثقافتنا الشعرية.

وفي الديوان قصائد عبّرتُ فيها عن ألمي مما يؤول إليه مستقبل أجيالنا الشعرية مثل: (إلى الطليعة الشاعرة) و(مربدان) و(حارس اللغة) وغيرها.

ولكن مَا هيَ الحدَاثةُ في الشعر العَربي؟

حينما أعطيتُ رأيي، كقارىءٍ ومتذوّقٍ لموسيقى الشعر الحر، فليس معنى ذلك أني أريد أن أرسم صورةً لما ينبغي أن يكون عليه الشعر الحديث، فليس ذلك من وظيفتي ولا من قدرتي، بل ولا من وظيفة أو قدرة غيري من الشعراء المعاصرين، فليس فينا من يستطيع أن يرسم للأجيال الصاعدة مُخَطّطاً يجب أن تسلكه ليكون شعرهم حديثاً!!

ذلك لأن الحداثة أمر تتعاون عليه أسباب مختلفة، هي خارج مقدرة الفرد ـ شاعراً كان أو ناقداً ـ وهذه الأسباب تعود في طبيعتها إلى تطوّر المجتمع العربي، وتطور ثقافته، واتصاله بالثقافات المحيطة به، وإلى قدرته على الاستفادة من هذا الاتصال، ثم براعته في عملية المزج الدقيقة بين (مُستَورَدِهِ) و(موروثه)، وإلى تهيأة التربة التي يملكها وصلاحيتها لتقبّل الغراس الجديدة، وأمثال ذلك من عوامل تقتضيها طبيعة تطوّر الثقافات بتطور مجتمعاتها.

وكل ما يملكه الفرد المتذوّق، أو الجمهور المتلقّي، هو الانفعال المُعجَب بثمار هذا الغرس الجديد، أو الإباء النافر عن تلقّيه بالقبول.

وليست (الحداثة) و(التقليد) وليدة عصرنا الذي نعيش، بل هي موجودة في كل عصور أدبنا العربي، وبخاصّةٍ بعد اتصال هذا الأدب بآداب الأمم الأخرى، بعد الفتح الإسلامي، وخروجه من عزلته في جزيرته العربية الضيّقة، إلى الآفاق الرحبة في هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف، والمتعدد الثقافات، وإلّا لبقي أدبنا وشعرنا حيث كان الأدب الجاهلي وشعره. وأكبر دليل على تطوّر شعرنا العربي، وتأثره بالآداب الأخرى على اختلاف عصوره، أنّنا لو وضعنا مجموعةً من

قصائد هذا الشعر منتقاةٍ من أزمنة مختلفة، ولكنها غُفلٌ من أسماء شعرائها، وعرضناها على متتبّع لهذا الشعر، دون أن يكون مسبوقاً بها، لاستطاع أن ينسب كلّ قصيدة إلى عصرها الذي ولدت فيه: جاهليّاً، أو إسلامياً، أو عبّاسياً، أو أندلسياً، أو نتاجاً لفترة مظلمة، أو وليداً لنهضة حديثة، مع أنها جميعاً مكتوبة بلغة واحدة، ومسكوبة بقالب موسيقي واحد.

فالمفردات التي تتألف منها القصيدة، وموسيقاها الداخلية والخارجية، وترف الجملة الشعرية وخشونتها وتركيب القصيدة وتدرّجها، وفكرتها وأغراضها، وأساليبها البلاغية ورموزها، وثقافتها العامة جملةً، كل ذلك وغيره يشير إلى عصر الشاعر وبيئته، وانفتاحه الفكري على معرفة عصره، فالشعر ـ بشكله ومضمونه ـ نتاجُ قراءاتِ الشاعر وتطلّعاتِه، يَهضِمُها في فترةٍ مّا لتتمثّل في موهبته، بعد ذلك، (تجربةً جديدة)، يؤثّر في صقلِها وإبداعها كلُّ ما غذّىٰ به قريحته من إبداعات الآخرين، وتجاربهم، وقواميسهم الشعرية المختلفة، وكل ما استطاع هو أن يهضمه من ثقافات عصره المتنوعة.

لهذا ومثله أخذ نقّادنا الأوائل على مثل أبي تمّام، غرابةَ مفردات هذا البيت على عصره العبّاسي الذي يعيش ترف المفردة الشعرية والجملة المموسقة:

يعيش بمَـوْماةٍ، ويمسي بغيـرها   جحيشاً، ويعرروي ظهور المهالِك

فلكل عصر مُعجَمُه الشعريّ الخاص، وطريقةُ تناوله للمعنى، وأسلوبُه، ومجازاتُه، ورموزُه، وتخيّله، وحِسُّه الشعري العام.

ولو أنّكَ أخذتَ إحدى قصائد عمر بن أبي ربيعة ـ وأنت تعرف أنّ مضامينَه واهتماماته وانشغالَهُ العام بالمرأة لا يختلف كثيراً عن بعض أدوار شاعر (طفولة نهد)، ثم دسستَها ـ مازحاً ـ بين قصائد هذا الديوان، لأخرجها منه حتى المشرفُ على صَفِّ حروفِه!!

وكما يوصف بشّار، وأبو نواس، ومسلم بن الوليد بـ(الحداثة) في عصرهم، يوصف كذلك غيرهم بـ(التقليد)، وكما يتهم أبو تمام، من قبل نقّاد عصره، بأنه: (كسر عمود الشعر العربي) لأنه لم يسلك في تركيب قصيدته مسالِكَ جيله من

(الأصول التقليدية) في بناء القصيدة، كذلك يوجد إلى جواره محافظون تقليديون لا يمكن أنْ يفرّطوا بتراث عمودهم الشعري.

وكما يوجد اليوم من يعسر عليه فهم أسلوب سعيد عقل، أو أدونيس، يوجد بالأمس من يقول لأبي تمام: (لِمَ لا تقول ما يُفهَم) ولا جواب عند أبي تمام غير ما هو عند أدونيس: (ولِمَ لا تفهم ما يقال؟).

فالحداثة إذن، والتقليد، والتحفّظ، سماتٌ ليست وقفاً على هذا الجيل الذي نعاصِر، وإنما هي سمات كل جيلٍ لا بد له أن يأخذ بأسباب التطور والتجديد، ولسنا نأخذ على جيل الشباب أنه يحاول (التحديث) في أسلوبه، وفكره، وبناء قصيدته، وإنما نأخذ عليه تنكّره لـ(ثوابت) لغته وأدبه، وأنه تركها وراء ظهره، وهو يحاول هذا (التَحوّل) المطلوب. فبدا وكأنه يزرع (الرزّ) في صخور الجبال، أو (الزيتون) في مستنقع الأهوار!!

لقد كسر أبو تمام عمود الشعر، بعد أن تكسّرت على رأسه كل أعمدة ليختار منها (حماستَه)، وسَخِر أبو نواس من كل (واقفٍ على رسمٍ درس) بعد أن أخذ بنصيحة (والِبة) فحفظ كل ما قيل من هذه الرسوم الدوارس، أمّا جيلنا الذي يحاول تحديث شعرنا العربي فإنّه لم يعرفْ من هذا الذي يحاول تحديثه، غير ما هو مطلوب في ملخّصات امتحانه بكلية الآداب، وهو ـ في نظره ـ كثير!!

لقد سار جيل (الروّاد) الذي فتح لهؤلاء المحدثين طريقَ (التفعيلة) على نفس الخطوات التي سار فيها النواسيّ وأبو تمّام، فبدر شاكر السيّاب، ونازك الملائكة، وأدونيس، ونزار قباني، والفيتوري، وخليل حاوي، وحجازي، وعبد الصبور، وأضرابهم من رادة التجديد في شعرنا العربي، لم يقيموا جديدهم على الفراغ، بل خبروا لغتَهم وأساليبها، وكتبوا فيها كل تجاربهم الأولى، ثم اجتهدوا في الجديد الذي أرادوه، واختلف الناس حولهم في تقييم ما أبدعوه.

أما مقلّدو هؤلاء الرادة من راكبي (الموجة الحديثة) التي تطغى على صحفنا اليوم، فلم يجعلوا من هؤلاء الرادة قدوتَهم في (التحديث) الذي أرادوه، فنشأوا

من غير جذورٍ تعصم تجاربَهم من عَصفِ الرياح، وتعطي لغراسهم نضارةَ لغتهم الشاعرة.

الحداثة في الشعر ليس في تجديد (القالب الموسيقي) الذي تسكب فيه هذه الأجيال ما تدعي له الحداثة، فالشعر القائم على (التفعيلة) نشأ في قروننا المظلمة، وعرفناه منذ وجد (البند) في أواسط القرن الحادي عشر، واستمر أكثر من ثلاثة قرون، بل ادّعىٰ بعضُ مَن كتب فيه: أن ابن دريد (٣٢١ هـ) هو أول من كتب فيه، وإن أنكر الزهاوي ذلك بحجة أن (البند) فارسي الأصل. [انظر: البند لعبد الكريم الدجيلي ص م].

بل حتى (القصيدة المدوَّرة) التي أحدثها أدونيس يوجد ما يماثلها مما يسميه أبو العلاء المعري بـ(الأغرام) [انظر: الفصول والغايات ٤٤٦] فيقول: «وكان بعض المتأخرين يزعم أن الأغرام: أن يتم وزن البيت، ولا تتم الكلمة وهذا لا يعرف في شعر العرب، وإنما يتعمده المحدثون كقول القائل:

أبا بكرٍ لقد جاءتْ لكَ من يحيى بن منصو
رِ والكأسُ فخذها منـ ـه صِرفاً غيرَ ممزو
جةٍ جنّبك اللّهُ أبا بكرٍ من السّو»

ومثل هذا نسب ابنُ خلّكان له أبياتاً أخرى [١٤٣/٢] ولكن هذه التجارب لم تجد من يقلّدها لأنها حداثة في الشكل دون المضمون، وقد حدث تكسير (الأشكال الموسيقية) في أواخر العصر العبّاسي فيما كان يسمّىٰ بـ(القوما) والـ(كان وكان) و(الدوبيت) وأمثالها مما لم يستمر طويلاً لنفس السبب، بل حتى (الموشحات الأندلسية) عاشت فترةً زمنية طويلة، تُمِدُّ شعرَنا العربي بجديدٍ من أشكالها الموسيقية، ولكنها حين خلت من (المضمون الجديد) نَكَصَتْ، وبقي عمود الشعر هو (الصارية) المناسبة لأشرعة التجديد في شعرنا العربي.

أنا من المعجبين جداً برائد هذه الموجة (أدونيس) وبثقافته الواسعة، وقدرته على التجديد، وقد كتبتُ مرةً للموسم الثقافي لجمعية الرابطة في النجف، محاضرةً عن (ظاهرة التدوير في القصيدة المعاصرة) نشرت في مجلة الرابطة،

رأيتُ فيها أن قصيدة (هذا هو اسمي) كان من الممكن أن تكون (معلّقة الشعر الحديث) لو كانت العلاقات اللغوية بينها وبين قرّائها على مستوى ما اعتادته الأذن العربية من علائق، وإن أخذتُ عليه فيها أنّ (التدوير) ظاهرة (وظيفية) تقتضيها طول عبارة الشاعر أحياناً بما لا يكفي فيها الشطر أو البيت، ولكن أدونيس جعلها (غاية) وليست وسيلة، فليس في عباراتنا الشعرية ما يمكن أن يمتد على مساحة عشرين شطراً أو أكثر.

المهم أن (الحداثة) والتجديد لا يمكن أن تبنىٰ على فراغ، فبمقدار ما يكون التحديث مطلوباً، فإن مراعاة ثوابت الشعر العربي في اللغة، والأسلوب، والموسيقى مطلوبة أيضاً، ولا يمكن لمجدّدٍ عربي أن يتجاهل ذلك، وإلاّ فهو يكتب لعربٍ لم يوجدوا بعدُ.

وأذكر أني قلتُ مرةً عن تمزّق هذا الجيل وضَياعِهِ في (حداثةٍ) لم يأخذ لها أُهبتَها:

في كل يومٍ من (جديدِكَ) صورةٌ ... شوهاء زوّقها الغرورُ وورّدا
أعطيتها (لَقَباً) وقلتَ لناظرٍ ... متحيِّرٍ فيها: تَجَاوَزَكَ المدىٰ!!
أَحَسِبتَ أنّ (رَطانةً) تلهو بها ... أدبٌ يُعِدّكَ أن تكون (مُجدِّدا)
وتظنّ أن (رُؤىً) غِلاظاً حولها ... تحمي غروركَ أن يظلّ (مُقلِّدا)
مهلاً فلستَ ببالغٍ قِمَمَ المنىٰ ... ويداكَ من شمعٍ. وريشُكَ من مُدىٰ!!
جَدِّدْ إذا اسطعتَ الجديد بفكرةٍ ... تبنيكَ رَخْواً، أو تقيمُكَ مُقْعَدا
واكتب جديدك في قشيبٍ ناعمٍ ... من نسجِ قومِكَ تلقَهم لك سجّدا
فالنهرُ لا يُعطي النماءَ لنخلةٍ ... حَسِبتْ كرملةِ شاطئيهِ الجلمدا

الشعرُ النجَفي والمُناسَبات

أهمُّ ما يؤخذ على الشعر النجفي غَلَبةُ شعرِ المناسبة عليه، والمناسبات في النجف هي السوق الرائجة لهذا الشعر، تبدأ من ذكرى المولد النبوي، وموالِيد الأئمة، ووفيّاتهم، وتسنّم أحد مراجع الدين لمنصبه، أو قدومه من حج أو سفر، أو وفاته وقيام مرجع آخر، وأمثال ذلك من المناسبات الدينية العامة، وتنتهي بتلك المناسبات المدنية، والخاصة، كوفاة شاعر، أو زعيم، وسقوط وزارة، أو قيام حزب، أو تأسيس جمعية أدبية، أو تهنئة صديق بزواجه أو مولوده، وغير ذلك.

وأنا أعترف ـ من حيث المبدأ ـ بهذا الواقع، واعترف أني شاركت بكثير من هذه المناسبات، بل ربما لم أكن أنشأ وينشأ غيري ـ كما أشرت إلى ذلك سابقاً ـ هذه النشأة الشعرية، لولا هذه المناسبات الكثيرة التي كنا نتابعها، ونتزوّد بنتاجات كبار الشعراء فيها، وكانت هي الهمَّ اليومي الذي تحمله أقدامنا الغضّة، وقلوبنا المتفتحة.

ولكن ما هو عيب المناسبة؟!

أعتقد أن العيب ليس في أن تكون للشعر مناسباته، وهل يتصور أن يقال شعرٌ من دون مناسبة؟ ـ خاصةٍ أو عامة ـ وإنما العيب في (المناسبة) نفسها، وفي استغلال الشاعر لها، أو توظيفها لأهدافه.

لقد مرَّ أدبُنا العربي، في تاريخه الطويل، بأدوار مظلمة، كان الشاعر فيها (يتكسّب) بشعره، وكان لكل حاكم، أو أمير، أو حاجب، أو متموّل، شعراؤه المرتزقون، لا همّ لهم إلاّ انتظار (المناسبة) السعيدة التي يقف فيها أمامه لتهنئته بسفرٍ قدم منه، أو غزوةٍ انتصر فيها، أو حج أدّىٰ فريضته، أو مولودٍ رزق به، أو

امرأة بنىٰ بها، أو دارٍ شيّدها، أو غير ذلك مما يحرّك به أريحيته، فيغدق عليه عطاء، ونظرةٌ عابرة لدواوين الشعراء العرب، حتى الرؤوس منهم ـ كما يسمّيهم مارون عبود ـ كالمتنبي، وأبي تمّام، والبحتري، لا تجد أجود ما لديهم من شعر إلّا و(المناسبة) هي المحرِّك الوحيد لجودته، ولا نستطيع أن نستثني منهم أحداً إلّا نفراً زهدوا في دنياهم ـ وهم قلة ـ أمثال أبي العلاء المعري، على أن له مدائح ومراثي لمن يُجلّهم، لم يكن هدفه منها التكسب والارتزاق، كمدحه للشريفين وأبيهما.

ولم يكن هذا الواقع المؤلم وقفاً على الشعر والشعراء، بل شمل كل حياتنا الثقافية ـ علميةً وأدبية ـ فكانت المؤلفات الضخمة في مكتبتنا العربية، تكتب من أجل التقرّب لهؤلاء السلاطين، وينتفع المؤلف الذي أفنى عمره في كتابه بفُتاتٍ من عطايا هذا الوزير أو ذلك السلطان، وتجد أجود مصادرنا في (فقه اللغة) مثلاً، أطلق عليه اسم لا يمت لموضوعه بصلة، بل لأنّ مؤلّفه (أحمد بن فارس) اللغوي المعروف، كَتَبه للصاحب بن عبّاد وزير البويهيين، فصار الكتاب لا يعرف إلا باسم (الصاحبي)، وأجود ما نعرفه من شروح نهج البلاغة هو شرح ابن أبي الحديد الذي لا يستغني عنه أديب أو مؤرخ، كَتَبه مؤلفه في عشرين مجلداً ليتقرَّب به إلى الوزير ابن العلقمي، بل إنّ أحد فقهائنا العظام لم يجد عنواناً لكتابه في الفقه وأحكام الشريعة إلّا (العقد الطهماسبي) نسبة إلى الشاه (طُهماسِب) أحد ملوك الصفويين، وأمثال ذلك.

واستمرّت هذه الحال قائمةً ما دام المال محصوراً بيد الخليفة، أو السلطان، أو الحاشية، وما دام الشعراء والكتاب بحاجة للعيش والبقاء، حتى إذا غيّرتِ الثورةُ الفرنسية بعضَ مفاهيم هذا الواقع، وتحركت الشعوب تطالب بحقوقها المغتصبة ـ ومنها شعبنا العربي ـ تحلحلتْ الأمور بعض الشيء، فوجد الشاعرُ والمؤلفُ موردَ رزقِهِ بعيداً عن منّة الحاكم أو السلطان، فإذا رأينا شاعراً يستغل المناسبة ليمدح هؤلاء المتمولين أخذنا ذلك عليه، واعتبرناه تكسّباً مذموماً.

وقد أشرتُ إلى هذا التغيير الذي طرأ على حياتنا الأدبية في قصيدة بغداد:

بغدادُ لم يَعُدِ الزمانُ كأمسِهِ ... فِكَراً تُباعُ، وخاطِراً يُسْتَأجَرُ

وهَزيلَ رأيٍ أسْمَنْتَهُ، على الطَوىٰ، قِيَمٌ بمـا يَضْـوىٰ عـليـه مُفكِّـرُ
فَمَضتْ (كـوافيـرٌ) بـريشـةِ شـاعـرٍ كـانتْ تُـزوِّقُ خـدَّهـا فتُـصعَّـرُ
وتَهـرّأتْ لُغـةُ المَفـاخِرِ فـانـطوىٰ (لَـقَبٌ) وأوحَشَ لآبِسِيـهِ مَـفْخَـرُ
بـالأمسِ كان بـكِ الأديبُ، وثغرُهُ أبـداً يُـسبِّـحُ حـاكـمـاً ويُكبِّـرُ
ويَعُـدُّ «رؤيتَـهُ الـتي فـازو بـهـا من أنْعُـمِ اللّهِ الـتي لا تُـكفَـرُ»!!
واليـوم عـادَ وليس غَيـرَ يـراعِـهِ سيفٌ تُـراعُ بـه الـطُغاةُ وتُـذْعَـرُ
وبمـا تهـدَّم مـن بقـايـا روحِـهِ يـبـنـي عـزائـم جـيـلِهِ ويُـعـمِّـرُ

وإذا عـدنا إلى المنـاسبات اليـوم وجدنـاها ـ في الأكثـر ـ تختلف تمامـاً عن (المناسبات) الإرتزاقية التي كان يعيشها الشعر العربي في عصوره المختلفة، وفي (الديوان) قصائد قيلتْ في مناسبات، دينية أو غير دينية، ولكنها (وَظَّفتِ) المناسبةَ للفكـر الذي يحمله الشـاعر، والمـوقف السياسي أو الاجتمـاعي الذي يلتـزم به، تجـد ذلك واضحـاً في قصائـد قيلت في المـولـد النبـوي، أو في الإمـام علي أو الحسين، أو في بعض مراجع الدين، وكان همُّ الشاعر فيها نقدَ الأوضاع القائمة ـ سياسيةً أو دينيـة ـ وفيها من الجـرأة في نقد المجتمـع الديني، ومنـاهج دراستـه، وبعض مراجع الدين فيه، ما لا يمكن أن يصدر من (رجل دينٍ) لا يزال يعتز بأنه واحدٌ من هذا المجتمع.

وعلى سبيـل المثال أذكـر أن الإمام كـاشف الغطاء، حَضَـر مؤتمراً إسـلاميا عقد في باكستان، يوم كانت باكستـان والعراق عضـوين في (حلف بغداد)، وقيـل يـومَها إن هـذا المؤتمر (الإسـلامي) كـان واحـداً من نشـاطـات ذلـك (الحِلف)، فأقيمت حفلات متعدّدة في مدرسته الدينية ترحيبـاً بقدومـه استمرت أسبـوعاً، ولم يكن في نيتي أن أشـارك بهذا التـرحيب، وإن كنت أُجِلُّ الإمـام كاشف الغـطاء، وأرحِّب بمقدمه الكـريم، ولكن ضغوطـاً كثيرة ـ بعضُهـا بإشـارة منه ـ رحمـه الله ـ فرضت عَليَّ المشاركة، فما كـان مني، في اليوم الـرابع، إلاّ أن وجهت للمؤتمـر كـلَّ ما قيـل في نقده، ولم أكتف بـذلك، بـل وجّهتُ نقدي لـلإمـام نفسِـهِ على مشاركته في هذا المؤتمر، وكان مما قلته في ختامها:

أبـا حليمٍ وهــذي نفثـةٌ طَفَحتْ وَدِدتُ قبـل نَشاهـا منـكَ أعتـذِرُ

هـذا الشبـاب وفي دنيـا عـواطفِــهِ عقلٌ. . وفي السود من أوهامِهِ فِكَرُ
حَدِّثْ ـ أبا الكَلِمِ الزاهي ـ فقد ظمئتْ قلوبُهم، واستعادت وَهْجَها الصـورُ
أيامَ كان (لكم) في القـدس مؤتمرٌ رجـعتَ مـنـه وفـي أبــرادِكَ الـعِبَــر

كـانت مواعيـدَ (عرقـوب) وأظرفُهـا إن كذَّبَ السمعَ ـ فيما قلتَه ـ البصر
فهل تجدَّدَ في (كشمير) ما عَرَضت عليـك من بُؤسِهـا أتـرابُهـا الأُخَــر
وهـل وجـدت لنهـرو مـا لسـابقِـهِ بُلفور (وَعْدا) عليـه الصدقُ يـزدهر
يا قاتَلَ اللَّهُ خِذلان الصفـوفِ فكَم يجني التخـاذلُ ما لم يجنِـهِ القَـدَر
وكم تعثَّـر في لَحبِ الطريق (فتىً) ما خانه الدربُ. . لكن خانه النظر!!

وأحدثت القصيدة ضجةً كبيرة في الأوساط الأدبية والسيـاسية يـومئذٍ، وكـان الإمام كاشف الغطاء بالإضافة إلى علمـه وفقهه، شـاعراً وأديبـاً بارعـاً، ونقّاداً من أروع نقدة الشعر، فكـان يقف إذا أعجبه إنشـادُ الشاعـر، تكريمـاً لشعره، ولكنـه تجاهَلَ قصيدتي ـ مع أنها كانت استجابةً لإشارته ـ، وفي اليوم التالي تقـدم شاعـر لم يكن له ذلك المستـوى الشعري، فـإذا بالإمـام يقف تكريمـاً لشعره، وزاد أنـه قال: (هذا الشعر الذي يستحق القيام!!) فعرفت أن نقدي لسماحتـه قد أخـذ من نفسه ـ رحمه الله ـ مأخذه، وتجرّعتُ استهانتـه بي على مضض، وحمدت الله أنّ ردّة فعله لم تصل إلى أبعد من ذلك.

وأنـا الآن أتوكـأ على السـابعـة والستين من عمـري، وقـد عـاصـرتُ ملوك العراق، ورؤساءه، وحكّامه، والمتنفّذين فيه، فلم أمدح أحداً منهم، حتى مراجع الدين، ليس لأنه لا يوجد فيهم من يستحق المـدح، بل لأني كنت أتجنب مـزالق التهم، ولذلك وقفت تكريمي لمن احترم من هؤلاء الـزعماء، ورجـال الدين على الـرثاء فقط، وستجـدون في هذا (الـديوان) قصـائـد الـرثـاء، ولكنكم لن تجـدوا المدائح والتبريكات.

وأكثر جماعتنا في النجف يعرفون أن حياة رجال الدين قـائمة على مُـرتَّباتٍ يخصّصها لهم المرجع الديني مما يرده من الحقوق الشرعيـة ـ وهذ شيء متعـارَفٌ لا يجـد فيه أحـدٌ بأسـاً ـ ولكني دخلت النجف في الحـاديـة عشـرة من عمـري،

وخرجت منها في الثالثة والخمسين، لم أتسلّم مرتّباً من أحد مراجـع الدين، ليس تكبّراً، فقد كنت محتـاجاً، ولكنّي ـ بـاعتباري شـاعراً ـ أخشى أن تكـون لحواشي المرجعية دالّةٌ عليّ، أضطر لأداء ثمنها في إحدى هذه (المناسبات).

وبعد فليس هذا فخراً بسلوكي ـ ففي النجف مثلي كثيرون ـ ولكن أردتُ به الـدفاعَ عن (المنـاسبـة) التي تؤخـذ على الشعـر النجفي، وليس فيهـا من عيـوب المناسبة غير الاسم.

الدِينُ وَالشّعرُ.. وَالغَزل

صادفت أكثرَ من واحدٍ يسألني ـ ولعلّه كان مُتنقِّصاً ـ: كيف أجمع بين كوني رجلَ دينٍ وشاعراً غَزِلاً؟! فأتعجب كيف يرد مثل هذا السؤال في أذهان البعض!! وهل خلقَ الله رجلَ الدين من دون قلب؟! أم هل خلق له قلباً ولكنه من حجر؟!

بل زاد بعضهم فسألني: كيف تجمع بين الدين والشعر؟! متوهّماً أن قوله تعالى: «والشعراء يتّبعهم الغاوون» تستبطن النهي عن قول الشعر، وقد نشر هذان السؤالان في حوار صحفي أجرته معي مجلة (العالم) التي تصدر في لندن، ولها أهتماماتها الدينية.

١ ـ الدين والشعر:

أليس من الغريب أن يضطّر شاعر مسلم للإجابة عن هذه الأسئلة، بعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة من عمر الإسلام وعمر الشعر!! وبعد أن عرف المسلمون جميعاً أن نبيّهم الكريم كان يقول: (إنّ من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة) وأنه كان ينقد الشعر فيقول: أشعر كلمة قالها لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأنّه قال للنابغة الجعدي وهو يستمع لإنشاده:

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه إن يكدّرا

قال ـ ﷺ ـ: «أجدتَ لا يفضض اللهُ فاك»

وإنه ـ ﷺ ـ كان يستمع لإنشاد الخنساء، فيستزيدها قائلاً: «هيه يا خناس» [الاصابة ٨/٦٦].

وأن السيرة تذكر أنه يوم ضويق في (أُحُد) كان يرتجز:

أنا النبي لا كذِبْ أنا ابن عبد المطلبْ

وأن الإسلام ـ هذا الدين الذي يُنسب له التناقض مع الشعر ـ استعان في أيامه الأولى بالشعر والشعراء، فقال ـ ﷺ ـ: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟» فلمّا سمع حسان بن ثابت قول النبي، قال: «أنا لها يا رسول الله»، وحين حَشَدت قريش في حربها الإعلامية مع الرسول وصحبه، شعراءَ مثل (ابن خَطَل) و(ابن حُبَابة)، و(ابن الزِّبعرىٰ) و(هبيرة بن أبي وهب) فالتف الناس حولهم، وهم ينشدون هجاءهم لرسول الله وأصحابه، حَشَد النبيُّ من جانبه حرباً إعلامية مضادّة، من شعراء الأنصار، كحسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، للوقوف بوجه قريش وشعرائها وقال فيهم: «هؤلاء النَفَر أشدُّ على قريش من نَضْحِ النَبل» وقال لحسان بن ثابت يأمره بهجاء قريش: «اهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام» اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والقَ أبا بكر يعلّمك تلك الهَنَات».

وفي أولئك الشعراء من قريش نزل قوله تعالى: ﴿**والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم ترَ أنّهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون..**﴾ وفي هؤلاء النفر الذين هم على قريش أشد من نضح النبل نزل الاستثناءُ منها: ﴿**إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا**﴾ [الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧].

ثم أليس في السيرة أن رسول الله كان ينصب لحسّان بن ثابت منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر، وأنه كان يحسن استماعه، ويجزل ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشد، وأنه أجزل العطاء لكعب بن زهير حين مدحه بلاميته المشهورة، فأعطاه بُردتَه ومائةً من الإبل.

وروي الشعر لكثير من الخلفاء والصحابة والتابعين، حتى نُسِب للإمام علي ديوان من الشعر وإذا لم تكن النسبة صحيحة، ففي كتب السيرة والتاريخ شعر متواتر النسبة إليه، وفي نهج البلاغة شواهد كثيرة، من شعر الشعراء، كان

يستشهد بها الإمام في خطبه، وفي تاريخنا الأدبي آراء نقدية تنسب للإمام في تفضيله بعض الشعراء على بعضٍ، كتفضيله الملك الضّليل (امرى القيس) على من عداه.

وإذا كان بعض هؤلاء (المتفيهقين) يثيرون على الشعر مسألة (التخيُّل) و(المبالغة) و(الكذب) ـ الأبيض طبعاً ـ وغيرها من أدوات الشعر التي تقتضيها طبيعة أساليبه، فإذا عرفنا إقرار الإسلام للشعر، فلا بدّ أنه يُقِرّ أدواتِه ولغتَه الخاصة، ونحن نعلم أن الشعر قائم على الخيال، والمبالغة، والتصرّف بأساليب المجاز والكناية بما يبتعد به كثيراً عما يريده هؤلاء المتفيهقون.

لقد قال النابغة الجعدي ينشد رسول الله قصيدته التي يفتخر فيها بقومه، فشطّ به القولُ وهو يفخر:

علونا السماءَ: مجدُنا وسناؤنا ... وإنا لنبغي بعد ذلك مَظهرا

فغضب النبي ـ ﷺ ـ وقال: أين المظهر يا أبا ليلىٰ؟!

وأدرك النابغةُ شَطَطَه، فأجابه بلباقةٍ واعية، «الجنّةُ بكَ يا رسول الله» وبهذا هدّأ غضب النبي فقال؛ «أجل إن شاء الله».

والإمام الشافعي ـ وهو من أجود الفقهاء افتناناً بالشعر ـ يستعمل نفس التخيل والمبالغة والكذب الأبيض، فيقول عن الأرزاق وحظوظ الناس في اقتناصها بلغة الشعر وأدواته:

الجَدُّ يُدني كلَّ شيء شاسِعٍ ... والجَدُّ يفتح كلَّ بابٍ مُغلَقِ
فإذا سمعتَ بأن مجدوداً حوىٰ ... عوداً، فأورقَ في يديهِ، فصدِّقِ
وإذا سمعتَ بأن محروماً أتىٰ ... ماءً ليشربَه، فجفَّ، فحقّق
وأحق خلق الله بالهمّ امرؤ ... ذو همّةٍ يُبلىٰ برزقٍ ضيّق
ولربما عرضت لنفسي فكرةٌ ... فأودّ منها أنني لم أُخلَقِ

بل حتى الكذب (الأسود) جرى في حضرة الرسول ـ ﷺ ـ من شاعره فلم يقل شيئاً، وتعرفون قصة كعب بن زهير حين توعّده النبي لما نهى أخاه بجيراً عن

الإسلام، وذكر الرسولَ بما يسؤوه، ثم عاد كعب بعد ذلك فمدح الرسول، وذكر أنه توعّده فقال:

أنبئتُ أنْ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ
لا تأخذنّي بأقوال الوشاة فلم أذنب، ولو كثرت فيَّ الأقاويلُ

فلم ينكر عليه النبي ذلك، مع علمه بأنه كاذب، لأن رسول الله لا يمكن أن يتوعده على باطل، وحسّان بن ثابت ـ وهو أحد المشاركين في اتهام عائشة في قضية الإفك ـ قال في قصيدته التي مدح بها أم المؤمنين:

فإن كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتُم فلا رفعتْ سوطي إليَّ أناملي
فإن الذي قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرىء بِيَ ماحِلِ

ـ و(لائط): لازم، و(ماحل) نَمَّام ـ والقضية مشهورة وأبطالها معروفون وحسّان واحد منهم وإنكاره هذا لا يبرؤه من الكَذِب.

٢ ـ الدين والغزل:

وأما الغزل فهو نوع من أنواع الشعر معروف ـ قبل عهد الرسول وبعده ـ وكانت العرب تفتتح مدائحها به، حتى مدائح الرسول ـ ﷺ ـ، وينشد ذلك بمسمع منه، وقصيدة كعب بن زهير لا تُعْرَفُ في تاريخنا الأدبي إلاَّ بـ(قَصيدة بانت سعاد) لأنه كان يتغزل فيها بسُعادِهِ:

بانت سعاد فقلبي اليومَ متبولُ متيّم إثرَها، لم يُفْدَ، مكبولُ

ولم ينحر عليه الرسول غَزَلَه، بل أثابه وأعطاه بُردَتَه، و(تقريرُ) رسول الله ـ ﷺ ـ و(فِعلُه) ثلثا سُنّتِهِ!!

بل إن رسول الله سأل عائشة ـ حين زفَّتْ اليتيمة التي زوّجوها لرجلٍ من الأنصارِ ـ: ما قلتم يا عائشة؟ قالت: سلّمنا، ودعونا بالبركة، ثم انصرفنا. فقال ـ ﷺ ـ: إن الأنصار قوم فيهم غَزَل، ألا قلتم يا عائشة:

أتيناكم أتيناكم فحيّونا نحييكم

ولــولا الــذهــب الأحــمــر مــا حــلت بــواديــكــم
ولــولا الــحــنــطة الــســمــراء مــا ســرّت عــذاريــكــم

[انظر: المغني لابن قدامة ٤٣٤/٧]

والغَـزَل بعد ذلـك ـ إفـرازٌ عن حبٍّ أو تخيّـلِ حب، ليس فيـه مـا لا يقـره الإسـلام، إذا كان خـالياً من المجـون، «أو الإخلال بـالآداب العامـة، أو التشهير بامرأة معروفة من بنات المسلمين.

وما أدري لماذا يكون موقف الرجل المسلم من المرأة، وحبّه لهـا، والتغزل بها، مختلفاً عن موقف نبيّه الكريم، الذي جعل حُبَّه لها (واحداً من ثلاث)، وفي وصفه لهنّ، بـ(القوارير) وفي تسميته لأم المؤمنين عـائشة بـ(الحميـراء) نغمة هي من جرس الغزل، بل أنها ـ رضي الله عنها ـ، وعف عمّن نقل ذلك عنها ـ كـانت تصف بعض تغزّله بها، ولهوه معها، بما لا تستحي كتبُ الحديثِ أنّ تذكره.

ولو كان هذا الحب للمرأة، وإفرازاته الوجدانيـة، مكروهـاً في الدين، فمـا قال سيد شبـاب أهل الجنّـة الحسين بن علي ـ عليه السـلام ـ لمن لامه في حبّـه امرأته:

لــعــمــرُكَ إنــنــي لأُحــبُّ داراً تحــلّ بهــا سكينــةُ والــربــابُ
أحبّهــمــا وأبــذل جُــلَّ مــالــي ولـيس لـلائمي عنـدي عتــاب

وفي دواوين الشعراء من (فقهاء المسلمين) كالشريفين ـ الرضي والمرتضى ـ من القدماء، والسيدين ـ الحبّوبي والطباطبائي ـ من المتأخـرين أجودُ هـذا الغَزَل. بل يحتفظ تاريخنا الأدبي لعروةَ بن أذينة ـ وهو من فقهاء المدينة ـ بلاميّة لا تزال، حتى اليوم، من أروع هذا الغزل الغضّ الذي قلّ نظيره في شعرنا العربي:

إنّ الـتـي زعـمـت فـؤادَكَ مَـلَّهــا خُلِقتْ هواكَ، كما خُلِقتَ هوىً لها
فَبِـكَ الذي زعمت بهـا، وكلاكمـا أبــدىٰ لصـاحبِـهِ الصبابـةَ كلَّهـا
ويَبيتُ بيـن جـوانحي حُبٌّ لـهــا لــو كـان تحتَ فـراشِهـا لأقلّهـا
ولَعمـرُهـا، لـو كـان حبُّـكَ فـوقها يـومـاً ـ وقـد ضَحِيَتْ، إذنْ لأظلّهـا

وإذا وجــدتُ لهـا وَســاوِسَ سَلْوةٍ شَفَــعَ الضميـرُ إلى الفؤاد فَسلَّهـا
بيضـاءُ بـاكَــرَهـا النعيمُ فصــاغهـا بـلبَـاقــةٍ، فــأدقّهــا. . وأجـلَّهـا
لمّـا عَرَضْتُ ـ مُسلِّمـاً ـ لي حاجـةً أخشىٰ صُعوبتَها. . وأرجـو ذُلَّها. .
. . مَنَعَتْ تحيّتَها، فقلت لصاحبي: مــا كـان أكثـرَهـا لنــا. . وأقلَّهـا
فــدَنَـا، وقــال: لعلَّهــا مَعــذورةٌ في بعضِ رِقْبَتِها ـ فقلتُ: لعَلَّها. .

والفقيه العُتبي ـ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ـ كان أحـدَ الفقهاء السبعة المعروفين في المدينة ـ وهم من التابعين ـ قال في امرأة من هُذيل فُتِن بها الناس، ورغبوا فيها خاطبين، ولعلّه كان أحدَهم:

أحبّـكِ حبـاً لـو علمتِ ببعضــه لجُدتِ، ولم يصعب عليك شـديدُ
وحبُّك ـ يـا أم الـوليـد ـ مُــوَلِّهي شهيــدي (أبـو بكـرٍ) فنِعمَ شهيـد
ويعلمُ وجـدي (قـاسمُ بن محمـد) و(عـروةُ) مـا أخفي بكم و(سعيـدُ)
متى تســألي عمّـا أقــول تُخبَّــري فــللّه عــنــدي طـارفٌ وتـليــد

وهؤلاء الـذين استشهد بهم على حبّه لها، هم زمـلاؤه من فقهـاء المـدينـة السبعة: أبو بكر بن عبد الـرحمن بن الحارث بن هشـام، والقاسم بن محمـد بن أبي بكر الصّديق، وعروة بن الزبير بن العوّام، وسعيد بن المسيّب.

ولعلّ أظرفَ ما قرأته في هذا الباب أنّ رجلاً سـأل محمد بن سيـرين، وهو في المسجـد، عن روايـة الشعـر في شهـر رمضــان، ومـا قيـل من أنهـا تنقض الوضوء!! فما كان جواب ابن سيرين له ـ وهو يتهيأ للصلاة ـ إلّا أن أنشده:

نُبِّئتُ أنَّ فتــاةً كنـتُ أخــطبُـهــا عُرقوبُها، مثلُ شهر الصومِ، في الطولِ

ثم قام فأمَّ الناسَ بالصلاة [العمدة ١/ ٣٠].

الشّعرُ والإلتزام

في الخمسينات والستينات، كانت موجة (القومية العربية) على أشدّها، وكان عبد الناصر الزعيم العربيّ الراحل، مِحوَر تطلعات القوميين العرب، في مختلف أقطارهم، وكان لخطاباته وقع السحر على جماهيرنا العربية، وتعتبر تلك الفترة الناصرية هي (الواحة الخضراء) في صحراء العمر الطويل الذي عاشته هذه الأمة، ونبتتْ في تلك الواحة أفكار كثيرة، منها الغِراس المثمرة، ومنها الأعشاب الضّارة، وكان من بين هذه الأفكار، فكرةُ (الالتزام في الأدب)، وقد تبنّت الصحفُ والمجلات الرائجة في تلك الفترة، وبخاصةٍ مجلة (الآداب) اللبنانية، الدعوةَ لهذا الالتزام، وكان هدف الإلحاح في هذه الدعوة واضحاً، هو حشد الطاقات الأدبية والفكرية لخدمة قضايا الأمة، فلا يبقى في الساحة الأدبية شاعر ينصرف إلى (رومانسيته) وأحلامه الذاتية، ولا كاتب يُفكِّر أو ينتج غير ما تريده قضايانا المصيرية. وطبيعي أن فكرة الالتزام هذه لم تنشأ من غير جذور، فقد كانت جذورها تمتد إلى الأربعينات يوم كان سلامة موسى، وجيل الشباب المتأثِّر به، في محافل مصر الأدبية، والمجلات المعنيّة بهمومهم، تطغى عليها معركةُ: (الأدب للأدب.. أم الأدب للحياة؟!) واختار جيل الخمسينات الشقَّ الثاني من هذا الجدل وطوّروه إلى فكرة (الأدب الملتزم).

وقد كان لا بد للفكرة أن تذبل، فقد صَوَّحتِ (الواحةُ الخضراء) ولكنَّ جذورَها لم تمتْ، فقد امتدت لتنجمَ في واحة جديدة هي (الصحوة الإسلامية) المعاصِرة، وبدأنا نسمع بـ(الالتزام الإسلامي) في بعض أجنحتها، ونرى فيه نفسَ الإلحاح الخمسيني، في أن يقف الشاعر، أو الكاتب والمفكر، موهبتَه وانتاجَه في خدمة الدعوة إلى قيام دولتنا الدينية.

وأنـا واحد من هـذه الأمة العـربيـة المسلمـة، وُلِـدتُ (شـاعـراً) في أواخـر الأربعينـات، ورأى الناسُ طفـولةَ شعـره في الخمسينات، وشبـابَه في الستّينـات، وأدركوا كهولتَه حتى التسعينات، ولكنّهم لم يجـدوه تخلّف يومـاً مّا عن المشـاركة في قضايا وطنِهِ، أو أمّته، أو معتقـده، وامتدّت مَنـابتُ شعرِهِ من ظِـلالِ (وَهران) حتى صحـراء (طَبَس)، ولكنـه، مـع ذلـك، كـان في شعـره: يتغـزّل إذا أحبّ، ويضحك إذا داعب، ويبكي إذا فَقَد عـزيزاً، وينتشي إذا سـامَرَ رفيقـاً، ويتألّم إذا جَرَحه صديق، ويفرح إذا ولد له مولود.. فهل يُعتَبر هذا الشاعرُ، في عرف هؤلاء الالتزاميين، مُلتِزماً، أم ماذا؟!

إذا كـان الالتزام في الأدب معنـاه: (الالتزام)، أي أن الشـاعـر أو الكـاتب والمفكر، إذا ارتأىٰ رأياً، أو تبنّىٰ موقفاً سياسيـاً أو اجتماعيـاً، فينبغي له أن يلتـزم به، ويعبّر عنه بكل مـا يعتقد أنـه يقرّبـه من الانتشار، دون أن يحيـد عن التزامـه هـذا، أو يستبدلـه، مراعـاةً لأي ضغطٍ مخيف، أو إغراء مـريـح، فـأنـا مـع هـذا الالتزام، لأنه هو الذي يبنينا أمّةً ذات رسالة وهدف.

أمـا إذا كمان الالتـزام عناه: (التحجيـر) أي أن الشـاعـر أو الكـاتب، حين يلتـزم، يقف كل إنتـاجه على مـا التزم بـه، ولا يحق له أن يكتب شيئـاً ذاتياً، أو وجدانياً، خارج موقفه السياسي أو الاجتمـاعي، فأنـا لست مع هـذا الالتزام، ولا أجـده يحقق لنا أيَّ طمـوح في تطور أدبنـا وفكرنـا، وفي تقدّمنـا كأمّـةٍ أن تلتحق بركب الحضارات المحيطة بها.

الشعرُ وَالإنتماء السّيَاسي

أنا لست سياسيّاً محترفاً، ولم أحاول، طيلة عمري، أن أنتمي إلى أيّ حزبٍ أو تكتّل سياسي ـ دينيّاً كان أو علمانياً ـ ليس ذلك لأني لا أفهم في السياسة ـ كما يقولون ـ فظروفنا، نحن العرب، والواقع الذي تعيشه أمّتنا، جعلت من السياسة خبزَنا اليومي، وفرضتْ على كل واحد منا أن يكون سياسياً رغمَ أنفِه، فأنا أفهم السياسةَ إذن كما يفهمها المحترفون، ولكني أعتقد أن موقفي هذا ينطلق من كوني (شاعراً) يؤمن بحريّته في اختيار مواقفه من القضايا العامة التي تحيط به، وفي طريقة تناوله لهذه المواقف.

والإنتماء السياسي ـ أو هكذا عَوّدتنا صرامةُ الإنتماء في وطننا العربي ـ لا يترك مجالاً لأيّ شاعر يريد أن يعبّر عن مشاعره وأحاسيسه، في قضيّةٍ ما، بالشكل الذي يمليه عليه وجدانُه، لذلك توصّلت، من زمن بعيد، إلى رأي قاطع هو: أن الشاعر العربي، إما أن يكون شاعراً. . أو سياسياً منتمياً، وفكرة وجود (الشاعر المنتمي) أشبه بفكرة وجود بعض الحيوانات الأسطورية، ليس له واقع في عالمنا العربي، وإذا افترضنا وجود ذلك (الشاعر المنتمي)، افترضنا وجودَ مخلوقٍ مشوّه الملامح، لا تستطيع أن تلحقه بـ(الشاعر)، ولا بـ(المنتمي)، لأن الإنتماء يتطلب الخضوع الصارم، الذي نعرفه، لمواقف جهته، فينتقص ذلك من شاعريته بمقدار خضوعه لإنتمائه، والعكس صحيح أيضاً.

وزاد من ترسيخ هذه العقيدة في نفسي تلك التجربة الصغيرة التي رأيت نفسي فيها كشاعر (ضائعاً) بين أفكار وأساليب السياسيين المحترفين، الذين حاولتُ الانسجام في عملهم فلم أفلح، فقد حاولنا ـ ونحن في المنفىٰ ـ مع مجموعة من الأخوة السياسيين، والمثقفين العراقيين، إيجادَ ما سمّيناه: (المتّحد

الديموقراطي العراقي)، مع أننا ـ لاختلاف مشاربنا الفكرية ـ أكّدنا على أن يكون هذا (المتّحد) ـ كما جاء في بيانه ـ «صيغةً تنظيمية يتلاقى عليها الوافدون من مختلف الإتجاهات السياسية والثقافية في المجتمع العراقي» بمعنى أنه ليس (حزباً) ذا (أيديولوجيّة) معيّنة ـ إسلاميةً أو علمانية ـ وليس (جبهةً وطنيّةً) تضمّ أحزاباً تأتلف على هدف معيّن، وتختلف في أهدافها الأخرى، وإنما هو (حركة) تنظيمية، هي أوسع من الحزب المؤدلج، وأضيق من الجبهة المفتوحة، تحاول ـ قدر المستطاع ـ أن تكون ملتقى فكرياً، لا يتعارض في أهدافه بتعارض الوافدين إليه.

ومع ذلك شعرت أنني لا أستطيع الوفاء والالتزام بانتمائي لهذا (المتّحد) اللّاحزبي.

لذلك فضّلت أن أظل حيث أنا، (شاعراً لا منتمياً) أقف مع الجميع.. وأختلف مع الجميع، في حدودٍ تسمح لي بالاحتفاظ بما يمليه عليَّ وجداني الشعري من جهة، والتزامي السياسي والفكري من جهة أخرى، لذلك تجد في قصائد هذا (الديوان) السياسية، مشاعِرَ الوطنية، والعروبة والإسلام، مسكوبةً في إناء من (الديمقراطية) التي أؤمن بأنها الإطار العام لكل هذه المشاعر.

وهذا ـ بلا شك ـ مزيجٌ يصعب على السياسي المحترف أن يتجرّعَه، ولكني مع ذلك، قدّمته للشاربين، فقَبِلَهُ البعضُ، وتجرّعه الآخرون على مَضَض، ويكفيني أنّ هؤلاء المتجرعين، لم يشعروا، بعد بتناوله، بغصّةٍ أو مرارة، ربما كان لصدقي في أدائه مدخلٌ في تقبّله!!

ومع ذلك تبقى (إشكاليّة) الجمع بين الوطنية، والعروبة، والإسلام، وبينها وبين إطارها الديمقراطي، قائمةً في أذهان أكثر السياسيين المحترفين ـ قوميّين، وإسلاميين، وديمقراطيين ـ ولكنها ليست قائمة في ذهني كشاعرٍ عراقي هو: عربي في وجوده ومشاعره، مسلم في هويته ودينه، ديمقراطي في أسلوبه وممارساته. ولا أجد في نفسي أيَّ تعارض في أهداف هذا المزيج، لأني لا أؤمن بالإسلام، أو العروبة، أو الديمقراطية بشكلها (المؤدلج) في أذهان السياسيين المحترفين،

(فالأيديولوجية) التي طرأت على هذه الأصول الطبيعية، هي التي جعلتها تتناقض في أذهان الكثرين.

وقد لا يكون ثقيلاً ـ وأنا أتحدث عن تجربتي الشعرية ـ أن أتحدث لكم عن هذه الأصول في الحدود التي لا أعرف فيها تناقضاً:

أ ـ فالإسلام ـ غير المؤدلج ـ ليس هو (الدولة الدينية) المخيفة، التي تتجمع اليوم عليها كل الخناجر الغريبة، وإنما هو ـ فيما أرى ـ (عقيدة) هذه الأمة، بجميع أقطارها ـ ومنها العراق بعربه وأكراده، وتركمانه، وأقلّياته ـ وهو (التشريع) الذي يخضع له العراقيون والعرب في مختلف معاملاتهم وعلاقاتهم وأحوالهم الشخصية، وهو ـ بعد ذلك ـ (فكرُ) هذه الأمة، وثقافتها التي صاغت شخصية أفرادها في جميع مجالات حياتهم على مدى خمسة عشر قرناً من وجودها كأمّة، وقد استوعبت هذه العقيدة ـ بتشريعاتها وفكرها ـ جميع متطلبات أبناء الديانات الأخرى التي عاشت في ظل الإسلام كلَّ هذه القرون، ورعت حقوقَهم الدينية والمدنية، حتى في العصور التي كانت فيها (دولةً دينية)، فكيف لا تحتويهم، ونحن ندعوها لأن تكون (دولةً مدنية) ذات أسلوب ديمقراطي، تستمد تشريعاتها وقوانينها، من أصول أحكامٍ، وتشريعات، عشنا عليها كلَّ هذه القرون، وساهمت في صياغة شخصيات أفرادنا ومجتمعاتنا ـ مسلمين وغير مسلمين ـ وما أدري لماذا يتنكر القوميّون العرب لهذا الواقع الإسلامي الذي نعيش، فليس في كوننا (عرباً) ما يحملنا على التنكّر لدينٍ في أحضان عروبتنا نشأ وترعرع، وبآداب لغتنا دخل إلى عقول الأمم وقلوبها، وبدماء الشهداء من آبائنا فُرِشتْ له السبلُ في أقاليم الأرض.

ب ـ والعروبة ـ بلغتها، وآدابها، وأعرافها، وتقاليدها، وواقع الصلةِ بين أقطارها شريكةُ هذا الإسلام في صياغة شخصية الفرد العربي، وفي تكوين مجتمعات أقطاره، في وطنه الكبير، وهي عِدلُ الإسلام في بناء تقاليدهم وأعرافهم، على مدى ألفٍ وأربعمائة سنة، فهل يكون غريباً على مواطن عربي يسكن أحدَ أقطار هذه الأمّة، أن يدعوها للتوحّد في دولة حديثة، لها أهمية الدول الكبرى في العالم المحيط بها، في الوقت الذي لا نستغرب فيه من دول (أوروبا)

أن تدعو للتقارب والتوحّد بين أكثر من عشرين دولة لا يجمع بين أقطارها، ما يجمع بيننا، من لغة واحدة، أو ثقافة مشتركة.

وأنا من بين هؤلاء العرب الوحدويين، أفرّق بين (العروبة) كوجود ومشاعر، وبين (القومية) كأديولوجية مستوردة، فهذه (الشوفينية) التي تبنّاها ومارسها بعضُ المتسلطين على الشعب العراقي، هي التي كانت وراءَ تلك المجازر والحروب الطاحنة بين أبناء الشعب الواحد في السبعين سنة الماضية، حتى كأنّ العربيَّ والكرديَّ لم يَعِيشا كل هذه القرون، ومنها القرنان اللذان صارعت فيهما دولتهُم الكبرىٰ، أعني الحملات الصليبية، وكان أبرز قوّاد جيشهم العربي من هؤلاء الأخوة الأكراد العراقيين كصلاح الدين الأيوبي. . وكانت آخر حروب دولتهم الكبرى مع (الصليبية الجديدة) يوم خرجت القبائل العربية والكردية في سنة ١٩١٤ لمحاربة الإنكليز في (الشعيبة)، فكانت القبائل العربية (تهزج): (ثِلْثين الجنّة لهادِينا) فتجيبها أهازيجُ الكرد: (وثِلْث لكاكه أحمد وكْراده) وبذلك تقاسَمَ الوجدانُ الشعبيّ المسلم مساحةَ تلك الجنّة التي وعِدَ بها المجاهدون.

فالعروبة التي أدعو إليها ليست هي تلك (القوميّة الضيّقة) بل هي ذلك الجسدُ الذي كان الإسلامُ روحَه، تتّسع لكل ما يتسع له الإسلام من أخوّةٍ وسماح، وباستطاعتها أن تحميَ لغات وثقافات شركائنا في الوطن العربي، وحقوقهم القومية، بنفس القوة التي تحمي بها العروبةُ لغتَها وثقافتَها وحقوقَها القومية.

جـ ـ أما الديمقراطية: فهي بالإضافة إلى كونها النموذج الأمثل للدولة العصرية، نجد في أدائها وآليتها الوسيلةَ الوحيدة لكل ما يشكو منه المجتمع العراقي، والمجتمعات العربية الأخرى، فليس فيها استئثارٌ بالحكم لفئةٍ دون فئة، ولا حجبُ المواطنة عن مذهب معين، أو قوميّة بذاتها، بل كل المواطنين فيها ـ أحزاباً ومذاهبَ وقوميات ـ متساوون في الحقوق والواجبات، وهم ـ بضمان هذه الديمقراطية ـ متكافئو الفرص للوصول إلى قيادة الدولة ـ كلٌ حسب اجتهاده ـ إلى ما فيه خير الأمة والوطن.

ولا أعتقد أن في الإسلام، أو في العروبة، ما يمنع الديمقراطية ـ باعتبارها

أسلوباً ووسيلة للسلطة ـ من أن تكون هي (الحَكَم) بين الفصائل المتصارعة للوصول إليها، بل أعتقد أنها في بلدٍ كالعراق، عانىٰ ما عانىٰ من تسلّط بعض الفئات على بعض، هي النظامُ الوحيد الذي يكفل لأفراده، وفئاته، وأحزابه، العيشَ المشترك بحرية واطمئنان.

* * *

هذه هي رؤيتي كشاعر عربي مسلم، لهذا المزيج الثلاثي ـ الإسلام العروبة والديمقراطية ـ لا أجد فيها تناقضاً، ما دمتُ في منأى عن الإنتماء السياسي، لهذه الأيديولوجيات المتصارعة، التي تحكم اليوم مَسارَ الفئاتِ المتطاحنة حول مستقبل هذه الأمة.

ولو أن (إخوتنا في العروبة) خفّفوا بعض ما استوردوه من فكر (بسمارك) وغلاة القومية الغربية ـ كما خفّف الغربُ نفسُه الكثير من تطرّف هذا الفكر ـ ولو أنّ إخوتنا في الأسلام، دين التسامح، والاجتهاد والتطور، نظروا إلى مسألة (الحكم) نَظَرَ علماءِ (المشروطة) وتوصلوا إلى ما توصّل إليه الشيخ محمد حسين النائيني في كتابه: (تنبيه الأمة وتنزيه المّلة) من مسألة الحكم في زمن (الغيبة)، لكانت جسور التقارب بين الفئات المتباعدة، كفيلةً بتوحّد عناصر القوة في أمتنا العربية، التي دخلت الآن عصرها الإسرائيلي من أوسع أبوابه. ولأراحتْ شاعراً عربياً مسلماً مثلي من إتهامِهِ بـ(شَعْرَنَةِ) هذا المزيج الفكريّ في موقفه السياسي.

بلودان في ١٨/٧/١٩٩٤ مصطفى جمال الدين

فهرس موسوعة النجف ج٦

جدول الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	الصواب
٨	٤	بتراته	بتراثه
١١	٣	خطأً؟!*	خطأً؟!
١٢	١٢	محتسبين	محتبين
١٣	٥ الحاشية	الكاظمة	الكاظمية
١٤	٥	العاصة	العاصمة
٢٦	١٢ الهامش	فيشبته	فيثبته
٢٦	١٣ الهامش	يشتبه	يثبته
٢٨	٩	يبدل	يبذل
٢٩	١٣	النحفية	النجفية
٢٩	٢١	علمائنا	علماؤنا
٢٩	١ ـ الحاشية	كتـه	كتبه
٣٣	٣	وكوفي ـ إذا	وكوّفني ـ ايّة
٣٩	١١	(وجب)	وحب
٤٤	١٥	باقر	جعفر
٤٥	١	باقر	جعفر
٤٦	٧	العقبة	القبّة
٧٤	٨	ثُمَّ	ثَمَّ
٧٩	١ من الحاشية	حدل	جدل
٨٠	٥ من الحاشية	دي	ذي
٨٣	١٠	العلمّية	العمليّة
٨٨	١٦	تطاله	تطاوله
١٠٣	١٤	الجُوّانية	الجَوّانية
١٠٧	العنوان	النحف	النجف
١٠٧	٢	حيت	حيث
١١٢	٣	أربعة	ثلاثة
١٣٤	٧	الارسر	الدرس وتطويره
١٣٥	١٣ من الحاشية	الشعشعين	المشعشعين
١٥٣	٢٣	قرباع	قرباغ
١٥٦	٣	مقايس	مقابيس
١٦٥	٢٠	المكتـة	المكتبة
١٧١	٢٠	لأنائها	لأبنائها
١٩٠	٦	الا يكون	ان يكون
٢٠٥	٣	لأن	لا أنّ
٢٠٩	١٩	يتجاوزن	يتجاوزون
٢١٠	رقم الصفحة	١١٠	٢١٠

٢١٥	٨	وتحفيظها	وتخفيضها
٢٢٢	١٥	العلميه	العملية
٢٤٨	١٠	متفقة	متفقّه
٢٥١	٢ من الحاشية	جرائهم	جرأهم
٢٥٦	٦	في انس	أنس
٢٥٨	٢٢	للتمطيط	التمطيط
٢٦١	١٧	بخلصوه	يخلّصوه
٢٦٩	٣	التفترازي	التفتازاني
٢٧٠	٢	تحليلة	تحليليّة
٢٧١	١٦	النسويسي	السيّوري
٢٨٩	١٢	مساجد	مسجداً
٢٩٦	٢١	جاد	جواد
٣١٥	٦	جامع المقدمة	جامع المقدمات
٣٢٠	الحاشية	النص الاجتهاد	النص والاجتهاد
٣٢١	٣	مدرستهم	مدرّسهم
٣٢٤	٤	وعمل	وآعمل
٣٢٦	١٩	والمقاهي	
٣٣١	٢٠	الحيث	الحديث
٣٣٦	٤	وغاباته	وغاياته
٣٤٣	٣	الذين	الذي
٣٥٦	١٠ حاشية	الثامن	السابع
٣٥٧	٧	ارتداه عليه	ارتداه
٣٦٤	١ حاشية	مدرسة	مدرسة النجف
٣٦٥	٥ حاشية	تطوّر	وتطوّر
٣٦٧	٢	للمحقق..........	للعلامة الحلي ابو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٦هـ - ١٣٣٥م
٣٩١	٢٢	فقل	فقيل
٣٩٩	٢١	ابن الشيخ	ابن الشيخ علي
٤٠٢	٥	الرضوية	المرتضوية
٤٢٠	٥	داغ)	باغ)
٤٢١	٥	زمني	زمين
٤٢٢	١٦	ينج)	بنج)
٤٢٣	١٨	كالاخواند	كالآخوند
٤٢٤	٤	فاته	وفاته
٤٣٥	٢٣	أسولوي	الموسوي
٤٤٢	٢	بناها	بناءها

